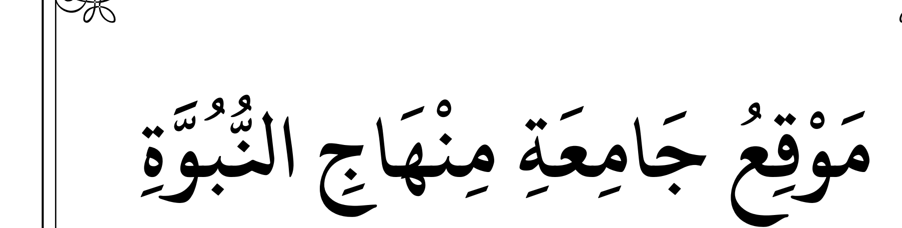


www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْأُولَى)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَهَذِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- مَجَالِسُ فِي أَكْنَافِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَجْتَهِدُ أَنْ تَكُونَ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- مُحَاوَلَةً لِمَزِيدِ تَعَرُّفِي عَلَىٰ نَبِيِّي وَرَسُولِي -بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي وَنَفْسِي ﷺ-.

وَعَسَىٰ اللهُ الْكَرِيمُ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ لِي فِي مَادَّةِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ إِلَّا مَا يَبْذُلُهُ طَالِبُ الْعِلْمِ مِنْ جَمْعٍ وَتَحْرِيرٍ، وَنَظَرٍ وَتَقْرِيرٍ لِمَا أَفَاضَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عَلَىٰ الْمُوَفَّقِينَ مِنْ كُتَّابِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَالْبَاحِثِينَ فِي رِوَايَاتِهَا الْمُمَحِّصِينَ لَهَا.

لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ بِحِكْمَتِهِ، وَقَضَىٰ بِمَشِيئَتِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَنِي فِي هَذَا.

فَأَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ أَنْ يُلْهِمَنِي رُشْدِي، وَأَنْ يَقِيَنِي مِنَ الْخَطَأِ وَالزَّلَلِ، وَأَنْ يَهَبَنِي التَّوْفِيقَ، وَأَنْ يَعْصِمَنِي مِنَ الْخَلَلِ.

أُكَرِّرُ: لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا هِيَ جُهُودُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَثَمَرَاتُ قَرَائِحِهِمْ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَأَجْزَلَ مَثُوبَتَهُمْ-.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَجَالِسُ فِي شَرْحِ كِتَابٍ وَلَا فِي التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَادَّةٌ مُتَّسِعَةٌ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- لِلنَّظَرِ فِي تِلْكَ الْمِسَاحَةِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي شَغَلَتْهَا كِتَابَاتُ الْعُلَمَاءِ فِي السِّيرَةِ، وَالْبَحْثِ فِي مَرْوِيَّاتِهَا.

وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ التَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ، وَالْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ، وَحُسْنَ الْخِتَامِ؛ إِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْمَلِيكُ الْعَلَّامُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

◉◉◉

عِنَايَةُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ

لَمْ تُعْنَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ بِآثَارِ نَبِيِّهَا وَحَيَاتِهِ وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ مِثْلَمَا عُنِيَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ بِنَبِيِّهَا ﷺ.

هَذِهِ الْعِنَايَةُ الَّتِي كَانَ مِنْ آثَارِهَا هَذِهِ الثَّرْوَةُ الطَّائِلَةُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي مَوْلِدِهِ، وَسِيرَتِهِ، وَأَزْوَاجِهِ وَحَيَاتِهِ، وَشَمَائِلِهِ، وَفَضَائِلِهِ، وَخُصُوصِيَّاتِهِ، وَمُعْجِزَاتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَآدَابِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَأَجْدَادِهِ، وَجَدَّاتِهِ، وَنَسَبِهِ مِنْ لَدُنْ جَدِّهِ الْأَعْلَىٰ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَابْنِهِ الذَّبِيحِ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إِلَىٰ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيْهِ، وَحَيَوَاتِ مَنْ بَقِيَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَخَدَمِهِ، وَمَمَالِيكِهِ، وَسَرَارِيهِ، وَمُرْضِعَاتِهِ، وَحَاضِنَاتِهِ.

بَلْ بَلَغَتِ الْعِنَايَةُ بِالْعُلَمَاءِ وَكُتَّابِ السِّيَرِ أَنْ بَحَثُوا فِي نِيَاقِهِ، وَبِغَالِهِ، وَحَمِيرِهِ، وَنِعَالِهِ، وَأَسْمَائِهَا، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ، وَكَتَبُوا عَنْ وَصْفِ نِعَالِهِ وَمِطْهَرَتِهِ، وَأُسْوِكَتِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ غَايَةِ الْحُبِّ وَالْعِنَايَةِ بِآثَارِهِ وَمُخَلَّفَاتِهِ ﷺ.

◉ مَدْلُولُ غَزَارَةِ كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

وَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَسِيَرِ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيُكَوِّنُ مَكْتَبَةً حَافِلَةً قَيِّمَةً تَرْبُوا عَلَىٰ الْأُلُوفِ عَدًّا مِمَّا جَادَتْ بِهِ قَرَائِحُ عُلَمَائِنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ-،

وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَىٰ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَنَبِيُّهُ صِدْقًا؛ فَمَا كَانَ لِمُدَّعٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ هَذَا الْحُبُّ كُلُّهُ، وَلَا هَذِهِ الْعِنَايَةُ كُلُّهَا، وَلَا هَذَا التَّكْرِيمُ وَالتَّعْظِيمُ، وَعَلَىٰ أَنَّ رِسَالَتَهُ هِيَ خَاتِمَةُ الرِّسَالَاتِ وَأَحَقُّهَا بِالْخُلُودِ، وَأَبْقَاهَا عَلَىٰ الزَّمَانِ وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ -بِنَفْسِي وَأَبِي وَأُمِّي هُوَ ﷺ-.

◉◉◉

تَعْرِيفُ السِّيرَةِ لُغَةً وَشَرْعًا

◉ **السِّيرَةُ لُغَةً:**

السِّيرَةُ فِي اللُّغَةِ: السُّنَّةُ، وَقَدْ سَارَتْ وَسِرْتُهَا.

قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

وَالسِّيرَةُ: الطَّرِيقَةُ؛ **يُقَالُ:** سَارَ بِهِمْ سِيرَةً حَسَنَةً.

وَالسِّيرَةُ: الْهَيْئَةُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

وَالسِّيرَةُ أَيْضًا: الضَّرْبُ مِنَ السَّيْرِ، أَيْ؛ النَّوْعُ مِنْهُ.

وَيُلَاحَظُ أَنَّ مِنْ مَعَانِي السِّيرَةِ لُغَةً: السُّنَّةُ.

◉ **السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي الاصْطِلَاحِ:** هِيَ التَّرْجَمَةُ الْمَأْثُورَةُ لِحَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

أَوْ: هِيَ مَا أُثِرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ، أَوْ تَقْرِيرٍ، أَوْ صِفَةٍ خَلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ، أَوْ سِيرَةٍ؛ سَوَاءٌ كَانَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ أَوْ بَعْدَهَا.

وَهَذَا التَّعْرِيفُ ذَكَرَهُ الْمُحَدِّثُونَ لِلسُّنَّةِ، وَهُوَ تَعْرِيفٌ لِلسِّيرَةِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مِنْ مَعَانِي السِّيرَةِ فِي اللُّغَةِ السُّنَّةَ، وَلِأَنَّ التَّعْرِيفَ اشْتَمَلَ عَلَىٰ ذِكْرِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ كُلِّهَا قَبْلَ الْبِعْثَةِ؛ أَيْ: مِنْ وِلَادَتِهِ، وَبَعْدَهَا حَتَّىٰ وَفَاتِهِ ﷺ.

فَالسِّيرَةُ فِي اللُّغَةِ: الطَّرِيقَةُ سَارَ فِي النَّاسِ سِيرَةً حَسَنَةً أَوْ سِيرَةً قَبِيحَةً.

الْجَمْعُ: سِيَرٌ، مِثْلُ: سِدْرَةٌ وَسِدَرٌ.

وَغَلَبَ اسْمُ السِّيرَةِ فِي أَمْثِلَةِ الْفُقَهَاءِ عَلَىٰ الْمَغَازِي؛ فَيَتَّضِحُ لَنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ:

السِّيرَةَ: هِيَ الطَّرِيقَةُ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً.

قَالَ خَالِدُ بْنُ عُتْبَةَ الْهُذَلِيُّ:

فَلَا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

فَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ -أَيْضًا- يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]. **قَالَ الْفَرَّاءُ**: أَيْ طَرِيقَتَهَا؛ نَرُدُّهَا عَصًا كَمَا كَانَتْ.

◉ **الْفَرْقُ بَيْنَ السِّيرَةِ وَالسُّنَّةِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُحَدِّثِينَ:**

إِذَا كَانَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ فِي اصْطِلَاحِ الْمُحَدِّثِينَ: مَا أُثِرَ عَنِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ أَوْ صِفَةٍ خِلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ أَوْ سِيرَةٍ، سَوَاءٌ أَكَانَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ أَمْ بَعْدَهَا، هِيَ مُرَادِفَةٌ لِلْحَدِيثِ عِنْدَ الْأَكْثَرِ؛ إِذَا كَانَ هَذَا تَعْرِيفَ السُّنَّةِ فِي مُصْطَلَحِ الْمُحَدِّثِينَ؛ فَإِنَّ سِيرَتَهُ ﷺ هِيَ السُّنَّةُ، لَكِنَّ عُلَمَاءَ السِّيَرِ نَحَوْا بِهَا النَّاحِيَةَ التَّارِيخِيَّةَ؛ فَبَعُدَتْ عَنِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ حَيْثُ الْوُثُوقِ بِمُحْتَوَيَاتِهَا.

فَهُمْ يَتَسَاهَلُونَ فِي سَرْدِهَا تَسَاهُلَهُمْ فِي التَّارِيخِ، حَتَّىٰ الَّذِينَ عُنُوا مِنْهُمْ بِذِكْرِ الْأَسَانِيدِ لَمْ يُعْنَوْا بِالصَّحِيحِ مِنْهَا، بَلْ جَمَعُوا صَحِيحَ الرِّوَايَاتِ مَعَ ضَعِيفِهَا، وَصَرَّحُوا بِمَنْهَجِهِمْ هَذَا حِينَ قَالُوا: «إِذَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَالْأَحْكَامِ شَدَّدْنَا فِي الْأَسَانِيدِ وَانْتَقَدْنَا فِي الرِّجَالِ، وَإِذَا رَوَيْنَا فِي الْفَضَائِلِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالسِّيَرِ تَسَاهَلْنَا وَتَسَامَحْنَا».

فَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ السِّيرَةَ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ: الطَّرِيقَةُ، سَوَاءٌ كَانَتْ حَسَنَةً أَمْ سَيِّئَةً اسْتَعْمَلَهَا الْإِسْلَامُ فِي مَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ، ثُمَّ خَصَّصَهَا بِطَرِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ حِينَمَا تُطْلَقُ يُرَادُ بِهَا سِيرَةُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ.

وَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ: هِيَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ أَوْ صِفَةٍ خِلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ، سَوَاءٌ أَكَانَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ أَمْ بَعْدَهَا، وَهِيَ بِهَذَا مُرَادِفَةٌ لِلسُّنَّةِ، وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ تَسَاهَلُوا فِي رِوَايَتِهَا، وَتَشَدَّدُوا فِي رِوَايَةِ السُّنَّةِ.

السِّيرَةُ فِي الِاصْطِلَاحِ لَهَا دَلَالَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ قَدْ تَكُونُ مُرَادِفَةً لِمَعْنَىٰ السُّنَّةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ: وَهُوَ مَا أُضِيفَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ أَوْ صِفَةٍ.

كَمَا تَعْنِي السُّنَّةُ: طَرِيقَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهَدْيَهُ؛ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَقِيدَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ، وَهُوَ مِنْ مَعَانِي السِّيرَةِ أَيْضًا.

أَمَّا عُلَمَاءُ التَّارِيخِ، فَالسِّيرَةُ عِنْدَهُمْ: هِيَ أَخْبَارُهُ وَمَغَازِيهِ ﷺ.

هَذِهِ الدَّلَالَاتُ وَالْمَعَانِي لَيْسَتْ مُتَضَادَّةً؛ إِنَّمَا هِيَ مُتَنَوِّعَةٌ وَمُتَكَامِلَةٌ، وَبِهَذَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ:

تَعْرِيفُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ اصْطِلَاحًا: هِيَ دِرَاسَةُ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَارِ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ الْجُمْلَةِ، وَبَيَانُ أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ وَدَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ وَأَحْوَالِ عَصْرِهِ.

فَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَأَحْوَالِ عَصْرِهِ، وَأَخْبَارِ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّ السِّيرَةَ هِيَ فِعْلُهُ ﷺ، وَإِقْرَارُهُ لِفِعْلِ أَصْحَابِهِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ-.

● ● ●



أَهَمِّيَّةُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَعَدَّدَتْ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ -قَدِيمًا وَحَدِيثًا- فِي بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

قَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-: «كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَرَايَاهُ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ».

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «فِي عِلْمِ الْمَغَازِي عِلْمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-: «كَانَ أَبِي يُعَلِّمُنَا مَغَازِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ، فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا».

وَقَالَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَتَعَلَّقُ بِمَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ؛ فَيَجِبُ كَتْبُهَا وَالْحِفْظُ لَهَا».

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَأَصْلُ الْأُصُولِ الْعِلْمُ، وَأَنْفَعُ الْعُلُومِ النَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]».

وَقَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهْبَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّ خَيْرَ مَا يَتَدَارَسُهُ الْمُسْلِمُونَ -وَلَا سِيَّمَا النَّاشِئُونَ وَالْمُتَعَلِّمُونَ وَيُعْنَىٰ بِهِ الْبَاحِثُونَ وَالْكَاتِبُونَ- دِرَاسَةُ السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ؛ إِذْ هِيَ خَيْرُ مُعَلِّمٍ وَمُثَقِّفٍ وَمُهَذِّبٍ وَمُؤَدِّبٍ، وَأَصْلُ مَدْرَسَةٍ تَخَرَّجَ فِيهَا الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الَّذِينَ قَلَّمَا تَجُودُ الدُّنْيَا بِأَمْثَالِهِمْ؛ فَفِيهَا مَا يَنْشُدُهُ الْمُسْلِمُ وَطَالِبُ الْكَمَالِ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا، وَإِيمَانٍ وَاعْتِقَادٍ، وَعِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَآدَابٍ وَأَخْلَاقٍ، وَسِيَاسَةٍ وَكِيَاسَةٍ، وَإِمَامَةٍ وَقِيَادَةٍ، وَعَدْلٍ وَرَحْمَةٍ، وَبُطُولَةٍ وَكِفَاحٍ، وَجِهَادٍ وَاسْتِشْهَادٍ فِي سَبِيلِ الْعَقِيدَةِ وَالشَّرِيعَةِ، وَالْمُثُلِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، وَالْقِيَمِ الْخُلُقِيَّةِ الْفَاضِلَةِ.

وَلَقَدْ كَانَتِ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ مَدْرَسَةً تَخَرَّجَ فِيهَا أَمْثَلُ النَّمَاذِجِ الْبَشَرِيَّةِ؛ وَهُمُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-، فَكَانَ مِنْهُمُ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ، وَالْقَائِدُ الْمُحَنَّكُ، وَالْبَطَلُ الْمِغْوَارُ، وَالسِّيَاسِيُّ الدَّاهِيَةُ، وَالْعَبْقَرِيُّ الْمُلْهَمُ، وَالْعَالِمُ الْعَامِلُ، وَالْفَقِيهُ الْبَارِعُ، وَالْعَاقِلُ الْحَازِمُ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي تَتَفَجَّرُ مِنْ قَلْبِهِ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَالتَّاجِرُ الَّذِي يُحَوِّلُ رِمَالَ الصَّحْرَاءِ ذَهَبًا، وَالزَّارِعُ وَالصَّانِعُ اللَّذَانِ يَرَيَانِ فِي الْعَمَلِ عِبَادَةً، وَالْكَادِحُ الَّذِي يَرَىٰ فِي الِاحْتِطَابِ عَمَلًا شَرِيفًا يَرْتَفِعُ بِهِ عَنِ التَّكَفُّفِ وَالتَّسَوُّلِ، وَالْغَنِيُّ الشَّاكِرُ الَّذِي يَرَىٰ نَفْسَهُ مُسْتَخْلَفًا فِي هَذَا الْمَالِ يُنْفِقُهُ فِي الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، وَالْفَقِيرُ الصَّابِرُ الَّذِي يَحْسَبُهُ مَنْ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ غَنِيًّا مِنَ التَّعَفُّفِ، وَكُلُّ ذَلِكَ

كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ، وَبِهَذَا كَانُوا الْأُمَّةَ الْوَسَطَ، وَكَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».

فَهَذِهِ أَقْوَالُ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْقُدَامَىٰ وَالْمُحْدَثِينَ فِي بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ دِرَاسَةِ سِيرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ.

●●●



أَقْسَامُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِاعْتِبَارِ مَرَاحِلِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ

وَتُقَسَّمُ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مَرَاحِلِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ مِنَ الْبِعْثَةِ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ مِنَ الْهِجْرَةِ حَتَّىٰ الْوَفَاةِ.

- الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّةِ:

يَتَنَاوَلُ تَارِيخَ حَيَاتِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مِنَ الْوِلَادَةِ حَتَّىٰ الْبِعْثَةِ، وَتُمَثِّلُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَتَنَاوَلُ هَذَا الْقِسْمُ حَالَ الْعَرَبِ وَالْجَزِيرَةِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْأَطْوَارَ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ، وَبِنَاءُ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ؛ فَإِنَّهَا بِيئَةُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمُمَهِّدَةُ لَهَا.

وَكَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ هَذَا الْقِسْمُ الْأَحْدَاثَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَوِلَادَتِهِ، وَاسْتِرْضَاعِهِ وَنَشْأَتِهِ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي شَارَكَ فِيهَا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهِيَ فِي هَذَا الْقِسْمِ قَلِيلَةٌ إِذَا قِيسَتْ بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي بَعْدَ الْبَعْثَةِ.

- الْقِسْمُ الثَّانِي: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ مِنْ بَعْدِ الْبِعْثَةِ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ:

وَيَتَنَاوَلُ نُبُوَّتَهُ وَدَعْوَتَهُ ﷺ مِنَ الْبِعْثَةِ وَنُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ فِي غَارِ حِرَاءٍ حَتَّىٰ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَتُمَثِّلُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا، وَيُسَمَّىٰ: «الْعَهْدَ الْمَكِّيَّ»، وَهُوَ عَهْدُ التَّأْسِيسِ وَالدَّعْوَةِ، وَفِيهَا نُزُولُ الْقُرْآنِ الَّذِي قَرَّرَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ وَصِفَاتِ الْبَارِي، وَكَشْفَ الشِّرْكِ، وَالرَّدَّ عَلَىٰ دَعَاوَىٰ الْمُشْرِكِينَ، وَإِثْبَاتَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَالْجَزَاءَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ بِجَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، وَالدَّعْوَةَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالِانْتِهَاءِ عَنِ الْمَسَاوِئِ.

وَفِيهَا الدَّعْوَةُ الْفَرْدِيَّةُ الْمُبَاشِرَةُ، ثُمَّ الدَّعْوَةُ الْعَامَّةُ، وَمَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ، وَاضْطِهَادُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَصَبْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَحَمُّلُهُمُ الْأَذَىٰ، وَهِجْرَتُهُمْ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، وَحِصَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَبَنِي هَاشِمٍ فِي الشِّعْبِ، وَالْعَرْضُ عَلَىٰ الْقَبَائِلِ، وَحَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَبَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْأُولَىٰ، ثُمَّ الثَّانِيَةِ، وَالْهِجْرَةُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

فَهَذَا هُوَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ أَقْسَامِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَارِيخِ حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْبِعْثَةِ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ.

- الْقِسْمُ الثَّالِثُ: تَارِيخُ حَيَاتِهِ ﷺ مِنَ الْهِجْرَةِ حَتَّىٰ الْوَفَاةِ:

وَيَتَنَاوَلُ حَيَاتَهُ ﷺ مِنْ وُصُولِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَىٰ لِلْهِجْرَةِ حَتَّىٰ الْوَفَاةِ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ.

وَتُمَثِّلُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةً، وَيُسَمَّىٰ: «الْعَهْدَ الْمَدَنِيَّ»، وَعَهْدَ الْبِنَاءِ وَالْجِهَادِ وَانْتِشَارِ الدَّعْوَةِ.

سِمَتُهُ الْعَامَّةُ: الْجِهَادُ وَالْغَزَوَاتُ الَّتِي بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ غَزْوَةً، وَالسَّرَايَا وَالْبُعُوثُ الدَّعَوِيَّةُ الَّتِي زَادَتْ عَلَىٰ السَّبْعِينَ سَرِيَّةً وَبَعْثًا؛ حَتَّىٰ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ، وَعَمَّ أَرْجَاءَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نُزُولِ التَّشْرِيعَاتِ الْعِبَادِيَّةِ، وَتَنْظِيمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْإِدَارِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ.

فَهَذِهِ أَقْسَامُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مَرَاحِلِ حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.



أَقْسَامُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِاعْتِبَارِ مَوْضُوعَاتِهَا

وَأَمَّا السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مَوْضُوعَاتِهَا؛ فَتَنْقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الشَّمَائِلُ وَالْأَخْلَاقُ النَّبَوِيَّةُ، وَيَدْخُلُ فِيهَا الْخَصَائِصُ الَّتِي اخْتُصَّ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَائِرِ الرُّسُلِ، وَكَذَا مَا اخْتُصَّ بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ عَنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ، وَمَا اخْتُصَّتْ بِهِ أُمَّتُهُ بِسَبَبِهِ عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ.

وَالشَّمَائِلُ: هِيَ الصِّفَاتُ الْخَلْقِيَّةُ، أَيْ؛ الصِّفَةُ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ طُولُهُ وَهَيْئَتُهُ وَجِسْمُهُ وَلَوْنُهُ، وَكَذَا صِفَةُ جُلُوسِهِ وَمِشْيَتِهِ وَكَلَامِهِ وَنَوْمِهِ وَلِبَاسِهِ.

◉ **فَوَائِدُ دِرَاسَةِ شَمَائِلِ الرَّسُولِ ﷺ:**

وَهَذَا النَّوْعُ تَرْجِعُ فَائِدَةُ دِرَاسَتِهِ إِلَىٰ أُمُورٍ مِنْهَا:

- التَّأَسِّي بِهِ ﷺ فِي هَيْئَةِ جُلُوسِهِ، وَقِيَامِهِ، وَنَوْمِهِ، وَكَلَامِهِ، وَلِبَاسِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

- وَأَيْضًا مَعْرِفَةُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِنَا ﷺ؛ إِذْ جَعَلَهُ اللهُ فِي أَكْمَلِ هَيْئَةٍ، وَأَحْسَنِ صُورَةٍ، وَأَجْمَلِ سَمْتٍ.

- وَمُطَابَقَةُ مَا يَرَىٰ النَّائِمُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِتِلْكَ الصِّفَةِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الرُّوَاةِ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَعَنْ غَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي**».

فَالشَّمَائِلُ: الصِّفَاتُ الْخَلْقِيَّةُ، وَالصِّفَاتُ الْخُلُقِيَّةُ؛ أَي: الْآدَابُ وَالْأَخْلَاقُ الَّتِي تَأَدَّبَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ كَثِيرَةٌ، كَالْكَرَمِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْحَيَاءِ، وَالْعَفْوِ، وَالْحِلْمِ، وَالْيُسْرِ، وَالسَّمَاحَةِ، وَالتَّقْوَىٰ، وَالْبَذْلِ، وَالْعَطَاءِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَالزُّهْدِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ؛ وَهِيَ صِفَاتٌ أَتَتِ الشَّرِيعَةُ بِهَا، وَتَحَلَّىٰ بِهَا رَسُولُنَا ﷺ، وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ دِرَاسَةِ الشَّمَائِلِ، وَهُوَ أَكْثَرُ فَائِدَةً، وَأَوْسَعُ دَائِرَةً فِي التَّأَسِّي وَالِاتِّبَاعِ وَالاقْتِدَاءِ.

وَلَقَدْ سُئِلَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَكَانَ جَوَابُهَا شَامِلًا وَاسِعًا رَغْمَ وَجَازَةِ لَفْظِهِ؛ قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»، كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَعْنَىٰ هَذَا -أَيْ: مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ- أَنَّهُ ﷺ مَهْمَا أَمَرَهُ بِهِ الْقُرْآنُ امْتَثَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ، هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجِبِلِّيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَلَا يَكُونُ عَلَىٰ أَجْمَلَ مِنْهَا.

وَشَرَعَ لَهُ الدِّينَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ؛ فَكَانَ فِيهِ مِنَ الْحَيَاءِ، وَالْكَرَمِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّفْحِ، وَالرَّحْمَةِ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ مَا لَا يُحَدُّ، وَمَا لَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ.

وَقَدْ وَصَفَهُ رَبُّهُ تَعَالَىٰ بِوَصْفٍ هُوَ فَوْقَ كُلِّ وَصْفٍ، وَمَدَحَهُ بِمِدْحَةٍ هِيَ فَوْقَ كُلِّ مِدْحَةٍ؛ فَقَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَالَ الْعَوْفِيُّ: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَيْ: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ دِينٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ»، وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ؛ **وَقَالَ عَطِيَّةُ**: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ أَدَبٍ عَظِيمٍ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

النَّوْعُ الثَّانِي: دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجِزَاتِ:

وَالدَّلَائِلُ: هِيَ الْمُعْجِزَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

وَدَلَائِلُ النُّبُوَّةِ مِنْهَا الْمَعْنَوِيُّ، وَمِنْهَا الْحِسِّيُّ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ، وَيُسَمَّىٰ مُعْجِزَةً وَدَلِيلًا وَبُرْهَانًا وَ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ.

وَالدَّلَائِلُ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ، وَيُجْرِي بَعْضَهَا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ لَيْسَتْ مِنْ كَسْبِهِمْ وَلَا مِنْ قُدْرَاتِهِمُ الذَّاتِيَّةِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَحْضُ فَضْلٍ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، هِيَ هِبَةٌ مِنْهُ؛ لِتَكُونَ تَأْيِيدًا وَتَصْدِيقًا لَهُمْ، وَبَيَانًا لِمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

وَمِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يُؤَيِّدُ الْكَاذِبَ عَلَيْهِ، وَقَدْ بَاءَ بِالْخِزْيِ وَالْخِذْلَانِ كُلُّ مَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ مِنَ الْكَذَّابِينَ، كَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَالْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وَدَلَائِلُ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهَا تَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفِ دَلِيلٍ، بَلْ ذَكَرَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي مُقَدِّمَةِ شَرْحِ صَحِيحِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ أَنَّهَا تَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ دَلِيلٍ.

◉ مَرَاحِلُ وُقُوعِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ:

وَدَلَائِلُ النُّبُوَّةِ جَاءَتْ بِحَسَبِ وُقُوعِهَا عَلَىٰ مَرَاحِلَ:

مَا وَقَعَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، كَبِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَأَخْبَارِ الْكُهَّانِ وَالْجَانِّ، وَتَسْلِيمِ حَجَرٍ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ فِي مَكَّةَ، وَشَقِّ صَدْرِهِ وَهُوَ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ.

مَا وَقَعَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﷺ بَعْدَ الْبِعْثَةِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ نُزُولُ الْوَحْيِ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَكَنُزُولِ الْمَطَرِ بَعْدَ دُعَائِهِ مُبَاشَرَةً، وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَدُعَائِهِ فِي الْمَاءِ الْقَلِيلِ فَيَكُونُ كَثِيرًا، وَحَنِينِ الْجِذْعِ الَّذِي بِمَسْجِدِهِ حِينَمَا تَرَكَ الِاسْتِنَادَ

إِلَيْهِ، وَانْقِيَادِ الْأَشْجَارِ وَالْبَهَائِمِ لِأَمْرِهِ ﷺ، وَكَشَهَادَةِ الذِّئْبِ بِبَعْثَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ نِصْفَيْنِ عِنْدَمَا طَلَبَتْ قُرَيْشٌ آيَةً حَتَّىٰ رَأَوْا ذَلِكَ، وَتَحَقُّقِ وَعْدِ اللهِ لَهُ بِهَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ؛ قَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ -وَهِيَ مَكِّيَّةٌ-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤- ٤٥].

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَرِيشِ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَخْبَرَ ﷺ بِمَصَارِعِ الْقَوْمِ فِي بَدْرٍ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ**» فَمَا جَاوَزَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَصْرَعَهُ.

وَأَخْبَرَ عَنْ مَقْتَلِ أُمَرَاءِ «مُؤْتَةَ» قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْخَبَرُ بِمَقْتَلِهِمْ.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، وَآيَاتِ رِسَالَتِهِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﷺ بَعْدَ الْبِعْثَةِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

مَا وَقَعَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَقَعُ فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ عَنْ فَتْحِ الْحِيرَةِ، وَبِلَادِ فَارِسٍ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ؛ فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ، فَشَكَىٰ إِلَيْهِ فَاقَةً، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَىٰ إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ؛ فَقَالَ: «**يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟**».

فَقُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا.

قَالَ: «**إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ**».

قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟!

«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَىٰ».

قُلْتُ: كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ؟!

قَالَ: «**كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ.**

وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟

فَيَقُولُ: بَلَىٰ.

فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟

فَيَقُولُ: بَلَىٰ.

فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا جَهَنَّمَ».

قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ الرَّسُولَ ﷺ، يَقُولُ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**».

قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ؛ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَبُو القَاسِمِ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ...»، الْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا -أَيْ مَا وَقَعَ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي نُبُوَّتِهِ ﷺ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَقَعُ؛ فَوَقَعَ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَا قَالَ ﷺ-؛ مِنْهُ:

إِخْبَارُهُ أَنَّ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ هِيَ أَوَّلُ أَهْلِهِ لَحَاقًا بِهِ، كَمَا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ؛ فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ.

وَإِخْبَارُهُ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ هِيَ أَسْرَعُ زَوْجَاتِهِ لَحَاقًا بِهِ، كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ»؛ فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَإِخْبَارُهُ بِقَتْلِ عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَبِصُلْحِ الْحَسَنِ مَعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فَوَقَعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، كَمَا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ».

وَإِخْبَارُهُ بِتَقْلِيدِ طَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلُوهُ وَرَاءَهُمْ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ».

وَإِخْبَارُهُ بِتَنَافُسِ أُمَّتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ أَهْلَكَتْهُمْ وَفَرَّقَتْهُمْ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَإِخْبَارُهُ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ بَقَاءُ طَائِفَةٍ مَنْصُورَةٍ عَلَىٰ الْحَقِّ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ».

وَمِنْهَا مَا لَمْ يَقَعْ حَتَّىٰ الْآنَ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ مُسْتَقْبَلًا، وَمِنْ ذَلِكَ: أَشْرَاطُ السَّاعَةِ الَّتِي أَخْبَرَ بِوُقُوعِهَا، وَلَمْ تَقَعْ حَتَّىٰ الْآنَ، وَكَذَا عَوْدُ الْجَزِيرَةِ

الْعَرَبِيَّةِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، وَخَرَابُ الْكَعْبَةِ، وَخَرَابُ الْمَدِينَةِ، وَحَسْرُ الْفُرَاتِ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ، وَنُزُولُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالْخُسُوفَاتُ الثَّلَاثَةُ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَكَلَامُ السِّبَاعِ وَالْجَمَادَاتِ لِلْإِنْسِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَعَنْ فَتْحِ رُومَا؛ كَمَا فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، وَ«مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ»، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَسُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا؟ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوِ الرُّومِيَّةُ؟

قَالَ: فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بِصَنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَكْتُبُ؛ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْ لَا؟ أَقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا**»، يَعْنِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَوَافَقَهُمَا الْأَلْبَانِيُّ.

وَقَدْ تَحَقَّقَ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَلَىٰ يَدِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَثَمَانِ مِئَةٍ؛ الْمُوَافِقِ: لِلثَّالِثِ وَالْخَمْسِينَ بَعْدَ الْأَرْبَعِ مِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَبِذَلِكَ تَحَقَّقَ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْحَدِيثِ، أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ فَتْحِ رُومَا فَلَمْ يَقَعْ حَتَّىٰ الْآنَ، وَسَيَقَعُ بِحَوْلِ اللهِ كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ تُقَسَّمُ عَلَىٰ حَسَبِ مَوْضُوعَاتِهَا إِلَىٰ الشَّمَائِلِ وَدَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، **وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ: السِّيَرُ وَالْمَغَازِي**، وَالْمَقْصُودُ بِهَا: تَارِيخُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَارِيخُ جِهَادِهِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ فِي الْعَهْدَيْنِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا النَّوْعِ تَعَامُلَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ مَعَ أَهْلِهِ، وَمَعَ أَصْحَابِهِ، وَمَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا يَقَعُ مِنَ الصَّحَابَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَوْ يَبْلُغُهُ فَيُقِرُّهُمْ عَلَيْهِ أَوْ يُعَدِّلُ لَهُمْ فِيهِ.

●●●

مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَجْمَعُ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ عِدَّةَ مَزَايَا تَجْعَلُ دِرَاسَتَهَا مُتْعَةً رُوحِيَّةً وَعَقْلِيَّةً وَتَارِيخِيَّةً، كَمَا تَجْعَلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ ضَرُورِيَّةً لِعُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمُهْتَمِّينَ بِالْإِصْلَاحِ الِاجْتِمَاعِيِّ؛ لِيَضْمَنُوا إِبْلَاغَ الشَّرِيعَةِ إِلَىٰ النَّاسِ بِأُسْلُوبٍ يَجْعَلُهُمْ يَرَوْنَ فِيهَا الْمَثَلَ الْأَعْلَىٰ عِنْدَ اضْطِرَابِ السُّبُلِ، وَاشْتِدَادِ الْعَوَاطِفِ، وَلِتَتَفَتَّحَ أَمَامَ الدُّعَاةِ أَسْمَاعُ النَّاسِ وَأَفْئِدَتُهُمْ، وَيَكُونُ الْإِصْلَاحُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الْمُصْلِحُونَ أَكْثَرَ نَجَاحًا، وَأَبْرَزَ سَدَادًا.

◉ **وَمِنْ أَبْرَزِ مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:**

أَوَّلًا: أَنَّهَا أَصَحُّ سِيرَةٍ لِتَارِيخِ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ عَظِيمٍ مُصْلِحٍ.

فَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا سِيرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ أَصَحِّ الطُّرُقِ الْعِلْمِيَّةِ وَأَقْوَاهَا ثُبُوتًا، مِمَّا لَا يَتْرُكُ مَجَالًا لِلشَّكِّ فِي وَقَائِعِهَا الْبَارِزَةِ وَأَحْدَاثِهَا الْكُبْرَىٰ، وَمِمَّا يُيَسِّرُ لَنَا مَعْرِفَةَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنْ أَحْدَاثٍ أَوْ مُعْجِزَاتٍ أَوْ وَقَائِعَ أَوْحَىٰ بِهَا الْعَقْلُ الْجَاهِلُ الرَّاغِبُ فِي زِيَادَةِ إِضْفَاءِ الصِّفَةِ الْمُدْهِشَةِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِنْ جَلَالِ الْمَقَامِ، وَقُدْسِيَّةِ الرِّسَالَةِ، وَعَظَمَةِ السِّيرَةِ.

ثَانِيًا: مِنْ مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: أَنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاضِحَةٌ كُلَّ الْوُضُوحِ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِهَا مُنْذُ زَوَاجِ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بِأُمِّهِ آمِنَةَ إِلَىٰ وَفَاتِهِ ﷺ.

فَنَحْنُ نَعْرِفُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ عَنْ وِلَادَتِهِ، وَطُفُولَتِهِ، وَشَبَابِهِ، وَمَكْسَبِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَعَنْ رِحْلَاتِهِ خَارِجَ مَكَّةَ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ رَسُولًا كَرِيمًا، ثُمَّ نَعْرِفُ بِشَكْلٍ أَدَقَّ وَأَوْضَحَ وَأَكْمَلَ كُلَّ أَحْوَالِهِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةً فَسَنَةً؛ مِمَّا يَجْعَلُ سِيرَتَهُ ﷺ وَاضِحَةً وُضُوحَ الشَّمْسِ؛ **كَمَا قَالَ بَعْضُ النُّقَّادِ الْغَرْبِيِّينَ**:

«إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي وُلِدَ عَلَىٰ ضَوْءِ الشَّمْسِ».

وَهَذَا مَا لَمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ وَلَا قَرِيبٌ مِنْهُ لِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا قَطُّ عَنْ طُفُولَتِهِ وَشَبَابِهِ وَطُرُقِ مَعِيشَتِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَنَعْرِفُ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ عَنْ حَيَاتِهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

فَأَيْنَ هَذَا مِمَّا تَذْكُرُهُ مَصَادِرُ السِّيرَةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ أَدَقِّ التَّفَاصِيلِ مِنْ حَيَاةِ رَسُولِنَا ﷺ الشَّخْصِيَّةِ، كَأَكْلِهِ، وَقِيَامِهِ، وَقُعُودِهِ، وَلِبَاسِهِ، وَشَكْلِهِ، وَهَيْئَتِهِ، وَمَنْطِقِهِ -أَيْ كَلَامِهِ-، وَمُعَامَلَتِهِ لِأُسْرَتِهِ، وَتَعَبُّدِهِ، وَصَلَاتِهِ، وَمُعَاشَرَتِهِ لِأَصْحَابِهِ، وَضَحِكِهِ، وَبُكَائِهِ، بَلْ بَلَغَتِ الدِّقَّةُ فِي رُوَاةِ سِيرَتِهِ ﷺ أَنْ ذَكَرُوا لَنَا عَدَدَ الشَّعْرَاتِ الْبِيضِ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ ﷺ؛ كَمَا وَرَدَ عِنْدَ أَحْمَدَ، وَابْنِ حِبَّانَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ السِّيرَةُ الْوَحِيدَةُ مِنْ بَيْنِ سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ حَيْثُ تَكَامُلُ حَلْقَاتِهَا، وَوُضُوحُ أَطْوَارِهَا مُنْذُ وِلَادَتِهِ حَتَّىٰ وَفَاتِهِ، وَتَفَاصِيلُ أَحْدَاثِهَا مُدَوَّنَةٌ مَعْلُومَةٌ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِ عُمُرِهِ.

أَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَيَكْتَنِفُ سِيَرَهُمُ الْغُمُوضُ فِي عَدَدٍ مِنْ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِمْ؛ فَهُنَاكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ لَا نَعْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

أَمَّا الَّذِينَ ذُكِرَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْقُرْآنِ، فَمِنْهُمْ مَا لَا نَعْرِفُ عَنْهُ إِلَّا الِاسْمَ، وَالْكَثِيرُ مِنْهُمْ لَا نَعْرِفُ مِنْ سِيَرِهِمْ إِلَّا حِوَارَهُمْ لِأَقْوَامِهِمْ وَمُعْجِزَاتِهِمُ الَّتِي أَيَّدَهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا.

أَمَّا سِيرَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ دُوِّنَتْ بِتَفْصِيلٍ دَقِيقٍ وَبَيَانٍ وَاضِحٍ مُنْذُ وِلَادَتِهِ حَتَّىٰ وَفَاتِهِ بِشَكْلٍ لَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ؛ حَيْثُ دُوِّنَ فِيهَا أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ وَابْتِسَامَاتِهِ حَتَّىٰ سُكُونُهُ وَصَمْتُهُ، حَالَ إِقَامَتِهِ وَسَفَرِهِ، وَفِي سِلْمِهِ وَجِهَادِهِ، وَفِي مَنْزِلِهِ وَخَارِجَ مَنْزِلِهِ.

وَقَدْ أَجْبَرَتْ هَذِهِ الْمِيزَةُ الْكَبِيرَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الِاعْتِرَافِ بِهَا، فَقَدْ كَتَبَ جُونْجِيون بُوت فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ عَنِ السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَمَانِ مِئَةٍ وَأَلْفٍ، وَعُنْوَانُهُ: «الِاعْتِذَارَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ»؛ **قَالَ فِي مُقَدِّمَتِهِ**: «لَا

رَيْبَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْفَاتِحِينَ وَالْمُشَرِّعِينَ وَالَّذِينَ سَنُّوا السُّنَنَ مَنْ يَعْرِفُ النَّاسُ حَيَاتَهُ وَأَحْوَالَهُ بِأَكْثَرَ تَفْصِيلًا وَأَشْمَلَ بَيَانًا مِمَّا يَعْرِفُونَ مِنْ سِيرَةِ مُحَمَّدٍ وَأَحْوَالِهِ».

وَقَالَ الْإِنْجِلِيزِيُّ بَاسورْك سِمِيثْ: «لَا شَكَّ أَنَّ فِي الْوُجُودِ شَخْصِيَّاتٍ لَا نَعْلَمُ عَنْهَا شَيْئًا، وَلَا نَتَبَيَّنُ حَقِيقَتَهَا أَبَدًا، أَوْ تَبَقَّىٰ مِنْهَا أُمُورٌ مَجْهُولَةٌ، بَيْدَ أَنَّ التَّارِيخَ الْخَارِجِيَّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ نَعْلَمُ جَمِيعَ تَفَاصِيلِهِ مِنْ نَشْأَتِهِ إِلَىٰ شَبَابِهِ وَعَلَاقَتِهِ بِالنَّاسِ وَرَوَابِطِه وَعَادَاتِهِ، وَنَعْلَمُ أَوَّلَ تَفْكِيرِهِ وَتَطَوُّرَهُ، وَارْتِقَاءَهُ التَّدْرِيجِيَّ، ثُمَّ نُزُولَ الْوَحْيِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ نَوْبَةً بَعْدَ نَوْبَةٍ، وَنَعْلَمُ تَارِيخَهُ الدَّاخِلِيَّ بَعْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ وَإِعْلَانِ رِسَالَتِهِ».

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا ﷺ، فَلَيْسَ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ -وَلَنْ يَكُونَ- ابْنُ أُنْثَىٰ حُفِظَ عَنْهُ، وَنُقِلَ عَنْهُ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِهِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يُحْصَ عَلَيْهِ هَفْوَةٌ، وَلَمْ تُعْرَفْ لَهُ زَلَّةٌ ﷺ، فَتَارِيخُهُ بَيْنَ أَيْدِي أَعْدَائِهِ، فَهَلْ أَخْرَجُوا مِنْ تَارِيخِهِ -وَهُوَ مُحْصًىً بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ حَتَّىٰ عَدُّوا عَدَدَ الشَّعْرَاتِ الْبِيضِ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ- هَلْ أَحْصَوْا عَلَيْهِ هَفْوَةً؟! أَوْ عَدُّوا عَلَيْهِ زَلَّةً؟! حَاشَا وَكَلَّا ﷺ.

مِنْ مِيزَاتِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهَا تَحْكِي سِيرَةَ إِنْسَانٍ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ فَلَمْ تُخْرِجْهُ عَنْ إِنْسَانِيَّتِهِ، فَقَدْ تَزَوَّجَ وَطَلَّقَ، وَرَضِيَ وَغَضِبَ، وَبَاعَ وَاشْتَرَىٰ؛ هُوَ إِنْسَانٌ بِكُلِّ مَا يَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ مَعْنًىٰ

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قُدْوَةً لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ، وَلَمْ تُلْحِقْ حَيَاتَهُ ﷺ بِالْأَسَاطِيرِ، وَلَمْ تُضْفِ عَلَيْهِ صِفَةَ الْأُلُوهِيَّةِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا.

وَإِذَا قَارَنَّا هَذَا بِمَا يَرْوِيهِ النَّصَارَىٰ عَنْ عِيسَىٰ عليه السلام، وَمَا يَرْوِيهِ الْبُوذِيُّونَ عَنْ بُوذَا، وَالْوَثَنِيُّونَ عَنْ آلِهَتِهِمُ الْمَعْبُودَةِ اتَّضَحَ لَنَا الْفَرْقُ جَلِيًّا بَيْنَ سِيرَتِهِ ﷺ وَسِيرَةِ هَؤُلَاءِ، وَلِذَلِكَ أَثَرٌ بَعِيدُ الْمَدَىٰ فِي السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ لِأَتْبَاعِهِمْ.

فَادِّعَاءُ الْأُلُوهِيَّةِ لِعِيسَىٰ عليه السلام، وَلِبُوذَا جَعَلَهُمَا أَبْعَدَ مَنَالًا مِنْ أَنْ يَكُونَا قُدْوَةً نَمُوذَجِيَّةً لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ؛ بَيْنَمَا ظَلَّ -وَسَيَظَلُّ- نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ الْمَثَلَ النَّمُوذَجِيَّ الْإِنْسَانِيَّ الْكَامِلَ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعِيشَ سَعِيدًا كَرِيمًا فِي نَفْسِهِ وَفِي أُسْرَتِهِ وَفِي بِيئَتِهِ.

وَمِنْ هُنَا يَقُولُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿ **لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

مِنْ مَزَايَا سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّ سِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ شَامِلَةٌ لِكُلِّ النَّوَاحِي الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ؛ فَهِيَ تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّابِّ الْأَمِينِ الْمُسْتَقِيمِ قَبْلَ أَنْ يُكْرِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ.

كَمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمُتَلَمِّسِ أَجْدَىٰ الْوَسَائِلِ لِقَبُولِ دَعْوَتِهِ، الْبَاذِلِ مُنْتَهَىٰ طَاقَتِهِ وَجُهْدِهِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ.

كَمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَتُهُ ﷺ مَا كَانَ إِذْ يَضَعُ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَقْوَمَ النُّظُمِ وَأَصَحَّهَا، وَيَحْمِيهَا بِيَقَظَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَصِدْقِهِ بِمَا يَكْفُلُ لَهَا النَّجَاحَ.

كَمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ الزَّوْجِ وَالْأَبِ فِي حُنُوِّ الْعَاطِفَةِ، وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ، وَالتَّمْيِيزِ الْوَاضِحِ بَيْنَ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ لِكُلٍّ مِنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ.

كَمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ الْمُرَبِّي الْمُرْشِدِ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ تَرْبِيَةً مِثَالِيَّةً؛ يَنْقُلُ مِنْ رُوحِهِ إِلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ، وَمِنْ نَفْسِهِ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ مَا يَجْعَلُهُمْ يُحَاوِلُونَ الِاقْتِدَاءَ بِهِ فِي دَقِيقِ الْأُمُورِ وَجَلِيلِهَا.

كَمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ الصَّدِيقِ الَّذِي يَقُومُ بِوَاجِبَاتِ الصُّحْبَةِ، وَيَفِي بِالْتِزَامَاتِهَا وَآدَابِهَا مِمَّا يَجْعَلُ أَصْحَابَهُ يُحِبُّونَهُ كَحُبِّهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقْرِبَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ.

وَسِيرَتُهُ ﷺ تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ الْمُحَارِبِ الشُّجَاعِ، وَالْقَائِدِ الْمُنْتَصِرِ وَالسِّيَاسِيِّ النَّاجِحِ، وَالْجَارِ الْأَمِينِ، وَالْمُعَاهِدِ الصَّادِقِ.

◉ **فَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ**: أَنَّ سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ النَّوَاحِي الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ مِمَّا يَجْعَلُهُ الْقُدْوَةَ الصَّالِحَةَ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ، وَكُلِّ قَائِدٍ، وَكُلِّ أَبٍ، وَكُلِّ زَوْجٍ، وَكُلِّ صَدِيقٍ، وَكُلِّ مُرَبٍّ، وَكُلِّ سِيَاسِيٍّ، وَكُلِّ رَئِيسِ دَوْلَةٍ، وَهَكَذَا ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَمِنْ مَزَايَا سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّ سِيرَتَهُ تُعْطِينَا الدَّلِيلَ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ؛ إِنَّهَا سِيرَةُ إِنْسَانٍ كَامِلٍ سَارَ بِدَعْوَتِهِ مِنْ نَصْرٍ

إِلَىٰ نَصْرٍ، لَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجِزَاتِ، بَلْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ الْبَحْتِ؛ فَلَقَدْ دَعَي فَأُوذِيَ، وَبَلَّغَ فَأَصْبَحَ لَهُ الْأَنْصَارُ، وَاضْطُرَّ إِلَىٰ الْحَرْبِ فَحَارَبَ، وَكَانَ حَكِيمًا مُوَفَّقًا فِي قِيَادَتِهِ، فَمَا أَزِفَتْ سَاعَةُ وَفَاتِهِ ﷺ إِلَّا كَانَتْ دَعْوَتُهُ تَلُفُّ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ كُلَّهَا عَنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ لَا عَنْ طَرِيقِ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ.

وَمَنْ عَرَفَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ عَادَاتٍ وَعَقَائِدَ، وَمَا قَاوَمُوا بِهِ دَعْوَتَهُ مِنْ شَتَّىٰ أَنْوَاعِ الْمُقَاوَمَةِ حَتَّىٰ تَدْبِيرِ اغْتِيَالِهِ، مَنْ عَرَفَ عَدَمَ التَّكَافُؤِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَارِبِيهِ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ انْتَصَرَ فِيهَا، وَمَنْ عَرَفَ قِصَرَ الْمُدَّةِ الَّتِي اسْتَغْرَقَتْهَا رِسَالَتُهُ حَتَّىٰ وَفَاتِهِ - وَهِيَ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً- مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنَّ مَا كَانَ يَمْنَحُهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ، وَتَأْثِيرٍ وَنَصْرٍ، لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ حَقًّا، وَمَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ لِيُؤَيِّدَ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ هَذَا التَّأْيِيدَ الْفَرِيدَ فِي التَّارِيخِ.

فَسِيرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُثْبِتُ لَنَا صِدْقَ رِسَالَتِهِ عَنْ طَرِيقٍ عَقْلِيٍّ بَحْتٍ، وَمَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ لَمْ يَكُنِ الْأَسَاسَ الْأَوَّلَ فِي إِيمَانِ الْعَرَبِ بِدَعْوَتِهِ، بَلْ إِنَّا لَا نَجِدُ لَهُ مُعْجِزَةً آمَنَ مَعَهَا الْكُفَّارُ الْمُعَانِدُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ الْمَادِّيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَىٰ مَنْ شَاهَدَهَا.

وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرَوُا الرَّسُولَ ﷺ وَلَمْ يُشَاهِدُوا مُعْجِزَاتِهِ إِنَّمَا آمَنُوا بِصِدْقِ رِسَالَتِهِ؛ لِلْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَىٰ صِدْقِ دَعْوَاهُ النُّبُوَّةَ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ: الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ؛ فَإِنَّهُ مُعْجِزَةٌ تُلْزِمُ كُلَّ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ أَنْ يُؤْمِنُ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ.

وَمِنْ هُنَا نَرَىٰ هَذِهِ الْمِيزَةَ الْوَاضِحَةَ فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ مَا آمَنَ بِهِ وَاحِدٌ عَنْ طَرِيقِ مُشَاهَدَتِهِ لِمُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ، بَلْ عَنِ اعْتِنَاقٍ وَاقْتِنَاعٍ عَقْلِيٍّ وِجْدَانِيٍّ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَكْرَمَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا إِكْرَامٌ لَهُ ﷺ وَإِفْحَامٌ لِمُعَانِدِيهِ الْمُكَذِّبِينَ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ وَجَدَ أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِي الْإِقْنَاعِ عَلَىٰ الْمُحَاكَمَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْمُشَاهَدَةِ الْمَحْسُوسَةِ لِعَظِيمِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أُمِّيَّةٍ تَجْعَلُ إِتْيَانَهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِهِ ﷺ.

فَسِيرَتُهُ ﷺ جَامِعَةٌ يَجِدُ فِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ اخْتِلَافِ طَوَائِفِهِمُ الْأُسْوَةَ الْكَامِلَةَ فِي جَمِيعِ أَلْوَانِ الْحَيَاةِ وَ أَطْوَارِهَا؛ فَيَجِدُ فِيهِ الْحَاكِمُ قُدْوَتَهُ فِي سِيَاسَةِ دَوْلَتِهِ، وَيَجِدُ فِيهِ الْأَبُ قُدْوَتَهُ فِي تَرْبِيَتِهِ لِأَوْلَادِهِ، وَالزَّوْجُ يَجِدُ فِيهِ قُدْوَتَهُ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ زَوْجِهِ.

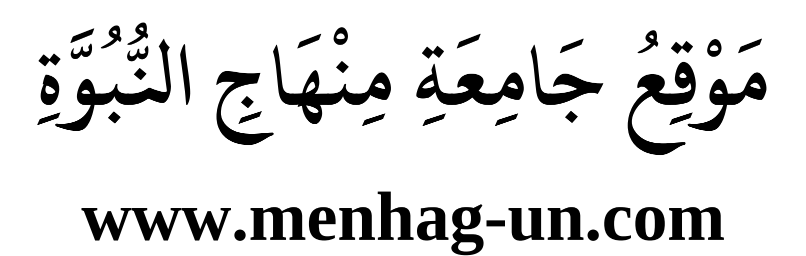
وَهُوَ ﷺ مُعَلِّمٌ بَارِعٌ حِينَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَجِدُ فِيهِ الْمُتَعَلِّمُ قُدْوَتَهُ، وَهُوَ خَيْرُ مُتَلَقٍّ حِينَ يَتَلَقَّىٰ الْوَحْيَ مِنْ جِبْرِيلَ، زَاهِدٌ صَادِقٌ فِي زُهْدِهِ، تَاجِرٌ صَدُوقٌ فِي تَعَامُلِهِ، عَامِلٌ أَمِينٌ فِي رَعْيِهِ الْغَنَمَ، غَنِيٌّ شَاكِرٌ، فَقِيرٌ صَابِرٌ، يَتِيمٌ مُحْتَاجٌ لِلرِّعَايَةِ وَالْعَطْفِ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ كَافِلًا لِلْأَيْتَامِ رَاعِيًا لَهُمْ.

وَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، كَمَا أَنَّهُ مُجَاهِدٌ لَا يَخْشَىٰ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَهُوَ عَابِدٌ لَا يَمَلُّ مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَقَائِدٌ عَسْكَرِيٌّ مُحَنَّكٌ لَهُ نَهْجُهُ الْخَاصُّ فِي إِدَارَةِ الْمَعَارِكِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، كَانَ فِي انْتِصَارِهِ مُتَوَاضِعًا كَمَا كَانَ حَالَ انْكِسَارِهِ عَزِيزًا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي جَمَعَهَا اللهُ فِي سِيرَتِهِ؛ فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ بِذَلِكَ قُدْوَةً صَالِحَةً لِجَمِيعِ بَنِي الْبَشَرِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَأَطْوَارِهِمْ. فَصَلَوَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَهَذِهِ بَعْضُ مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

● ● ●


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



يُقَدِّمُ:

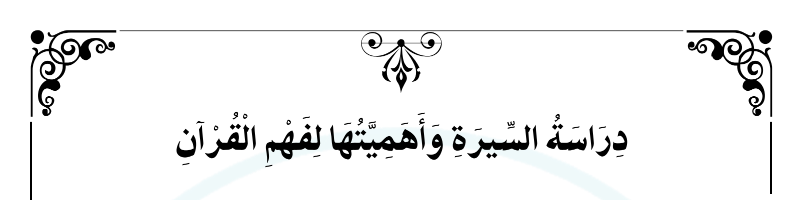
(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



دِرَاسَةُ السِّيرَةِ وَأَهَمِيَّتُهَا لِفَهْمِ الْقُرْآنِ

وَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَبْلَهُ مُرْتَبِطَةٌ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، وَدِرَاسَةُ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهْمًا صَحِيحًا.

الَّذِي يَدْرُسُ سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَجِدُ فِيهَا مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَذَوُّقِ رُوحِهِ وَمَقَاصِدِهِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ إِنَّمَا تُفَسِّرُهَا وَتُوَضِّحُهَا الْأَحْدَاثُ الَّتِي مَرَّتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَمَوْقِفُهُ مِنْ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ.



أَسَالِيبُ عَرْضِ الْقُرْآنِ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِفَهْمِ الْمَلَامِحِ الْعَامَّةِ لِحَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنُ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِأَحَدِ أُسْلُوبَيْنِ:

الْأَوَّلُ: سَرْدُ بَعْضِ الْمَشَاهِدِ مِنْ حَيَاتِهِ وَسِيرَتِهِ ﷺ.

وَالثَّانِي: التَّعْلِيقُ عَلَىٰ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي تَعْرِضُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُسْلُوبِ الْأَوَّلِ: فَإِنَّنَا نَجِدُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ يَتَنَاوَلُ جَوَانِبَ مِنْ حَيَاتِهِ وَسِيرَتِهِ، وَذَلِكَ كَالْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي وَصْفِ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ آيَاتُ الْعِتَابِ الَّتِي تُبَيِّنُ جُزْءًا مُهِمًّا مِنْ سِيرَتِهِ ﷺ.

كَمَا وَرَدَتْ آيَاتٌ تَتَحَدَّثُ عَنِ اسْتِمَاعِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ لِرَسُولِ ﷺ، وَتَحَدَّثَتْ آيَاتٌ أُخْرَىٰ عَنْ مُعْجِزَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَعَرَضَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَذَلِكَ لِهِجْرَتِهِ حِينَمَا تَآمَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ قَتْلِهِ.

وَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنُ بَعْضَ غَزَوَاتِهِ كَغَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْخَنْدَقِ، وَحُنَيْنٍ الَّتِي كَانَتْ دَرْسًا فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَقَانُونِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ مِنْ نَوْعِ ذَلِكَ الدَّرْسِ الَّذِي كَرَّسَتْهُ غَزْوَةُ بَدْرٍ، بَلْ هُوَ مُتَمِّمٌ لَهَا؛ فَإِذَا كَانَتْ مَوْقِعَةُ بَدْرٍ قَرَّرَتْ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْقِلَّةَ لَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا فِي جَنْبِ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِمْ إِذَا كَانُوا صَابِرِينَ

وَمُتَّقِينَ؛ فَإِنَّ غَزْوَةَ حُنَيْنٍ قَدْ قَرَّرَتْ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْكَثْرَةَ -أَيْضًا- لَا تُفِيدُهُمْ شَيْئًا إِذَا لَمْ يَكُونُوا صَابِرِينَ وَمُتَّقِينَ.

وَكَمَا نَزَلَتْ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَقْرِيرِ الْعِبْرَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ فَقَدْ نَزَلَتْ آيَاتٌ مِنْهُ -أَيْضًا- فِي تَقْرِيرِ الْعِبْرَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ مِنْ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْعِظَةَ الْبَلِيغَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

كَمَا تَنَاوَلَتْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قِصَّةَ زَوَاجِهِ ﷺ مِنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ هَذَا الْجَانِبَ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

أَمَّا الْأُسْلُوبُ الثَّانِي الَّذِي عَرَضَ بِهِ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَهُوَ التَّعْلِيقُ عَلَىٰ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ: وَذَلِكَ لِلْإِجَابَةِ عَلَىٰ مَا قَدِ اسْتُشْكِلَ مِنْ

شَأْنِهَا أَوْ لِكَشْفِ بَعْضِ الْغَوَامِضِ مِنْهَا أَوْ لِلَفْتِ نَظَرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ وَجْهِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ فِيهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَرْتَبِطُ بِجَانِبٍ مَا مِنْ سِيرَتِهِ ﷺ أَوْ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِهِ، فَهِيَ بِذَلِكَ تُجَلِّي لَنَا الْكَثِيرَ مِنْ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ وَمُخْتَلَفِ شُئُونِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

قِصَّةُ الْإِفْكِ وَمَا فِيهَا مِنْ دُرُوسٍ وَعِظَاتٍ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَشْرَ آيَاتٍ بِبَرَاءَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَإِدَانَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْخَاطِئِينَ.

قَالَ اللهُ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

وَكَحَادِثَةِ الظِّهَارِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا قَوْلُ رَبِّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ...﴾ الْآيَةَ، إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١-٤].

وَاسْمُ هَذِهِ الْمُجَادِلَةِ، وَنِسْبَتُهَا، وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ آرَاءٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

وَكَسُورَةِ التَّحْرِيمِ الَّتِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] الْآيَاتِ، وَاخْتُلِفَ أَيْضًا فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

كَمَا تَوَلَّىٰ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْإِجَابَةَ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي كَانَتْ تُوَجَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَسْئِلَةُ الَّتِي كَانَ يَطْرَحُهَا بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ كَسُؤَالِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ.

وَلَقَدْ أَجَابَ اللهُ ﷻ عَنْ سُؤَالِهِمْ هَذَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّتِي نَزَلَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ وَمُتَعَدِّدَةٍ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ لِجَانِبٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الدِّرَاسَةِ الْمُتَأَنِّيَةِ وَالْفَاحِصَةِ لِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالْوُقُوفِ عَلَىٰ حِكَمِهَا الْبَالِغَةِ وَأَسْرَارِهَا الدَّقِيقَةِ؛ وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ تَنَاوَلَ الْمَلَامِحَ الْعَامَّةَ لِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَحَدَّثَ عَنْهَا مِنْ خِلَالِ أُسْلُوبَيْنِ:

الْأَوَّلُ: تَنَاوَلَ بَعْضَ الْمَشَاهِدِ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَسِيرَتِهِ، وَتَمَثَّلَ ذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي وَصْفِ غَزَوَاتِهِ، وَحَيَاتِهِ مَعَ أَزْوَاجِهِ رضي الله عنهن وَمُعَامَلَتِهِ لِأَصْحَابِهِ، وَأُسْلُوبِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ.

الثَّانِي: تَوَلَّىٰ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ الْأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ مِنْ خِلَالِ الْإِجَابَةِ عَلَىٰ مَا قَدْ يُشْكِلُ، وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ الَّتِي تُحِيطُ بِالْأَحْدَاثِ، وَلَفْتِ نَظَرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ مَا فِيهَا مِنْ عِبْرَةٍ مَوْعِظَةٍ.

وَأَمَّا حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَأْتِي بِإِيجَازٍ، هُوَ لَا يَتَعَدَّىٰ بَيَانَ الْمَلَامِحِ الْعَامَّةِ، وَالْعَرْضَ الْإِجْمَالِيَّ السَّرِيعَ لِلْوَقَائِعِ وَالْأَخْبَارِ.

⊛ ⊛ ⊛



أَهَمِيَّةُ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمَعْرِفَةِ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لِدِرَاسَةِ سِيرَةِ نَبِيِّنَا ﷺ أَهَمِّيَّةٌ كُبْرَىٰ فِي نَوَاحٍ شَتَّىٰ، مِنْهَا:

* **مَا يَتَعَلَّقُ بِمَنْهَجِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ**، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ مَا مَرَّتْ بِهِ الدَّعْوَةُ مِنْ مَرَاحِلَ؛ فَفِي مَكَّةَ كَانَتِ الدَّعْوَةُ مُتَمَثِّلَةً فِي دَعْوَةِ الْأَقَارِبِ مِنْ زَوْجَةٍ وَأَبْنَاءٍ، وَمَنْ وَضَعَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ تَحْتَ يَدِهِ فِي بَادِئَ ذِي بَدْءٍ؛ وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عِنْدَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]، بَدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَأَسْلَمَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بَلْ كَانَتْ أَوَّلَ النِّسَاءِ إِسْلَامًا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، ثُمَّ أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ مِنَ الْمَوَالِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ السَّلِيمُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَإِذَا أَصْلَحَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ انْتَقَلَ إِلَىٰ الْمَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ، وَهِيَ إِنْذَارُ الْعَشِيرَةِ، كَمَا قَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ- لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَنَهَضَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَعِدَ الصَّفَا، وَنَادَىٰ: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**...»، الْحَدِيثَ، وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَهَذَا التَّدَرُّجُ فِي مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ مَنْطِقِيٌّ جِدًّا يَجِبُ الْوُقُوفُ عِنْدَهُ؛ فَقَدِ اسْتَمَرَّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ لِقُرَيْشٍ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَىٰ أَيِ بَلَدٍ حَتَّىٰ أَكْمَلَ عَشْرَ سِنِينَ مُوَاصِلًا دَعْوَتَهُ لِهَذَا الدِّينِ الْقَوِيِّ الْمَتِينِ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ.

بَعْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ إِلَىٰ قَبِيلَةٍ أُخْرَىٰ تُعَدُّ مِنْ أَقْرَبِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ لِقُرَيْشٍ نَسَبًا وَصِهْرًا وَجِوَارًا، وَهِيَ قَبِيلَةُ «ثَقِيفٍ» فِي الطَّائِفِ الَّتِي ضَرَبَ الرَّسُولُ ﷺ فِي دَعْوَتِهِمْ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ لِبَذْلِ الْجُهْدِ وَتَحَمُّلِ الْأَذَىٰ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ.

انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ ثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ بَعْدَ أَنْ مَكَثَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، إِلَّا أَنَّ دَعْوَتَهُ ﷺ قُوبِلَتْ بِرَفْضٍ شَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ؛ فَأَصَابَهُ ﷺ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ؛ جَرَّاءَ رَفْضِهِمْ لِدَعْوَتِهِ ﷺ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ أَنْ فُرِضَ الْجِهَادُ بَدَأَ ﷺ يُرْسِلُ السَّرَايَا وَالْبُعُوثَ إِلَىٰ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ لِنَشْرِ الْإِسْلَامِ تَارَةً، وَيَخْرُجُ هُوَ بِنَفْسِهِ ﷺ تَارَةً أُخْرَىٰ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ حَتَّىٰ عَمَّ الْإِسْلَامُ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ كَافَّةً، بَلْ وَكَانَ قَدْ جَهَّزَ جَيْشًا لِغَزْوِ أَطْرَافِ الشَّامِ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ ﷺ بِقِيَادَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ تَمْهِيدًا لِفَتْحِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ لَكِنَّهُ ﷺ تُوُفِّيَ قَبْلَ إِنْفَاذِ هَذَا الْجَيْشِ.

ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَكْمَلَ الْمَسِيرَةَ، وَأَنْفَذَ جَيْشَ أُسَامَةَ الَّذِي عَقَدَ لِوَاءَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفَاتِهِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ مُعَارَضَةِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ عِنْدَمَا أَشَارُوا عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُمْسِكَ بَعْثَ أُسَامَةَ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَمِيلَ الْعَرَبُ بَعْدَ سَمَاعِهِمْ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ: «أَنَا أَحْبِسُ جَيْشًا بَعَثَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ! لَقَدِ اجْتَرَأْتُ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ تَمِيلَ عَلَيَّ الْعَرَبُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَحْبِسَ جَيْشًا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»، ثُمَّ أَمْضَاهُ.

وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ عَالَمِيٌّ، وَلَابُدَّ أَنْ يَعُمَّ نَفْعُهُ أَرْجَاءَ الْمَعْمُورَةِ؛ قَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ زَوَىٰ لِيَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»، وَلِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ قَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَلِأَنَّ دِينَهُ نَاسِخٌ لِجَمِيعِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ ﴿**وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَهَكَذَا وَضَعَتِ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ مَنْهَجًا مُتَكَامِلًا لِلْمَرَاحِلِ الدَّعْوِيَّةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَانْطَلَقَتِ الْجَحَافِلُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَنْشُرُ الدِّينَ فِي رُبُوعِ الْمَعْمُورَةِ حَتَّىٰ بَلَغَ أَقَاصِيَ الدُّنْيَا شَرْقًا وَغَرْبًا؛ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَالَمِيَّةَ هَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ.

وَهَكَذَا وَضَعَ نَبِيُّنَا ﷺ مَنْهَجًا مُتَكَامِلًا لِمَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَلَمْ يُقَدِّمْ مَرْحَلَةً عَلَىٰ أُخْرَىٰ؛ فَالْعَامِلُونَ فِي الْمَجَالِ الدَّعْوِيِّ لَا يَسَعُهُمْ سِوَىٰ الِاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

◉ التَّرْكِيزُ عَلَى الْجَانِبِ الْعَقَدِيِّ فِي الدَّعْوَةِ، وَبَيَانُ أَثَرِهِ عَلَى الْمَدْعُوِّينَ:

وَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ، لَكِنْ لَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدْعُو إِلَّا إِلَىٰ التَّوْحِيدِ فَقَطْ، بَلْ كَانَ يَدْعُو إِلَىٰ صِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، إِلَّا أَنَّ تَرْكِيزَهُ ﷺ عَلَىٰ الْجَانِبِ الْعَقَدِيِّ كَانَ أَكْثَرَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ التَّرْكِيزَ عَلَىٰ الْجَانِبِ الْعَقَدِيِّ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فِي غَايَةٍ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إِذَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ انْتَفَتْ جَمِيعُ الشَّوَائِبِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ زَعْزَعَةِ الْإِيمَانِ.

وَقَدْ آتَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَكِّيَّةُ، وَتَرْكِيزُهُ عَلَىٰ الْجَانِبِ الْعَقَدِيِّ ثِمَارَهَا يَلْحَظُ مَنْ قَرَأَ تَارِيخَ حُرُوبِ الرِّدَّةِ الَّتِي أَعْقَبَتْ وَفَاةَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَجِدُ أَحَدًا ارْتَدَّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَبَدًا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِرُسُوخِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ -رِضْوَانُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.

*** وَعَنِ السِّيرَةِ تُعْرَفُ قَضِيَّةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ،** وَهِيَ نَاحِيَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا أَنَّ مَعْرِفَةَ

نُزُولِ الْآيَاتِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي بِمَعْرِفَتِهَا تُعْرَفُ أَحْدَاثُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ كَتِلْكَ الَّتِي نَزَلَتْ فِي غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ.

* **أَيْضًا هُنَاكَ بَعْضُ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مَعرِفَتِهَا أَيُّ طَالِبِ عِلْمٍ فَضْلًا عَنِ الْعُلَمَاءِ**، وَذَلِكَ مِثْلُ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ عَلَىٰ يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَعْرِفَتُهَا تَزِيدُ -بِلَا شَكٍّ- فِي الْإِيمَانِ، وَكَذَا مَعْرِفَةُ مَا كَابَدَهُ ﷺ مِنْ مَشَاقٍّ فِي سَبِيلِ تَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ مَعَ مَا كَانَ مِنْ صَبْرِهِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ ذَلِكَ ﷺ.





أَهْدَافُ وَمَقَاصِدُ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَأَمَّا أَهْدَافُ وَمَقَاصِدُ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَمِنْهَا:

* **مَعْرِفَةُ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْوَالِ الْمُتَعَبِّدِينَ**، وَذَلِكَ لِلْبَحْثِ فِيهَا عَنِ الْهَدْيِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَمَرْضَاةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ السِّيرَةَ مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ وَمَنْهَجٌ لِحَيَاةِ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ.

وَلَابُدَّ أَنْ يُدْرِكَ النَّاظِرُ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَهَمِّيَّتَهَا التَّرْبَوِيَّةَ، وَالتَّشْرِيعِيَّةَ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ، وَالْإِدَارِيَّةَ، وَالسِّيَاسِيَّةَ؛ لِأَنَّهَا تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِنُصُوصِ الْوَحْيِ فِي مَنَاحِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَافَّةً.

وَمِنْ أَهْدَافِ وَمَقَاصِدِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* **تَحْصِيلُ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ**؛ فَالسِّيرَةُ الْعَطِرَةُ مَلِيئَةٌ بِالدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَهَا بِقَصْدِ الِاتِّبَاعِ لِصَاحِبِهَا ﷺ، وَالتَّرْبِيَةِ عَلَىٰ مَقَاصِدِهَا وَعِبَرِهَا؛ فَهِيَ مَادَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ سُلُوكِيَّةٌ تَبْنِي الشَّخْصِيَّةَ السَّوِيَّةَ الْمُتَكَامِلَةَ، وَتُقَوِّمُ السُّلُوكَ الْمُعْوَجَّ.

وَالْمَنَاهِجُ التَّرْبَوِيَّةُ وَالدَّعَوَاتُ الْإِصْلَاحِ يَجِبُ أَنْ تَقْتَبِسَ مِنْ هَدْيِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَتَلْتَزِمَ بِهِ اعْتِقَادًا وَسُلُوكًا وَمَنْهَجَ تَفْكِيرٍ، وَتَأْخُذَ مِنَ التَّجَارِبِ النَّاجِحَةِ مَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَمِنْ أَهْدَافِ وَمَقَاصِدِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* **الِاطِّلَاعُ عَلَىٰ مَآثِرِ جِيلِ الصَّحَابَةِ، وَكَيْفَ تَحَقَّقَتْ لَهُمُ السِّيَادَةُ وَالرِّيَادَةُ؛** فَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ مَعِينٌ لَا يَنْضَبُ وَتُرَاثٌ لَا يَبْلَىٰ لِكُلِّ مَنْ رَجَعَ إِلَيْهَا، وَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهَا، وَاقْتَبَسَ مِنْ مِشْكَاتِهَا.

وَقَدْ فَقُهَ الصَّحَابَةُ ﭫ هَذِهِ الْمَعَانِيَ فِي السِّيرَةِ وَأَدْرَكُوا أَهَمِيَّتَهَا، فَكَانَتْ مَعَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مَنْهَجَ التَّرْبِيَةِ لِلْأَجْيَالِ، وَمَادَّةَ الْبِنَاءِ الْفِكْرِيِّ وَالسُّلُوكِيِّ، وَمَحَطَّ الِاهْتِمَامِ وَالْعِنَايَةِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ: «كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ».

وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يُحَفِّظُ أَبْنَاءَهُ مَغَازِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَعُدُّهَا عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: «هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ؛ فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا».

وَقَدْ تَحَقَّقَتِ السِّيَادَةُ وَالرِّيَادَةُ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ عِنْدَمَا صَدَقَ فِي التَّأَسِّي وَالْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ؛ فَتَمَكَّنَ مِنَ التَّطْبِيقِ الْوَاقِعِيِّ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِنْ أَهْدَافِ وَمَقَاصِدِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* **تَحْصِيلُ الْقُدْوَةِ وَالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ؛** فَقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي سِيرَتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ ﷺ تَنَوُّعًا وَشُمُولًا لِكُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ وَمَوَاقِفِهَا الْمُتَغَيِّرَةِ؛ لِتَكُونَ مِسَاحَةُ الِاقْتِدَاءِ وَالتَّأَسِّي وَاسِعَةً شَامِلَةً تَسْتَوْعِبُ الْقُدُرَاتِ الْبَشَرِيَّةَ كَافَّةً بِفُرُوقِهَا الْفَرْدِيَّةِ وَسَجَايَاهَا الْفِطْرِيَّةِ.

فَالرَّسُولُ ﷺ قُدْوَةٌ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مُخْتَلَفِ عُصُورِهِمْ، وَتَعَدُّدِ مَوَاقِعِهِمُ الْجُغْرَافِيَّةِ، وَأَحْوَالِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ، وَمَرَاكِزِهِمُ الْإِدَارِيَّةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢١- ٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ؛ لِهَذَا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ، وَمُصَابَرَتِهِ، وَمُرَابَطَتِهِ، وَمُجَاهَدَتِهِ، وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ تَعَالَىٰ لِلَّذِينَ تَقَلْقَلُوا، وَتَضَجَّرُوا، وَتَزَلْزَلُوا، وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَيْ؛ هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ، وَجَعْلِهِ الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

وَالْمُرَادُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. أَيْ؛ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الِابْتِلَاءِ، وَالِاخْتِبَارِ، وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يَعْقُبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ».

وَمِنْ أَهْدَافِ وَمَقَاصِدِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* **أَنَّ التَّكَامُلَ وَالشُّمُولَ فِيهَا يُؤَدِّي إِلَىٰ فَهْمِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَاحْتِرَامِ تِلْكَ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ**؛ فَقَدْ يَسَّرَ اللهُ لِهَذِهِ السِّيرَةِ مَنْ يَقُومُ عَلَىٰ حِفْظِهَا، وَالْعِنَايَةِ بِأَدَقِّ تَفَاصِيلِهَا حَتَّىٰ كَأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَىٰ صَاحِبِهَا ﷺ وَأَحْوَالِهِ رَأْيَ الْعَيْنِ.

وَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ سِيرَةٌ فِي الدُّنْيَا كَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وُضُوحِهَا، وَكَمَالِهَا، وَصِدْقِهَا، وَشُمُولِهَا، وَاسْتِيعَابِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ سُلَيْمَانُ النَّدَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ حَيَاةَ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجْدُرُ بِالنَّاسِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهَا قُدْوَةً لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهَا أَرْبَعُ خِصَالٍ: أَنْ تَكُونَ تَارِيخِيَّةً، وَأَنْ تَكُونَ جَامِعَةً، وَأَنْ تَكُونَ كَامِلَةً، وَأَنْ تَكُونَ عَمَلِيَّةً».

إِنَّ حَيَاةَ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجْدُرُ بِالنَّاسِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهَا قُدْوَةً لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهَا أَرْبَعُ خِصَالٍ:

- **أَنْ تَكُونَ تَارِيخِيَّةً**؛ أَيْ: أَنَّ التَّارِيخَ الصَّحِيحَ الْمُمَحِّصَ يُصَدِّقُهَا، وَيَشْهَدُ لَهَا.

- **وَأَنْ تَكُونَ جَامِعَةً**؛ أَيْ: مُحِيطَةً بِأَطْوَارِ الْحَيَاةِ وَمَنَاحِيهَا وَجَمِيعِ شُئُونِهَا.

- **وَأَنْ تَكُونَ كَامِلَةً**؛ أَيْ: مُتَسَلْسِلَةً لَا يَنْقُصُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ حَلَقَاتِ الْحَيَاةِ لِذَلِكَ الْعَظِيمِ.

- **وَأَنْ تَكُونَ عَمَلِيَّةً**؛ أَيْ: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْفَضَائِلِ وَالْمَبَادِئِ وَالْوَاجِبَاتِ بِعَمَلِ الدَّاعِي، وَأَخْلَاقِهِ، لَا بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ، وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا دَعَا إِلَيْهِ بِلِسَانِهِ قَدْ حَقَّقَهُ بِعَمَلِهِ، وَسِيرَتِهِ، وَعَمِلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْعَائِلِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَبِهَذَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ مُثُلًا عُلْيَا لِلنَّاسِ يَتَأَسَّوْنَ بِهَا.

ولَا تَجِدُ ذَلِكَ كَامِلًا شَامِلًا إِلَّا فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

مِنْ أَهْدَافِ وَمَقَاصِدِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* **أَنْ تُتَّخَذَ مَنْهَجًا مِعْيَارِيًّا**؛ فَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حَوَادِثِ تَارِيخٍ تُؤْخَذُ مِنْهَا الْعِبَرُ وَالْعِظَاتُ فَحَسْبُ، إِنَّمَا هِيَ فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ تَجْسِيدٌ عَمَلِيٌّ لِلْوَحْيِ الَّذِي يُقْتَدَىٰ بِهِ، وَمَنْهَجٌ وَاضِحٌ يُهْتَدَىٰ بِهُدَاهُ، وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ يُسْلَكُ وَيُتَّبَعُ؛ لِأَنَّهَا مَنْهَجٌ مِعْيَارِيٌّ غَيْرُ خَاضِعٍ لِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَإِنَّمَا تُقَاسُ إِلَيْهِ الْأَعْمَالُ وَالْمَوَاقِفُ وَتُعَايَرُ عَلَيْهِ الِاجْتِهَادَاتُ وَالْآرَاءُ، وَتُوزَنُ بِمِيزَانِهِ الْحَقِّ.

فَلَا تُخْضَعُ السِّيرَةُ لِأَحْوَالِ الْبَشَرِ، وَلَا لِتَقَلُّبَاتِ الْعُصُورِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْضَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تُتَّخَذَ مَنْهَجًا مِعْيَارِيًّا يُعَايَرُ عَلَيْهِ جَمِيعُ الِاجْتِهَادَاتِ وَالْآرَاءِ، وَتُوزَنُ بِمِيزَانِهِ الْحَقِّ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ.

◉ ◉ ◉

ثَمَراتُ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَأَمَّا الثَّمَرَاتُ الَّتِي يَجْنِيهَا الدَّارِسُ مِنْ دِرَاسَتِهِ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَكَثِيرَةٌ وَاسِعَةٌ غَيْرُ مَحْصُورَةٍ، مِنْهَا:

* **أَنَّكَ بِدِرَاسَتِكَ لِسِيرَةِ نَبِيِّكَ ﷺ تُحَقِّقُ شَطْرَ الشَّهَادَةِ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ**، وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ الْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ بِأَنَّ «مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» تَسْتَلْزِمُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَهِيَ: تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

◉ **لَوَازِمُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ:**

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: تَصْدِيقُهُ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ عَنِ اللهِ، وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعَنْ جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ فِي جَنَّاتِ نَعِيمٍ، وَمَا فِيهَا مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، وَمَا وَصَفَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا ذَكَرَ فِيهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا ذَكَرَ عَنْ عُقُوبَةِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعْرِضِينَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي نَارٍ تَلَظَّىٰ، وَجَحِيمٍ مُقِيمٍ تَذُوبُ فِيهِ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ، وَعَنِ الْحَوَادِثِ الْمُنْتَظَرَةِ، وَعَنِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ.

تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ.

وَطَاعَتُهُ ﷺ **فِيمَا أَمَرَ**: بِالِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِهِ، وَالِانْقِيَادِ لَهُ، وَتَنْفِيذِ ذَلِكَ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ بِمُخْتَلَفِ صُوَرِهَا السِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، وَعَدَمِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَقْدِيرِهِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَىٰ شَرْعِهِ، وَالرِّضَا بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لَهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

وَأَعْظَمُ مَا نُهِيَ عَنْهُ الشِّرْكُ بِكُلِّ صُوَرِهِ وَأَنْوَاعِهِ، فَهُوَ أَخْطَرُ الذُّنُوبِ وَأَعْظَمُهَا، وَهُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ!**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ؛ فَاجْتِنَابُ الْمَنَاهِيِّ وَالْمُحَرَّمَاتِ حَتْمٌ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ، وَعَلَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَرَامِ وِقَايَةً وَحِمًىٰ؛ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، **وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ وَمَنْهَجِهِ**؛ وَهَذَا أَصْلٌ فِي الْمُتَابَعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، وَضَابِطٌ فِي الْعِبَادَةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَلَا يَزِيدُ الْعَبْدُ عَنِ الْمَشْرُوعِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ؛ يَتَّبِعُ وَلَا يَبْتَدِعُ.

قَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. **أَيْ**: مَرْدُودٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَغَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللهِ، بَلْ يُعَاقَبُ فَاعِلُهُ وَلَا يُثَابُ؛ لِأَنَّهُ شَرَّعَ أَمْرًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَقَرَّبَ إِلَىٰ اللهِ بِأَمْرٍ لَمْ يَشْرَعْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَابْتَدَعَ فِي الدِّينِ بِدْعَةً حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ حَسَنًا فَلَا يَكْفِي حُسْنُ النِّيَّاتِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ.

فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَيْسَتْ بِالْهَوَىٰ وَالرَّغْبَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ الْعَقْلِيِّ؛ إِنَّمَا هِيَ بِالِاتِّبَاعِ لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَأَوَّلُ ثَمَرَةٍ تَجْنِيهَا مِنْ دِرَاسَةِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّكَ تُحَقِّقُ شَطْرَ الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُسْلِمًا إِلَّا إِذَا أَتَىٰ بِهَا.

يَعْنِي لَنْ تُحَقِّقَ مَعْنَىٰ أَنْ تَشْهَدَ «أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» إِلَّا إِذَا عَرَفْتَ رَسُولَ اللهِ، وَعَرَفْتَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِهِ، وَمَا نَهَىٰ عَنْهُ، وَأَعْظَمُ مَا يُعِينُكَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنْ تَعْرِفَ سِيرَةَ نَبِيِّكَ ﷺ.

وَأَيْضًا مِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ:

* **تَحْقِيقُ مَحَبَّةِ الْمُسْلِمِ لِرَبِّهِ** ﷻ الَّتِي عَلَّقَهَا اللهُ بِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْوُقُوفِ عَلَىٰ هَدْيِهِ، وَمَعْرِفَةِ سُنَّتِهِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ سِيرَتِهِ ﷺ.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

* **تَحْقِيقُ مَحَبَّةِ الرَّسُولِ** ﷺ الَّتِي لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الْمُسْلِمِ إِلَّا بِهَا كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَمِنْ مُقْتَضَىٰ مَحَبَّتِهِ السَّيْرُ عَلَىٰ هُدَاهُ، وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالتَّعَرُّفِ عَلَىٰ سُنَّتِهِ وَأَعْمَالِهِ، كَمَا أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَىٰ مَا بَذَلَهُ الرَّسُولُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَمَا تَعَرَّضَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ لَهُ مِنَ الْمِحَنِ وَالِابْتِلَاءَاتِ حَتَّىٰ أَظْهَرَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَنَارَ بِهِ دُرُوبَ الْهُدَىٰ لِلسَّالِكِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ كُلُّ ذَلِكَ يُورِثُ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ ﷺ وَإِدْرَاكَ فَضْلِهِ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ:

* **الْوُقُوفُ عَلَىٰ تَطْبِيقِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِ ﷺ** مِنْ خِلَالِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالتَّعَرُّفِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ، وَتَعَامُلِهِ ﷺ.

كَذَلِكَ مِنْ ثَمَرَاتِ الدِّرَاسَةِ:

* **زِيَادَةُ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ** بِالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ، وَمُعْجِزَاتِهِ ﷺ.

وَكَذَلِكَ:

* **تَتَعَرَّفُ عَلَىٰ مَنْهَجِ نَبِيِّكَ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ** جَلَّ وَعَلَا؛ فَمِنْ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِمُخْتَلَفِ مَوَاقِفِهَا، وَصُوَرِهَا نَتَعَلَّمُ الْمَنْهَجَ الدَّعَوِيَّ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَيْفَ تَعَامَلَ مَعَ أَخْطَاءِ النَّاسِ، وَجَفَاءِ الْأَعْرَابِ، وَمَكَايِدِ الْأَعْدَاءِ، وَدَسَائِسِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَقَدْ كَانَ رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَكَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَكَانَ حَكِيمًا فِي مُعَالَجَةِ الْمُشْكِلَاتِ وَالْمَوَاقِفِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكَانَ حَلِيمًا يَعْذُرُ الْجَاهِلَ حَتَّىٰ يَتَعَلَّمَ.

وَبِهَذَا الْمَنْهَجِ وَهَذِهِ الْأَخْلَاقِ اسْتَطَاعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِخْرَاجَ الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالتَّعَصُّبِ، وَالشَّتَاتِ وَالتَّفَرُّقِ، إِلَىٰ نُورِ الْإِسْلَامِ وَهِدَايَةِ الرَّحْمَنِ، وَالتَّرَقِّي فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ كَانَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

وَالنَّاظِرُ فِي أَحْوَالِ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، وَمَا فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الطِّبَاعِ، وَقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ، وَالتَّعَلُّقِ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَطَاعَةِ الْجَانِّ وَالْكُهَّانِ، وَتَقْدِيسِ التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، وَمَوْرُوثِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، النَّاظِرُ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ يَعْجَبُ كَيْفَ تَحَوَّلَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَبَدَّلَتْ طِبَاعُهُمْ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ، فَصَارَتْ أُمَّةً ذَاتَ عِلْمٍ وَحَضَارَةٍ وَأَخْلَاقٍ سَامِيَةٍ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ جَمِيعًا إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالنُّورِ.

لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مُمْتَثِلًا لِقَوْلِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «أُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ»؛ أَيْ: أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ أَخْطَائِهِمْ، وَمَا لَا يَنْبَغِي مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

فَالتَّعَرُّفُ عَلَىٰ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ سِيرَتِهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَتَعَرَّفُ الْمُسْلِمُ عَلَىٰ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ كَمَا تَعَرَّفَ عَلَىٰ مَنْهَجِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

◉ وَمِنْ أَهَمِّ مَعَالِمِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ:

إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَعَدَمُ تَحْمِيلِ النَّفْسِ مَا لَا تُطِيقُ.

وَالْحَثُّ عَلَىٰ لُزُومِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَالْحَذَرُ مِنَ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ.

وَأَنَّهُ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا دَاوَمَ عَلَيْهِ؛ قَالَ ﷺ: «**خَيْرُ الْعَمَلِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، وَإِنْ قَلَّ**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَهَذَا مِنْ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعِبَادَةِ.

كَذَلِكَ كَثْرَةُ الذِّكْرِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْأَذْكَارِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ كَأَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، وَالذِّكْرِ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ، وَالذِّكْرِ الْمُطْلَقِ، وَالذِّكْرِ فِي الْمُنَاسَبَاتِ: عِنْدَ دُخُولِ الْمَنْزِلِ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، وَعِنْدَ النَّوْمِ، وَعِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ، وَالْخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِي السَّفَرِ، وَعِنْدَ رُكُوبِ الدَّابَّةِ، إِلَىٰ آخِرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الِاسْتِغْفَارِ، وَالتَّوْبَةُ، وَاللُّجُوءُ إِلَىٰ اللهِ.

وَكَذَا الصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ لِلنَّاسِ وَلِأَهْلِهِ.

وَكَذَلِكَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، **وَالزَّاهِدُ**: هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الدُّنْيَا فِي يَدِهِ لَا فِي قَلْبِهِ، فَيُنْفِقُ مَا يُحَصِّلُهُ مِنْهَا فِي طَاعَةِ اللهِ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّفَقَاتِ، وَفِي سَدِّ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا الْإِنْفَاقَ هُوَ الْبَاقِي لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يُحْسَبُ فِي رَصِيدِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَقَدْ رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**».

قَالَتْ: مَا بَقِيَ إِلَّا ذِرَاعُهَا.

قَالَ: «**بَلْ بَقِيَتْ كُلُّهَا غَيْرَ ذِرَاعِهَا**»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ؛ فَهَذَا الْحَدِيثُ وَأَمْثَالُهُ يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ مَعْنَىٰ الزُّهْدِ، وَأَنَّهُ فِعْلٌ إِيجَابِيٌّ تِجَاهَ النَّفْسِ، لَيْسَ أَمْرًا سَلْبِيًّا كَمَا يَفْهَمُ الْبَعْضُ، أَوْ قُعُودًا عَنِ الْكَسْبِ وَالْعَمَلِ.

وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ **الزُّهْدَ**: هُوَ تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ: وَالْحِرْصُ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ فِي الْآخِرَةِ؛ **وَالْوَرَعَ**: هُوَ تَرْكُ مَا تَخْشَىٰ عُقُوبَتَهُ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ: مِمَّا لَمْ تَتَّضِحْ حُرْمَتُهُ، لَكِنْ فِيهِ شُبْهَةٌ أَوْ فِي تَرْكِهِ صِيَانَةٌ لِلْعِرْضِ، أَمَّا الْمُحَرَّمُ فَمِنَ الْوَاجِبِ تَرْكُهُ، وَلَيْسَ مِنَ الْوَرَعِ فَحَسْبُ.

وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ؛ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**».

فَالْوَرَعُ اسْتِبْرَاءٌ لِلدِّينِ وَالْعِرْضِ.

* **تَثْبِيتُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَسْلِيَتُهُمْ فِي سَبِيلِ مَا يَعْتَرِضُهُمْ** مِنْ مِحَنٍ وَابْتِلَاءَاتٍ فِي حَيَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ أَوْ فِي سَبِيلِ تَطْبِيقِهِمْ لِلْإِسْلَامِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَجْنِيهَا الدَّارِسُ لِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ؛ فَسِيرَتُهُ وَحَيَاتُهُ ﷺ مَلِيئَةٌ بِالدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

وَمِنَ الثَّمَرَاتِ:

* **الْوُقُوفُ عَلَىٰ مَا بَذَلَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ** ﷺ مِنْ مُؤَازَرَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنُصْرَةٍ لِدِينِ اللهِ، وَمَا قَدَّمُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنْ تَضْحِيَّاتٍ كَبِيرَةٍ بِصُورَةٍ لَمْ يَشْهَدْ لَهَا تَارِيخُ الْبَشَرِيَّةِ مَثِيلًا، وَهَذَا مَا جَعَلَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونُوا خَيْرَ الْقُرُونِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»، وَهَذَا يَسْتَدْعِي مَحَبَّتَنَا لَهُمْ، وَالتَّرَضِّيَ عَنْهُمْ، وَالسَّيْرَ عَلَىٰ خُطَاهُمْ.

وَكَذَلِكَ مِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ:

* **الْوُقُوفُ عَلَىٰ صُوَرٍ مِنَ الْإِيمَانِ الْحَيِّ عِنْدَمَا يُخَالِطُ قُلُوبَ الْبَشَرِ**؛ فَيُحَوِّلُهُمْ إِلَىٰ أُنَاسٍ غَيْرِ عَادِيِّينَ فِي وُضُوحِ أَهْدَافِهِمْ، وَعُلُوِّ هِمَمِهِمْ، وَتَدَفُّقِ عَوَاطِفِهِمْ، وَسُمُوِّ غَايَاتِهِمْ، وَعَظِيمِ تَضْحِيَّاتِهِمْ.

وَهَذَا جَعَلَهُمْ -وَإِنْ مَشَوْا عَلَىٰ الْأَرْضِ- فِي اتِّصَالٍ مَعَ اللهِ وَالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ؛ فَمِنْهُمْ مَنِ اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِهِ، وَشَارَكَ الْمَلَائِكَةُ فِي تَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ لِتَغْسِيلِهِ حِينَ مَاتَ، وَآخَرُ تَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ لِتَسْمَعَ تَرَنُّمَهُ بِالْقُرْآنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي لِأَجْلِهِ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِيُبَلِّغَهُ السَّلَامَ مِنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا حِينَ خَالَطَ الْإِيمَانُ الْحَيُّ قُلُوبَهُمْ.

وَهَذَا بِدَوْرِهِ يُحَرِّكُ عَوَاطِفَ الْخَيْرِ فِي الْمُؤْمِنِ، وَيَزِيدُ إِيمَانَهُ إِيمَانًا، وَيَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي قَلْبِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؛ فَيَدْفَعُهُ إِلَىٰ طَرِيقِ الْإِيمَانِ.

* وَدِرَاسَةُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ خَيْرُ مُعِينٍ عَلَىٰ فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ خِلَالِ فَهْمِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي لَهَا صِلَةٌ بِأَحْدَاثِ السِّيرَةِ وَوَقَائِعِهَا.

وَكَذَلِكَ مِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ:

* بَيَانُ مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مِنْ خِلَالِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ تَعَامُلِهِ مَعَ غَيْرِهِ؛ ابْتِدَاءً بِتَعَامُلِهِ مَعَ رَبِّهِ، ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ تَعَامُلِهِ مَعَ سَائِرِ الْبَشَرِ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ ذَوِي قُرْبَىٰ وَأَصْحَابٍ وَخَدَمٍ، بَلْ حَتَّىٰ مَعَ أَعْدَائِهِ وَمَا كَانَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْ تَعَامُلِهِ مَعَ الْحَيَوَانِ وَالرِّفْقِ بِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُ يَسْتَحِقُّ شَهَادَةَ اللهِ لَهُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

* إِنَّ مَعْرِفَةَ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا تَنْمِيَةٌ لِلْوَلَاءِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْبَرَاءِ مِنْ أَعْدَائِهِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ.

فَفِي دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ أَحْوَالِهِ الزَّكِيَّةِ، وَمَوَاقِفِهِ الْمُشْرِقَةِ ﷺ، وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهِ ﷺ فِي دِرَاسَتِهَا ثَمَرَةٌ عَظِيمَةٌ بِنُمُوِّ الْوَلَاءِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَزْدَادُ ذَلِكَ وَيَتَرَسَّخُ وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَكُلِّ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ مَعَ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ وَفْقَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.

فَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تُحَافِظُ عَلَىٰ هُوِيَّةِ الْأُمَّةِ وَتَمَيُّزِهَا، وَهُوَ حِصْنٌ قَوِيٌّ يَجِبُ الِاهْتِمَامُ بِهِ؛ حَتَّىٰ تَضْمَنَ الْأُمَّةُ اسْتِقْلَالَ شَخْصِيَّتِهَا وَتَمَيُّزَهَا.

وَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ مُؤَثِّرٌ فِي السُّلُوكِ، وَمُنْضَبِطٌ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَمُرْتَبِطٌ بِالْمَحَبَّةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

مِنْ ثَمَرَاتِ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* التَّعَرُّفُ عَلَىٰ آثَارِ الْجِهَادِ فِي تَحْرِيرِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، وَإِزَالَةِ الظُّلْمِ عَنْهَا، وَإِخْرَاجِهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ، وَعِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَرَحْمَتِهِ وَتَحْكِيمِ شَرْعِهِ الَّذِي ضَمِنَ لَهُمُ الْعَدْلَ وَتَحْقِيقَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَقَّةِ، وَمُمَارَسَةَ الْإِنْسَانِ لِحُقُوقِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الْفِطْرِيَّةِ كَمَا أَرَادَ لَهُ خَالِقُهُ؛ فَأُتِيحَتْ لَهُ الْحُرِّيَّةُ، وَأُزِيلَتْ مِنْ أَمَامِهِ الْعَوَائِقُ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنَ الِاخْتِيَارِ الصَّحِيحِ.

فَإِنَّ الْجِهَادَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ لَيْسَ لِإِجْبَارِ النَّاسِ عَلَىٰ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِإِزَالَةِ الْمَوَانِعِ وَالْحَوَاجِزِ الَّتِي تَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَلَا تُتِيحُ الْحُرِّيَّةَ لِلنَّاسِ

لِيَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ بَعْدَ تَمَعُّنٍ وَتَأَمُّلٍ فِي دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمُ النَّمُوذَجَ الْمِثَالِيَّ الْمُطَبَّقَ فِي الْوَاقِعِ بِكُلِّ نَظَافَتِهِ، وَعَدْلِهِ، وَاسْتِقَامَتِهِ؛ فَلَا يَكْتَفُونَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ مُثُلٍ وَنَظَرِيَّاتٍ جَمِيلَةٍ غَيْرِ مُطَبَّقَةٍ فِي الْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا يَدْعُوهُمْ لِأَمْرٍ بَيِّنٍ يُشَاهِدُونَ تَطْبِيقَهُ فِي الْوَاقِعِ.

إِنَّهَا فُتُوحَاتٌ لِتَمْكِينِ النَّاسِ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَاقِعًا مُعَاشًا، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ ذَاتَ طَبِيعَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ؛ لِأَنَّهَا مُطَابِقَةٌ لِلْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا؛ فَاسْتَقْبَلَتْهَا النُّفُوسُ السَّلِيمَةُ بِكُلِّ تَرْحَابٍ وَقَبِلَتْهَا؛ فَالْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَجِهَادُ النَّبِيِّ ﷺ إِنْقَاذٌ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ ظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُحَرَّفَةِ إِلَىٰ رَحْمَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدْلِهِ، وَسَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ أَمَامَ رُسْتُمَ: «إِنَّ اللهَ ابْتَعَثَنَا؛ لِنُخْرِجَ الْعِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَىٰ عَدْلِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

مِنْ ثَمَرَاتِ الدِّرَاسَةِ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

* التَّعَرُّفُ عَلَىٰ مَوْقِفِ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَكَيْفَ تَجَاوَزَ مَكَائِدَهُمُ الْكَثِيرَةَ حَتَّىٰ فَضَحَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَعَرَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسِيمَاهُمْ وَلَحْنِ قَوْلِهِمْ، بَلْ عَرَّفَهُ اللهُ أَسْمَاءَهُمْ؛ فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ حِذْرَهُمْ مِنْهُمْ رَغْمَ مَا أَصَابَ بَعْضَهُمْ مِنْ آثَارِ دَسَائِسِهِمْ.

بَلْ حَتَّىٰ الرَّسُولُ ﷺ وَصَلَهُ أَذَىٰ الْمُنَافِقِينَ فِي أَهْلِهِ عِنْدَمَا جَاءَ عُصْبَةٌ مِنْهُمْ بِالْإِفْكِ، لَكِنْ جَعَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ خَيْرًا، وَرَفَعَ دَرَجَةَ مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِهِمْ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾ [النور: ١١].

وَهَذَا فِيهِ دَرْسٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَرِّ الْأَزْمَانِ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ، وَيَحْتَاطُوا فِي أَمْرِهِمْ، وَلَا يَقَعُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَبَائِلِ الْمُنَافِقِينَ وَدَعْوَاهُمُ الَّتِي يُزَخْرِفُونَهَا، وَيُظْهِرُونَ مِنْهَا إِرَادَةَ الْإِصْلَاحِ وَهُمْ فِي وَاقِعِ أَمْرِهِمْ مُفْسِدُونَ مُخَادِعُونَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

فَمِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ النَّظَرِ فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: بَيَانُ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَكَائِدِهِمْ.

وَمِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُهِمَّةِ:

* التَّعَرُّفُ عَلَىٰ مَوَاقِفِ الْيَهُودِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فَقَدْ عَامَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قُرْبٍ وَعَقَدَ مَعَهُمْ مُعَاهَدَاتٍ وَمَوَاثِيقَ وَلَكِنَّهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ طَبْعُهُمْ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِمْ شِقْوَتُهُمْ؛ فَنَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَهُ قَبِيلَةً تِلْوَ أُخْرَىٰ، وَحَاقَ بِهِمْ

نَتِيجَةُ غَدْرِهِمْ، وَمَكَّنَ اللهُ رَسُولَهُ مِنْهُمْ؛ فَأَجْلَىٰ بَعْضَهُمْ، وَقَتَلَ بَعْضَهُمْ؛ جَزَاءَ غَدْرِهِمْ وَخِيَانَتِهِمُ الْعُظْمَىٰ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ وَالْمُوَاجَهَةِ مَعَ الْأَحْزَابِ الْكَافِرَةِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ وَقَضَاءَهُ الْعَادِلَ لِشَنَاعَةِ فِعْلِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ.

فَأَيْنَ الْمُعْتَبِرُونَ؟! وَكَيْفَ يُوثَقُ فِي يَهُودَ وَهَذَا تَارِيخُهُمْ، وَقَدْ عَرَّفَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ مَعَ رُسُلِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْغَادِرَةِ وَالطُّرُقِ الْمُلْتَوِيَةِ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]

وَالْمُطَّلِعُ عَلَىٰ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَيْرِ دَعْوَتِهِ يُلَاحِظُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ شِدَّةَ الضُّغُوطِ الَّتِي وَاجَهَهَا الرَّسُولُ ﷺ، ثُمَّ يَرَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ انْتِقَالَهَا مِنْ نَصْرٍ إِلَىٰ نَصْرٍ، وَازْدِيَادَ أَتْبَاعِ الدَّعْوَةِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، ثُمَّ مِنَ النُّزَّاعِ مِنَ الْقَبَائِلِ رَغْمَ الْأَذَىٰ الشَّدِيدِ وَالْمُوَاجَهَةِ الْقَوِيَّةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَتَنْوِيعِهِمُ الْأَسَالِيبَ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ وَأَهْلِهَا.

وَيُدْرِكُ بِكُلِّ يَقِينٍ عِنَايَةَ اللهِ، وَتَوْفِيقَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرَهُمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا مِمَّا يُقَوِّي الثِّقَةَ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكُلِّ زَمَانٍ؛ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ، وَالتَّمْكِينَ سَيَكُونُ لِدِينِهِمْ وَحَمَلَتِهِ؛ فَيَجِدُّوا وَيَجْتَهِدُوا وَيَثْبُتُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمُ النَّصْرُ.

وَمَا يَرَوْنَهُ مِنْ ظُهُورِ الْكُفَّارِ وَسَيْطَرَتِهِمْ فِي فَتْرَةٍ مِنْ فَتَرَاتِ الزَّمَانِ لَنْ يَكُونَ وَضْعًا دَائِمًا، بَلْ سَيَزُولُ وَيَظْهَرُ أَهْلُ الْحَقِّ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَوَامِلِ عَلَىٰ مُحَارَبَةِ الْيَأْسِ، وَالْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ عَلَىٰ حَسَبِ الْمَقْدِرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ وَالِاجْتِهَادِ فِي ذَلِكَ وَمُغَالَبَةِ الْكُفَّارِ حَتَّىٰ يَمْتَلِكَ الْمُسْلِمُونَ زِمَامَ الْقُوَّةِ وَعُدَّةَ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنَ اللهِ، وَلَهُ شُرُوطٌ وَمُسْتَلْزَمَاتٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّحَقُّقِ بِهَا؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَ نَصْرُ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فَشَرْطُ التَّمْكِينِ وَالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ وَحُصُولِ الْأَمْنِ وَانْتِفَاءِ الْخَوْفِ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الْمَذْكُورُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

مِنْ ثَمَرَاتِ الِاطِّلَاعِ عَلَىٰ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

* التَّمَسُّكُ بِالدِّينِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ مَا يُلَاقِي الْمَرْءُ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فَقَدْ لَاقَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ صُنُوفًا مِنَ الْأَذَىٰ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَإِبْلَاغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

فَقَدِ اتَّهَمَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي عَقْلِهِ، وَفِي سُلُوكِهِ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعْدَاؤُهُ يَعْرِفُونَ بَرَاءَتَهُ، لَكِنَّ الْخُصُومَةَ وَالْمُغَالَبَةَ وَالِاعْتِدَاءَ وَصَلَ بِهِمْ إِلَىٰ هَذَا الْمَدَىٰ؛ فَقَالُوا عَنْهُ ﷺ إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَشَاعِرٌ، وَسَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَقَالُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْهُدَىٰ: أَسَاطِيرُ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]، وَقَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ [النحل: ١٠٣]، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ كَذِبَهُمْ؛ فَقَالَ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ لِأَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَأْتِي بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ كَانَ عِنْدَ الصَّفَا، وَهُوَ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا الْقُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ؛ فَكَيْفَ يَتَّفِقُ أَنْ يَأْتِيَ الْأَعْجَمِيُّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ؟! إِنَّ هَذَا مُحَالٌ، وَلَكِنْ كَمَا قِيلَ: الْخُصُومَةُ حِجَابٌ سَاتِرٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ.

لَقَدْ وَاجَهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّ أَنْوَاعِ الْأَذَىٰ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ بِالصَّبْرِ وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم صَبَرُوا عَلَىٰ مَا لَا يُصْبَرُ عَلَيْهِ عَادَةً، مَعَ أَنَّهُمْ عَرَبٌ، وَعَاشُوا فِي بِيئَةٍ تَتَّصِفُ بِسُرْعَةِ الِانْتِقَامِ وَالْغَضَبِ، وَتُقَدِّسُ الثَّأْرَ، وَحُرُوبُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَالِبُهَا كَانَ لِأَسْبَابٍ تَافِهَةٍ كَحَرْبِ الْبَسُوسِ وَحَرْبِ دَاحِسٍ وَالْغَبْرَاءِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا حَوَّلَهُمُ اتِّبَاعُهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ الشَّرِيفِ إِلَىٰ هَذَا النَّمَطِ الْعَالِي، وَالْمَثَلِ الَّذِي يُحْتَذَىٰ، وَإِلَىٰ الْقُدْوَةِ الَّتِي يُتَأَسَّىٰ بِهَا -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-، وَفِيهِمْ أُسْوَةٌ، وَفِي الرَّسُولِ ﷺ الْأُسْوَةُ الْكُبْرَىٰ.

فَإِذَنْ؛ النَّظَرُ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَحْمِلُ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يُلَاقِي الْمَرْءُ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

⊙⊙⊙

النِّطَاقُ الزَّمَنِيُّ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

الْبِعْثَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ هِيَ خَاتِمَةُ الرِّسَالَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

رِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا أَنَّ شَرِيعَتَهُ نَاسِخَةٌ لِجَمِيعِ شَرَائِعِ الرُّسُلِ؛ فَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَ شَرِيعَتِهِ ﷺ، وَهِيَ تَأْتِي حَسَبَ التَّسَلْسُلِ التَّارِيخِيِّ آخِرَ النُّبُوَّاتِ.

وَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي نِطَاقِهَا الزَّمَانِيِّ: هِيَ مِنْ وِلَادَتِهِ ﷺ عَامَ الْفِيلِ حَتَّىٰ وَفَاتِهِ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ. **جُمْلَتُهَا**: ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً قَمَرِيَّةً، **وَيُوَافِقُهَا فِي التَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ**: مِنَ الْعَامِ الْحَادِي وَالسَّبْعِينَ بَعْدَ الْخَمْسِ مِئَةٍ إِلَىٰ الثَّانِي وَالثَّلَاثِينَ بَعْدَ السِّتِّ مِئَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عليه السلام.

وَالنُّبُوَّاتُ جَمِيعًا تُمَثِّلُ وِحْدَةً تَارِيخِيَّةً ذَاتَ حَلْقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَالْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَهَا سِمَاتٌ مُشْتَرَكَةٌ.

وَالتَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ بِهَذَا الْمَفْهُومِ لَيْسَتْ بِدَايَتُهُ مِنْ بَعْثَةِ الْمَعْصُومِ ﷺ كَمَا قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ، إِنَّمَا بِدَايَتُهُ الْحَقِيقِيَّةُ مِنْ هُبُوطِ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ

مُسْلِمَيْنِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ عليه السلام نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي «الْمِشْكَاةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَاسْتَمَرَّتْ ذُرِّيَّةُ آدَمَ عَشَرَةَ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْخَبَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الِانْحِرَافُ فِي التَّوْحِيدِ وَظَهَرَ الشِّرْكُ فِي الْبَشَرِيَّةِ بَعَثَ اللهُ نُوحًا عليه السلام؛ لِيُجَدِّدَ مَعَالِمَ التَّوْحِيدِ وَيُعِيدَ الْمُشْرِكِينَ إِلَىٰ الْحَقِّ.

ثُمَّ تَتَابَعَتِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فَأَصْلُ الدِّينِ وَاحِدٌ، هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، أَمَّا الشَّرَائِعُ فَهِيَ مُتَنَوِّعَةٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: **«أَنَا أَوْلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ»**؛ أَيْ: لَيْسَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِيسَىٰ عليه السلام لَيْسَ بَيْنَهُمَا نَبِيٌّ، الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ».

وَمُنْذُ وُقُوعِ الشِّرْكِ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ عليه السلام انْقَسَمَتِ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ حَيْثُ الْعَقِيدَةُ إِلَىٰ أُمَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ: أُمَّةٍ مُسْلِمَةٍ مُوَحِّدَةٍ، وَأُمَّةٍ كَافِرَةٍ مُشْرِكَةٍ، وَكُلُّ الَّذِينَ صَدَّقُوا الرُّسُلَ وَاتَّبَعُوهُمْ مِنْ آدَمَ عليه السلام إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ هُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَيُمَثِّلُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَإِنِ اخْتَلَفَتْ بُلْدَانُهُمْ وَلُغَاتُهُمْ، وَتَبَاعَدَتْ أَزْمَانُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ

شَرَائِعُهُمْ، كَمَا قَالَ تعَالَىٰ بَعْدَ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ أُمَّةُ التَّوْحِيدِ، وَحِزْبُ الرَّحْمَنِ، وَأَهْلُ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ، وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ.

أَمَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَهُمْ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ أَوْطَانُهُمْ، وَمَذَاهِبُهُمْ، وَأَزْمَانُهُمْ؛ فَإِنَّ السِّمَةَ الْجَامِعَةَ لَهُمْ هِيَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ.

وَهَذَا الْمَفْهُومُ يُوَضِّحُ مَنْزِلَةَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِنْ كَانَ نِطَاقُهَا الزَّمَنِيُّ مَحْدُودًا بِحَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوِلَادَةِ حَتَّىٰ الْوَفَاةِ؛ فَهِيَ امْتِدَادٌ لِسِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَاسْتِمْرَارٌ لِتَارِيخِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ مُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَهَذَا هُوَ النِّطَاقُ الزَّمَانِيُّ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ.



النِّطَاقُ الْمَكَانِيُّ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَأَمَّا النِّطَاقُ الْمَكَانِيُّ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: فَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ بَلَدِ اللهِ الْحَرَامِ، وَفِيهَا بَيْتُهُ الْمُعَظَّمُ الَّذِي رَفَعَ قَوَاعِدَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ جَدُّ الْعَرَبِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِهَا؛ أَيْ: مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَقَدْ وُلِدَ وَنَشَأَ فِيهَا، وَمَكَّةُ يَوْمَئِذٍ حَاضِرَةُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكُبْرَىٰ، وَلَهَا مَكَانَةٌ دِينِيَّةٌ عِنْدَهُمْ؛ حَيْثُ يَحُجُّونَ إِلَيْهَا كُلَّ عَامٍ.

ثُمَّ هَاجَرَ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ بَعْدَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنَ الْبِعْثَةِ، وَفِيهَا أَسَّسَ بِنَاءَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، وَابْتَدَأَ الْجِهَادَ حَتَّىٰ فَتَحَ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، ثُمَّ أَتَتْهُ الْوُفُودُ مُسْلِمَةً مُسْتَسْلِمَةً فِي الْعَامِ التَّاسِعِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ حَتَّىٰ كَانَتِ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا خَاضِعَةً لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ، وَأَهْلُهَا إِمَّا مُسْلِمُونَ، وَإِمَّا مُعَاهَدُونَ مُسَالِمُونَ.

وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِكَامِلِهَا فِي وِحْدَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وِحْدَةٍ فِكْرِيَّةٍ عَقَدِيَّةٍ، وَوِحْدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ جُغْرَافِيَّةٍ، وَوِحْدَةٍ عَلَىٰ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَدِينِ التَّوْحِيدِ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ طُولَ تَارِيخِهَا إِمَارَاتٍ وَدُوَلًا مُتَفَرِّقَةً؛ فَفِي الْيَمَنِ كَانَتْ دَوْلَةُ مَعِينٍ، ثُمَّ دَوْلَةُ سَبَأٍ، ثُمَّ حِمْيَرٍ، ثُمَّ اسْتَعْمَرَهَا الْأَحْبَاشُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا الْفُرْسُ وَصَارَتِ الْوِلَايَةُ فِي أَبْنَائِهِمْ.

وَفِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ كَانَتْ فِي وَقْتِ الْبِعْثَةِ إِمَارَةُ الْحِيرَةِ، وَكَانَتْ خَاضِعَةً لِلْفُرْسِ، وَالْغَسَاسِنَةِ وَكَانُوا خَاضِعِينَ لِلرُّومِ.

أَمَّا الْحِجَازُ فَتَوَلَّىٰ أَمْرَهَا إِسْمَاعِيلُ بَعْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ -أَيْ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ-، ثُمَّ تَوَلَّاهَا أَوْلَادُهُ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ جَدُّ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ مُضَاضُ بْنُ عَمْرٍو الْجُرْهُمِيُّ، وَطَالَتْ وِلَايَةُ جُرْهُمٍ لِلْبَيْتِ حَوَالَيْ عِشْرِينَ قَرْنًا، ثُمَّ نَزَعَتْهَا مِنْهُمْ خُزَاعَةُ فَحَكَمَتْهَا ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ حَتَّىٰ انْتَزَعَهَا قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ، وَجَمَعَ قُرَيْشًا فِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، وَذَلِكَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمِيلَادِيِّ.

فَالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، هِيَ النِّطَاقُ الْمَكَانِيُّ لِحَرَكَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَبَعْدَ وَفَاتِهِ حَدَثَتْ رِدَّةٌ فِي الْأَطْرَافِ وَالْقُرَىٰ، وَلَكِنْ تَمَكَّنَ أَصْحَابُهُ الْكِرَامُ بِقِيَادَةِ خَلِيفَتِهِ الْأَوَّلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه؛ تَمَكَّنُوا مِنْ قَمْعِ الْمُرْتَدِّينَ، وَإِعَادَتِهِمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ فِي أَقَلَّ مِنْ عَامٍ وَاحِدٍ.

ثُمَّ انْطَلَقُوا بِالدَّعْوَةِ وَالْفُتُوحَاتِ إِلَىٰ مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا حَتَّىٰ دَانُوا بِالْإِسْلَامِ وَخَضَعُوا لِشَرِيعَتِهِ، وَأَحْكَامِهِ؛ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ سَيْرِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ فِي انْطِلَاقَتِهَا طَوَالَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهِجْرَةِ فَوَصَلُوا إِلَىٰ حُدُودِ الصِّينِ شَرْقًا، وَإِلَىٰ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ وَحُدُودِ فَرَنْسَا غَرْبًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

فَهَذَا هُوَ النِّطَاقُ الْمَكَانِيُّ لِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِكَامِلِهَا مَجَالٌ لِنَشْرِ الْإِسْلَامِ، وَأَهْلُهَا مَدْعُوُّونَ جَمِيعًا لِلدُّخُولِ فِي الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ تَعَالَىٰ دِينًا لِلْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

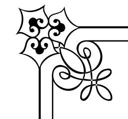
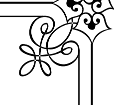
وَقَدْ رَاسَلَ النَّبِيُّ ﷺ مُلُوكَ الْأَرْضِ فِي زَمَانِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ تَنْفِيذًا لِعَالَمِيَّةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فَالرِّسَالَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ رِسَالَةٌ عَالَمِيَّةٌ لِكُلِّ الْأَجْنَاسِ الْبَشَرِيَّةِ كَمَا أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا نِطَاقٌ مَكَانِيٌّ لِحَرَكَةِ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ أَيْدِي أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ الْبَشَرُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ مُخْتَلَفِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَزْمَانِهِمْ مَدْعُوُّونَ لِلدُّخُولِ فِي دِينِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ، هُوَ رَحْمَةٌ لَهُمْ، وَمُنْقِذٌ لَهُمْ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْخُرَافَاتِ وَالْأَهْوَاءِ، وَالظُّلْمِ وَالْجوْرِ؛ لِتُشْرِقَ عَلَيْهِمْ أَنْوَارُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَلِتُحْفَظَ لَهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ الصَّادِقَةُ، وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ**».

◉ ◉ ◉

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

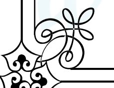
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]





جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

غَزَارَةُ المُصَنَّفَاتِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

لَقَدْ كُتِبَ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مُنْذُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ حَتَّىٰ أَيَّامِنَا هَذِهِ مَا يَعِزُّ عَلَىٰ الْحَصْرِ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ وَالْكُتُبِ بَيْنَ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَمَنْظُومٍ وَمَنْثُورٍ، وَمُتُونٍ وَشُرُوحٍ، وَسَيَبْقَىٰ الْكَاتِبُونَ يَدُورُونَ حَوْلَ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْمَأْمُونِ ﷺ، وَيَكْتُبُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ بِلُغَتِهِ، وَفِي كُلِّ مِصْرٍ بِمَفْهُومِهِ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؛ فَهَذَا دَلِيلٌ لِعِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ هُنَا أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَحْدَهُمْ بَلْ شَارَكَ وَسَاهَمَ فِي ذَلِكَ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَفِي شَتَّىٰ بِقَاعِ الْأَرْضِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ سُلَيْمَانُ النَّدَوِيُّ: «قَرَأْتُ فِي «مَجَلَّةِ الْمُقْتَبَسِ» الَّتِي تَصْدُرُ فِي دِمَشْقَ مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِحْصَاءً لِمَا صُنِّفَ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِمُخْتَلِفِ اللُّغَاتِ الْأُورُوبِّيَّةِ فَبَلَغَ نَحْوَ ثَلَاثِ مِئَةِ كِتَابٍ وَأَلْفِ كِتَابٍ، وَلَوْ أَضَفْنَا عَلَىٰ هَذَا الْعَدَدِ مَا صَدَرَ مِنَ الْمَطَابِعِ الْأُورُبِّيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ خِلَالَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَعْدَ ذَلِكَ الْإِحْصَاءِ الَّذِي نَشَرَتْهُ «مَجَلَّةُ الْمُقْتَبَسِ» لَأَرْبَىٰ -أَيْ: زَادَ- عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرًا».

وَنَحْنُ لَوْ أَضَفْنَا مَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ لَزَادَ الْعَدَدُ كَثِيرًا كَثِيرًا، وَعَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ فَكُلَّ مَا يُكْتَبُ فِي السِّيرَةِ لا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ السَّابِقِينَ الْأَوَائِلِ؛ لِأَنَّ كِتَابَةَ السِّيرَةِ -وَالتَّارِيخِ عُمُومًا- لَيْسَتْ مِنْ صُنْعِ الْخَيَالِ، وابْتِدَاعِ الذَّكَاءِ، بَلْ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ حَقَائِقَ مَرَّتْ عَلَىٰ هَذَا الْعَالَمِ فِي فَتْرَةٍ مِنَ الْفَتَرَاتِ، وَعَنْ أَحْدَاثٍ كَانَتْ مَاثِلَةً فِي مَكَانٍ مَا، وَعَنْ حَيَاةٍ عَاشَهَا فَرْدٌ أَوْ مُجْتَمَعٌ بِكُلِّ مَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ أَبْعَادٍ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ الْإِمَامُ فِي «التَّارِيخِ» وَ«التَّفْسِيرِ» وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ تَارِيخِهِ: «إِنَّ الْعِلْمَ بِمَا كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِي، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَنْبَاءِ الْحَادِثِينَ غَيْرُ وَاصِلٍ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يُشَاهِدْهُمْ وَلَمْ يُدْرِكْ زَمَانَهُمْ إِلَّا بِأَخْبَارِ الْمُخْبِرِينَ، وَنَقْلِ النَّاقِلِينَ دُونَ الِاسْتِخْرَاجِ بِالْعُقُولِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ بِفِكْرِ النُّفُوسِ».

أَيْ: أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي السِّيرَةِ إِنَّمَا هُوَ تَأْلِيفٌ، وَتَرْتِيبٌ، وَجَمْعٌ لِمَا وَرَدَ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي نَقَلَهَا لَنَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَمَلَهَا مَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّىٰ دُوِّنَتْ، فَلَيْسَتِ السِّيرَةُ اخْتِرَاعَ خَيَالٍ، وَلَيْسَتْ وَهْمَ وَاهِمٍ، وَلَيْسَتْ هِيَ تَحْوِيمَ مُحَوِّمٍ حَوْلَ أُمُورٍ تَدُورُ فِي نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ التَّارِيخُ إِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ وَقَائِعَ يَنْبَغِي أَنْ تُمَحَّصَ؛ فَإِذَا لَمْ تُزَيَّفْ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا، وَيَكُونَ عَمَلُ الْعَقْلِ وَحَرَكَتُهُ فِي اسْتِنْبَاطِ الْحُكْمِ، وَفِي مَا هُوَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ إِثْبَاتِ الْأَصِيلِ وَنَفْيِ الدَّخِيلِ.

أَمَّا أَنْ يَعْمَلَ شَيئا بِخَيَالِهِ فِي هَذِهِ السِّيَرِ أَوِ التَّوَارِيخِ فَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ ابْتِدَاعٌ وَاخْتِرَاعٌ لَا يَمُتُّ إِلَىٰ الْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ بِصِلَةٍ.

وَبَعْدَ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَحْدِيدِ الْأَحْدَاثِ وَالْأَشْيَاءِ التَّارِيخِيَّةِ تَكُونُ مَرْحَلَةُ الِاسْتِنْبَاطِ، وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّعْلِيلِ، وَيَقُومُ آنَئِذٍ الذَّكَاءُ بِدَوْرِهِ، وَالنِّزْاعَاتُ الشَّخْصِيَّةُ وَالْأَهْوَاءُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ النَّتَائِجَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

●●●

مَصَادِرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَهَكَذَا فَإِنَّ كُتُبَ السِّيرَةِ الَّتِي نَقَلَ مِنْهَا اللَّاحِقُونَ تَنْحَصِرُ فِي عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مَحْدُودٍ، وَلِهَذَا كَانَ لِزَامًا تَحْتَ مُقْتَضَيَاتِ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ أَنْ **تُقَسَّمَ مَصَادِرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ رَئِيسَيْنِ**، إِلَىٰ:

*** مَصَادِرَ أَصْلِيَّةٍ.**

*** وَمَصَادِرَ فَرْعِيَّةٍ.**

الْمَصَادِرُ الْأَصْلِيَّةُ: هِيَ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ وَمَا قَارَبَهَا، وَكَانَ أَصْحَابُهَا يَنْقُلُونَ مِنَ الْمَصَادِرِ الشَّفَهِيَّةِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَيُدَوِّنُونَ ذَلِكَ أَوْ يَتَلَقَّوْنَ مِنْ مُصَنَّفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَنْقُلُ بِالْأَسَانِيدِ، وَيُوجَدُ فِي كُلِّ كِتَابٍ مَا لَيْسَ فِي الْآخَرِ تَبَعًا لِكَثْرَةِ شُيُوخِهِ، وَتَعَدُّدِ مُدَوَّنَاتِهِ وَمَصَادِرِهِ.

تَمْتَدُّ هَذِهِ الْفَتْرَةُ -يَعْنِي فَتْرَةَ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ- حَتَّىٰ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ أَوْ بُعَيْدَهُ بِقَلِيلٍ.

وَأَمَّا الْمَصَادِرُ الْفَرْعِيَّةُ: فَهِيَ الَّتِي أُخِذَتْ مِنَ الْمَصَادِرِ الْأُولَىٰ، وَعَوَّلَتْ عَلَيْهَا، واقْتَصَرَ عَمَلُ مُؤَلِّفِيهَا عَلَىٰ الْجَمْعِ، وَالتَّنْسِيقِ، وَالتَّعْلِيقِ، وَالشَّرْحِ، وَبَيَانِ

الْغَامِضِ وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ، **وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَصَادِرِ وَاحِدًا مِنْ شَيْئَيْنِ أَيْ: عَلَىٰ الْمَصَادِرِ الْفَرْعِيَّةِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا وَاحِدٌ مِنْ شَيْئَيْنِ:**

* إِمَّا الْمُبَالَغَاتُ الزَّائِدَةُ وَتَصْوِيرُ السِّيرَةِ بِالصُّورَةِ الْأُسْطُورِيَّةِ.

* وَإِمَّا التَّحْلِيلُ الْجَافُّ مَعَ إِظْهَارِ بَعْضِ الْمَوَاقِفِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَىٰ غَيْرِ حَقِيقَتِهَا.

الْمَصَادِرُ الْفَرْعِيَّةُ يَغْلِبُ عَلَيْهَا وَاحِدٌ مِنْ شَيْئَيْنِ:

* إِمَّا الْمُبَالَغَاتُ الزَّائِدَةُ وَتَصْوِيرُ السِّيرَةِ بِالصُّورَةِ الْأُسْطُورِيَّةِ إِنْ كَانَ الْمُؤَلِّفُ مُؤْمِنًا مُحِبًّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ بَدَتِ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمُؤَلَّفَاتِ بَعِيدَةً عَنِ الْوَاقِعِ جِدًّا، وَتَجَلِّي هَذَا فِي الْأَعْصُرِ الْمُتَأَخِّرَةِ، رَحِمَ اللهُ الْإِمَامَ الذَّهَبِيَّ رَحِمَهُ اللهُ الَّذِي قَالَ فِي هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: الَّذِينَ صَبَغُوا السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَصَادِرِ الْفَرْعِيَّةِ بِالصِّبْغَةِ الْأُسْطُورِيَّةِ مَعَ جُنُوحِهِمْ إِلَىٰ مُبَالَغَاتٍ لَا تُتَصَوَّرُ- **قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ**: «نَبِيُّنَا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- غَنِيٌّ بِمِدْحَةِ التَّنْزِيلِ عَنِ الْأَحَادِيثِ، وَبِمَا تَوَاتَرَ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْآحَادِ، وَبِالْآحَادِ النَّظِيفَةِ الْأَسَانِيدِ عَنِ الْوَاهِيَاتِ فَلِمَاذَا يَا قَوْمِ التَّشَبُّعُ بِالْمَوْضُوعَاتِ؟! فَيَتَطَرَّقَ إِلَيْنَا مَقَالُ ذَوِي الْغِلِّ وَالْحَسَدِ، وَلَكِنْ مَنْ لَا يَعْلَمُ مَعْذُورٌ».

* وَيَغْلِبُ عَلَيْهَا أَيْضًا تَحْلِيلُهَا تَحْلِيلَاتٍ جَافَّةً، وَإِظْهَارُ بَعْضِ الْمَوَاقِفِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِغَيْرِ حَقِيقَتِهَا، وَهَذَا إِذَا كَانَ الْمُؤَلِّفُ غَيْرَ مُسْلِمٍ أَوْ كَانَ مُسْلِمًا لَكِنَّهُ

أَدْخَلَ السِّيرَةَ لِخِدْمَةِ نَزْعَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَّفِقُ مَعَ الْإِسْلَامِ، كَمَا فَعَلَ الْمُسْتَشْرِقُونَ عِنْدَمَا تَكَلَّمُوا عَنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ الْمَأْمُونِ؛ عَنْ حَيَاتِهِ الْعَائِلِيَّةِ وَزَوْجَاتِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، وَكَمَا فَعَلَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا جَعَلَ النَّبِيَّ اشْتِرَاكِيًّا! وَبَعْضُهُمْ جَعَلَهُ ﷺ رَأْسَمَالِيًّا! وَبَعْضُهُمْ جَعَلَهُ بَانِيًا لِلْمَجْدِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ... إِلَىٰ آخِرِ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ وُجِدُوا فِي هَذَا الزَّمَانِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَمَا زَالُوا مَوْجُودِينَ.

لِذَلِكَ فَإِنَّ عَمَلِيَّةَ تَحْدِيدِ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَهَمُّ عَمَلٍ أَمَامَ الدَّارِسِ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ خُصُوصًا، وَ لِلْإِسْلَامِ عُمُومًا، وَتَقْوِيمُ هَذِهِ الْمَصَادِرِ يُعْطِيهِ الْعُدَّةَ الْكَافِيَةَ لِتَنَاوُلِ السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَقِيَّةً مِنَ الشَّوَائِبِ، وَيَطَّلِعُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا وَأَبْعَادِهَا، ثُمَّ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَرُدَّ عَلَىٰ الَّذِينَ يُزَيِّفُونَ الْحَقَائِقَ وَيُشَوِّهُونَ تَارِيخَ النَّبِيِّ ﷺ مَهْمَا كَانَتْ صِبْغَتُهُمْ، وَمَهْمَا كَانَتْ لُغَتُهُمْ.

إِنَّ تَقْدِيمَ صُورَةٍ كَامِلَةٍ شَامِلَةٍ صَحِيحَةٍ لِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ وَاجِبٌ إِسْلَامِيٌّ؛ وَاجِبٌ إِسْلَامِيٌّ فِي أَعْنَاقِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَالْبَاحِثِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً، لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِالذَّاتِ الَّتِي بَدَأَ النَّاسُ فِيهَا يَتَلَهَّفُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِ فِي عَالَمِ الْكَبَدِ، وَالْعَنَتِ، وَالْإِرْهَاقِ، وَمَا زَالَ الْكَثِيرُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَحْمِلُونَ صُورَةً قَاتِمَةً سَيِّئَةً عَنْ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ ﷺ، وَعَنْ شَرِيعَتِهِ السَّمْحَاءِ، وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْمُسْلِمَ يَكْتُمُ عَاطِفَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَيَتَوَجَّبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ إِظْهَارُ مَحَبَّتِهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَلَكِنَّ تَمْحِيصَ

النُّصُوصِ عَمَلٌ عِلْمِيٌّ يَنْبَعِثُ مِنَ الْعَقْلِ، وَالْعَاطِفَةُ تَنْبَعِثُ مِنَ الْقَلْبِ وَالْمَشَاعِرِ؛ فَإِذَا كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ الثَّابِتِ الصَّحِيحِ فَإِنَّهَا -أَيِ: الْعَاطِفَةَ- لَنْ تَزْدَادَ مَعَ الْأَيَّامِ إِلَّا تَوَهُّجًا وَإِشْرَاقًا، وَهِيَ غَايَةٌ فِي حَدِّ ذَاتِهَا.

أَمَّا إِنْ كَانَتِ الْعَاطِفَةُ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ أَوْهَامٍ وَتَخَرُّصَاتٍ وَتَخَيُّلَاتٍ، أَوْ عَلَىٰ نُصُوصٍ ضَعِيفَةٍ مُتَهَالِكَةٍ فَإِنَّهَا لَنْ تَصْمُدَ، وَسَتَذْبُلُ مَعَ الْأَيَّامِ كُلَّمَا كَشَفَ الْعِلْمُ ضَعْفَهَا وَوَهَنَهَا.

◉ دَوْرُ الْمَدْرَسَةِ الِاسْتِشْرَاقِيَّةِ فِي تَزْيِيفِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْدَافِ الْمَدْرَسَةِ الِاسْتِشْرَاقِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ جَعْلُ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ حِينَ يَكْتُبُ عَنْ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ عَامَّةً، وَالسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ خَاصَّةً يَنْسَىٰ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَأَنَّهُ يَتَلَقَّىٰ التَّشْرِيعَ وَالْوَحْيَ، وَمَنْهَجَ الْحَيَاةِ عَنْ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

أَفْلَحَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الِاسْتِشْرَاقِيَّةُ فِي هَذَا السَّبِيلِ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ حَتَّىٰ رَأَيْنَا بَعْضَ مَنْ يَحْمِلُ الْأَسْمَاءَ الْإِسْلَامِيَّةَ -وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ- يَضَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي كِتَابَاتِهِ وَمُحَاضَرَاتِهِ عَلَىٰ قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ مَعَ الْكَاهِنَةِ، وَامْرِئِ الْقَيْسِ، وَالْمُقَنَّعِ صَاحِبِ ثَوْرَةِ الزَّنْجِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ حَارَبَ الْإِسْلَامَ عَبْرَ الْعُصُورِ، وَيَدَّعِي ذَلِكَ بِاسْمِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ رُسِّخَ فِي ذِهْنِهِ، وَخَلَدِهِ، وَمَشَاعِرِهِ هَذِهِ الْأَفْكَارُ السَّامَّةُ الْقَاتِلَةُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْغَرْبِيَّةِ.

يَقُولُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّد حُسَيْن رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ أَكْبَرِ مَا خُدِعَ بِهِ النَّاسُ -وَالْجَامِعِيُّونَ مِنْهُمْ بِوَجْهٍ خَاصٍّ- مَا زَعَمَهُ لَهُمْ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنْ أَنَّ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةَ

وَالْإِسْلَامِيَّةَ لَا تَصِحُّ، وَلَا تَكُونُ جَدِيرَةً بِالتَّقْدِيرِ، وَمُسْتَقِيمَةً عَلَىٰ مَوَازِينِ الْعِلْمِ حَتَّىٰ يَتَجَرَّدَ كَاتِبُهَا مِنْ عَاطِفَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ، فَيَنْسَىٰ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ حِينَ يَكْتُبُ تَارِيخَ الْعَرَبِ! وَيَنْسَىٰ أَنَّهُ مُسْلِمٌ حِينَ يَكْتُبُ تَارِيخَ الْمُسْلِمِينَ! وَلَيْسَ فِيمَا رَاجَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ مُفْتَرَيَاتٍ مَغَلَّطَةٍ أَقْبَحَ وَلَا أَخْطَرَ مِنَ الزَّعْمِ الَّذِي يَسْلُخُ الْعَرَبَ مِنْ عُرُوبَتِهِمْ، وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ بِاسْمِ الْعِلْمِ!!

فَالتَّارِيخُ الْقَوْمِيُّ وَالْآدَابُ لَا تُدْرَسُ دِرَاسَةً مَوْضُوعِيَّةً، وَلَكِنَّهَا تُسْتَخْدَمُ لِغَرَضٍ وَغَايَةٍ؛ فَتُوَجَّهُ لِتَنْمِيَةِ ثِقَةِ النَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَاعْتِزَازِهِمْ بِتُرَاثِهِمْ وَأَبْطَالِهِمْ، وَزِيَادَةِ رَوَابِطِهِمُ الْوَطَنِيَّةِ تَمَاسُكًا، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْكِتَابَاتُ دَائِمًا -وَلَا تَزَالُ- مَصْبُوغَةً بِصِبْغَةٍ قَوْمِيَّةٍ وَمَذْهَبِيَّةٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ وَالدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَىٰ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ كُلَّ نِظَامٍ جَدِيدٍ فِي أَيِّ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ يُعِيدُ كِتَابَةَ التَّارِيخِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ مَذْهَبَهُ وَأَهْدَافَهُ».

قَالَ: «وَإِنِّي أُؤَكِّدُ أَنَّ تَدْوِينَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّأْلِيفَ فِيهَا يَجِبُ أَنْ يُرْجَعَ فِيهِ إِلَىٰ مَصَادِرِهَا الْأُولَىٰ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ الْحَقُّ أَنْ يُحَلِّلَهَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تُهِمُّهُ تَحْلِيلًا أَدَبِيًّا أَوْ سِيَاسِيًّا أَوِ اقْتِصَادِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّحْلِيلُ مُسْتَنِدًا إِلَىٰ السِّيرَةِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ، وَلَيْسَ إِلَىٰ الْأَسَاطِيرِ وَالْخُرَافَاتِ الَّتِي أَضَافَهَا الْمُتَأَخِّرُونَ أَوِ اخْتَرَعَهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَفِي كُلِّ عَصْرٍ لَهُ أَعْدَاءٌ!».

فَهَذِهِ الْمَدْرَسَةُ جَنَتْ عَلَىٰ جِيلٍ كَامِلٍ؛ فَشَوَّهَتْ صُورَةَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ، وَرَكَّزَتْ عَلَىٰ شُبُهَاتٍ وَاهِيَاتٍ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْحَاقِدِينَ عَلَىٰ

النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَىٰ دِينِهِ، وَإِنَّمَا الْتَقَطُوهَا مِنْ غَيْرِ تَمْحِيصٍ وَلَا بَحْثٍ مِنْ مُدَوَّنَاتٍ لَمْ تَلْتَزِمِ الصِّحَّةَ، وَكَانَ كَاتِبُوهَا يَقُولُونَ: إِنَّ الْعُهْدَةَ لَيْسَتْ عَلَيْنَا؛ إِنَّمَا نَحْنُ نَاقِلُونَ، وَعَلَىٰ كُلِّ نَاظِرٍ فِيمَا نَقَلْنَاهُ مِنَ الْمَرْوِيَّاتِ أَنْ يَبْحَثَ، وَأَنْ يَفْحَصَ، وَأَنْ يُمَيِّزَ الْأَصِيلَ مِنَ الدَّخِيلِ، وَكَانُوا يَكْتُبُونَ لِطُلَّابِ عِلْمٍ، مَا كَتَبُوا لِمَا يُسَمَّىٰ الْيَوْمَ بِالْمُثَقَّفِينَ! وَلَا كَتَبُوا لِلْعَوَامِّ الْجَاهِلِينَ! وَإِنَّمَا كَتَبُوا لِطُلَّابِ الْعِلْمِ؛ لِذَلِكَ أَتَوْا بِتِلْكَ الْمَرْوِيَّاتِ عَلَىٰ مَا فِي بَعْضِهَا مِنَ الضَّعْفِ، أَوْ حَتَّىٰ مِنَ الْوَضْعِ وَالْكَذِبِ، وَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّ طُلَّابَهُمْ سَوْفَ يُمَحِّصُونَ مَا وَقَعَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رِوَايَاتٍ.

فَجَاءَ الْحَقَدَةُ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَعَلَىٰ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ فَأَخَذُوا يَبْحَثُونَ عَنْ تِلْكَ الْمَرْوِيَّاتِ فِي تَضَاعِيفِ الْكُتُبِ، وَخَرَجُوا بِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا حَقَائِقُ! مَعَ أَنَّ الْبَحْثَ الْعِلْمِيَّ يَدُلُّ عَلَىٰ تَزْيِيفِهَا لَوْ كَانُوا مِنَ الْمُنْصِفِينَ، وَجَاءَتْ تِلْكَ الْإِرْشَادَاتُ وَالتَّوْصِيَّاتُ وَالتَّعَالِيمُ مِنْ أُولَئِكَ الْغَرْبِيِّينَ الَّذِينَ تَرَبَّىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ كَثِيرٌ مِمَّنْ قِيلَ إِنَّهُمْ مِنْ «رُوَّادِ الْجِيلِ»!! الَّذِي حَمَلُوا مِشْعَلَ التَّنْوِيرِ!، وَأَخَذُوا يَعِيثُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا بِمَا أَتَوْا بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاهِجِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي هِيَ عَلَىٰ الْمُصَادَمَةِ التَّامَّةِ لِمَنَاهِجِ عُلَمَائِنَا الْمُسْلِمِينَ فِي: تَمْحِيصِ الرِّوَايَاتِ، وَضَمِّ النَّظِيرِ إِلَىٰ النَّظِيرِ، وَاسْتِعْمَالِ الْوَسَائِلِ وَالْأَدَوَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُنْضَبِطَةِ فِي تَحْرِيرِ ذَلِكَ، وَفِي التَّأْلِيفِ بَيْنَهُ، وَاسْتِخْرَاجِ مَكْنُونِهِ مَعَ حَرَكَةٍ عَمِيقَةٍ سَلِيمَةٍ لِلْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْمُنْضَبِطِ بِقَوَاعِدِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَنْهَجِ الْأَوَّلِينَ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ، وَفِي تَحَمُّلِهِ وَأَدَائِهِ.

فَجَاءَ هَؤُلَاءِ كَالرُّوَّادِ -بِزَعْمِ مَنْ يَقُولُ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ- جَاؤُوا بِمَا جَاؤُوا بِهِ، وَجَاءَتْ لَنَا الْمَدْرَسَةُ الِاسْتِشْرَاقِيَّةُ بِمَا عَاثَ فِي كُتُبِ سَلَفِنَا فَسَادًا، فَاسْتَخْرَجُوا الدَّخِيلَ، وَاعْتَمَدُوهُ عَلَىٰ أَنَّهُ الْأَصِيلُ، بَلْ حَمَلُوا عَلَىٰ الْأَصِيلِ فَأَرَادُوا تَزْيِيفَهُ!

كَمَا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ رِوَايَاتِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَعَلَىٰ الرِّوَايَاتِ الَّتِي صَحَّتْ فِي غَيْرِ كِتَابَيْهِمَا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ، حَتَّىٰ إِنَّكَ لَتَقْرَأُ فِي كِتَابِ مُحَمَّد حُسَيْن هِيكَل «حَيَاةُ مُحَمَّدٍ» فَتَجِدُ الْعَجَبَ الْعَاجِبَ! مِنْ رَجُلٍ الْأَصْلُ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقرِّرُ حَيَاةَ سَيِّدِ الْبَشَرِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي يَدِينُ لَهُ بِالاتِّبَاعِ وَالرِّسَالَةِ ﷺ، وَسَيَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَىٰ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ؛ إِمَّا مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ هُوَ، وَإِمَّا مِمَّا نَقَلَهُ عَنْ غَيْرِهِ، كَإِنْكَارِهِ لِكُلِّ مَا أَتَىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْحِسِّيَّةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَاثُوا بِهِ فِي سِيرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَسَادًا.

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ!! وَقَفَ لَهُمُ الْجَهَابِذَةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَزَيَّفُوا مَا أَتَوْا بِهِ، وَأَحَقُّوا الْحَقَّ، وَأَقَرُّوا الْأَصِيلَ، وَنَفَوُا الدَّخِيلَ، فَجَزَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

◉ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

مَصَادِرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَعْظَمُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ وَالْأَسَاسُ لِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يُعْطِي صُورَةً عَامَّةً عَنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَوَرَدَ فِيهِ

ذِكْرٌ لِبَعْضِ أَحْوَالِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ: الدِّينِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَطَرَفٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦- ٨]. كَمَا ذَكَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وَوَرَدَ فِيهِ ذِكْرُ مَوَاقِفَ لِأَعْدَاءِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَوَرَدَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ فِي الصَّدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَجَاءَ فِيهِ طَرَفٌ مِنْ ذِكْرِ الْهِجْرَةِ، وَذِكْرِ الْمَعَارِكِ الْحَرْبِيَّةِ الْكُبْرَىٰ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، كَغَزْوَةِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَالْأَحْزَابِ، وَكَصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَغَزْوَةِ حُنَيْنٍ، وَبَعْضِ الْمَعَارِكِ مَعَ الْيَهُودِ، وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ بَعْضِ الْمُعْجِزَاتِ النَّبَوِيَّةِ، كَالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُعْطِي صُورَةً عَامَّةً عَنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

مُمَيِّزَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ:

وَقَدْ تَمَيَّزَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ بِمَا يَلِي:

* **تَفَرُّدُهُ بِأَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الصِّدْقِ**؛ فَهُوَ أَوْثَقُ كِتَابٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ؛ حَيْثُ نُقِلَ بِالتَّوَاتُرِ الْقَطْعِيِّ الْمَوْثُوقِ، وَتَكَفَّلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِحِفْظِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وَتَمَيَّزَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ أَيْضًا بِمَا يَلِي:

* **بِالرِّبَاطِ بَيْنَ مُقَدِّمَاتِ الْأَحْدَاثِ وَنَتَائِجِهَا، وَالتَّرْكِيزِ عَلَىٰ بَيَانِ الْأَسْبَابِ، وَتَعْلِيلِ الْعَوَاقِبِ**، كَبَيَانِ سَبَبِ مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ

تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وَتَمَيَّزَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ:

* **بِالْكَشْفِ عَنْ خَفَايَا النُّفُوسِ وَالْإِخْبَارِ عَمَّا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ**، فَهُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ؛ فَجَاءَ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ خَبَرِ زَوَاجِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فَكَشَفَ عَمَّا كَانَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمِمَّا تَمَيَّزَ بِهِ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ:

* **وَصْفُ الْمَشَاعِرِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَبْدُوا مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَطْرَافِ فِي أَجْوَاءِ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ**؛ قَالَ تَعَالَىٰ وَاصِفًا الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ مُسْلِمِينَ وَمُنَافِقِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠].

وَبَيَّنَ حَالَةَ الْمُنَافِقِينَ النَّفْسِيَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وَأَمَّا شُعُورُ الْمُؤْمِنِينَ فَيُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَتَمَيَّزَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ:

* **بِالْإِخْبَارِ عَنْ أُمُورٍ تَخْفَىٰ عَلَىٰ الْبَشَرِ**، كَإِخْبَارِهِ بِمُشَارَكَةِ الْمَلَائِكَةِ بِالْقِتَالِ فِي بَعْضِ الْمَعَارِكِ، وَكَإِخْبَارِهِ بِوُجُودِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَكَّةَ مَعَ الْكَافِرِينَ يُخْفُونَ إِيمَانَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]؛ وَكَذَٰلِكَ إِخْبَارُهُ بِوُجُودِ أَعْدَاءٍ يُخْفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَمِمَّا تَمَيَّزَ بِهِ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ:

* **بَيَانُ الْأَخْطَاءِ وَتَصْوِيبُ الْمَوَاقِفِ الَّتِي قَدْ تَبْدُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ أَصْحَابِهِ** رضي الله عنهم؛ فَمَثَلًا: حِينَ أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ بِرَأْيِ مَنْ قَالَ بِإِطْلَاقِ أَسْرَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ مُقَابِلَ الْفِدَاءِ نَزَلَ الْعِتَابُ وَتَصْوِيبُ رَأْيِ مَنْ قَالَ بِقَتْلِهِمْ، كَمَا

فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وَلِتَمَامِ الِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي أَحْدَاثِ السِّيرَةِ يَجْدُرُ الرُّجُوعُ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، خَاصَّةً الْمُتَقَدِّمَةَ مِنْهَا كَتَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ، وَابْنِ كَثِيرٍ -رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَىٰ- مَعَ التَّنَبُّهِ إِلَىٰ ضَرُورَةِ تَصْحِيحِ الرِّوَايَاتِ؛ لِمَعْرِفَةِ الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِهِ.

إِذًا أَوَّلُ الْمَصَادِرِ لِسِيرَةِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ يَتَمَيَّزُ بِهَذِهِ الْمِيزَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا.

◉ الْمَصْدَرُ الثَّانِي مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: كُتُبُ السُّنَّةِ

ثَانِيًا: كُتُبُ السُّنَّةِ -كُتُبُ الْحَدِيثِ-: تَأْتِي كُتُبُ السُّنَّةِ بَعْدَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ كَمَصْدَرٍ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الصِّحَّةُ؛ فَقَدْ نَالَتْ كُتُبُ الْحَدِيثِ عِنَايَةً فَائِقَةً مِنْ رِجَالِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ هَيَّأَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ لِحِفْظِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ حِينَمَا وَضَعُوا الْقَوَاعِدَ وَالشُّرُوطَ الَّتِي تَضْبِطُ رِوَايَةَ الْأَحَادِيثِ، وَتَضْبِطُ نَقْلَهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتُمَيِّزُ صَحِيحَهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ عِلْمَيْ: (مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ)، وَ(الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ).

تَأْتِي فِي مُقَدِّمَةِ كُتُبِ السُّنَّةِ مِنْ حَيْثُ الصِّحَّةُ الْكُتُبُ السِّتَّةُ: صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ، وَسُنَنُ أَبِي دَاوُدَ، وَسُنَنُ النَّسَائِيِّ، وَسُنَنُ التِّرْمِذِيِّ، وَسُنَنُ ابْنِ مَاجَه، وَيُضَافُ إِلَيْهَا مُوَطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكٍ، وَمُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

وَإِنْ كَانَ الْهَدَفُ مِنْ تَأْلِيفِ كُتُبِ السُّنَّةِ حِفْظَ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ وَهَدْيِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْعِبَادَاتِ إِلَّا أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ مَعْلُومَاتٍ كَبِيرَةً كَثِيرَةً عَنِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ نَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهَا تَكْوِينَ فِكْرَةٍ عَامَّةٍ عَنْ سِيرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لَكِنَّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ يَنْقُصُهَا التَّرْتِيبُ الزَّمَنِيُّ، وَالتَّسَلْسُلُ الْمَوْضُوعِيُّ؛ فَالْمَعْلُومَاتُ عَنْ حَادِثَةٍ وَاحِدَةٍ نَجِدُهَا مَبْثُوثَةً فِي ثَنَايَا كُلِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ السُّنَّةِ بِحَسَبِ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ تِلْكَ الْحَادِثَةِ لِأَبْوَابِ الْكِتَابِ، وَهَذِهِ الثَّغْرَةُ جَاءَتْ كُتُبُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ لِسَدِّهَا.

◉ الْمَصْدَرُ الثَّالِثُ مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: كُتُبُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ

ثَالِثًا: مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: كُتُبُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ: وَقَدْ كَانَ الاهْتِمَامُ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ مُنْذُ عَهْدِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، حَيْثُ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ إِلَىٰ أَخْبَارِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا الْمَغَازِي، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ دُرُوسِهِمْ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يُفْرِدُ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ دُرُوسِهِ لِلْمَغَازِي؛ فَقَدْ جَاءَ فِي وَصْفِ سَعَةِ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ يَوْمًا لَا يَذْكُرُ فِيهِ إِلَّا الْفِقْهَ، وَيَوْمًا لَا يَذْكُرُ فِيهِ إِلَّا التَّأْوِيلَ، وَيَوْمًا لَا يَذْكُرُ فِيهِ إِلَّا الْمَغَازِيَ، وَيَوْمًا لِلشِّعْرِ، وَيَوْمًا لِأَيَّامِ الْعَرَبِ.

وَكَانَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَدْ أَمْلَىٰ شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِلَّا أَنَّ تَدْوِينَ الْمَغَازِي فِي كُتُبٍ مُسْتَقِلَّةٍ لَمْ يَظْهَرْ إِلَّا فِي عَهْدِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

◉ الْمَصْدَرُ الرَّابِعُ مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: كُتُبُ الشَّمَائِلِ

مِنْ مَصَادِرِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ: كُتُبُ الشَّمَائِلِ: وَكُتُبُ الشَّمَائِلِ هِيَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَاتِهِ.

وَإِنْ كَانَتْ كُتُبُ السُّنَّةِ وَالسِّيرَةِ قَدْ تَضَمَّنَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا جَاءَتْ مَبْثُوثَةً مُتَفَرِّقَةً، فَاهْتَمَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- بِجَمْعِ شَمَائِلِ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِفْرَادِهَا بِكُتُبٍ خَاصَّةٍ غَيْرِ كُتُبِ السِّيرَةِ الْعَامَّةِ؛ حِرْصًا مِنْهُمْ عَلَىٰ إِبْرَازِ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ؛ لِيَقْتَدُوا بِهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الْمَصَادِرِ: كِتَابُ «الشَّمَائِلِ الْمُحَمَّدِيَّةِ» لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَىٰ التِّرْمِذِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَنَالَ هَذَا الْكِتَابُ اهْتِمَامَ الْعُلَمَاءِ بِالشَّرْحِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّعْلِيقِ.

كِتَابُ «أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ وَآدَابِهِ» لِلْحَافِظِ أَبِي الشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَصْبَهَانِيِّ، الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِ مِئَةٍ، وَقَدْ سَارَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ التِّرْمِذِيِّ، وَضَمَّ كِتَابُهُ أَحَادِيثَ نَادِرَةً وَفَرِيدَةً عَنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ.

كِتَابُ «الشَّمَائِلِ» لِأَبِي الْعَبَّاسِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُسْتَغْفِرِيِّ.

كِتَابُ «الْأَنْوَارِ فِي شَمَائِلِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ» لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِ بْنِ مَسْعُودٍ الْبَغَوِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَضْخَمِ مَا كُتِبَ فِي الشَّمَائِلِ، وَقَدْ ذَكَرَ فِيهِ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبْعَةً وَخَمْسِينَ وَمِئَتَيْنِ وَأَلْفًا مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ، كُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِشَمَائِلِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ.

وَكِتَابُ «زَادِ الْمَعَادِ فِي خَيْرِ هَدْيِ الْعِبَادِ» لِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَكُتُبُ الشَّمَائِلِ مَعْدُودَةٌ ضِمْنَ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَكَذَلِكَ:

◉ الْمَصْدَرُ الْخَامِسُ مِنْ مَصَادِرِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: كُتُبُ الدَّلَائِلِ

كُتُبُ الدَّلَائِلِ: وَهِيَ الْكُتُبُ الَّتِي اهْتَمَّتْ بِدَلَائِلِ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذِكْرِ مُعْجِزَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ: «دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ» لِلْفِرْيَابِيِّ، وَكِتَابُ «آيَاتِ النَّبِيِّ» لِمُحَمَّدٍ الْمَدَائِنِيِّ، وَهُنَاكَ كُتُبٌ حَمَلَتْ مُسْمىً وَاحِدًا هُوَ «أَعْلَامُ النُّبُوَّةِ»، وَأَلَّفَ بِهَذَا الْعُنْوَانِ كُلٌّ مِنْ: دَاوُدَ الْأَصْفَهَانِيِّ، وَأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ الْمَاوَرْدِيِّ.

وَالْجَدِيرُ ذِكْرُهُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ جَمَعَ فِي مُؤَلَّفِهِ بَيْنَ الشَّمَائِلِ وَالدَّلَائِلِ، وَمِنْ ذَلِكَ: «الْوَفَا بِأَحْوَالِ الْمُصْطَفَىٰ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ، وَ«الْخَصَائِصُ الْكُبْرَىٰ» لِلسُّيُوطِيِّ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّذْكِيرُ بِهِ أَنَّ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنْ كُتُبِ الشَّمَائِلِ وَالدَّلَائِلِ حَوَتْ رِوَايَاتٍ وَأَخْبَارًا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ التَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ قَبْلَ قُبُولِهَا وَالْأَخْذِ بِهَا؛ فَهَذِهِ هِيَ مَصَادِرُ سِيرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.



فَسَادُ التَّعْبِيرِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ المُعَاصِرِينَ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ الأَمِينِ

وَالنَّبِيُّ ﷺ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ؛ فَالنُّبُوَّةُ شَيْءٌ، وَالْعَبْقَرِيَّةُ شَيْءٌ آخَرُ، فَلَا يُوصَفُ ﷺ بِالْعَبْقَرِيَّةِ كَمَا صَنَعَ مُؤَلِّفُ الْعَبْقَرِيَّاتِ، وَلَا يُوصَفُ بِالزَّعَامَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَلَا بِالْقِيَادَةِ الْحَرْبِيَّةِ كَمَا صَنَعَ الَّذِينَ أَلَّفُوا فِي الزَّعَامَاتِ وَالْقِيَادَاتِ، أَوْ يُعَدُّ ﷺ بَطَلًا كَمَا صَنَعَ تُومَاس كَارْلِيل فِي كِتَابَةِ «الْأَبْطَالِ»، أَوْ يُقَالُ عَنْهُ: رَسُولُ الْحُرِّيَّةِ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ الْكَاتِبِينَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا افْتَنَّ فِيهِ الْمُؤَلِّفُونَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ فَوْقَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا؛ إِنَّهُ النَّبِيُّ وَالرَّسُولُ، وَكَفَىٰ!!

فَهُوَ نَبِيُّ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ!!

الْعَبْقَرِيُّ: هُوَ الْأَصِيلُ الرَّأْيِ، الْبَعِيدُ النَّظَرِ الَّذِي لَا يَفُوقُهُ أَحَدٌ فِي حَلِّ الْمُشْكِلَاتِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّلٍ وَلَا تَكَلُّفٍ، كَمَا وَصَفَ بِهَذَا الْوَصْفِ نَبِيُّنَا ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أُرِيتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَىٰ قَلِيبٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**

فَاسْتَحَالَتْ -أَيِ: الدَّلْوُ- **غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ حَتَّىٰ رَوِيَ النَّاسُ وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ**».

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا سِوَىٰ عُمَرَ وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْعَبْقَرِيَّةِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ آخَرَ بِالْمُحَدَّثِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِسَنَدَيْهِمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**». الْمُحَدَّثُونَ: هُمُ الْمُلْهَمُونَ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَفِي حَلِّ الْمُعْضِلَاتِ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُلْقَىٰ الشَّيْءُ فِي رُوعِهِ، فَكَأَنَّهُ قَدْ حُدِّثَ بِهِ، يَظُنُّ فَيُصِيبُ، وَيَخْطُرُ الشَّيْءُ بِبَالِهِ فَيَكُونُ».

وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ الْعَسْكَرِيُّ وَغَيْرُهُ: «هُوَ مَنْ أُلْقِيَ فِي رُوعِهِ شَيْءٌ مِنْ قِبَلِ الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ، فَيَكُونُ كَالَّذِي حَدَّثَهُ غَيْرُهُ».

وَوَقَعَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ تَفْسِيرُ الْمُحَدَّثِ بِأَنَّهُ: الْمُلْهَمُ بِالصَّوَابِ الَّذِي يُلْقَىٰ عَلَىٰ فِيهِ، أَيْ: عَلَىٰ لِسَانِهِ. وَوَقَعَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: «**مُلْهَمُونَ**» بَدَلَ «**مُحَدَّثُونَ**»، وَهِيَ الْإِصَابَةُ بِغَيْرِ نُبُوَّةٍ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ زِيَادَةٌ: «**مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ**».

فَمِنْ ثَمَّ تَرَىٰ أَنَّ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا تَلْتَقِي عِنْدَ مَعْنَىٰ الْإِلْهَامِ، وَأَنَّ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ التَّنْصِيصَ عَلَىٰ أَنَّهُ إِلْهَامٌ بِغَيْرِ نُبُوَّةٍ، فَدَلَّ عَلَىٰ فَرْقِ مَا بَيْنَ إِلْهَامِ الْأَنْبِيَاءِ

وَإِلْهَامُ الْمُحَدَّثِينَ سِوَىٰ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَهَذَا الْإِلْهَامُ بِغَيْرِ نُبُوَّةٍ هُوَ مَا يُعْرَفُ بِالْعَبْقَرِيَّةِ، فَهِيَ لَا تَرْجِعُ إِلَىٰ الذَّكَاءِ، وَلَا إِلَىٰ الْفِطْنَةِ وَالتَّجْرِبَةِ، وَإِنَّمَا مَرْجِعُهَا إِلَىٰ الْإِلْهَامِ وَإِلْقَاءِ الصَّوَابِ فِي النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّلٍ وَلَا تَكَلُّفٍ.

فَالْعَبْقَرِيَّةُ إِذًا تَلِيقُ بِمُلْهَمٍ مُحَدَّثٍ مِنْ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ كَعُمَرَ، وَالزَّعَامَةُ إِنَّمَا تَلِيقُ بِسِيَاسِيٍّ مُحَنَّكٍ كَمُعَاوِيَةَ رضي الله عنه، وَالْقِيَادَةُ الْحَرْبِيَّةُ إِنَّمَا تَلِيقُ بِأَمْثَالِ سَيْفِ اللهِ خَالِدٍ، وَسَعْدٍ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَالْبُطُولَةُ إِنَّمَا تَلِيقُ بِالْكَثِيرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَعَلِيٍّ، وَأَبِي دُجَانَةَ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَالْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو، وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنهم عَلَىٰ مَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ وَسُمُوِّ الْأَخْلَاقِ.

إِنَّهُ ﷺ فَوْقَ كُلِّ عَبْقَرِيٍّ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ زَعِيمٍ، وَأَعْظَمُ مِنْ أَيِّ قَائِدٍ، وَأَشْجَعُ مِنْ أَيِّ بَطَلٍ، وَأَسْمَىٰ مِنْ أَيِّ مُصْلِحٍ لَقَدْ جُمِعَ لَهُ مِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ خَيْرُهَا، وَأَفْضَلُهَا، وَأَعْدَلُهَا، وَأَرْحَمُهَا، وَلَكِنَّهُ فَوْقَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا؛ إِنَّهُ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَرَسُولٌ يُبَلَّغُ الْوَحْيَ فَيُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَهَذَا مَا لَا يُدْرَكُ وَمَا لَا يُنَالُ، فَجَعْلُ الْعَبْقَرِيَّةِ أَوِ الزَّعَامَةِ أَوِ الْقِيَادَةِ أَوِ الْبُطُولَةِ أَوِ الْإِصْلَاحِ عُنْوانًا لَهُ ﷺ فِيهِ تَحَيُّفٌ عَلَيْهِ، وَهَضْمٌ لِحَقِّهِ ﷺ.

وَالَّذِينَ كَتَبُوا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ وَسِيرَتِهِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ؛ فَمِنْ ثَمَّ كَتَبُوا عَنْهُ عَلَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ! أَوْ عَلَىٰ أَنَّهُ بَطَلٌ! أَوْ مُصْلِحٌ! أَوْ زَعِيمٌ! أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ كَتَبَ عَنْهُ تَحْتَ عُنْوَانِ: «حَيَاةُ مُحَمَّدٍ»، فَلَا

يَجُوزُ لَنَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ لَاسِيَّمَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ أَنْ نُجَارِيَهُمْ فِيمَا عَنْوَنُوا بِهِ، وَفِيمَا وَصَفُوهُ بِهِ ﷺ، مِمَّا يُخِلُّ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ يَخْدِشُهَا؛ لِأَنَّنَا نَعْتَقِدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ «وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا» يَعْنِي: إِذَا اعْتَقَدْنَا أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ فَكُلُّ مَا يَأْتُونَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَالشِّيَاتِ الْجَمِيلَةِ إِنَّمَا هُوَ دَاخِلٌ فِي ذَلِكَ؛ «فَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا».

وَمِمَّا يَزِيدُ فِي التَّوْضِيحِ أَنَّ الْفَارُوقَ الْمُلْهَمَ الْعَبْقَرِيَّ الْمُحَدَّثَ، وَهُوَ صَاحِبُ الْمُوَافَقَاتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**». مِمَّا يَزِيدُ فِي التَّوْضِيحِ أَنَّ الْفَارُوقَ مَعَ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا مَا يُبْدِي رَأْيًا، وَيُبْدِي رَسُولُ اللهِ رَأْيًا فَإِذَا بِهِ يَعُودُ إِلَىٰ رَأْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُذْعِنًا مُقْتَنِعًا، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَمَّا عَرَضَ عَلَىٰ النَّبِيِّ أَنْ يَقْتُلَ رَأْسَ النِّفَاقِ ابْنَ أُبَيٍّ بَعْدَمَا كَادَ يُثِيرُ فِتْنَةً بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَكَيْفَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ يَاعُمَرُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟!**». ثُمَّ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ أَنْ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ يَعْرِضُ عَلَيْهِ قَتْلَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ: لَا، بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَادَامَ بَيْنَنَا. وَصَارَ مِنْ أَمْرِ رَأْسِ النِّفَاقِ أَنَّهُ كُلَّمَا أَبْدَا لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ النِّفَاقِ لَامَهُ قَوْمُهُ وَعَنَّفُوهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ الرَّسُولُ ﷺ لِعُمَرَ بُعْدَ نَظَرِهِ وَأَصَالَةَ رَأْيِهِ لَمَّا أَبَىٰ عَلَىٰ عُمَرَ قَتْلَهُ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَرَىٰ يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي لَأُرْعِدَتْ لَهُ أُنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**». فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ هُوَ شَيْخُ الْمُنَافِقِينَ غَيْرَ مُدَافَعٍ، وَمَوَاقِفُهُ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ، وَدَسُّهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كُلُّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مَعْلُومٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**» هَلْ هُوَ مِنَ الْأَصْحَابِ؟! هُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَلْ هُوَ رَأْسُ النِّفَاقِ، وَشَيْخُ الْمُنَافِقِينَ فَلَيْسَ مِنَ الْأَصْحَابِ بِيَقِينٍ؛ لَكِنَّهُ مَعْدُودٌ عَلَىٰ الْأَصْحَابِ، وَمَحْسُوبٌ مِنَ الْأَصْحَابِ فِي خَارِجِ الْإِطَارِ الْإِسْلَامِيِّ الْجُغْرَافِيِّ الَّذِي يَحْيَا فِيهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، هَذَا مَلْحَظٌ دَقِيقٌ؛ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ خَوْفًا مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، وَلِلْمَفْسَدَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَيْضًا ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي لَأُرْعِدَتْ لَهُ أُنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**». يَعْنِي لَتَعَصَّبَ لَهُ بَعْضُ مَنْ يَتَعَصَّبُ؛ حَمِيَّةً وَعَصَبِيَّةً وَرِعَايَةً لِلْقَرَابَةِ أَوِ لِلدِّمَاءِ أَوْ مَا أَشْبَهَ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَادَامَ بَيْنَنَا**»؛ لِأَنَّهُ مَحْسُوبٌ عَلَيْنَا، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا؛ هُوَ شَيْخُ الْمُنَافِقِينَ غَيْرَ مُدَافَعٍ.

وَعَلَىٰ هَذَا.. فَخَارِجُ الْإِطَارِ السُّنِّيِّ الصَّافِي أَقْوَامٌ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَطْعَنُوا فِيهِ، وَإِلَّا أَنْ يُمَزِّقُوهُ، وَإِلَّا أَنْ يَسْحَقُوهُ وَيَطْحَنُوهُ مِنَ الْحِزْبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ الْمُمَيِّعِينَ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ؛ هُمْ خَارِجَ هَذَا الْإِطَارِ، مَنْ هُوَ بِدَاخِلِ هَذَا الْإِطَارِ مَحْسُوبٌ عَلَيْنَا، إِذَا أَخْطَأَ مَاذَا نَصْنَعُ بِهِ؟ نَسْحَقُهُ؟! نَمْحَقُهُ؟! نَقْتُلُهُ؟! هُوَ مَحْسُوبٌ عَلَيْنَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»؛ مَفْسَدَةٌ كُبْرَىٰ لِأَنَّهُمْ يَسْتَغِلُّونَ ذَلِكَ فِي الطَّعْنِ

فِي الْمَنْهَجِ نَفْسِهِ، فِي عُلَمَائِهِ، وَفِي طُلَّابِهِ وَفِي حَمَلَتِهِ، وَفِي دُعَاتِهِ، وَفِي كُلِّ مَنْ يَنْتَمِي إِلَيْهِ يَقُولُونَ: يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! يُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا! هَؤُلَاءِ كَالنَّارِ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَاصْبِرُوا عَلَيْهِمْ، وَسَتَرَوْنَ لَنْ يَبْقَىٰ مِنْهُمُ اثْنَانِ!، وَإِنَّمَا سَيَسِيرُ كُلٌّ فِي طَرِيقٍ، فَلِمَاذَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ يُصَدِّقُ أَقْوَالَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُحَارِبِينَ لِدِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟!

«**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، وَإِنَّمَا بِالْحُسْنَى وَالرِّفْقِ، بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، بِالنَّصِيحَةِ الرَّقِيقَةِ الْوَاعِيَةِ، بِالزِّيَارَةِ، بِالتَّذْكِيرِ، بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَذَا كُلُّهُ مَادَامَ الْأَمْرُ مَعْدُودًا دَاخِلَ الْإِطَارِ.

وَأَمَّا مَنْ شَذَّ فَخَرَجَ فَكَانَ مُبْتَدِعًا، فَهَذَا يُحَذَّرُ مِنْهُ، أَمَّا مَا دَامَ دَاخِلَ الْإِطَارِ فَلَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ﷺ.

إِذَا رَأَىٰ عُمَرُ الْعَبْقَرِيُّ الْمُلْهَمُ الْمُحَدَّثُ رَأْيًا لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَأَىٰ سِوَاهُ، وَكَانَ الصَّوَابُ وَالْخَيْرُ فِيمَا رَآهُ وَارْتَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لِذَلِكَ يَقُولُ عُمَرُ: قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.

فِي قِصَّةِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، قَالَ الْفَارُوقُ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. وَمَا كَانَ -عَلِمَ اللهُ- مُنَافِقًا رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكَ يَاعُمَرُ؟ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَهُمْ: افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». فَإِذَا عُمَرُ يَبْكِي بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، وَيَقُولُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

عُمَرُ هُوَ الْقِمَّةُ فِي الْعَبْقَرِيَّةِ، وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِهَا مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللهِ: «**فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ**». وَلَكِنْ أَيْنَ الْعَبْقَرِيَّةُ مِنَ النُّبُوَّةِ؟!

وَمِنَ الْعَجِيبِ حَقًّا أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الدَّقِيقَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْعَبْقَرِيِّ وَالنَّبِيِّ سَبَقَ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِهِ الْعَبَّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِينِ غَفَلَ عَنْ إِدْرَاكِهِ كِبَارُ كُتَّابِ عَصْرِنَا، وَحُذَّاقُ الْمُؤَلِّفِينَ الْمُعَاصِرِينَ الَّذِينَ ضَرَبُوا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ بِسَهْمٍ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ لَيْلَةَ الْفَتْحِ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «**خُذْ أَبَا سُفْيَانَ وَقِفْ بِهِ عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ**» -أَيْ: مَا بَرَزَ مِنْهُ فِي الطَّرِيقِ، خَطْمُ الْجَبَلِ: أَنْفُ الْجَبَلِ- قِفْ بِهِ عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ؛ وَذَلِكَ لِيَرَىٰ جَيْشَ الْفَتْحِ، فَمَرَّتْ بِهِ كَتَائِبُ اللهِ، وَفِيهَا الْكَتِيبَةُ الْخَضْرَاءُ كَتِيبَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَمْلِكْ أَبُو سُفْيَانَ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ: يَا عَبَّاسُ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ عَظِيمًا!

مُلْكٌ!

لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ عَظِيمًا!

فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

فَقَالَ: نَعَمْ، وَاللهِ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

لَيْسَتْ مُلْكًا إِنَّمَا هِيَ النُّبُوَّةُ، وَالَّذِينَ عَدُّوا النُّبُوَّةَ مُلْكًا حَارَبُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ الْمُلْكِ، وَهُوَ لَا يُحَارِبُ عَلَىٰ مُلْكٍ، وَإِنَّمَا يُحَارِبُ عَلَىٰ دِينٍ، عَلَىٰ عَقِيدَةٍ، عَلَىٰ تَوْحِيدٍ، عَلَىٰ نَفْيِ شِرْكٍ، فَظَنُّوهَا دُنْيَا، ظَنُّوهَا مُلْكًا؛ فَحَارَبُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ

الْمُلْكِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الزَّائِغِين الضَّالِّينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَفِي عُصُورٍ خلَتْ يُحَارِبُونَ الدُّعَاةَ وَالْعُلَمَاءَ الَّذِين يَجْعَلُ اللهُ عَجَّلَ لَهُمْ عِنْدَ الْخَلْقِ قَبُولًا، وَفِي صُدُورِ النَّاسِ انْشِرَاحًا؛ يُحَارِبُونَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُ مُلْكٌ! وَإِنَّمَا هِيَ الدَّعْوَةُ؛ كَمَا قَالَ الْعَبَّاسُ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهَا النُّبُوَّةُ!

وَكَذَلِكَ الدُّعَاةُ إِلَىٰ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ إِذَا جَعَلَ اللهُ لَهُم بَيْنَ الْخَلْقِ قَبُولًا؛ إِنَّهَا الدَّعْوَةُ، الدَّعْوَةُ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ فَهْمِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ، وَتَجِدُ فِي كِتَابَاتِ الْمُعَاصِرِينَ (عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ) ﷺ حَتَّىٰ عُدَّتْ مَقَامًا لَا يَرْقَىٰ إِلَيْهِ، وَلَوْ طَارَ إِلَيْهِ بِجَنَاحَيْنِ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الثَّالِثُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَلَمَّا كَتَبَ قَالَ: (عَبْقَرِيَّةُ الْإِمَامِ مُحَمَّد عَبْدُه)!! فَجَعَلَ لِمُحَمَّد عَبْدُه عَبْقَرِيَّةً! وَنَفَاهَا عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمَّا كَتَبَ عَنْهُ قَالَ: (ذُو النُّورَيْنِ عُثْمَانُ)، وَهُوَ يَكْتُبُ: عَبْقَرِيَّةَ مُحَمَّدٍ! عَبْقَرِيَّةَ الصِّدِّيقِ! عَبْقَرِيَّةَ الْفَارُوقِ! عَبْقَرِيَّةَ مُحَمَّد عَبْدُه!!

وَأَمَّا عُثْمَانُ فَلَيْسَ عَبْقَرِيًّا بِهَذَا الْمَعْنَىٰ عِنْدَهُ!!

أَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النُّبُوَّةِ؟!

فَتَجِدُ عِنْدَ الْكُتَّابِ الْمُعَاصِرِينَ الْكِتَابَاتِ عَنِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ بِمِثْلِ هَذَا! رَسُولُ الْحُرِّيَّةِ! نَبِيُّ السَّلَامِ! عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يُوغِلُ فَيَقُولُ:

الِاشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ زَعِيمُهُمْ! لَوْلَا دَعَاوَىٰ الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ!

كَمَا تَوَرَّطَ فِي ذَلِكَ شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ، فَإِنَّهُ فِي الْهَمْزِيَّةِ يُقَرِّرُ عَلَىٰ حَسَبِ مَا كَانَ شَائِعًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عِنْدَمَا كَتَبَ مِدْحَتَهُ، وَهِيَ عَظِيمَةٌ جِدًّا، لَوْ لَمْ يَكُنْ لِشَوْقِي مِنَ الشِّعْرِ إِلَّا قَوْلُهُ:

وُلِدَ الْهُدَىٰ ....

لَكَانَ مِنْ أَشْعَرِ النَّاسِ.

وُلِدَ الْهُدَىٰ.. ﷺ.

وُلِدَ الْهُدَىٰ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

إِلَّا أَنَّهُ تَوَرَّطَ فِي أُمُورٍ قَبِيحَةٍ كَهَذَا الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ:

الِاشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاوَىٰ الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ

يَعْنِي: يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّهُمْ يُنَافِسُونَ النَّبِيَّ الْمَأْمُونَ، وَيَدَّعُونَ لِغَيْرِهِ هَذَا السَّبْقَ الْعَظِيمَ بِإِمَامَةِ الاشْتِرَاكِيِّينَ لَكُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُمْ، وَأَنْتَ إِمَامُهُمْ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ جَهْلِهِ بِمَعْنَىٰ الْاشْتِرَاكِيَّةِ، وَحَقِيقَةِ الاشْتِرَاكِيِّينَ، وَكَانَتِ الدِّعَايَةُ سَائِدَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَىٰ أَنَّ فِي هَذَا الْخَلَاصَ لِلْبَشَرِيَّةِ مِمَّا هِيَ فِيهِ؛ فَخُدِعَ بِذَلِكَ مَنْ خُدِعَ، وَمِنْهُمْ شَوْقِي، فَقَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الْمَعِيبَةَ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَالَ بِحَالٍ.

فَهُنَاكَ مَنْ يَكْتُبُ عَنِ النَّبِيِّ، وَهُنَاكَ مَنْ يَصِفُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَنْ تَجِدَ وَصْفًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ هُوَ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ مِنَ الْوَصْفِ بِالنُّبُوَّةِ، وَمِنَ الْوَصْفِ بِالرِّسَالَةِ؛ فَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، «وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا» كَمَا قَالَ الْعَرَبُ قَدِيمًا.

●●●

الْحِكْمَةُ مِنْ إِرْسَالِ اللهِ تَعَالَى الأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عليهم السلام

الْبَشَرُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ بِعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام إِلَىٰ النَّاسِ لِغَايَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَأَهْدَافٍ سَامِيَةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا:

* **تَعْرِيفُ الْبَشَرِ بِخَالِقِهِمْ، وَالْحِكْمَةِ مِنْ وُجُودِهِمْ**؛ فَأَرْبَابُ الْعُقُولِ الْمُتَأَمِّلِينَ فِي هَذَا الْكَوْنِ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَبِحَارِهِ وَأَفْلَاكِهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، وَمَا يَحْوِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ يُدْرِكُونَ أَنَّ لَهُ خَالِقًا عَظِيمًا، وَمُدَبِّرًا حَكِيمًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ صِفَاتِ هَذَا الْخَالِقِ، فَلَيْسَ بِمَقْدُورِ عُقُولِهِمْ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، وَلَا إِدْرَاكُهُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ.

وَلَقَدْ ضَلَّ مَنْ أَرَادَ التَّعَرُّفَ عَلَىٰ اللهِ، أَوْ وَصْفَهِ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ، فَهُنَاكَ مَنْ قَالَ بِوِحْدَةِ الْوُجُودِ! وَهُنَاكَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الْمُتَصَرِّفَةُ بِنَفْسِهَا! وَهُنَاكَ مَنْ جَعَلَ للهِ وَلَدًا! وَهُنَاكَ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، كَالنُّورِ أَوِ الظَّلَامِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الانْحِرَافَاتِ.

إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ لِتَعْرِيفِ الْبَشَرِ بِخَالِقِهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ صِفَاتِهِ كَمَا جَاءَتْ عَنْهُ جَلَّ وَعَلَا، وَكَمَا كَانَ الْبَشَرُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الرُّسُلِ لِتَعْرِيفِهِمْ بِخَالِقِهِمْ فَهُمْ أَيْضًا بِحَاجَةٍ لِبَيَانِ الْهَدَفِ وَالْحِكْمَةِ، أَيْ: مِنْ خَلْقِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَهُوَ

عِبَادَةُ اللهِ وَالسَّيْرُ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

مِنَ الْغَايَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَهْدَافِ السَّامِيَةِ الْجَلِيلَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ:

* **الْإِخْبَارُ بِالْغَيْبِيَّاتِ، وَأَحْدَاثِ الدَّارِ الْآخِرَةِ**، فَهُنَاكَ مَنْ يُنْكِرُ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَرَىٰ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ نِهَايَةُ الْأَحْيَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَهُنَاكَ مَنْ يُدْرِكُ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاةً أُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْلَمُونَ تَفَاصِيلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَهَا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ، وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ مِمَّنْ يَعْلَمُهَا، وَهُوَ اللهُ ﷻ، وَالرُّسُلُ هُمُ الْمُخْبِرُونَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ، فَهُمْ يُبَشِّرُونَ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَقٍّ بِالنَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُنْذِرُونَ الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِ اللهِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨- ٤٩].

مِنْ أَهْدَافِ وَغَايَاتِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ:

* **تَصْحِيحُ الِانْحِرَافَاتِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَىٰ الْبَشَرِ**، فَعِنْدَمَا تَطُولُ الْمُدَّةُ بَعْدَ مَوْتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ تَتَعَرَّضُ الشَّرَائِعُ الَّتِي جَاؤوا بِهَا إِلَىٰ التَّحْرِيفِ، وَيَبْدَأُ

الضَّلَالُ يَسْرِي فِي أُمَمِهِمْ، فَيَعُمُّ الْجَهْلُ، وَيَحِلُّ الشِّرْكُ مَحَلَّ الدِّينِ الصَّحِيحِ، فَيَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَىٰ إِرْسَالِ رُسُلٍ يَرُدُّونَ الْبَشَرَ إِلَىٰ جَادَّةِ الصَّوَابِ، وَيُصَحِّحُونَ الِانْحِرَافَاتِ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وَدَخَلَ الشِّرْكُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ حِينَ لَبَّسَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ بَعْضِ بَنِي آدَمَ، وَاسْتَدْرَجَهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ، وَعِبَادَةِ مَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ قَوْمٌ صَالِحُونَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ اشْتُهِرُوا بِالصَّلَاةِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ، فَجَاءَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، فَأَوْحَىٰ لَهُمْ إِبْلِيسُ لَوْ صَوَّرْتُمُوهُمْ صُوَرًا تُذَكِّرُكُمْ بِهِمْ، وَبِعِبَادَاتِهِمْ؛ فَيَزِيدُكُمْ ذَلِكَ نَشَاطًا فِي الْعِبَادَةِ كُلَّمَا نَظَرْتُمْ إِلَيْهِمْ، فَفَعَلُوا؛ فَلَمَّا مَاتَ هَذَا الْجِيلُ نَشَأَ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِهِمْ فَأَوْحَىٰ لَهُمْ إِبْلِيسُ بِأَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، فَبَدَأَ بِذَلِكَ الشِّرْكُ -أَيْ: فِي بَنِي الْبَشَرِ-.

فَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعْدَ حُدُوثِ الشِّرْكِ فِي ذُرِّيَّةِ آدَمَ، ثُمَّ تَتَابَعَ إِرْسَالُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ، وَرُبَّمَا بُعِثَ أَكْثَرُ مِنْ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ كَمُوسَىٰ، وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَإِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حَتَّىٰ كَانَ آخِرَهُمْ

وَخَاتَمَهُمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَأَرْسَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِعُمُومِ الثَّقَلَيْنِ فِي عُمُومِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ؛ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ.

مِنْ غَايَاتِ إِرْسَالَاتِ الرُّسُلِ:

* **حَاجَةُ البَشَرِ إِلَىٰ الشَّرَائِعِ لِضَبْطِ حَيَاتِهِمْ**؛ فَالبَشَرُ يَحْتَاجُونَ فِي حَيَاتِهِمْ إِلَىٰ الضَّوَابِطِ الَّتِي تُوَفِّرُ لَهُمْ سُبُلَ العَيْشِ الآمِنِ السَّعِيدِ، وَتُحَقِّقُ لَهُمُ العَدْلَ وَالمُسَاوَاةَ فِي تَعَامُلِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ اجْتِمَاعِيًّا، واقتصاديًّا... وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَهَذَا مَا تَضَمَّنَتْهُ الشَّرَائِعُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ؛ فَنَجِدُ بَعْضَ الرُّسُلِ يُرَكِّزُ فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ بَعْدَ اهْتِمَامِهِ بِالتَّوْحِيدِ عَلَىٰ إِصْلَاحِ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ، كَانَ قَوْمُهُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ يَشْتَرِكُونَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَهُوَ أَوَّلُ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ أَقْوَامَهُمْ، وَأَمْضَوْا مُدَّةَ رِسَالَاتِهِمْ مُجْتَهِدِينَ فِي تَرْسِيخِ مَعَانِي التَّوْحِيدِ فِي حَيَاةِ أُمَمِهِمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٤].

فَالتَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الأَنْبِيَاءُ هُوَ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ مُتَضَمِّنٌ لِأَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الأُخْرَىٰ، **كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ** رَحِمَهُ اللهُ: «التَّوْحِيدُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، إِنَّمَا يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، بِأَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَا يَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُوَالِيَ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُعَادِيَ إِلَّا فِيهِ، وَلَا يَعْمَلَ إِلَّا لِأَجْلِهِ؛ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]».

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وَوَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا يَفْتَتِحُونَ دَعْوَتَهُمْ لِأَقْوَامِهِمْ بِهَذَا التَّوْحِيدِ؛ فَيَقُولُونَ: ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَيُؤَكِّدُ نَبِيُّنَا ﷺ اشْتِرَاكَ الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ فِي دَعْوَةِ أَقْوَامِهِمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**». وَهَذَا التَّوْحِيدُ، هُوَ الَّذِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**»، وَالحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

وَكَمَا قَالَ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»، رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

كَانَتِ البَشَرِيَّةُ عَلَىٰ هَذَا التَّوْحِيدِ مُنْذُ أَنْ نَزَلَ آدَمُ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَأَخَذَتْهُ مِنْهُ ذُرِّيَّتُهُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ عَشْرَةَ قُرُونٍ حَتَّىٰ طَرَأَ الشِّرْكُ عَلَيْهِمْ.

فَوَاجِبُنَا تُجَاهَ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام أَنْ نُؤْمِنَ بِجَمِيعِهِمْ، الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ فِي القُرْآنِ، وَالَّذِينَ لَمْ يَذْكُرْهُمْ.

وَيَقْتَضِي الإِيمَانُ بِهِمْ: أَنْ نُقَدِّرَهُمْ وَنَحْتَرِمَهُمْ، وَلَا نُفَرِّقَ فِي الإِيمَانِ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَلَا نَجْحَدُ نُبُوَّةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَلَكِنْ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَّبِعَ سِوَىٰ شَرِيعَةِ خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ نَاسِخَةٌ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ؛ لِقَوْلِهِ

تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا دَخَلَ النَّارَ -أَوْ- إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَهَذَا وَاجِبُنَا تِجَاهَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَهُمْ يَتَفَاضَلُونَ، يَتَفَاضَلُ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الدَّرَجَةِ وَالمَنْزِلَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

أَفْضَلُهُمْ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ؛ لِيَخْتُمَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَيَجْعَلَ دِينَهُ أَكْمَلَ الأَدْيَانِ، وَأَعْظَمَ الأَدْيَانِ، وَأَوْفَىٰ الأَدْيَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «**فُضِّلْتُ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَنَّ ذِكْرَهُ وَفَضْلَهُ قَدْ شَاعَ وَسَبَقَ ظُهُورَهُ ﷺ؛ فَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهُ وَفَضْلُهُ عَلَىٰ لِسَانِ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ، وَذُكِرَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فَالنَّبِيُّ ﷺ سَبَقَ ذِكْرُهُ وِلَادَتَهِ، وَكَانَ مَعْرُوفًا مَعْلُومًا ﷺ، وَأَخَذَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ المِيثَاقَ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ لَيَنْصُرُنَّهُ إِذَا ظَهَرَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، كَمَا أَخَذَ الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ قَبْلَهُ عَلَىٰ أَقْوَامِهِمُ المِيثَاقَ عَلَىٰ أَقْوَامِهِمْ لَيَتَّبِعُنَّهُ إِذَا ظَهَرَ، وَأَلَّا يُكَذِّبُوهُ.

بَلْ إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ مُتَمَنِّيًا أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**».

عَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَ مَنِ الَّذِي نَتَصَدَّىٰ لِلدَّوَرَانِ حَوْلَ سِيرَتِهِ بِحَيْثُ لَا نَقَعُ عَلَىٰ سَوَائِهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّنَا، وَهُوَ الجَوَادُ الكَرِيمُ، وَهُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ.

فَمَاذَا يَقُولُ فِيهِ القَائِلُونَ؟

وَبِمَاذَا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ؟ وَقَدْ وَصَفَهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَمَدَحَهُ بِخَيْرِ مِدْحَةٍ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ، اصْطَفَاهُ اللهُ وَأَكْرَمَهُ! وَجَعَلَهُ خَلِيلَهُ، وَخَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ، وَصَفْوَةَ رُسُلِهِ، وَأَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ!

بَشَرٌ لَمْ يُخْطِئْ قَطُّ، لَمْ يَعْتَمِلْ فِي صَدْرِهِ خَاطِرُ سُوءٍ أَبَدًا.

وَالوَاحِدُ مِنَّا يُحَاوِلُ مَا يُحَاوِلُ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِ بَعْضِ كَمَالَاتِ نَفْسِهِ، وَتَعْزِيزِ فُؤَادِهِ بِبَعْضِ القِيَمِ الثَّابِتَةِ، وَالأُصُولِ الرَّاسِخَةِ مِنَ المَكَارِمِ المُنِيفَةِ، وَالأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ يُحَاوِلُ مَا يُحَاوِلُ جَاهِدًا، وَيَفْشَلُ فِي كُلِّ حِينٍ!

يَا لَلَّهُ!

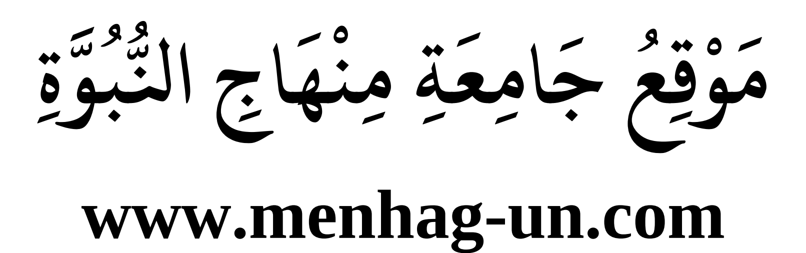
مَا أَعْظَمَهُ! وَمَا أَكْرَمَهُ!

وَمَا أَجَلَّهُ! وَمَا أَحْلَمَهُ! ﷺ.

نَبِيٌّ مِنَ البَشَرِ هُوَ قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ لَمْ يُخْطِئْ قَطُّ، لَمْ يَتَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ عَوْرَاءَ قَطُّ، لَمْ يَجُلْ فِي ضَمِيرِهِ خَاطِرُ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا جَالَ بِخَيَالِهِ خَاطِرُ شَرٍّ قَطُّ، مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ الجَادَّةِ، لَا تُحْصَىٰ لَهُ هَفْوَةٌ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

وَقَدْ أُحْصِيَتْ حَيَاتُهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا مِنْ مِيلَادِهِ إِلَىٰ وَفَاتِهِ، فَمَا عُرِفَتْ لَهُ هَفْوَةٌ، وَلَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ زَلَّةٌ ﷺ هُوَ المَثَلُ الكَامِلُ، وَالأُسْوَةُ الشَّرِيفَةُ، وَالقُدْوَةُ المُنِيفَةُ؛ فَانْهَلْ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَسَىٰ أَنْ يَرْحَمَكَ اللهُ!

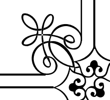
⦿⦿⦿



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ 

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مُوجَزٌ عَنْ تَارِيخِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

فَهَذَا عَرْضٌ مُوجَزٌ لِتَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، لِتَارِيخِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ جُغْرَافِيَّةِ بِلَادِهِمْ، وَأَحْوَالِهِمْ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، مَعَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ؛ مَا يَجْعَلُ الدَّارِسَ لِلسِّيرَةِ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَسُكَّانِهَا الَّذِينَ اخْتِيرَ مِنْهُمْ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالَّذِي أُرْسِلَ بِأَعْظَمِ رِسَالَةٍ إِلَهِيَّةٍ، وَالَّتِي أَحْدَثَتْ أَعْظَمَ إِصْلَاحٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ لَمْ تُحْدِثْهُ رِسَالَةٌ مِنَ الرِّسَالَاتِ.

◉ حُدُودُ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

شِبْهُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ: عِبَارَةٌ عَنْ هَذَا الْجُزْءِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ قَارَّةِ آسْيَا، وَهِيَ أَكْبَرُ جَزِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ، وَيَبْلُغُ مُتَوَسِّطُ عَرْضِهَا: سَبْعَ مِئَةِ مِيلٍ، وَمُنْتَهَىٰ طُولِهَا يَبْلُغُ: أَلْفًا وَمِئَةَ مِيلٍ، وَمِسَاحَتُهَا حَوَالَيْ: أَلْفَ أَلْفِ مِيلٍ مُرَبَّعٍ.

يَحُدُّ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ:

مِنَ الْجَنُوبِ: الْبَحْرُ الْعَرَبِيُّ وَهُوَ الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ.

وَمِنَ الشَّرْقِ: الْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ وَنَهْرُ الْفُرَاتِ.

وَمِنَ الْغَرْبِ: الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ، وَبَرْزَخُ السُّوَيْسِ -قَنَاةِ السُّوَيْسِ الْآنَ-.

وَمِنَ الشَّمَالِ: الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ.

وَهَكَذَا نَرَىٰ أَنَّهَا تُحِيطُ بِهَا الْبِحَارُ وَالْأَنْهَارُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا إِلَّا جُزْءًا قَلِيلًا مِنْهَا؛ وَلِهَذَا يُطْلِقُ عَلَيْهَا الْبَعْضُ -تَجَوُّزًا-: «جَزِيرَةَ الْعَرَبِ»، لَا شِبْهَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَهَذَا التَّحْدِيدُ الَّذِي قَالَ بِهِ «الْهَمْذَانِيُّ»، يُدْخِلُ بِلَادَ الشَّامِ كُلَّهَا، وَالْبَادِيَةَ الَّتِي بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، وَبَادِيَةَ سَيْنَاءَ؛ فَيُدْخِلُ هَذَا كُلَّهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَّفِقُ وَمَا ذَكَرَهُ «هِيرُدُوتُ» الْمُؤَرِّخُ الْقَدِيمُ، غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَبَرَ النِّيلَ الْحَدَّ الْغَرْبِيَّ لِلْقَارَّةِ، وَجَعَلَ صَحْرَاءَ مِصْرَ الشَّرْقِيَّةَ -كَمَا هِيَ مَعْرُوفَةٌ الْآنَ- جَعَلَهَا مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

تَحْتَلُّ شِبْهُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مَوْقِعًا هَامًّا؛ لِأَنَّهَا تَرْبِطُ بَيْنَ قَارَّاتٍ ثَلَاثَةٍ: (آسْيَا - وَأَفْرِيقْيَا - وَأُورُبَّا).

أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْحَضَارِيَّةِ لِلْعَالَمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ: فَهِيَ تَرْبِطُ بَيْنَ الْحَضَارَتَيْنِ السَّائِدَتَيْنِ حِينَئِذٍ؛ الْحَضَارَةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَالْحَضَارَةِ الْفَارِسِيَّةِ.

◉◉◉

جُغْرَافِيَّةُ شِبْهِ الجَزِيرَةِ الْعَرَبِ

وَشِبْهُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَرْضٌ صَحْرَاوِيَّةٌ تتَخَلَّلُهَا جِبَالٌ كَثِيرَةٌ تَخْتَلِفُ ارْتِفَاعًا وَطُولًا وَعَرْضًا، وَلَعَلَّ أَعْظَمَهَا جِبَالُ السَّرَاةِ الْمُمْتَدَّةُ مِنْ سُورِيَّا وَفَلَسْطِينَ شَمَالًا، إِلَىٰ بِلَادِ الْيَمَنِ جَنُوبًا، وَهِيَ تُوَازِي سَاحِلَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَتَقْتَرِبُ مِنْهُ فِي مَوَاقِعَ عَدِيدَةٍ، وَيَتَرَاوَحُ ارْتِفَاعُ هَذِهِ الْجِبَالِ مَا بَيْنَ عَشْرَةِ آلَافِ قَدَمٍ وَثَلَاثَةِ آلَافِ قَدَمٍ؛ وَالْقَدَمُ ثَلَاثُونَ سَنْتِيمِتْرًا؛ فَتَبْلُغُ قِمَمُهَا فِي الشَّمَالِ فِي مَدْيَنَ، وَفِي الْجَنُوبِ فِي الْيَمَنِ وَعَسِيرٍ حَوَالَيْ عَشْرَةِ آلَافِ قَدَمٍ، بَيْنَمَا تَكُونُ خَلْفَ مَكَّةَ ثَمَانِيَةَ آلَافِ قَدَمٍ، وَقُرْبَ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ آلَافِ قَدَمٍ، وَتَحْصُرُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ أَرْضًا سَهْلَةً ضَيِّقَةً تُعْرَفُ بِتِهَامَةَ، تُشْرِفُ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُرْتَفِعَاتُ، وَتَنْحَدِرُ إِلَيْهَا انْحِدَارًا شَدِيدًا قَصِيرًا، وَسَوَاحِلُهَا الْمُهَيْمِنَةُ عَلَىٰ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ يَصْعُبُ رُسُوُّ السُّفُنِ فِيهَا؛ لِخُلُوِّهَا مِنَ الْمَرَافِئِ -أَي: الْمَوَانِي الصَّالِحَةِ-، وَلِوُجُودِ الشُّعَبِ الْمُرْجَانِيَّةِ الَّتِي تَمْتَدُّ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ بَعِيدًا فِي الْبَحْرِ، وَتُوجَدُ جِبَالٌ أُخْرَىٰ فِي نَجْدٍ، وَفِي الْأَقْسَامِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ مُتَفَاوِتَةُ الِارْتِفَاعِ.

بِلَادُ الْعَرَبِ هِيَ شِبْهُ جَزِيرَةٍ، تَحُدُّهَا الْبِحَارُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ: الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ مِنَ الْغَرْبِ، وَالْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ مِنَ الشَّرْقِ، وَبَحْرُ الْعَرَبِ مِنَ الْجَنُوبِ، وَقَدْ تُسَمَّىٰ

جَزِيرَةَ الْعَرَبِ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، وَهِيَ تَقَعُ فِي الْجُزْءِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ قَارَّةِ آسْيَا، وَتُمَثِّلُ رَابِطًا بَيْنَ قَارَّاتِ الْعَالَمِ الْقَدِيمَةِ: (آسْيَا - وَإِفْرِيقِيَّةَ - وَأُورُبَّا).

وَهَذَا الْمَوْقِعُ أَكْسَبَهَا أَهَمِّيَّةً تِجَارِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً؛ حَيْثُ تَمُرُّ بِهَا أَشْهَرُ الطُّرُقِ التِّجَارِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَرْبِطُ آسْيَا مَعَ دُوَلِ حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ.

الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ تُمَثِّلُ مَعَ امْتِدَادِهَا فِي بِلَادِ الرَّافِدَيْنِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَرْضَ النُّبُوَّاتِ، وَمَهْدَ الْحَضَارَاتِ.

◉ **وَتَنْقَسِمُ جُغْرَافِيَّةُ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى أَقْسَامٍ:**

تِهَامَةُ: وَهِيَ الشَّرِيطُ السَّاحِلِيُّ عَلَىٰ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ الْمُمْتَدُّ مِنْ خَلِيجِ الْعَقَبَةِ فِي الشَّمَالِ، حَتَّىٰ بَابِ الْمَنْدَبِ فِي الْيَمَنِ جَنُوبًا، وَيَضِيقُ وَيَتَّسِعُ بِحَسَبِ قُرْبِ جِبَالِ السَّرَوَاتِ مِنَ الْبَحْرِ أَوْ بُعْدِهَا.

مِنْ أَقْسَامِهَا سِوَىٰ تِهَامَةَ:

الْحِجَازُ: وَهِيَ سِلْسِلَةٌ مِنَ الْمُرْتَفِعَاتِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ تِهَامَةَ وَنَجْدٍ، وَهِيَ مُوَازِيَةٌ لِتِهَامَةَ مِنَ الشَّرْقِ، وَتُسَمَّىٰ: جِبَالَ السَّرَوَاتِ، وَاسْمُ الْحِجَازِ يَشْمَلُ الْجِبَالَ وَالسَّاحِلَ، خَاصَّةً مِنَ اللَّيْثِ جَنُوبًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَيَنْبُعَ شَمَالًا.

تِهَامَةُ وَالْحِجَازُ وَنَجْدٌ.

وَنَجْدٌ: هِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ شَمَالَ جِبَالِ السَّرَوَاتِ، وَتَأْخُذُ فِي الِارْتِفَاعِ شَمَالًا إِلَىٰ صَحْرَاءِ النُّفُودِ الْكَبِيرِ، وَشَرْقًا إِلَىٰ صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ نَجْدٍ

وَالْأَحْسَاءِ، وَيَقَعُ فِي قَلْبِهَا مَدِينَةُ الرِّيَاضِ، وَفِي طَرَفِهَا الشَّمَالِيِّ الْغَرْبِيِّ مَنْطِقَةُ الْقَصِيمِ، وَفِي جَنُوبِهَا وَادِي الدَّوَاسِرِ وَالْأَفْلَاجُ وَالْخَرْجُ، وَفِي شَمَالِهَا حَائِلُ.

تِهَامَةُ وَالْحِجَازُ، وَنَجْدٌ، وَالْأَحْسَاءُ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَمَا جَاوَرَهَا عَلَىٰ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ إِلَىٰ الْكُوَيْتِ فِي رَأْسِ الْخَلِيجِ.

تَنْقَسِمُ -أَيْضًا- إِلَىٰ الْيَمَنِ: وَتَشْمَلُ الْجُزْءَ الْجَنُوبِيَّ مِنْ جِبَالِ السَّرَوَاتِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ سَهْلِ تِهَامَةَ إِلَىٰ عَدَنٍ.

وَحَضْرَمَوْتُ، وَعُمَانُ، وَإِمَارَاتُ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ دَوْلَةُ الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ وَقَطَرُ.

صَحْرَاءُ الرُّبْعِ الْخَالِي فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلِصَحْرَاءِ الرُّبْعِ الْخَالِي امْتِدَادَانِ إِلَىٰ الشَّمَالِ؛ **أَحَدُهُمَا**: صَحْرَاءُ النُّفُودِ غَرْبِيَّ الرِّيَاضِ، **وَالثَّانِي**: صَحْرَاءُ الدَّهْنَاءِ شَرْقِيَّهَا، وَيُشَكِّلَانِ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ: صَحْرَاءَ النُّفُودِ الْكَبِيرِ.

هَذِهِ هِيَ الْأَقْسَامُ الْجُغْرَافِيَّةُ لِبِلَادِ الْعَرَبِ: تِهَامَةُ، وَالْحِجَازُ، وَنَجْدٌ، وَالْأَحْسَاءُ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَالْيَمَنُ، وَحَضْرَمَوْتُ، وَعُمَانُ، وَإِمَارَاتُ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ، وَصَحْرَاءُ الرُّبْعِ الْخَالِي فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

◉ مُنَاخُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَعَمَلُ أَهْلِهَا:

وَأَمَّا مُنَاخُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ: فَصَحْرَاوِيٌّ، مَا عَدَا الْمُرْتَفِعَاتِ الَّتِي يَعْتَدِلُ جَوُّهَا صَيْفًا، وَالْأَمْطَارُ قَلِيلَةٌ لَكِنَّهَا عَلَىٰ الْمُرْتَفِعَاتِ أَكْثَرُ.

وَيُوجَدُ بِهَا عَدَدٌ مِنَ الْوَاحَاتِ الَّتِي اشْتَغَلَ أَهْلُهَا بِالزِّرَاعَةِ، أَمَّا الْغَالِبِيَّةُ مِنَ السُّكَّانِ فَكَانُوا فِي زَمَنِ الْبِعْثَةِ يَعْمَلُونَ فِي الرَّعْيِ، وَيَنْتَقِلُونَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ آخَرَ حَسَبَ الْخِصْبِ وَنُزُولِ الْمَطَرِ، وَيَشْتَغِلُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالتِّجَارَةِ، خَاصَّةً أَهْلَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ، وَحَوَاضِرِ الْخَلِيجِ.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ قُرَيْشٍ بِالْأَمْنِ، وَبِرِحْلَتَيِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ الَّتِي يَرْحَلُونَهُمَا فِي التِّجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّزْقِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤].

وَتُعْتَبَرُ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَوْطِنَ الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ، وَقَامَتْ بِهَا عَدَدٌ مِنَ الدُّوَلِ وَالْحَوَاضِرِ الْقَدِيمَةِ، مِثْلُ: عَادٍ قَوْمِ هُودٍ بِالْأَحْقَافِ، وَمِثْلُ: ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ بِالْحِجَازِ وَشَمَالِ الْجَزِيرَةِ، وَمِثْلُ: أَهْلِ مَدْيَنَ قَوْمِ شُعَيْبٍ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ بِالْجَزِيرَةِ، وَمِثْلَ: دُوَلِ مَعِينٍ وَسَبَأٍ وَحِمْيَرٍ فِي الْيَمَنِ، وَدَوْلَةِ كِنْدَةَ فِي نَجْدٍ، كَمَا قَامَتْ فِي مَكَّةَ بَعْدَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ الْكَعْبَةَ الْمُشَرَّفَةَ إِمَارَاتُ الْجَرَاهِمَةِ، ثُمَّ خُزَاعَةُ، ثُمَّ قُرَيْشٌ حِينَ جَمَعَهُمْ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ.

◉ التَّقْسِيمُ الْجُغْرَافِيُّ لِشِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

وَلَيْسَ بَيْنَ أَشْبَاهِ الْجُزُرِ شِبْهُ جَزِيرَةٍ تُنِيفُ عَلَىٰ شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْمِسَاحَةِ، فَهِيَ أَكْبَرُ شِبْهِ جَزِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ، وَيُطْلِقُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ عَلَيْهَا -تَجَوُّزًا-

اسْمَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، تُحِيطُ بِهَا الْمِيَاهُ مِنْ أَطْرَافِهَا الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ إِقْلِيمٌ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ آسْيَا يَحُدُّهُ مِنَ الشَّرْقِ: الْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ، وَمِنَ الْجَنُوبِ: الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ، أَمَّا حَدُّهُ الْغَرْبِيُّ: فَهُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ -كَمَا يُسَمَّىٰ فِي الْخَارِطَاتِ الْحَدِيثَةِ-؛ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ مَعْرُوفٌ بِاسْمِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ فِي الْخَارِطَاتِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ، وَبِبَحْرِ الْقُلْزَمِ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ؛ وَحَدُّهُ الشَّمَالِيُّ خَطٌّ وَهْمِيٌّ يَمْتَدُّ فِي اصْطِلَاحِ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ مِنْ خَلِيجِ الْعَقَبَةِ حَتَّىٰ مَصَبِّ شَطِّ الْعَرَبِ فِي الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ.

قَسَّمَ الْإِسْلَامِيُّونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ عَلَىٰ خَمْسَةِ أَقْسَامٍ:

الْحِجَازُ، وَالْحِجَازُ: يَمْتَدُّ مِنْ أَيْلَةَ، أَيْ مِنَ الْعَقَبَةِ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَسُمِّيَ حِجَازًا فِيمَا يَقُولُونَ؛ لِأَنَّهُ سِلْسِلَةُ جِبَالٍ تَفْصِلُ تِهَامَةَ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ عَلَىٰ طُولِ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ تَفْصِلُ تِهَامَةَ عَنْ نَجْدٍ.

الْقِسْمُ الثَّانِي تِهَامَةُ، وَقَدْ مَرَّ وَصْفُهَا، **وَالْيَمَنُ**، **وَنَجْدٌ** وَهُوَ الْجُزْءُ الْمُرْتَفِعُ الَّذِي يَمْتَدُّ مِنْ جِبَالِ الْحِجَازِ، وَيَسِيرُ شَرْقًا إِلَىٰ صَحْرَاءِ الْبَحْرَيْنِ، وَهُوَ مُرْتَفِعٌ فَسِيحٌ فِيهِ صَحْرَوَاتٌ وَجِبَالٌ.

وَالْعَرُوضُ، وَهِيَ تَتَّصِلُ بِالْبَحْرَيْنِ شَرْقًا وَالْحِجَازِ غَرْبًا، وَسُمِّيَتْ بِالْعَرُوضِ؛ لِاعْتِرَاضِهَا بَيْنَ الْيَمَنِ وَنَجْدٍ، وَتُسَمَّىٰ بِالْيَمَامَةِ أَيْضًا.

◉◉◉

سِمَاتُ الشَّخْصِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَأْثِيرُ الطَّبِيعَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ عَلَيْهَا

تَغَلَّبَتِ الصَّحْرَاوِيَّةُ عَلَىٰ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَظَهَرَ الْجَفَافُ لِعَوَامِلَ طَبِيعِيَّةٍ، وَحَوَادِثَ جِيُولُوجِيَّةٍ، وَبِسَبَبِ الْمَوْقِعِ الْجُغْرَافِيِّ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ سَبَبًا فِي قِلَّةِ نُفُوسِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْمَاضِي وَفِي الْحَاضِرِ، وَفِي سَبَبِ عَدَمِ نُشُوءِ مُجْتَمَعَاتٍ حَضَارِيَّةٍ، وَحُكُومَاتٍ مَرْكَزِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِيهَا، وَفِي سَبَبِ تَفَشِّي الْبَدَاوَةِ، وَغَلَبَةِ الطَّبِيعَةِ الْأَعْرَابِيَّةِ عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَبُرُوزِ رُوحِ الْفَرْدِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِهَا، وَتَقَاتُلِ الْقَبَائِلِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ؛ لِذَلِكَ انْحَصَرَتِ الْحَضَارَةُ فِي الْأَمَاكِنِ الْمَمْطُورَةِ، وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي خَرَجَتْ فِيهَا الْمِيَاهُ الْجَوْفِيَّةُ عُيُونًا وَيَنَابِيعَ، أَوْ قَارَبَتِ الْمِيَاهُ فِيهَا سَطْحَ الْأَرْضِ؛ فَأَمْكَنَ حَفْرُ الْآبَارِ فِيهَا.

فَالْحَيَاةُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ هِيَ هِبَةُ الْمَاءِ؛ فَكَانَتِ الْقَوَافِلُ تَؤُمُّ الْمَاءَ، وَإِلَيْهِ كَانَتِ الطَّبِيعَةُ تَقْذِفُ بِالْأَعْرَابِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانُوا لَا يَرْتَبِطُونَ بِالْأَرْضِ ارْتِبَاطَ الْمُزَارِعِ بِأَرْضِهِ؛ فَلَا يَسْتَقِرُّونَ فِي مَكَانٍ إِلَّا إِذَا وَجَدُوا فِيهِ الْكَلَأَ وَالْمَاءَ.

فَإِذَا جَفَّ الْكَلَأُ وَقَلَّ الْمَاءُ ارْتَحَلُوا إِلَىٰ مَوَاضِعَ جَدِيدَةٍ؛ لِذَلِكَ صَارَتْ حَيَاتُهُمْ حَيَاةً قَاسِيَةً، يَتَمَثَّلُ مُجْتَمَعُهُمْ فِي الْقَبِيلَةِ؛ فَالْقَبِيلَةُ هِيَ الْحُكُومَةُ وَالْقَوْمِيَّةُ

فِي نَظَرِ الْبَدَوِيِّ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ لَا تَعْرِفُ الرَّاحَةَ وَالِاسْتِقْرَارَ، وَلَا تَعْتَرِفُ إِلَّا بِمَنْطِقِ الْقُوَّةِ، حَيَاةٌ جَلَبَتِ الْمَشَقَّةَ لِأَصْحَابِهَا، وَالْمَشَقَّةَ لِمَنْ يُقِيمُ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْهُمْ مِنَ الْحَضَرِ؛ فَهُمْ فِي نِزَاعٍ دَائِمٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ هُمْ فِي نِزَاعٍ مَعَ الْحَضَرِ، وَلَكِنَّ الْعَرَبِيَّ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ مُخْلِصٌ مُطِيعٌ لِتَقَالِيدِ قَبِيلَتِهِ، كَرِيمٌ يُؤَدِّي وَاجِبَاتِ الضِّيَافَةِ، وَالْمُحَالَفَةِ فِي الْحُرُوبِ، كَمَا يُؤَدِّي وَجِبَاتِ الصَّدَاقَةِ، مُخْلِصٌ فِي أَدَائِهَا بِحَسَبِ مَا رَسَمَهُ الْعُرْفُ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ شِعْرُهُمْ، وَزَخَرَ بِهِ أَدَبُهُمْ مِنْ حِكَمٍ وَأَمْثَالٍ وَمُثُلٍ وَقِيَمٍ.

وَالْعَرَبِيُّ يُحِبُّ الْمُسَاوَاةَ، وَيَعْشَقُ الْحُرِّيَّةَ، وَهُوَ رَجُلٌ جَادٌّ صَارِمٌ قَلَّ فِي مُجْتَمَعِهِ الْإِسْفَافُ، مُحَافِظٌ مُتَمَسِّكٌ بِحَيَاتِهِ، مُعْتَزٌّ بِمَا كُتِبَ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ حَيَاةَ خُشُونَةٍ وَصُعُوبَةٍ، وَالْمُمْعِنُ فِي الْبَدَاوَةِ مِنْهُمْ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ بِدِينٍ، قَلَّ أَنْ يُؤْمِنَ إِلَّا بِتَقَالِيدِ قَبِيلَتِهِ، مَا وَرِثَهُ عَنْ آبَائِهِ، مَثَلُهُ الْأَعْلَىٰ فِي الْأَخْلَاقِ تَرَكَّزَ فِي مَا سَمَّاهُ الْمُرُوءَةَ، وَتَغَنَّىٰ بِهَا فِي شِعْرِهِ وَآدَبِهِ.

وَفِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَوَفَّرَتْ فِيهَا الْمِيَاهُ مِنْ مَطَرٍ وَعُيُونٍ وَآبَارٍ؛ ظَهَرَتِ الْحَضَارَةُ عَلَىٰ شَكْلِ قُرًىٰ وَمُسْتَوْطَنَاتٍ وَأَسْوَاقٍ مَوْسِمِيَّةٍ كَانَ لَهَا أَثَرٌ خَطِيرٌ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ عُمُومًا، وَنَشَأَتْ مُجْتَمَعَاتٌ لَهَا طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ وَشَخْصِيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ نَشَأَتْ مُتَأَثِّرَةً بِطَبِيعَةِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَةِ الْجَوِّ، وَطَبِيعَةِ الْحِرَفِ وَالصِّنَاعَاتِ وَطُرُقِ الْعَيْشِ الَّتِي يُمَارِسُهَا هَذَا الْمُجْتَمَعُ؛ فَكَانَ فِي مَكَّةَ مُجْتَمَعٌ خَاصٌّ لَهُ طَابَعٌ مُمَيَّزٌ، وَكَذَلِكَ لِأَهْلِ الْحِيرَةِ، وَلِأَهْلِ يَثْرِبَ.

وَكَانَ مُجْتَمَعُ الْيَمَنِ مِنْ أَغْنَىٰ الْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَرْقَاهَا؛ لِأَوْضَاعِهِ الْخَاصَّةِ، وَتَارِيخِهِ الْحَضَارِيِّ الْقَدِيمِ وَالسِّيَاسِيِّ الْحَدِيثِ، فَتَفَوَّقَ فِي إِنْتَاجِ الْغَلَّةِ، وَتَرْبِيَةِ الْحَيَوَانِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَعَادِنِ، وَأَقَامَ لَهُ قُصُورًا وَحُصُونًا، وَاسْتَوْرَدَ آلَاتٍ تُسَاعِدُهُ فِي مُمَارَسَةِ الصِّنَاعَاتِ، وَتَيْسِيرِ الْحَيَاةِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَمِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَمِنْ أَفْرِيقِيَّةَ.

●●●



أَنْسَابُ الْعَرَبِ

وَقَدِ اتَّفَقَ الرُّوَاةُ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ -أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ- عَلَىٰ تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ الْقِدَمُ إِلَىٰ طَبَقَاتٍ:

عَرَبٍ بَائِدَةٍ، وَعَرَبٍ عَارِبَةٍ، وَعَرَبٍ مُسْتَعْرِبَةٍ.

وَاتَّفَقُوا -أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ- عَلَىٰ تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ النَّسَبُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

قَحْطَانِيَّةٍ، مَنَازِلُهُمُ الْأُولَىٰ فِي الْيَمَنِ.

وَعَدْنَانِيَّةٍ، مَنَازِلُهُمُ الْأُولَىٰ فِي الْحِجَازِ.

وَكَذَلِكَ يُقَسِّمُ النَّسَّابُونَ عَدْنَانَ إِلَىٰ فَرْعَيْنِ كَبِيرَيْنِ: رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ.

وَكَانَ بَيْنَ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَانِيَّةِ مُنَافَسَةٌ قَدِيمَةٌ كَمَا كَانَ بَيْنَ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ عَدَاءٌ شَدِيدٌ ظَلَّ قُرُونًا طَوِيلَةً، وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الْقَحْطَانِيَّةَ هُمُ الْأَصْلُ، وَالْعَدْنَانِيَّةُ الْفَرْعُ مِنْهُمْ أَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ، وَبِلِسَانِهِمْ تَكَلَّمَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ بَعْدَ هِجْرَتِهِمْ إِلَىٰ الْحِجَازِ؛ وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ الْجَدُّ الْأَكْبَرُ لِلْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ -أَيِ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيِّينَ-.

اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الْقَحْطَانِيَّةَ هُمُ الْأَصْلُ وَالْعَدْنَانِيَّةَ الْفَرْعُ.

وَيَرَىٰ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ الْعَدْنَانِيِّينَ هُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ وَلُبُّهَا، وَهُمُ الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ الْأُولَىٰ، عَكْسَ مَا يَرَاهُ وَيَزْعُمُهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَيَقُولُونَ: «إِنَّ كُلَّ مَا رُوِيَ مِنْ هَذَا التَّقْسِيمِ لَمْ يُرْوَ مِنَ النُّصُوصِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّمَا وَرَدَ مُتَوَاتِرًا مِنَ الْكُتُبِ الْمُدَوَّنَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَكْثَرُهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَقْوَالِ الرُّوَاةِ الْمُنْتَمِينَ إِلَىٰ الْأُصُولِ الْقَحْطَانِيَّةِ الْيَمَنِيَّةِ». فَجَعَلُوا الْقَحْطَانِيَّةَ الْأَصْلَ.

فَبَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَدْنَانِيِّينَ هُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ وَلُبُّهَا، وَالْعَرَبُ الْعَارِبَةُ الْأُولَىٰ»، عَكْسَ مَا يَرَاهُ وَيَزْعُمُهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ.

لِلنَّسَبِ عِنْدَ الْعَرَبِ شَأْنٌ كَبِيرٌ، وَقَدْ أَقَرَّ بِهِ أَهْلُ الْخِبْرَةِ مِنَ الْعَجَمِ، فَقَدْ قَالَ رُسْتُمُ، قَائِدُ قُوَّادِ الْفُرْسِ لِأَهْلِ مَجْلِسِهِ حِينَ اسْتَخَفُّوا بِالْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَكَانَ رَسُولَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ، وَاحْتَقَرُوهُ لِرَثَاثَةِ ثِيَابِهِ، وَتَبَذُّلِهِ؛ فَقَالَ لَهُمْ قَائِدُهُمْ قَائِدُ قُوَّادِ الْفُرْسِ رُسْتُمُ: «وَيْلَكُمْ إِنَّ الْعَرَبَ يَسْتَخِفُّونَ بِالثِّيَابِ وَالْمَآكِلِ وَيَصُونُونَ الْأَحْسَابَ».



وِحْدَةُ اللُّغَةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ

وَكَانَ خَلِيقًا بِهَذَا الْقُطْرِ الْوَاسِعِ الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ شِبْهَ قَارَّةٍ أَنْ تَتَعَدَّدَ فِيهِ اللُّغَاتُ وَتَتَنَوَّعَ؛ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ مَوَاطِنِ الْقَبَائِلِ وَبَيْنَ جَنُوبِيِّ الْجَزِيرَةِ وَشَمَالِيِّهَا، وَقِلَّةِ اتِّصَالِ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِأَهْلِ الشَّمَالِ، أَهْلِ الشَّرْقِ بِأَهْلِ الْغَرْبِ، وَبِحُكْمِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ وَالسُّلَالِيَّةِ السَّائِدَةِ عَلَيْهِمْ، وَلِتَأَثُّرِ الْقَبَائِلِ الْمُتَاخِمَةِ لِلرُّومِ وَالْفُرْسِ بِلُغَاتِهِمْ.

وَقِد كَثُرَتِ اللُّغَاتُ فِي أُورُبَّا الْوُسْطَىٰ، وَفِي شِبْهِ الْقَارَّةِ الْهِنْدِيَّةِ كَثْرَةً هَائِلَةً، وَمَا يَزَالُ عَدَدُ اللُّغَاتِ الْمُعْتَرَفِ بِهَا فِي دُسْتُورِ الْهِنْدِ يَبْلُغُ خَمْسَ عَشْرَةَ لُغَةً إِقْلِيمِيَّةً تَخْتَلِفُ فِيمَا بَيْنَهَا اخْتِلَافَ لُغَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا حَتَّىٰ يَحْتَاجَ أَبْنَاؤُهَا لِلتَّفَاهُمِ إِلَىٰ تَرْجُمَانٍ أَوْ لُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ يَتَفَاهَمُونَ بِهَا كَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ؛ فَكَانَ خَلِيقًا بِهَذَا الْقُطْرِ الْوَاسِعِ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْعَوَامِلِ أَنْ تَتَعَدَّدَ فِيهِ اللُّغَاتُ وَتَتَنَوَّعَ، لَكِنِ امْتَازَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَعَتِهَا وَتَرَامِي أَطْرَافِهَا وَتَشَتُّتِ قَبَائِلِهَا بِوَحْدَةِ اللُّغَةِ،كَانَتْ وَمَا تَزَالُ أَدَاةَ تَفَاهُمٍ وَالْتِقَاءٍ لِجَمِيعِ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ حَضَرِهِمْ وَبَدْوِهِمْ، وَالْقَحْطَانِيِّ مِنْهُمْ، وَالْعَدْنَانِيِّ.

وَهِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ لَهْجَاتِهَا، وَفُرُوقِهَا الْإِقْلِيمِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا طَبِيعَةُ اللُّغَاتِ وَفَلْسَفَتُهَا، وَطَبِيعَةُ الْأَقَالِيمِ وَالْأَجْوَاءِ، وَطَبِيعَةُ الِانْعِزَالِ

وَالِانْطِوَاءِ؛ فَاللُّغَاتُ تَخْتَلِفُ فِي لَهْجَاتِهَا بِمَسَافَاتٍ قَدْ تَطُولُ، وَقَدْ تَقْصُرُ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَحْدَةُ اللُّغَوِيَّةُ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَيْسِيرِ مُهِمَّةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَسُرْعَةِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِيهَا، وَمُخَاطَبَةِ الْوِحْدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْفُصْحَىٰ، وَبِكِتَابٍ وَاحِدٍ هُوَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنَ الْآثَارِ الْعَتِيقَةِ أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ كَانَتْ مَأْهُولَةً بِالنَّاسِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْبَالِيُوثِيَّةِ أَيِ: الْعُهُودِ الْحَجَرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمِنْ أَقْدَمِ الْآثَارِ الَّتِي عُثِرَ عَلَيْهَا آثَارٌ مِنْ أَيَّامِ الْعُصُورِ الْمَعْرُوفَةِ بِـ«الشِّلْيَانِ»، أَيِ: الْأَدْوَارِ الْأُولَىٰ مِنْ أَدْوَارِ حَضَارَةِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ.

⦿ ⦿ ⦿

عَرَاقَةُ تَارِيخِ الْعَرَبُ

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْعَرَبِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ تَشْرَحُ عَلَاقَاتِ الْعِبْرَانِيِّينَ بِالْعَرَبِ، وَمَا ذُكِرَ فِي التَّوْرَاةِ عَنِ الْعَرَبِ يَرْجِعُ تَارِيخُهُ إِلَىٰ مَا بَيْنَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ وَالْقَرْنِ الثَّانِي قَبْلَ الْمَسِيحِ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي التُّلْمُودِ إِشَارَاتٌ إِلَىٰ الْعَرَبِ كَذَلِكَ.

وَفِي كُتُبِ جُوزِيفُوس فِلَافْيُوسَ الَّذِي عَاشَ بَيْنَ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِئَةٍ لِلْمَسِيحِ تَقْرِيبًا فِي كُتُبِهِ مَعْلُومَاتٌ ثَمِينَةٌ عَنِ الْعَرَبِ، وَأَخْبَارٌ مُفَصَّلَةٌ عَنِ الْعَرَبِ وَالْأَنْبَاطِ، وَوَرَدَتْ فِي الْكُتُبِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ الْمُؤَلَّفَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ -عَلَىٰ مَا فِيهَا مِنْ أَخْطَاءٍ- وَرَدَتْ أَخْبَارٌ تَارِيخِيَّةٌ جُغْرَافِيَّةٌ كَبِيرَةُ الْخُطُورَةِ، وَوَرَدَتْ فِيهَا أَسْمَاءُ قَبَائِلَ عَرَبِيَّةٍ كَثِيرَةٍ لَوْلَاهَا لَمْ نَعْرِفْ عَنْهَا شَيْئًا.

وَتُعَدُّ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ مِنْ أَهَمِّ الْمَرَاكِزِ الَّتِي كَانَتْ تُعْنَىٰ عِنَايَةً خَاصَّةً بِجَمْعِ الْأَخْبَارِ عَنْ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَعَادَاتِ سُكَّانِهَا، وَمَا يَنْتُجُ فِيهَا لِتَقْدِيمِ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ إِلَىٰ مَنْ يَرْغَبُ فِيهَا مِنْ تُجَّارِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ، وَمِنْ أَقْدَمِ مَنْ ذَكَرَ الْعَرَبَ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ: أَفِلِيسُ قَبْلَ الْمَسِيحِ، وَهِيرُدُوتُسُ، وَهُنَاكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْكُتَّابِ الَّذِينَ تَرَكُوا لَنَا آثَارًا، وَرَدَتْ فِيهَا إِشَارَاتٌ إِلَىٰ الْعَرَبِ، وَالْبِلَادِ

الْعَرَبِيَّةِ مِنْهُمْ بَطْلَيْمُوسُ الَّذِي عَاشَ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْمَسِيحِ، وَهُوَ صَاحِبُ مُؤَلَّفَاتٍ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ؛ مِنْهَا: كِتَابُ «الْمِجَصِّي» الْمَعْرُوفُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي الْمَوَارِدِ النَّصْرَانِيَّةِ مَادَّةٌ غَزِيرَةٌ عَنْ تَارِيخِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَتْ خَاصَّةً بِمَا لَهُ صِلَةٌ بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَانْتِشَارِهَا، وَمَرَاكِزِ نَشَاطِهَا.

وَالْعَرَبُ فِي التَّوْرَاةِ هُمُ الْأَعْرَابُ، أَيْ: سُكَّانُ الْبَوَادِي؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ النُّعُوتَ الْوَارِدَةَ فِيهَا عَنْهُمْ، وَهِيَ نُعُوتٌ لِعَرَبِ الْبَادِيَةِ، وَكَذَلِكَ فِي كُتُبِ الْيُونَانِ، وَالرُّومَانِ، وَالْأَنَاجِيلِ نُعُوتٌ قُصِدَتْ بِهَا الْأَعْرَابُ، وَقَدْ كَانُوا يُغِيرُونَ عَلَىٰ حُدُودِ إِمْبَرَاطُورِيَّتَي الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ، وَيَسْلُبُونَ الْقَوَافِلَ، وَيَأْخُذُونَ الْإِتَاوَاتِ مِنَ التُّجَّارِ وَالْمُسَافِرِينَ.

وَقَدْ وَصَفَ دِيتْرُوثُ الصَّقَلِّيُّ الْعَرَبَ بِأَنَّهُمْ يَعْشَقُونَ الْحُرِّيَّةَ، فَيَلْتَحِفُونَ السَّمَاءَ، وَيَعْتَقِدُونَ بِالْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ، وَالْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَبِذَلِكَ يَصِفُهُمْ هِيرُدُوتْثُ فَيَقُولُ: «إِنَّهُمْ يُقَاوِمُونَ أَيَّ قُوَّةٍ تُحَاوِلُ اسْتِرْقَاقَهُمْ، وَاسْتِذْلَالَهُمْ».

فَالْحُرِّيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ هِيَ أَكْبَرُ شِعَارٍ وَمِيزَةٍ يَمْتَازُ بِهَا الْعَرَبُ فِي نَظَرِ الْكَتَبَةِ الْيُونَانِ وَاللَّاتِينِ.

وَكَذَلِكَ الصِّلَاتُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْهِنْدِ وَمَعْرِفَةُ أَحَدِهِمَا بِالْأُخْرَىٰ، وَالتَّبَادُلُ التِّجَارِيُّ وَالثَّقَافِيُّ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ قَدِيمٌ وَوَثِيقٌ، وَسَابِقٌ عَنِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ بِكَثِيرٍ،

وَكَانَتِ الْهِنْدُ مِنْ أَعْرَفِ الْأَقْطَارِ الْآسْيَوِيَّةِ بِالْعَرَبِ، وَأَقْرَبَ إِلَيْهِمْ لِعَوَامِلَ جُغْرَافِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَصَادِرُ الْهِنْدِيَّةُ وَالْمَصَادِرُ الْعَرَبِيَّةُ، وَالِاكْتِشَافَاتُ الْحَدِيثَةُ.

◉ ◉ ◉

جُغْرَافِيَّةُ بِلَادِ الْحِجَازِ

كَمَا مَرَّ قَسَّمَ جُغْرَافِيُّ الْعَرَبِ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ إِلَىٰ خَمْسَةِ أَقْسَامٍ: (الْحِجَازُ - وَتِهَامَةُ - وَنَجْدٌ - وَالْعَرُوضُ - وَالْيَمَنُ).

وَزَادَ الْاصْطَخْرِيُّ، وَابْنُ حَوْقَلٍ ثَلَاثَةَ أَصْقَاعٍ، وَهِيَ: (بَادِيَةُ الْعِرَاقِ - وَبَادِيَةُ الْجَزِيرَةِ - وَبَادِيَةُ الشَّامِ).

فَالْحِجَازُ: هِيَ الْجِبَالُ الْمُمْتَدَّةُ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَىٰ الشَّمَالِ، وَسُمِّيَتْ حِجَازًا؛ لِأَنَّهَا حَجَزَتْ بَيْنَ الْغَوْرِ وَتِهَامَةَ غَرْبًا، وَبَيْنَ نَجْدٍ شَرْقًا؛ وَمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ عَلَىٰ سِيْفِ الْبَحْرِ عَلَىٰ امْتِدَادِهِ يُسَمَّىٰ تِهَامَةَ، وَمَا يُوجَدُ شَرْقَ الْحِجَازِ مِنَ الْأَرْضِ الْمُرْتَفِعَةِ إِلَىٰ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ وَالسَّمَاوَةِ يُسَمَّىٰ نَجْدًا، وَالْجُزُرُ الَّتِي تَضُمُّ بِلَادَ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَمَا وَالَاهَا تُسَمَّىٰ الْعَرُوضَ، وَمَا يُوجَدُ حَوْلَ صَنْعَاءَ وَمَا وَالَاهَا مِنَ الْبِلَادِ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ وَالشَّحْرِ وَعُمَانَ يُسَمَّىٰ الْيَمَنَ، وَالَّذِي يُهِمُّنَا هَاهُنَا هُوَ التَّعْرِيفُ بِالْحِجَازِ.

الْحِجَازَ عِبَارَةٌ عَنْ سِلْسِلَةِ الْجِبَالِ الْكَثِيرَةِ وَالْمُمْتَدَّةِ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، كَمَا قَالَ مُعْظَمُ الْجُغْرَافِيِّينَ، وَمَا حَوْلَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَمَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ وِدْيَانٍ يَدْخُلُ فِي الْحِجَازِ أَيْضًا.

وَسُمِّيَ حِجَازًا؛ لِأَنَّهُ حَجَزَ بَيْنَ إِقْلِيمِ نَجْدٍ شَرْقًا، وَبِلَادِ تِهَامَةَ غَرْبًا -كَمَا مَرَّ- ، وَلَكِنَّ اسْمَ الْحِجَازِ فِي الْعُرْفِ يَشْمَلُ تِهَامَةَ أَيْضًا، بَلْ عَدَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ تَبُوكَ وَفِلَسْطِينَ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ.

وَطُولُ الْحِجَازِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَىٰ الشَّمَالِ: سَبْعُ مِئَةِ مِيلٍ، وَعَرْضُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَىٰ الْغَرْبِ: خَمْسُونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ مِيلٍ، وَتُعْتَبَرُ جِبَالُ السَّارَاةِ عَمُودًا فِقْرِيًّا لِشِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَخْتَلِفُ جِبَالُ الْحِجَازِ ارْتِفَاعًا وَانْخِفَاضًا، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ بِضْعَةَ آلَافٍ مِنَ الْأَمْتَارِ، وَمِنْهَا مَا لَا يَزِيدُ عَلَىٰ مِئَتَيْ مِتْرٍ، وَتَتَخَلَّلُ هَذِهِ الْجِبَالَ وِدْيَانٌ كَثِيرَةٌ، وعُيُونٌ وَآبَارٌ، وَحَوْلَ الْعُيُونِ وَالْآبَارِ تُوجَدُ الْوَاحَاتُ.

◉ أَشْهَرُ وِدْيَانِ الْحِجَازِ:

مِنْ أَشْهَرِ هَذِهِ الْوِدْيَانِ:

*** وَادِي إِضَمَ**، وَيَقَعُ جَنُوبَ خَيْبَرَ حَتَّىٰ يُقَارِبَ الْمَدِينَةَ حَيْثُ تَتَّصِلُ بِهِ أَوْدِيَةٌ فَرْعِيَّةٌ كَوَادِي الْعَقِيقِ.

مِنْ أَشْهَرِ هَذِهِ الْوِدْيَانِ أَيْضًا:

*** وَادِي الْقُرَىٰ**، وَهُوَ يَسْتَمِدُّ مِيَاهَهُ مِنَ السُّيُولِ الَّتِي تَنْحَدِرُ إِلَيْهِ مِنَ الْعُيُونِ الَّتِي عِنْدَ خَيْبَرَ، ثُمَّ يَتَّجِهُ غَرْبًا حَتَّىٰ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ جَنُوبَ قَرْيَةِ الْوَجْهِ.

وَوَادِي الْقُرَىٰ وَادٍ مُهِمٌّ؛ لِأَنَّهُ مَمَرُّ الْقَوَافِلِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَهَمِّ وَسَائِلِ نَقْلِ التِّجَارَةِ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ.

* **وَادِي الرُّمَّةِ**: عِنْدَ حَرَّةِ فَدَك، يَتَكَوَّنُ مِنَ الْتِقَاءِ بِضْعَةِ أَوْدِيَةٍ ثُمَّ يَتَّجِهُ نَحْوَ الشَّرْقِ حَتَّىٰ جَبَلِ الْقَصِيمِ، وَيَبْلُغُ طُولُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ وَتِسْعِ مِئَةِ كِيلُو مِتْرًا.

* **وَادِي الصَّفْرَاءِ**: وَهُوَ وَادٍ كَثِيرُ النَّخْلِ وَالزُّرُوعِ فِي طَرِيقِ الْحُجَّاجِ، سَلَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ بَدْرٍ مَرْحَلَةٌ، وَسُمِّيَ بِاسْمِ قَرْيَةِ الصَّفْرَاءِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ كَثِيرَةُ النَّخْلِ وَالزُّرُوعِ، وَمَاؤُهَا عُيُونٌ تَجْرِي إِلَىٰ يَنْبُعَ، وَكَانَ يَمُرُّ بِالْحِجَازِ أَحَدُ طَرِيقَيِ التِّجَارَةِ الْبَرِّيَّيْنِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، مُبْتَدِئًا مِنَ الْيَمَنِ مُخْتَرِقًا تِهَامَةَ وَالْحِجَازَ، مَارًّا بِمَكَّةَ وَيَثْرِبَ الَّذِي بِالْمَدِينَةِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ أَيْلَهْ عَلَىٰ خَلِيجِ الْعَقَبَةِ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَىٰ مَوَانِئِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ.

◉ سَلَامَةُ أَرْضِ الْحِجَازِ مِنَ الِاحْتِلَالِ:

وَقَدْ شَاءَ اللهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ) أَلَّا تَطَأَ الْحِجَازَ قَدَمُ دَخِيلٍ قَطُّ، أَوْ مُغِيرٍ، وَلَا كَانَ لِأَحَدٍ مِنَ الدُّوَلِ الْمُجَاوِرَةِ الْقَوِيَّةِ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِوُعُورَةِ الْأَرْضِ، وَكَثْرَةِ الْجِبَالِ، وَضِيقِ الْمَسَالِكِ، وَسَعَةِ مَغَاوِرِهَا، كَمَا أَنَّ حَالَتَهُ الِاقْتِصَادِيَّةَ لَمْ تَكُنْ لِتُطْمِعُ أَحَدًا فِيهِ؛ فَمِنْ ثَمَّ بَقِيَ أَهْلُهُ عَلَىٰ مَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالِانْطِلَاقِ، وَمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ الْخِلَالِ الْكَرِيمَةِ، وَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمْ سَلِيمَةً مِنَ الْهُجْنَةِ، وَلُغَتُهُمْ سَلِيمَةً مِنَ الْعُجْمَةِ، لَا سِيَّمَا مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ؛ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا سِوَىٰ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ مَا عَدَا أُنَاسًا لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا طَوْلٌ، وَلَا أَثَرَ لَهُمْ يُذْكَرُ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَحْتَرِفُونَ بَعْضَ الْحِرَفِ، كَالْحِدَادَةِ، وَالصِّبَاغَةِ،

وَخِدْمَةِ الْأَشْرَافِ، وَالْعَمَلِ لَهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ، وَبَسَاتِينِهِمْ، وَهُمْ طَبَقَةُ الْعَبِيدِ وَالْأَرِقَّاءِ مِنَ الْحَبَشَةِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ مِمَّنْ لَا يَتَطَاوَلُونَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ أَوْ مُصَاهَرَتِهَا أَوِ التَّأْثِيرِ فِيهَا؛ وَبَعْضُهُمْ كَانَ نَصْرَانِيًّا؛ كَجَبْرٍ الرُّومِيِّ، وَعَدَّاسٍ النَّيْنَوَانِيِّ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ عِلْمِ النَّصْرَانِيَّةِ سِوَىٰ الِانْتِمَاءِ إِلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ عَلَىٰ دِينِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ صَارَ مُعْظَمُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِالْإِسْلَامِ وَأَكْرَمِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، أَمْثَالُ: بِلَالٍ الْحَبَشِيِّ، وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-.

◉ **أَهَمُّ مُدُنِ بِلَادِ الْحِجَازِ:**

يَشْتَمِلُ الْحِجَازُ عَلَىٰ قُرًى وَمُدُنٍ أَهَمُّهَا: (مَكَّةُ، وَيَثْرِبُ -أَي: المَدِينَة-، وَالطَّائِفُ، وَجُدَّةُ).

فَأَمَّا مَكَّةُ: فَهِيَ بَلَدُ اللهِ الْحَرَامُ، وَفِيهَا الْكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ.

وَمَكَّةُ، تَقَعُ فِي وَادٍ سَهْلٍ مُنْبَسِطٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، تُحِيطُ بِهِ الْجِبَالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مَعَ تَخَلُّلِ شِعَابٍ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَفِي شَمَالِ مَكَّةَ يُوجَدُ جَبَلُ حِرَاءٍ الَّذِي بِهِ غَارُ حِرَاءٍ، وَفِي جَنُوبِهَا يَقَعُ جَبَلُ ثَوْرٍ الَّذِي يُوجَدُ بِهِ غَارُ ثَوْرٍ.

وَمَكَّةُ مَدِينَةٌ فِي نَشْأَتِهَا لِعَيْنِ زَمْزَمَ، وَلِلْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَمَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا حَرَمٌ مَعْلُومُ الْحُدُودِ، وُضِعَتْ عَلَىٰ حُدُودِهِ نُصُبٌ وَعَلَامَاتٌ يُعْرَفُ بِهَا يَأْمَنُ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ وَالطَّيْرُ، فَلَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ، وَلَا يُهَاجُ فِيهِ حَيَوَانٌ، وَلَا يُصَادُ فِيهِ طَيْرٌ، بَلْ وَلَا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، وَقَدْ حَرَّمَهَا اللهُ وَمَا حَوْلَهَا مِنْ يَوْمِ أَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَقَدْ أَظْهَرَ اللهُ هَذَا التَّحْرِيمَ عَلَىٰ لِسَانِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وَمَكَّةُ تُسَمَّىٰ: بَكَّةَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وَتُسَمَّىٰ مَكَّةُ: أُمَّ الْقُرَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ: ٧].

وَلِمَكَّةَ مَكَانَةٌ مُمْتَازَةٌ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَفِيهَا الْكَعْبَةُ، وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةُ، وَبِجِوَارِهَا عَرَفَاتٌ، وَالْمُزْدَلِفَةُ، وَمِنَىٰ؛ وَهِيَ مِنْ مَشَاعِرِ الْحَجِّ؛ فَلِذَلِكَ تَهْفُو إِلَيْهَا قُلُوبُ الْأُلُوفِ لِقَضَاءِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ وَقْتِنَا هَذَا، وَيُرَجِّحُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي السِّيرَةِ نَشْأَتَهَا إِلَىٰ سَنَةِ خَمْسِينَ وَأَلْفَيْنِ قَبْلَ الْمِيلَادِ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي أَوَّلِ مَنْ أَنْشَأَهَا، فَجُمْهُورُ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَاهَا وَسَكَنَهَا الْعَمَالِيقُ، وَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، ثُمَّ خَلَفَهُمْ عَلَيْهَا جُرْهُمٌ، حَتَّىٰ أَسْكَنَ

الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ، وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِهَذَا الْوَادِي، فَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ حَتَّىٰ صَارَ رَجُلًا وَاخْتَلَطَ بِهِمْ -أَيْ بِجُرْهُمٍ- وَصَاهَرَهُمْ، ثُمَّ غَلَبَتْ خُزَاعَةُ جُرْهُمَ عَلَىٰ مَكَّةَ، وَاسْتَمَرُّوا حُكَّامَهَا حَتَّىٰ جَاءَ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ فَجَمَعَ قُرَيْشًا فِيهَا بَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَ مِنْ إِجْلَاءِ خُزَاعَةَ عَنْهَا؛ وَبِذَلِكَ عَادَتْ لِقُرَيْشٍ السِّيَادَةُ عَلَىٰ مَكَّةَ، وَحِمَايَةُ الْبَيْتِ حَتَّىٰ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ.

وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ قِصَّةُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ الْخَلِيلَ لَمَّا أَسْكَنَ ابْنَهُ وَأُمَّهُ هُنَاكَ لَمْ يَكُنْ بِهَا أَحَدٌ، وَأَنَّ الْجَرَاهِمَةَ أَوَّلُ مَنْ أَقَامُوا بِجِوَارِ إِسْمَاعِيلَ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَكَّةَ لَمْ تَنْشَأْ إِلَّا بَعْدَ نَبْعِ زَمْزَمَ، وَبِنَاءِ الْبَيْتِ، وَاتِّصَالِ إِسْمَاعِيلَ بِالْجَرَاهِمَةِ وَمُصَاهَرَتِهِ فِيهِمْ؛ فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ.

وَأَمَّا الْمَدِينَةُ: فَهِيَ تَقَعُ عَلَىٰ بُعْدِ نَحْوٍ مِنْ ثَلَاثِ مِئَةِ مِيلٍ شَمَالَ مَكَّةَ، كَانَ اسْمُهَا الْغَالِبُ عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ «يَثْرِبَ»، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الِاسْمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ تَقَعُ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ.

وَالْحَرَّةُ: أَرْضٌ بِهَا صُخُورٌ، وَتَكُونُ سَوْدَاءَ، وَأَرْضُهَا تَشْتَهِرُ -أَيْ أَرْضُ الْمَدِينَةِ- بِالْخِصْبِ مِنْ قَدِيمٍ، وَبِهَا الْبَسَاتِينُ وَالنَّخِيلُ وَالْفَوَاكِهُ وَالزُّرُوعُ.

قِيلَ: إِنَّ تَارِيخَ نَشْأَتِهَا يَرْجِعُ إِلَىٰ نَحْوِ سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ وَأَلْفٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَكَانَ يَسْكُنُهَا الْعَمَالِيقُ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ، ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَيْهَا بَعْضُ الْيَهُودِ لَمَّا تَعَرَّضُوا لِمَوْجَاتٍ مِنَ الِاضْطِهَادِ، وَالْقَتْلِ، وَالْأَسْرِ عَلَىٰ يَدَيْ بُخْتُنَصَّرَ

الْبَابِلِيِّ وَغَيْرِهِ، فَأَقَامُوا بِهَا؛ فَالْيَهُودُ طَارِئُونَ، وَدُخَلَاءُ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَمِنْ كَرَمِ الْعَرَبِ أَنْ تَرَكُوهُمْ يَسَاكُنُونَهُمْ فِيهَا حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ؛ فَاسْتَعْمَلُوا الدَّسَّ، وَالْغَدْرَ، وَالْخِيَانَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ؛ فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إِجْلَائِهِمْ عَنْهَا، كَمَا سَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا-.

نَزَلَ الْمَدِينَةَ -وَكَانَتْ تُسَمَّىٰ يَثْرِبَ، نَزَلَهَا- بَعْدَ انْهِيَارِ سَدِّ مَأْرِبٍ بَعْضُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَهُمَا قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَوَجَدُوا الثَّرْوَةَ وَالْمَالَ مَعَ الْيَهُودِ؛ فَاسْتَعَانُوا بِإِخْوَانِهِمُ الْعَرَبِ فَأَعَانُوهُمْ، فَقَتَلُوا رُؤَسَاءَهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ، وَأَصْبَحَ لِلْأَوْسِ، وَالْخَزْرَجِ الزَّعَامَةُ بِيَثْرِبَ، وَقَدِ اسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، وَسَارَعَتْ إِلَيْهِ الْقَبِيلَتَانِ، وَعُرِفَتَا فِيمَا بَعْدُ بِالْأَنْصَارِ.

وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ تَقَعُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْقَوَافِلِ التِّجَارِيَّةِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَبَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ مِمَّا جَعَلَهَا تَزْدَهِرُ، وَقَدِ اكْتَسَبَتْ بَعْدَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ وَهِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَيْهَا مَكَانَةً مُمْتَازَةً، فَقَدْ أَضْحَتْ عَاصِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَقَلْبَهُ النَّابِضَ، وَقُضْبَهُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ.

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ حَرَمًا آمِنًا؛ فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا، وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**بِمِثْلِ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ**».

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ -أَيْضًا- أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَنَا أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَبَتَيْهَا، فَلَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُصَادُ بِهَا صَيْدٌ، وَلَا يُهَاجُ بِهَا طَيْرٌ، وَلَا يُعْضَضُ بِهَا شَجَرٌ**».

وَكَذَلِكَ وَرَدَ أَنَّهَا حَرَمٌ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ».

كَانَتِ الْمَدِينَةُ تُسَمَّىٰ (يَثْرِب)، فَسَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ طَيْبَةَ، وَطَابَةَ، وَنَهَىٰ أَنْ يُقَالَ: يَثْرِب.

وَفِي الْمَدِينَةِ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ ثَانِي الْمَسَاجِدِ الْمُشَرَّفَةِ الَّتِي تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّحَالُ، وَإِنْ كَانَ قَالَ ثَالِثُهَا فِي الْبِنَاءِ؛ وَفِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الرَّوْضَةُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»؛ وَفِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ أَفْضَلُ بُقْعَةٍ ضَمَّتْ أَفْضَلَ جَسَدٍ لِبَشَرٍ.

فِي الْمَدِينَةِ وَمَا جَاوَرَهَا آثَارٌ وَذِكْرَيَاتٌ عَزِيزَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَلِأَيَّامِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْدَاثِهِ، وَتَشْرِيعَاتِهِ؛ فِيهَا: الْبَقِيعُ، مَقْبَرَةُ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ؛ فَلَا عَجَبَ إِنْ كَانَتِ الْمَدِينَةُ تَهْفُو إِلَيْهَا قُلُوبُ أُلُوفِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ عَامٍ.

وَمِينَاءُ الْمَدِينَةِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَىٰ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ يَنْبُعُ، وَتَبْعُدُ عَنْهَا -أَيْ عَنِ الْمَدِينَةِ- نَحْوًا مِنْ مِئَةٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا.

الطَّائِفُ: بَلْدَةٌ تَقَعُ عَلَىٰ بُعْدِ نَحْوِ خَمْسَةٍ وَسَبْعِينَ مِيلًا إِلَىٰ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مَكَّةَ، عَلَىٰ رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافِ قَدَمٍ عَلَىٰ ظَهْرِ جَبَلِ غَزْوَان؛ فَمِنْ ثَمَّ كَانَ هَوَاؤُهَا بَارِدًا فِي الصَّيْفِ، وَكَانَتْ وَمَا تَزَالُ مَصِيفَ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَشْتُو بِمَكَّةَ نِعْمَةً وَمَصِيفُهَا بِالطَّائِفِ

يُحِيطُ بِالطَّائِفِ وِدْيَانٌ كَثِيرَةٌ تَتَجَمَّعُ فِيهَا الْمِيَاهُ فِي مَوْسِمِ الْأَمْطَارِ، وَبِهَا عُيُونٌ، وَآبَارٌ كَبِيرَةٌ، وَأَرْضُهَا خِصْبَةٌ تَكْثُرُ بِهَا الْحَدَائِقُ الَّتِي تُثْمِرُ الْفَوَاكِهَ الْجَيِّدَةَ، وَبِهَا تَجُودُ الزُّرُوعُ، والْحُبُوبُ، وَلَا تَزَالُ إِلَىٰ وَقْتِنَا هَذَا يُجْلَبُ مِنْهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا الْفَوَاكِهُ كَالْعِنَبِ، وَالرُّمَّانِ، وَغَيْرِهِمَا.

وَكَانَتْ تَسْكُنُ الطَّائِفَ قَدِيمًا قَبِيلَةُ ثَقِيفٍ، وَكَانَتْ مِنْ أَعْتَىٰ الْقَبَائِلِ، وَأَصْعَبِهَا مِرَاسًا وَعِنَادًا، وَقَدِ اسْتَعْصَىٰ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَعَا لَهُمْ حَتَّىٰ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِسْلَامِ.

جُدَّةُ: هِيَ مِينَاءُ مَكَّةَ عَلَىٰ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَهِيَ تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ نَحْوَ خَمْسَةٍ وَسَبْعِينَ كِيلُو مِتْرًا، وَأَرْضُهَا رَمْلِيَّةٌ، وَلَيْسَ بِهَا زِرَاعَةٌ، وَهِيَ أَهَمُّ مَوَانِئِ الْحِجَازِ كُلِّهَا، وَعَنْ طَرِيقِهَا يَدْخُلُ الْمُسْتَوْرَدُ، وَيَخْرُجُ الْمُصَدَّرُ، وَهِيَ مِنَ الْمَرَاكِزِ التِّجَارِيَّةِ الْمُهِمَّةِ بِالْبِلَادِ، وَتَقَعُ عَلَىٰ أَحَدِ الطَّرِيقَيْنِ الْمُعَبَّدَيْنِ بَيْنَ

مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ الْآنَ، وَقَدْ كَانَتْ عَرُوسَ مَوَانِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَتْ فِي الْحَضَارَةِ وَالْعُمْرَانِ بِحَظٍّ كَبِيرٍ، وَاسْتَبْحَرَ فِيهَا الْعُمْرَانُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا لَا سِيَّمَا مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ.

فَهَذَا بَعْضُ وَصْفٍ لِهَذِهِ الْمُدُنِ مِنْ مُدُنِ الْحِجَازِ، وَلَهَا تَعَلُّقٌ مُبَاشِرٌ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ وَنَشَأَ وَدَعَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ هَاجَرَ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ خَرَجَ ﷺ إِلَىٰ الطَّائِفِ يَدْعُوهُمْ -يَعْنِي ثَقِيفًا- إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَبَعْضُ وَقَائِعِ السِّيرَةِ لَهَا تَعَلُّقٌ مُبَاشِرٌ بِهَذِهِ الْمُدُنِ مِنْ مُدُنِ الْحِجَازِ.

● ● ●



أُصُولُ الْعَرَبِ وَقَبَائِلُهُمْ

قَسَّمَ الْمُؤَرِّخُونَ أُصُولَ الْعَرَبِ -كَمَا مَرَّ- إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، بِحَسَبِ السُّلَالَاتِ الَّتِي انْحَدَرُوا مِنْهَا:

الْعَرَبُ الْبَائِدَةُ: وَهِيَ قَبَائِلُ: عَادٍ، وَثَمُودَ، وَالْعَمَالِقَةِ، وَطَسْمٍ، وَجَدِيْسٍ، وَأُمَيْمٍ، وَجُرْهُمٍ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ، وَهَذِهِ دَرَسَتْ مَعَالِمُهَا، وَاضْمَحَلَّتْ مِنَ الْوُجُودِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ لَهُمْ مُلُوكٌ امْتَدَّ مُلْكُهُمْ إِلَىٰ الشَّامِ وَمِصْرَ.

الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ: هُمُ الْعَرَبُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ صُلْبِ يَعْرُبَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَتُسَمَّىٰ بِالْعَرَبِ الْقَحْطَانِيَّةِ، وَيُعْرَفُونَ بِعَرَبِ الْجَنُوبِ، وَمِنْهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ، وَمُلُوكُ مَمْلَكَةِ مَعِينٍ، وَسَبَأٍ، وَحِمْيَرَ.

الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ: نِسْبَةً إِلَىٰ عَدْنَانَ الَّذِي يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ، أَيِ: الَّذِينَ دَخَلَ عَلَيْهِمْ دَمٌ لَيْسَ عَرَبِيًّا، ثُمَّ تَمَّ انْدِمَاجٌ بَيْنَ هَذَا الدَّمِ وَالْعَرَبِ، وَأَصْبَحَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِسَانَ الْمَزِيجِ الْجَدِيدِ.

هَؤُلَاءِ -يَعْنِي الْعَرَبَ الْعَدْنَانِيَّةَ- هُمْ عَرَبُ الشَّمَالِ، مَوْطِنُهُمُ الْأَصْلِيُّ مَكَّةُ، وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام وَأَبْنَاؤُهُ وَالْجَرَاهِمَةُ الَّذِينَ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام الْعَرَبِيَّةَ، وَصَاهَرَهُمْ، وَنَشَأَ أَوْلَادُهُ عَرَبًا مِثْلَهُمْ.

وَمِنْ أَهَمِّ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ: عَدْنَانُ جَدُّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم الْأَعْلَىٰ، وَمِنْ عَدْنَانَ كَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ وَبُطُونُهَا، فَقَدْ جَاءَ بَعْدَ عَدْنَانَ ابْنُهُ مَعَدٌّ، ثُمَّ نِزَارٌ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ وَلَدَاهُ مُضَرُ، وَرَبِيعَةُ.

أَمَّا رَبِيعَةُ بْنُ نِزَارٍ فَقَدْ نَزَلَ مَنِ انْحَدَرَ مِنْ صُلْبِهِ شَرْقًا؛ فَقَامَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ فِي الْبَحْرَيْنِ، وَحَنِيفَةُ فِي الْيَمَامَةِ، وَبَنُو بَكْرٍ -هُمُ ابْنُ وَائِلٍ- بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ، وَالْيَمَامَةِ، وَعَبَرَتْ تَغْلِبُ الْفُرَاتَ؛ فَأَقَامَتْ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ، وَسَكَنَتْ تَمِيمٌ فِي بَادِيَةِ الْبَصْرَةِ.

أَمَّا فَرْعُ مُضَرَ فَقَدْ نَزَلَتْ سُلَيْمٌ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَقَامَتْ ثَقِيفٌ فِي الطَّائِفِ، وَاسْتَوْطَنَتْ سَائِرُ هَوَازِنَ شَرْقِيَّ مَكَّةَ، وَسَكَنَتْ أَسَدٌ شَرْقِيَّ تَيْمَاءَ إِلَىٰ غَرْبِيِّ الْكُوفَةِ، وَسَكَنَتْ ذُبْيَانُ وَعَبْسٌ مِنْ تَيْمَاءَ إِلَىٰ حُورَانَ.

وَتَقْسِيمُ الْعَرَبِ إِلَىٰ عَدْنَانِيَّةٍ وَقَحْطَانِيَّةٍ هُوَ مَا عَلَيْهِ جَمْهَرَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْسَابِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَرَىٰ أَنَّ الْعَرَبَ عَدْنَانِيَّةٌ، وَقَحْطَانِيَّةٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام.

وَقَدْ تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» لِذَلِكَ؛ فَقَالَ: «بَابُ نِسْبَةِ الْيَمَنِ - وَهِيَ قَحْطَانِيَّةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَنْسَابِ- بَابُ نِسْبَةِ الْيَمَنِ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا عَنْ سَلَمَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضَلُونَ بِالسُّوقِ، فَقَالَ: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**» لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ، فَأَمْسَكُوا بِأَيْدِيهِمْ؛ فَقَالَ: «**مَالَهُمْ؟**»

قَالُوا: وَكَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلَانٍ؟!

قَالَ: «**ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**».

قَالَ الْبُخَارِيُّ: «وَأَسْلَمُ بْنُ أَفْصَىٰ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مِنْ خُزَاعَةَ»؛ يَعْنِي أَنَّ خُزَاعَةَ فِرْقَةٌ مِمَّنْ كَانَ تَمَزَّقَ مِنْ قَبَائِلِ سَبَأٍ حِينَ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.

وَوُلِدَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ مُضَرَ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ، قَالَ حَدَّثَتْنِي رَبِيبَةُ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ قُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ النَّبِيَّ ﷺ أَ كَانَ مِنْ مُضَرَ؟

فَقَالَتْ: فَمِنْ مَنْ كَانَ إِلَّا مِنْ مُضَرَ بَنِي النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ.

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدِ انْحَدَرَتْ مِنْ كِنَانَةَ، وَهُمْ أَوْلَادُ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، وَانْقَسَمَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ قَبَائِلَ شَتَّىٰ مِنْ أَشْهَرِهَا: (جُمَحٌ - وَسَهْمٌ - وَعَدِيٌّ - وَمَخْزُومٌ - وَتَيْمٌ - وَزُهْرَةُ).



وَبُطُونُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ هِيَ: (عَبْدُ الدَّارِ بْنُ قُصَيٍّ - وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ - وَعَبْدُ مَنَافِ بْنُ قُصَيٍّ)، وَكَانَ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ أَرْبَعُ فَصَائِلَ: (عَبْدُ شَمْسٍ - وَنَوْفَلٌ - وَالْمُطَّلِبُ - وَهَاشِمٌ)، وَبَيْتُ هَاشِمٍ هُوَ الَّذِي اصْطَفَىٰ اللهُ مِنْهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ، فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ.

قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

⦿ ⦿ ⦿



مِنْ خَصَائِصِ أَرْضِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حِرَارٌ كَثِيرَةٌ؛ الْحِرَارُ: جَمْعُ حَرَّةٍ، وَهِيَ أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سُودٍ نَخِرَةٍ، وَاحِدَتُهَا حَرَّةٌ، وَتُسَمَّىٰ لَابَةً، وَلُوبَةً، وَقَدْ تَكَوَّنَتْ تِلْكَ الْحِرَارُ مِنْ فِعْلِ الْبَرَاكِينِ، وَيُشَاهَدُ مِنْهَا نَوْعَانِ: نَوْعٌ يَتَأَلَّفُ مِنْ فَجَوَاتِ الْبَرَاكِينِ نَفْسِهَا، وَنَوْعٌ يَتَأَلَّفُ مِنْ حُمَمِهَا الَّتِي كَادَتِ الْبَرَاكِينُ تَقْذِفُهَا فَتَسِيلُ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْفَتْحَةِ الْبُرْكَانِيَّةِ ثُمَّ تَبْرُدُ، وَتَتَفَتَّتُ بِفِعْلِ التَّقَلُّبَاتِ الْجَوِّيَّةِ؛ فَتُكَوِّنُ رُكَامًا مِنَ الْأَحْجَارِ الْبُرْكَانِيَّةِ الَّتِي تُغَطِّي الْأَرْضَ طَبَقَاتٍ، وَقَدْ تَكُونُ رَقِيقَةً تِلْكَ الطَّبَقَاتُ، وَقَدْ تَكُونُ سَمِيكَةً.

وَاشْتُهِرَتْ كَثِيرٌ مِنْ مَنَاطِقِ الْحِرَارِ بِالْخِصْبِ، وَالنَّمَاءِ، وَبِكَثْرَةِ الْمِيَاهِ لَا سِيَّمَا حِرَارُ الْمَدِينَةِ الَّتِي اسْتُغِلَّتِ اسْتِغْلَالًا جَيِّدًا، وَمِنْهَا خَيْبَرُ؛ حَيْثُ كَانَتْ وَاحَةً عَظِيمَةً، وَتَضُمُّ قُرًىٰ كَانَتْ تَشْتَهِرُ بِأَنْوَاعِ الْمَزْرُوعَاتِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ.

وَلَيْسَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ نَهْرٌ وَاحِدٌ بِالْمَعْنَىٰ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْأَنْهَارِ، وَإِنَّمَا هِيَ جَدَاوِلُ غَيْرُ صَالِحَةٍ لِلْمِلَاحَةِ، وَهِيَ إِمَّا قَصِيرَةٌ سَرِيعَةُ الْجَرَيَانِ، شَدِيدَةُ الِانْحِدَارِ، وَإِمَّا ضَحْلَةٌ تَجِفُّ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ، وَبِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُيُونِ، وَحَوْلَ هَذِهِ الْعُيُونِ الْوَاحَاتُ وَالْوِدْيَانُ ذَاتُ الْأَشْجَارِ الْوَارِفَةِ، وَتُوجَدُ بِهَا بَعْضُ الْمَزْرُوعَاتِ، وَالْخُضَرِ، وَالْفَاكِهَةِ.

الْجِنْسُ الَّذِي يَسْكُنُ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ

الْجِنْسُ الَّذِي يَسْكُنُ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ يُسَمَّىٰ: الْجِنْسَ الْعَرَبِيَّ، وهُوَ أَحَدُ الْأَجْنَاسِ السَّامِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُهَا مُحَافَظَةً عَلَىٰ خَصَائِصِ السَّامِيِّينَ، وَيَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَهِيَ إِحْدَىٰ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا أَيْضًا أَكْثَرُ مُحَافَظَةً عَلَىٰ خَصَائِصِ اللِّسَانِ السَّامِيِّ، وَتَرْجِعُ هَذِهِ الْمُحَافَظَةُ إِلَىٰ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ طَبِيعَةُ الِانْعِزَالِيَّةُ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ، وَعَدَمِ التَّزَوُّجِ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ تَزْوِيجِهِ مِنْهُمْ، وَقَدْ حَرَسَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ الْجِنْسَ الْعَرَبِيَّ، وَاللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنَ الْهَجَمَاتِ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا غَيْرُ الْعَرَبِ مِنَ السَّامِيِّينَ، وَغَيْرُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ فُرُوعِ اللِّسَانِ السَّامِيِّ.

وَالْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ عَدَّهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّشْرِيحِ نَمُوذَجًا لِلتَّقْوِيمِ الْبَشَرِيِّ الْكَامِلِ أَنْثُرُوبِيُولُوجِيَا، وَلُغَتُهَا أَرْقَىٰ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَأَثْرَاهَا وَأَخَفُّهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ، وَأَعْذَبُهَا عَلَىٰ السَّمْعِ، وَأَشْمَلُهَا لِمُقَوِّمَاتِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ.

وَالْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ أَقْدَمِ الْأُمَمِ وَأَشْهَرِهَا؛ كَانَ لَهَا فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ آثَارٌ مَا تَزَالُ بَاقِيَةً إِلَىٰ الْآنَ، وَقَدْ خَلَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ وُجُودَهَا بِأَنِ اخْتَارَ

مِنْهَا خَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَهُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَكَانَ شَاهِدَ صِدْقٍ عَلَىٰ أَنَّهَا الْأُمَّةُ الْجَدِيرَةُ بِقِيَادَةِ الْعَالَمِ إِذَا عَضَّتْ بِالنَّوَاجِذِ عَلَىٰ هَذَا الدِّينِ الَّذِي هُوَ خَاتَمُ الْأَدْيَانِ وَأَوْفَاهَا بِحَاجَةِ الْبَشَرِ.

كَمَا خَلَّدَ لُغَتَهَا حِينَ جَعَلَ آيَةَ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ الْعُظْمَىٰ وَحْيًا يُتْلَىٰ، وَقُرْآنًا عَرَبِيًّا مُبِينًا بَاقِيًا مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ إِلَّا وَتَارِيخُهَا يَمْتَزِجُ بِتَأْرِيخِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ لِوَاءَ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ الدُّنْيَا كُلِّهَا فَضْلٌ عَلَيْهَا.

⦿ ⦿ ⦿



السُّلَالَاتُ الْعَرَبِيَّةُ وَمَا انْحَدَرَ مِنْهَا مِنْ قَبَائِل

الْعَرَبُ -كَمَا مَرَّ- يُقَسِّمُهُمْ عُلَمَاءُ الْأَنْسَابِ إِلَىٰ:

عَرَبٍ بَائِدَةٍ: وَهِيَ قَبَائِلُ عَادٍ، وَثَمُودَ، وَالْعَمَالِقَةِ، وَطَسْمٍ، وَجَدِيْسٍ، وَأُمَيْمٍ، وَجُرْهُمٍ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ.

هَذِهِ بَادَتْ، وَفَنِيَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ لَهُمْ مُلُوكٌ امْتَدَّ مُلْكُهُمْ إِلَىٰ الشَّامِ وَمِصْرَ.

وَالْمُؤَرِّخُونَ يُقَسِّمُونَ الْعَرَبَ الْبَائِدَةِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

الْعَمَالِقَةِ: وَهُمْ نَسْلُ لَاوِذِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَمَنْ عَدَاهُمْ مِنْ نَسْلِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ.

فَالْأَوَّلُونَ يُقَالُ لَهُمُ: السَّامِيُّونَ، وَالْآخَرُونَ الْآرَامِيُّونَ.

وَالْعَمَالِيقُ مَلَكُوا مِصْرَ مُدَّةً، وَأَسَّسُوا فِيهَا أُسْرَةً مُلُوكِيَّةً، وَمَلَكُوا الْعِرَاقَ وَأَسَّسُوا بِهَا دَوْلَةً تُسَمَّىٰ دَوْلَةَ حَمُورَابِي، وَهُوَ أَوَّلُ مُلُوكِهِمُ، الَّذِي عُرِفَ بِالْقَانُونِ الْمَشْهُورِ -قَانُونِ حَمُورَابِي-، وَذَلِكَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْمِيلَادِ.

وَالْعَرَبُ الْبَاقِيَةُ هُمُ الْقَحْطَانِيُّونَ، وَالْعَدْنَانِيُّونَ.

الْقَحْطَانِيُّونَ: هُمْ أَوْلَادُ قَحطَانَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْجنُوبَ، الْيَمَنَ وَمَا حَوْلَهَا، وَمِنْهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ، وَمَمْلَكَةُ مَعِينٍ، وَسَبَأٍ، وَحِمْيَرَ، وَخَرَجَتْ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٌ وَقَبَائِلُ فِي ظُرُوفٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا: انْهِيَارُ سَدِّ مَأْرِبٍ، وَنَزَلُوا بِأَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ: اللَّخْمِيُّونَ الَّذِينَ نَزَلُوا الْحِيرَةَ عَلَىٰ تُخُومِ فَارِسَ، وَكَوَّنُوا مُلْكًا بِهَا، وَمِنْهُمْ أَيْضًا أَوْلَادُ جَفْنَةَ، وَهُمْ مُلُوكُ الْغَسَاسِنَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ عَلَىٰ حُدُودِ بِلَادِ الرُّومِ، وَمِنْهُمْ مُلُوكُ كِنْدَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِحَضْرَمَوْتَ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو امْرِئِ الْقَيْسِ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمُ الْأَسَدَ الَّذِينَ تَفَرَّعَ مِنْهُمُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَمِنْهُمُ الْجَرَاهِمَةُ الَّذِينَ حَطُّوا رِحَالَهُمْ بِالْقُرْبِ مِنْ وَادِي مَكَّةَ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ نَبِيُّ اللهِ إِسْمَاعِيلُ لَمَّا كَبُرَ وَصَاهَرَهُمْ، وَالْقَحْطَانِيُّونَ يُقَالُ لَهُمُ: الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ.

الْعَدْنَانِيَّةُ: نِسْبَةً إِلَىٰ عَدْنَانَ، الَّذِي يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ، أَيِ: الَّذِينَ دَخَلَ عَلَيْهِمْ دَمٌ لَيْسَ عَرَبِيًّا، ثُمَّ تَمَّ الِانْدِمَاجُ بَيْنَ هَذَا الدَّمِ وَبَيْنَ الْعَرَبِ، وَأَصْبَحَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِسَانَ الْمَزِيجِ الْجَدِيدِ، هَؤُلَاءِ هُمْ عَرَبُ الشَّمَالِ، هَؤُلَاءِ الْعَدْنَانِيَّةُ هُمْ عَرَبُ الشَّمَالِ، وَمَوْطِنُهُمُ الْأَصْلِيُّ مَكَّةُ، وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ وَأَبْنَاؤُهُ، وَالْجَرَاهِمَةُ الَّذِينَ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ إِسْمَاعِيلُ الْعَرَبِيَّةَ وَصَاهَرَهُمْ، وَنَشَأَ أَوْلَادُهُ عَرَبًا مِثْلَهُمْ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ عَدْنَانُ جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ الْأَعْلَىٰ، وَمِنْ عَدْنَانَ كَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ، وَبُطُونُهَا فَقَدْ جَاءَ بَعْدَ عَدْنَانَ ابْنُهُ مَعَدٌّ، ثُمَّ نِزَارٌ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ وَلَدَاهُ رَبِيعَةُ وَمُضَرُ، وَمِنْهُمَا كَانَتْ مُعْظَمُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ.

مِنْ أَشْهَرِ قَبَائِلِ مُضَرَ: هَوَازِنُ، وَغَطَفَانُ، وَتَمِيمٌ، وَعَدِيٌّ، وَقُرَيْشٌ.

وَمِنْ أَشْهَرِ قَبَائِلِ رَبِيعَةَ: عَبْدُ الْقَيْسِ، وَبَكْرٌ، وَتَغْلِبُ، وَحَنِيفَةُ.

وَلَمْ تَتَّسِعْ مَكَّةُ وَمَا جَاوَرَهَا لِعَرَبِ الشَّمَالِ؛ فَبَدَؤُوا يُهَاجِرُونَ، يَبْحَثُونَ عَنْ مَسَاقِطِ الْمَاءِ، وَمَنَابِتِ الْعُشْبِ؛ فَنَزَلَ عَبْدُ الْقَيْسِ بِالْبَحْرَيْنِ، وَنَزَلَ بَنُو حَنِيفَةَ بِالْيَمَامَةِ، وَنَزَلَ بَنُو هَوَازِنَ بِنَوَاحِي أَوْطَاسٍ، وَهَكَذَا تَفَرَّقَتِ الْقَبَائِلُ فِي رُبُوعِ الْجَزِيرَةِ، وَالْعَدْنَانِيُّونَ يُقَالُ لَهُمْ: الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرِبَةُ؛ لِأَنَّ جَدَّهُمُ الْأَعْلَىٰ -وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ- تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَتَلَقَّنَهَا مِنْ جُرْهُمٍ.

أَمَّا قُضَاعَةُ: فَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِمْ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ عَدْنَانِيُّونَ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنْ قَحْطَانَ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ وَالْكَلْبِيِّ، وَطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ.

وَهَذَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ تَقْسِيمِ الْعَرَبِ إِلَىٰ عَدْنَانِيَّةٍ وَقَحْطَانِيَّةٍ هُوَ مَا عَلَيْهِ جَمْهَرَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْسَابِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ -كَمَا مَرَّ- مَنْ يَرَىٰ أَنَّ الْعَرَبَ عَدْنَانِيَّةٌ، وَقَحْطَانِيَّةٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ ﷺ، وَقَدْ مَرَّ حَدِيثُ الْبُخَارِيِّ فِي ذَلِكَ.

كَلِمَةُ الْعَــرَبِ: تُنْبِئُ عَنِ الصَّحَارِي وَالْقِفَارِ، وَالْأَرْضِ الْمُجْدِبَةِ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا نَبَاتَ، وَقَدْ أُطْلِقَ هَذَا اللَّفْظُ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ عَلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، كَمَا أُطْلِقَ عَلَىٰ قَوْمٍ قَطَنُوا تِلْكَ الْأَرْضَ، وَاتَّخَذُوهَا مَوْطِنًا لَهُمْ.

***

أَهَمِيَّةُ مَوْقِعِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

لِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَهَمِّيَّةٌ بَالِغَةٌ مِنْ حَيْثُ مَوْقِعُهَا الطَّبِيعِيُّ، وَالْجُغْرَافِيُّ؛ فَإِنَّهَا فِي وَضْعِهَا الدَّاخِلِيِّ مُحَاطَةٌ بِالصَّحَارَىٰ وَالرِّمَالِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِأَجْلِ هَذَا الْوَضْعِ صَارَتِ الْجَزِيرَةُ حِصْنًا مَنِيعًا لَمْ يَسْتَطِعِ الْأَجَانِبُ أَنْ يَحْتَلُّوهَا وَيَبْسُطُوا عَلَيْهَا سَيْطَرَتَهُمْ وَنُفُوذَهُمْ؛ لِذَلِكَ نَرَىٰ سُكَّانَ الْجَزِيرَةِ أَحْرَارًا فِي جَمِيعِ الشُّؤُونِ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِإِمْبَرَاطُورِيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا صَدَّ هَجَمَاتِهِمَا لَوْلَا هَذَا السَّدُّ الْمَنِيعُ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْخَارِجِ: فَإِنَّهَا تَقَعُ بَيْنَ الْقَارَّاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، وَتَلْتَقِي بِهَا بَرًّا وَبَحْرًا؛ فَإِنَّهَا فِي نَاحِيَتِهَا الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ بَابٌ لِلدُّخُولِ فِي قَارَّةِ أَفْرِيقْيَا، وَأَمَّا نَاحِيَتُهَا الشَّمَالِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ فَهِيَ مِفْتَاحٌ لِقَارَّةِ أُورُبَّا.

وَالنَّاحِيَةُ الشَّرْقِيَّةُ تَفْتَحُ أَبْوَابَ الْعَجَمِ، وَمِنْ ثَمَّ آسْيَا الْوُسْطَىٰ، وَأَمَّا فِي الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ الْبَعِيدِ فَإِنَّهَا كَذَلِكَ مَفْتُوحَةٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَتَلْتَقِي كُلُّ قَارَّةٍ بِالْجَزِيرَةِ بَحْرًا، وَتُرْسِي سُفُنَهَا وَبَوَاخِرَهَا عَلَىٰ مِينَاءِ الْجَزِيرَةِ رَأْسًا؛ لِأَجْلِ هَذَا الْوَضْعِ الْجُغْرَافِيِّ كَانَ شَمَالُ الْجَزِيرَةِ، وَجَنُوبُهَا مَوْئِلًا لِلْأُمَمِ، وَمَرْكَزًا لِلتَّبَادُلِ التِّجَارِيِّ، وَالثَّقَافِيِّ، وَالدِّينِيِّ، وَالْفَنِّيِّ.

تَقْسِيمَاتُ الْعَرَبِ لِلْعَدْنَانِيَّةِ، وَالْعَرَبِ الْقَحْطَانِيَّةِ مَعَ تَفَاصِيلِ ذَلِكَ نَافِعٌ جِدًّا أَثْنَاءَ النَّظَرِ فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّ التَّرْكِيبَةَ الْعِرْقِيَّةَ وَمَا كَانَ مِنْ أُصُولِ الْأَنْسَابِ كَانَ لَهُ دَخْلٌ كَبِيرٌ جِدًّا فِي مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَبَيْنَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَارَبُ مِنْ قُرَيْشٍ لَمَّا فَرَضُوا عَلَيْهِ الْحِصَارَ، وَدَخَلَ الشِّعْبَ؛ دَخَلَ مَعَهُ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ هُوَ مُحَارِبٌ لَهُ، وَغَيْرُ مُؤْمِنٍ بِدَعْوَتِهِ، وَبَقِيَ مَعَهُ فِي الشِّعْبِ يُعَانِي مِنَ الْجُوعِ وَالظَّمَإِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ! وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ عَصَبِيَّةً، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ الْإِسْلَامِ؛ فَمَعْرِفَةُ مَا كَانَ عَلَيْهِ هَذَا الْوَضْعُ الْعِرْقِيُّ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَثْنَاءِ مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ.

◉ قَحْطَانُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا:

الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ: شَعْبُ قَحْطَانَ، مَهْدُهُمْ بِلَادُ الْيَمَنِ، تَشَعَّبَتْ قَبَائِلُهَا وَبُطُونُهَا مِنْ وَلَدِ سَبَأِ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَاشْتُهِرَتْ مِنْهَا قَبِيلَتَانِ حِمْيَرُ بْنُ سَبَأٍ، وَكَهْلَانُ بْنُ سَبَأٍ، أَمَّا بَقِيَّةُ بَنِي سَبَأٍ، وَهُمْ أَحَدَ عَشَرَ أَوْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَطْنًا؛ فَيُقَالُ لَهُمُ: السَّبَئِيُّونَ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَبَائِلُ دُونَ سَبَأٍ.

أَمَّا حِمْيَرُ فَأَشْهَرُ بُطُونِهَا قُضَاعَةُ، وَمِنْهَا بَهْرَاءُ، وَبَلِيٌّ، وَالْقَيْنُ، وَكَلْبٌ، وَعُذْرَةُ، وَوَبَرَةُ، وَمِنْهَا أَيْضًا -وَهُوَ أَشْهَرُ بُطُونِهَا- السَّكَاسِكُ، وَهُمْ بَنُو زَيْدِ بْنِ وَائِلَةَ بْنِ حِمْيَرَ، وَلُقِّبَ زَيْدَ السَّكَاسِكِ، وَهِيَ غَيْرُ سَكَاسِكِ كِنْدَةَ الْآتِيَةِ فِي

بَنِي كَهْلَانَ؛ مِنْهَا زَيْدُ الْجُمْهُورِ، وَمِنْهَا حِمْيَرُ الْأَصْغَرُ، وَسَبَأٌ الْأَصْغَرُ، وَحَضُورٌ، وَذُو أَصْبَحَ.

وَأَمَّا كَهْلَانُ فَأَشْهَرُ بُطُونِهَا: هَمْدَانُ، وَأَلْهَانُ، وَالْأَشْعَرُ، وَطَيِّئٌ، وَمَذْحِجٌ، وَمِنْ مَذْحِجٍ عَنْسٌ، وَالنَّخَعُ، وَلَخْمٌ، وَمِنْ لَخْمٍ كِنْدَةُ، (وَمِنْ كِنْدَةَ بَنُو مُعَاوِيَةَ، وَالسَّكُونُ، وَالسَّكَاسِكُ)، وَجُذَامٌ، وَعَامِلَةُ، وَخَوْلَانُ، وَمَعَافِرُ، وَأَنْمَارٌ، وَمِنْ أَنْمَارٍ خَثْعَمٌ، وَبَجِيلَةُ، وَمِنْ بَجِيلَةَ أَحْمَسُ، وَالْأَزْدُ، وَمِنَ الْأَزْدِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَخُزَاعَةُ، وَأَوْلَادُ جَفْنَةَ مُلُوكُ الشَّامِ الْمَعْرُوفُونَ بِآلِ غَسَّانَ.

فَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مِنَ الْأَسْدِ، وَأَصْلُهُمْ يَعُودُ إِلَىٰ كَهْلَانَ، وَهُمْ يَعُودُونَ إِلَىٰ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ، وَهُمُ الْعَرَبُ الْقَحْطَانِيَّةُ، وَقَدْ هَاجَرُوا بَعْدَمَا وَقَعَ بِالْيَمَنِ مِنَ انْهِيَارِ سَدِّ مَأْرِبٍ إِلَىٰ يَثْرِبَ، وَكَانُوا هُنَالِكَ مِنْ أَوْسٍ، وَخَزْرَجٍ حَتَّىٰ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُمْ أَنْصَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَقَعَتْ هِجْرَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ، وَانْضَمَّتِ الْبُطُونُ الصَّغِيرَةُ إِلَىٰ الْقَبَائِلِ فِي الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، حَتَّىٰ كَانَ الْوَضْعُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

النَّبِيُّ ﷺ عَدْنَانِيٌّ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ أَصْلُ جَدِّهِمُ الْأَعْلَىٰ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مِنْ بِلَادِ الْعِرَاقِ، مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: «أُورُ» عَلَىٰ الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ مِنْ نَهْرِ الْفُرَاتِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْكُوفَةِ.



وَقَدْ جَاءَتِ الْحَفْرِيَّاتُ وَالتَّنْقِيبَاتُ بِتَفَاصِيلَ وَاسِعَةٍ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَعَنْ أُسْرَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَنِ الْأَحْوَالِ الدِّينِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ؛ مَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَاجَرَ مِنْهَا إِلَىٰ حَارَانَ أَوْ حَرَّانَ، وَمِنْهَا إِلَىٰ فِلَسْطِينَ فَاتَّخَذَهَا قَاعِدَةً لِدَعْوَتِهِ، وَكَانَتْ لَهُ جَوْلَاتٌ فِي أَرْجَائِهَا، وَأَرْجَاءِ غَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ، وَفِي إِحْدَىٰ هَذِهِ الْجَوْلَاتِ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَمَعُه زَوْجَتُهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرَادَ ذَلِكَ الْجَبَّارُ أَنْ يَكِيدَ بِهَا، وَلَكِنَّ سَارَةَ دَعَتِ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ؛ فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ، وَعَرَفَ الظَّالِمُ أَنَّ سَارَةَ امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ ذَاتُ مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ عِنْدَ اللهِ فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ؛ اعْتَرَافًا بِفَضْلِهَا أَوْ خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَهَبَتْهَا سَارَةُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْمَعْرُوفُ أَنَّ ذَلِكَ الْجَبَّارَ كَانَ مِنْ فَرَاعِنَةِ مِصْرَ، وَأَنَّ هَاجَرَ كَانَتْ أَمَةً مَمْلُوكَةً لَهُ، وَلَكِنْ رَجَّحَ الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ الْعَلَّامَةُ الْقَاضِي مُحَمَّدُ سُلَيْمَان الْمَنْصُورفُورِيّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ هَاجَرَ كَانَتْ حُرَّةً، وَكَانَتِ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ، وَاسْتَنَدَ لِذَلِكَ إِلَىٰ مَا كَتَبَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي شُرُوحِ صَحَائِفِهِمْ.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ -وَهُوَ يَحْكِي حِوَارًا دَارَ بَيْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَبَيْنَ أَهْلِ مِصْرَ-: «أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: إِنَّ هَاجَرَ كَانَتِ امْرَأَةً لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا، وَوَقَعَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ عَيْنِ شَمْسٍ حُرُوبٌ كَانَتْ لَهُمْ فِي بَعْضِهَا دَوْلَةٌ فَقَتَلُوا الْمَلِكَ، وَسَبَوْا هَاجَرَ، وَمِنْ هُنَاكَ تَسَيَّرَتْ إِلَىٰ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ».

يَعْنِي أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَمْلُوكَةً، وَإِنَّمَا كَانَتْ حُرَّةً بَلْ كَانَتْ ابْنَةَ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ؛ فَلَمَّا وَهَبَهَا فِرْعَوْنُ لِسَارَةَ، وَهَبَتْهَا سَارَةُ لِإِبْرَاهِيمَ.

رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَىٰ قَاعِدَتِهِ فِي فِلَسْطِينَ، ثُمَّ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ هَاجَرَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَصَارَ سَبَبًا لِغَيْرَةِ سَارَةَ؛ حَتَّىٰ أَلْجَأَتْ إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ نَفْيِ هَاجَرَ مَعَ وَلَدِهَا الرَّضِيعِ إِسْمَاعِيلَ؛ فَقَدِمَ بِهِمَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَىٰ الْحِجَازِ، وَأَسْكَنَهُمَا بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ إِلَّا مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، فَتَرَكَ لَهُمْ جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، وَرَجَعَ إِلَىٰ فِلَسْطِينَ، وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ حَتَّىٰ نَفِذَ الْمَاءُ وَالزَّادُ، وَهُنَاكَ تَفَجَّرَتْ بِئْرُ زَمْزَمَ -بِفَضْلِ اللهِ-؛ فَصَارَتْ لَهُمَا قُوتًا وَبَلَاغًا إِلَىٰ حِينٍ؛ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ بِطُولِهَا.

جَاءَتْ قَبِيلَةٌ يَمَانِيَةٌ، وَهِيَ جُرْهُمٌ الثَّانِيَةُ؛ فَقَطَنَتْ مَكَّةَ بِإِذْنٍ مِنْ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، يُقَالُ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْأَوْدِيَةِ الَّتِي بِأَطْرَافِ مَكَّةَ، وَصَرَّحَتْ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُمْ نَزَلُوا مَكَّةَ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ، وَقَبْلَ أَنْ يَشِبَّ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَذَا الْوَادِي قَبْلَ ذَلِكَ.

●●●

رِحْلاتُ إِبْراهِيمَ عليه السلام إِلَى مَكَّةَ

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَرْتَحِلُ إِلَىٰ مَكَّةَ؛ لِيُطَالِعَ تَرِكَتَهُ فِيهَا، وَلَا يُعْلَمُ بِالضَّبْطِ عَدَدُ هَذِهِ الرِّحْلَاتِ إِلَّا أَنَّ الْمَصَادِرَ الْمُعْتَمَدَةَ حَفِظَتْ لَنَا أَرْبَعَ رِحْلَاتٍ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام رَحَلَهَا إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ.

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّهُ أَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ إِسْمَاعِيلَ، فَقَامَ بِامْتِثَالِ هَذَا الْأَمْرِ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٧].

وَقَدْ ذُكِرَ فِي «سِفْرِ التَّكْوِينِ» أَنَّ إِسْمَاعِيلَ كَانَ أَكْبَرَ مِنْ إِسْحَاقَ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَسِيَاقُ الْقِصَّةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا وَقَعَتْ قَبْلَ مِيلَادِ إِسْحَاقَ؛ لِأَنَّ الْبِشَارَةَ بِإِسْحَاقَ ذُكِرَتْ بَعْدَ سَرْدِ الْقِصَّةِ بِتَمَامِهَا، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَتَضَمَّنُ رِحْلَةً وَاحِدَةً عَلَىٰ الْأَقَلِّ قَبْلَ أَنْ يَشِبَّ إِسْمَاعِيلُ.

أَمَّا الرِّحْلَاتُ الثَّلَاثُ الْأُخَرُ فَقَدْ رَوَاهَا الْبُخَارِيُّ بِطُولِهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، وَمُلَخَّصُهَا:

أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام لَمَّا شَبَّ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ جُرْهُمٍ، وَأَنْفَسَهُمْ -وَأَعْجَبَهُمْ- زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّهُ، وَبَدَا لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يُطَالِعَ تَرِكَتَهُ، فَجَاءَ

بَعْدَ هَذَا الزَّوَاجِ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ وَعَنْ أَحْوَالِهِمَا، فَشَكَتْ إِلَيْهِ ضِيقَ الْعَيْشِ! فَأَوْصَاهَا أَنْ تَقُولَ لِإِسْمَاعِيلَ أَنْ يُغَيِّرَ عَتَبَةَ بَابِهِ، وَفَهِمَ إِسْمَاعِيلُ مَا أَرَادَ أَبُوهُ فَطَلَّقَ امْرَأَتَهُ تِلْكَ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً أُخْرَىٰ، وَهِيَ ابْنَةُ مُضَاضِ بْنِ عَمْرٍو كَبِيرِ جُرْهُمٍ، وَسَيِّدُهُمْ عَلَىٰ قَوْلِ الْأَكْثَرِ.

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ هَذِهِ الزَّوْجَةَ الثَّانِيَةَ فَلَمْ يَجِدْهُ! فَرَجَعَ إِلَىٰ فِلَسْطِينَ بَعْدَ أَنْ سَأَلَ زَوْجَتَهُ عَنْهُ، وَعَنْ أَحْوَالِهِمَا، فَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللهِ خَيْرًا؛ فَأَوْصَىٰ إِسْمَاعِيلَ أَنْ يُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِهِ، ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بَعْدَ ذَلِكَ فَلَقِيَ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، وَكَانَ لِقَاؤُهُمَا بَعْدَ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ قَلَّمَا يَصْبِرُ فِيهَا الْأَبُ الْكَبِيرُ الْأَوَّاهُ الْعَطُوفُ عَنْ وَلَدِهِ، وَالْوَلَدُ الْبَارُّ الصَّالِحُ الرَّشِيدُ عَنْ أَبِيهِ؛ وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ بَنَيَا الْكَعْبَةَ، وَرَفَعَا قَوَاعِدَهَا، وَأَذَّنَ إِبْرَاهِيمُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

***

أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ ﷺ، وَمَا انْحَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ

وَقَدْ رَزَقَ اللهُ إِسْمَاعِيلَ مِنِ ابْنَةِ مُضَاضٍ اثْنَيْ عَشَرَ ذَكَرًا، وَهُمْ: (نَابِتٌ، وَنبَايُوطٌ، وَقَيْدَارٌ، وَأَدْبَائِيلُ، وَمِبْشَامٌ، وَمِشْمَاعٌ، وَدوْمَا، وَمِيشَن، وَحَدَدٌ، وَتيْمَا، وَيطُورٌ، وَنفِيسٌ، وَقَيْدُمَانُ)، وَتَشعَّبَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ اثْنَتَا عَشْرَةَ قَبِيلَةً سَكَنَتْ كُلُّهَا فِي مَكَّةَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، وَكَانَتْ جُلُّ مَعِيشَتِهِمْ إِذْ ذَاكَ بِالتِّجَارَةِ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ، ثُمَّ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ فِي أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ، بَلْ وَإِلَىٰ خَارِجِهَا، ثُمَّ أُدْرِجَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي غَيَاهِبِ الزَّمَانِ إِلَّا أَوْلَادَ نَابِتٍ، وَقَيْدَارٍ.

وَقَدِ ازْدَهَرَتْ حَضَارَةُ الْأَنْبَاطُ أَبْنَاءُ نَابِتٍ فِي شَمَالِ الْحِجَازِ، وَكَوَّنُوا دَوْلَةً قَوِيَّةً عَاصِمَتُهَا «الْبَتْرَاءُ» الْمَدِينَةُ الْأَثَرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي جَنُوبِ الْأُرْدُنِّ، وَقَدْ دَانَ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَطِيَّةِ مَنْ بِأَطْرَافِهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُنَاوِئَهَا حَتَّىٰ جَاءَ الرُّومَانُ وَقَضَوْا عَلَيْهَا.

وَقَدْ جَنَحَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ إِلَىٰ أَنَّ مُلُوكَ آلِ غَسَّانَ، وَكَذَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، إِنَّمَا كَانُوا مِنْ أَوْلَادِ نَابِتِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، وَبَقَايَاهُمْ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ، وَإِلَيْهِ مَالَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ»، فَقَدْ عَقَدَ بَابًا عُنْوَانُهُ: «نِسْبَةُ الْيَمَنِ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ ﷺ»، وَاسْتَدَلَّ

عَلَيْهِ بِبَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَرَجَّحَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «شَرْحِهِ» أَنَّ قَحْطَانَ مِنْ آلِ نَابِتِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا قَيْدَارُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فَلَمْ يَزَلْ أَبْنَاؤُهُ بِمَكَّةَ يَتَنَاسَلُونَ هُنَاكَ حَتَّىٰ كَانَ مِنْهُ عَدْنَانُ وَوَلَدُهُ مَعَدٌّ، وَمِنْهُ حُفِظَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ، وَحُفِظَتْ أَنْسَابُهَا.

عَدْنَانُ: هُوَ الْجَدُّ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ فِي سِلْسِلَةِ نَسَبِ نَبِيِّنَا الْمَأْمُونِ ﷺ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا انْتَسَبَ فَبَلَغَ عَدْنَانَ يُمْسِكُ، وَيَقُولُ: «**كَذَبَ النَّسَّابُونَ**» فَلَا يَتَجَاوَزُهُ.

وَذَهَبَ جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَىٰ جَوَازِ رَفْعِ النَّسَبِ فَوْقَ عَدْنَانَ؛ مُضَعِّفِينَ الْحَدِيثَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ النَّسَبِ اخْتِلَافًا لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ.

وَقَدْ مَالَ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ مُحَمَّدُ سُلَيْمَان الْمَنْصُور فُورِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ تَرْجِيحِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ، وَالَّذِي ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ، وَالْمَسْعُودِيُّ، وَغَيْرُهُمَا فِي جُمْلَةِ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ أَنَّ بَيْنَ عَدْنَانَ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعِينَ أَبًا بِالتَّحْقِيقِ الدَّقِيقِ.

تَفَرَّقَتْ بُطُونُ مَعَدٍّ مِنْ وَلَدِهِ نِزَارٍ، قِيلَ: لَمْ يَكُنْ لِمَعَدٍّ وَلَدٌ غَيْرُهُ، فَكَانَ لِنِزَارٍ أَرْبَعَةُ أَوْلَادٍ تَشَعَّبَتْ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ قَبَائِلَ عَظِيمَةٍ: (إِيَادٌ، وَأَنْمَارٌ، وَرَبِيعَةُ، وَمُضَرُ)، وَهَذَانِ الْأَخِيرَانِ هُمُ الَّذِينَ كَثُرَتْ بُطُونُهُمَا، وَاتَّسَعَتْ أَفْخَاذُهُمَا؛ فَكَانَ مِنْ رَبِيعَةَ (ضُبَيْعَةُ، وَأَسَدٌ)، وَمِنْ أَسَدٍ (عَنَزَةُ، وَجَدِيلَةُ)، وَمِن جَدِيلَةَ الْقَبَائِلُ الْكَثِيرَةُ

الْمَشْهُورَةُ، كَعَبْدِ الْقَيْسِ، وَالنَّمِرِ، وَبَنِي وَائِلٍ الَّذِينَ مِنْهُمْ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ، وَمِنْ بَنِي بَكْرٍ بَنُو قَيْسٍ، وَبَنُو شَيْبَانَ، وَبَنُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهَا.

أَمَّا عَنْزَةُ: فَمِنْهَا آلُ سُعُودٍ مُلُوكُ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ.

تَشَعَّبَتْ قَبَائِلُ مُضَرَ إِلَىٰ شُعْبَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: قَيْسِ عَيْلَانَ بْنُ مُضَرَ، وَبُطُونِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ؛ فَمِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ: بَنُو سُلَيْمٍ، وَبَنُو هَوَازِنَ، وَبَنُو ثَقِيفٍ، وَبَنُو صَعْصَعَةَ، وَبَنُو غَطَفَانَ؛ وَمِنْ غَطَفَانَ: عَبْسٌ، وَذُبْيَانُ، وَأَشْجَعُ، وَأَعْسَرُ.

وَمِنْ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ: تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ، وَهُذَيْلُ بْنُ مُدْرِكَه، وَبَنُو أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، وَبُطُونُ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ؛ وَمِنْ كِنَانَةَ: قُرَيْشٌ، وَهُمْ أَوْلَادُ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ.

انْقَسَمَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ قَبَائِلَ شَتَّىٰ؛ مِنْ أَشْهَرِهَا: جُمَحُ، وَسَهْمٌ، وَعَدِيٌّ، وَمَخْزُومٌ، وَتَيْمٌ، وَزُهْرَةُ، وَبُطُونُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، وَهِيَ: عَبْدُ الدَّارِ بْنُ قُصَيٍّ، وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ، وَعَبْدُ مَنَافِ بْنُ قُصَيٍّ؛ وَكَانَ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ أَرْبَعُ فَصَائِلَ: عَبْدُ شَمْسٍ، وَنَوْفَلٌ، وَالْمُطَّلِبُ، وَهَاشِمٌ، وَبَيْتُ هَاشِمٍ هُوَ الَّذِي اصْطُفِيَ مِنْهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ فِرَقِهِمْ، وَخَيْرِ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْقَبِيلَةِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ؛ فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَأَنَا خَيْرُهُمْ بَيْتًا**».

وَفِي لَفْظٍ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، وَخَيْرِهِمْ نَفْسًا**».

لَمَّا تَكَاثَرَ أَوْلَادُ عَدْنَانَ تَفَرَّقُوا فِي أَنْحَاءٍ شَتَّىٰ مِن بِلَادِ الْعَرَبِ مُتَتَبِّعِينَ مَوَاقِعَ الْقَطْرِ وَمَنَابِتَ الْعُشْبِ.

هَاجَرَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ، وَبُطُونٌ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، وَبُطُونٌ مِنْ تَمِيمٍ إِلَىٰ الْبَحْرَيْنِ فَأَقَامُوا بِهَا.

وَخَرَجَتْ بَنُو حَنِيفَةَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرٍ إِلَىٰ الْيَمَامَةِ فَنَزَلُوا بِحُجْرٍ، وَهِيَ: قَصَبَةُ الْيَمَامَةِ، وَأَقَامَتْ سَائِرُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فِي طُولِ الْأَرْضِ مِنَ الْيَمَامَةِ إِلَىٰ الْبَحْرَيْنِ إِلَىٰ سَيْفِ كَاظِمَةَ إِلَىٰ الْبَحْرِ، فَأَطْرَافُ سَوَادِ الْعِرَاقِ فَالْأُبُلَّةُ فَهِيتٌ.

وَأَقَامَتْ تَغْلِبُ بِالجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ، وَمِنْهَا بُطُونٌ كَانَتْ تُسَاكِنُ بَكْرًا. وَسَكَنَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِبَادِيَةِ الْبَصْرَةِ.

وأَقَامَتْ بَنُو سُلَيْمٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ وَادِي الْقُرَىٰ إِلَىٰ خَيْبَرَ إِلَىٰ شَرْقِي الْمَدِينَةِ إِلَىٰ حَدِّ الْجَبَلَيْنِ، إِلَىٰ مَا يَنْتَهِي إِلَىٰ الْحَرَّةِ.

سَكَنَتْ بَنُو أَسَدٍ شَرْقِي تَيْمَاءَ وَغَرْبِيَ الْكَوفَةِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ تَيْمَاءَ دِيَارُ بُحْتُرٍ مِنْ طَيِءٍ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُوفَةِ خَمْسُ لَيَالٍ.

وَسَكَنَتْ ذُبْيَانُ بِالْقُرْبِ مِنْ تَيْمَاءَ إِلَىٰ حُورَانَ، وَبَقِيَ بِتِهَامَةَ بُطُونُ كِنَانَةَ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ وَضَوَاحِيهَا بُطُونُ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا مُتَفَرِّقِينَ لَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ حَتَّىٰ نَبَغَ فِيهِمْ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ، فَجَمَعَهُمْ، وَكَوَّنَ لَهُمْ وِحْدَةً شَرَّفَتْهُمْ وَرَفَعَتْ مِنْ أَقْدَارِهِمْ.

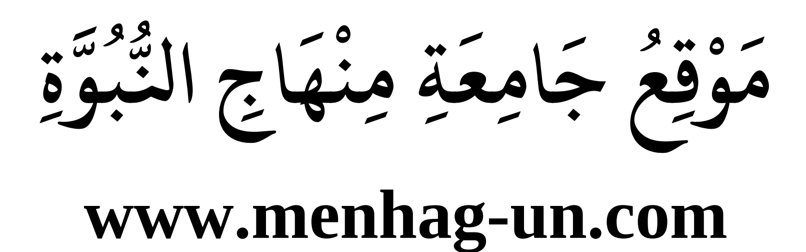
أَنْسَابُ الْعَرَبِ مِمَّا عُنِيَ بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَصَنَّفُوا فِيهِ التَّصَانِيفَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّسَبَ مِمَّا خَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ؛ فَهَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مَنْ يَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَفِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ فَوْقَ أَبِي أَبِيهِ جَدًّا؛ مَيَّزَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالْإِسْنَادِ وَبِالْأَنْسَابِ، فَمَرْوِيَّاتُهَا مَرْوِيَّةٌ بِالْإِسْنَادِ بِرِوَايَةِ رَاوٍ عَنْ رَاوٍ، وَهُوَ الْعِلْمُ الْمُسْتَطِيلُ الَّذِي خَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ هَذِهِ الْأُمَةَ.

وَمَيَّزَ اللهُ تَعَالَىٰ أَيْضًا هَذِهِ الْأُمَّةَ بِعِلْمِ النَّسَبِ، وَمَا زَالَتِ الْقَبَائِلُ تَعْرِفُ أَنْسَابَهَا إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَتَحْرِصُ عَلَىٰ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ، وَحَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ، فَقَالَ: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ**»؛ هَذَا أَمْرٌ مَطْلُوبٌ، وَكَانَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ هُوَ بَارِعٌ فِي ذَلِكَ وَحَافِظٌ لَهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِمَّنْ يَعْرِفُ أَنْسَابَ الْعَرَبِ، وَكَانَ يَدُلُّ عَلَيْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ الْحَاجَةِ الدَّعَوِيَّةِ إِلَىٰ ذَلِكَ.

سُكَّانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَرِيقَانِ: بَدْوٌ وَحَضَرٌ؛ الْبَدْوُ هُمَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ، وَيَرْتَحِلُونَ وَرَاءَ الْعُشْبِ وَالْكَلأِ، وَيَتَتَبَّعُونَ مَوَاقِعَ الْغَيْثِ وَالمَطَرِ، وَهُمْ يَسْكُنُونَ الْخِيَامَ -وَهِيَ الْبُيُوتُ مِنَ الْوَبَرِ وَالشَّعَرِ-، وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ لَا سِيَمَا فِي الشَّمَالِ فِي الْحِجَازِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ نَجْدٍ وَتِهَامَةَ؛ وَأَمَّا الْحَضَرُ فَهُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْقُرَىٰ وَالْمُدُنَ، وَيَسْكُنُونَ بُيُوتًا مِنَ اللَّبِنِ أَوِ الْحَجَرِ، وَمُعْظَمُ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي الْجَنُوبِ، الْيَمَنِ وَمَا جَاوَرَهَا وَعَلَىٰ تُخُومِ بِلَادِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَلَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ -كَمَا هُوَ السَّائِدُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ- لَمْ يَكُونُوا قَوْمًا لَا حَضَارَةَ لَهُمْ وَلَا مَدَنِيَّةَ، وَإِنَّمَا وُجِدَتْ بَعْضُ الْمَدَنِيَّاتِ وَالْحَضَارَاتِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَبِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

***





يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الخَامِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]





سُكَانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فَسُكَّانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَرِيقَانِ:

بَدْوٌ: وَهُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ، وَيَرْتَحِلُونَ وَرَاءَ الْعُشْبِ، وَالْكَلَإِ، وَيَتَتَبَّعُونَ مَوَاقِعَ الْغَيْثِ وَالْمَطَرِ، وَيَنْصِبُونَ الْخِيَامَ، -وَهِيَ الْبُيُوتُ مِنَ الْوَبَرِ وَالشَّعَرِ-، وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ لَاسِيَّمَا فِي الشَّمَالِ؛ الْحِجَازِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ نَجْدٍ، وَتِهَامَةَ.

وَحَضَرٌ: وَهُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْقُرَىٰ، وَالْمُدُنَ، وَيَسْكُنُونَ بُيُوتًا مِنَ اللَّبِنِ وَالْحَجَرِ، وَمُعْظَمُ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي الْجَنُوبِ؛ الْيَمَنِ وَمَا جَاوَرَهَا، وَعَلَىٰ تُخُومِ بِلَادِ فَارِسَ، وَالرُّومِ.

سُكَّانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، يَعْنِي: فِي الْعَهْدِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

⦿⦿⦿



وُجُودُ بَعْضِ الْمَدَنِيَّاتِ وَالْحَضَارَاتِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

وَقَدْ نَشَأَتْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ حَضَارَاتٌ أَصِيلَةٌ، وَمَدَنِيَّاتٌ عَرِيقَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا:

حَضَارَةُ سَبَأٍ بِالْيَمَنِ: وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ الْمَجِيدُ -الَّذِي هُوَ أَوْثَقُ الْمَصَادِرِ، وَأَحَقُّهَا بِالْقَبُولِ- عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ بِلَادِ الْعَرَبِ حَضَارَاتٌ قَدِيمَةٌ، وَعُمْرَانٌ، وَخِصْبٌ، وَنَمَاءٌ، وَرَخَاءٌ، وَتَقَدُّمٌ.

فَفِي الْيَمَنِ اسْتَفَادُوا مِنْ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ، وَالسُّيُولِ الَّتِي كَانَتْ تَضِيعُ فِي الرِّمَالِ، وَتَنْحَدِرُ إِلَىٰ الْبِحَارِ فَأَقَامُوا الْخَزَّانَاتِ وَالسُّدُودَ بِطُرُقٍ هَنْدَسِيَّةٍ بَدِيعَةٍ، وَأَشْهَرُ هَذِهِ السُّدُودِ سَدُّ مَأْرِبٍ، وَاسْتَفَادُوا بِمِيَاهِهَا فِي الزُّرُوعِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْحَدَائِقِ ذَاتِ الْأَشْجَارِ الزَّاكِيَةِ، وَالثِّمَارِ الشَّهِيَّةِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

كَمَا دَلَّ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْغَابِرِ قُرًىٰ

مُتَّصِلَةٌ مَا بَيْنَ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الْحِجَازِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَأَنَّ قَوَافِلَ التِّجَارَةِ، وَالْمُسَافِرِينَ كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، فَلَا يَعْدِمُونَ ظِلًّا وَلَا مَاءً، وَلَا طَعَامًا كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨- ١٩].

كَمَا قَامَتْ حَضَارَاتٌ أُخْرَىٰ فِي غَيْرِ الْيَمَنِ؛ فَقَدْ كَانَتِ الْأَحْقَافُ شَمَالَ حَضْرَمَوْتَ قَبِيلَةُ عَادٍ، وَهُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ هُودٌ، وَكَانُوا أَصْحَابَ بُيُوتٍ مُشَيَّدَةٍ، وَمَصَانِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَجَنَّاتٍ وَزُرُوعٍ وَعُيُونٍ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣- ١٣٤].

وَكَذَلِكَ كَانَتْ حَضَارَةٌ فِي بِلَادِ الْحِجْرِ حَيْثُ تَسْكُنُ ثَمُودُ، وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ نَحْتِ الْبُيُوتِ فِي الْجِبَالِ، وَعَلَىٰ مَا كَانَ يُوجَدُ فِي بِلَادِهِمْ مِنْ عُيُونٍ وَبَسَاتِينَ وَزُرُوعٍ قَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١- ١٥٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِيهِمْ أَيْضًا: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وَقَدِ اضْمَحَلَّ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا آثَارٌ وَرُسُومٌ، فَقَدْ دَرَسَتِ الْقُرَىٰ وَالْمُدُنُ، وَتَخَرَّبَتِ الدُّورُ وَالْقُصُورُ، وَنَضَبَتِ الْعُيُونُ، وَجَفَّتِ الْأَشْجَارُ، وَانْمَحَتِ الْبَسَاتِينُ وَالزُّرُوعُ.

وَتَدُلُّ الْبُحُوثُ وَالدِّرَاسَاتُ الَّتِي قَامَ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْمُنَقِّبُونَ عَنْ بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَىٰ: أَنَّ تَغْيِيرًا كَبِيرًا طَرَأَ عَلَىٰ جَوِّهَا، وَأَنَّ هَذَا الْجَفَافَ الَّذِي نَعْهَدُهُ الْآنَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي الْعُصُورِ الَّتِي سَبَقَتِ الْإِسْلَامَ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْجَفَافَ أَثَّرَ تَأْثِيرًا سَيِّئًا فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَجَعَلَ أَكْثَرَ بِقَاعِهَا صَحَارِيَ جَرْدَاءَ، كَمَا أَثَّرَ فِي حَالَةِ سُكَّانِهَا فَقَاوَمَ نُشُوءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْكُبْرَىٰ، وَأَثَّرَ تَأْثِيرًا خَطِيرًا فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي حُدُوثِ الْهِجْرَاتِ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ التَّغَيُّرِ الَّذِي طَرَأَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ سَوَاءً أَكَانَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَنَاخِيَّةِ أَمْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجِيُولُوجِيَّةِ؛ فَأَدَّىٰ إِلَىٰ مُقَاوَمَةِ

الْحَضَارَةِ، وَمَنَعَ نُشُوءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْكُبْرَىٰ بِهَا، وَحَوَّلَ أَرَاضِيَهَا إِلَىٰ بِقَاعٍ صَحْرَاوِيَّةٍ، وَطَبَعَ الْحَيَاةَ فِيهَا بِطَابَعِ الرِّحْلَةِ، وَالِانْعِزَالِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.

وَيَمِيلُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ الَّذِينَ جَابُوا أَنْحَاءَ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ تَأْيِيدِ الْقَوْلِ بِظُهُورِ الْجَفَافِ فِي الْأَلْفِ الثَّانِي قَبْلَ الْمِيلَادِ.

وَهَذِهِ الْحَقَائِقُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ مُنْذُ قُرَابَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ جَاءَ عُلَمَاءُ الْآثَارِ وَطَبَقَاتِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَوَصَلُوا إِلَىٰ مَا أَيَّدَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ كُلَّ تَأْيِيدٍ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أَنَّهُ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ مُنَقِّبًا، وَلَا بَاحِثًا عَنِ الْآثَارِ، وَلَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ هَذَا، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ الَّذِي عَلَيْهِ شِبْهُ الْجَزِيرَةِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فِي سَالِفِ الْعُصُورِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ سَيَعُودُ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ هَذَا الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ: «**فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَعُودَ صَحْرَاءُ الْعَرَبِ مُرُوجًا، وَبَسَاتِينَ**»، وَكَلِمَةُ «**تَعُودُ**»: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ كَذَلِكَ فِي سَالِفِ الْعُهُودِ.

وَهَذَا مَا قَدْ أَثْبَتَهُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ، وَيُنَقِّبُونَ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُ وُجِدَ فِي صَحْرَاءِ الرُّبْعِ الْخَالِي، فِي الصَّحْرَاءِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، وُجِدَتْ آثَارٌ بَحْرِيَّةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَاءٌ، وَكَانَتْ هُنَاكَ كَائِنَاتٌ بَحْرِيَّةٌ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ فِي يَوْمٍ مِنَ الدَّهْرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَعُودَ صَحَارِي الْعَرَبِ مُرُوجًا خَضْرَاءَ، تَعُودُ كَمَا كَانَتْ فِي سَالِفِ الْعُهُودِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، فَيُنَبِّئُهُ بِذَلِكَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَهُوَ ﷺ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ.

فَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ كَانَتْ فِيهَا حَضَارَاتٌ لَهَا شَأْنٌ، وَلَهَا كِيَانٌ، كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَالِاسْتِدْلَالُ فِيهِ بِالْكِتَابِ الْمَجِيدِ الَّذِي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

◉◉◉

صِلَةُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِالنُّبُوَّاتِ وَالْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ

وَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَهْدُ نُبُوَّاتٍ كَثِيرَةٍ، وَمَبْعَثُ عَدَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وَالْمُرَادُ بِهِ نَبِيُّ اللهِ هُودٌ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَىٰ عَادٍ، وَعَادٌ مِنَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، عَلَىٰ قَوْلِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَكَانَ مَوْطِنُهَا: الْأَحْقَافَ.

وَالْحِقْفُ: كَثِيبٌ مُرْتَفِعٌ مِنَ الرِّمَالِ، وَكَانَتْ مَنَازِلُ عَادٍ عَلَىٰ الْمُرْتَفَعَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ الْآنَ تَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الرُّبُعِ الْخَالِي قَرِيبًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ لَا عُمْرَانَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ، وَكَانَتْ جَنَّاتٍ وَمُنْتَزَهَاتٍ مَعْمُورَةً بِأَقْوَامٍ جَبَابِرَةٍ، يُسَمَّوْنَ عَادًا، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ جَلَبَتْ عَلَيْهِمْ طُوفَانًا مِنَ الرِّمَالِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ هُودًا عليه السلام لَمْ يَكُنِ الْأَوَّلَ أَوِ الْآخِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، بَلْ سَبَقَهُ أَنْبِيَاءُ كَثِيرُونَ، وَلَحِقُوا بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾.

●●●

إِسْمَاعِيلُ عليه السلام فِي مَكَّةَ

وَكَذَلِكَ صَالِحٌ نَبِيُّ ثَمُودَ كَانَ مَبْعَثُهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّ ثَمُودَ كَانَتْ تَسْكُنُ الْحِجْرَ الَّذِي بَيْنَ الْحِجَازِ وَتَبُوكَ، وَقَدْ نَشَأَ إِسْمَاعِيلُ فِي مَكَّةَ، وَعَاشَ فِيهَا وَمَاتَ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ مَدْيَنَ تَدْخُلُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي إِطَارِهَا الْوَاسِعِ فَقَدْ كَانَ شُعَيْبٌ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَتْ مَدْيَنُ فِي أَطْرَافِ أَرْضِ الْعَرَبِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ.

قَالَ أَبُو الْفِدَاءِ: كَانَ قَوْمُ مَدْيَنَ قَوْمًا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَتَهُمْ مَدْيَنَ الَّتِي هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَرْضِ مَعَانٍ مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي مِنْ نَاحِيَةِ الْحِجَازِ، قَرِيبًا مِنْ بُحَيْرَةِ قَوْمِ لُوطٍ، وَكَانُوا بَعْدَهُمْ بِمُدَّةٍ قَرِيبَةٍ، وَكَانَتْ أَرْضُ الْعَرَبِ مَأْوَىٰ لِكَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الرِّسَالَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ الَّذِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَتَنَكَّرَتْ لَهُمْ أَوْطَانُهُمْ، فَلَمْ يَجِدُوا مَأْوَىٰ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ عَنْ نُفُوذِ الْمُلُوكِ الْجَبَّارِينَ، وَالرُّؤَسَاءِ الظَّالِمِينَ كَمَا كَانَ الشَّأْنُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَّةَ، وَمُوسَىٰ فِي مَدْيَنَ.

هَذَا عَدَا الدِّيَانَاتِ الَّتِي لَقِيَتِ اضْطِهَادًا فِي مَهْدِهَا، فَآوَتْ إِلَىٰ مَوَاطِنَ فِي الْجَزِيرَةِ، فَهَاجَرَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ حِينَ لَقُوا اضْطِهَادًا مِنَ الرُّومَانِ إِلَىٰ أَرْضِ

الْيَمَنِ، وَمَدِينَةِ يَثْرِبَ، وَلَجَأَتِ النَّصْرَانِيَّةُ إِلَىٰ أَرْضِ نَجْرَانَ؛ فِرَارًا مِنْ حُكْمِ الْقَيَاصِرَةِ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهَا.

قَصَدَ نَبِيُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَخَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَهِيَ فِي وَادٍ مَحْصُورٍ بَيْنَ جِبَالٍ جَرْدَاءَ لَيْسَ فِيهِ مَا يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَاءٍ وَزَرْعٍ، وَمِيرَةٍ، وَمَعَهُ زَوْجُهُ هَاجَرُ، وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ؛ فِرَارًا مِنَ الْوَثَنِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْعَالَمِ، وَرَغْبَةً فِي تَأْسِيسِ مَرْكَزٍ يَعْبُدُ فِيهِ اللهَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ مَنَارًا لِلْهُدَىٰ، وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ، وَنُقْطَةَ انْطِلَاقٍ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالدِّينِ الْخَالِصِ.

تَقَبَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذَا الْعَامِلَ الْخَالِصَ، وَبَارَكَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَأَجْرَىٰ اللهُ الْمَاءَ لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُبَارَكَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ أُمٍّ وَابْنٍ، وَقَدْ تَرَكَهُمَا إِبْرَاهِيمُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْقَاحِلِ الْمُنْعَزِلِ عَنِ الْعَالَمِ، وَكَانَ بِئْرُ زَمْزَمَ، وَبَارَكَ اللهُ فِي هَذَا الْمَاءِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ لَا يَزَالُ فِي جِهَادٍ وَدَعْوَةٍ، وَانْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ، وَيَعُودُ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَيَقْضِي فِيهَا أَيَّامًا ثُمَّ يُغَادِرُهَا.

وَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ ذَبْحَ ابْنِهِ، وَهُوَ غُلَامٌ يَسْعَىٰ؛ إِيثَارًا لِحُبِّ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حُبِّهِ، وَتَحْقِيقًا لِمَا رَآهُ فِي الْمَنَامِ، وَاسْتَسْلَمَ إِسْمَاعِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ وَرَضِيَ بِهِ، وَفَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ؛ وَسَلَّمَهُ لِيَكُونَ عَوْنَ أَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَلِيَكُونَ جَدَّ آخِرِ نَبِيٍّ، وَأَفْضَلِ رَسُولٍ، لِيَكُونَ جَدَّ أُمَّةٍ تَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَاشْتَرَكَ الْأَبُ وَالِابْنُ فِي بِنَاءِ بَيْتِ اللهِ،

وَكَانَ دُعَاؤُهُمَا أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ هَذَا الْبَيْتَ، وَيُبَارِكَ فِيهِ، وَأَنْ يَعِيشَا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَمُوتَا عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقَطِعَ بِمَوْتِهِمَا، بَلْ تَرِثُهُ ذُرِّيَّتُهُ فَتَحْتَضِنُهُ، وَتَغَارُ عَلَيْهِ، وَتَدْعُو إِلَيْهِ، وَتُؤْثِرُهُ عَلَىٰ كُلِّ عَزِيزٍ، فَتَنْتَشِرُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهَا نَبِيًّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، يُجَدِّدُ دَعْوَةَ جَدِّهِ إِبْرَاهِيمَ، وَيُتِمُّ مَا بَدَأَهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩].

وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ آمِنًا دَائِمًا، وَأَنْ يُسَلِّمَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ هُوَ أَشَدَّ كَرَاهَةً لِشَيْءٍ، وَلَا أَكْثَرَ تَقَزُّزًا وَلَا أَخْوَفَ عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ مِنْهَا؛ -أَيْ: مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ- فَقَدْ رَأَىٰ مَصِيرَ الْأُمَمِ، وَمَصِيرَ الْأُسَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا فِيهَا، وَبَعْدَ الْجُهُودِ الْجَبَّارَةِ، وَالدَّعَوَاتِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي قَامُوا بِهَا، وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ لِلدُّنْيَا فَرِيسَةً لِلشَّيَاطِينِ الْمُفْسِدِينَ، وَالدَّجَّالِينَ الْمُضِلِّينَ الْمُضَلِّلِينَ مِنْ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَدُعَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُهُ، وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ عَلَىٰ اتِّصَالٍ دَائِمٍ بِدَعْوَتِهِ وَجِهَادِهِ يَذْكُرُونَ قِصَّةَ مُحَارَبَتِهِ لِلْوَثَنِيَّةِ، وَخَلْعِهِ لِلْأَوْثَانِ، وَتَحْطِيمِهِ لَهَا، وَمُصَارَمَتِهِ لِلْوَالِدِ السَّادِنِ لِبَيْتِ الْأَصْنَامِ، وَفِرَاقِهِ لِلْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وَأَنْ يَذْكُرُوا سِرَّ اخْتِيَارِ هَذَا الْمَكَانِ الْقَاحِلِ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِلزَّرْعِ، وَلَا لازْدِهَارِ الْمَدَنِيَّةِ، وَيَعْرِفُ سِرَّ إِيثَارِهِ

الْمُدُنَ الْكَبِيرَةَ، وَالْأَمْكِنَةَ الصَّالِحَةَ لِلْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ، وَأَنْ يُعَوِّضَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبَ، وَيُهْوِيَ إِلَيْهِمُ الْأَفْئِدَةَ، وَيَسُوقَ إِلَيْهِمُ الرِّزْقَ الْكَرِيمَ، وَيُجْبَىَ إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥- ٣٧].

● ● ●

إِطْلَالَةٌ عَلَى الْبِلَادِ وَالْأُمَمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْعَالَمِ عِنْدَمَا بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ وَسَيِّدَ النَّبِيِّينَ، كَانَتِ الْحَضَارَاتُ السَّائِدَةُ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الدِّيَانَاتُ كَثِيرَةً وَمُتَعَدِّدَةً، **فَمِنْ ذَلِكَ:**

الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ: كَانَتِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ تُعْرَفُ بِـ(الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ)، فَكَانَتْ تَحْكُمُ دُوَلَ الْيُونَانِ، وَالْبَلْقَانِ، وَآسْيَا، وَسُورِيَّا، وَفِلَسْطِينَ، وَتَحْكُمُ حَوْضَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ بِأَسْرِهِ، وَمِصْرَ، وَتَحْكُمُ كُلَّ إِفْرِيقِيَّةَ الشَّمَالِيَّةِ، وَكَانَتْ عَاصِمَتُهَا (الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ)، وَكَانَتْ دَوْلَةً ظَالِمَةً؛ مَارَسَتِ الظُّلْمَ وَالْجَوْرَ، وَالتَّعَسُّفَ عَلَىٰ الشُّعُوبِ الَّتِي حَكَمَتْهَا، وَأَضَافَتْ عَلَيْهَا الضَّرَائِبَ، وَكَثُرَتْ الاضْطِرَابَاتُ، وَالثَّوْرَاتُ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُمُ الْعَامَّةُ قَائِمَةً عَلَىٰ كُلِّ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ، وَاللَّعِبِ، وَالطَّرَبِ، وَالتَّرَفِ.

أَمَّا مِصْرُ: فَكَانَتْ عُرْضَةً لِلاضْطِهَادِ الدِّينِيِّ، وَالِاسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيِّ، وَاتَّخَذَهَا الْبِيزَنْطِيُّونَ شَاةً حَلُوبًا يُحْسِنُونَ حَلْبَهَا، وَيُسِيئُونَ عَلْفَهَا.

أَمَّا سُورِيَّا: فَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا الْمَظَالِمُ، وَالرَّقِيقُ، وَلَا يَعْتَمِدُونَ فِي قِيَادَةِ الشَّعْبِ إِلَّا عَلَىٰ الْقُوَّةِ، وَالْقَهْرِ الشَّدِيدِ، وَكَانَ الْحُكْمُ حُكْمَ الْغُرَبَاءِ الَّذِي لَا يُشْعِرُ

بِأَيِّ ضَعْفٍ عَلَىٰ الشَّعْبِ الْمَحْكُومِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ السُّورِيُّونَ يَبِيعُونَ أَبْنَاءَهُمْ؛ لِيُوفُوا مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ دُيُونٍ.

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الرُّومَانِيُّ مَمْلُوءًا بِالتَّنَاقُضِ وَالِاضْطِرَابِ، وَقَدْ جَاءَ تَصْوِيرُهُ فِي كِتَابِ «الْحَضَارَةُ مَاضِيهَا، وَحَاضِرُهَا» كَالْآتِي:

«كَانَ هُنَاكَ تَنَاقُضٌ هَائِلٌ لِلْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْبِيزَنْطِيِّينَ؛ فَقَدْ رَسَّخَتِ النَّزْعَةُ الدِّينِيَّةُ فِي أَذْهَانِهِمْ مَبَادِئَ مِنَ الْمَبَادِئِ الْفَاسِدَةِ، وَعَمَّتِ الرَّهْبَانِيَّةُ، وَشَاعَتْ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا، وَأَصْبَحَ الرَّجُلُ الْعَادِيُّ فِي الْبِلَادِ يَتَدَخَّلُ فِي الْأَبْحَاثِ الدِّينِيَّةِ الْعَمِيقَةِ، وَالْجَدَلِ الْبِيزَنْطِيِّ، وَيَتَشَاغَلُ بِهَا، كَمَا طُبِعَتِ الْحَيَاةُ الْعَادِيَّةُ بِطَابَعِ الْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ، وَلَكِنْ نَرَىٰ هَؤُلَاءِ فِي جَانِبٍ آخَرَ حَرِيصِينَ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالتَّرَفِ وَالطَّرَبِ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ مَيَادِينُ رِيَاضِيَّةٌ وَاسِعَةٌ تَتَّسِعُ لِجُلُوسِ ثَمَانِينَ أَلْفَ شَخْصٍ، يَتَفَرَّجُونَ فِيهَا عَلَىٰ مُصَارَعَاتٍ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالرِّجَالِ أَحْيَانًا، وَبَيْنَ الرِّجَالِ وَالسِّبَاعِ أَحْيَانًا أُخْرَىٰ، وَكَانُوا يُقَسِّمُونَ الْجَمَاهِيرَ فِي لَوْنَيْنِ: لَوْنٍ أَزْرَقَ، وَلَوْنٍ أَخْضَرَ.

لَقَدْ كَانُوا يُحِبُّونَ الْجَمَالَ، وَيَعْشَقُونَ الْعُنْفَ وَالْهَمَجِيَّةَ، وَكَانَتْ أَلْعَابُهُمْ دَمَوِيَّةً ضَارِيَةً فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ، وَكَانَتْ عُقُوبَتُهُمْ فَظِيعَةً تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ، وَكَانَتْ حَيَاةُ سَادَتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ عِبَارَةً عَنِ الْمُجُونِ وَالتَّرَفِ، وَالْمُؤَامَرَاتِ وَالْمُجَامَلَاتِ الزَّائِدَةِ، وَالْقَبَائِحِ وَالْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ».

وَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِحْدَىٰ الْقُوَّتَيْنِ الْعُظْمَيَيْنِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهِيَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ.

أَمَّا الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ: فَكَانَتْ تُعْرَفُ بِالدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ أَوِ الْكِسْرَوِيَّةِ، وَهِيَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا الدِّيَانَاتُ الْمُنْحَرِفَةُ كَالزِّرَادِشْتِيَّةِ وَالْمَانِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَهَا مَانِي فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْمِيلَادِيِّ.

ثُمَّ ظَهَرَتِ الْمَزْدَكِيَّةُ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمِيلَادِيِّ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ انْتِشَارِ ثَوْرَاتِ الْفَلَّاحِينَ، وَازْدِيَادِ النَّهَّابِينَ لِلْقُصُورِ، فَكَانُوا يَقْبِضُونَ أَوْ يَأْسِرُونَ النِّسَاءَ، وَيَسْتَوْلُونَ عَلَىٰ الْأَمْلَاكِ وَالْعَقَارَاتِ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ وَالْمَزَارِعُ وَالدُّورُ كَأَنْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ قَبْلُ.

كَانَ مُلُوكُ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْكِسْرَوِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِالْوِرَاثَةِ، وَيَضَعُونَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ بَنِي آدَمَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ نَسْلِ الْآلِهَةِ، وَأَصْبَحَتْ مَوَارِدُ الْبِلَادِ مِلْكًا لِهَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ، يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِبَذَخٍ لَا يُتَصَوَّرُ، وَيَعِيشُونَ عَيْشَ الْبَهَائِمِ حَتَّىٰ تَرَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمُزَارِعِينَ أَعْمَالَهُمْ أَوْ دَخَلُوا الْأَدْيِرَةَ وَالْمَعَابِدَ؛ فِرَارًا مِنَ الضَّرَائِبِ وَالْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَكَانُوا وَقُودًا حَقِيرًا فِي حُرُوبٍ طَاحِنَةٍ مُدَمِّرَةٍ قَامَتْ فِي فَتَرَاتٍ مِنَ التَّارِيخِ دَامَتْ سِنِينَ طِوَالًا بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ لَا مَصْلَحَةَ لِلشُّعُوبِ فِيهَا إِلَّا تَنْفِيذُ نَزَوَاتِ وَرَغَبَاتِ الْمُلُوكِ.

وَأَمَّا الْهِنْدُ: فَقَدِ اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَىٰ أَنَّ أَحَطَّ أَدْوَارِهَا دِيَانَةً وَخُلُقًا وَاجْتِمَاعًا وَسِيَاسَةً كَانَ ذَلِكَ الْعَهْدَ الَّذِي فِي مُسْتَهَلِّ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ؛ فَانْتَشَرَتِ الْخَلَاعَةُ حَتَّىٰ فِي الْمَعَابِدِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ أَعْطَاهَا لَوْنًا مِنَ التَّقْدِيسِ وَالتَّعَبُّدِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ لَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا عِصْمَةَ، وَانْتَشَرَتْ عَادَةُ إِحْرَاقِ الْمَرْأَةِ الْمُتَوَفَّىٰ زَوْجُهَا.

وَامْتَازَتِ الْهِنْدُ عَنِ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فِي التَّفَاوُتِ الْفَاحِشِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ، وَكَانَ ذَلِكَ تَابِعًا لِقَانُونٍ سِيَاسِيٍّ مَدَنِيٍّ دِينِيٍّ، وَضَعَهُ الْمُشَرِّعُونَ الْهِنْدِيُّونَ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ صِفَةٌ دِينِيَّةٌ، وَأَصْبَحَ هُوَ الْقَانُونَ الْعَامَّ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَدُسْتُورَ حَيَاتِهِمْ، وَكَانَتِ الْهِنْدُ فِي حَالَةِ فَوْضَىٰ وَتَمَزُّقٍ انْتَشَرَتْ فِيهَا الْإِمَارَاتُ الَّتِي انْدَلَعَتْ فِيهَا الْحُرُوبُ الطَّاحِنَاتُ الَّتِي كَانَتْ بَعِيدَةً عَنْ أَحْدَاثِ عَالَمِهَا فِي عُزْلَةٍ وَاضِحَةٍ يُسَيْطِرُ عَلَيْهَا التَّزَمُّتُ وَالتَّطَرُّفُ فِي الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، وَالتَّفَاوُتُ الطَّبَقِيُّ، وَالتَّعَصُّبُ الدَّمَوِيُّ وَالسُّلَالِيُّ.

وَقَدْ تَحَدَّثَ مُؤَرِّخٌ هِنْدُوكِيٌّ، وَكَانَ أُسْتَاذًا لِلتَّارِيخِ فِي إِحْدَىٰ جَامِعَاتِ الْهِنْدِ عَنْ عَصْرٍ سَابِقٍ لِدُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي الْهِنْدِ فَقَالَ: «كَانَ أَهْلُ الْهِنْدِ مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا، مُنْطَوِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، لَا خِبْرَةَ لَهُمْ بِالْأَوْضَاعِ الْعَالَمِيَّةِ، وَهَذَا الْجَهْلُ أَضْعَفَ مَوْقِفَهُمْ، فَنَشَأَ فِيهِمُ الْجُمُودُ، وَعَمَّتْ فِيهِمْ أَمَارَاتُ الِانْحِطَاطِ، وَالتَّدَهْوُرِ. كَانَ الْأَدَبُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِلَا رُوحٍ، وَهَكَذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ، وَغَيْرِهِ.

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْهِنْدِيُّ رَاكِدًا جَامِدًا، كَانَ هُنَاكَ تَفَاوُتٌ عَظِيمٌ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ، وَتَمْيِيزٌ مَعِيبٌ بَيْنَ أُسْرَةٍ وَأُسْرَةٍ، وَكَانُوا لَا يَسْمَحُونَ بِزَوَاجِ الْأَيَامَىٰ، وَيُشَدِّدُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فِي أُمُورِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، أَمَّا الْمَنْبُوذُونَ فَكَانُوا يَعِيشُون مُضْطَرِّينَ خَارِجَ بَلَدِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ.

كَانَ تَقْسِيمُ سُكَّانِ الْهِنْدِ عَلَىٰ أَرْبَعِ طَبَقَاتٍ:

- طَبَقَةُ الْكَهَنَةِ وَرِجَالِ الدِّينِ، وَهُمُ الْبَرَاهِمَةُ.

- وَرِجَالُ الْحَرْبِ وَالْجُنْدِيَّةِ وَهُمْ شَتْرَىٰ.

- وَرِجَالُ الْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ وَهُمْ وَيْش.

- وَرِجَالُ الْخِدْمَةِ وَهُمْ شُودَر، وَهُمْ أَحَطُّ الطَّبَقَاتِ، فَقَدْ خَلَقَهُمْ خَالِقُ الْكَوْنِ فِي زَعْمِهِمُ الْجَاهِلِيِّ مِنْ أَرْجُلِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ سِوَىٰ خِدْمَةِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ وَإِرَاحَتِهَا.

وَقَدْ مَنَحَ هَذَا الْقَانُونُ الْبَرَاهِمَةَ مَرْكَزًا، وَمَكَانَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَالْبُرْهُمِيُّ رَجُلٌ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَوْ أَبَادَ الْعَوَالِمَ الثَّلَاثَةَ بِذُنُوبِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَلَا يَجُوزُ فَرْضُ جِبَايَةٍ عَلَيْهِ، وَلَا يُعَاقَبُ بِالْقَتْلِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

أَمَّا شُودَر فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقْتَنُوا مَالًا، أَوْ يَدَّخِرُوا كَنْزًا أَوْ يُجَالِسُوا بُرْهُمِيًّا أَوْ يَمَسُّوهُ بِأَيْدِيهِمْ، أَوْ يَتَعَلَّمُوا الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ.

●●●

أَحْوَالُ الْعَالَمِ الدِّينيَّةِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

لَقَدْ كَانَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ قَبْلَ بُزُوغِ فَجْرِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ تَعِيشُ مَرْحَلَةً مِنْ أَحَطِّ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ فِي شُئُونِهَا الدِّينِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتُعَانِي مِنْ فَوْضَىٰ عَامَّةٍ فِي جَمِيعِ شُئُونِ حَيَاتِهَا، وَضَاعَ تَأْثِيرُ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَىٰ الْحَيَاةِ أَوْ كَادَ بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ التَّبْدِيلِ، وَالتَّحْرِيفِ، وَالتَّغْيِيرِ الَّذِي جَعَلَهَا تَفْقِدُ أَهَمِّيَّتَهَا بِاعْتِبَارِهَا رِسَالَةَ اللهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَانْشَغَلَ أَهْلُهَا بِالصِّرَاعَاتِ الْعَقَدِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي كَانَ سَبَبُهَا دُخُولَ الْأَفْكَارِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْفَاسِدَةِ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَدْيَانِ حَتَّىٰ أَدَّىٰ إِلَىٰ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ بَيْنَهُمْ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَمْ يُحَرِّفْ، وَلَمْ يُبَدِّلْ قَلِيلٌ نَادِرٌ، وَآثَرَ الِابْتِعَادَ عَنْ دُنْيَا النَّاسِ، وَدَخَلَ فِي حَيَاةِ الْخَلْوَةِ وَالْعُزْلَةِ؛ طَمَعًا فِي النَّجَاةِ بِنَفْسِهِ يَائِسًا مِنَ الْإِصْلَاحِ.

وَوَصَلَ الْفَسَادُ إِلَىٰ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ، وَالْأَجْنَاسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَدَخَلَ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ..

فَفِي الْجَانِبِ الدِّينِيِّ: تَجِدُ النَّاسَ إِمَّا قَدِ ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ أَوْ خَرَجُوا مِنْهُ، أَوْ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِ أَصْلًا، أَوْ وَقَعُوا فِي تَحْرِيفِ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَتَبْدِيلِهَا!

أَمَّا فِي الْجَانِبِ التَّشْرِيعِيِّ: فَإِنَّ النَّاسَ نَبَذُوا شَرِيعَةَ اللهِ، جَعَلُوهَا وَرَاءَهُمْ

ظِهْرِيًّا، وَاخْتَرَعُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قَوَانِينَ وَشَرَائِعَ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهَا تَصْطَدِمُ مَعَ الْعَقْلِ وَتَخْتَلِفُ مَعَ الْفِطْرَةِ، وَتَزَعَّمَ هَذَا الْفَسَادَ زُعَمَاءُ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ مِنَ الْقَادَةِ وَالرُّهْبَانِ وَالْقَسَاوِسَةِ وَالدَّهَّاقِينَ وَالْمُلُوكِ، وَأَصْبَحَ الْعَالَمُ فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ، وَلَيْلٍ بَهِيمٍ، وَانْحِرَافٍ عَظِيمٍ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَالْيَهُودِيَّةُ أَصْبَحَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ الطُّقُوسِ وَالتَّقَالِيدِ، لَا رُوحَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ، وَتَأَثَّرَتْ بِعَقَائِدِ الْأُمَمِ الَّتِي جَاوَرَتْهَا، وَاحْتَكَّتْ بِهَا، وَالَّتِي وَقَعَتْ تَحْتَ سَيْطَرَتِهَا، فَأَخَذَتْ كَثِيرًا مِنْ عَادَتِهَا وَتَقَالِيدِهَا الْوَثَنِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ مُؤَرِّخُ الْيَهُودِ، فَقَدْ جَاءَ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْيَهُودِيَّةِ: «إِنَّ سَخَطَ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَضَبَهُمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْآلِهَةِ كَانَتْ قَدْ تَسَرَّبَتْ إِلَىٰ نُفُوسِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَلَمْ تُسْتَأْصَلْ شَأْفَتُهَا إِلَىٰ أَيَّامِ رُجُوعِهِمْ إِلَىٰ الْجَلَاءِ وَالنَّفْيِ فِي بَابِلَ، وَقَدِ اعْتَقَدُوا اعْتِقَادَاتٍ خُرَافِيَّةً وَشِرْكِيَّةً.

إِنَّ التَّلْمُودَ يَشْهَدُ -أَيْضًا- أَنَّ الْوَثَنِيَّةَ كَانَتْ فِيهَا جَاهِلِيَّةٌ خَاصَّةٌ لِلْيَهُودِ، إِنَّ الْمُجْتَمَعَ الْيَهُودِيَّ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ الِانْحِطَاطِ الْعَقْلِيِّ، وَفَسَادِ الذَّوْقِ الدِّينِيِّ، فَإِذَا طَالَعْتَ تَلْمُودَ بَابِلَ الَّذِي يُبَالِغُ الْيَهُودُ فِي تَقْدِيسِهِ، وَالَّذِي كَانَ مُتَدَاوَلًا بَيْنَ الْيَهُودِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ النَّصْرَانِيِّ، إِذَا طَالَعْتَهُ وَجَدْتَ فِيهِ نَمَاذِجَ غَرِيبَةً مِنْ خِفَّةِ الْعَقْلِ، وَسُخْفِ الْقَوْلِ، وَالِاجْتِرَاءِ عَلَىٰ اللهِ، وَالْعَبَثِ بِالْحَقَائِقِ، وَالتَّلَاعُبِ بِالدِّينِ وَالْعَقْلِ.

أَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَقَدِ امْتُحِنَتْ بِتَحْرِيفِ الْغَالِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ، وَاخْتَفَىٰ نُورُ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَرَاءَ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ، وَانْدَلَعَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَ النَّصَارَىٰ فِي الشَّامِ، وَالْعِرَاقِ، وَبَيْنَ نَصَارَىٰ مِصْرَ حَوْلَ حَقِيقَةِ الْمَسِيحِ وَطَبِيعَتِهِ، وَتَحَوَّلَتِ الْبُيُوتُ وَالْمَدَارِسُ وَالْكَنَائِسُ إِلَىٰ مُعَسْكَرَاتٍ مُتَنَافِسَةٍ، وَظَهَرَتِ الْوَثَنِيَّةُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي مَظَاهِرَ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَلْوَانٍ شَتَّىٰ.

أَمَّا الْمَجُوسُ، فَقَدْ عُرِفُوا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ بِعِبَادَةِ الْعَنَاصِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَأَعْظَمُهَا النَّارُ، وَانْتَشَرَتْ بُيُوتُ النَّارِ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا، وَعَكَفُوا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَبَنَوْا لَهَا مَعَابِدَ وَهَيَاكِلَ، وَكَانَتْ لَهَا آدَابٌ وَشَرَائِعُ دَقِيقَةٌ دَاخِلَ الْمَعَابِدِ أَمَّا خَارِجَهَا فَكَانَ أَتْبَاعُهَا أَحْرَارًا يَسِيرُونَ عَلَىٰ هَوَاهُمْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ مَنْ لَا دِينَ لَهُ.

وَيَصِفُ الْمُؤَرِّخُ الدِّنِمَارْكِيُّ طَبَقَةَ رُؤَسَاءِ الدِّينِ، وَيَصِفُ وَظَائِفَهُمْ عِنْدَ الْمَجُوسِ فِي كِتَابِهِ: «إِيرَانُ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ» فَيَقُولُ: «كَانَ وَاجِبًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُوَظَّفِينَ أَنْ يَعْبُدُوا الشَّمْسَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَيُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ عِبَادَةُ الْقَمَرِ وَالنَّارِ وَالْمَاءِ، وَكَانُوا مُكَلَّفِينَ بِأَدْعِيَةٍ خَاصَّةٍ عِنْدَ النَّوْمِ وَالِانْتِبَاهِ، وَالِاغْتِسَالِ وَلُبْسِ الزُّنَّارِ، وَالْأَكْلِ، وَحَلْقِ الشَّعْرِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظَافِرِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَإِيقَادِ السُّرُجِ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِأَنْ لَا يَدَعُوا النَّارَ تَنْطَفِئُ، وَأَنْ لَا تَمَسَّ النَّارُ وَالْمَاءُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَأَنْ لَا يَدَعُوا الْمَعْدِنَ يَصْدَأُ؛ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ عِنْدَهُمْ مُقَدَّسَةٌ، كَانَ أَهْلُ إِيرَانَ يَسْتَقْبِلُونَ فِي صَلَاتِهِمُ النَّارَ، وَقَدْ حَلَفَ يَزْدَجِرْدُ آخِرُ

مُلُوكِ السَّاسَانِيِّينَ بِالشَّمْسِ مَرَّةً وَقَالَ: أَحْلِفُ بِالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ الْإِلَهُ الْأَكْبَرُ.

وَقَدْ دَانَ الْمَجُوسُ بِالثَّنَوِيَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَأَصْبَحَ ذَلِكَ شِعَارًا لَهُمْ، فَآمَنُوا بِإِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا: النُّورُ أَوْ إِلَهُ الْخَيْرِ، وَالثَّانِي: الظَّلَامُ أَوْ إِلَهُ الشَّرِّ!

أَمَّا الْبُوذِيَّةُ فِي الْهِنْدِ، وَآسْيَا الْوُسْطَىٰ فَقَدْ تَحَوَّلَتْ وَثَنِيَّةً تَحْمِلُ مَعَهَا الْأَصْنَامَ حَيْثُ سَارَتْ، وَتَبْنِي الْهَيَاكِلَ، وَتَنْصُبُّ تَمَاثِيلَ بُوذَا حَيْثُ حَلَّتْ وَنَزَلَتْ.

أَمَّا الْبَرْهَمِيَّةُ دِينُ الْهِنْدِ الْأَصْلِيُّ: فَقَدِ امْتَازَتْ بِكَثْرَةِ الْمَعْبُودَاتِ وَالْآلِهَةِ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَوْجَهَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدِّيَانَةَ الْهِنْدُوكِيَّةَ، وَالْبُوذِيَّةَ وَثَنِيَّتَانِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ.

لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا الْمَعْمُورَةُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَطْلَسِيِّ إِلَىٰ الْمُحِيطِ الْهَادِي غَارِقَةً فِي الْوَثَنِيَّةِ، وَكَأَنَّمَا كَانَتِ الْمَسِيحِيَّةُ، وَالْيَهُودِيَّةُ، وَالْبُوذِيَّةُ، وَالْبَرْهَمِيَّةُ تَتَسَابَقُ فِي تَعْظِيمِ الْأَوْثَانِ وَتَقْدِيسِهَا!! وَكَانَتْ كَخَيْلِ رِهَانٍ تَجْرِي فِي حَلْبَةٍ وَاحِدَةٍ».

وَقَدْ أَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عُمُومِ هَذَا الْفَسَادِ لِجَمِيعِ الْأَجْنَاسِ، وَجَمِيعِ الْمَجَالَاتِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ** -وَالْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، أَشَدُّ

الْكَرَاهِيَةِ- **وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ، وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ يُشِيرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ مَا عَمَّ الْعَالَمَ مِنَ الْفَسَادِ فِي جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ، وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ بِعْثَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَهَذَا مُجْمَلُ حَالِ الْعَالَمِ عِنْدَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَدُلُّكَ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مُنْتَظَرًا لِقُدُومِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُخَلِّصِ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ هَذَا الظَّلَامِ إِلَىٰ النُّورِ، وَمِنْ هَذَا الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْهِدَايَةِ بِفَضْلِ اللهِ الْعَلِيِّ الْغَفُورِ.

وَأَمَّا حَالُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ: فَلَهَا جَوَانِبُ مُتَعَدِّدَةٌ:

⦿ ⦿ ⦿



الْحَالَةُ الدِّينِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

فَأَمَّا الْحَالَةُ الدِّينِيَّةُ لِلْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ: فَقَدِ انْتَشَرَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ عَدَدٌ مِنَ الدِّيَانَاتِ مِنْ أَهَمِّهَا الْوَثَنِيَّةُ: ظَلَّ مُعْظَمُ الْعَرَبِ يَدِينُ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنَفِيَّةِ، وَلَكِنْ مَعَ مُرُورِ الْقُرُونِ انْحَرَفَ الْعَرَبُ عَنْهَا، وَبَلَغَ الانْحِرَافُ ذِرْوَتَهُ خِلَالَ زَعَامَةِ خُزَاعَةَ عَلَىٰ مَكَّةَ حَيْثُ اسْتَفْحَلَتِ الْوَثَنِيَّةُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعَالِمِ الْحَنِفِيَّةِ إِلَّا بَعْضُ الشَّعَائِرِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْحَجِّ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَحَتَّىٰ هَذِهِ الشَّعَائِرُ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التَّحْرِيفِ.

جَاءَتْ خُزَاعَةُ بَعْدَ الْجَرَاهِمَةِ بَعْدَ قَبِيلَةِ جُرْهُمٍ، وَكَانَتْ تَلِي الْبَيْتَ وَتَقُومُ عَلَىٰ شَأْنِهِ، فَنَحَّتْهَا عَنْ ذَلِكَ قَبِيلَةُ خُزَاعَةَ، وَدَخَلَ الشِّرْكُ عَلَىٰ الْعَرَبِ، وَدَخَلَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيُّ أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَدِمَ بِهَا مِنَ الشَّامِ، وَنَشَرَهَا مُسْتَغِلًّا مَكَانَتَهُ فِي الْحِجَازِ، فَاتَّخَذَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ صَنَمًا لَهَا تُعَظِّمُهُ، وَتَفْخَرُ بِهِ، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا الْمَعَابِدَ، وَقَدَّمُوا لَهَا الْقَرَابِينَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بَعْضُ مَا نَالَهُ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ جَزَاءَ نَشْرِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَحَرْفِهِ النَّاسَ عَنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَوَرَدَ **أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَآهُ فِي النَّارِ يَجُرُّ قُصْبَهُ** أَيْ: أَمْعَاءَهُ.

كَانَ الْعَرَبُ فِي وَثَنِيَّتِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ الْإِلَهِ، يُقِرُّون بِأَنَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وَمُدَبِّرُهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وَلَكِنَّهُمْ فِي وَثَنِيَّتِهِمْ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، فَأَشْرَكُوا مَعَهُ الْأَصْنَامَ فِي الْعِبَادَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَأَنَّهَا شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

مِنَ انْحِرَافَاتِ الْوَثَنِيِّينَ: إِنْكَارُهُمْ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءِ بَعْدَ الْحِسَابِ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وَمِنْ مَظَاهِرِ الانْحِرَافِ عِنْدَ الْوَثَنِيِّينَ: التَّحَاكُمُ إِلَىٰ الْكَهَنَةِ وَالْعَرَّافِينَ، وَالتَّطَيُّرُ، وَالِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدِ انْتَشَرَتْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَصْنَامِهِمْ (هُبَلُ) الَّذِي كَانَ بِجَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ هَذَا الصَّنَمُ مِنَ الْعَقِيقِ عَلَىٰ صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَكَانَ مَكْسُورَ الذِّرَاعِ، فَأَبْدَلَهُ الْقُرَشِيُّونَ ذِرَاعًا مِنْ ذَهَبٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَصْنَامِهِمْ (وَدٌّ)، وَكَانَ لِقَبِيلَةِ كَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ.

أَمَّا (اللَّاتُ) فَكَانَتْ بِالطَّائِفِ لِثَقِيفٍ، وَكَانَتِ اللَّاتُ صَخْرَةً كَبِيرَةً تُعَظِّمُهَا ثَقِيفٌ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِهَا بَعْدَ خُضُوعِهِمْ، وَدُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا (الْعُزَّىٰ) فَكَانَتْ بِوَادِي نَخْلَةَ، وَقَدْ قَطَعَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَمَّا (مَنَاةُ) فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ من قُدَيْدٍ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ وَغَسَّانُ يُعَظِّمُونَهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يَحُجُّونَ إِلَيْهَا، وَكَانَ مَنْ أَهَلَّ لَهَا لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَيَتَحَرَّجُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قَوْلَهُ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فَجَاءَتِ الْآيَةُ لِنَفْيِ هَذَا الْحَرَجِ الَّذِي كَانَ فِي نُفُوسِهِمْ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْيِ الْجُنَاحِ -وَهُوَ الْحَرَجُ- مَا يَنْفِي وُجُوبَ السَّعْيِ أَوْ فَرْضِيَّتَهُ.

وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَصْنَعُ لِنَفْسِهِ الصَّنَمَ مِنَ الْعَجْوَةِ أَوِ الْحَلْوَىٰ فَإِذَا جَاعَ أَكَلَهُ، وَوَجَدَ أَحَدُهُمْ يَوْمًا صَنَمًا لَهُ، وَقَدْ بَالَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ فَرَمَىٰ بِهِ وَقَالَ:

أَرَبٌّ يَبُــولُ الثُّعْلُبَــانُ بِرَأْسِــهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَـتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِـبُ

لَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ تَخْلُقُ أَوْ تُدَبِّرُ الْكَوْنَ أَوْ تَرْزُقُ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْخَالِقَ هُوَ اللهُ؛ قَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

أَيْ: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ الْحَقِّ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَنْهُمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وَهَكَذَا صَدَقَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا نَفَىٰ الْوَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَجَعَلَ طَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مَفْتُوحًا لِمَنْ يُرِيدُ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ نَاقَضُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَمَا أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ.

لَقَدْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَكَانَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ صَنَمٌ؛ فَكَانَ لِهُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ سُوَاعٌ، وَلِكَلْبٍ وَدٌّ، وَلِمَذْحِجٍ يَغُوثُ، وَلِخَيْوَانَ يَعُوقُ، وَلِحِمْيَرَ نَسْرٌ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَقُرَيْشٌ تَعْبُدُ إِسَافًا وَنَائِلَةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ تُعَظِّمُهَا الْعَرَبُ كَافَّةً، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ خَاصَّةً، وَكَانَتِ اللَّاتُ فِي ثَقِيفٍ، وَكَانَتِ الْعُزَّىٰ فَوْقَ ذِي عِرْقٍ، وَكَانَتْ أَعْظَمَ الْأَصْنَامِ عِنْدَ قُرَيْشٍ، وَإِلَىٰ جَانِبِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الرَّئِيسَةِ يُوجَدُ عَدَدٌ لَا يُحْصَىٰ مِنَ الْأَصْنَامِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي يَسْهُلُ نَقْلُهَا فِي أَسْفَارِهِمْ، وَوَضْعُهَا فِي بُيُوتِهِمْ.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ قَالَ: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الْآخَرَ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ»!

فَهَذَا لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ شِرْكِهِمْ، وَهُوَ كَمَا تَرَىٰ يُصَادِمُ أَدْنَىٰ مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلٍ، عِنْدَ مَنْ عِنْدَهُ ذَرْوٌ عَقْلٍ يَقُولُ: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخذْنَا الْآخرَ». وَهَذَا الْمُلْقَىٰ كَانَ إِلَهًا يُعْبَدُ، وَالْآن يُلْقَىٰ وَيُوطَأُ بِالنِّعَالِ، وَتَبُولُ عَلَيْهَا الثَّعَالِبُ، وَتَطَأُهُ الكِلَابُ؛ يَقُولُ: «فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخذْنَا الْآخرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا، جَمَعْنَا جَثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ».

أَمَّا الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَدْ أَصَابَهَا التَّحْرِيفُ، وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ، فَصَارَ الْحَجُّ مَوْسِمًا لِلْمُفَاخَرَةِ، وَالْمُنَافَرَةِ، وَالْمُبَاهَاةِ، وَانْحَرَفَتْ بَقَايَا مُعْتَقَدَاتِ الْحَنِيفِيَّةِ عَنْ حَقِيقَتِهَا، وَأُلْصِقَ بِهَا مِنَ الْخُرَافَاتِ، وَالْأَسَاطِيرِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

وَكَانَ يُوجَدُ بَعْضُ الْأَفْرَادِ مِنَ الْحُنَفَاءِ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ، وَالنَّحَائِرِ، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ: زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ كَانَ لَا يَذْبَحُ لِلْأَنْصَابِ، وَلَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَكَانَ يَقُولُ:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ

عَزَلْتُ اللَّاتَ، وَالْعُزَّي جَمِيعًا ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ

فَلَا عُزَّىٰ أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا ... وَلَا صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ

وَلَا غَنَمًا أَدِينُ، وَكَانَ رَبًّا ... لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي يَسِيرُ

إِلَىٰ أَنْ قَالَ:

وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي ... لِيَغْفِرَ ذَنْبِيَ الرَّبُّ الْغَفُورُ

وَمِمَّنْ كَانَ يَدِينُ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيُّ؛ فَقَدْ كَانَ خَطِيبًا حَكِيمًا عَاقِلًا لَهُ نَبَاهَةٌ، وَفَضْلٌ، وَكَانَ يَدْعُو إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ كَمَا كَانَ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَمِنَ الْحُنَفَاءِ: وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، رُوِيَ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ زَيْدِ بْنِ نُفَيْلٍ يَبْحَثَانِ عَنْ دِينٍ صَحِيحٍ يَتَّبِعَانِهِ، وَبَعْدَ الْبَحْثِ تَنَصَّرَ وَرَقَةُ، وَلَمْ يَرْتَضِ زَيْدٌ سِوَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَخَبَرُ وَرَقَةَ، وَالْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي إِسْلَامِهِ عِنْدَ بِدَايَةِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ كُلُّ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ، وَلَهُ أَبْيَاتٌ شِعْرِيَّةٌ رَائِعَةٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَالْبَعْثِ.

وَمِنَ الْحُنَفَاءِ: أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَلَقَدْ كَادَ أَنْ يُسْلِمَ فِي شِعْرِهِ**» كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

وَيُقَالُ إِنَّهُ تَنَصَّرَ، وَأَكْثَرَ فِي شِعْرِهِ مِنْ ذِكْرِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَدْ

كَانَ مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ عَاشَ إِلَىٰ زَمَانِ الْبِعْثَةِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ؛ تَكَبُّرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ تَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ، قِيلَ: إِنَّهُ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَقِيلَ: سَنَةَ اثْنَتَيْنِ، وَلَهُ شِعْرٌ فِي رِثَاءِ قَتْلَىٰ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ.

وَمِنْهُمْ: لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ ثُمَّ الْكِلَابِيُّ ثُمَّ الْكَعْبِيُّ، ثُمَّ الْجَعْفَرِيُّ، كَانَ مِنْ فُحُولِ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ شُعَرَاءِ الْمُعَلَّقَاتِ، وَمُعَلَّقَةُ لَبِيدٍ مَعْرُوفَةٌ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ**»، وَقَدْ أَسْلَمَ لَبِيدٌ، وَمَاتَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بَعْدَ أَنْ عَاشَ مِئَةً وَخَمْسِينَ عَامًا، وَقِيلَ أَكْثَرَ.

وَمِمَّنْ ذُكِرَ مِنَ الْحُنَفَاءِ سِوَىٰ هَؤُلَاءِ: أَرْبَابُ بْنُ رِئَابٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ عَامِرٍ الْمُصْطَلِقِيُّ، وَأَسْعَدُ أَبُو كَرِمٍ الْحِمْيَرِيُّ، وَوَكِيعُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَيْدِيُّ، وَعُمَيْرُ بْنُ حَيْدَبٍ الْجُهَنِيُّ، وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعِبَادِيُّ وَقَدْ تَنَصَّرَ، وَغَيْرُهُمْ ذَكَرَهُمُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «الْمَعَارِفِ»، وَالْآلُوسِيُّ فِي «بُلُوغِ الْأَرَبِ».

فَهَؤُلَاءِ مَعَ إِطْبَاقِ هَذَا الظَّلَامِ عَلَىٰ نُفُوسِ وَقُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ كَانَ النُّورُ يَنْفُذُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ، هَؤُلَاءِ الْحُنَفَاءُ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَتَنَصَّلُوا وَتَنَزَّهُوا عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعَنِ الذَّبْحِ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ، حَتَّىٰ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَدَا الطَّرِيقُ وَاضِحًا، وَالنَّهْجُ لَاحِبًا؛ فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

مِمَّا كَانَ شَائِعًا بَيْنَ الْعَرَبِ: عِبَادَةُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْجِنِّ: فَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَيُسَمِّيهَا بَنَاتِ اللهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْجِنَّ زَاعِمًا أَنَّ بَيْنَهَا

وَبَيْنَ اللهِ نَسَبًا وَصِهْرًا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ مُوَبِّخًا لَهُمْ، وَمُنْكِرًا عَلَيْهِمْ، وَمُسَفِّهًا لِآرَائِهِمْ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣- ١٥٨].

الْجِنَّةُ: أَيِ: الْجِنُّ، فَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ نَسَبًا وَصِهْرًا.

وَالْجِنَّةُ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْآيَةِ: الْجِنُّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٧].

وَمِنْ عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةِ: إِنْكَارُ الْبَعْثِ، وَقَدْ قَرَّرَ الْقُرْآنُ الْإِنْكَارَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ فَقَالَ تَعَالَىٰ ذَاكِرًا لِمَقَالَتِهِمْ: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٦- ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ١- ٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

وَكَانَ بَعْضُهُمْ دَهْرِيِّينَ، يَقُولُونَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَكَانُوا يُنْكِرُونَ رِسَالَةَ الرُّسُلِ، وَأَنْ يُرْسِلَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وَقَالَ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ، وَبَيَانَ أَنَّ اللهَ مَا أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧- ٨].

وَمِنْ عَقَائِدِهِمْ: الِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ، وَكَانَتْ ثَلَاثَةً مَكْتُوبٌ عَلَىٰ أَحَدِهَا: (أَمَرَنِي رَبِّي)، وَعَلَىٰ الْآخَرِ: (نَهَانِي رَبِّي)، وَالثَّالِثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَوْ غَزْوًا أَوْ تِجَارَةً أَوْ نِكَاحًا أَوْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ ضَرَبَ الْقِدَاحَ، وَكَانَتْ عِنْدَ سَادِنٍ -أَيْ: خَادِمٍ- لِلصَّنَمِ الْأَكْبَرِ هُبَلَ، وَكَانَتْ تُوضَعُ فِي خَرِيطَةٍ -أَيْ: فِي كِيسٍ مِنْ جِلْدٍ-، ثُمَّ يُجَلْجِلُهَا، ثُمَّ يَضَعُ السَّادِنُ يَدَهُ فَإِذَا خَرَجَ

الْآمِرُ (أَمَرَنِي رَبِّي) مَضَىٰ لِشَأْنِهِ، وَإِذَا خَرَجَ النَّاهِي (نَهَانِي رَبِّي) أَمْسَكَ، وَإِذَا خَرَجَ الْغُفْلُ أَجَالَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ.

وَقَدْ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ هَذَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ...﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ﴾ [المائدة: ٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

كَانُوا يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ: تَحْرِيمُهُمُ الْبَحِيرَةَ، وَالسَّائِبَةَ، وَالْوَصِيلَةَ، وَالْحَامَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ؛ فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ** -أَيْ: أَمْعَاءَهُ- **فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**».

أَمَّا الْبَحِيرَةُ: فَهِيَ الَّتِي بُحِرَتْ أُذُنُهَا أَيْ: شُقَّتْ، كَانَتِ النَّاقَةُ أَوِ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذُنَهَا، وَتَرَكُوهَا لِلطَّوَاغِيتِ أَيْ: لِلْأَصْنَامِ، فَلَا يَرْكَبُهَا أَحَدٌ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِلَحْمِهَا، وَلَا وَبَرِهَا، وَلَا لَبَنِهَا.

وَأَمَّا السَّائِبَةُ: فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْذِرُ إِنْ بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ أَوْ قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ لَيُسَيِّبَنَّ بَعِيرًا، فَكَانُوا يَتْرُكُونَهُ لِآلِهَتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ: فَهِيَ النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبْكِرُ فِي أَوَّلِ نَتَاجِهَا بِأُنْثَىٰ ثُمَّ تُثَنِّي بِأُنْثَىٰ، فَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ، وَيَقُولُونَ: وَصَلَتْ إِحْدَىٰ الْأُنْثَيَيْنِ بِالْأُخْرَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ.

وَأَمَّا الْحَامُ: فَهُوَ فَحْلُ الْإِبِلِ إِذَا نَتَجَ عَنْهُ عَشَرَةُ أَبْطُنٍ قَالُوا: حَمَىٰ ظَهْرَهُ، وَيَتْرُكُونَهُ لِأَصْنَامِهِمْ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهُ بِشَيْءٍ.

وَهَذَا لَا شَكَّ تَشْرِيعٌ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَفِيهِ إِضَاعَةٌ لِلْمَالِ بِغَيْرِ دَاعٍ؛ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

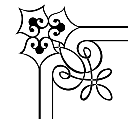
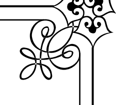
كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ صَنِيعَهُمْ هَذَا كَذِبٌ، وَافْتِرَاءٌ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لِلْأَصْنَامِ نَصِيبًا فِي الْأَنْعَامِ، وَالزُّرُوعِ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ نَصِيبًا، وَآثَرُوا جَانِبَ الْأَصْنَامِ عَلَىٰ جَانِبِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كَانُوا يُحَرِّمُونَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ حِينًا، وَيُحَرِّمُونَ إِنَاثَهَا حِينًا آخَرَ، وَتَارَةً ثَالِثَةً كَانُوا يُحَرِّمُونَ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، لَا يَسْتَقِرُّونَ عَلَىٰ حَالٍ، ولا يستندون إلىٰ حجة؛ فَجَادَلَهُمُ اللهُ بِالْحِكْمَةِ، وَالْمَنْطِقِ الْقَوِيمِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣- ١٤٤]. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ ابْتِدَاعَاتِهِمْ وَافْتِرَاءَاتِهِمْ.

فَهَذِهِ صُورَةٌ مُجْمَلَةٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْوَثَنِيُّونَ فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَدِيَانَاتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ الَّتِي هِيَ دِينُ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَبِهَذَا تَعْلَمُ مَدَىٰ الانْحِرَافِ الَّذِي وَقَعَ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، وَمَدَىٰ الْبُعْدِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَمَا عَلَيْهِ الدِّينُ الْحَقُّ، فَتَرَىٰ بُعْدَ الشُّقَّةِ بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِيَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، فَعَانَدُوهُ، وَحَارَبُوهُ حَتَّىٰ هَمُّوا بِاغْتِيَالِهِ، فَأَذِنَ اللهُ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

⁂

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

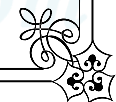
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فَمِنْ دِيَانَاتِ هَؤُلَاءِ عِنْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ: الْوَثَنِيَّةُ، وَكَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ قَدْ ظَهَرَتْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عَلَىٰ إِثْرِ هِجْرَةِ الْيَهُودِ مِنَ الشَّامِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ؛ فِرَارًا مِنْ غَزْوِ بُخْتُنَصَّرَ الْبَابِلِيِّ، وَتَخْرِيبِهِ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ سَنَةَ سَبْعٍ، وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِسَبَبِ الْغَزْوِ الرُّومَانِيِّ لِفِلَسْطِينَ سَنَةَ سَبْعِينَ مِنَ الْمِيلَادِ، وَعَلَىٰ إِثْرِ تِلْكُمَا الْهِجْرَتَيْنِ اسْتَقَرَّ عَدَدٌ مِنْ طَوَائِفِ الْيَهُودِ فِي شَمَالِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْحِجَازِ؛ فِي يَثْرِبَ، وَتَيْمَاءَ، وَخَيْبَرَ، وَغَيْرِهَا، فَأَنْشَئُوا الْقُرَىٰ، وَأَقَامُوا الْحُصُونَ وَالْقِلَاعَ.

وَكَانَ لِلْيَهُودِيَّةِ فِي جَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عَلَىٰ يَدِ تُبَّانِ أَسْعَدَ أَبِي كَرِبٍ مَلِكِ الْيَمَنِ الَّذِي مَرَّ بِالْحِجَازِ خِلَالَ بَعْضِ حُرُوبِهِ، وَاتَّصَلَ بِالْيَهُودِ فِي يَثْرِبَ، وَاعْتَنَقَ الْيَهُودِيَّةَ، وَقَدِمَ مَعَهُ بِحَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَكَانَ لَهُمَا أَثَرٌ فِي نَشْرِ الْيَهُودِيَّةِ بِالْيَمَنِ.

وَأَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَكَانَ وُجُودُهَا فِي جَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي نَجْرَانَ عَلَىٰ يَدَيْ فِيمْيُونَ، وَهُوَ أَحَدُ عُبَّادِ النَّصَارَىٰ فِي الشَّامِ، وَكَانَ زَاهِدًا مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَكَانَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْقُرَىٰ يُخْفِي عِبَادَتَهُ، كُلَّمَا ظَهَرَ أَمْرُهُ فِي قَرْيَةٍ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ

غَيْرِهَا، أَسَرَهُ رِجَالُ بَعْضِ الْقَوَافِلِ التِّجَارِيَّةِ، وَبَاعُوهُ فِي نَجْرَانَ، وَقَدْ لَفَتَ بِعِبَادَتِهِ وَزُهْدِهِ نَظَرَ مَنِ اشْتَرَاهُ، فَدَخَلَ فِي دِينِهِ، وَ(فِيمْيُونُ) هَذَا هُوَ الَّذِي هَدَىٰ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْغُلَامَ الْمُؤْمِنَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الثَّامِرِ الَّذِي دَعَا أَهَالِي نَجْرَانَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَآمَنُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ بِاللهِ، وَدَخَلُوا النَّصْرَانِيَّةَ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ عليه السلام مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَلَكِنَّ حَاكِمَ حِمْيَرَ ابْنَ تُبَّانَ أَسْعَدَ ذَا نُوَاسٍ كَانَ مُتَعَصِّبًا لِلْيَهُودِيَّةِ، فَسَعَىٰ لِإِجْبَارِ أَهْلِ نَجْرَانَ؛ لِاعْتِنَاقِ الْيَهُودِيَّةِ بِالْقُوَّةِ، فَلَمَّا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ خَدَّ الْأُخْدُودَ، وَأَحْرَقَهُمْ فِيهِ بِالنَّارِ.

وَهُمْ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٤- ٥].

وَتَمَكَّنَ بَعْضُ مَنْ نَجَا مِنَ الْقَتْلِ مِنَ الْفِرَارِ إِلَىٰ بِلَادِ الرُّومِ، وَاسْتَنْجَدَ بِقَيْصَرِ الرُّومِ، فَبَعَثَ مَعَهُ رِسَالَةً إِلَىٰ مَلِكِ الْحَبَشَةِ النَّصْرَانِيِّ النَّجَاشِيِّ يَأْمُرُهُ بِأَخْذِ الثَّأْرِ لِنَصَارَىٰ نَجْرَانَ، فَبَعَثَ مَلِكُ الْحَبَشَةِ جَيْشًا إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَصَارُوا إِلَىٰ ذِي نُوَاسٍ وَهَزَمُوهُ، وَأَصْبَحَتِ الْيَمَنُ تَحْتَ قَبْضَةِ الْأَحْبَاشِ النَّصَارَىٰ، فَعَمِلُوا عَلَىٰ نَشْرِ النَّصْرَانِيَّةِ خُصُوصًا بَعْدَ تَوَلِّي أَبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ الَّذِي بَنَىٰ فِي صَنْعَاءَ كَنِيسَةً كَبِيرَةً، وَسَعَىٰ لِصَرْفِ النَّاسِ إِلَىٰ الْحَجِّ إِلَيْهَا، وَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، كَمَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ.

وَفِي الْأَطْرَافِ الشَّمَالِيَّةِ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ وُجُودٌ؛ حَيْثُ اعْتَنَقَتْهَا بَعْضُ الْقَبَائِلِ؛ نَتِيجَةَ احْتِكَاكِهَا بِالنَّصَارَىٰ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي تَخْضَعُ لِدَوْلَةِ الرُّومِ النَّصْرَانِيِّ، وَقَدْ شَارَكَ أَعْدَادٌ كَبِيرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْمُتَنَصِّرَةِ شَارَكُوا مَعَ الرُّومِ فِي حُرُوبِهِمْ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ كَقَبَائِلِ لَخْمٍ، وَجِذَامَ، وَبَلْقِينَ، وَبَهْرَاءَ، وَبَلِيٍّ، وَالْغَسَاسِنَةِ، وَغَيْرِهِمْ.

بِجَانِبِ تِلْكَ الدِّيَانَاتِ كَانَتْ تُوجَدُ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ -بِوُجُودٍ ضَئِيلٍ- بَعْضُ الدِّيَانَاتِ؛ كَالصَّابِئَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ مِثْلَ عِبَادَةِ مَلِكَةِ سَبَأٍ وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ، وَهُنَاكَ الْمَجُوسِيَّةُ فِي الْمَنَاطِقِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفُرْسِ، كَمَا يُوجَدُ أَفْرَادٌ قَلِيلُونَ مِنَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا فَسَادَ مَا عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنَ الشِّرْكِ، فَتَعَبَّدُوا عَلَىٰ بَقَايَا دِينِ إِبْرَاهِيمَ ﵇، وَهُمُ الْحُنَفَاءُ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ.

كَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ بِخَيْبَرَ وَمَا جَاوَرَهَا، وَبِيَثْرِبَ، وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ، وَفِي الْحَقِّ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ لَمْ تَجِدْ قَبُولًا وَلَا انْتِشَارًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ؛ لَعَلَّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ الْمُخْتَارُ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقْبَلِ الْعَرَبِيُّ أَنْ يَدْخُلَ دِينًا يَجْعَلُهُ فِي طَبَقَةٍ دُنْيَا عَنْ طَبَقَةِ دُعَاةِ هَذَا الدِّينِ، وَأَيْضًا فَقَدْ كَانُوا لَا يُهِمُّهُمْ نَشْرُ دِينِهِمْ بِقَدْرِ مَا يُهِمُّهُمْ جَمْعُ الْأَمْوَالِ، هَذَا إِلَىٰ أَنَّ أَخْلَاقَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَتَّصِفُونَ بِهَا مِنَ اللُّؤْمِ، وَالْغَدْرِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْحِرْصِ، وَالشَّرَهِ إِلَىٰ الْمَالِ، وَالَّتِي تُعْتَبَرُ عَلَىٰ الضِّدِّ مِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ زَهَّدَتِ الْعَرَبَ فِي دِينِهِمْ، وَالِانْتِظَامِ فِي سِلْكِهِمْ، وَالدُّخُولِ فِي جَمَاعَتِهِمْ.

أَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَكَانَتْ مُنْتَشِرَةً بِنَجْرَانَ فِي شَمَالِ الْيَمَنِ، وَطَبِيعِيٌّ أَنَّهَا جَاءَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَفِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ فِي دَوْلَةِ الْغَسَاسِنَةِ، وَقَدْ كَانَتْ وَثِيقَةَ الصِّلَةِ بِالرُّومِ، فَمِنْ ثَمَّ انْتَشَرَتْ فِيهَا النَّصْرَانِيَّةُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، وَفِي الْحِيرَةِ فَقَدْ تَنَصَّرَ مُعْظَمُ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ يَاقُوتٌ فِي (مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ) أَنَّهُ كَانَ بِالْحِيرَةِ بَيْعَةٌ؛ أَيْ: كَنِيسَةٌ، وَأَنَّهَا مِنْ أَقْدَمِ الْكَنَائِسِ بِبِلَادِ الْعَرَبِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ وَاجِهَتِهَا كِتَابَةٌ نَصُّهَا: (بَنَتْ هَذِهِ الْكَنِيسَةَ هِنْدٌ أَمَةُ الْمَسِيحِ وَأُمُّ عَبْدِهِ).

وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ لَا تَجِدُ أَثَرًا يُذْكَرُ لِلنَّصْرَانِيَّةِ، وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ انْتِشَارِهَا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ: التَّعْقِيدَاتُ الَّتِي فِيهَا، لَا سِيَّمَا فِي بَابِ الْأُلُوهِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ، وَالْأُمُورُ الَّتِي يَزْعُمُ الْقُسُسُ أَنَّهَا مِنَ الْأَسْرَارِ، وَطَبِيعَةُ الْعَرَبِيِّ تَأْبَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا.

هَذَا مُجْمَلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الدِّينِيَّةِ لِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ عِنْدَمَا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

⁂

الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

وَأَمَّا الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ، فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْحُكْمِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ شَكْلَيْنِ مِنْ أَشْكَالِ الْحُكْمِ هُمَا:

- الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ.

- وَسِيَادَةُ الْقَبِيلَةِ.

فَالْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ: يَتَمَثَّلُ فِي قِيَامِ دُوَيْلَاتٍ فِي عَدَدٍ مِنْ أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَدَوْلَةِ الْمَنَاذِرَةِ فِي الْحِيرَةِ فِي طَرَفِ الْعِرَاقِ، وَدَوْلَةِ الْغَسَاسِنَةِ فِي بُصْرَىٰ فِي طَرَفِ الشَّامِ، وَدُوَلِ مَعِينٍ، وَسَبَأٍ، وَحِمْيَرَ فِي الْيَمَنِ جَنُوبَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَوْلَةِ كِنْدَةَ فِي وَسَطِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي نَجْدٍ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الدُّوَلَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الِاسْتِقْلَالِ؛ حَيْثُ وَقَعَتْ تَحْتَ تَأْثِيرِ النُّفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ الْمُتَمَثِّلِ فِي نُفُوذِ دَوْلَتَيِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ اللَّتَيْنِ تَقَاسَمَتَا الزَّعَامَةَ عَلَىٰ الْعَالَمِ آنَذَاكَ.

فَقَدْ قَبِلَ الْفُرْسُ مُنْذُ عَهْدِ أَرْدِشِيرَ الْعَرَبَ بِحُكْمِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ لِلْمَنَاطِقِ الْمُتَاخِمَةِ لِبِلَادِ الْعَرَبِ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ عَلَىٰ صَدِّ الْغَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ بِلَادِ الْفُرْسِ، وَلِيَجْعَلُوا مِنْهُمْ عَائِقًا أَمَامَ أَطْمَاعِ مُلُوكِ الرُّومِ الْمُنَافِسِينَ لَهُمْ، وَكَانَ الْمَنَاذِرَةُ آخِرَ مَنْ تَوَلَّىٰ الْحُكْمَ فِي الْحِيرَةِ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

كَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي الشَّامِ صَنَعَ الرُّومُ بَعْضَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِيَتَمَكَّنُوا بِهِمْ مِنْ صَدِّ غَارَاتِ الْعَرَبِ عَلَىٰ حُدُودِ دَوْلَتِهِمْ، وَلِيَتَّخِذُوهُمْ عُدَّةً ضِدَّ مُنَافِسِيهِمُ الْفُرْسِ، وَكَانَ الْغَسَاسِنَةُ آخِرَ مَنْ تَوَلَّىٰ الْحُكْمَ فِي أَطْرَافِ الشَّامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ بُصْرَىٰ قَاعِدَةً لَهُمْ.

أَمَّا فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ، فَقَدْ تَعَرَّضَتِ الْيَمَنُ فِي أَوَاخِرِ حُكْمِ دَوْلَةِ حِمْيَرَ لِسَيْطَرَةِ النُّفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ، فَقَدْ تَمَكَّنَ الْأَحْبَاشُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا حِينَمَا بَعَثُوا جُيُوشَهُمْ لاحْتِلَالِ الْيَمَنِ؛ رَدًّا عَلَىٰ مَا فَعَلَهُ ذُو نُوَاسٍ بِنَصَارَىٰ نَجْرَانَ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وَظَلَّتِ الْيَمَنُ تَحْتَ الِاحْتِلَالِ الْحَبَشِيِّ مُنْذُ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ حِينَمَا ضَعُفَ أَمْرُ الْأَحْبَاشِ بَعْدَ حَادِثَةِ الْفِيلِ، فَسَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِلْفُرْسِ بِالتَّدَخُّلِ عِنْدَمَا اسْتَنْجَدَ بِهِمْ بَعْضُ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَانْتَهَتْ سَيْطَرَةُ الْفُرْسِ عَلَىٰ الْيَمَنِ بِمَجِيءِ الْإِسْلَامِ حِينَمَا دَخَلَ آخِرُ حُكَّامِهِمْ بَاذَانُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

فَهَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنْ قِسْمَيِ الْحُكْمِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ **(الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ)**.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي، فَسِيَادَةُ الْقَبِيلَةِ: كَانَتْ مُعْظَمُ مَنَاطِقِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ خَاضِعَةً لِلسِّيَادَةِ الْقَبَلِيَّةِ؛ حَيْثُ تُعَدُّ الْقَبِيلَةُ الْوِحْدَةَ السِّيَاسِيَّةَ الَّتِي يَنْتَمِي لَهَا الْفَرْدُ

فَبِأَمْرِهَا يَأْتَمِرُ، وَتَحْكُمُهُ أَعْرَافُهَا، وَمِنْ أَجْلِهَا يُنَاضِلُ، وَعَنْ شَرَفِهَا يُدَافِعُ كَمَا أَنَّ الْقَبِيلَةَ بِأَسْرِهَا مَسْئُولَةٌ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ أَفْرَادِهَا، وَالذَّوْدِ عَنْ حُقُوقِهِمْ، وَعَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يَقِفَ مَعَ أَخِيهِ مِنْ قَبِيلَتِهِ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا.

حُكَّامُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ: كَانُوا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: مُلُوكٌ مُتَوَّجُونَ، -إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَانُوا غَيْرَ مُسْتَقِلِّينَ- وَرُؤَسَاءُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ وَالِامْتِيَازِ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ الْمُتَوَّجِينَ، وَمُعْظَمُ هَؤُلَاءِ كَانُوا عَلَىٰ تَمَامِ الِاسْتِقْلَالِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ لِبَعْضِهِمْ تَبَعِيَّةٌ لِمَلِكٍ مُتَوَّجٍ.

الْمُلُوكُ الْمُتَوَّجُونَ: مُلُوكُ الْيَمَنِ، وَمُلُوكُ مَشَارِفِ الشَّامِ، وَهُمْ آلُ غَسَّانَ، وَمُلُوكُ الْحِيرَةِ، وَمَا عَدَا هَؤُلَاءِ مِنْ حُكَّامِ الْجَزِيرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ تِيجَانٌ، وَهَذَا مُوجَزٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ.

* **الْمُلْكُ بِالْيَمَنِ**: مِنْ أَقْدَمِ الشُّعُوبِ الَّتِي عُرِفَتْ بِالْيَمَنِ مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ قَوْمُ سَبَأٍ، وَقَدْ عُثِرَ عَلَىٰ ذِكْرِهِمْ فِي حَفْرِيَّاتِ أُورَ بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَيَبْدَأُ ازْدِهَارُ حَضَارَاتِهِمْ، وَنُفُوذُ سُلْطَانِهِمْ، وَبَسْطُ سَيْطَرَتِهِمْ بِأَحَدَ عَشَرَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، **وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ أَدْوَارِهِمْ حَسَبَ التَّقْدِيرِ الْآتِي**:

مَا بَيْنَ ثَلَاثِمِئَةٍ وَأَلْفٍ إِلَىٰ عِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِالدَّوْلَةِ الْمَعِينِيَّةِ، ظَهَرَتْ فِي الْجَوْفِ بِالسَّهْلِ الْوَاقِعِ بَيْنَ نَجْرَانَ وَحَضْرَمَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَنْمُو، وَتَتَّسِعُ، وَتُسَيْطِرُ، وَتَزْدَهِرُ حَتَّىٰ بَلَغَ نُفُوذُهَا

السِّيَاسِيُّ إِلَىٰ الْعُلَا وَمَعَانٍ مِنْ شَمَالِيِّ الْحِجَازِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مُسْتَعْمَرَاتِهَا وَصَلَتْ إِلَىٰ خَارِجِ بِلَادِ الْعَرَبِ!

وَكَانَتِ التِّجَارَةُ صُلْبَ مَعِيشَتِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَنَوْا سَدَّ مَأْرِبَ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي تَارِيخِ الْيَمَنِ، وَالَّذِي وَفَّرَ لَهُمْ مُعْظَمَ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.

كَانَ مُلُوكُهُمْ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ يُلَقَّبُونَ بِـ(**مَكْرِبِ سَبَأٍ**)، وَكَانَتْ عَاصِمَتُهُمْ مَدِينَةَ (**صِرْوَاح**) الَّتِي تُوجَدُ أَنْقَاضُهَا عَلَىٰ بُعْدِ خَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا إِلَىٰ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مَدِينَةِ مَأْرِبَ، وَعَلَىٰ بُعْدِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَةٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ شَرْقِيَّ صَنْعَاءَ، وَتُعْرَفُ بِاسْمِ: (**خُرَيْبَةَ**)، وَيُقَدَّرُ عَدَدُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ، وَسِتَّةٍ وَعِشْرِينَ مَلِكًا.

الْفَتْرَةُ مَا بَيْنَ عِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ خَمْسَةَ عَشَرَ وَمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِدَوْلَةِ سَبَأٍ، تَرَكُوا لَقَبَ مَكْرِبٍ، وَعُرِفُوا بِـ(مُلُوكِ سَبَأٍ)، وَاتَّخَذُوا مَأْرِبَ عَاصِمَةً لَهُمْ بَدَلَ صِرْوَاحَ، وَتُوجَدُ أَنْقَاضُ مَأْرِبَ عَلَىٰ بُعْدِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ شَرْقِيَّ صَنْعَاءَ.

مُنْذُ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ سَنَةِ ثَلَاثِ مِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتِ الدَّوْلَةُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِالدَّوْلَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ الْأُولَىٰ؛ لِأَنَّ قَبِيلَةَ حِمْيَرَ غَلَبَتْ وَاسْتَقَلَّتْ بِمَمْلَكَةِ سَبَأٍ، وَقَدْ عُرِفَ مُلُوكُهَا بِمُلُوكِ سَبَأٍ، وَذِي رِيدَانَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ اتَّخَذُوا

مَدِينَةَ رِيدَانَ عَاصِمَةً لَهُمْ بَدَلَ مَدِينَةِ مَأْرِبَ، وَتُعْرَفُ بِاسْمِ ظُفَارَ، وَتُوجَدُ أَنْقَاضُهَا عَلَىٰ جَبَلٍ مُدَوَّرٍ بِالْقُرْبِ مِنْ يَرِيمَ، وَفِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بَدَأَ فِيهِمُ السُّقُوطُ وَالِانْحِطَاطُ؛ فَقَدْ فَشِلَتْ تِجَارَتُهُمْ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ لِبَسْطِ الْأَنْبَاطِ سَيْطَرَتَهُمْ عَلَىٰ شَمَالِ الْحِجَازِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِغَلَبَةِ الرُّومَانِ عَلَىٰ طَرِيقِ التِّجَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ بَعْدَ نُفُوذِ سُلْطَانِهِمْ عَلَىٰ مِصْرَ، وَسُورِيَّا وَشَمَالِيِّ الْحِجَازِ ثَانِيًا، وَلِتَنَافُسِ الْقَبَائِلِ فِيمَا بَيْنَهَا ثَالِثًا، هَذِهِ الْعَنَاصِرُ هِيَ الَّتِي سَبَّبَتْ تَفَرُّقَ آلِ قَحْطَانَ، وَتَسَبَّبَتْ فِي هِجْرَتِهِمْ إِلَىٰ الْبِلَادِ الشَّاسِعَةِ.

مُنْذُ سَنَةِ ثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ أَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامُ الْيَمَنَ عُرِفَتِ الدَّوْلَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالدَّوْلَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَعُرِفَ مُلُوكُهَا بِمُلُوكِ سَبَأٍ، وَذِي رِيدَانَ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَيَامِنْتَ.

وَقَدْ تَوَالَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الِاضْطِرَابَاتُ وَالْحَوَادِثُ، وَتَتَابَعَتِ الِانْقِلَابَاتُ وَالْحُرُوبُ الْأَهْلِيَّةُ الَّتِي جَعَلَتْهَا عُرْضَةً لِلْأَجَانِبِ حَتَّىٰ قُضِيَ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهَا؛ فَفِي ذَلِكَ الْعَهْدِ دَخَلَ الرُّومَانُ عَدَنَ، وَبِمَعُونَتِهِمُ احْتَلَّتِ الْأَحْبَاشُ الْيَمَنَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ مُسْتَغِلِّينَ التَّنَافُسَ بَيْنَ قَبِيلَتَيْ هَمْدَانَ، وَحِمْيَرَ، وَاسْتَمَرَّ احْتِلَالُهُمْ إِلَىٰ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ، ثُمَّ نَالَتِ الْيَمَنُ اسْتِقْلَالَهَا، وَلَكِنْ بَدَأَتْ تَقَعُ الثُّلْمَاتُ فِي سَدِّ مَأْرِبَ حَتَّىٰ وَقَعَ السَّيْلُ الْعَظِيمُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ بِـ(**سَيْلِ الْعَرِمِ**) فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ، أَوْ إِحْدَىٰ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ، وَكَانَتْ حَادِثَةً كُبْرَىٰ أَدَّتْ إِلَىٰ خَرَابِ الْعُمْرَانِ، وَتَشَتُّتِ الشُّعُوبِ.

فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ قَادَ ذُو نُوَاسٍ الْيَهُودِيُّ حَمْلَةً مُنْكَرَةً عَلَىٰ النَّصَارَىٰ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ، وَحَاوَلَ صَرْفَهُمْ عَنِ النَّصْرَانِيَّةِ قَسْرًا، وَلَمَّا أَبَوْا خَدَّ لَهُمُ الْأُخْدُودَ، وَأَلْقَاهُمْ فِي النِّيرَانِ، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

كَانَ هَذَا الْحَادِثُ السَّبَبَ فِي نِقْمَةِ النَّصْرَانِيَّةِ النَّاشِطَةِ إِلَىٰ الْفَتْحِ وَالتَّوَسُّعِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَبَاطِرَةِ الرُّومَانِ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ، فَقَدْ حَرَّضُوا الْأَحْبَاشَ، وَهَيَّئُوا لَهُمُ الْأُسْطُولَ الْبَحْرِيَّ، فَنَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفَ جُنْدِيٍّ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَاحْتَلُّوا الْيَمَنَ مَرَّةً ثَانِيَةً بِقِيَادَةِ أَرْيَاطَ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ، وَظَلَّ أَرْيَاطُ حَاكِمًا مِنْ قِبَلِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ حَتَّىٰ اغْتَالَهُ أَبْرَهَةُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْأَشْرَمُ أَحَدُ قُوَّادِ الْحَبَشَةِ، وَقُوَّادِ أَرْيَاطَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَأَرْبَعِينَ، وَخَمْسِمِئَةٍ، وَنَصَّبَ نَفْسَهُ حَاكِمًا عَلَىٰ الْيَمَنِ بَعْدَ أَنِ اسْتَرْضَىٰ مَلِكَ الْحَبَشَةِ وَأَرْضَاهُ.

وَأَبْرَهَةُ هَذَا هُوَ الَّذِي جَنَّدَ الْجُنُودَ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ، وَعُرِفَ هُوَ وَجُنُودُهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَقَدْ أَهْلَكَهُ اللهُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَىٰ صَنْعَاءَ عَقِبَ وَقْعَةِ الْفِيلِ، فَخَلَفَهُ عَلَىٰ الْيَمَنِ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ الِابْنُ الثَّانِي مَسْرُوقٌ، وَكَانَا -فِيمَا يُقَالُ- شَرًّا مِنْ أَبِيهِمَا، وَأَخْبَثَ سِيرَةً مِنْهُ فِي اضْطِهَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَقَهْرِهِمْ، وَإِذْلَالِهِمْ.

أَمَّا أَهْلُ الْيَمَنِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ وَقْعَةِ الْفِيلِ اسْتَنْجَدُوا بِالْفُرْسِ، وَقَامُوا بِمُقَاوَمَةِ الْحَبَشَةِ حَتَّىٰ أَجْلَوْهُمْ عَنِ الْبِلَادِ، وَنَالُوا الِاسْتِقْلَالَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ بِقِيَادَةِ مَعْدِي كَرِبَ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ الْحِمْيَرِيِّ، وَاتَّخَذُوهُ مَلِكًا لَهُمْ.

وَكَانَ مَعْدِيكَرِبُ أَبَقَىٰ مَعَهُ جَمْعًا مِنَ الْحَبَشَةِ يَخْدُمُونَهُ، وَيَمْشُونَ فِي رِكَابِهِ، فَاغْتَالُوهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَبِمَوْتِهِ انْقَطَعَ الْمُلْكُ عَنْ بَيْتِ ذِي يَزَنَ، وَصَارَتِ الْيَمَنُ مُسْتَعْمَرَةً فَارِسِيَّةً تَتَعَاقَبُ عَلَيْهَا وُلَاةٌ مِنَ الْفُرْسِ، كَانَ أَوَّلُهُمْ: وَهْرِزَ، ثُمَّ الْمَرْزُبَانُ بْنُ وهْرِزَ، ثُمَّ ابْنُهُ التَّيْنِجَانُ، ثُمَّ خِسْرُو وَلَدُهُ ثُمَّ بَاذَنُ، وَكَانَ آخِرَ وُلَاةِ الْفُرْسِ؛ لِأَنَّهُ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَبِإِسْلَامِهِ انْتَهَىٰ نُفُوذُ فَارِسَ عَلَىٰ بِلَادِ الْيَمَنِ.

فِي تَارِيخِ تَعْيِينِ السِّنِينَ وَتَفْصِيلِ الْحَوَادِثِ اخْتِلَافٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ عَنْ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ: إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

* **أَمَّا الْمُلْكُ بِالْحِيرَةِ:** فَقَدْ كَانَتِ الْفُرْسُ تَحْكُمُ بِلَادَ الْعِرَاقِ، وَمَا جَاوَرَهَا مُنْذُ أَنْ جَمَعَ شَمْلَهُمْ أُورَشُ الْكَبِيرُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُنَاوِئُهُمْ حَتَّىٰ قَامَ الْإِسْكَنْدَرُ الْمَقْدُونِيُّ سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ فَهَزَمَ مَلِكَهُمْ دَارًا، وَبَدَّدَهُمْ، وَخَضَدَ شَوْكَتَهُمْ حَتَّىٰ تَجَزَّأَتْ بِلَادُهُمْ، وَتَوَلَّاهَا مُلُوكٌ عُرِفُوا بِمُلُوكِ الطَّوَائِفِ.

وَقَدْ ظَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ يَحْكُمُونَ الْبِلَادَ مُجَزَّأَةً إِلَىٰ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَمِئَتَيْنِ مِنَ الْمِيلَادِ، وَفِي عَهْدِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ هَاجَرَ الْقَحْطَانِيُّونَ، وَاحْتَلُّوا جُزْءًا مِنْ رِيفِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ لَحِقَهُمْ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْعَدْنَانِيِّينَ، فَزَاحَمُوهُمْ حَتَّىٰ سَكَنُوا جُزْءًا مِنَ الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ: هُوَ مَالِكُ بْنُ فَهْمٍ التَّنُوخِيُّ مِنْ

آلِ قَحْطَانَ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ الْأَنْبَارَ أَوْ مِمَّا يَلِي الْأَنْبَارَ، وَخَلَفَهُ أَخُوهُ عَمْرُو بْنُ فَهْمٍ -فِي رِوَايَةٍ- وَجَذِيمَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ فَهْمٍ، وَهُوَ الْمُلَقَّبُ بِالْأَبْرَشِ وَالْوَضَّاحِ -فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ-.

عَادَتِ الْقُوَّةُ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَىٰ الْفُرْسِ فِي عَهْدِ أَرْدِشِيرَ بْنِ بَابَكَ، مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ السَّاسَانِيَّةِ سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَمِئَتَيْنِ مِنَ الْمِيلَادِ، جَمَعَ شَمْلَ الْفُرْسِ، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الْعَرَبِ الْمُقِيمِينَ عَلَىٰ تُخُومِ مُلْكِهِ، وَكَانَ هَذَا سَبَبًا فِي رَحِيلِ قُضَاعَةَ إِلَىٰ الشَّامِ، وَلَكِنْ دَانَ لَهُ أَهْلُ الْحِيرَةِ وَالْأَنْبَارِ.

فِي عَهْدِ أَرْدِشِيرَ كَانَتْ وَلَايَةُ جَذِيمَةَ الْوَضَّاحِ عَلَىٰ الْحِيرَةِ، وَسَائِرِ مَنْ بِبَادِيَةِ الْعِرَاقِ وَالْجَزِيرَةِ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، وَكَأَنَّ أَرْدِشِيرَ رَأَىٰ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ الْعَرَبَ مُبَاشَرَةً، وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَىٰ تُخُومِ مُلْكِهِ إِلَّا أَنْ يُمَلِّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ تُؤَيِّدُهُ وَتَمْنَعُهُ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ يُمْكِنُهُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ عَلَىٰ مُلُوكِ الرُّومَانِ الَّذِينَ كَانَ يَتَخَوَّفُهُمْ؛ وَلِيَكُونَ عَرَبُ الْعِرَاقِ أَمَامَ عَرَبِ الشَّامِ الَّذِينَ اصْطَنَعَهُمْ مُلُوكُ الرُّومَانِ؛ فَالْأَمْرُ قَدِيمٌ، قَدِيمٌ جِدًّا، بِجَعْلِ هَؤُلَاءِ ضِدَّ هَؤُلَاءِ، اسْتِعْمَالِ هَؤُلَاءِ لِمُحَارَبَةِ هَؤُلَاءِ، وَتَفْرِيقِهِمْ وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمْ، وَتَقْرِيبِ هَؤُلَاءِ، وَتَبْعِيدِ هَؤُلَاءِ، هَذَا أَمْرٌ قَدِيمٌ، وَلَكِنْ مَنْ يَتَعَلَّمُ!

السَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ!

لِيَكُونَ عَرَبُ الْعِرَاقِ أَمَامَ عَرَبِ الشَّامِ الَّذِينَ اصْطَنَعَهُمْ مُلُوكُ الرُّومَانِ،

وَكَانَ يَبْقَىٰ عِنْدَ مَلِكِ الْحِيَرَةِ كَتِيبَةٌ مِنْ جُنُودِ الْفُرْسِ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَىٰ الْخَارِجِينَ عَنْ سُلْطَانِهِ مِنْ عَرَبِ الْبَادِيَةِ، وَكَانَ مَوْتُ جَذِيمَةَ حَوَالَيْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَمِئَتَيْنِ.

بَعْدَ مَوْتِ جَذِيمَةَ وَلِيَ الْحِيرَةَ وَالْأَنْبَارَ عَمْرُو بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَصْرٍ اللَّخْمِيُّ أَوَّلُ مُلُوكِ اللَّخْمِيِّينَ، وَأَوَّلَ مَنِ اتَّخَذَ الْحِيرَةَ مَقرًّا لَهُ، وَكَانَ فِي عَهْدِ كِسْرَىٰ سَابُورِ بْنِ أَرْدِشِيرَ. ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْمُلُوكُ مِنَ اللَّخْمِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ يَتَوَلَّوْنَ الْحِيرَةَ حَتَّىٰ وَلِّي الْفُرْسُ قُبَاذُ بْنُ فَيْرُوزٍ، وَفِي عَهْدِهِ ظَهَرَ مَزْدَكُ، وَقَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ فَتَبِعَهُ قُبَاذُ كَمَا تَبِعَهُ كَثِيرٌ مِنْ رَعِيَّتِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ قِبَابٌ إِلَىٰ مَلِكِ الْحِيرَةِ، وَهُوَ الْمُنْذِرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ اخْتِيَارِ هَذَا الْمَذْهَبِ الْخَبِيثِ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِ حَمِيَّةً، وَأَنَفَةً فَعَزَلَهُ قُبَاذُ، وَوَلَّىٰ بَدَلَهُ الْحَارِثَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيَّ بَعْدَ أَنْ أَجَابَ دَعْوَتَهُ إِلَىٰ الْمَذْهَبِ الْمَزْدَكِيِّ.

الْمَذْهَبُ الْمَزْدَكِيُّ: مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ فِي النِّسَاءِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مُحَرَّمَاتٌ بِإِطْلَاقٍ، وَإِنَّمَا هِيَ الْإِبَاحِيَّةُ بِإِطْلَاقٍ، فَحَتَّىٰ الْعَرَبُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ -مِنْهُمْ- مَنْ أَنِفَ أَنْ يَتَّبِعَ هَذَا الْمَذْهَبَ، وَرَدَّهُ حَمِيَّةً حَتَّىٰ وَلَوْ عُزِلَ عَنْ مُلْكِهِ.

خَلَفَ قُبَاذَ كِسْرَىٰ أَنُوشِرْوَانَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْمَزْدَكِيَّةَ جِدًّا فَقَتَلَ الْمَزْدَكَ، وَكَثِيرًا مِمَّنْ دَانَ بِمَذْهَبِهِ، وَأَعَادَ الْمُنْذِرَ إِلَىٰ وَلَايَةِ الْحِيرَةِ، وَطَلَبَ الْحَارِثَ بْنَ

عَمْرٍو لَكِنَّهُ أَفْلَتَ إِلَىٰ دَارِ كَلْبٍ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ حَتَّىٰ مَاتَ.

اسْتَمَرَّ الْمُلْكُ بَعْدَ مَاءِ السَّمَاءِ فِي عَقِبِهِ، حَتَّىٰ كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ؛ فَإِنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهِ كِسْرَىٰ بِسَبَبِ وِشَايَةٍ دَبَّرَهَا زَيْدُ بْنُ عَدِيٍّ الْعِبَادِيُّ، فَأَرْسَلَ كِسْرَىٰ إِلَىٰ النُّعْمَانِ يَطْلُبُهُ، فَخَرَجَ نُعْمَانُ حَتَّىٰ نَزَلَ سِرًّا عَلَىٰ هَانِئِ بْنِ مَسْعُودٍ سَيِّدِ آلِ شَيْبَانَ، وَأَوْدَعَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، فَحَبَسَهُ كِسْرَىٰ حَتَّىٰ مَاتَ، وَوَلَّىٰ عَلَىٰ الْحِيرَةِ بَدَلَهُ إِيَاسَ بْنَ قَبِيصَةَ الطَّائِيَّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَىٰ هَانِئِ بْنِ مَسْعُودٍ يَطْلُبُ مِنْهُ تَسْلِيمَ مَا عِنْدَهُ، فَأَبَىٰ ذَلِكَ هَانِئٌ حَمِيَّةً، وَآذَنَ الْمَلِكَ بِالْحَرْبِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْهُ مَرَازِبَةُ كِسْرَىٰ وَكَتَائِبُهُ فِي مَوْكِبِ إِيَاسٍ، وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ عِنْدَ ذِي قَارٍ، انْتَصَرَ فِيهَا بَنُو شَيْبَانَ، وَانْهَزَمَتِ الْفُرْسُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ.

وَهَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَرَ فِيهِ الْعَرَبُ عَلَىٰ الْعَجَمِ هُوَ يَوْمُ ذِي قَارٍ، وَهُوَ بَعْدَ مِيلَادِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي تَحْدِيدِ زَمَنِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ:

فَقِيلَ: هُوَ بَعْدَ مِيلَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقَلِيلٍ، وَأَنَّهُ ﷺ وُلِدَ لِثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَلَايَةِ إِيَاسِ بْنِ قَبِيصَةَ عَلَىٰ الْحِيرَةِ.

وَقِيلَ: قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِقَلِيلٍ وَهُوَ الْأَقْرَبُ.

وَقِيلَ: بَعْدَ النُّبُوَّةِ بِقَلِيلٍ.

وَقِيلَ: بَعْدَ الْهِجْرَةِ.

وَقِيلَ: بَعْدَ بَدْرٍ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَوَلَّىٰ كِسْرَىٰ عَلَىٰ الْحِيرَةِ بَعْدَ إِيَاسٍ حَاكِمًا فَارِسِيًّا ظَلَّ يَحْكُمُ سبْعَةَ عَشَرَ عَامًا، ثُمَّ عَادَ الْمُلْكُ إِلَىٰ آلِ لَخْمٍ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَتَوَلَّىٰ مِنْهُمُ الْمُنْذِرُ بْنُ النُّعْمَانِ الْمُلَقَّبُ بِالْمَغْرُورِ، وَلَكِنْ لَمْ تَزِدْ وَلَايَتُهُ عَلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِعَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ.

* **وَأَمَّا الْمُلْكُ بِالشَّامِ:** فَفِي الْعَهْدِ الَّذِي مَاجَتْ فِيهِ الْعَرَبُ بِهِجْرَاتِ الْقَبَائِلِ سَارَتْ بُطُونٌ مِنْ قُضَاعَةَ إِلَىٰ مَشَارِفِ الشَّامِ، وَسَكَنَتْ بِهَا، وَكَانُوا مِنْ بَنِي سُلَيْحِ بْنِ حُلْوَانَ الَّذِينَ مِنْهُمُ الضَّجَاعِمَةُ، اصْطَنَعَهُمُ الرُّومَانُ لِيَمْنَعُوا عَرَبَ الْبَرِّيَّةِ مِنَ الْعَبَثِ، وَلِيَكُونُوا عُدَّةً ضِدَّ الْفُرْسِ، وَوَلَّوْا مِنْهُمْ مَلِكًا، ثُمَّ تَعَاقَبَ الْمُلْكُ فِيهِمْ سِنِينَ.

وَمِنْ أَشْهَرِ مُلُوكِهِمْ: زِيَادُ بْنُ الْهَبُولَةِ، وَيُقَدَّرُ زَمَانُهُمْ مِنْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمِيلَادِيِّ إِلَىٰ نِهَايَتِهِ تَقْرِيبًا، انْتَهَتْ وَلَايَتُهُمْ بَعْدَ قُدُومِ آلِ غَسَّانَ الَّذِينَ غَلَبُوا الضَّجَاعِمَةَ عَلَىٰ مَا بِيَدِهِمْ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، فَوَلَّتْهُمُ الرُّومُ مُلُوكًا عَلَىٰ عَرَبِ الشَّامِ، وَكَانَتْ قَاعِدَتُهُمْ مَدِينَةَ بُصْرَىٰ.

وَلَمْ تَزَلْ تَتَوَالَىٰ الْغَسَاسِنَةُ عَلَىٰ الشَّامِ بِصِفَتِهِمْ عُمَّالًا لِمُلُوكِ الرُّومِ حَتَّىٰ كَانَتْ وَقْعَةُ (الْيَرْمُوكِ) فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَانْقَادَ لِلْإِسْلَامِ آخِرُ مُلُوكِهِمْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

● ● ●

الْحُكْمُ وَالْإِمَارَةُ فِي الْعَرَبِ

وَأَمَّا الْإِمَارَةُ بِالْحِجَازِ: فَقَدْ وَلِيَ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام زَعَامَةَ مَكَّةَ، وَوِلَايَةَ الْبَيْتِ طُولَ حَيَاتِهِ، وَتُوُفِّيَ وَلَهُ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ وَمِئَةٌ مِنَ السِّنِينَ.

ثُمَّ وَلِيَ وَاحِدٌ -وَقِيلَ: اثْنَانِ- مِنْ أَبْنَائِهِ نَابِتٌ ثُمَّ قَيْدَارُ، وَيُقَالُ الْعَكْسُ، ثُمَّ أَمَرَ مَكَّةَ بَعْدَهُمَا جَدُّهُمَا مُضَاضُ بْنُ عَمْرٍو الْجُرْهُمِيُّ، فَانْتَقَلَتْ زَعَامَةُ مَكَّةَ إِلَىٰ جُرْهُمٍ، وَظَلَّتْ فِي أَيْدِيهِمْ.

وَكَانَ لِأَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ مَرْكَزٌ مُحْتَرَمٌ؛ لِمَا لِأَبِيهِمْ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ، مَضَتِ الدُّهُورُ وَالْأَيَّامُ، وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام ضَئِيلًا لَا يُذْكَرُ حَتَّىٰ ضَعُفَ أَمْرُ جُرْهُمٍ قُبَيْلَ ظُهُورِ بُخْتُنُصَّرَ، وَأَخَذَ نَجْمُ عَدْنَانَ السِّيَاسِيُّ يَتَأَلَّقُ فِي أُفُقِ سَمَاءِ مَكَّةَ مُنْذُ ذَلِكَ الْعَصْرِ؛ بِدَلِيلِ مَا جَاءَ بِمُنَاسَبَةِ غَزْوِ بُخْتُنُصَّرَ لِلْعَرَبِ فِي ذَاتِ عِرْقٍ، فَإِنَّ قَائِدَ الْعَرَبِ فِي الْمَوْقِعَةِ لَمْ يَكُنْ جُرْهُمِيًّا، بَلْ كَانَ عَدْنَانَ نَفْسَهُ.

تَفَرَّقَتْ بَنُو عَدْنَانَ إِلَىٰ الْيَمَنِ عِنْدَ غَزْوَةِ بُخْتُنُصَّرَ الثَّانِيَةِ، وَذَهَبَ بَرْخِيَا صَاحِبُ يَرْمِيَاهُ النَّبِيِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ بِمَعَدٍّ إِلَىٰ حَرَّانَ مِنَ الشَّامِ، فَلَمَّا انْكَشَفَ ضَغْطُ بُخْتُنُصَّرَ رَجَعَ مَعَدٌّ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْ جُرْهُمٍ إِلَّا جَوْهَمَ بْنَ جُلْهُمَةَ، فَتَزَوَّجَ

بِبِنْتِهِ مُعَانَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ نِزَارًا، نِزَارُ بْنُ عَدْنَانَ.

صَارَ أُمَرَاءُ جُرْهُمٍ بِمَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنَ السُّوءِ وَضِيقِ الْحَالِ، وَظَلَمُوا الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا، وَاسْتَحَلُّوا مَالَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ يَغِيظُ الْعَدْنَانِيِّينَ، وَيُثِيرُ حَفَائِظَهُمْ.

وَلَمَّا نَزَلَتْ خُزَاعَةُ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، وَرَأَتْ نُفُورَ الْعَدْنَانِيِّينَ مِنَ الْجَرَاهِمَةِ اسْتَغَلَّتْ ذَلِكَ فَقَامَتْ بِمَعُونَةٍ مِنْ بُطُونِ عَدْنَانَ، وَهُمْ بَنُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ كِنَانَةَ بِمُحَارَبَةِ جُرْهُمٍ حَتَّىٰ أَجْلَتْهُمْ عَنْ مَكَّةَ، وَاسْتَوْلَتْ خُزَاعَةُ عَلَىٰ حُكْمِهَا فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْمِيلَادِ.

لَمَّا لَجَأَتْ جُرْهُمٌ إِلَىٰ الْجَلَاءِ سَدُّوا بِئْرَ زَمْزَمَ، وَدَرَسُوا مَوْضِعَهَا، وَدَفَنُوا فِيهَا عِدَّةَ أَشْيَاءَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَعَادَ حَفْرَ زَمْزَمَ؛ فَما كَانَ سَبَبُ رَدْمِهَا؟ وَكَيْفَ غُيِّبَ مَوْضِعُهَا عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهَا، وَكَانُوا الْقَائِمِينَ عَلَىٰ شَأْنِهَا؟

لَمَّا لَجَأَتْ جُرْهُمٌ إِلَىٰ الْجَلَاءِ سَدُّوا بِئْرَ زَمْزَمَ، وَدَرَسُوا مَوْضِعَهَا، وَدَفَنُوا فِيهَا عِدَّةَ أَشْيَاءَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مُضَاضٍ الْجُرْهُمِيُّ بِغَزَالَيِ الْكَعْبَةِ، وَبِحَجَرِ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، فَدَفَنَهُمَا فِي بِئْرِ زَمْزَمَ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُرْهُمٍ إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَحَزِنُوا عَلَىٰ مَا فَارَقُوا مِنْ أَمْرِ مَكَّةَ وَمُلْكِهَا حُزْنًا شَدِيدًا، وَفِي

ذَلِكَ قَالَ عَمْرٌو:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَىٰ الصَّفَا
أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَىٰ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا
صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

وَيُقَدَّرُ زَمَنُ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِعِشْرِينَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، فَتكُونُ إِقَامَةُ جُرْهُمٍ فِي مَكَّةَ وَاحِدًا وَعِشْرِينَ قَرْنًا تَقْرِيبًا، وَحُكْمُهُمْ عَلَىٰ مَكَّةَ زُهَاءَ عِشْرِينَ قَرْنًا.

اسْتَبَدَّتْ خُزَاعَةُ بِأَمْرِ مَكَّةَ دُونَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ إِلَىٰ قَبَائِلِ مُضَرَ ثَلَاثُ خِلَالٍ:

الْأُولَىٰ: الدَّفْعُ بِالنَّاسِ مِنْ عَرَفَةَ إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ، وَالْإِجَازَةُ بِهِمْ يَوْمَ النَّفْرِ مِنْ مِنًىٰ، وَكَانَ يَلِي ذَلِكَ بَنُو الْغَوْثِ بْنِ مُرَّةَ مِنْ بُطُونِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ صُوفَةَ.

وَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْإِجَازَةِ: أَنَّ النَّاسَ كَانَ لَا يَرْمُونَ يَوْمَ النَّفْرِ حَتَّىٰ يَرْمِيَ رَجُلٌ مِنْ صُوفَةَ، ثُمَّ إِذَا فَرَغَ النَّاسُ مِنَ الرَّمْيِ وَأَرَادُوا النَّفْرَ مِنْ مِنًىٰ، أَخَذَتْ صُوفَةُ بِجَانِبَي الْعَقَبَةِ، فَلَمْ يَجُزْ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَمُرُّوا هُمْ، ثُمَّ يُخَلُّونَ سَبِيلَ النَّاسِ، فَلَمَّا انْقَرَضَتْ صُوفَةُ، وَرِثَهُمْ بَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةٍ مِنْ تَمِيمٍ.

الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: الْإِفَاضَةُ مِنْ جَمْعٍ غَدَاةَ النَّحْرِ إِلَىٰ مِنًىٰ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي عُدْوَانَ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنْسَاءُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَكَانَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ.

اسْتَمَرَّتْ وَلَايَةُ خُزَاعَةَ عَلَىٰ مَكَّةَ ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ، وَفِي وَقْتِ حُكْمِهِمُ انْتَشَرَ الْعَدْنَانِيُّونَ فِي نَجْدٍ، وَأَطْرَافِ الْعِرَاقِ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَبَقِيَ بِأَطْرُقِ مَكَّةَ بُطُونٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ حُلُولٌ، وَصِرْمٌ مُتَقَطِّعُونَ، وَبُيُوتَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ مَكَّةَ وَلَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ شَيْءٌ حَتَّىٰ جَاءَ قُرَيْشُ بْنُ كِلَابٍ.

يُذْكَرُ مِنْ أَمْرِ قُصَيٍّ: أَنَّ أَبَاهُ مَاتَ، وَهُوَ فِي حِجْرِ أُمِّهِ، وَنَكَحَ أُمَّهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ حَرَامٍ، فَاحْتَمَلَهَا إِلَىٰ بِلَادِهِ بِأَطْرَافِ الشَّامِ، فَلَمَّا شَبَّ قُصَيٌّ رَجَعَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَكَانَ وَالِيهَا إِذَّاكَ حُلَيْلُ بْنُ الْحَبَشِيَّةِ مِنْ خُزَاعَةَ، فَخَطَبَ قُصَيٌّ إِلَىٰ حُلَيْلٍ ابْنَتَهُ حُبَّىٰ، فَرَغِبَ فِيهِ حُلَيْلٌ، وَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا، لَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ قَامَتْ حَرْبٌ بَيْنَ خُزَاعَةَ وَقُرَيْشٍ أَدَّتْ أَخِيرًا إِلَىٰ تَغَلُّبِ قُصَيٍّ عَلَىٰ أَمْرِ مَكَّةَ، وَالْبَيْتِ.

هُنَاكَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ فِي بَيَانِ سَبَبِ هَذِهِ الْحَرْبِ:

الْأُولَىٰ: أَنَّ قُصَيًّا لَمَّا انْتَشَرَ وَلَدُهُ، وَكَثُرَ مَالُهُ، وَعَظُمَ شَرَفُهُ، وَهَلَكَ حُلَيْلٌ

رَأَىٰ أَنَّهُ أَوْلَىٰ بِمَكَّةَ، وَبِأَمْرِ الْكَعْبَةِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَبَنِي بَكْرٍ، وَأَنَّ قُرَيْشًا هُمْ رُءُوسُ آلِ إِسْمَاعِيلَ، وَصَرِيحُهُمْ، فَكَلَّمَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَنِي كِنَانَةَ فِي إِخْرَاجِ خُزَاعَةَ، وَبَنِي بَكْرٍ عَنْ مَكَّةَ فَأَجَابُوهُ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ حُلَيْلًا -فِيمَا تَزْعُمُ خُزَاعَةُ- أَوْصَىٰ قُصَيًّا بِالْقِيَامِ عَلَىٰ الْكَعْبَةِ، وَبِأَمْرِ مَكَّةَ، لَكِنْ أَبَتْ خُزَاعَةُ أَنْ تُمْضِيَ ذَلِكَ لِقُصَيٍّ، فَهَاجَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا.

الرِّوَايَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ حُلَيْلًا أَعْطَىٰ ابْنَتَهُ حُبَّىٰ وَلَايَةَ الْبَيْتِ، وَاتَّخَذَ أَبَا غُبْشَانَ الْخُزَاعِيَّ وَكِيلًا لَهَا، فَقَامَ أَبُو غُبْشَانَ بِسِدَانَةِ الْكَعْبَةِ نِيَابَةً عَنْ حُبَّىٰ، وَكَانَ فِي عَقْلِهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ خَدَعَهُ قُصَيٌّ، وَاشْتَرَىٰ مِنْهُ وَلَايَةَ الْبَيْتِ بِأَذْوادٍ مِنَ الْإِبِلِ أَوْ بِزِقٍّ مِنَ الْخَمْرِ، وَلَمْ تَرْضَ خُزَاعَةُ بِهَذَا الْبَيْعِ، وَحَاوَلُوا مَنْعَ قُصَيٍّ عَنِ الْبَيْتِ، فَجَمَعَ قُصَيٌّ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ؛ لِإِخْرَاجِ خُزَاعَةَ مِنْ مَكَّةَ فَأَجَابُوهُ.

وَأَيًّا مَا كَانَ فَلَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ، وَفَعَلَتْ صُوفَةُ مَا كَانَت تَفْعَلُ أَتَاهُمْ قُصَيٌّ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكِنَانَةَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ فَقَالَ: نَحْنُ أَوْلَىٰ بِهَذَا مِنْكُمْ.

فَقَاتَلُوهُ، فَغَلَبَهُمْ قُصَيٌّ عَلَىٰ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ، وَانْحَازَتْ عِنْدَ ذَلِكَ خُزَاعَةُ، وَبَنُو بَكْرٍ عَنْ قُصَيٍّ فَبَادَأَهُمْ قُصَيٌّ، وَأَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ فَالْتَقَوْا، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّىٰ كَثُرَتِ الْقَتْلَىٰ فِي الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا.

ثُمَّ تَدَاعَوْا إِلَىٰ الصُّلْحِ، فَحَكَّمُوا يَعْمُرَ بْنَ عَوْفٍ أَحَدَ بَنِي بَكْرٍ، فَقَضَىٰ:

بِأَنَّ قُصَيًّا أَوْلَىٰ بِالْكَعْبَةِ، وَبِأَمْرِ مَكَّةَ مِنْ خُزَاعَةَ.

وَأَنَّ كُلَّ دَمٍ أَصَابَهُ قُصَيٌّ مِنْهُمْ فَمَوْضُوعٌ يَشْدَخُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

وَمَا أَصَابَتْ خُزَاعَةُ، وَبَنُو بَكْرٍ فَفِيهِ الدِّيَةُ.

وَأَنْ يُخَلَّىٰ بَيْنَ قُصَيٍّ، وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ.

فَسُمِّيَ يَعْمُرُ يَوْمَئِذٍ: بِالشَّدَّاخِ.

كَانَتْ فَتْرَةُ تَوَلِّي خُزَاعَةَ لِأَمْرِ الْبَيْتِ ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ، وَاسْتَوْلَىٰ قُصَيٌّ عَلَىٰ أَمْرِ مَكَّةَ وَالْبَيْتِ فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ لِلْمِيلَادِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ، بِذَلِكَ صَارَتْ لِقُصَيٍّ ثُمَّ لِقُرَيْشٍ السِّيَادَةُ التَّامَّةُ، وَالْأَمْرُ النَّافِذُ فِي مَكَّةَ، وَصَارَ قُصَيٌّ الرَّئِيسَ الدِّينِي لِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي كَانَتْ تَفِدُ إِلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ.

وَمِمَّا فَعَلَهُ قُصَيٌّ بِمَكَّةَ: أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَقَطَّعَهَا رِبَاعًا بَيْنَ قَوْمِهِ، وَأَنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَصْبَحُوا عَلَيْهَا، وَأَقَرَّ النَّسَأَةَ، وَآلَ صَفْوَانَ، وَعَدْوَانَ، وَمُرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَنَاصِبِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ دِينًا فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي تَغْيِيرُهُ.

وَمِنْ مَآثِرِ قُصَيٍّ: أَنَّهُ أَسَّسَ دَارَ النَّدْوَةِ بِالْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَجَعَلَ بَابَهَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَكَانَتْ مَجْمَعَ قُرَيْشٍ، وَفِيهَا تُفْصَلُ مَهَامُّ أُمُورِهِمْ.

وَلِهَذِهِ الدَّارِ فَضْلٌ عَلَىٰ قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّهَا ضَمِنَتْ اجْتِمَاعَ الكَلِمَةِ، وَفَضَّ المَشَاكِلِ بِالْحُسْنَىٰ.

وَكَانَ لِقُصَيٍّ مِنْ مَظَاهِرِ الرِّيَاسَةِ، وَالتَّشْرِيفِ:

رِيَاسَةُ دَارِ النَّدْوَةِ: فَفِيهَا كَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ جِسَامِ الْأُمُورِ،

وَفِيهَا كَانُوا يُزَوِّجُونَ بَنَاتِهِمْ.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- اللِّوَاءُ؛ فَكَانَتْ لَا تُعْقَدُ رَايَةٌ، وَلَا لِوَاءٌ لِحَرْبٍ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا بِيَدِهِ أَوْ بِيَدِ أَحَدِ أَوْلَادِهِ.

وَفِي هَذِهِ الدَّارِ -أَيْ: فِي دَارِ النَّدْوَةِ- وَكَانَ لَهُ الْقِيَادَةُ -وَهِيَ: إِمَارَةُ الرَّكْبِ-، فَكَانَتْ لَا تُخْرِجُ رَكْبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا إِلَّا تَحْتَ إِمَارَتِهِ أَوْ إِمَارَةِ أَوْلَادِهِ.

وَكَانَ لَهُ الْحِجَابَةُ: وَهِيَ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ، لَا يَفْتَحُ بَابَهَا إِلَّا هُوَ، وَهُوَ الَّذِي يَلِي أَمَرَ خِدْمَتِهَا، وَسِدَانَتِهَا.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- سِقَايَةُ الْحَاجِّ: وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْلَئُونَ لِلْحُجَّاجِ حِيَاضًا مِنَ الْمَاءِ يُحَلُّونَهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ فَيَشْرَبُ النَّاسُ مِنْهَا إِذَا وَرَدُوا مَكَّةَ.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- رِفَادَةُ الْحَاجِّ: وَهِيَ طَعَامٌ كَانَ يُصْنَعُ لِلْحَاجِّ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الضِّيَافَةِ.

وَكَانَ قُصَيٌّ فَرَضَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ خَرْجًا تُخْرِجُهُ فِي الْمَوْسِمِ مِنْ أَمْوَالِهَا إِلَىٰ قُصَيٍّ، فَيَصْنَعُ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَعَةٌ وَلَا زَادٌ.

كَانَ كُلُّ ذَلِكَ لِقُصَيٍّ، وَكَانَ ابْنُهُ عَبْدُ مَنَافٍ قَدْ شَرُفَ، وَسَادَ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ عَبْدُ الدَّارِ بِكْرَهُ، فَقَالَ لَهُ قُصَيٌّ فِيمَا يُقَالُ: لَأُلْحِقَنَّكَ بِالْقَوْمِ، وَإِنْ شَرُفُوا عَلَيْكَ. فَأَوصَىٰ لَهُ بِمَا كَانَ يَلِيهِ مِنْ مَصَالِحِ قُرَيْشٍ، وَأَعْطَاهُ دَارَ النَّدْوَةِ، وَاللِّوَاءَ، وَالْقِيَادَةَ،

وَالْحِجَابَةَ، وَالسِّقَايَةَ، وَالرِّفَادَةَ.

وَكَانَ قُصَيٌّ لَا يُخَالَفُ، وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ صَنعَهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ الدِّينَ الْمُتَّبَعَ، فَلَمَّا هَلَكَ، أَقَامَ بَنُوهُ أَمْرَهُ لَا نِزَاعَ بَيْنَهُمْ.

وَلَكِنْ لَمَّا هَلَكَ عَبْدُ مَنَافٍ نَافَسَ أَبْنَاؤُهُ بَنِي عَمِّهِمْ عَبْدِ الدَّارِ فِي هَذِهِ الْمَنَاصِبِ، وَافْتَرَقَتْ قُرَيْشٌ فِرْقَتَيْنِ، وَكَادَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاعَوْا إِلَىٰ الصُّلْحِ، وَاقْتَسَمُوا هَذِهِ الْمَنَاصِبَ.

فَصَارَتِ السِّقَايَةُ، وَالرِّفَادَةُ، وَالْقِيَادَةُ إِلَىٰ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَبَقِيَتْ دَارُ النَّدْوَةِ، وَاللِّوَاءُ، وَالْحِجَابَةُ بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَقِيلَ: كَانَتْ دَارُ النَّدْوَةِ بِالِاشْتِرَاكِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ حَكَّمَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرْعَةَ فِيمَا أَصَابَهُمْ فَصَارَتِ السِّقَايَةُ، وَالرِّفَادَةُ لِهَاشِمٍ، وَصَارَتِ الْقِيَادَةُ لِعَبْدِ شَمْسٍ.

فَكَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ هُوَ الَّذِي يَلِي السِّقَايَةَ، وَالرِّفَادَةَ طُولَ حَيَاتِهِ فَلَمَّا مَاتَ خَلَفَهُ أَخُوهُ الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَعْدَهُ أَبْنَاؤُهُ حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَالْوَلَايَةُ إِلَىٰ الْعَبَّاسِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ قُصَيًّا هُوَ الَّذِي قَسَّمَ الْمَنَاصِبَ عَلَىٰ أَوْلَادِهِ، ثُمَّ تَوَارَثَهَا أَبْنَاؤُهُمْ عَلَىٰ حَسَبِ التَّفْصِيلِ الْمَذْكُورِ.

وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ سِوَىٰ مَا ذُكِرَ، وَزَّعُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَوَّنُوا

بِهَا دُوَيْلَةً، أَوْ بِتَعْبِيرٍ أَصَحَّ: شِبْهَ دُوَيْلَةٍ، كَانَتْ لَهُمْ مِنَ الدَّوَائِرِ، وَالتَّشْكِيلَاتِ الْحُكُومِيَّةِ مَا يُشْبِهُ فِي عَصْرِنَا هَذَا دَوَائِرَ الْبَرْلَمَانِ، وَمَجَالِسَهَا.

وَهَذِهِ لَوْحَةٌ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاصِبِ:

الْإِيسَارُ: أَيْ: تَوْلِيَةُ قِدَاحِ الْأَصْنَامِ لِلِاسْتِقْسَامِ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي جُمَحٍ.

تَحْجِيرُ الْأَمْوَالِ: أَيْ: تَنْظِيمُ الْقُرُبَاتِ وَالنُّذُورِ الَّتِي كَانَتْ تُهْدَىٰ إِلَىٰ الْأَصْنَامِ، وَكَذَلِكَ فَصْلُ الْخُصُومَاتِ وَالْمُرَافَعَاتُ كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي سَهْمٍ.

الشُّورَىٰ: كَانَتْ فِي بَنِي أَسَدٍ.

الْأَشْنَاقُ: أَيْ: تَنْظِيمُ الدِّيَاتِ وَالْغَرَامَاتِ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي تَيْمٍ.

الْعُقَابُ: أَيْ: حَمْلُ اللِّوَاءِ الْقَوْمِيِّ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي أُمَيَّةَ.

الْقُبَّةُ: أَيْ: تَنْظِيمُ الْمُعَسْكَرِ، وَكَذَلِكَ قِيَادَةُ الْخَيْلِ، كَانَ فِي بَنِي مَخْزُومٍ.

السِّفَارَةُ: كَانَتْ فِي بَنِي عَدِيٍّ.

أَمَّا الْحُكْمُ فِي سَائِرِ الْعَرَبِ:

فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هِجْرَاتِ الْقَبَائِلِ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَانِيَّةِ، وَأَنَّهَا اقْتَسَمَتِ الْبِلَادَ الْعَرَبِيَّةَ فِيمَا بَيْنَهَا:

فَكَانَ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِيرَةِ: كَانَتْ تَبَعًا لِمَلِكِ الْعَرَبِ بِالْحِيرَةِ.

وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي بَادِيَةِ الشَّامِ: كَانَ تَبَعًا لِلْغَسَاسِنَةِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ التَّبَعِيَّةَ كَانَتِ

اسْمِيَّةً لَا فِعْلِيَّةً.

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْبَوَادِي فِي دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ: فَكَانَتْ حُرَّةً مُطْلَقَةً.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الْقَبَائِلَ كَانَتْ تَخْتَارُ لِأَنْفُسِهَا رُؤَسَاءَ يَسُودُونَهَا، وَأَنَّ الْقَبِيلَةَ كَانَتْ حُكُومَةً مُصَغَّرَةً، أَسَاسُ كِيَانِهَا السِّيَاسِيِّ الْوَحْدَةُ الْعَصَبِيَّةُ، وَالْمَنَافِعُ الْمُتَبَادَلَةُ فِي حِمَايَةِ الْأَرْضِ، وَدَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهَا.

وَكَانَتْ دَرَجَةُ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ فِي قَوْمِهِمْ كَدَرَجَةِ الْمُلُوكِ، فَكَانَتِ الْقَبِيلَةُ تَبَعًا لِرَأْيِ سَيِّدِهَا فِي السِّلْمِ، وَالْحَرْبِ لَا تَتَأَخَّرُ عَنْهُ بِحَالٍ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ الْحُكْمِ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ مَا يَكُونُ لِدِكْتَاتُورٍ قَوِيٍّ؛ حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا غَضِبَ غَضِبَتْ لَهُ أُلُوفٌ مِنَ السُّيُوفِ لَا تَسْأَلُهُ فِيمَا غَضِبَ، إِلَّا أَنَّ الْمُنَافَسَةَ فِي السِّيَادَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ كَانَتْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْمُصَانَعَةِ بِالنَّاسِ مِنْ بَذْلِ النَّدَىٰ، وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَالْكَرَمِ، وَالْحِلْمِ، وَإِظْهَارِ الشَّجَاعَةِ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الْغَيْرَةِ حَتَّىٰ يَكْسِبُوا الْمَحَامِدَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، لَا سِيَّمَا الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا لِسَانَ الْقَبِيلَةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَحَتَّىٰ تَسْمُوَ دَرَجَتُهُمْ عَنْ مُسْتَوَىٰ الْمُنَافِسِينَ.

كَانَ لِلسَّادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ حُقُوقٌ خَاصَّةٌ فَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الْغَنِيمَةِ الْمِرْبَاعَ، وَالصَّفِيَّ، وَالنَّشِيطَةَ، وَالْفُضُولَ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

لَكَ الْمِرْبَاعُ فِينَا، وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ، وَالنَّشِيطَةُ، وَالْفُضُولُ

الْمِرْبَاعُ: رُبُعُ الْغَنِيمَةِ، فَكَانَ لِزَعِيمِ الْقَبِيلَةِ وَ سَيِّدِهَا رُبُعُ الْغَنِيمَةِ.

وَالصَّفِيُّ: مَا كَانَ يَصْطَفِيهِ أَيْ: يَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ.

وَالنَّشِيطَةُ: مَا أَصَابَهُ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ بَيْضَةِ الْقَوْمِ.

الْفُضُولُ: مَا فَضَلَ مِنَ الْقِسْمَةِ مِمَّا لَا تَصِحُّ قِسْمَتُهُ عَلَىٰ عَدَدِ الْغُزَاةِ كَالْبَعِيرِ، وَالْفَرَسِ، وَنَحْوِهِمَا.

لَكَ الْمِرْبَاعُ فِينَا، وَالصَّفَايَا ... وَحُكْمُكَ،وَالنَّشِيطَةُ، وَالْفُضُولُ

وَأَمَّا الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ:

فَبَعْدَ ذِكْرِ مَا كَانَ مِنْ حُكَّامِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَجْمُلُ أَنْ تُذْكَرَ جُمْلَةٌ مِنْ أَحْوَالِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ؛ حَتَّىٰ يَتَّضِحَ الْوَضْعُ.

فَالْأَقْطَارُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي كَانَتْ مُجَاوِرَةً لِلْأَجَانِبِ كَانَتْ حَالَتُهَا السِّيَاسِيَّةُ فِي تَضَعْضُعٍ وَانْحِطَاطٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا.

كَانَ النَّاسُ بَيْنَ سَادَةٍ وَعَبِيدٍ، أَوْ حُكَّامٍ وَمَحْكُومِينَ.

فَالسَّادَةُ -وَلَا سِيَّمَا الْأَجَانِبُ-: كَانَ لَهُمْ كُلُّ الْغُنْمِ.

وَالْعَبِيدُ: عَلَيْهِمْ كُلُّ الْغُرْمِ.

وَبِعِبَارَةٍ أَوْضَحَ: إِنَّ الرَّعَايَا كَانَتْ بِمَثَابَةِ مَزْرَعَةٍ تُورِّدُ الْمَحْصُولَاتِ إِلَىٰ الْحُكُومَاتِ، وَالْحُكُومَاتُ كَانَتْ تَسْتَخْدِمُهَا فِي مَلَذَّاتِهَا، وَشَهَوَاتِهَا، وَرَغَائِبِهَا، وَجَوْرِهَا، وَعُدْوَانِهَا. أَمَّا النَّاسُ فَكَانُوا فِي عَمَايَتِهِمْ يَتَخَبَّطُونَ، وَالظُّلْمُ يَنْحَطُّ

عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمَا فِي اسْتِطَاعَتِهِمُ التَّذَمُّرُ وَالشَّكْوَىٰ، بَلْ كَانُوا يُسَامُونَ الْخَسْفَ وَالْجَوْرَ وَالْعَذَابَ أَلْوَانًا سَاكِتِينَ؛ فَقَدْ كَانَ الْحُكْمُ اسْتِبْدَادِيًّا، وَالْحُقُوقُ ضَائِعَةً مُهْدَرَةً.

وَأَمَّا الْقَبَائِلُ الْمُجَاوِرَةُ لِهَذِهِ الْأَقْطَارِ فَكَانُوا مُذَبْذَبِينَ تَتَقَاذَفُهُمُ الْأَهْوَاءُ وَالْأَغْرَاضُ، مَرَّةً يَدْخُلُونَ فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَمَرَّةً يَدْخُلُونَ فِي أَهْلِ الشَّامِ، وَكَانَتْ أَحْوَالُ الْقَبَائِلِ فِي دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ مُفَكَّكَةَ الْأَوْصَالِ، تَغْلِبُ عَلَيْهَا الْمُنَازَعَاتُ الْقَبَلِيَّةُ، وَالِاخْتِلَافَاتُ الْعُنْصُرِيَّةُ، وَالدِّينِيَّةُ حَتَّىٰ قَالَ نَاطِقُهُمْ:

فَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ! وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ يَدْعَمُ اسْتِقْلَالَهُمْ، أَوْ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ الشَّدَائِدِ.

أَمَّا حُكُومَةُ الْحِجَازِ: فَقَدْ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا الْعَرَبُ نَظْرَةَ تَقْدِيرٍ وَاحْتِرَامٍ، وَيَرَوْنَهَا قَادَةَ وَسَدَنَةَ الْمَرْكَزِ الدِّينِيِّ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْحُكُومَةُ فِي الْحَقِيقَةِ خَلِيطًا مِنَ الصَّدَارَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالْحُكُومِيَّةِ، وَالزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ.

حَكَمَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ بِاسْمِ الزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ، وَحَكَمَتْ فِي الْحَرَمِ، وَمَا وَالَاهُ بِصِفَتِهَا حُكُومَةً تُشْرِفُ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْوَافِدِينَ إِلَىٰ الْبَيْتِ، وَتُنَفِّذُ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ فِيهِمْ.

وَكَانَتْ لَهَا مِنَ الدَّوَائِرِ، وَالتَّشْكِيلَاتِ مَا يُشَابِهُ دَوَائِرَ الْبَرْلَمَانِ فِي هَذَا

الْعَصْرِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحُكُومَةَ كَانَتْ ضَعِيفَةً لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ حَمْلِ الْعِبْءِ كَمَا ظَهَرَ ذَلِكَ يَوْمَ غَزْوِ الْأَحْبَاشِ.

الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّاسُ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ وَحَالَ بِعْثَتِهِ كَانَتْ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَذْكُورِ، النَّاسُ فِي عَمَايَتِهِمْ يَتَخَبَّطُونَ، وَفِي ضَلَالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَعَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُمْ نَاكِبُونَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الظَّلَمَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي فَسَادٍ دِينِيٍّ يَعْبُدُونَ فِيهِ الْأَوْثَانَ، وَيُقَدِّسُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَنْحَرُونَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الَّتِي سَيْطَرَتْ عَلَىٰ الْعُقُولِ بِالْأَوْهَامِ، وَغَزَتِ الْأَحْلَامَ حَتَّىٰ صَارُوا فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ.

●●●



مِنْ أَشْهَرِ حُرُوبِ الْعَرَبِ

وَالْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ كَانَتْ عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقٍ؛ وَمِنْ أَشْهَرِ حُرُوبِهِمْ: حَرْبُ الْفِجَارِ: وَكَانَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحُرُوبِ الْكُبْرَىٰ تَقَعُ غَارَاتٌ فَرْدِيَّةٌ بَيْنَ الْقَبَائِلِ تَكُونُ أَسْبَابُهَا شَخْصِيَّةً أَحْيَانًا، أَوْ لِطَلَبِ الْعَيْشِ أَحْيَانًا أُخْرَىٰ؛ إِذْ كَانَ رِزْقُ بَعْضِ الْقَبَائِلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ فِي حَدِّ سُيُوفِهَا؛ لِذَلِكَ مَا كَانَتِ الْقَبِيلَةُ تَأْمَنُ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَيْهَا قَبِيلَةٌ أُخْرَىٰ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ؛ لِتَسْلُبَ أَنْعَامَهَا، وَمُؤَنَهَا، وَتَدَعَ دِيَارَهَا خَاوِيَةً بَلَاقِعَ، كَأَنْ لَمْ تُسْكَنْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ.

فَبَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ مَا كَانَ هُنَالِكَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ؛ فِي حَالَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَفِي حَالَتِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ.

***



الْحَالَةُ الِاقْتِصَادِيَّةُ قَبْلَ الْبِعْثَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ

وَأَمَّا حَالَتُهُمْ الِاقْتِصَادِيَّةُ: فَإِنَّهُ تَغْلِبُ عَلَىٰ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحَارَىٰ الْوَاسِعَةُ الْمُمْتَدَّةُ، وَهَذَا جَعَلَهَا تَخْلُو مِنَ الزِّرَاعَةِ إِلَّا فِي أَطْرَافِهَا خَاصَّةً فِي الْيَمَنِ وَالشَّامِ، وَبَعْضِ الْوَاحَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَزِيرَةِ، كَانَ يَغْلِبُ عَلَىٰ الْبَادِيَةِ رَعْيُ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَكَانَتْ تَنْتَقِلُ الْقَبَائِلُ بَحْثًا عَنْ مَوَاضِعِ الْكَلأِ، وَكَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الِاسْتِقْرَارَ إِلَّا فِي مَضَارِبِ خِيَامِهِمْ.

أَمَّا الصِّنَاعَةُ، فَكَانُوا أَبْعَدَ الْأُمَمِ عَنْهَا، وَكَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْهَا، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ فِيهَا لِلْأَعَاجِمِ وَالْمَوَالِي، حَتَّىٰ عِنْدَمَا أَرَادُوا بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ اسْتَعَانُوا بِرَجُلٍ نَجَا مِنَ السَّفِينَةِ الَّتِي غَرِقَتْ بِجُدَّةَ ثُمَّ أَصْبَحَ مُقِيمًا فِي مَكَّةَ، وَإِذَا كَانَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ حُرِمَتْ مِنْ نِعْمَتَيِ الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ، فَإِنَّ مَوْقِعَهَا الِاسْتِرَاتِيجِيَّ بَيْنَ إِفْرِيقِيَّةَ وَشَرْقِ آسيَا جَعَلَهَا مُؤَهَّلَةً لِأَنْ تَحْتَلَّ مَرْكَزًا مُتَقَدِّمًا فِي التِّجَارَةِ الدَّوْلِيَّةِ آنَذَاكَ، كَانَ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ التِّجَارَةَ مِنْ سُكَّانِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُمْ أَهْلُ الْمُدُنِ لَاسِيَّمَا أَهْلُ مَكَّةَ، كَانَ لَهُمْ مَرْكَزٌ مُمْتَازٌ فِي التِّجَارَةِ، وَكَانَ لَهُمْ بِحُكْمِ كَوْنِهِمْ أَهْلَ الْحَرَمِ مَنْزِلَةٌ فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ، فَلَا يَعْرِضُونَ لَهُمْ وَلَا لِتِجَارَتِهِمْ بِسُوءٍ.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

كَانَ لِقُرَيْشٍ رِحْلَتَانِ عَظِيمَتَانِ شَهِيرَتَانِ: رِحْلَةُ الشِّتَاءِ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَرِحْلَةُ الصَّيْفِ إِلَىٰ الشَّامِ، يَذْهَبُونَ فِيهَا آمِنِينَ، بَيْنَمَا النَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ، هَذَا عَدَا الرِّحْلَاتِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا طُوَالَ الْعَامِ.

كَانَتِ الْقَوَافِلُ تَحْمِلُ الطِّيبَ وَالْبَخُورَ، وَالصَّمْغَ وَاللِّبَانَ وَالتَّوَابِلَ وَالتُّمُورَ، وَالرَّوَائِحَ الْعِطْرِيَّةَ وَالْأَخْشَابَ الذَّكِيَّةَ، وَالْعَاجَ وَالْأَبَنُوسَ وَالْخَرَزَ وَالْجُلُودَ وَالْبُرُودَ الْيَمَنِيَّةَ وَالْأَنْسِجَةَ الْحَرِيرِيَّةَ وَالْأَسْلِحَةَ وَغَيْرَهَا مِمَّا يُوجَدُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ أَوْ يَكُونُ مُسْتَوْرَدًا مِنْ خَارِجِهَا، ثُمَّ تَذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ الشَّامِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ تَعُودُ مُحَمَّلَةً بِالْقَمْحِ أَوِ الْحُبُوبِ وَبِالزَّبِيبِ أَوِ الزَّيْتُونِ وَالْمَنْسُوجَاتِ الشَّامِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

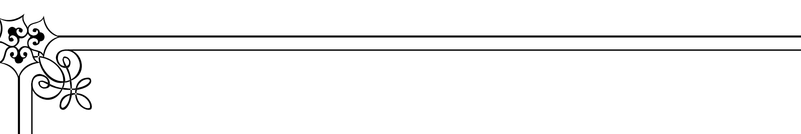
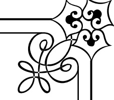
اشْتَغَلُوا بِالتِّجَارَةِ وَكَانَ نَشَاطُهُمْ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبِحَارِ، وَتَعَامَلُوا بِالرِّبَا، وَكَانَ التَّعَامُلُ بِالرِّبَا مُنْتَشِرًا فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَعَلَّهُمْ دَبَّ إِلَيْهِمْ هَذَا الدَّاءُ مِنَ الْيَهُودِ، كَانَ يَتَعَامَلُ بِهِ الْأَشْرَافُ وَغَيْرُهُمْ، وَكَانَتْ نِسْبَةُ الرِّبَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةٍ فِي الْمِئَةِ.

وَكَانَ لِلْعَرَبِ أَسْوَاقٌ مَشْهُورَةٌ: عُكَاظٌ وَمِجَنَّةُ وَذِي الْمَجَازِ، وَيُذْكَرُ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُقِيمُونَ بِعُكَاظَ هِلَالَ ذِي الْقَعْدَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ مِنْهُ إِلَىٰ مِجَنَّةَ بَعْدَ مُضِيِّ عِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَإِذَا رَأَوْا هِلَالَ ذِي الْحِجَّةِ ذَهَبُوا إِلَىٰ ذِي الْمَجَازِ، فَلَبِثُوا فِيهَا ثَمَانِيَ لَيَالٍ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ عَرَفَةَ، وَكَانُوا لَا يَتَبَايَعُونَ فِي عَرَفَةَ، وَلَا فِي أَيَّامِ مِنًىٰ، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَبَاحَ لَهُمْ ذَلِكَ.

اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْأَسْوَاقُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ دَرَسَتْ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَسْوَاقُ لِلتِّجَارَةِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَتْ أَسْوَاقًا لِلْأَدَبِ وَالشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ، يَجْتَمِعُ فِيهَا فُحُولُ الشُّعَرَاءِ، وَمَصَاقِيعُ الْخُطَبَاءِ، وَيَتَبَارَوْنَ فِيهَا فِي ذِكْرِ أَنْسَابِهِمْ وَمَفَاخِرِهِمْ وَمَآثِرِهِمْ، وَبِهَذَا كَانَتْ ثَرْوَةً كُبْرَىٰ لِلُّغَةِ وَالْأَدَبِ، إِلَىٰ جَانِبِ كَوْنِهَا ثَرْوَةً تِجَارِيَّةً.

فَهَذَا بَعْضُ أَطْرَافٍ مِنْ حَالَتِهِمْ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ يُمَهِّدُ لِمَعْرِفَةِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ بُعِثَ ﷺ فِي هَذَا الْوَضْعِ، وَكُلِّفَ بِإِصْلَاحِهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَصَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَىٰ وَجْهِهِ وَحْدَهُ، فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

⊙ ⊙ ⊙

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

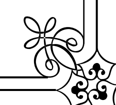
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْحَيَاةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

فَقَدْ مَرَّ مَعَنَا بَيَانُ حَالَةِ الْعَالَمِ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا كَانَ يَسُودُ الْعَالَمَ مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَفَسَادٍ وَطُغْيَانٍ، وَانْحِرَافٍ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، وَمَرَّ مَعَنَا -بِفَضْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بَيَانُ بَعْضِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَاحِيَةِ الدِّينِ، وَفِي نَاحِيَةِ الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ، وَفِي نَاحِيَةِ الاقْتِصَادِ.

وَأَمَّا الْحَالَةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ أَوْضَاعٌ وَتَقَالِيدُ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَقَوَانِينُ عُرْفِيَّةٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ، وَعَلَاقَةِ الْقَبِيلَةِ بِالْأُخْرَىٰ، وَعَلَاقَةِ الْأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُسْرَةِ مِنْ نِكَاحٍ وَطَلَاقٍ، وَثُبُوتِ نَسَبٍ، وَوَضْعِ الْمَرْأَةِ فِي الْأُسْرَةِ، وَالْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَنِظَامِ التَّوَارُثِ،... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ.

وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي:

المُبَالَغَةُ فِي التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ

الِاعْتِزَازُ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ:

النَّسَبُ: الْقَرَابَةُ مِنْ جِهَةِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ.

وَالْحَسَبُ (بِفَتْحِ الْحَاءِ وَالسِّينِ): مَا يُعَدُّ مِنَ الْمَآثِرِ وَالْفَضَائِلِ؛ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْجُودِ، وَنَحْوِهَا. مَأْخُوذٌ مِنَ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَفَاخَرُوا حَسِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مَنَاقِبَهُ، وَمَنَاقِبَ آبَائِهِ وَمَآثِرَهُمْ.

فَكَانُوا يَعْتَزُّونَ اعْتِزَازًا لَا حَدَّ لَهُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِمَا، وَقَدْ حَرَصَ الْعَرَبُ حَضَرًا وَبَدْوًا عَلَىٰ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ أَنْسَابِهِمْ؛ فَلَمْ يُصَاهِرُوا غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَجْنَاسِ الْأُخْرَىٰ اعْتِزَازًا بِالدَّمِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يَخْتَلِطَ بِغَيْرِهِ.

وَقَدْ أَبَىٰ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ أَنْ يُزَوِّجَ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ مِنْ كِسْرَىٰ، أَوْ أَنْ يُزَوِّجَ أَحَدَ أَوْلَادِهِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ تَابِعًا لَهُ، وَتَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ هَذَا الْإِبَاءِ وَالرَّفْضِ مَا تَحَمَّلَ!

وَقَدْ بَالَغُوا فِي التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ حَتَّىٰ أَضَاعُوا وَقْتَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ - ٢].

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، قَضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ التَّفَاضُلَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْوَىٰ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ النَّسَبَ الْأَصِيلَ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، بَلَغَ الْإِنْسَانُ بِهِ غَايَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَكَذَلِكَ حَافَظُوا عَلَىٰ أَنْسَابِ خُيُولِهِمُ الْأَصِيلَةِ، وَإِبِلِهِمُ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الِاعْتِزَازِ بِالْأَنْسَابِ.

◉ ◉ ◉

الِاعْتِزَازُ بِالْكَلِمَةِ وَسُلْطَانِهَا

وَكَانُوا يَعْتَزُّونَ بِالْكَلِمَةِ وَبِسُلْطَانِهَا، لَا سِيَّمَا الشِّعْرُ؛ فَقَدْ كَانَ شِعْرُهُمْ سِجِلَّ مَفَاخِرِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ، وَدِيوَانَ مَعَارِفِهِمْ وَعَوَاطِفِهِمْ، فَلَا تَعْجَبْ إِذَا كَانَ نَجَمَ فِيهِمُ الْخُطَبَاءُ الْمَصَاقِعُ، وَالشُّعَرَاءُ الْفَطَاحِلُ، وَقَدْ كَانَ الْبَيْتُ مِنَ الشِّعْرِ يَرْفَعُ الْقَبِيلَةَ، وَالْبَيْتُ يَخْفِضُهَا؛ وَلِذَلِكَ مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِشَاعِرٍ يَنْبُغُ فِي الْقَبِيلَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُعْتَبَرُ رَمْزًا لَهَا، وَكَانَ الْمُنَافِحَ عَنْهَا، وَالْمُتَغَنِّيَ بِمَفَاخِرِهَا وَأَمْجَادِهَا.

وَكَانَتْ تَسْتَهْوِيهِمُ الْكَلِمَةُ الْفَصِيحَةُ وَالْأُسْلُوبُ الْبَلِيغُ، وَلِمَكَانِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مِنَ الْعَرَبِ، كَانَتْ آيَةُ النَّبِيِّ الْكُبْرَىٰ قُرْآنًا يُتْلَىٰ، وَفِي أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَقَدْ أَهَّلَتْهُمْ مَلَكَةُ الْبَيَانِ لِحَمْلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ فِيمَا بَعْدُ، وَالْمُنَافَحَةِ عَنْهَا بِاللِّسَانِ وَالْبَيَانِ.



المَرْأَةُ فِي المُجْتَمَعِ العَرَبِيِّ قَبْلَ البِعْثَةِ

وَأَمَّا وَضْعُ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ كَسَقَطِ الْمَتَاعِ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُورَثُ.

وَكَانَ الِابْنُ الْأَكْبَرُ لِلزَّوْجِ مِنْ غَيْرِهَا مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُزَوِّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ أَوْ يَعْضُلَهَا عَنِ النِّكَاحِ حَتَّىٰ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ.

وَكَانَ الِابْنُ يَتَزَوَّجُ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ، وَسَمَّاهُ نِكَاحَ الْمَقْتِ.

وَمَا كَانُوا يُوَرِّثُونَهَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا يَرِثُ مَنْ يُحَارِبُ وَيُجَالِدُ، حَتَّىٰ جَعَلَ الْإِسْلَامُ لِلْمَرْأَةِ حَقًّا مَفْرُوضًا.

كَمَا كَانُوا يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، حَتَّىٰ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ.

وَمِنَ الْحَقِّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ كَانَتْ تُجِلُّ الْمَرْأَةَ وَتَحْتَرِمُهَا، وَتَأْخُذُ رَأْيَهَا فِي الزَّوَاجِ، وَكُتُبُ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْقِصَصِ بِذَلِكَ.

وَالْعَرَبُ جَمِيعًا يَغَارُونَ عَلَىٰ أَعْرَاضِهِمْ، وَ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ الْعَرَبِيُّ قَدْ يَقْتُلُ، وَقَدْ يَسْطُو عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنْ تَأْبَىٰ عَلَيْهِ مُرُوءَتُهُ أَنْ يَنْتَهِزَ ضَعْفَ امْرَأَةٍ، أَوْ وَحْدَتَهَا فِي سَفَرٍ -مَثَلًا- فَيَنْتَهِكَ عِرْضَهَا.

وَالْمَرْأَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْحُرَّةُ كَانَتْ تَأْنَفُ أَنْ تُفْتَرَشَ لِغَيْرِ زَوْجِهَا وَحَلِيلِهَا، وَكَانَتْ -أَيْضًا- تَتَّسِمُ بِالشَّجَاعَةِ؛ تَتْبَعُ الْمُحَارِبِينَ وَتُشَجِّعُهُمْ، وَقَدْ تُشَارِكُ مَعَهُمْ فِي الْقِتَالِ إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ.

●●●

مِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَحْظَىٰ فِيهِ الرَّجُلُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ بِالسُّلْطَةِ التَّامَّةِ وَالْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ، تَجِدُ الْمَرْأَةَ مَهْضُومَةَ الْجَانِبِ مَسْلُوبَةَ الْحُقُوقِ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ: كُرْهُ الْمَرْأَةِ، وَالتَّشَاؤُمُ مِنْ إِنْجَابِ الْبَنَاتِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩].

وَرُبَّمَا أَدَّىٰ هَذَا الْكُرْهُ إِلَىٰ وَأْدِ الْبَنَاتِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْعَادَةَ الْمَقِيتَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨- ٩]. وَيَعُودُ هَذَا الْكُرْهُ وَالْوَأْدُ لِلْبَنَاتِ إِلَىٰ الْخَوْفِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْعَارِ؛ حَيْثُ الْمَرْأَةُ مُعَرَّضَةٌ لِلسَّبْيِ لِكَثْرَةِ الْحُرُوبِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ: حِرْمَانُهَا مِنَ الْمِيرَاثِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يَرِثُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُ السَّيْفَ، وَيَحْمِي الْبَيْضَةَ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِهَا: اعْتِبَارُهَا جُزْءًا مِنْ مَتَاعِ الرَّجُلِ؛ فَإِذَا مَاتَ الرَّجُلُ وَلَهُ أَبْنَاءٌ مِنْ غَيْرِهَا، كَانَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ؛ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ...﴾ [النساء: ١٩] الْآيَةَ، قَالَ -أَيِ: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا؛ فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الظَّالِمَةِ لِلْمَرْأَةِ، اسْتَطَاعَ عَدَدٌ مِنَ النِّسَاءِ فَرْضَ أَنْفُسِهِنَّ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ؛ حَيْثُ لَفَتْنَ الْأَنْظَارَ إِلَيْهِنَّ بِمَا أُوتِينَ مِنْ رَجَاحَةٍ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، وَحُسْنِ تَصَرُّفٍ وَشَجَاعَةٍ، كَمَا بَرَزَ بَعْضُهُنَّ فِي مَجَالِ التِّجَارَةِ.

لَمْ يَكُنْ ظُلْمُ الْمَرْأَةِ خَاصًّا بِالْعَرَبِ، بَلْ تَعَرَّضَتْ لِظُلْمٍ مِثْلِهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ عِنْدَ الْيُونَانِ، وَالْفُرْسِ، وَالْهُنُودِ، وَغَيْرِهِمْ.

وَالْمَرْأَةُ الْبَدَوِيَّةُ تُشَارِكُ زَوْجَهَا فِي رَعْيِ الْمَاشِيَةِ وَسَقْيِهَا، وَتَغْزِلُ الْوَبَرَ وَالصُّوفَ، وَتَنْسِجُ الثِّيَابَ وَالْبُرُودَ وَالْأَكْسِيَةَ، مَعَ التَّصَوُّنِ وَالتَّعَفُّفِ.

وَمِنْ صِفَاتِهَا: أَنَّهَا تَضْجَرُ مِنَ الْحَضَرِ، وَتَرَىٰ الْحُرِّيَّةَ وَالْهُدُوءَ وَالصَّفَاءَ فِي الْبَادِيَةِ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ قِصَّةِ مَيْسُونَ بِنْتِ بَحْدَلٍ الَّتِي تَزَوَّجَهَا خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَوَلَدَتْ لَهُ يَزِيدَ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تُطِقْ حَيَاةَ

الْقُصُورِ، وَلَا النَّعِيمَ وَالتَّرَفَ، وَتَاقَتْ إِلَىٰ الْخِيَامِ، وَاشْتَاقَتْ إِلَىٰ الْعَيْشِ الْجَافِّ، وَإِلَىٰ بَدَوِيٍّ مِثْلِهَا فَقَالَتْ:

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وَأَكْلُ كُسَيْرَةٍ فِي قَعْرِ بَيْتِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ

وَخِرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي ضَعِيفٌ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ

فَلَمَّا بَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَقَالَتُهَا، سَرَّحَهَا وَأَعَادَهَا مُعَزَّزَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا.

● ● ●

النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

وَلَمْ يَكُنِ لِلْعَرَبِ حَدٌّ مَحْدُودٌ فِي النِّكَاحِ؛ فَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ الْعَشْرُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلُّ، فَقَصَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَرْبَعٍ، إِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْإِنْفَاقَ عَلَيْهِنَّ، وَالْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ، فَإِنْ خَافَ عَدَمَ الْعَدْلِ فَلْيَكْتَفِ بِوَاحِدَةٍ، وَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَلْتَزِمُونَ الْعَدْلَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ، وَكَانُوا يُسِيئُونَ عِشْرَتَهُنَّ، وَيَهْضِمُونَ حُقُوقَهُنَّ، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَنْصَفَهُنَّ، وَأَوْصَىٰ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ فِي الْعِشْرَةِ، وَقَرَّرَ لَهُنَّ حُقُوقًا مَا كُنَّ يَحْلُمْنَ بِهَا.

وَكَانَتْ هُنَاكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْكِحَةٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا الصَّحِيحُ: الَّذِي هُوَ كَأَنْكِحَتِنَا الْيَوْمَ بِخِطْبَةٍ وَوَلِيٍّ وَمَهْرٍ.

وَمِنْهَا الْفَاسِدُ؛ فَمِنَ الْفَاسِدِ: نِكَاحُ الاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحُ التَّوَاطُؤِ، وَنِكَاحُ الْبَغَايَا، وَنِكَاحُ الشِّغَارِ، وَنَحْوُهَا.

وَالنِّكَاحُ الصَّحِيحُ كَانَ يَلْتَزِمُهُ أَكْثَرُ الْعَرَبِ، لَاسِيَّمَا الْأَشْرَافُ مِنْهُمْ، وَإِلَيْكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ -النَّحْوُ أَيِ: الضَّرْبُ وَزْنًا وَمَعْنًىٰ، أَوِ النَّوْعُ- كَانَ النِّكَاحُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا: نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُل يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَىٰ فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ؛ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ. فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا؛ تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ.. تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيُلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحٌ رَابِعٌ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، لَا تَمْنَعُ مَنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهَا الْقَافَةَ -وَهُمُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ شَبَهَ الْوَلَدِ بِالْوَالِدِ بِالسِّمَاتِ الْخِلْقِيَّةِ، جَمْعُ: قَائِفٍ- فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهَا الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْحاءً أُخْرَىٰ لَمْ تَذْكُرْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

كَنِكَاحِ الْخِدْنِ: وَهُوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، كَانُوا يَقُولُونَ: مَا اسْتَتَرَ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَمَا ظَهَرَ فَهُوَ لَوْمٌ، وَهُوَ إِلَىٰ الزِّنَا أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَىٰ النِّكَاحِ.

وَكَنِكَاحِ الْمُتْعَةِ: وَهُوَ النِّكَاحُ الْمُعَيَّنُ بِوَقْتٍ.

وَنِكَاحِ الْبَدَلِ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ لِلرَّجُلِ: انْزِلْ لِي عَنِ امْرَأَتِك، وَأَنْزِلُ لَكَ عَنِ امْرَأَتِي وَأَزِيدُكَ.

وَمِنَ الْأَنْكِحَةِ الْبَاطِلَةِ: نِكَاحُ الشِّغَارِ: وَهُوَ أَنْ يُزَوِّجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ عَلَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهُ الْآخَرُ ابْنَتَهُ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا صَدَاقٌ.

فَهَذَا كَانَ كُلُّهُ مِنْ أَنْكِحَةِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَا كَانَ صَحِيحًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَكَانُوا يُمَارِسُونَ الطَّلَاقَ، وَلَمْ يَكُنْ لِلطَّلَاقِ عِنْدَهُمْ عَدَدٌ مُحَدَّدٌ، فَكَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا، هَكَذَا أَبَدًا، وَبَقِيَ هَذَا الْأَمْرُ مَعْمُولًا بِهِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قَوْلَهُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فَقَيَّدَ الْإِسْلَامُ عَدَدَ الطَّلْقَاتِ،

وَأَعْطَىٰ لِلزَّوْجِ فُرْصَةً لِيَتَدَارَكَ أَمْرَهُ، وَلِيُرَاجِعَ زَوْجَتَهُ، أَعْطَىٰ الْإِسْلَامُ الزَّوْجَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ مَرَّتَيْنِ، فَإِذَا طَلَّقَ الثَّالِثَةَ فَقَدِ انْقَطَعَتْ عُرْوَةُ النِّكَاحِ، وَلَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ آخَرَ؛ كَمَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وَمِمَّا كَانَ يَلْحَقُ بِالطَّلَاقِ فِي التَّحْرِيمِ: **الظِّهَارُ**: وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. وَكَانَ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَوَسَمَهُ بِأَنَّهُ مُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٌ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجِ مَخْرَجًا مِنْهُ وَذَلِكَ بِالْكَفَّارَةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢- ٤].

⁂

وَأْدُ الْبَنَاتِ وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ

وَمِنَ الْمَآسِي الَّتِي كَانَتْ تُزَاوِلُهَا بَعْضُ الْقَبَائِلِ: وَأْدُ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

الْوَأْدُ: كَانَ أَنْ يَحْفُرَ لِلْبِنْتِ حُفْرَةٌ فِي التُّرَابِ، ثُمَّ تُلْقَىٰ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ حَيَّةً، وَيُهَالُ عَلَيْهَا التُّرَابُ.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ السَّبَبَ فِي وَأْدِ الْبَنَاتِ أَنَّ قَبِيلَةً حَارَبَتْ أُخْرَىٰ فَغَلَبَتْهَا، وَسَبَتْ نِسَاءَهَا وَبَنَاتِهَا، وَتَزَوَّجُوا بِهِنَّ، فَلَمَّا تَصَالَحُوا خُيِّرَ النِّسَاءُ وَالْبَنَاتُ أَنْ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ وَأَهْلِيهِنَّ، وَبَيْنَ الْبَقَاءِ عِنْدَ مَنْ تَزَوَّجُوهُنَّ، فَاخْتَرْنَ الْبَقَاءَ، قَالَ رِجَالُ الْقَبِيلَةِ الْأُخْرَىٰ: عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَئِدُوا الْبَنَاتِ وَهُنَّ صَغِيرَاتٌ، ثُمَّ فَشَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ عِنْدَ غَيْرِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ مُجَارَاةً لَهَا أَوْ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَهَا مَا أَصَابَهَا.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ سَفَهِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الذُّكُورَ، وَكَانَ مِنَ الْعَارِ وَالْخِزْيِ أَنْ يُبَشَّرَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِأَنَّ امْرَأَتَهُ وَلَدَتْ أُنْثَىٰ، وَيُدْرِكُهُ مِنَ الْحَسْرَةِ، وَالْكَمَدِ مَا يَجْعَلُهُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ذَلِكَ بِهَذَا الْبَيَانِ الْبَارِعِ الرَّائِعِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٧- ٥٩].

كَانَ فِي الْعَرَبِ قَبَائِلُ لَا تَئِدُ الْبَنَاتِ، كَمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَقْبِحُونَ هَذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ، كَزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ قَضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَكَرَّمَ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ، وَأَوْصَىٰ بِهِنَّ وَبِهِمْ خَيْرًا، وَكَانَ فِي الْمُثُلِ الْعَالِيَةِ الَّتِي كَانَ يَضْرِبُهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مُعَامَلَةِ بَنَاتِهِ وَبَنَاتِهِنَّ، وَفِي مُعَامَلَةِ أَوْلَادِهِنَّ، وَبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ فِي ذَلِكَ أَكْبَرَ مُعَلِّمٍ وَمُهَذِّبٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ.

⦿ ⦿ ⦿

الْحُرُوبُ وَالسَّطْوُ وَالْإِغَارَةُ

مِمَّا كَانَ فَاشِيًا بَيْنَ الْعَرَبِ: الْحُرُوبُ، وَالسَّطْوُ، وَالْإِغَارَةُ؛ كَانَتْ تَقُومُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْحُرُوبُ لِأَتْفَهِ الْأَسْبَابِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ، أَوْ سِبَاقِ فَرَسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَذَلِكَ كَحَرْبِ الْبَسُوسِ: الَّتِي قَامَتْ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ أَرْبَعِينَ عَامًا مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ، حَتَّىٰ أَكَلَتِ الْكَثِيرَ مِنْ أَبْطَالِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ، وَكَانَ مِنْ ضَحَايَاهَا كُلَيْبُ بْنُ رَبِيعَةَ.

وَكَحَرْبِ دَاحِسَ وَالْغَبْرَاءِ الَّتِي قَامَتْ وَدَامَتْ طَوِيلًا بِسَبَبِ سِبَاقِ فَرَسَيْنِ.

وَكَانَ يَغْلِبُ عَلَىٰ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الْبَدْوِ السَّطْوُ وَالْإِغَارَةُ قَصْدَ نَهْبِ الْأَمْوَالِ، وَسَبْيِ الْأَحْرَارِ وَبَيْعِهِمْ؛ كَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ كَانَ عَرَبِيًّا حُرًّا، وَكَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فَقَدْ كَانَ حُرًّا.

وَقَدْ قَضَىٰ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ كَانَتْ تَسِيرُ الْمَرْأَةُ -فَضْلًا عَنِ الرَّجُلِ- مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهَا.

⊙ ⊙ ⊙

الْعِلْمُ وَالْقِرَاءَةُ وَالْكِتَابَةُ

وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ أُمَّةً أُمِّيَّةً لَا تَكْتُبُ وَلَا تَحْسُبُ، وَهَذِهِ هِيَ الصِّفَةُ الَّتِي كَانَتْ غَالِبَةً عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، بَلْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ وَالْأُمِّيَّةُ وَالتَّقْلِيدُ وَالْجُمُودُ عَلَىٰ الْقَدِيمِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا.

وَكَانَ فِيهِمْ قَلِيلٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ أُمِّيَّتِهِمْ وَعَدَمِ اتِّسَاعِ مَعَارِفِهِمْ، كَانُوا يُشْتَهَرُونَ بِالذَّكَاءِ، وَالْفِطْنَةِ، وَ الْأَلْمَعِيَّةِ، وَلُطْفِ الْمَشَاعِرِ، وَإِرْهَافِ الْحِسِّ، وَحُسْنِ الِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِقَبُولِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالتَّوْجِيهِ الرَّشِيدِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَصَارُوا عُلَمَاءَ حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَزَالَتْ عَنْهُمُ الْأُمِّيَّةُ، وَصَارَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِهِمْ.

وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ النُّجُومِ وَمَسَارَاتِهَا، وَيَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ الِاهْتِدَاءِ بِهَا، وَيَعْرِفُ الْأَنْوَاءَ وَسُقُوطَ الْأَمْطَارِ، وَيَتَحَسَّسُ مَخَابِئَ الْمَاءِ تَحْتَ أَطْبَاقِ الْأَرْضِ، كَمَا مَهَرُوا فِي عِلْمِ قَفِّ الْأَثَرِ، وَهُوَ الْقِيَافَةُ.

وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ كَالْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ، وَكَانَ طِبُّهُمْ مَبْنِيًّا عَلَىٰ التَّجَارِبِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْبِيئَةِ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

الْحَالَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

وَأَمَّا الْحَالَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ بَعْضُ الْأَخْلَاقِ الْمَرْذُولَةِ؛ كَالْعُنْجُهِيَّةِ، وَالْعَصَبِيَّةِ، وَالظُّلْمِ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَالْأَخْذِ بِالثَّأْرِ، وَاغْتِصَابِ الْأَمْوَالِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتَامَىٰ، وَالتَّعَامُلِ بِالرِّبَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالسَّرِقَةِ، وَالزِّنَا.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الزِّنَا إِنَّمَا كَانَ فِي الْإِمَاءِ، وَأَصْحَابِ الرَّايَاتِ مِنَ الْبَغَايَا، وَيَنْدُرُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرَائِرِ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَخَذَ الْبَيْعَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بَعْدَ الْفَتْحِ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَتْ: أَوَتَزْنِي الْحُرَّةُ؟!

وَكَانُوا يُزَاوِلُونَ أَلْوَانًا مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمُجُونِ وَالشَّطَارَةِ -وَهِيَ اتِّبَاعُ وَسَائِلِ الْخُبْثِ وَاللُّؤْمِ؛ كَمُغَازَلَةِ النِّسَاءِ، وَمُعَاكَسَةِ الْإِمَاءِ، وَالتَّعَرُّضِ إِلَيْهِنَّ بِاللَّيْلِ، وَتَصَنُّعِ الْبُطُولَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ-، فَكَانُوا يُزَاوِلُونَ أَلْوَانًا مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمُجُونِ وَالشَّطَارَةِ، وَالْقِمَارِ -وَهُوَ الْمَيْسِرُ-، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

◉◉◉

مِنْ فَضَائِلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا كُلُّهُم عَلَىٰ هَذَا؛ لَقَدْ كَانَ فِيهِمْ كَثِيرٌ لَا يَزْنُونَ، وَلَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَلَا يَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ وَلَا يَظْلِمُونَ، وَيَتَحَرَّجُونَ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ، وَيَتَنَزَّهُونَ عَنِ التَّعَامُلِ بِالرِّبَا، هَذَا وَلَكِنْ -مَعَ الْحَقِّ- أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي فَضَائِلَ وَأَخْلَاقٍ كَرِيمَةٍ مُتَأَصِّلَةٍ فِيهِمْ، بَلِ الرَّأْيُ أَنَّ فَضَائِلَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَثَالِبِهِمْ؛ لِهَذَا اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ خَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ مِنْهُمْ، وَاسْتَأْهَلُوا أَنْ يَكُونُوا حَمَلَةَ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ؛ لِيُبَلِّغُوهَا إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً.

مِنْ فَضَائِلِهِمْ: الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ صَافِيَةً، لَمْ تَدْخُلْهَا تِلْكَ الْفَلْسَفَاتُ وَالْأَسَاطِيرُ وَالْخُرَافَاتُ الَّتِي يَصْعُبُ إِزَالَتُهَا كَمَا فِي الشُّعُوبِ الْهِنْدِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ تُعَدُّ لِحَمْلِ أَعْظَمِ رِسَالَةٍ فِي الْوُجُودِ، وَهِيَ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ الْخَالِدَةُ؛ لِهَذَا كَانُوا أَحْفَظَ شَعْبٍ عُرِفَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

وَقَدْ وَجَّهَ الْإِسْلَامُ قَرِيحَةَ الْحِفْظِ وَالذَّكَاءِ إِلَىٰ حِفْظِ الدِّينِ وَحِمَايَتِهِ، فَكَانَتْ قُوَاهُمُ الْفِكْرِيَّةُ وَمَوَاهِبُهُمُ الْفِطْرِيَّةُ مَذْخُورَةً فِيهِمْ لَمْ تُسْتَهْلَكْ فِي فَلْسَفَاتٍ خَيَالِيَّةٍ، وَلَا فِي جِدَالٍ بِيزَنْطِيٍّ عَقِيمٍ، وَلَا فِي مَذَاهِبَ كَلَامِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ.

وَاتِّسَاعُ لُغَتِهِمْ دَلِيلٌ عَلَىٰ قُوَّةِ حِفْظِهِمْ وَذَاكِرَتِهِمْ؛ فَإِذَا كَانَ لِلْعَسَلِ عِنْدَهُمْ ثَمَانُونَ اسْمًا، وَلِلثَّعْلَبِ مِئَتَانِ، وَلِلْأَسَدِ خَمْسُمِئَةِ اسْمٍ، وَكَذَلِكَ لِلْجَمَلِ لَهُ أَلْفُ اسْمٍ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَكَذَا السَّيْفُ، وَلِلدَّاهِيَةِ نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ اسْمٍ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: مِنَ الدَّوَاهِي كَثْرَةُ أَسْمَاءِ الدَّوَاهِي؛ فَالدَّاهِيَةُ لَهَا نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ اسْمٍ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِيعَابَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذَاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ حَاضِرَةٍ وَقَّادَةٍ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ إِلَىٰ الْفَهْمِ بِالْإِشَارَةِ، فَضْلًا عَنِ الْعِبَارَةِ، وَالْأَمْثِلَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ ضَافِيَةٌ وَكَثِيرَةٌ.

مِنْ فَضَائِلِهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كَرَمٍ وَسَخَاءٍ، كَانَ هَذَا الْخُلُقُ مُتَأَصِّلًا فِي الْعَرَبِ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ إِلَّا فَرَسُهُ أَوْ نَاقَتُهُ، فَيَأْتِيهِ الضَّيْفُ فَيُسَارِعُ إِلَىٰ ذَبْحِهَا أَوْ نَحْرِهَا لَهُ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَكْتَفِي بِإِطْعَامِ الْإِنْسَانِ، بَلْ كَانَ يُطْعِمُ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ، وَكَرَمُ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ، وَضُرِبَتْ بِهِ الْأَمْثَالُ.

وَمِنْ فَضَائِلِهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ شَجَاعَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَنَجْدَةٍ، وَكَانُوا يَتَمَادَحُونَ بِالْمَوْتِ قَتْلَىٰ، وَيَتَهَاجَوْنَ بِالْمَوْتِ عَلَىٰ الْفِرَاشِ.

قَالَ أَحَدُهُمْ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ أَخِيهِ: إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ وَعَمُّهُ، إِنَّا وَاللهِ لَا نَمُوتُ حَتْفًا، وَلَكِنْ قَطْعًا بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ.

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَىٰ حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَىٰ غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وَكَانَ الْعَرَبُ لَا يُقَدِّمُونَ شَيْئًا عَلَىٰ الْعِزِّ، وَصِيَانَةِ الْعِرْضِ، وَحِمَايَةِ الْحَرِيمِ، وَاسْتَرْخَصُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ نُفُوسَهُمْ؛ قَالَ عَنْتَرَةُ:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعْزِلِ

فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ

فَاقْنِي حَيَاءَكِ لَا أَبَا لَكِ وَاعْلَمِي ... أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

وَقَالَ أَيْضًا:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ ... بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ

مَاءُ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ ... وَجَهَنَّمٌ بِالْعِزِّ أَطْيَبُ مَنْزِلِ

وَكَانَ الْعَرَبُ بِفِطْرَتِهِمْ أَصْحَابَ شَهَامَةٍ وَمُرُوءَةٍ فَكَانُوا يَأْبَوْنَ أَنْ يَنْتَهِزَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ أَوِ الْعَاجِزَ أَوِ الْمَرْأَةَ أَوِ الشَّيْخَ، وَكَانُوا إِذَا اسْتَنْجَدَ بِهِمْ أَحَدٌ أَنْجَدُوهُ، وَيَرَوْنَ مِنَ النَّذَالَةِ التَّخَلِّيَ عَمَّنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ.

مِنْ مَآثِرِهِمْ: عِشْقُهُمْ لِلْحُرِّيَّةِ، وَإِبَاؤُهُمْ لِلضَّيْمِ وَالذُّلِّ؛ كَانَ الْعَرَبِيُّ بِفِطْرَتِهِ يَعْشَقُ الْحُرِّيَّةَ يَحْيَا لَهَا، وَيَمُوتُ مِنْ أَجْلِهَا؛ فَقَدْ نَشَأَ طَلِيقًا، لَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، وَيَأْبَىٰ أَنْ يَعِيشَ ذَلِيلًا، أَوْ يُمَسَّ فِي شَرَفِهِ وَعِرْضِهِ، وَلَوْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ حَيَاتَهُ، فَقَدْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنَ الذُّلِّ، وَيَأْبَوْنَ الضَّيْمَ، وَالِاسْتِصْغَارَ، وَالِاحْتِقَارَ؛ وَإِلَيْكَ مِثَالًا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ:

جَلَسَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ مَلِكُ الْحِيرَةِ لِنُدَمَائِهِ وَسَأَلَهُمْ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ تَأْنَفُ أُمُّهُ خِدْمَةَ أُمِّي؟ قَالُوا: نَعَمْ، أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ الشَّاعِرِ!

فَدَعَا الْمَلِكُ عَمْرَو بْنَ كُلْثُومٍ لِزِيَارَتِهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ، وَقَدِ اتَّفَقَ الْمَلِكُ مَعَ أُمِّهِ أَنْ تَقُولَ لِأُمِّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ بَعْدَ الطَّعَامِ: نَاوِلِينِي الطَّبَقَ الَّذِي بِجَانِبِكِ.

فَلَمَّا جَاءَتْ قَالَتْ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ: لِتَقُمْ صَاحِبَةُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ حَاجَتِهَا!

فَأَعَادَتْ عَلَيْهَا الْكَرَّةَ وَأَلَحَّتْ، فَصَاحَتْ لَيْلَىٰ أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ: وَاذُلَّاهُ يَا لَتَغْلِبَ!

فَسَمِعَهَا ابْنُهَا، فَاشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ، فَرَأَىٰ سَيْفًا لِلْمَلِكِ مُعَلَّقًا بِالرُّوَاقِ فَتَنَاوَلَهُ، وَضَرَبَ بِهِ رَأْسَ الْمَلِكِ عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ، وَنَادَىٰ فِي بَنِي تَغْلِبَ، وَانْتَهَبُوا مَا فِي الرُّوَاقِ، وَنَظَمَ قَصِيدَتَهُ يُخَاطِبُ فِيهَا الْمَلِكَ قَائِلًا:

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا

تُهَدِّدُنَا وَتُوعِدُنَا رُوَيْدًا ... مَتَىٰ كُنَّا لِأُمِّكَ مُقْتَوِينَا؟!

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

فَهَذَا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، بَلْ مِنْ أَبْرَزِ أَخْلَاقِهِمْ.

وَمِنْ مَآثِرِهِمُ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَحُبُّهُمْ لِلصَّرَاحَةِ وَالْوُضُوحِ وَالصِّدْقِ، كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَيَعِيبُونَهُ، وَكَانُوا أَهْلَ وَفَاءٍ؛ لِهَذَا كَانَتِ الشَّهَادَةُ بِاللِّسَانِ كَافِيَةً لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَفَتِهِمْ مِنَ الْكَذِبِ: قِصَّةُ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ هِرَقْلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ قَائِمَةً، قَالَ: «**لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

أَمَّا وَفَاؤُهُمْ، فَقَد قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ لِكِسْرَىٰ فِي بَيَانِ وَفَاءِ الْعَرَبِ: «فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَلْحَظُ اللَّحْظَةَ، وَيُومِئُ الْإِيمَاءَةَ فَإِذَا هِيَ وَلْثٌ وَعُقْدَةٌ لَا يَحُلُّهَا إِلَّا خُرُوجُ نَفْسِهِ، وَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَرْفَعُ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ، فَيَكُونُ رَهْنًا بِدَيْنِهِ فَلَا يُغْلَقُ رَهْنُهُ، وَلَا تُخْفَرُ ذِمَّتُهُ، وَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَبْلُغُهُ أَنَّ رَجُلًا اسْتَجَارَ بِهِ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَائِيًا عَنْ دَارِهِ فَيُصَابَ، فَلَا يَرْضَىٰ حَتَّىٰ يُفْنِيَ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُ أَوْ تَفْنَىٰ قَبِيلَتُهُ لِمَا أُخْفِرَ مِنْ جِوَارِهِ، وَإِنَّهُ لَيَلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْمُجْرِمُ الْمُحْدِثُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا قَرَابَةٍ، فَتَكُونُ أَنْفُسُهُمْ دُونَ نَفْسِهِ، وَأَمْوَالُهُمْ دُونَ مَالِهِ».

الْوَفَاءُ خُلُقٌ مُتَأَصِّلٌ بِالْعَرَبِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ فَوَجَّهَهُ الْوِجْهَةَ السَّلِيمَةَ، فَغَلَّظَ عَلَىٰ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ وَقَرَابَتُهُ، وَقَالَ ﷺ: «**وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا**».

فَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ كَانَ مِنْ فَضَائِلِ الْعَرَبِ، وَمِنْ أَخْلَاقِهِمُ الْأَصِيلَةِ، فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ؛ قِصَّةُ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَّاءَ، وَكَانَ يَهُودِيًّا، قِصَّتُهُ فِي

الْوَفَاءِ مَشْهُورَةٌ؛ فَقَدْ ضَحَّىٰ بِابْنِهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَخُونَ الْعَهْدَ بِتَسْلِيمِ الْأَدْرُعِ الَّتِي أُودِعَتْ عِنْدَهُ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّهُ لَمَّا ظَفَرَ الْحَارِثُ بْنُ عَبَّادٍ بِقَاتِلِ ابْنِهِ وَهُوَ الْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ فِي حَرْبِ الْبَسُوسِ، لَمَّا ظَفَرَ بِهِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، قَالَ لَهُ الْمُهَلْهِلُ: إِذَا دَلَلْتُكَ عَلَىٰ الْمُهَلْهِلِ تُطْلِقُنِي؟ فَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبَّادٍ: نَعَمْ!

فَقَالَ لَهُ: أَنَا! أَنَا الْمُهَلْهِلُ!

فَاكْتَفَىٰ بِأَنْ جَذَّ نَاصِيَتَهُ وَتَرَكَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُخْلِفَ وَعْدَهُ مَعَ أَنَّهُ هُوَ قَاتِلُ وَلَدِهِ!

كَذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمُ: الْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، فَقَدْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يُنَازِلُ خَصْمَهُ وَقِرْنَهُ حَتَّىٰ إِذَا أَمْكَنَهُ اللهُ مِنْهُ، عَفَا عَنْهُ وَتَرَكَهُ، بَلْ كَانَ يَأْبَىٰ أَنْ يُجْهِزَ عَلَىٰ جَرِيحٍ.

مِنْ أَخْلَاقِهِمْ: حِمَايَةُ الْجَارِ، وَإِجَارَةُ الْمُسْتَجِيرِ، وَكَانُوا إِذَا اسْتَجَارَ بِالْوَاحِدِ مِنْهُمْ مُسْتَجِيرٌ أَجَارَهُ، وَرُبَّمَا ضَحَّىٰ بِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ فِي سَبِيلِ إِجَارَتِهِ، كَمَا كَانُوا يَرْعَوْنَ حُقُوقَ الْجَارِ، وَلَا سِيَّمَا رِعَايَةُ حُرَمِهِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ عِرْضِهِ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّىٰ يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَفَضَائِلِهِمُ: الْقَنَاعَةُ وَالرِّضَا بِالْيَسِيرِ: فَمِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ الْقَنَاعَةُ، وَهِيَ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ، وَلَعَلَّ طَبِيعَةَ الْبِلَادِ هِيَ الَّتِي فَطَرَتْهُمْ عَلَىٰ هَذَا الْخُلُقِ؛ فَقَدْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسِيرُ الْأَيَّامَ مُكْتَفِيًا بِتَمَرَاتٍ يُقِيمُ بِهَا صُلْبَهُ، وَرَشْفَاتٍ مِنْ مَاءٍ يُرَطِّبُ بِهَا كَبِدَهُ، وَكَذَلِكَ قِلَّةُ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ جَعَلَتْهُمْ يَكْتَفُونَ بِالْقَلِيلِ؛ قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ إِبِلٌ فَمِعْزَىٰ ... كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا الْعِصِيُّ

فَتَمْلَأُ بَيْتَنَا أَقِطًا وَسَمْنًا ... وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًىٰ شِبَعٌ وَرِيُّ

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ: قُوَّةُ الرُّوحِ، وَعَظَمَةُ النَّفْسِ، وَالْعَرَبِيُّ يَمْتَازُ إِلَىٰ شَجَاعَتِهِ الْبَدَنِيَّةِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ، وَعَظَمَةِ النَّفْسِ، وَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْبُطُولَةُ النَّفْسِيَّةُ إِلَىٰ الْبُطُولَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ صَنَعَتَا الْعَجَائِبَ، وَهَذَا مَا حَدَثَ بَعْدَ تَشَرُّفِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَتَوَحُّدِهِمْ تَحْتَ لِوَائِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَهَابُوا الْفُرْسَ وَلَا الرُّومَ عَلَىٰ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ مَعَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ.

كَانُوا يَصْبِرُونَ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ بِقُوَّةِ الِاحْتِمَالِ، وَالرِّضَا بِالْيَسِيرِ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْمَيْسُورِ، كَانُوا يَقُومُونَ مِنَ الْأَكْلِ وَيَقُولُونَ: الْبِطْنَةُ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ، وَيَعِيبُونَ الرَّجُلَ الْأَكُولَ الْجَشِعَ.

قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِذَا مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَىٰ الزَّادِ لَمْ أَكُنْ ... بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ

هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَغَيْرُهَا كَانَتْ رَصِيدًا مُدَّخَرًا فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَنَمَّاهَا وَقَوَّاهَا، وَوَجَّهَهَا وِجْهَةَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا كَانُوا انْطَلَقُوا مِنْ شِبْهِ جَزِيرَتِهِمْ كَمَا يَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ الْأَطْهَارُ؛ فَفَتَحُوا الْأَرْضَ، وَمَلَئُوهَا إِيمَانًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ كُفْرًا، وَعَدْلًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَفَضَائِلَ بَعْدَ أَنْ عَمَّهَا الرَّذَائِلُ، وَخَيْرًا بَعْدَ أَنْ طَفَحَتْ شَرًّا، وَتَحَقَّقَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

⊙ ⊙ ⊙

مَدَنِيَّةُ الْعَرَبِ وَحَضَارَتُهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

الْعَرَبُ كَانَتْ لَهُمْ مَدِنيَّتُهُمْ وَحضَارَتُهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ -كَما مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ-، وَمَفْهُومُ الْحَضَارَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ مِنْهُمْ خَاصَّةً؛ هِيَ كَمَا بَيَّنَهَا ابْنُ خَلْدُونَ فِي «مُقَدِّمَتِهِ» أَنَّ الْحَضَارَةَ: «عِبَارَةٌ عَنْ نَمَطٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يُنْشِئُ الْقُرَىٰ وَالْأَمْصَارَ، وَيُضْفِي عَلَىٰ حَياةِ أَصْحَابِهِ فُنُونًا مُنْتَظِمَةً مِنَ الْعَيْشِ، وَالْعَمَلِ، وَالِاجْتِمَاعِ، وَالْعِلْمِ، الصِّنَاعَةِ، وَإِدَارَةِ شُئُونِ الْحَيَاةِ، وَالْحُكْمِ، وَتَرْتِيبِ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَأَسْبَابِ الرَّفَاهِيَةِ».

أَمَّا مَفْهُومُ الْحَضَارَةِ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ، فَيُعَرِّفُهَا أَصْحَابُ الْمَعَاجِمِ بِأَنَّهَا: «مَظَاهِرُ الرُّقِيِّ الْعِلْمِيِّ وَالْفَنِّيِّ وَالْأَدَبِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ فِي الْحَضَرِ».

وَلَا يُعَكِّرُ عَلَىٰ هَذَا التَّعْرِيفِ إِلَّا قَصْرُ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ عَلَىٰ الْحَضَرِ؛ أَيِ: الْمُدُنِ، مَعَ أَنَّ الْمَكَانَ لَا دَخْلَ لَهُ فِي تَغْيِيرِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَطَبَائِعِهَا؛ فَهَلْ لَوْ وُجِدَتْ تِلْكَ الْمَظَاهِرُ أَوْ بَعْضُهَا لِقُرًىٰ أَصْبَحَتْ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ؟!

مَا نَظُنُّ هَذَا؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ تَعْرِيفُ ابْنِ خَلْدُونَ أَسْلَمَ مَنْطِقًا، وَأَشْمَلَ مَفْهُومًا، وَأَدَقَّ تَحْدِيدًا.

الْحَضَارَةُ فِي اللُّغَةِ: الْإِقَامَةُ الثَّابِتَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْمُدُنِ وَالْقُرَىٰ، تُقَابِلُهَا الْبَدَاوَةُ، وَصِلَةُ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ بِالْمَعْنَىٰ الِاصْطِلَاحِيِّ الْآتِي بَيَانُهُ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ الْإِقَامَةَ الثَّابِتَةَ فِي الْمُدُنِ أَوِ الْقُرَىٰ تَسْتَلْزِمُ النَّشَاطَ الْعَقْلِيَّ وَالْوِجْدَانِيَّ وَالسُّلُوكِيَّ الَّذِي يُنْتِجُ الْحَضَارَةَ.

فَيُسْتَخْلَصُ مِنَ التَّعْرِيفَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ أَنَّ الْحَضَارَةَ عِبَارَةٌ عَنْ: إِنْتَاجِ الْإِنْسَانِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْوَاعِي؛ بِحَيْثُ تَتَجَلَّىٰ فِي هَذَا الْإِنْتَاجِ خَصَائِصُهُ الْفِكْرِيَّةُ وَالْوِجْدَانِيَّةُ وَالسُّلُوكِيَّةُ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ يَتَّسِعُ لِكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالرُّوحِ وَالْفِكْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنِ الْجَانِبِ الْمَادِّيِّ مِنَ الْعُمْرَانِ، وَمَا يُنْتِجُهُ الْعِلْمُ التَّجْرِيبِيُّ وَالِاخْتِرَاعُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِجَمِيعِ مَرَافِقِ الْحَيَاةِ؛ كَالصِّنَاعَةِ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالطِّبِّ، وَالْهَنْدَسَةِ، وَمَا إِلَيْهَا مِمَّا يَكُونُ عَوْنًا عَلَىٰ تَيْسِيرِ الْعَيْشِ وَرَغَدِ الْحَيَاةِ.

كَمَا يُسْتَخْلَصُ مِنْ هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الْمُجْتَمَعَاتِ تَخْتَلِفُ فِي نُمُوِّهَا الْحَضَارِيِّ بِمِقْدَارِ مَا تُسْهِمُ فِي تَحْقِيقِ عَنَاصِرِ الْحَضَارَةِ فِي حَيَاتِهَا، وَبِمِقْدَارِ مَا يُسْعِفُهَا وَعْيُهَا وَظُرُوفُهَا الْبِيئِيَّةُ فِي هَذَا الصَّدَدِ.

بِنَاءً عَلَىٰ هَذَا: هَلْ كَانَتْ لِلْعَرَبِ حَضَارَةٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ حَضَارَةٌ فِي الْيَمَنِ، وَفِي دِيَارِ عَادٍ، وَفِي دِيَارِ ثَمُودَ، وَفِي الْحِيرَةِ، وَفِي بِلَادِ غَسَّانَ، وَفِي بِلَادِ الشَّامِ، بَلْ وَفِي بِلَادِ الْحِجَازِ ذَاتِهَا؛ فِي مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ، وَالطَّائِفِ، وَقَدْ عَلِمْنَا مَا كَانَ فِي الْيَمَنِ مِنْ قِيَامِ مَمَالِكَ

ذَاتِ سِيَادَةٍ وَسُلْطَانٍ، وَلَهَا نُظُمٌ وَقَوَانِينُ، وَمَجَالِسُ شُورَىٰ وَقَضَاءٌ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْمَمَالِكُ مِنْ حَضَارَةٍ زَاهِيَةٍ وَعِلْمٍ، فَقَدْ أَقَامُوا السُّدُودَ وَالْخَزَّانَاتِ لِلِاسْتِفَادَةِ بِالْمَاءِ وَعَدَمِ تَبَدُّدِهِ فِي الصَّحْرَاءِ، وَبِذَلِكَ تَمَّ لَهُمْ تَنْظِيمُ الصَّرْفِ وَالرَّيِّ، وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذَا يَتَطَلَّبُ فَنًّا وَعِلْمًا بِالْأُصُولِ الْهَنْدَسِيَّةِ، وَتَقَدُّمًا فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ، وَنَاهِيكَ بِسَدِّ مَأْرِبِ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَفْخَمِ وَأَعْظَمِ مَا صَنَعَهُ الْإِنْسَانُ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، وَفِيمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ مَمْلَكَةِ سَبَأٍ، وَمَا كَشَفَ عَنْهُ عُلَمَاءُ الْآثَارِ فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَتِ الْيَمَنُ مِنْ بَسْطِ الْعَيْشِ، وَرَخَاءِ الْحَيَاةِ، وَفَخَامَةِ الْمَدَنِيَّةِ مَا حَمَلَ مُعَاصِرِيهِمْ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُسَمُّوا بِلَادَهُمْ: بِلَادَ الْعَرَبِ السَّعِيدَةَ.

كَذَلِكَ كَانَ فِي عَادٍ حَضَارَةٌ زِرَاعِيَّةٌ وَصِنَاعِيَّةٌ وَتِجَارِيَّةٌ وَمِعْمَارِيَّةٌ، وَكَذَلِكَ كَانَ فِي ثَمُودَ، وَبِحَسْبِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْحِتُونَ فِي الْجِبَالِ بُيُوتًا فِي غَايَةِ الدِّقَّةِ وَالْإِحْكَامِ، كَذَلِكَ قَامَتْ فِي الْحِيرَةِ عَلَىٰ تُخُومِ بِلَادِ فَارِسَ مَمْلَكَةٌ ذَاتُ شَأْنٍ، وَقَامَتْ حَضَارَةٌ بَلَغَتْ فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَبِحَسْبِنَا الْقَصْرَانِ الشَّهِيرَانِ: الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ؛ اللَّذَانِ مَا تَزَالُ آثَارُهُمَا بَاقِيَةً إِلَىٰ الْآنِ.

وَفِي بِلَادِ غَسَّانَ قَامَتْ حَضَارَةٌ، وَكَانَ هُنَاكَ عُمْرَانٌ وَتِجَارَةٌ وَزِرَاعَةٌ وَصِنَاعَةٌ، وَنُظُمٌ وَقَوَاعِدُ لِضَبْطِ شُئُونِ الْمُلْكِ، وَفِي دَوْلَةِ الْأَنْبَاطِ قَامَتْ مَمْلَكَةٌ وَكَانَتْ حَضَارَةٌ، وَفِي دَوْلَةِ تَدْمُرَ قَامَتْ مَمْلَكَةٌ وَكَانَتْ حَضَارَةٌ أَصِيلَةٌ، وَلَا تَزَالُ

آثَارُ الْمَعَابِدِ وَالْقُصُورِ فِي هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ بَاقِيَةً إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، شَاهِدَةً علىٰ مَا بَلَغَ الْقَوْمُ مِنْ حَضَارَةٍ.

وَإِذَا صَحَّ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ دَوْلَةَ (**حَمُورَابِي**) فِي بَابِلَ كَانَتْ عَرَبِيَّةً، وَأَنَّ أَصْلَهَا هُمُ الْعَمَالِيقُ الَّذِينَ نَزَحُوا مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَىٰ بِلَادِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ كَوَّنُوا لَهُمْ مَمْلَكَةً بِبَابِلَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْمِيلَادِ، إِذَا صَحَّ هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الدَّوْلَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الشَّوَاهِدِ عَلَىٰ حَضَارَةِ الْعَرَبِ؛ فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لَا تَقِلُّ فِي الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ عَنْ أَرْقَىٰ أُمَمِ الْأَرْضِ حَضَارَةً فِي زَمَانِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْعَرَبَ الْعَمَالِيقَ مَلَكُوا مِصْرَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَأَنَّهُمْ أَسَّسُوا بِهَا أُسْرَةً مَالِكَةً فَلَمْ يَكُونُوا أَقَلَّ مِنَ الْأُسَرِ الْمِصْرِيَّةِ فِي شَيْءٍ.

كَذَلِكَ نَشَأَتْ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ حَضَارَةٌ فِي مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ، وَالطَّائِفِ، وَنَحْوِهَا مِنَ الْمُدُنِ الْمَشْهُورَةِ؛ فَكَانَ هُنَاكَ بِنَاءٌ وَعِمَارَةٌ، وَكَانَتْ هُنَاكَ تِجَارَةٌ وَتُجَّارٌ مَهَرَةٌ يُصَيِّرُونَ مِنْ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ ذَهَبًا، وَكَانَتْ هُنَاكَ زِرَاعَةٌ وَبَسَاتِينُ؛ فِي الْمَدِينَةِ، وَفِي الطَّائِفِ، وَفِي الْيَمَامَةِ، وَفِي هَجَرَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ مَجْلِسٌ لِلشُّورَىٰ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَدَارٌ لِهَذَا.

وَإِذَا كَانَ الْجَانِبُ الْأَخْلَاقِيُّ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُهِمَّةِ فِي تَكْوِينِ الْحَضَارَةِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ حَضَرًا وَبَدَوًا مِنْ ذَلِكَ رَصِيدٌ ضَخْمٌ؛ مِنْ كَرَمٍ وَشَجَاعَةٍ، وَحِمَايَةٍ لِلذِّمَارِ، وَمُرُوءَةٍ وَنَجْدَةٍ، وَرِعَايَةٍ لِلْجَارِ، وَوَفَاءٍ بِالْعَهْدِ، وَإِبَاءٍ لِلضَّيْمِ وَالذُّلِّ،... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَإِنَّ حَضَارَةَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْأَصِيلَةِ لَأَهَمُّ مِنْ حَضَارَةِ الْبِنَاءِ وَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ؛ إِذْ عَلَيْهَا تَقُومُ الْأُمَمُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ وَالْخُلُودَ، وَمَاذَا تُجْدِي الْحَضَارَةُ الْمَادِّيَّةُ إِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ خَالِيَةً مِنَ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ؟!

لَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ خَصَائِصُ فِطْرِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ وَخُلُقِيَّةٌ هِيَ الَّتِي أَهَّلَتْهُمْ بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَقِمَّةُ الْعَرَبِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْ يَكُونُوا حَمَلَةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَالِدَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ، وَإِذْ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مَمَالِكُ وَحَضَارَاتٌ سَاهَمَتْ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ فِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا تَعَجُّبَ إِذَا كَانُوا لَمَّا اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ عَنْ يَقِينٍ وَاقْتِنَاعٍ، صَنَعُوا الْأَعَاجِيبَ فِي بَابِ الْحَضَارَةِ، وَبَلَغُوا فِيهَا شَأْوًا لَمْ تَبْلُغْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا تَزَالُ آثَارُ هَذِهِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَاقِيَةً إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَضَارَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الْأُسُسِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا الْحَضَارَةُ الْأُورُوبِّيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ الْمُنْصِفُونَ مِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ.

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَبْقَىٰ عَلَىٰ الصُّورَةِ الذِّهْنِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فَضْلٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمَسِيرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالرُّقِيِّ الْحَضَارِيِّ لِبَنِي الْإِنْسَانِ فِي

هَذَا الْوُجُودِ. كَانَتْ قُوَىٰ الْعَرَبِ الْعَمَلِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ، وَمَوَاهِبُهُمُ الْفِطْرِيَّةُ، مَذْخُورَةً فِيهِمْ لَمْ تُسْتَهْلَكْ، فَكَانَتْ أُمَّةً بِكْرًا دَافِقَةً بِالْحَيَاةِ وَالنَّشَاطِ، وَالْعَزْمِ وَالْحَمَاسِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ** -أَيْ: أَصْلَبُهُمْ فِي مُرَاعَاةِ الدِّينِ؛ بِحَيْثُ لَا يُرَاعِي أَحَدًا فِيهِ-، **وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**».

كَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أَشَدِّ الْفَتَرَاتِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ ظُلْمَةً وَانْحِطَاطًا، وَكَانَتْ أَبْعَدَ عَنْ كُلِّ أَمَلٍ فِي الْإِصْلَاحِ، وَهِيَ أَصْعَبُ مَرْحَلَةٍ وَاجَهَهَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَدَقُّهَا.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: **وَاللهِ لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ؛ حَتَّىٰ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَىٰ وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ**

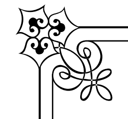
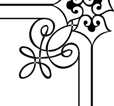
حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الْخُلُقِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ قَبْلَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

⊙ ⊙ ⊙

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّامِنَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]





جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَكَّةُ قَبْلَ الإِسْلَامِ

وَأَمَّا مَكَّةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا وَبُعِثَ نَبِيُّنَا ﷺ، فَمَكَّةُ تَقَعُ فِي بَطْنِ وَادٍ تُشْرِفُ عَلَيْهَا الْجِبَالُ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي؛ فَإِلَىٰ الشَّرْقِ يَمْتَدُّ جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ، وَإِلَىٰ الْغَرْبِ يَحُدُّهَا جَبَلُ قُعَيْقِعَانَ، وَيَمْتَدَّانِ بِشَكْلِ هِلَالٍ فَيَحْصُرَانِ عُمْرَانَ مَكَّةَ.

وَتُعْرَفُ الْمَنْطِقَةُ الْمُنْخَفِضَةُ مِنَ الْوَادِي بِالْبَطْحَاءِ، وَيَقَعُ بِهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَتُحِيطُ بِهَا دُورُ قُرَيْشٍ.

أَمَّا الْمَنْطِقَةُ الْمُرْتَفِعَةُ فَتُعْرَفُ بِالْمَعْلَاةِ، أَمَّا عِنْدَ طَرَفَيْ هِلَالٍ فَتَقُومُ دُورٌ سَاذَجَةٌ لِقُرَيْشِ الظَّوَاهِرِ، وَهُمْ أَعْرَابٌ فُقَرَاءُ أَصْحَابُ قِتَالٍ، لَكِنَّهُمْ دُونَ قُرَيْشِ الْبِطَاحِ فِي التَّحَضُّرِ وَالْغِنَىٰ وَالْجَاهِ.

وَكَانَتْ صِلَاتُ النَّسَبِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ؛ حَيْثُ إِنَّ قُرَيْشًا تَنْتَمِي إِلَىٰ كِنَانَةَ الَّتِي تَسْكُنُ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ، كَانَتْ تُعْطِي -أَيْ: تِلْكَ الصِّلَاتُ فِي النَّسَبِ- مَكَّةَ عُمْقًا اسْتِرَاتِيجِيًّا، وَقَدْ وُثِّقَتْ صِلَةُ النَّسَبِ بِالْمُحَالَفَاتِ أَيْضًا.

كَانَ الْأَحَابِيشُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ حُلَفَاءَ لِقُرَيْشٍ أَيْضًا، وَكَانُوا يُسْتَخْدَمُونَ فِي حِرَاسَةِ الْقَوَافِلِ الْمَكِّيَّةِ، وَامْتَدَّتِ الْأَحْلَافُ لِتَشْمَلَ الْقَبَائِلَ الَّتِي تَقَعُ عَلَىٰ خُطُوطِ التِّجَارَةِ الْمَكِّيَّةِ إِلَىٰ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ.

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَدْفَعُ لَهُمْ جِعَالَاتٍ مُعَيَّنَةً، وَتُشْرِكُ زُعَمَاءَهُمْ فِي تِجَارَتِهَا، وَسُمِّيَ هَذَا بِالْإِيلَافِ، وَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، بَلْ تَمكَّنَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ مِنَ الْحُصُولِ عَلَىٰ حَقِّ التِّجَارَةِ دَاخِلَ أَرَاضِي الرُّومِ وَالْفُرْسِ بِالِاتِّفَاقِ مَعَ حُكَّامِهِمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَىٰ عَقْدِ الْمُعَاهَدَاتِ مَعَهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَىٰ مَسْلَكِ الْحِيَادِ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ فَارِسَ وَالرُّومِ.

وَاقْتِصَادُ مَكَّةَ يَقُومُ أَسَاسًا عَلَىٰ التِّجَارَةِ، أَمَّا الصِّنَاعَةُ فَكَانَتْ قَلِيلَةً؛ أَبْرَزُهَا: صِنَاعَةُ الْأَسْلِحَةِ مِنْ رِمَاحٍ، وَسُيُوفٍ، وَدُرُوعٍ، وَنِبَالٍ، وَسَكَاكِينَ، ثُمَّ صِنَاعَةُ الْفَخَّارِ، وَالنِّجَارَةِ لِصِنَاعَةِ الْأَسِرَّةِ، وَالْأَرَائِكِ.

كَمَا أَنَّ الْمَوَارِدَ الِاقْتِصَادِيَّةَ الْأُخْرَىٰ كَتَرْبِيَةِ الْمَاشِيَةِ وَالصَّيْدِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً، لَكِنْ بَقِيَتِ التِّجَارَةُ أَسَاسًا لِاقْتِصَادِ مَكَّةَ، فَكَانَتْ سِيَاسَةُ الْإِيلَافِ وَالْمُعَاهَدَاتِ سَبَبًا فِي ازْدِهَارِ مَكَّةَ، وَتَكَاثُرِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ فِيهَا بِسَبَبِ الِانْتِقَالِ مِنَ التِّجَارَةِ الْمَحَلِّيَّةِ إِلَىٰ التِّجَارَةِ الدَّوْلِيَّةِ.

وَسَاعَدَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ عَلَىٰ ازْدِهَارِ طُرُقِ التِّجَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ بَدَلَ الطَّرِيقِ الْبَرِّيِّ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، فَكَانَتِ الْبَضَائِعُ تُنْقَلُ مِنَ الْهِنْدِ إِلَىٰ الْيَمَنِ ثُمَّ مَكَّةَ فَالشَّامِ، وَصَارَتِ الْقَوَافِلُ الْكَبِيرَةُ تُمَوَّلُ مِنْ قِبَلِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَكِّيِّينَ بِشَكْلِ أَسْهُمٍ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ عَلَىٰ حَسَبِ قُدُرَاتِهِمُ الْمَالِيَّةِ.

وَهَكَذَا سَاعَدَتِ التِّجَارَةُ عَلَىٰ تَعْمِيقِ أَوَاصِرِ الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ؛ إِذْ رَبَطَتْهُ بِالْمَصَالِحِ إِلَىٰ جَانِبِ وَشَائِجِ الْقُرْبَىٰ، لَكِنَّ هَذِهِ الْمُشَارَكَةَ لَمْ تَحُلْ دُونَ نُشُوءِ

طَبَقَةٍ غَنِيَّةٍ مُتْخَمَةٍ، وَأُخْرَىٰ مُتَوَسِّطَةٍ، وَثَالِثَةٍ مُعْدَمَةٍ؛ فَرُءُوس الْأَمْوَالِ الْكَبِيرَةِ بِيَدِ الْأَغْنِيَاءِ، وَهِيَ تَتَعَاظَمُ بِالتِّجَارَةِ وَالْإِقْرَاضِ الرِّبَوِيِّ لِلْمُحْتَاجِينَ، وَبِالِاسْتِثْمَارِ بِالزِّرَاعَةِ فِي الطَّائِفِ الْمُجَاوِرَةِ، وَهَكَذَا كَانَ مِنْ أَغْنِيَاءِ مَكَّةَ مَنْ يَأْكُلُ بِصِحَافِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي حِينِ كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِ مَكَّةَ فُقَرَاءَ.

وَكَانَتْ تِجَارَةُ مَكَّةَ تَسْلُكُ أَحْيَانًا الطُّرُقَ الْبَحْرِيَّةَ إِلَىٰ جَانِبِ الطُّرُقِ الْبَرِّيَّةِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ أُسْطُولًا تِجَارِيًّا، بَلْ تَسْتَخْدِمُ السُّفُنَ الْحَبَشِيَّةَ فِي الْعُبُورِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، أَمَّا السُّفُنُ الرُّومِيَّةُ فَكَانَتْ تَصِلُ إِلَىٰ مِينَاءِ الشُّعَيْبَةِ قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَ مَكَانَهَا جُدَّةُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْصُلُ مِنَ الْحَبَشَةِ عَلَىٰ الْبَخُورِ، وَالْأَطْيَابِ، وَرِيشِ النَّعَامِ، وَالْعَاجِ، وَالْجُلُودِ، وَالتَّوَابِلِ، وَالرَّقِيقِ الْأَسْوَدِ.

وَتَحْصُلُ مِنَ الشَّامِ عَلَىٰ الْقَمْحِ، وَالدَّقِيقِ، وَالزَّيْتِ، وَالْخَمْرِ.

وَتَحْصُلُ مِنَ الْهِنْدِ عَلَىٰ الذَّهَبِ، وَالْقَصْدِيرِ، وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَالْعَاجِ، وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ، وَالتَّوَابِلِ كَالْبُهَارِ وَالْفُلْفُلِ وَنَحْوِهَا، وَالْمَنْسُوجَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْقُطْنِيَّةِ وَالْكَتَّانِيَّةِ، وَالْأَرْجُوانِ، وَالزَّعْفَرَانِ، وَالْآنِيَةِ الْفِضِّيَّةِ وَالنُّحَاسِيَّةِ وَالْحَدِيدِيَّةِ، وَكَانَتْ تَحْمِلُ حَاصِلَاتِ بِلَادِ الْعَرَبِ مِنَ الزَّيْتِ وَالْبَلَحِ وَالصُّوفِ وَالْوَبَرِ وَالشَّعْرِ وَالْجُلُودِ وَالسَّمْنِ.

الاِقْتِصَادُ التِّجَارِيُّ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْأَمْنِ، وَقُرَيْشٌ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ سِيَاسَةَ الْحِلْمِ وَاللِّينِ، وَلَيْسَ الْقُوَّةَ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ غَايَتِهَا التِّجَارِيَّةِ، وَعَلَىٰ أَمَانِ طُرُقِهَا فِي تِجَارَتِهَا.

وَلَمْ تَدْخُلْ قُرَيْشٌ فِي حُرُوبٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ سِوَىٰ حُرُوبِ الْفِجَارِ الْأَرْبَعِ الَّتِي هِيَ حُرُوبٌ صَغِيرَةٌ وَمُنَاوَشَاتٌ، وَقَدْ شَهِدَ الرَّسُولُ ﷺ آخِرَهَا -وَهُوَ الْفِجَارُ الرَّابِعُ- وَعُمْرُهُ عِشْرُونَ سَنَةً، هَذَا هُوَ السَّائِدُ الشَّائِعُ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ -كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا- لَمْ يَشْهَدْ حَرْبَ الْفِجَارِ هَذِهِ. لَمْ تُحْرِزْ قُرَيْشٌ النَّصْرَ عَلَىٰ الْأَعْرَابِ فِي تِلْكَ الْمُنَاوَشَاتِ.

وَقَدْ سَاعَدَهَا عَلَىٰ تَحْقِيقِ الْأَمْنِ وُجُودُ الْكَعْبَةِ الَّتِي يَحُجُّ إِلَيْهَا الْعَرَبُ مِنْ شَتَّىٰ الْأَصْقَاعِ؛ حَيْثُ تُحِيطُ بِهَا أَصْنَامُهُمُ السِّتُّونَ وَالثَّلَاثُمِئَةٍ؛ بَعْضُهَا جَلَبَهَا عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيُّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَلَبَهَا مِنَ الشَّامِ كَهُبَلَ، وَبَعْضُهَا صُنِعَ مَحَلِّيًّا، وَبَعْضُهَا لَيْسَتْ مَصْنُوعَةً بَلْ هِيَ حِجَارَةٌ كَإِسَافَ وَنَائِلَةَ.

وَكَوْنُ مَكَّةَ مَرْكَزًا لِعِبَادَةِ الْعَرَبِ كَانَ يَمْنَحُ قُرَيْشًا الِاحْتِرَامَ، وَيُحَقِّقُ لَهَا الْإِيلَافَ مَعَ الْقَبَائِلِ وَالْحِمَايَةَ بِالتَّالِي لِتِجَارَتِهَا، وَحُرْمَةُ مَكَّةَ قَدِيمَةٌ تَرْجِعُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ ظَلَّتْ أَرْضًا مُقَدَّسَةً وَحَرَمًا آمِنًا حَتَّىٰ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَكَّدَ عَلَىٰ حُرْمَتِهَا وَقُدْسِيَّتِهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ تَقْدِيسُ الْكَعْبَةِ عَلَىٰ الْمَكِّيِّينَ، بَلِ امْتَدَّ إِلَىٰ الْعَرَبِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، وَلَمْ تَتَمَكَّنْ بُيُوتُ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ مِنْ مُنَافَسَةِ الْكَعْبَةِ؛

كَبَيْتِ الْأُقَيْصِرِ، وَبَيْتِ ذِي الْخُلَصَةِ، وَبَيْتِ صَنْعَاءَ، وَبَيْتِ نَجْرَانَ، وَلَمْ تَنْجَحْ مُحَاوَلَةُ أَبْرَهَةَ لِتَحْوِيلِ الْحَجِّ إِلَىٰ الْقُلَّيْسِ -وَهِيَ الْكَنِيسَةُ الَّتِي ابْتَنَاهَا فِي صَنْعَاءَ- بَعْدَ أَنْ أَخْفَقَتْ حَمْلَتُهُ الْعَسْكَرِيَّةُ عَلَىٰ مَكَّةَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ.

وَرَغْمَ وُجُودِ أَخْبَارٍ عَنْ سُكَّانِ مَكَّةَ الْقُدَامَىٰ، وَهُمْ: جُرْهُمٌ، ثُمَّ خُزَاعَةُ، ثُمَّ قُرَيْشٌ، فَإِنَّ مُعْظَمَ الْأَخْبَارِ تَخُصُّ قُرَيْشًا، وَكَثِيرٌ مِنْ أَخْبَارِهَا تُشْعِرُ بِأَنَّهَا صَالِحَةٌ لِلْبَحْثِ التَّأْرِيخِيِّ، وَلَيْسَتْ أُسْطُورِيَّةً، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ جَمَعَ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ عَشَائِرَ قُرَيْشٍ، وَاسْتَوْلَىٰ بِهَا عَلَىٰ مَقَالِيدِ الْأُمُورِ بِمَكَّةَ -وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ لِلْمِيلَادِ، وَذَلِكَ يَتَطَابَقُ مَعَ التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ وَالْأَدَبِيِّ؛ لِأَنَّ تَارِيخَ الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ لَا يَرْقَىٰ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ وَمِئَةِ سَنَةٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ- وَكَانَتْ بِيَدِ خُزَاعَةَ، وَوَزَّعَ رِبَاعَ مَكَّةَ وَخُطَطَهَا بَيْنَ قُرَيْشٍ، فَبَدَأَتْ تَبْنِي دُورَهَا بِالْحَجَرِ دَاخِلَ الْحَرَمِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَنْطِقَةً مُشَجَّرَةً خَالِيَةً مِنَ الْبِنَاءِ، وَكَانَ الشَّجَرُ مُقَدَّسًا لَا يُقْطَعُ، حَتَّىٰ قَطَعَهُ قُصَيٌّ فَتَجَرَّأَ النَّاسُ عَلَىٰ قَطْعِهِ.

ثُمَّ قَامَ قُصَيٌّ بِتَنْظِيمِ مَكَّةَ فَقَسَّمَ الْوَظَائِفَ وَالْوَاجِبَاتِ بَيْنَ أَوْلَادِهِ، وَهِيَ: الْحِجَابَةُ، وَالسِّقَايَةُ، وَالرِّفَادَةُ، وَاللِّوَاءُ، وَالنَّدْوَةُ. وَكَانَ قُصَيٌّ قَدِ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ دَارَ النَّدْوَةِ، وَجَعَلَ بَابَهَا إِلَىٰ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، فَفِيهَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَشَاوَرُ فِي أُمُورِ السِّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَفِيهَا تُجْرِي عُقُودَ الزَّوَاجِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ فَهِيَ دَارُ مَشُورَةٍ وَدَارُ حُكُومَةٍ يُدِيرُهَا الْمَلَأُ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ زُعَمَاءَ الْأُسَرِ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فِي مَكَّةَ، وَيَنْدُرُ أَنْ يَقِلَّ سِنُّ أَحَدِهِمْ عَنْ سِنِّ الْأَرْبَعِينَ.

وَيَتَقَيَّدُ النَّاسُ بِأَوَامِرِ النَّدْوَةِ عَادَةً وَعُرْفًا؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ قَانُونٌ مَكْتُوبٌ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ رَئِيسٌ أَوْ حَاكِمٌ أَوْ مَالِكٌ فِي مَكَّةَ، وَلَا يَتِمُّ انْتِخَابُ أَعْضَاءِ النَّدْوَةِ بِالِاقْتِرَاعِ، بَلْ يُحَدِّدُهُمُ الْعُرْفُ، وَيُمَارِسُ رَئِيسُ كُلِّ عَشِيرَةٍ صَلَاحِيَّاتِهِ عَلَىٰ عَشِيرَتِهِ.

وَقَدْ فَرَضَ قُصَيٌّ الْعُشْرَ عَلَىٰ التُّجَّارِ الْقَادِمِينَ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، فَصَارَ أَحَدَ مَصَادِرِ الثَّرْوَةِ فِي مَكَّةَ، وَصَارَ أَمْرُ قُصَيٍّ فِي قُرَيْشٍ كَالدِّينِ الْمُتَّبَعِ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَيُمْنِهِ.

وَقَدِ اتَّسَمَ الْمَلَأُ بِالْمُحَافَظَةِ الشَّدِيدَةِ عَلَىٰ الْعَقَائِدِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْأَعْرَافِ السَّائِدَةِ؛ لِتَأْكِيدِ حُقُوقِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ وَمَكَانَتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَصَالِحِهِمُ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَحَقَّقُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْأَوْضَاعِ السَّائِدَةِ وَوَحْدَةِ أَهْلِ مَكَّةَ؛ مِمَّا يُفَسِّرُ شِدَّةَ مُقَاوَمَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ عِنْدَ ظُهُورِهِ، فَقَدْ رَأَوْا فِيهِ تَهْدِيدًا لِوَحْدَةِ قُرَيْشٍ، وَأَغَاظَهُمْ جِدًّا أَنْ يُهَاجِرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

لَقَدْ قَامَ أَبْنَاءُ قُصَيٍّ وَأَحْفَادُهُ بِأَعْمَالٍ مُهِمَّةٍ أَدَّتْ إِلَىٰ ازْدِهَارِ مَكَّةَ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَبْرَزَتْ مَكَانَتَهُمْ وَفَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ، وَمَكَّنَتْ لِسِيَادَتِهِمْ. وَإِذَا اسْتَعْرَضْنَا مَا أَنْجَزُوهُ:

فَإِنَّ قُصَيًّا هُوَ الَّذِي جَمَعَ قُرَيْشًا وَمَكَّنَ لَهَا فِي مَكَّةَ وَنَظَّمَ شُؤُونَهَا، وَأَمْسَكَ أَبْنَاؤُهُ بِزِمَامِ وَظَائِفِهِ مِنْ بَعْدِهِ؛ مِنَ السِّقَايَةِ، وَالرِّفَادَةِ، وَالْحِجَابَةِ، وَاللِّوَاءِ، وَالنَّدْوَةِ.

وَتَمَكَّنَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ مِنْ عَقْدِ الْإِيلَافِ، وَتَوْسِيعِ نِطَاقِ التِّجَارَةِ الْمَكِّيَّةِ بِإِخْرَاجِهَا مِنَ الْحُدُودِ الْمَحَلِّيَّةِ إِلَىٰ النِّطَاقِ الدَّوْلِيِّ، وَقَامَ بِحَفْرِ عِدَّةِ آبَارٍ لِخِدْمَةِ قُرَيْشٍ، وَلِخِدْمَةِ الْحَجِيجِ أَيْضًا.

وَعُرِفَ الْمُطَّلِبُ أَخُو هَاشِمٍ بِالنُّسُكِ، وَالْأَمْرِ بِتَرْكِ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، وَالْحَثِّ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَعُرِفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ بِالْفَيَّاضِ؛ لِجُودِهِ، وَبِشَيْبَةِ الْحَمْدِ؛ لِكَثْرَةِ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ، وَقَدِ اشْتُهِرَ بِحَفْرِ مَاءِ زَمْزَمَ الَّتِي طَغَتْ عَلَىٰ مِيَاهِ آبَارِ مَكَّةَ الْأُخْرَىٰ لِغَزَارَتِهَا وَدَوَامِهَا، وَأَنَّهَا أَلْطَفُ مَذَاقًا مِنْ مِيَاهِ آبَارِ مَكَّةَ الْأُخْرَىٰ، وَكَانَ أَبْنَاءُ قُصَيٍّ قَبْلَ حَفْرِهَا يَأْتُونَ بِالْمِيَاهِ مِنْ آبَارٍ خَارِجَ مَكَّةَ.

لَمْ يَكُنْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَغْنَىٰ رَجُلٍ فِي قُرَيْشٍ، وَلَا زَعِيمَ مَكَّةَ الْوَحِيدَ، لَكِنَّ صِلَتَهُ بِشُئُونِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَخِدْمَةِ الْحَجِيجِ جَعَلَتْهُ مِنْ وُجَهَاءِ مَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي حَادَثَ أَبْرَهَةَ عِنْدَمَا غَزَا الْأَخِيرُ الْكَعْبَةَ.

وَقُبَيْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ تَوَلَّىٰ أَبُو طَالِبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الرِّفَادَةَ وَالسِّقَايَةَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يُنْفِقُهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ، فَاسْتَدَانَ مِنْ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ فَأَنْفَقَهَا، وَلَمَّا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ رَدِّهَا، تَنَازَلَ عَنِ الرِّفَادَةِ وَالسِّقَايَةِ إِلَىٰ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

•••

مَكَّةُ زَمَنَ الْبِعْثَةِ وَعِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ

وَهَكَذَا فَإِنَّ عَشِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ كَانَتْ تَتَبَوَّأُ مَكَانَةً اجْتِمَاعِيَّةً خَاصَّةً فِي مَكَّةَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ رَغْمَ أَنَّهُمْ كَانُوا وُسَطَاءَ فِي الثَّرَاءِ، وَرُبَّمَا كَانُوا دُونَ أَوْسَاطِ تُجَّارِ مَكَّةَ، وَكَانَ الثَّرَاءُ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَبَنِي نَوْفَلٍ، وَبَنِي مَخْزُومٍ.

وَقَدْ نَازَعَتْهُمُ الْعَشَائِرُ الْقُرَشِيَّةُ الْأُخْرَىٰ السِّيَادَةَ عَلَىٰ مَكَّةَ، وَكَانَ النِّزَاعُ عَلَىٰ السِّيَادَةِ بَيْنَ تِلْكَ الْعَشَائِرِ الْقُرَشِيَّةِ قَدْ بَدَأَ بَيْنَ أَبْنَاءِ قُصَيٍّ، وَأَدَّىٰ إِلَىٰ انْقِسَامِ الْعَشَائِرِ إِلَىٰ مِحْوَرَيْنِ هُمَا:

الْمُطَيِّبُونَ: بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، وَمَنْ حَالَفَهُمْ؛ وَهُمْ: بَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ، وَبَنُو زُهْرَةَ، وَبَنُو تَيْمٍ، وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ.

وَالْأَحْلَافُ: وَالْأَحْلَافُ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ، وَمَنْ حَالَفَهُمْ؛ وَهُمْ: سَهْمٌ، وَجُمَحُ، وَمَخْزُومٌ، وَعَدِيٌّ.

كَمَا حَدَثَتْ مُنَافَرَاتٌ وَمُنَازَعَاتٌ دَاخِلَ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ أَحْيَانًا، كَمَا حَدَثَ بَيْنَ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَمِّهِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَمِنْ بَعْدِهِمَا بَيْنَ ابْنَيْهِمَا حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ وَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ.

وَقَدْ سَاعَدَ الْأَمْنُ وَالسَّلَامُ الَّذِي سَادَ مَكَّةَ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ بَقَاءِ زُعَمَائِهَا، خِلَافًا لِزُعَمَاءِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ أَفْنَتْهُمُ الْحُرُوبُ الدَّاخِلِيَّةُ، وَهَذَا أَحَدُ أَسْبَابِ شِدَّةِ الْمُقَاوَمَةِ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ قِبَلِ قُرَيْشٍ.

أَصْلُ سُكَّانِ مَكَّةَ: جُرْهُمٌ، وَقِيلَ: كَانَ قَبْلَهُمُ الْعَمَالِيقُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ خَارِجَهَا -أَيْ: مِنْ حَوْلِهَا- لَمْ تُحَافِظْ قَبِيلَةُ جُرْهُمٍ عَلَىٰ حُرْمَةِ الْحَرَمِ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ، فَكَثُرَ فِي أَيَّامِهِمُ الْبَغْيُ وَالْفَسَادُ، وَاغْتُصِبَ كَثِيرٌ مِنْ مَالِ الْكَعْبَةِ الَّذِي كَانَ يُهْدَىٰ إِلَيْهَا، وَيُقَالُ: إِنَّ مَاءَ زَمْزَمَ نَضِبَ فِي عَهْدِهِمْ، كَمَا أَنَّ الْبِئْرَ نَفْسَهَا زَالَتْ مَعَالِمُهَا.

وَعِنْدَمَا تَفَرَّقَ بَعْضُ عَرَبِ الْيَمَنِ بَعْدَ سَيْلِ الْعَرِمِ، هَاجَرَ ثَعْلَبَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مَعَ قَوْمِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَلَمْ تَقْبَلْهُمْ جُرْهُمٌ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ جُرْهُمٍ.

وَعِنْدَمَا مَرِضَ ثَعْلَبَةُ، رَحَلَ إِلَىٰ الشَّامِ وَوَلَّىٰ أَمْرَ مَكَّةَ وَحِجَابَةَ الْكَعْبَةِ ابْنَ أَخِيهِ رَبِيعَةَ بْنَ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرٍو، وَهُوَ لُحَيٌّ، وَعُرِفَ قَوْمُهُ بِخُزَاعَةَ، وَقَدِ انْحَازَ إِلَيْهِمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانُوا قَدِ اعْتَزَلُوا الْحَرْبَ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ جُرْهُمٍ وَثَعْلَبَةَ.

ظَلَّتْ خُزَاعَةُ تَلِي أَمْرَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ سَنَةٍ، وَقِيلَ: بَلْ ظَلَّتْ تَلِي أَمْرَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ خَمْسَمِئَةِ سَنَةٍ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ إِذْ ذَاكَ مُتَفَرِّقَةً فِي بَنِي كِنَانَةَ

حَتَّىٰ تزَعَّمَهَا قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ وَوَحَّدَ بُطُونَهَا، وَخَاضَ حَرْبًا ضِدَّ خُزَاعَةَ حَوْلَ وَلَايَةِ الْبَيْتِ، وَأَعَانَتْهُ قُضَاعَةُ فِي حَرْبِهِ، وَتَدَخَّلَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ، وَانْتَهَتِ الْحَرْبُ بِالتَّحْكِيمِ الَّذِي نَتَجَ عَنْهُ أَحَقِّيَّةُ قُصَيٍّ بِوَلَايَةِ الْكَعْبَةِ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ارْتَفَعَتْ مَكَانَةُ قُرَيْشٍ بَيْنَ الْعَرَبِ.

قَامَ قُصَيٌّ بِتَقْطِيعِ مَكَّةَ رِبَاعًا بَيْنَ قَوْمِهِ، فَأَنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَنَازِلَهُمْ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانَتْ لَهُ جَمِيعُ الرِّئَاسَاتِ مِنْ حِجَابَةٍ، وَسِقَايَةٍ، وَسَدَانَةٍ، وَلِوَاءٍ، وَبَنَىٰ دَارًا لِإِزَاحَةِ الظُّلُمَاتِ وَفَصْلِ الْخُصُومَاتِ سَمَّاهَا: دَارَ النَّدْوَةِ، وَكَانَ يَرْأَسُ اجْتِمَاعَاتِهَا، وَيُدِيرُ شُئُونَهَا، وَفَرَضَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ خَرْجًا سَنَوِيًّا يُؤَدُّونَهُ إِلَيْهِ؛ لِيُنْفِقَ مِنْهُ عَلَىٰ إِطْعَامِ فُقَرَاءِ الْحُجَّاجِ، وَعِنْدَمَا كَبُرَ قُصَيٌّ فَوَّضَ أَمْرَ هَذِهِ الْوَظَائِفِ وَالرِّئَاسَاتِ إِلَىٰ أَكْبَرِ أَبْنَائِهِ عَبْدِ الدَّارِ.

وَلَمَّا مَاتَ عَبْدُ الدَّارِ وَإِخْوَتُهُ عَبْدُ مَنَافٍ وَعَبْدُ شَمْسٍ، اخْتَلَفَ أَبْنَاؤُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاسَاتِ، وَافْتَرَقُوا إِلَىٰ فِرْقَتَيْنِ: فِفِرْقَةٌ بَايَعَتْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَفِرْقَةٌ بَايَعَتْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ.

وَوَضَعَ حِلْفُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ الْحَلِفِ فِي جَفْنَةٍ فِيهَا طِيبٌ، ثُمَّ لَمَّا قَامُوا مَسَحُوا أَيْدِيَهُمْ بِأَرْكَانِ الْكَعْبَةِ، فَسُمُّوا حِلْفَ الْمُطَّيِّبِينَ.

أَمَّا بَنُو عَبْدِ الدَّارِ، وَمَنْ حَالَفَهُمْ فَقَدْ أَخْرَجُوا جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا، وَفَعَلُوا مَا فَعَلَهُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَسُمُّوا الْأَحْلَافَ.

ثُمَّ أَخِيرًا اصْطَلَحَ الْفَرِيقَانِ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ الرِّفَادَةُ وَالسِّقَايَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْ تَسْتَقِرَّ الْحِجَابَةُ وَاللِّوَاءُ وَالنَّدْوَةُ فِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَقُسِّمَتِ الرِّئَاسَاتُ الَّتِي نَالَهَا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ بَيْنَ هَاشِمٍ وَأَخِيهِ عَبْدِ شَمْسٍ؛ فَكَانَتِ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ لِهَاشِمٍ، وَالْقِيَادَةُ لِعَبْدِ شَمْسٍ.

عِنْدَمَا عَلَتْ مَكَانَةُ هَاشِمٍ بَيْنَ قَوْمِهِ، حَسَدَهُ ابْنُ أَخِيهِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ، وَحَاوَلَ أَنْ يُنَافِسَهُ فِي إِطْعَامِ الْحُجَّاجِ فَعَجَزَ، فَشَمَتَ بِهِ بَعْضُ قَوْمِهِ فَزَادَ حَسَدُهُ وَحِقْدُهُ عَلَىٰ عَمِّهِ.

وَوَلِيَ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ الْمُطَّلِبُ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ هَاشِمٍ، ثُمَّ عِنْدَمَا مَاتَ الْمُطَّلِبُ خَلَفَهُ ابْنُ أَخِيهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ، ثُمَّ عِنْدَمَا مَاتَ خَلَفَهُ ابْنُهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَدْ أَبْقَاهُمَا الرَّسُولُ ﷺ فِي يَدِهِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ.

أَمَّا بَنُو عَبْدِ الدَّارِ فَقَدْ تَوَارَثُوا الْحِجَابَةَ وَاللِّوَاءَ وَرِئَاسَةَ دَارِ النَّدْوَةِ، وَقَدْ أَبْقَىٰ الرَّسُولُ ﷺ الْحِجَابَةَ بِأَيْدِيهِمْ عِنْدَمَا فَتَحَ مَكَّةَ، وَدَفَعَ بِمِفْتَاحِ الْكَعْبَةِ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، وَهِيَ فِيهِمْ إِلَىٰ الْيَوْمِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] قَدْ نَزَلَتْ بِهَذَا الْخُصُوصِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَمْ يَثْبُتْ، بَلْ إِنَّ الْأَثَرَ ضَعِيفٌ، وَلَمْ يَسْتَبْعِدِ الطَّبَرِيُّ ذَلِكَ مَعَ ضَعْفِهِ، وَسَاقَ أَقْوَالًا أُخْرَىٰ فِي ذَلِكَ.

⊙⊙⊙

مَكَّةُ الْمُشَرَّفَةُ وَحُرْمَتُهَا

فَمَكَّةُ لَهَا حُرْمَتُهَا وَلَهَا مَكَانَتُهَا، أَمَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- أَنْ تَكُونَ بَلَدًا آمِنًا وَحَرَمًا مُعَظَّمًا، فَشَرَعَ حُرْمَتَهَا يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهُ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وَقَالَ مُمْتَنًّا عَلَىٰ قُرَيْشٍ أَهْلِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفِۭ﴾ [قريش: ٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلْعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٦- ٩٧].

فَمَكَّةُ الْمُشَرَّفَةُ جَعَلَهَا اللهُ وَاحَةَ أَمْنٍ وَسَلَامٍ، وَشَرَعَ ذَلِكَ وَأَوْجَبَهُ؛ يَأْمَنُ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَلْ حَتَّىٰ الطَّيْرُ وَالنَّبَاتُ، وَمَنْ دَخَلَ مَكَّةَ وَجَبَ أَنْ يُؤَمَّنَ وَلَا يُؤْذَىٰ؛ فَهُوَ بِجِوَارِ بَيْتِ اللهِ الَّذِي وَضَعَهُ لِلطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ وَبَارَكَ فِيهِ، وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ، وَأَقَامَ فِيهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ؛ مِنْهَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي رَفَعَ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ بِأَمْرِ اللهِ، وَطَهَّرَهُ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

فَهُوَ مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ؛ أَيْ: يَرْجِعُونَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ لِمَا يَجِدُونَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، وَتَكْفِيرِ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِأَهَمِّ وَسَائِلِ الْأَمْنِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ، وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ** -يَعْنِي: حُرْمَةَ الْكَعْبَةِ- **حَقَّ تَعْظِيمِهَا، فَإِذَا تَرَكُوهَا، وَضَيَّعُوهَا هَلَكُوا**».

أَلَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سُكَّانُ حَرَمِ اللهِ وَالْوَافِدُونَ إِلَيْهِ، وَلْيُعَظِّمُوا هَذَا الْحَرَمَ بِإِقَامَةِ شَعَائِرِ اللهِ؛ ﴿**ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢]، وَلْيَحْذَرُوا مِمَّا حَذَّرَ اللهُ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥].

فَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَهُمُّ بِسَيِّئَةٍ فِي الْحَرَمِ، فَكَيْفَ بِمَنْ فَعَلَهَا، أَوْ تَرَكَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؟!

قَالَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥]: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا هَمَّ فِيهِ بِإِلْحَادٍ، وَهُوَ بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لَأَذَاقَهُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ كَثِيرٍ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ تَعْظِيمِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَمُرَاعَاةِ حُرْمَتِهِ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ يَلْقَىٰ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ فَلَا يَعْرِضُ لَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، وَإِذَا أَصَابَتْهُمْ غَارَةٌ أَوِ اعْتِدَاءٌ لَجَئُوا إِلَىٰ الْحَرَمِ؛ لِلِاحْتِمَاءِ بِهِ.

وَهَذِهِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ تُوصِي ابْنَهَا بِتَعْظِيمِ الْحَرَمِ، وَتُحَذِّرُهُ مِنَ الظُّلْمِ فِيهِ فَتَقُولُ:

أَبُنَــــيَّ لَا تَظْلِــــمْ بِمَكَّـــــــــةَ لَا الصَّــغِيرَ وَلَا الْكَبِيــرْ

أَبُنَــــيَّ مَـــنْ يَظْلِـــمْ بِمَكَّـــــــــةَ يَلْــقَ آفَــاتِ الشُّـــرُورْ

أَبُنَــــيَّ قَــــدْ جَرَّبْتُهَـــــا فَوَجَـــدْتُ ظَالِمَهَـــا يَبُـــورْ

لَقَدْ أَحَاطَ اللهُ مَكَّةَ بِثَلَاثِ دَوَائِرَ؛ تَعْظِيمًا لَهَا، وَحِمَايَةً لِحُرْمَتِهَا، وَسَمَّاهَا: أُمَّ الْقُرَىٰ؛ لِأَنَّ الْقُرَىٰ كُلَّهَا تَرْجِعُ إِلَيْهَا، فَفِيهَا الْكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ:

أَمَّا الدَّائِرَةُ الْأُولَىٰ، فَدَائِرَةُ الْحَرَمِ بِحُدُودِهِ الْمَعْلُومَةِ؛ حَيْثُ بَيَّنَهَا اللهُ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَوَضَعَ لَهَا أَعْلَامًا تَوَارَثَهَا النَّاسُ حَتَّىٰ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ ﷺ بِتَجْرِيدِ أَعْلَامِ الْحَرَمِ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي خِلَافَتِهِ بِتَجْدِيدِهَا، وَمَا زَالَ أُمَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَحُكَّامُ الْبَلَدِ الْأَمِينِ يَعْتَنُونَ بِهَذِهِ الْأَعْلَامِ وَيُجَدِّدُونَهَا؛ لِارْتِبَاطِهَا بِأَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَضَّحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِهَا بِمِئَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ، بَلْ كُلُّ حَرَمِهَا تُفَضَّلُ فِيهِ أَعْمَالُ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ، كَمَا ذَهَبَ لِذَلِكَ جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَهَذِهِ هِيَ الدَّائِرَةُ الْأُولَىٰ.

وَأَمَّا الدَّائِرَةُ الثَّانِيَةُ، فَدَائِرَةُ الْمَوَاقِيتِ، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَعْلَامِ الْحَرَمِ، وَقَدْ أَوْجَبَتِ الشَّرِيعَةُ أَنْ لَا يَتَجَاوَزَهَا مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَوِ الْعُمْرَةَ إِلَّا وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَأَقْرَبُ

الْمَوَاقِيتِ مِنْ مَكَّةَ وَادِي مُحَرَّمٍ فِي طَرِيقِ الْهَدْيِ عَلَىٰ مَسَافَةِ سِتَّةٍ وَسِتِّينَ كِيلُومِتْرًا، وَأَبْعَدُهَا مِيقَاتُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ذُو الْحُلَيْفَةِ عَلَىٰ مَبْعَدَةِ عِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ مِنْ مَكَّةَ -زَادَهَا اللهُ شَرَفًا-.

وَأَمَّا الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ، فَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ فَقَدْ خَصَّتْهَا الشَّرِيعَةُ بِخَصَائِصَ وَأَحْكَامٍ؛ لِتَكُونَ حِصْنًا وَاقِيًا، وَحِمًىٰ مِنْ بَعِيدٍ لِلْحَرَمِ الْآمِنِ، وَالْبَلَدِ الْمُقَدَّسِ **(أُمِّ الْقُرَىٰ)**.

فَهَذِهِ مَكَّةُ فِي زَمَنِ الْبِعْثَةِ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَمَكَّةُ مَدِينَةٌ لَا قَرْيَةٌ، يَتَخَيَّلُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِأَحْوَالِ الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ الْبِعْثَةُ، وَلَيْسَ لَهُمُ اطِّلَاعٌ وَاسِعٌ عَلَىٰ أَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهِمْ وَشِعْرِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ، يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ مَكَّةَ كَانَتْ قَرْيَةً صَغِيرَةً، وَكَانَتِ الْحَيَاةُ فِيهَا فِي طَوْرِ الطُّفُولَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ، وَأَنَّهَا كَانَتْ أَشْبَهَ بِمَسْكَنٍ لِلْقَبَائِلِ فِيهَا مَضَارِبُ مِنَ الشَّعَرِ تَسُودُ فِيهَا حَيَاةُ الْخِيَامِ، وَبَيْنَ مَعَاطِنِ الْإِبِلِ، وَمَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَمَرَابِطِ الْخَيْلِ، مُتَنَاثِرَةً فِي حَوَاشِي الْوَادِي، وَشُعَبِ الْجِبَالِ يَتَبَلَّغُ أَهْلُهَا بِبُلْغَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَيَتَعَيَّشُونَ عَلَىٰ الْخُبْزِ الْقِفَارِ، أَوْ لَحْمِ الْإِبِلِ الَّذِي لَمْ يَحْسُنْ شِوَاؤُهُ، وَلَمْ يَكْمُلِ اسْتِوَاؤُهُ، وَيَلْبَسُونَ اللِّبَاسَ الْخَشِنَ الَّذِي يَتَّخِذُونَهُ مِنْ أَصْوَافِ الْغَنَمِ وَأَوْبَارِهَا، لَا شَأْنَ لَهُمْ بِتَوَسُّعٍ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ، أَوْ تَأَنُّقٍ فِي اللِّبَاسِ وَالشَّارَاتِ، أَوْ لِينٍ فِي الْعَيْشِ، وَرِقَّةٍ فِي الشُّعُورِ، وَتَوَسُّعٍ فِي الْخَيَالِ.

إِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ الْقَاتِمَةَ لِمَكَّةَ لَا تَتَّفِقُ مَعَ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ، وَلَا مَعَ مَا تَنَاثَرَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَدَوَاوِينِ الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ وَصْفِ مَكَّةَ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ

أَبْنَاؤُهَا فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ النَّصْرَانِيِّ مِنْ آدَابٍ وَأَعْرَافٍ وَعَادَاتٍ وَمَظَاهِرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شُئُونِ الْحَيَاةِ.

وَقَدِ انْتَقَلَتْ مِنْ طَوْرٍ بُدَائِيٍّ بَدَوِيٍّ إِلَىٰ طَوْرٍ بُدَائِيٍّ مَدَنِيٍّ، وَلَا تَتَّفِقُ مَعَ مَا وَصَفَهَا الْقُرْآنُ بِنُعُوتٍ وَأَسْمَاءٍ لَا تَلِيقُ بِقَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ وَحَيَاةٍ بَدَوِيَّةٍ؛ فَقَدْ سَمَّاهَا أُمَّ الْقُرَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ - ٢].

فَهَذِهِ الصُّورَةُ الْقَاتِمَةُ لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَىٰ، وَالْحَقُّ أَنَّ مَكَّةَ قَدِ انْتَقَلَتْ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمِيلَادِيِّ مِنْ طَوْرِ الْبَدَاوَةِ إِلَىٰ طَوْرِ الْحَضَارَةِ، وَإِنْ كَانَتْ حَضَارَةً بِالْمَعْنَىٰ الْمَحْدُودِ، وَخَضَعَتْ لِنِظَامٍ يَقُومُ عَلَىٰ اتِّفَاقٍ تَطَوُّعِيٍّ، وَتَفَاهُمٍ جَمَاعِيٍّ، وَتَوَسُّعٍ لِلْمَسْئُولِيَّاتِ وَالْمَهَامِّ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ يَدِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ الْجَدِّ الْخَامِسِ لِلرَّسُولِ ﷺ.

وَكَانَ عُمْرَانُ مَكَّةَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ مَحْصُورًا فِي نِطَاقٍ ضَيِّقٍ كَانَتْ مَكَّةُ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ؛ وَهُوَ جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ الْمُشْرِفُ عَلَىٰ الصَّفَا، وَالْآخَرُ الْجَبَلُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: الْأَحْمَرُ، وَكَانَ يُسَمَّىٰ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْأَعْرَفِ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمُشْرِفُ وَجْهُهُ عَلَىٰ قُعَيْقِعَانَ.

إِلَّا أَنَّ وُجُودَ الْبَيْتِ فِي هَذَا الْوَادِي، وَمَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ جِيرَانُهُ وَسَدَنَتُهُ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ وَسُكَّانُ الْوَادِي بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، مَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ شَرَفٍ وَمَكَانَةٍ وَأَمْنٍ، كَانَ مُغْرِيًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ -وَخُصُوصًا الْمُجَاوِرَةَ- لِلانْتِقَالِ إِلَىٰ جِوَارِ الْبَيْتِ، فَازْدَادَ الْعُمْرَانُ، وَتَوَسَّعَ النِّطَاقُ عَلَىٰ مَرِّ الزَّمَانِ، وَحَلَّتِ الْبُيُوتُ الْمَرْصُوفَةُ بِالْحَجَرِ أَوِ الْمَبْنِيَّةُ بِالطِّينِ وَالْحَجَرِ مَحَلَّ الْخِيَامِ وَالْأَخْبِيَةِ.

وَانْطَلَقَتِ الْحَرَكَةُ الْعُمْرَانِيَّةُ مِمَّا يَلِي الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَىٰ بَطْحَاءِ مَكَّةَ فِي أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا، وَكَانُوا يَبْنُونَهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ بِحَيْثُ لَا تَسْتَوِي عَلَىٰ سُقُوفٍ مُرَبَّعَةٍ احْتِرَامًا لِلْبَيْتِ -أَيِ: الْكَعْبَةِ- ثُمَّ هَانَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالتَّدْرِيجِ، فَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا وَتَوَسَّعُوا فِيهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْفَعُونَ بُيُوتَهُمْ عَنْ مُسْتَوَىٰ الْكَعْبَةِ.

وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا يَبْنُونَ بُيُوتَهُمْ مُدَوَّرَةً تَعْظِيمًا لِلْكَعْبَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ بَنَىٰ بَيْتًا مُرَبَّعًا حُمَيْدُ بْنُ زُهَيْرٍ، فَاسْتَنْكَرَتْهُ قُرَيْشٌ، وَكَانَتْ بُيُوتُ أَثْرِيَائِهَا وَسَادَتِهَا مُقَامَةً بِالْحَجَرِ، وَبِهَا عَدَدٌ مِنَ الْغُرَفِ، وَلَهَا بَابَانِ مُتَقَابِلَانِ يَتَمَكَّنُ النِّسَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ عِنْدَ وُجُودِ ضُيُوفٍ فِي الدَّارِ.

وَمِنْ أَعْلَىٰ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَىٰ مَكَّةَ مِنَ الشَّرْقِ يَبْدُو شَكْلُهَا الْمُسْتَطِيلُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَىٰ الْجَنُوبِ فِي بَطْنِ وَادٍ ضَيِّقٍ، وَعِنْدَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا الْمَرْءُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُمَيِّزُهَا مِنَ الْأَدِيمِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ.

إِنَّ الْجِبَالَ الْجَرْدَاءَ الصَّخْرِيَّةَ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا لَا تَفْصِلُهَا عَنْهَا أَيَّةُ وَاحَةٍ، فَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَّةَ أَيَّةُ بُقْعَةٍ خَضْرَاءَ، وَإِنَّ سُطُوحَ مَنَازِلِهَا لَتَخْتَلِطُ بِمُنْهَارِ الصُّخُورِ الَّتِي تَحَدَّرَتْ عَلَىٰ سُفُوحِ تِلْكَ الْجِبَالِ.

أَمَّا بَعْدَ أَنْ تُرَاضَ الْعَيْنُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَإِنَّهَا تُمَيِّزُ الْبُيُوتَ وَالدُّورَ، وَتَكْشِفُ الْمَدَاخِلَ الْخَفِيَّةَ، وَيَتَنَبَّهُ الْإِنْسَانُ بَغْتَةً لِمَنْظَرٍ مُفَاجِئٍ لِمَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ وُجُودَهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ.

إِنَّ الْعَيْنَ تَرَاهَا تَكْبُرُ دُونَ حَدٍّ حَتَّىٰ لَيَكَادُ الْإِنْسَانُ يَعْزُو اتِّسَاعَهَا الْمُفَاجِئَ إِلَىٰ سِحْرٍ سَاحِرٍ، وَتَبْدُو الصُّخُورُ بِدُورِهَا وَكَأَنَّهَا تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ مَنَازِلَ، وَتَبْدُو الْآكَامُ أَشْبَهَ بِضَوَاحٍ وَاسِعَةٍ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ لَهَا نِهَايَةً.

لَقَدْ هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَىٰ الشَّامِ، ثُمَّ مِنَ الشَّامِ إِلَىٰ مِصْرَ، وَكَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ فِي تَرْحَالِهِ هَذَا رِسَالَةَ التَّوْحِيدِ، وَكَانَتْ تُرَافِقُهُ زَوْجَتُهُ سَارَةُ، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَمِيلَةً، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ مَلِكِ مِصْرَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ لِنَفْسِهِ بِكُلِّ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، وَشَاءَ اللهُ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْ سَارَةَ، وَتَنْقَلِبَ مِنْهُ بِجَارِيَةٍ لِتَخْدُمَهَا، وَهِيَ هَاجَرُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَمَّا كَانَتْ سَارَةُ عَقِيمًا، وَطَعَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السِّنِّ، وَابْيَضَّ شَعْرُهُ رَأَتْ أَنْ تَهَبَ لَهُ الْجَارِيَةَ هَاجَرَ لِيَتَزَوَّجَهَا؛ لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُهُ مِنْهَا ذُرِّيَّةً صَالِحَةً، وَشَاءَ اللهُ أَنْ تَلِدَ لَهُ هَاجَرُ ابْنَهَا الْأَوَّلَ، فَسَمَّاهُ إِسْمَاعِيلَ، فَاشْتَدَّتِ الْغَيْرَةُ بِسَارَةَ عِنْدَمَا

وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ، فَحَلَفَتْ لَتُقَطِّعَنَّ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَعْضَاءٍ، فَاتَّخَذَتْ هَاجَرُ مَنْطِقًا لَهُ ذَيْلٌ، فَشَدَّتْ بِهِ وَسَطَهَا، وَهَرَبَتْ مَعَ زَوْجِهَا وَهِيَ تَجُرُّ ذَيْلَهَا لِتُخْفِيَ أَثَرَهَا عَنْ سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّىٰ وَضَعَهُمَا عِنْدَ مَكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَىٰ الْمَسْجِدِ -أَيْ: فِي أَعْلَىٰ مَكَانِهِ؛ لَمْ يَكُنْ قَدْ بُنِيَ بَعْدُ-، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، وَوَضَعَ عِنْدَهَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَلَ رَاجِعًا.

فَتَبِعَتْهُ هَاجَرُ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنِيسٌ وَلَا شَيْءٌ؟!

قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَتْ: إِذَنْ؛ لَا يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يُرَىٰ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ مَكَانَ الْبَيْتِ، ثُمَّ دَعَا قَائِلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ...﴾، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿... يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَفِدَ مَا عِنْدَ هَاجَرَ مِنَ الْمَاءِ، فَعَطِشَتْ هِيَ وَابْنُهَا، فَكَرِهَتْ أَنْ تَنْظُرَ لِابْنِهَا وَهُوَ يَتَلَوَّىٰ مِنَ الْعَطَشِ، فَانْطَلَقَتْ حَتَّىٰ قَامَتْ عَلَىٰ أَقْرَبِ جَبَلٍ مِنْهَا وَهُوَ الصَّفَا، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ لِتَنْظُرَ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا، فَلَمَّا لَمْ تَرَ أَحَدًا هَبَطَتْ

مِنَ الصَّفَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا.

فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، «**وَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**» كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ -أَيْ: بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ-.

وَفِي نِهَايَةِ الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ جَاءَهَا الْمَلَكُ جِبْرِيلُ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ بِعَقِبِهِ أَوْ بِجَنَاحِهِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، حَتَّىٰ ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تَحُوضُهُ، ثُمَّ تَغْرِفُ مِنْهُ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ؛ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ** -أَوْ قَالَ: **لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ زَمْزَمَ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»، فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَذَا بَيْتُ اللهِ، يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.

وَبَيْنَمَا هِيَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ، مَرَّ بِهِمْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُمٍ الْيَمَانِيَّةِ الْقَحْطَانِيَّةِ، وَعِنْدَمَا وَجَدُوا الْمَاءَ، اسْتَأْذَنُوهَا فِي النُّزُولِ عِنْدَهَا، فَأَذِنَتْ لَهُمْ بِشَرْطٍ: أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَقٌّ فِي الْمَاءِ، فَوَافَقُوا وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ بَيْنَهُمْ، فَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا كَبِرَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيَانٌ لِبَعْضِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ فِي أَخْلَاقِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ الْجُرْهُمِيُّونَ، وَجَدُوا امْرَأَةً ضَعِيفَةً مَعَ رَضِيعٍ لَهَا، وَجَدُوا عَيْنَ الْمَاءِ، وَهِيَ

تَشْتَرِطُ، وَهُمْ يَسْتَأْذِنُونَ، وَقَدْ يَذْهَبُ خَيَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ أَنَّ الِاسْتِحْوَاذَ عَلَىٰ تِلْكَ الْعَيْنِ كَانَ مِنْ أَيْسَرِ الْأُمُورِ وَأَسْهَلِهَا، فَمَاذَا تَمْلِكُ هِيَ مِنْ قُوَّةٍ حَتَّىٰ تَدْفَعَ الِاعْتِدَاءَ عَنْ نَفْسِهَا أَوْ عَنِ ابْنِهَا أَوْ عَنْ زَمْزَمَ؟!

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَحْضَ امْرَأَةٍ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ الْمُوغِلَةِ فِي تَجَرُّدِهَا مِنْ كُلِّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ، وَهَذِهِ قَبِيلَةٌ بِأَسْرِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ اسْتَأْذَنُوهَا فِي النُّزُولِ عِنْدَهَا، فَأَذِنَتْ لَهُمْ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَقٌّ فِي الْمَاءِ فَوَافَقُوا.

وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ بَيْنَهُمْ، وَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا كَبِرَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

وَعِنْدَمَا مَاتَتْ هَاجَرُ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ، وَلَمْ يَجِدْ حِينَهَا وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ بِالْبَيْتِ، فَأَخْبَرَتْهُ زَوْجُهُ أَنَّهُ خَرَجَ فِي حَاجَتِهِمْ، وَعِنْدَمَا سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ: شَكَتْ إِلَيْهِ مُرَّ الشَّكْوَىٰ مِمَّا يُلَاقِيَانِهِ مِنْ شِدَّةٍ، فَأَوْصَاهَا أَنْ تُقْرِئَهُ السَّلَامَ، وَتَقُولَ لَهُ بِأَنْ يُغَيِّرَ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَعِنْدَمَا عَادَ إِسْمَاعِيلُ أَخْبَرَتْهُ زَوْجَتُهُ بِالَّذِي حَدَثَ، فَعَرَفَ مِنْ وَصْفِهَا أَنَّهُ أَبُوهُ، وَفَهِمَ الْوَصِيَّةَ، وَفَهِمَ أَنَّ الْعَتَبَةَ تَعْنِي: زَوْجَتَهُ. فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً أُخْرَىٰ.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَانِ عَادَ إِبْرَاهِيمُ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فِي الْمَنْزِلِ، وَسَأَلَ زَوْجَهُ عَنْ عَيْشِهِمْ، فَحَمِدَتِ اللهَ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِمَا وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، فَأَوْصَاهَا بِأَنْ تُقْرِئَهُ السَّلَامَ وَتَقُولَ لَهُ أَنْ يُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَعِنْدَمَا عَادَ إِسْمَاعِيلُ وَأُخْبِرَ بِمَا حَدَثَ، عَرَفَ أَبَاهُ وَفَهِمَ الْوَصِيَّةَ، فَأَمْسَكَ عَلَيْهِ زَوْجَهُ.

ثُمَّ غَابَ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ عَادَ فَوَجَدَ ابْنَهُ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ مَعَ الْوَلَدِ، فطَلَبَ إِبْرَاهِيمُ مِنِ ابْنِهِ أَنْ يُعِينَهُ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ -وَهُوَ بِنَاءُ الْكَعْبَةِ- عَلَىٰ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ قُرْبَ زَمْزَمَ، فَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَيَأْتِيهِ إِسْمَاعِيلُ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّىٰ ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، فَجَاءَهُ بِحَجَرِ الْمَقَامِ، فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَكَانَا يَقُولَانِ وَهُمَا يَبْنِيَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

لَيْسَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ الْأُولَىٰ الَّتِي يُعِينُ فِيهَا إِسْمَاعِيلُ أَبَاهُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَتَنْفِيذِ أَمْرِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَادَ إِلَىٰ مَكَّةَ عِنْدَمَا شَبَّ إِسْمَاعِيلُ، وَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ مَنَامًا أَنْ يَذْبَحَهُ قُرْبَانًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَاسْتَشَارَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ فِي ذَلِكَ قَائِلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فَأَجَابَ إِسْمَاعِيلُ قَائِلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وَخَرَجَ بِهِ لِتَنْفِيذِ أَمْرِ رَبِّهِ، وَلَمَّا تَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَالسِّكِّينُ بِيَدِهِ نَادَاهُ رَبُّهُ: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥]، وَفَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]؛ أَيْ: بِكَبْشٍ أَمْلَحَ كَبِيرٍ، فَتَرَكَ الْوَلَدَ وَذَبَحَ الْكَبْشَ، وَفَازَ الْوَالِدُ وَالْوَلَدُ بِرِضَا اللهِ تَعَالَىٰ.

عِنْدَمَا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ، وَإِسْمَاعِيلُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

فَقِيلَ: صَعِدَ إِبْرَاهِيمُ ﵇ جَبَلَ أَبِي قُبَيْسٍ أَوِ الْحِجْرَ أَوِ الصَّفَا، وَنَادَىٰ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ قَائِلًا: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ بَنَىٰ لَكُمْ بَيْتًا فَحُجُّوهُ.

فَأَسْمَعَ اللهُ نِدَاءَهُ كُلَّ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَبَّىٰ قَائِلًا: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ!**

وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّهُمَا بِمَا ذَكَرَهُ عَنْهُمَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَهَذِهِ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً، وَهِيَ الدَّعْوَةُ الَّتِي كَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُولُ عَنْهَا: «**أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ**».

عَاشَ إِسْمَاعِيلُ بِجِوَارِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَعَ أَصْهَارِهِ جُرْهُمٍ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ مَنْ بِالْحِجَازِ كَافَّةً مِنْ قَبِيلَةِ الْعَمَالِيقِ وَأَهْلِ الْيَمَنِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤].

وَأَنْجَبَ إِسْمَاعِيلُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا، وَقَدْ سَمَّاهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»، وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ»، وَأَوَّلُهُمْ: نَابِتٌ وَقَيْدَارُ، وَنَابِتُ هُوَ الَّذِي اخْتِيرَ لِأَنْ يَكُونَ مِنْ آبَاءِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَاخْتَفَتْ حَلَقَاتُ

السِّلْسِلَةِ الذَّهَبِيَّةِ فِيمَا بَيْنَ نَابِتٍ وَعَدْنَانَ لِأَسْبَابٍ غَامِضَةٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ، وَقَدْ كَانَ عَدَدُ الْآبَاءِ بَيْنَ نَابِتٍ وَعَدْنَانَ يُقَدَّرُ بِسِتَّةِ آبَاءٍ، وَقَدْ عَاشُوا جَمِيعًا بِالْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، وَمَعَ هَذَا لَمْ تُضْبَطْ أَسْمَاءُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ السِّتَّةِ، وَقَدْ جَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ بِنَسَبِهِ إِلَىٰ عَدْنَانَ، أَمَّا أَجْدَادُهُ الَّذِينَ بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ، فَمُخْتَلَفٌ فِيهِمْ.

عِنْدَمَا مَاتَ إِسْمَاعِيلُ دُفِنَ مَعَ أُمِّهِ فِي الْحِجْرِ، وَكَانَ عُمْرُهُ مِئَةً وَسَبْعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَيَنْتَسِبُ كُلُّ عَرَبِ الْحِجَازِ إِلَىٰ وَلَدَيْهِ نَابِتٍ وَقَيْدَارٍ، وَقَدْ عَهِدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِبِنَاءِ الْبَيْتِ وَسَاعَدَهُ فِي ذَلِكَ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ وَهَذَا الْعَهْدُ الَّذِي عَهِدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَانَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ قَبْلَ الْمِيلَادِ.

⊙⊙⊙



تَعَدُّدُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ

وَبِنَاءُ الْكَعْبَةِ تعَدَّدَ:

الْمَرَّةُ الْأُولَىٰ: عِمَارَةُ الْمَلَائِكَةِ. رَوَىٰ ذَلِكَ الْأَزْرَقِيُّ.

الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ: عِمَارَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. كَمَا رَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»، وَغَيْرُهُ.

الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ: عِمَارَةُ أَوْلَادِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. كَمَا رَوَىٰ الْأَزْرَقِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، وَذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ أَنَّ الَّذِي بَنَاهَا شِيثُ بْنُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْمَرَّةُ الرَّابِعَةُ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ: عِمَارَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهِيَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا.

وَجَزَمَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ» بِأَنَّ هَذَا كَانَ أَوَّلَ بِنَاءٍ، قَالَ: وَلَمْ يَجِئْ فِي خَبَرٍ صَحِيحٍ عَنْ مَعْصُومٍ أَنَّ الْبَيْتَ كَانَ مَبْنِيًّا قَبْلَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ تَمَسَّكَ فِي هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فَلَيْسَ بِنَاهِضٍ وَلَا ظَاهِرٍ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ: مَكَانُهُ الْمُقَدَّرُ فِي عِلْمِ اللهِ، الْمُقَرَّرُ فِي قُدْرَتِهِ، الْمُعَظَّمُ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ مَوْضِعُهُ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ زَمَانِ إِبْرَاهِيمَ، وَهَذَا الْكَلَامُ مِنَ ابْنِ كَثِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِمَا ذُكِرَ مِنَ الْآثَارِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ.

الْمَرَّةُ الْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ: عِمَارَةُ الْعَمَالِيقِ، ثُمَّ جُرْهُمٍ.

وَقَدْ نَقَلَ الشَّامِيُّ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُويَهْ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ السُّهَيْلِيُّ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ بُنِيَ فِي أَيَّامِ جُرْهُمٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ؛ لِأَنَّ السَّيْلَ كَانَ قَدْ صَدَعَ حَائِطَهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بُنْيَانًا عَلَىٰ نَحْوِ مَا مَرَّ، إِنَّمَا كَانَ إِصْلَاحًا لِمَا وَهَىٰ مِنْهُ، وَجِدَارًا بُنِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيْلِ، بَنَاهُ عَامِرٌ الْجَارُودُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْخَبَرُ.

الْمَرَّةُ السَّابِعَةُ: عِمَارَةُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ جَدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

نَقَلَ ذَلِكَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ «النَّسَبِ»، وَجَزَمَ بِهِ الْإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي «الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ».

الْمَرَّةُ الثَّامِنَةُ: عِمَارَةُ قُرَيْشٍ، حِينَ كَانَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ عَامًا.

الْمَرَّةُ التَّاسِعَةُ: عِمَارَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا.

وَالْمَرَّةُ الْعَاشِرَةُ: عَمَارَةُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ بِأَمْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ، كَمَا رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ، وَعِنْدَمَا شَكَّكَ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي سَمَاعِ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حَدِيثَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ** -أَوْ قَالَ: **بِكُفْرٍ**- **لَهَدَمْتُهَا، وَجَعَلْتُ لَهَا غَلَقًا، وَأَلْصَقْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ**».

أَكَّدَ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَعْرُوفُ بِـ (الْقَبَّاعِ)، وَأَخُو عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ، أَكَّدَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَنَدِمَ عَلَىٰ نَقْضِهِ وَإِعَادَتِهِ. رَوَىٰ ذَلِكَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَرُوِيَ أَنَّ الرَّشِيدَ عَزَمَ عَلَىٰ نَقْضِهَا وَإِعَادَتِهَا كَمَا بَنَاهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ لَهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: أَنْشُدُكَ اللهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا تَجْعَلَ هَذَا الْبَيْتَ مَلْعَبَةً لِلْمُلُوكِ بَعْدَكَ، لَا يَشَاءُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُغَيِّرَهُ إِلَّا غَيَّرَهُ، فَتَذْهَبُ هَيْبَتُهُ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ. فَصَرَفَهُ عَنْ رَأْيِهِ فِيهِ.

الْمَرَّةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بِنَاءُ السُّلْطَانِ مُرَاد خَان الْعُثْمَانِيِّ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَلْفٍ، ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلَّانَ فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي بِهَذَا الشَّأْنِ، وَسَبَبُهُ أَنَّ السَّيْلَ أَسْقَطَ مِنْهَا بَعْضَ الْأَجْزَاءِ.

● ● ●

تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي زَمَانِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ

لَقَدْ دَلَّتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي رَوَاهَا الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَىٰ الْكَعْبَةَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ كَانَ مَكَانُ الْبَيْتِ رَبْوَةً عَالِيَةً مُشْرِفَةً عَلَىٰ مَا حَوْلَهَا، مَعْرُوفَةً لِلْمَلَائِكَةِ، وَلِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبُقْعَةً مُشَرَّفَةً مُعَظَّمَةً مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، حَتَّىٰ جَاءَ الْخَلِيلُ فَأَسَّسَ قَوَاعِدَهُ وَبَنَاهُ.

أَمَّا الرِّوَايَاتُ الَّتِي تَقُولُ بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ قَبْلَ هَذَا فَأَغْلَبُهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَىٰ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَرَوَاهَا أَهْلُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ كَالْأَزْرَقِيِّ وَالْفَاكِهِيِّ، وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ لَا يَلْتَزِمُونَ إِخْرَاجَ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ أَوِ الْحَسَنَةِ، وَقَدْ مَرَّ قَوْلُ ابْنِ كَثِيرٍ: «وَلَمْ يَجِئْ فِي خَبَرٍ صَحِيحٍ عَنْ مَعْصُومٍ أَنَّ الْبَيْتَ كَانَ مَبْنِيًّا قَبْلَ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو شُهْبَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- بَعْدَ تَرْجِيحِهِ لِكَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ: وَلَا يُنَافِي مَا رَجَّحْنَاهُ وَذَهَبْنَا إِلَيْهِ مَا رُوِيَ أَنَّهُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ حَجَّ الْبَيْتَ».

وَمَا رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَجَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أَتَىٰ وَادِيَ عُسْفَانَ قَالَ: **يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**

قَالَ: هَذَا وَادِي عُسْفَانَ.

قَالَ: **لَقَدْ مَرَّ بِهَذَا نُوحٌ وَهُودٌ وَإِبْرَاهِيمُ عَلَىٰ بَكَرَاتٍ لَهُمْ حُمْرٍ، خُطُمُهُمُ اللِّيفُ، وَأُزُرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ، يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ**».

كَذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِوَادِي عُسْفَانَ حِينَ حَجَّ، قَالَ: **يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**

قَالَ: وَادِي عُسْفَانَ.

قَالَ: **لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ** عليهما السلام **عَلَىٰ بَكَرَاتٍ لَهُمْ حُمْرٍ، خُطُمُهُمُ اللِّيفُ، وَأُزُرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ**».

وَإِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ حَسَنٌ، وَقَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَغَيْرِهَا.

«وَفِيهِ نُوحٌ وَهُودٌ وَإِبْرَاهِيمُ».. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو شُهْبَةَ رحمه الله: «لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْحَجُّ إِلَىٰ مَحِلِّهِ وَبُقْعَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ بِنَاءٌ».

وَالْبَكَرَاتُ: جَمْعُ بَكَرَةٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ الْفَتِيَّةُ الْقَوِيَّةُ.

وَالْخُطُمُ جَمْعُ خِطَامٍ، وَهُوَ الزِّمَامُ الَّذِي تُشَدُّ بِهِ النَّاقَةُ.

وَالْأُزُرُ جَمْعُ إِزَارٍ، وَهُوَ مَا يُسْتَرُ بِهِ أَسْفَلُ الْجِسْمِ مِنَ الْوَسَطِ.

وَالْأَرْدِيَةُ جَمْعُ رِدَاءٍ، وَهُوَ مَا يُوضَعُ عَلَىٰ الْكَتِفَيْنِ، وَيُسْتَرُ بِهِ النِّصْفُ الْأَعْلَىٰ.

وَالنِّمَارُ جَمْعُ نَمِرَةٍ، وَهُوَ الْكِسَاءُ الْمُخَطَّطُ.

«لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَىٰ بَكَرَاتٍ لَهُمْ حُمْرٍ، خُطُمُهُمُ اللِّيفُ، وَأُزُرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ، يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ»، فَإِذَا كَانَ بِنَاءُ الْكَعْبَةِ لَمْ يَبْدَأْ إِلَّا بِبِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ مُسْتَشْكِلًا: هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ أَنَّ نُوحًا وَهُودًا وَإِبْرَاهِيمَ حَجُّوا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَكَذَلِكَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: صَالِحٌ.

فَكَيْفَ يَتَّفِقُ هَذَا وَقَوْلَ الْقَائِلِ: إِنَّ الْبَيْتَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَلَمْ يُبْنَ قَبْلَ ذَلِكَ؟!

فَالْجَوَابُ: كَمَا مَرَّ، إِنَّمَا كَانَ مَكَانُ الْبَيْتِ مَعْرُوفًا لَهُمْ، وَكَانَ مُقَدَّرًا عِنْدَهُمْ، فَكَانُوا يَحُجُّونَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَىٰ مَا أَعْلَمُهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ، فَتَأْتَلِفُ النُّصُوصُ بِهَذَا، وَيَكُونُ الِاخْتِيَارُ لِمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- أَنَّهُ لَمْ يَجِئْ فِي خَبَرٍ صَحِيحٍ عَنْ مَعْصُومٍ أَنَّ الْبَيْتَ كَانَ مَبْنِيًّا قَبْلَ الْخَلِيلِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

هُنَاكَ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ، وَهُوَ أَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ طَافَتْ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَسَجَدَتْ أَوْ رَكَعَتْ، أَوْ صَلَّتْ رَكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْمَقَامِ، فَفِيهِ إِثْبَاتُ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ طَافَ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ حَوْلَ الْبَيْتِ، فَهَلْ كَانَ الْبَيْتُ مُسْتَثْنًىٰ مِمَّا وَقَعَ مِنْ غَمْرِ الْمَاءِ لِلْأَرْضِ، ثُمَّ كَيْفَ صَلَّتْ؟ وَكَيْفَ سَجَدَتْ؟ وَكَيْفَ رَكَعَتْ؟ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الِاعْتِرَاضَاتِ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَاتِ.

عِنْدَمَا قَرَّرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ تَجْدِيدَ الْكَعْبَةِ بَاشَرَ الْمُسْلِمُونَ نَقْضَهَا حَتَّىٰ بَلَغُوا بِهَا الْأَرْضَ، فَأَقَامُوا أَعْمِدَةً مِنْ حَوْلِهَا، وَأَرْخَوْا عَلَيْهَا السُّتُورَ، ثُمَّ بَاشَرُوا فِي رَفْعِ بِنَائِهَا، وَزَادُوا عَلَيْهَا الْأَذْرُعَ السِّتَّةَ الَّتِي أَنْقَصَتْهَا مِنْهَا قُرَيْشٌ، وَزَادُوا فِي طُولِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ عَشْرَةَ أَذْرُعٍ، وَجَعَلُوا لَهَا بَابَيْنِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، أَحَدُهُمَا يُدْخَلُ مِنْهُ، وَالْآخَرُ يُخْرَجُ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ اسْتِنَادًا إِلَىٰ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ الشَّيْخَانِ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْصَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ**»، أَوْ فِي مَعْنَىٰ هَذَا.

ذَكَرَ الْأَزْرَقِيُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ طُولَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ فِي السَّمَاءِ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ، وَطُولَهَا فِي الْأَرْضِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضَهَا فِي الْأَرْضِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَكَانَتْ بِغَيْرِ سَقْفٍ.

وَحَكَىٰ السُّهَيْلِيُّ أَنَّ طُولَهَا فِي السَّمَاءِ كَانَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ مِنْ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ، فَلَمَّا بَنَتْهَا قُرَيْشٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ زَادُوا فِيهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ، فَكَانَتْ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، وَرَفَعُوا بَابَهَا عَنِ الْأَرْضِ، فَكَانَ لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا فِي دَرَجٍ؛ أَيْ: سُلَّمٍ.

وَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَ لَهَا غَلَقًا هُوَ تُبَّعٌ، ثُمَّ لَمَّا بَنَاهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ زَادَ فِيهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ، فَكَانَتْ سَبْعًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَعَلَىٰ ذَلِكَ هِيَ الْآنَ.

لَمْ يَكُنْ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ سُورٌ، وَكَانَتْ تُحِيطُ بِهِ الدُّورُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَعِنْدَمَا رَأَىٰ ابْنُ الْخَطَّابِ أَنَّ الْمَسْجِدَ قَدْ ضَاقَ بِالْحُجَّاجِ وَالزُّوَّارِ، اشْتَرَىٰ الدُّورَ الَّتِي حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِهَا فَوَسَّعَهُ، وَجَعَلَ لَهُ سُورًا عَلَىٰ قَامَةِ الرَّجُلِ وَأَنَارَهُ.

وَعِنْدَمَا رَأَىٰ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الْمَسْجِدَ أَيْضًا قَدْ ضَاقَ بِالْحُجَّاجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ، اشْتَرَىٰ دُورًا أُخْرَىٰ، فَوَسَّعَ بِهَا الْحَرَمَ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَلَمْ يَزَلِ الْخُلَفَاءُ وَالْأُمَرَاءُ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ يَتَعَهَّدُونَ الْحَرَمَ بِالتَّوْسِعَةِ إِلَىٰ زَمَانِنَا هَذَا.

وَأَمَّا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، فَالْمَقَامُ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ عَنْ قَامَتِهِ، وَقَدْ تَرَكَتْ قَدَمَاهُ أَثَرًا فِي الْحَجَرِ، وَظَلَّ هَذَا الْأَثَرُ إِلَىٰ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ، وَفِي هَذَا يَقُولُ أَبُو طَالِبٍ:

وَمَوْطِنُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَىٰ قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمَقَامَ كَانَ مُلْصَقًا بِحَائِطِ الْكَعْبَةِ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، إِلَىٰ أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَأَخَّرَهُ عَنِ الْبَيْتِ قَلِيلًا؛ تَوْسِعَةً عَلَىٰ الطَّائِفِينَ وَالْمُصَلِّينَ عِنْدَ الْمَقَامِ، وَوَافَقَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ عَمَلِ الْفَارُوقِ.

وَقَدْ رَوَىٰ ذَلِكَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَكَذَا الْبَيْهَقِيُّ فِي إِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

«لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّىٰ» هَذَا الْقَوْلُ قَالَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَوَافَقَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ قَوْلِهِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ**

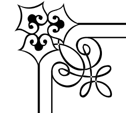
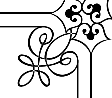
مُصَلًّى»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. أَخْرَجَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَىٰ أَيْضًا الْمَسْجِدَ الْأَقْصَىٰ، وَقِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي أَسَّسَهُ، وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْبِنَائَيْنِ أَرْبَعُونَ عَامًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ.

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَفِيهِ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي بَنَىٰ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَىٰ، فَالْمَقْصُودُ بِالْبِنَاءِ هُنَا: التَّجْدِيدُ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ السِّيُوطِيُّ، وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَابْنُ حَجَرٍ، وَاسْتِعْمَالُ الْبِنَاءِ بِمَعْنَىٰ التَّجْدِيدِ وَارِدٌ فِي اللُّغَةِ، كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَحْمِلَنَا إِلَىٰ بَلَدِهِ الْحَرَامِ، وَإِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، حُجَّاجًا وَمُعْتَمِرِينَ وَمُجَاوِرِينَ؛ إِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، وَالْجَوَادُ الرَّحِيمُ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

● ● ●

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

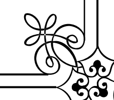
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة التَّاسِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

حَفْرُ بِئْرِ زَمْزَمَ

فَمِنْ أَهَمِّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي حَيَاةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَمْرَانِ: حَفْرُ بِئْرِ زَمْزَمَ، وَحَادِثُ الْفِيلِ.

فَأَمَّا زَمْزَمُ، فَكَانَتْ سُقْيَا مِنَ اللهِ، وَخُلَاصَةُ أَمْرِهَا: مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ -أَيْ: فِي الْمَنَامِ- فَقَالَ لِي: احْفُرْ طَيْبَةَ.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: «طَيْبَةُ» لِأَنَّهَا لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قَالَ: قُلْتُ: وَمَا طَيْبَةُ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفُرْ بَرَّةَ.

وَهُوَ اسْمٌ صَادِقٌ عَلَيْهَا أَيْضًا؛ لِأَنَّهَا فَاضَتْ لِلْأَبْرَارِ، وَغَاضَتْ عَنِ الْفُجَّارِ.

قَالَ: قُلْتُ: وَمَا بَرَّةُ؟! قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي؛ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجَعِي، فَنِمْتُ فِيهِ فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفُرِ الْمَضْنُونَةَ.

الْمَضْنُونَةُ؛ لِأَنَّهُ ضُنَّ بِهَا عَلَىٰ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَتَضَلَّعُ مِنْهَا مُنَافِقٌ، يَتَضَلَّعُ؛ يَعْنِي: مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الشُّرْبِ حَتَّىٰ تَمَدَّدَ جَنْبُهُ وَأَضْلَاعُهُ.

قَالَ: قُلْتُ: وَمَا الْمَضْنُونَةُ؟! قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي؛ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجَعِي، فَنِمْتُ فِيهِ فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفُرْ زَمْزَمَ.

وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِكَثْرَةِ مَائِهَا.

قَالَ: وَمَا زَمْزَمُ؟!

قَالَ: لَا تُنْزَفُ أَبَدًا وَلَا تُذَمُّ، تَسْقِي الْحَجِيجَ الْأَعْظَمَ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، عِنْدَ نَقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ، عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ.

قَالَ: «لَا تُنْزَفُ أَبَدًا»: أَيْ: لَا يَفْنَىٰ مَاؤُهَا عَلَىٰ كَثْرَةِ الِاسْتِقَاءِ.

«وَلَا تُذَمُّ»؛ أَيْ: لَا تُعَابُ.

«وَهِيَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ»: الْفَرْثُ: الْكَرِشُ وَمَا فِيهَا.

«عِنْدَ نَقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ»: الَّذِي فِي جَنَاحَيْهِ بَيَاضٌ.

«عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ»: أَمَّا قَرْيَةُ النَّمْلِ فَفِيهَا مِنَ الْمُشَاكَلَةِ -أَيْضًا- وَالْمُنَاسَبَةِ أَنَّ زَمْزَمَ هِيَ عَيْنُ مَكَّةَ الَّتِي يَرِدُهَا الْحَجِيجُ وَالْعُمَّارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَيَحْمِلُونَ إِلَيْهَا الْبُرَّ وَالشَّعِيرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَهِيَ لَا تُحْرَثُ، وَلَا تُزْرَعُ، وَقَرْيَةُ النَّمْلِ لَا تُحْرَثُ وَلَا تُبْذَرُ، وَتَجْلِبُ الْحُبُوبَ إِلَىٰ قَرْيَتِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ -أَيِ: النَّمْلُ-.

قَالَ: فَلَمَّا بُيِّنَ لَهُ شَأْنُهَا، وَدَلَّ عَلَىٰ مَوْضِعِهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ صُدِقَ، غَدَا بِمِعْوَلِهِ، وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ، فَحَفَرَ،

فَلَمَّا بَدَا لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ الطَّيُّ، كَبَّرَ، فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ إِنَّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًّا؛ فَأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا.

فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ؛ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ، وَأُعْطِيْتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَقَالُوا: لَهُ فَأَنْصِفْنَا؛ إِنَّا غَيْرُ تَارِكِيكَ حَتَّىٰ نُخَاصِمَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمْكُمْ إِلَيْهِ.

قَالُوا: كَاهِنَةَ بَنِي سَعْدِ هُذَيْمٍ. قَالَ: نَعَمْ! وَكَانَتْ فِي مَنْطِقَةِ مَعَانٍ مِنْ مَشَارِفِ الشَّامِ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، وَخَرَجَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِشْرُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ قَبَائِلِهَا، فَلَمَّا كَانُوا بِـ(الْفَقِيرِ) مِنْ طَرِيقِ الشَّامِ أَوْ حَذْوِهِ فَنِيَ مَاءُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَصْحَابِهِ، فَظَمِئُوا حَتَّىٰ أَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ، فَاسْتَسْقَوْا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا بِمَفَازَةٍ، وَنَحْنُ نَخْشَىٰ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا مِثْلَمَا أَصَابَكُمْ. فَلَمَّا رَأَىٰ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مَا صَنَعَ الْقَوْمُ، وَمَا يَتَخَوَّفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَصْحَابِهِ قَالَ: مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا: مَا رَأْيُنَا إِلَّا تَبَعٌ لِرَأْيِكَ؛ فَمُرْنَا بِمَا شِئْتَ.

قَالَ: فَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ يَحْفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا مَعَكُمْ الْآنَ مِنَ الْقُوَّةِ، فَكُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ دَفَعَهُ أَصْحَابُهُ فِي حُفْرَتِهِ، ثُمَّ وَارَوْهُ حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا؛ فَضَيْعَةُ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْسَرُ مِنْ ضَيْعَةِ رَكْبٍ جَمِيعًا.

فَحَفَرُوا الْقُبُورَ، ثُمَّ قَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ الْمَوْتَ عَطَشًا، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ قَالَ: وَاللهِ إِنَّ إِلْقَاءَنَا بِأَيْدِينَا لِلْمَوْتِ لَا نَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنَا لَعَجْزٌ، فَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مَاءً بِبَعْضِ الْبِلَادِ، ارْتَحِلُوا.

وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا، فَلَمَّا انْبَعَثَتْ بِهِ انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفِّهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فَكَبَّرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ، وَشَرِبُوا جَمِيعًا، وَاسْتَقَوْا، ثُمَّ دَعَا الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَالَ لَهُمْ: هَلُمُّوا إِلَىٰ الْمَاءِ، فَقَدْ سَقَانَا اللهُ. فَشَرِبُوا، وَاسْتَقَوْا، وَعَرَفُوا فَضْلَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالُوا لَهُ: قَدْ وَاللهِ قُضِيَ لَكَ عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، وَاللهِ لَا نُخَاصِمُكَ فِي زَمْزَمَ أَبَدًا؛ إِنَّ الَّذِي سَقَاكَ هَذَا الْمَاءَ بِهَذِهِ الْفَلَاةِ لَهُوَ الَّذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ سِقَايَتِكَ رَاشِدًا.

فَرَجَعَ وَرَجَعُوا مَعَهُ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ الْكَاهِنَةِ، وَخَلَّوْا بَيْنَهُ، وَبَيْنَ زَمْزَمَ، وَحِينَئِذٍ نَذَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لَئِنْ آتَاهُ اللهُ عَشَرَةَ أَبْنَاءٍ وَبَلَغُوا أَنْ يَمْنَعُوهُ، لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الْكَعْبَةِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ رَأَىٰ رُؤْيَاهُ فَغَدَا، وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ إِلَىٰ حَيْثُ وُصِفَ لَهُ مَكَانُهَا؛ أَيْ: مَكَانُ زَمْزَمَ، فَوَجَدَ قَرْيَةَ النَّمْلِ، وَوَجَدَ الْغُرَابَ الْأَعْصَمَ يَنْقُرُ عِنْدَهَا بَيْنَ الْوَثَنَيْنِ: إِسَافٍ، وَنَائِلَةَ، فَجَاءَ بِالْمِعْوَلِ، وَقَامَ لِيَحْفُرَ حَيْثُ أُمِرَ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: وَاللهِ لَا نَتْرُكُكَ تَحْفُرُ بَيْنَ وَثَنَيْنَا هَذَيْنِ الَّذَيْنِ نَنْحَرُ عِنْدَهُمَا.

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِابْنِهِ: ذُدْ عَنِّي حَتَّىٰ أَحْفُرَ؛ فَوَ اللهِ لَأَمْضِيَنَّ إِلَىٰ مَا أُمِرْتُ، فَلَمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ جَادٌّ خَلَّوْا بَيْنَهُ، وَبَيْنَ الْحَفْرِ، فَلَمْ يَحْفُرْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ بَدَا لَهُ الطَّيُّ، فَكَبَّرَ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صُدِقَ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «طَبَقَاتِهِ»: مِنْ أَنَّهُ لَمَّا حَفَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ زَمْزَمَ، وَجَدَ فِيهَا غَزَالًا، وَسِلَاحًا مِنْ ذَهَبٍ؛ فَكُلُّهَا رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ لَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَمِنْهَا: فَلَمَّا تَمَادَىٰ بِهِ الْحَفْرُ، وَجَدَ غَزَالَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، وَوَجَدَ الْأَسْيَافَ، وَالْأَدْرُعَ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: لَنَا مَعَكَ فِي هَذَا شِرْكٌ. فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ هَلُمَّ إِلَىٰ أَمْرٍ نَصَفٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، نَضْرِبُ عَلَيْهَا الْقِدَاحَ. قَالُوا: وَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: اجْعَلْ لِلْكَعْبَةِ قَدَحَيْنِ، وَلِي قَدَحَيْنِ، وَلَكُمْ قَدَحَيْنِ؛ فَمَنْ خَرَجَ لَهُ قَدَحَاهُ عَلَىٰ شَيْءٍ كَانَ لَهُ، وَمَنْ تَخَلَّفَ قَدَحَاهُ، فَلَا شَيْءَ لَهُ.

قَالُوا: أَنْصَفْتَ فَجَعَلَ قَدَحَيْنِ أَصْفَرَيْنِ لِلْكَعْبَةِ، وَقَدَحَيْنِ أَسْوَدَيْنِ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَدَحَيْنِ أَبْيَضَيْنِ لِقُرَيْشٍ، ثُمَّ أَعْطَوُا الْقِدَاحَ لِسَادِنِ هُبَلٍ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ ﷻ، فَضَرَبَ صَاحِبُ الْقِدَاحِ، فَخَرَجَ الْأَصْفَرَانِ عَلَىٰ الْغَزَالَيْنِ لِلْكَعْبَةِ، وَخَرَجَ الْأَسْوَدَانِ عَلَىٰ الْأَسْيَافِ وَالْأَدْرُعِ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَتَخَلَّفَ قَدَحَا قُرَيْشٍ.

فَضَرَبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الْأَسْيَافَ بَابًا لِلْكَعْبَةِ ، وَضَرَبَ الْغَزَالَيْنِ حِلْيَةً لِلْبَابِ، فَكَانَ أَوَّلَ ذَهَبٍ حُلِّيَتْ بِهِ الْكَعْبَةُ، ثُمَّ أَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ سِقَايَتَهَا لِلْحَاجِّ، فَكَانَتْ

لَهُ عِزًّا، وَفَخْرًا عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الْعَرَبِ، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي لَا أُحِلُّهَا لِمُغْتَسِلٍ، وَهِيَ لِشَارِبٍ حِلٌّ وَبِلٌّ؛ أَيْ: شِفَاءٌ وَمُبَاحٌ.

مَرَّ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ضَعِيفَةٌ لَا تَثْبُتُ يَعْنِي؛ مَا تَعَلَّقَ بِالسِّلَاحِ، وَمَا تَعَلَّقَ بِالْغَزَالَيْنِ.

كَانَتْ قُرَيْشٌ لَمَّا طُمَّتْ زَمْزَمُ، حَفَرَتْ أَبْيَارًا بِمَكَّةَ، فَحَفَرَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِئْرًا عِنْدَ فَمِ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَحَفَرَ عَبْدُ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بِئْرًا بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ، وَحَفَرَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بِئْرًا لِنَفْسِهِ، وَحَفَرَ بَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّي بِئْرًا، وَحَفَرَ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ بِئْرًا، وَبَنُو جُمَحٍ بِئْرًا، وَبَنُو سَهْمٍ بِئْرًا، وَهَكَذَا. فَلَمَّا أَعَادَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَفَرَ زَمْزَمَ، عَفَّتْ عَلَىٰ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهَا، وَانْصَرَفَ النَّاسُ إِلَيْهَا؛ لِمَكَانِهَا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلِفَضْلِهَا عَلَىٰ مَا سِوَاهَا مِنَ الْمِيَاهِ، وَلِأَنَّهَا بِئْرُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.



مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ زَمْزَمَ

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ زَمْزَمَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ:

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ ﵁ «**إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**»، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالطَّيَالِسِيُّ مَرْفُوعًا بِزِيَادَةِ: «**طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»، وَرَوَاهُ سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

وَرَوَىٰ الدَّارَقُطْنِيُّ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ؛ إِنْ شَرِبْتَهُ لِتَسْتَشْفِيَ شَفَاكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِشِبَعِكَ أَشْبَعَكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِقَطْعِ ظَمَئِكَ قَطَعَهُ اللهُ، وَهِيَ هَزْمَةُ جِبْرِيلَ -أَيْ: أَثَرُ ضَرْبَتِهِ فِي الْأَرْضِ بِعَقِبِهِ أَوْ بِجَنَاحِهِ- وَهِيَ -أَيْ: زَمْزَمُ- هَزْمَةُ جِبْرِيلَ، وَسُقْيَا اللهِ إِسْمَاعِيلَ**».

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ صَحَّحَ الْحَافِظُ الدِّمْيَاطِيُّ -وَهُوَ مِنَ الْحُفَّاظِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُتْقِنِينَ- حَدِيثَ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»، وَأَقَرَّهُ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ، وَأَقَرَّهُ غَيْرُهُمَا مِمَّنْ سَبَقَهُمَا، وَمِمَّنْ لَحِقَهُمَا، «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**».

وَرَوَىٰ ابْنُ مَاجَه، وَالْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ: إِذَا شَرِبْتَ مِنْ زَمْزَمَ، فَاسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَتَنَفَّسْ ثَلَاثًا -أَيْ: خَارِجَ الْإِنَاءِ-، وَتَضَلَّعْ مِنْهَا -أَيِ: اشْرَبْ مِنْهَا حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ أَضْلَاعُكَ؛ كِنَايَةً عَنِ الشُّرْبِ الْكَثِيرِ- فَإِذَا فَرَغْتَ، فَاحْمَدِ اللهَ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا، وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ**».

وَلَنْ تَجِدَ أَحْلَىٰ وَلَا أَهْنَأَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ حِينَ تَخْرُجُ مِنَ الْبِئْرِ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِلَىٰ اللَّبَنِ الصَّافِي قَرِيبِ الْعَهْدِ بِثَدْيِهِ، وَتَبْرِيدُهَا أَوْ تَبْخِيرُهَا يُخْرِجُهَا عَنْ طَبِيعَتِهَا الْمُسْتَسَاغَةِ.

وَفَوَائِدُهَا الصِّحِّيَّةُ وَالْغِذَائِيَّةُ مَعْرُوفَةٌ بِالتَّجْرِبَةِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُصَاحِبَ شُرْبَهَا حُسْنُ الِاعْتِقَادِ فِي فَوَائِدِهَا، وَإِلَّا فَلَا يَسْتَفِيدُ شَارِبُهَا مِنْهَا؛ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّ مَنْ يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ، أَوْ وَهُوَ مُعْتَقِدٌ عَدَمَ جَدْوَاهُ، فَلَنْ يَشْعُرَ بِفَائِدَتِهِ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ الْبَعْضَ يَعَافُ مَاءَ زَمْزَمَ، وَلَا يَسْتَسِيغُهَا، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا.

النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**»، وَسَيَأْتِي فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْ: كَيْفَ أَنَّهُ عَوَّلَ عَلَيْهَا وَحْدَهَا شَهْرًا أَوْ مَا فَوْقَهُ- قَالَ: فَسَمِنْتُ عَلَيْهَا -أَيْ: عَلَىٰ شُرْبِهِ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ -حَتَّىٰ بَدَتْ عُكَنُ -أَيْ: طِيَّاتُ- بَطْنِي. رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ.

فَهَذَا الْحَدَثُ، وَهُوَ إِعَادَةُ حَفْرِ بِئْرِ زَمْزَمَ، وَكَانَتْ قَدْ طُمَّتْ قَبْلَ ذَلِكَ، هَذَا الْحَدَثُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

◉ ◉ ◉

نَذْرُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ذَبْحَ أَحَدِ أَوْلَادِهِ

وَهُنَاكَ حَدَثٌ آخَرُ، وَهُوَ لَاحِقٌ بِهَذَا الْحَدَثِ كَمَا ذُكِرَ فِي آخِرِهِ عِنْدَمَا عَانَدَتْهُ قُرَيْشٌ، وَحَادَّتْهُ فِي مُحَاوَلَةِ الْحَفْرِ أَوَّلًا، وَوَقَفَتْ لَهُ، أَنَّهُ نَذَرَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنْ رَزَقَهُ اللهُ عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ يَمْنَعُونَهُ لَيَذْبَحَنَّ مِنْهُمْ وَاحِدًا؛ قُرْبَانًا لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَهَذَا الْحَدَثُ -وَهُوَ نَذْرُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ذَبْحَ أَحَدِ أَوْلَادِهِ- مِنْ أَكْبَرِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ أَيْضًا مِنَ الْأَحْدَاثِ فِي حَيَاتِهِ.

فَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ لَمَّا وَقَفَتْ لَهُ قُرَيْشٌ عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَحْفِرَ بِئْرَ زَمْزَمَ أَحَسَّ بِالضَّعْفِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ نَصِيرٌ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ سِوَىٰ ابْنِهِ الْحَارِثِ، فَنَذَرَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ لَئِنْ وُجِدَ لَهُ عَشَرَةُ بَنِينَ ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ حَتَّىٰ يَمْنَعُوهُ، لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الْكَعْبَةِ. وَقَدَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ هَذَا الْأَمْرَ، وَرَزَقَهُ عَشَرَةَ أَبْنَاءٍ غَيْرَ الْبَنَاتِ.

وَهَؤُلَاءِ الْعَشَرَةُ هُمُ:

١- الْحَارِثُ وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ، وَأُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ جُنْدُبٍ.

٢- الزُّبَيْرُ، وَأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ الْمَخْزُومِيَّةُ.

٣- أَبُو لَهَبٍ، وَهُوَ عَبْدُ الْعُزَّىٰ، وَأُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ هَاجَرَ.

٤- الْمُقَوَّمُ، وَأُمُّهُ هَالَةُ.

٥- ضِرَارٌ، وَهُوَ شَقِيقُ الْعَبَّاسِ، وَأُمُّهُ نتلَةُ.

٦- أَبُو طَالِبٍ، وَأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ الْمَخْزُومِيَّةُ.

٧- جَحْلٌ، وَيُقَالُ بِتَقْدِيمِ الْحَاءِ عَلَىٰ الْجِيمِ، فَـ(جَحْلٌ، وَحَجْلٌ)، أُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ.

١٠- عَبْدُ اللهِ وَالِدُ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ شَقِيقُ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرِ.

١١- حَمْزَةُ رضي الله عنه، وَأُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ.

١٢- الْعَبَّاسُ رضي الله عنه، وَأُمُّهُ نَتْلَةُ.

فَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرُ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، خِلَافًا لِابْنِ إِسْحَاقَ الَّذِي قَالَ فِي «السِّيرَةُ»: «وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرَ بَنِي أَبِيهِ»، وَقَدْ تَعَقَّبَهُ السُّهَيْلِيُّ فِي «الرَّوْضِ الْأُنُفِ» بِقَوْلِهِ: هَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ، وَلَعَلَّ الرِّوَايَةَ: «أَصْغَرُ بَنِي أُمِّهِ»، وَإِلَّا فَحَمْزَةُ، وَكَانَ أَصْغَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ، وَالْعَبَّاسُ أَصْغَرُ مِنْ حَمْزَةَ.

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي «أُسْدِ الْغَابَةِ»: «وَكَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرَ وَلَدِ أَبِيهِ».

وَأَمَّا الْبَنَاتُ فَسِتٌّ، وَهُنَّ:

صَفِيَّةُ، وَأُمُّ حَكِيمٍ وَهِيَ الْبَيْضَاءُ، وَعَاتِكَةُ، وَأُمَيْمَةُ، وَأَرْوَىٰ، وَبَرَّةُ.

فَلَمَّا بَلَغَ بَنُو الْمُطَّلِبِ عَشَرَةً، وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ، جَمَعَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ فَأَطَاعُوهُ، وَقَالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟

قَالَ: لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ قَدَحًا، ثُمَّ فَلْيَكْتُبْ فِيهِ اسْمَهُ ثُمَّ ائْتُونِي.

فَفَعَلُوا ثُمَّ أَتَوْهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ هُبَلَ، وَهُوَ صَنَمٌ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ لِصَاحِبِ الْقِدَاحِ: اضْرِبْ عَلَىٰ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ بِقِدَاحِهِمْ، وَأَخْبَرَهُ بِنَذْرِهِ الَّذِي نَذَرَ فَفَعَلَ الرَّجُلُ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ أَحَبَّ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ: لَئِنْ صُرِفَ عَنْ عَبْدِ اللهِ فَأَنَا بِخَيْرٍ، فَضَرَبَ بِالْقِدَاحِ، فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِيَدِهِ، وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ عَلَىٰ الْكَعْبَةِ لِيَذْبَحهُ فَمَنَعَتْهُ قُرَيْشٌ لَاسِيَّمَا إِخْوَتُهُ وَأَخْوَالُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ.

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِنَذْرِي؟

فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ عَرَّافَةً بِالْحِجَازِ فَيَسْتَأْمِرَهَا، فَذَهَبَ إِلَيْهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَلَمَّا وَصَلَ شَرَحَ لَهَا تَفَاصِيلَ الْقِصَّةِ، فَقَالَتْ: كَمِ الدِّيَةُ فِيكُمْ؟

قَالُوا: عَشَرَةٌ مِنَ الْإِبِلِ.

قَالَتِ: اضْرِبُوا الْقِدَاحَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ وَعَلَىٰ عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ فَزِيدُوا عَشْرًا حَتَّىٰ يَرْضَىٰ رَبُّهُ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَىٰ الْإِبِلِ فَانْحَرُوهَا عَنْهُ.

فَلَمَّا رَجَعُوا قَرَّبُوا عَبْدَ اللهِ وَعَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَخَرَجَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَزَادُوا عَشْرًا، فَخَرَجَتْ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَزِيدُ مِنَ الْإِبِلِ عَشْرًا عَشْرًا ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، إِلَىٰ أَنْ بَلَغَتِ الْإِبِلُ مِئَةً، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ رَضِيَ رَبُّكَ، يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ!

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: لَا، حَتَّىٰ أَضْرِبَ عَلَيْهَا بِالْقِدَاحِ ثَلَاثًا. فَفَعَلَ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَخْرُجُ الْقِدَاحُ عَلَىٰ الْإِبِلِ، ثُمَّ نُحِرَتْ، وَتُرِكَتْ لَا يُصَدُّ عَنْهَا إِنْسَانٌ، وَلَا طَيْرٌ، وَلَا سَبُعٌ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ «**أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ**»: فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَسَكَتَ عَلَيْهِ، وَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: «إِسْنَادُهُ وَاهٍ»، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا حُجَّةَ فِيهِ؛ لِأَنَّ سَنَدَهُ لَا يَثْبُتُ». وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَقَالَ: «وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا». وَأَوْرَدَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الْفَتَاوَىٰ»، وَقَالَ: «وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَفِي إِسْنَادِهِ مَنْ لَا يُعْرَفُ». وَأَوْرَدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ»، وَقَالَ: «لَا أَصْلَ لَهُ». فَهَذَا الْحَدِيثُ لَا أَصْلَ لَهُ، كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ مَعَ أَنَّهُ مَشْهُورٌ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ: «**أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ**».

وَهَكَذَا شَاءَ اللهُ جَلَّوَعَلَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفِدَاءُ كَرَامَةً لِلنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي سَتَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَإِرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيِ الْمَوْلُودِ الَّذِي كَانَ مَا يَزَالُ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبِ.

وَقَدْ تَرَكَ حَادِثُ الذَّبْحِ وَالْفِدَاءِ لِلْفَتَىٰ الْهَاشِمِيِّ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ دَوِيًّا فِي الْمُجْتَمَعِ الْقُرَشِيِّ، بَلْ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ آنَذَاكَ، وَأَصْبَحَ ذِكْرُهُ عَلَىٰ كُلِّ لِسَانٍ، وَصَارَتْ قِصَّتُهُ سَمَرًا فِي كُلِّ بَيْتٍ.

⦿⦿⦿

حَادِثَةُ الْفِيلِ

وَأَمَّا حَادِثُ الْفِيلِ، فَهُوَ حَادِثٌ عَظِيمٌ لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ، وَكَانَ دَلِيلًا عَلَىٰ ظُهُورِ حَادِثٍ أَكْبَرَ، وَإِرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُرِيدُ بِالْعَرَبِ خَيْرًا، وَأَنَّ لِلْكَعْبَةِ شَأْنًا لَيْسَ لِغَيْرِهَا مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَرَاكِزِ الْعِبَادَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْبَشَرُ، وَقَدْ نِيطَتْ بِهَا رِسَالَةٌ وَدَوْرٌ فِي تَارِيخِ الدِّيَانَاتِ وَمَصِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ تُؤَدِّيَهُ، وَأَنْ تَقُومَ بِهِ.

كَانَ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْحَادِثِ أَنَّ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ عَامِلَ النَّجَاشِيِّ عَلَىٰ الْيَمَنِ بَنَىٰ بِصَنْعَاءَ كَنِيسَةً عَظِيمَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ، سَمَّاهَا: (الْقُلَّيْس)، ثُمَّ كَتَبَ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ: «إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بِمُنْتَهٍ حَتَّىٰ أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ».

فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ الْعَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ سَمِعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ هَذَا الْأَمْرَ، فَعَزَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَضَعُوا بِلَبَانِ حُبِّ الْكَعْبَةِ وَتَعْظِيمِهَا، لَا يَعْدِلُونَ بِهَا بَيْتًا، وَلَا يَرَوْنَ عَنْهَا بَدِيلًا، فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ الْكَنِيسَةَ، فَدَخَلَهَا لَيْلًا، فَلَطَّخَ قِبْلَتَهَا بِالْعَذِرَةِ، وَجَمَعَ جِيَفًا فَأَلْقَاهَا فِيهَا، فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ، وَحَلَفَ لَيَسِيرَنَّ إِلَىٰ الْبَيْتِ حَتَّىٰ يَهْدِمَهُ.

ثُمَّ سَارَ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ، وَخَرَجَ مَعَهُ بِتِسْعَةِ فِيَلَةٍ، أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ فِيلًا، وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ فِيلًا مِنْ أَكْبَرِ الْفِيَلَةِ، وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا، وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِمْ كَالصَّاعِقَةِ، وَأَعْظَمُوهُ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِينَ سَمِعُوا بِأَنَّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ: ذُو نَفْرٍ، فَدَعَا قَوْمَهُ، وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَىٰ حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَإِخْرَابِهِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فَقَاتَلَهُ، فَهُزِمَ ذُو نَفْرٍ، وَأَصْحَابُهُ، وَأُخِذَ لَهُ ذُو نَفْرٍ، فَأُتِيَ بِهِ أَسِيرًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَبْرَهَةُ قَتْلَهُ قَالَ لَهُ ذُو نَفْرٍ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي؛ فَإِنَّهُ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَكَ خَيْرًا لَكَ مِنْ قَتْلِي. فَتَرَكَهُ مِنَ الْقَتْلِ، وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَثَاقٍ.

ثُمَّ مَضَىٰ أَبْرَهَةُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمَ، عَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ فِي قَبِيلَتَيْ خَثْعَمَ شَهْرَانِ وَنَاهِسَ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةُ. وَأُخِذَ لَهُ نُفَيْلٌ أَسِيرًا، فَأُتِيَ بِهِ إِلَىٰ أَبْرَهَةَ فَلَمَّا أَرَدَ قَتْلَهُ فَقَالَ لَهُ نُفَيْلٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي؛ فَإِنِّي دَلِيلُكَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَهَاتَانِ يَدَايَ لَكَ عَلَىٰ قَبِيلَتَيْ خَثْعَمَ شَهْرَانِ وَنَاهِسَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَخَلَّىٰ سَبِيلَهُ، وَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ يَدُلُّهُ.

حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِالطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعَتِّبٍ الثَّقَفِيُّ فِي رِجَالٍ مِنْ سَقِيفٍ فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ، سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ، لَيْسَ

عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ -يَعْنُونَ اللَّاتَ، وَهُوَ بَيْتٌ لَهُمْ بِالطَّائِفِ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ نَحْوَ تَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ-، إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ.

فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَبَعَثُوا مَعَهُ رَجُلًا هُوَ أَبُو رِغَالٍ، يَدُلُّهُ إِلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَخَرَجَ أَبْرَهَةُ وَمَعَهُ الدَّلِيلُ أَبُو رِغَالٍ حَتَّىٰ أَنْزَلَهُ الْمُغَمَّسَ -وَهُوَ مَوْضِعٌ قُرْبَ مَكَّةَ فِي طَرِيقِ الطَّائِفِ- وَهُنَاكَ أَمَرَ أَبْرَهَةُ أَصْحَابَهُ بِالْغَارَةِ عَلَىٰ نَعَمِ النَّاسِ، فَبَعَثَ رَجُلًا مِنَ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهُ: الْأَسْوَدُ بْنُ مَفْصُودٍ عَلَىٰ خَيْلٍ لَهُ حَتَّىٰ انْتَهَتْ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ قُرَيْشٍ وَأَمْوَالَ غَيْرِهِمْ، فَأَصَابَ مِئَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا، فَهَمَّتْ قُرَيْشٌ، وَكِنَانَةُ، وَهُذَيْلٌ، وَمَنْ كَانَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ، بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ.

وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَقَالَ لَهُ: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَرِيفِهَا، وَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا لَنَا دُونَهُ بِحَرْبٍ فَلَا حَاجَةَ لِي فِي دِمَائِكُمْ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فَأْتِنِي بِهِ.

فَلَمَّا دَخَلَ حُنَاطَةُ مَكَّةَ وَاجْتَمَعَ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَخْبَرَهُ بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ؛ هَذَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ.

فَقَالَ حُنَاطَةُ: فَانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْهِ، فَانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمُعَسْكَرَ، فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفْرٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا، حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا ذَا نَفْرٍ، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنَا؟!

فَقَالَ ذُو نَفْرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوًّا أَوْ عَشِيًّا؟! مَا عِنْدِي غَنَاءٌ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكَ، إِلَّا أَنَّ أُنَيْسًا سَائِقَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، وَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ، فَأُوصِيهِ بِكَ، وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وَاسْأَلْهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَىٰ الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمُهُ بِمَا بَدَا لَكَ، حَتَّىٰ يَشْفَعَ لَكَ بِخَيْرٍ إِنْ قَدرَ عَلَىٰ ذَلِكَ. فَقَالَ: حَسْبِي؛ أَيْ: هَذَا يَكْفِينِي.

فَبَعَثَ ذُو نَفْرٍ إِلَىٰ أُنَيْسٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، وَصَاحِبُ عِيرِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهَلِ، وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَقَدْ أَصَابَ لَهُ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ، فَاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وَانْفَعْهُ بِمَا تَسْتَطِيعُ. فَفَعَلَ أُنَيْسٌ، وَأَذِنَ أَبْرَهَةُ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ.

وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَوْسَمَ النَّاسِ، وَأَجْمَلَهُمْ وَأَعْظَمَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ وَأَعْظَمَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ -فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ- أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَىٰ سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَىٰ بِسَاطِهِ، وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ جَنْبِهِ، وَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتَكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التَّرْجُمَانُ، فَقَالَ: حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي!

فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ، وَدِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ، وَلَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟!

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ.

فَقَالَ أَبْرَهَةُ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

فَأَمَرَ أَبْرَهَةُ أَنْ يُرَدَّ إِبِلُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَبَضَهَا قَلَّدَهَا؛ أَيْ: جَعَلَ فِي عُنُقِهَا شِعَارًا يُعْلَمُ بِهِ أَنَّهَا هَدْيٌ. قَلَّدَهَا النِّعَالَ وَأَشْعَرَهَا؛ أَيْ: أَعْلَمَهَا، وَالْإِشْعَارُ: أَنْ يُشَقَّ جِلْدُهَا، أَوْ أَنْ يَطْعَنَهَا فِي أَسْنِمَتِهَا فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الدَّمُ، وَحَتَّىٰ يُعْرَفَ أَنَّهَا هَدْيٌ، وَبَثَّهَا فِي الْحَرَمِ؛ كَيْ يُصَابَ مِنْهَا شَيْءٌ، فَيَغْضَبَ رَبُّ الْحَرَمِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ وَيَسْتَنْصِرُهُ، وَهُوَ آخِذٌ بِحَلَقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ:

لَهُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالَكْ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

وَأَشَارَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلَىٰ قَوْمِهِ بِالتَّفَرُّقِ فِي الشِّعَابِ، وَالتَّحَرُّزِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ؛ تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِأَبْرَهَةَ وَجُنُودِهِ، وَأَنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَحْمِيهِ.

تَهَيَّأَ أَبْرَهَةُ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَعَبَّأَ جَيْشَهُ -أَيْ: رَتَّبَهُمْ فِي مَوَاضِعِهِمْ، وَهَيَّأَهُمْ لِلْحَرْبِ-، وَهَيَّأَ فِيلَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَادِي مُحَسِّرٍ بَيْنَ مُزْدَلِفَةَ، وَمِنًىٰ، بَرَكَ الْفِيلُ، وَلَمْ يَقُمْ لِيَقْدُمَ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ إِلَىٰ مَكَّةَ، أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ حَتَّىٰ قَامَ إِلَىٰ جَنْبِ الْفِيلِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ؛ فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللهِ الْحَرَامِ، ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ فَبَرَكَ الْفِيلُ، وَخَرَجَ نُفَيْلٌ يَشْتَدُّ حَتَّىٰ أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَىٰ، فَضَرَبُوا رَأْسَهُ لِيَقُومَ فَأَبَىٰ، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَقَامَ يُهَرْوِلُ، وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ الشَّامِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَبَرَكَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ -أَبَابِيلَ؛ أَيْ: جَمَاعَاتٍ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا- أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ مِنَ الْبَحْرِ مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ، حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، وَحَجْمُ الْحِجَارَةِ كَحَجْمِ الْحُمُّصِ أَوِ الْعَدَسِ، لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا صَارَ تَتَقَطَّعُ أَعْضَاؤُهُ وَيَهْلِكُ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي مِنْهُ جَاءُوا، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ؛ لِيَدُلَّهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَىٰ الْيَمَنِ! فَقَالَ نُفَيْلٌ حِينَ رَأَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ:

أَيْــنَ الْمَفَــرُّ وَ الْإِلَــهُ الطَّالِــبُ ... وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ؟!

وَقَالَ أَيْضًا:

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا	نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ -فَلَا تَرَيْهِ-	لَدَىٰ جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذَنْ لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي	وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَىٰ مَا فَاتَ بَيْنَا
حَمِدْتُ اللهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا	وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَىٰ عَلَيْنَا
وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ	كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلِكُونَ بِكُلِّ مَهْلِكٍ، أَمَّا أَبْرَهَةُ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ دَاءً تَسَاقَطَتْ مِنْهُ أَنَامِلُ -وَالْأَنَامِلُ: رُءُوسُ الْأَصَابِعِ-، أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً-، وَلَمْ يَصِلْ إِلَىٰ صَنْعَاءَ إِلَّا وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّيْرِ، وَانْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ، فَمَاتَ شَرَّ مِيتَةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل: ١- ٥].

فَلَمَّا رَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ الْحَبَشَةَ عَنْ مَكَّةَ، وَأَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِهِ مِنَ النِّقْمَةِ، أَعْظَمَتِ الْعَرَبُ قُرَيْشًا، وَقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللهِ، قَاتَلَ اللهُ عَنْهُمْ، وَكَفَاهُمُ الْعَدُوَّ، وَازْدَادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَالُوا فِي ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْعَارِ.

وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْحَادِثُ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ قَبْلَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسِينَ أَوْ بِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَكَانَ ذَلِكَ آيَةً مِنَ اللهِ، وَمُقَدِّمَةً لِبَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ يُبْعَثُ فِي مَكَّةَ، وَيُطَهِّرُ الْكَعْبَةَ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَيُعِيدُ إِلَيْهَا مَا كَانَ لَهَا مِنْ رِفْعَةٍ، وَشَأْنٍ، وَلِكَيْ يَكُونَ لِدِينِهِ صِلَةٌ عَمِيقَةٌ دَائِمَةٌ مَعَ هَذَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَاسْتَعْظَمَ الْعَرَبُ هَذَا الْحَادِثَ، فَأَرَّخُوا بِهِ، وَقَالُوا، وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الْفِيلِ، وَوُلِدَ فُلَانٌ فِي عَامِ الْفِيلِ، وَوَقَعَ هَذَا بَعْدَ عَامِ الْفِيلِ بِكَذَا مِنَ السِّنِينَ.

هَذِهِ الْقِصَّةُ -وَهِيَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ- ثَابِتَةٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَأَمَّا تَفَاصِيلُهَا فَقَدْ أَتَتْ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ، وَذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي كُتُبِهِمْ عِنْدَ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ.

أَمَّا إِشَارَاتُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْحَادِثِ، فَمِنْهَا:

أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا خَرَجَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ سَارَ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ-وَهِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلنَّاقَةِ إِذَا تَرَكَتِ السَّيْرَ، فَأَلَحَّتْ -أَيْ: تَمَادَتْ عَلَىٰ عَدَمِ الْقِيَامِ. مِنَ الْإِلْحَاحِ- فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا: خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**».

يُشَكِّكُ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَمَنْ نَهَجَ نَهْجَهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ، فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَعَ ثُبُوتِهَا بِالتَّوَاتُرِ الْمُفِيدِ لِلْقَطْعِ وَالْيَقِينِ وَبِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمِلَلِ

وَالْعُقُولِ، وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشَكِّكُونَ: إِنَّ هَلَاكَ الْجَيْشِ كَانَ بِسَبَبِ انْتِشَارِ مَرَضِ الْجُدَرِيِّ فِي الْجَيْشِ. كَمَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ جُزْءِ (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) لِمُحَمَّد عَبْدُه، وَكَذَا عِنْدَ غَيْرِهِ! يَقُولُونَ: إِنَّ هَلَاكَ الْجَيْشِ كَانَ بِسَبَبِ انْتِشَارِ مَرَضِ الْجُدَرِيِّ فِي الْجَيْشِ!

وَاعْتَمَدُوا عَلَىٰ خَبَرٍ ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بَعْدَمَا ذَكَرَ الْقِصَّةَ عَلَىٰ مَا وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قَالَ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ أَوَّلَ مَا رُئِيَتِ الْحَصْبَةُ وَالْجُدَرِيُّ بِأَرْضِ الْعَرَبِ ذَلِكَ الْعَامَ.

وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرَهُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَلَاكَهُمْ كَانَ بِهَذَا، وَإِلَّا لَمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ الْقِصَّةَ الْمُعْتَمَدَةَ أَوَّلًا فِي بِضْعِ صَفَحَاتٍ، ثُمَّ قَالَ أَنَّهُ حُدِّثَ، عَلَىٰ هَذَا الْإِبْهَامِ لِلرَّاوِي، فَهَذَا يَقْطَعُ بِأَنَّ هَذَا لَا يَثْبُتُ بِحَالٍ.

ثُمَّ لِمَ لَا تَكُونُ الْحَصْبَةُ وَالْجُدَرِيُّ كَانَتَا بِسَبَبِ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالتَّنْكِيلِ وَالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ وَمَعْرُوفٌ مِنَ انْتِشَارِ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْبِئَةِ عَقِبَ الْحُرُوبِ وَالْجَوَائِحِ؟!

بَلْ لِمَ لَا يَكُونُ هَذَا أَمْرًا اتِّفَاقِيًّا حَدَثَ بَعْدَ حَادِثِ الْفِيلِ؟!

وَلَوْ سَلَّمْنَا بِأَنَّ هَذَا رَأْيٌ لِقَائِلِهِ، فَكَيْفَ يُرَجَّحُ رَأْيٌ ضَعِيفٌ يُعَارِضُ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَأْيٍ صَحِيحٍ يَشْهَدُ لَهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إِنَّ هَلَاكَهُمْ كَانَ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ أَلْقَتْهَا عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ الْأَبَابِيلُ؟!

فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْمِيكْرُوبَاتِ الَّتِي تُسَبِّبُ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ. فَيُنْكِرُونَ أَنَّ الْهَلَاكَ إِنَّمَا كَانَ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا التَّشْكِيكَ لَيْسَ لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ.

أَمَّا إِنْكَارُ مَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ، وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ الْمُسَلَّمَاتِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَاسْتِعْظَامُهُ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ أَثَرٌ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَلُوثَةٌ سَرَتْ إِلَىٰ بَعْضٍ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ.

فَلْنَحْذَرْ أَمْثَالَ هَذِهِ التَّشْكِيكَاتِ؛ فَإِنَّهَا مَبْثُوثَةٌ فِي كُتُبِ الْمُعَاصِرِينَ، وَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَتَحَرَّىٰ أَلَّا يَقْبَلَ إِلَّا مَا ثَبَتَ عَلَىٰ حَسَبِ قَوَاعِدِ عُلَمَائِنَا الْمُحَدِّثِينَ حَتَّىٰ يَضْمَنَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَأْخُذُ الصَّحِيحَ، وَيَنْفِي الدَّخِيلَ.

●●●



زَوَاجُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِآمِنَةَ

هَا هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَدْ عَظُمَ فِيهِ الْفِدَاءُ، وَأَصْبَحَ مِلْءَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ شَابًّا نَسِيبًا جَمِيلًا وَسِيمًا، غَضَّ الْإِهَابِ، قَوِيَّ الْبُنْيَانِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ غَدَا مَطْمَعَ الْآمَالِ، وَغَايَةَ الْأَمَانِيِّ مِنَ الْغِيدِ الْكَوَاعِبِ الْحِسَانِ مِنْ شَرِيفَاتِ قُرَيْشٍ أَنْ يَصِرْنَ زَوْجًا لَهُ، حَتَّىٰ بَرَّحَ بِهِنَّ الْهَوَىٰ وَالْحُبُّ، فَرَأَىٰ أَبُوهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ شَرِيفُ مَكَّةَ وَسَيِّدُهَا أَنْ يُزَوِّجَهُ بِكْرًا مِنْ كَرَائِمِ الْبُيُوتَاتِ الْقُرَشِيَّةِ، وَفَكَّرَ الشَّيْخُ ثُمَّ فَكَّرَ، حَتَّىٰ هَدَاهُ تَفْكِيرُهُ -وَهُوَ الْعَارِفُ بِالْأَعْرَاقِ وَالْأَحْسَابِ- إِلَىٰ فَتَاةِ بَنِي زُهْرَةَ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ. فَأَخَذَ بِيَدِ عَبْدِ اللهِ، وَذَهَبَ بِهِ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَنَازِلَ بَنِي زُهْرَةَ، وَدَخَلَ وَإِيَّاهُ دَارَ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الزُّهْرِيِّ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وَشَرَفًا، فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ آمِنَةَ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ فَتَاةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا.

فَأَمَّا النَّسَبُ: فَمِنْ جِهَةِ الْأَبِ.

وَأَمَّا الْمَوْضِعُ: فَمِنْ جِهَةِ الْأُمِّ.

وَبَنَىٰ عَبْدُ اللهِ بِآمِنَةَ، وَبَقِيَ فِي بَيْتِ أَبِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ، حَتَّىٰ كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ فَانْتَقَلَ بِهَا إِلَىٰ مَنَازِلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَاشَ الْفَتَىٰ

الْمَرْمُوقُ الْمَحْبُوبُ الْمَرْضِيُّ عَنْهُ، وَالْفَتَاةُ الْوَادِعَةُ الْجَمِيلَةُ الشَّرِيفَةُ الْحَسِيبَةُ النَّسِيبَةُ أَيَّامًا مَعْدُودَةً لَمْ تَتَجَاوَزْ عِنْدَ جَمْهَرَةِ الْمُؤَرِّخِينَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَقَدْ شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ الْأَيَّامُ الْعَشَرَةُ عُمْرَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ فِي هَذَا الزَّوَاجِ الْمُبَارَكِ.

● ● ●

حَمْلُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَةِ حَمَلَتِ السَّيِّدَةُ الشَّرِيفَةُ آمِنَةُ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدِ ادَّخَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِأَعْظَمِ أُمُومَةٍ فِي التَّارِيخِ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهَا الرُّؤَىٰ وَالْبُشْرَيَاتُ بِجَلَالِ قَدْرِ هَذَا الْجَنِينِ، فَرَأَتْ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ، وَبَدَتْ مِنْهُ قُصُورُ بُصْرَىٰ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ؛ فَقَدْ رَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الدَّلَائِلِ»، وَابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» أَنَّ آمِنَةَ قَالَتْ: «رَأَيْتُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي شِهَابٌ أَضَاءَتْ لَهُ الْأَرْضُ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ قُصُورَ الشَّامِ».

وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَمَثِيلَاتُهَا لِيَخْفَىٰ تَأْوِيلُهَا عَلَىٰ آمِنَةَ؛ وَهِيَ مَنْ هِيَ ذَكَاءً وَفِطْنَةً، فَقَدْ فَهِمَتْ أَنَّ مَنْ حَمَلَتْ بِهِ سَيَمْلَأُ الْأَرْضَ نُورًا وَضِيَاءً، وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً، وَسَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ وَذِكْرٌ.

عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ لِغَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قِيلَ لَهُ: مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**».

فَهَذَا يَشْهَدُ لِمَا رَوَاهُ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ فِي كُتُبِهِمْ -أَعْنِي أَبَا نُعَيْمٍ، وَابْنَ سَعْدٍ، وَكَذَا مَنْ ذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ- يَشْهَدُ لَهُمْ بِهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِ

رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهَا خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**»، وَرِوَايَةُ أَحْمَدَ صَحِيحَةٌ لِغَيْرِهَا.

لَمْ يَطُلِ الْمُقَامُ بِالْفَتَىٰ الشَّابِّ عَبْدِ اللهِ مَعَ زَوْجِهِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، فَقَدْ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ إِلَىٰ الشَّامِ، وَتَرَكَ الزَّوْجَةَ الْحَبِيبَةَ، وَمَا دَرَىٰ أَنَّهَا عَلِقَتْ بِالنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَقَضَىٰ الزَّوْجُ الْمُكَافِحُ مُدَّةً فِي تَصْرِيفِ تِجَارَتِهِ، وَهُوَ يَعُدُّ الْأَيَّامَ كَيْ يَعُودَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ فَيَهْنَأَ بِهَا وَتَهْنَأَ بِهِ.

وَمَا إِنْ فَرَغَ حَتَّىٰ عَادَ، وَفِي أَوْبَتِهِ عَرَّجَ عَلَىٰ أَخْوَالِ أَبِيهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُمْ بَنُو النَّجَّارِ بِالْمَدِينَةِ، فَاتَّفَقَ أَنْ مَرِضَ عِنْدَهُمْ فَبَقِيَ وَعَادَ رِفَاقُهُ، وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَعَلِمَ مِنْهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِخَبَرِ مَرَضِهِ، فَأَرْسَلَ أَكْبَرَ بَنِيهِ الْحَارِثَ؛ لِيَرْجِعَ بِأَخِيهِ عَبْدِ اللهِ بَعْدَ إِبْلَالِهِ وَشِفَائِهِ، وَمَا إِنْ وَصَلَ الْحَارِثُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ عَلِمَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ قَدْ مَاتَ، وَدُفِنَ بِهَا فِي دَارِ النَّابِغَةِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَرَجَعَ حَزِينَ النَّفْسِ عَلَىٰ فَقْدِ أَخِيهِ، وَأَعْلَمَ أَبَاهُ بِمَوْتِ الْغَائِبِ الَّذِي لَا يَئُوبُ، وَأَثَارَ النَّبَأُ الْمُوجِعُ الْأَحْزَانَ فِي قَلْبِ الْوَالِدِ الشَّيْخِ الْمَفْجُوعِ فِي فَقْدِ أَحَبِّ أَوْلَادِهِ إِلَيْهِ، وَأَلْصَقِهِمْ بِنَفْسِهِ، وَأَثَارَ هَذَا النَّبَأُ الْمُفْجِعُ الْأَسَىٰ وَالْحَسْرَةَ فِي نَفْسِ الزَّوْجَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْلُمُ بِأَوْبَةِ الزَّوْجِ الْحَبِيبِ الْغَالِي، وَتَشْتَاقُ إِلَيْهِ اشْتِيَاقَ الظَّمآنِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ الْقَائِظِ إِلَىٰ الشَّرَابِ الْعَذْبِ الْحُلْوِ الْبَارِدِ.

وَتَبَدَّدَ مَا كَانَتْ تُعَلِّلُ بِهِ نَفْسَهَا مِنْ سَعَادَةٍ وَهَنَاءَةٍ فِي كَنَفِ الزَّوْجِ الْفَتَىٰ الْوَسِيمِ الَّذِي كَانَ مَشْغَلَةَ الْمُجْتَمَعِ الْقُرَشِيِّ وَالْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ حِينًا مِنَ الزَّمَانِ، فَمَا مِثْلُهُ مِنْ فَتًىٰ، وَمَا مِثْلُهُ مِنْ زَوْجٍ!!

لَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ شَابًّا نَسِيبًا جَمِيلًا وَسِيمًا غَضَّ الْإِهَابِ، قَوِيَّ الْبُنْيَانِ، أَرَادَ أَبُوهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ يُزَوِّجَهُ، فَزَوَّجَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا؛ أَبُوهَا سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وَشَرَفًا، فَبَنَىٰ بِهَا عَبْدُ اللهِ فِي مَكَّةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْسَطَ قَوْمِهِ نَسَبًا، وَأَعْظَمَهُمْ شَرَفًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ.

وَهَاهُنَا قِصَّةٌ مُنْكَرَةٌ لَا تَصِحُّ: رَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ، وَابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» أَنَّ امْرَأَةً تَعَرَّضَتْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَالِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَرَادَتْ مِنْهُ أَنْ يَفْحُشَ بِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا رَأَتْ نُورًا فِي وَجْهِ عَبْدِ اللهِ نُورًا سَاطِعًا، فَلَمَّا تَزَوَّجَ عَبْدُ اللهِ آمِنَةَ أُمَّ الرَّسُولِ ﷺ وَوَقَعَ بِهَا، ذَهَبَ ذَلِكَ النُّورُ الَّذِي فِي وَجْهِ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ رَجَعَ عَبْدُ اللهِ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ، وَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكِ فِي الَّذِي عَرَضْتِ عَلَيَّ، فَقَالَتْ: لَا، مَرَرْتَ، وَفِي وَجْهِكَ نُورٌ سَاطِعٌ ثُمَّ رَجَعْتَ، وَلَيْسَ فِيهِ ذَلِكَ النُّورُ، فَلَيْسَ لِي بِي لَكَ الْيَوْمَ حَاجَةٌ.

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مُنْكَرَةٌ سَنَدًا وَمَتْنًا، وَمَنْ يَقْرَأِ الرِّوَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ عَنْهَا يُدْرِكْ مَدَىٰ الِاخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ فِي سَوْقِهَا، سَوَاءٌ فِي تَعْيِينِ الْمَرْأَةِ؛ إِذْ مَرَّةً هِيَ خَثْعَمِيَّةٌ، وَأُخْرَىٰ أَسَدِيَّةٌ قُرَشِيَّةٌ اسْمُهَا قُتَيْلَةُ، وَثَالِثَةً عَدَوِيَّةٌ اسْمُهَا لَيْلَىٰ، وَكَذَلِكَ فِي صِفَةِ عَبْدِ اللهِ عِنْدَمَا الْتَقَتْهُ؛ فَمَرَّةً هُوَ مُطَيَّنُ الثِّيَابِ، وَأُخْرَىٰ هُوَ فِي زِينَتِهِ، وَفِي الْحَقِّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ نَكَارَتِهَا سَنَدًا وَمَتْنًا.

وَفَاةُ عَبدِ اللهِ بْنِ عَبدِ المُطَّلِبِ

ثُمَّ خَرَجَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ الشَّامِ فِي عِيرٍ مِنْ عِيرَاتِ قُرَيْشٍ، يَحْمِلُونَ تِجَارَاتٍ، فَفَرَغُوا مِنَ تِجَارَتِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَمَرُّوا بِالْمَدِينَةِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَنَا أَخْتَلِفُ عِنْدَ أَخْوَالِي بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، فَأَقَامَ عِنْدَهُمْ مَرِيضًا شَهْرًا، وَمَضَىٰ أَصْحَابُهُ فَقَدِمُوا مَكَّةَ -كَمَا مَرَّ- فَسَأَلَهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَنِ عَبْدِ اللهِ فَقَالُوا: خَلَّفْنَاهُ عِنْدَ أَخْوَالِهِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، وَهُوَ مَرِيضٌ فَبَعَثَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَكْبَرَ وَلَدِهِ الْحَارِثَ فَوَجَدَهُ قَدْ تُوُفِّيَ، وَدُفِنَ فِي دَارِ النَّابِغَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ.

فَرَجَعَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ أَبِيهِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ قَدْ تُوُفِّيَ، فَوَجَدَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَإِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ وَجْدًا شَدِيدًا.

لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ وَالِدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ ابْنَ شَهْرَيْنِ؛ فَقَدْ رَوَىٰ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَصَحَّحَهُ عَنْ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: تُوُفِّيَ أَبُوهُ، وَأُمُّهُ حُبْلَىٰ بِهِ -أَيْ: وَأُمُّهُ حَامِلٌ بِهِ-.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أُمَّهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ ﷺ تُوُفِّيَ أَبُوهُ عَبْدُ اللهِ، وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ عَلَىٰ الْمَشْهُورِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: وَاخْتُلِفَ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ: هَلْ تُوُفِّيَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ أَوْ تُوُفِّيَ بَعْدَ وِلَادَتِهِ؟ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ تُوُفِّيَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ كَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ وُلِدَ يَتِيمًا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الضُّحَىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٦].

كَمْ كَانَ عُمْرُ عَبْدِ اللهِ لَمَّا تُوُفِّيَ؟

تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ وَالِدُ رَسُولِ ﷺ عَنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «هَذَا هُوَ أَثْبَتُ الْأَقَاوِيلِ».

⦿ ⦿ ⦿

مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِيهِ

وَأَمَّا مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ، فَجَمِيعُ مَا خَلَّفَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: خَمْسَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةُ غَنَمٍ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا بَرَكَةُ، وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا-.

أُمُّ أَيْمَنَ حَاضِنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَسْلَمَتْ قَدِيمًا، وَهَاجَرَتْ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ وَإِلَىٰ الْمَدِينَةِ زَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَرُزِقَتْ مِنْهُ ابْنَهَا أُسَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَتُوُفِّيَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كَانَ مِنْ شَأْنِ أُمِّ أَيْمَنَ أُمِّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهَا كَانَتْ وَصِيفَةً -أَيْ: أَمَةً- لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ، فَلَمَّا وَلَدَتْ آمِنَةُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَمَا تُوُفِّيَ أَبُوهُ، كَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْضِنُهُ حَتَّىٰ كَبُرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَعْتَقَهَا.

فَمِيرَاثُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ: خَمْسَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةُ غَنَمٍ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا بَرَكَةُ، وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا-.

●●●

نَسَبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الشَّرِيفُ:

ذَكَرَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَسَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» بَعْدَ ذِكْرِ النَّسَبِ إِلَىٰ عَدْنَانَ: وَلَا يَصِحُّ حِفْظُ النَّسَبِ فَوْقَ عَدْنَانَ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ ذِكْرِ النَّسَبِ إِلَىٰ عَدْنَانَ أَيْضًا: إِلَىٰ هُنَا مَعْلُومُ الصِّحَّةِ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّسَّابِينَ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ، وَمَا فَوْقَ عَدْنَانَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَجَاءَ عَنِ ابْنِ سَعْدٍ فِي «طَبَقَاتِهِ»: الْأَمْرُ عِنْدَنَا الْإِمْسَاكُ عَلَىٰ مَا وَرَاءَ عَدْنَانَ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ.

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: مَا وَجَدْنَا مَنْ يَعْرِفُ وَرَاءَ عَدْنَانَ، وَلَا قَحْطَانَ إِلَّا تَخَرُّصًا.

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَدْنَانُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ، لَكِنِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ مِنَ الْآبَاءِ».

لَقَدْ كَانَ -وَمَا زَالَ- شَرَفُ النَّسَبِ لَهُ الْمَكَانَةُ فِي النُّفُوسِ؛ لِأَنَّ ذَا النَّسَبِ الرَّفِيعِ لَا تُنْكَرُ عَلَيْهِ الصَّدَارَةُ نُبُوَّةً كَانَتْ أَوْ مُلْكًا، وَيُنْكَرُ ذَلِكَ عَلَىٰ وَضِيعِ النَّسَبِ، فَيَأْنَفُ الْكَثِيرُ مِنَ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَائِهِ. وَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعَدُّ لِلنُّبُوَّةِ هَيَّأَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ شَرَفَ النَّسَبِ؛ لِيَكُونَ مُسَاعِدًا عَلَىٰ الْتِفَافِ النَّاسِ حَوْلَهُ.

إِنَّ مَعْدِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طَيِّبٌ وَنَفِيسٌ، وَهُوَ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ الذَّبِيحِ، وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، وَهُوَ اسْتِجَابَةٌ لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ بِشَارَةُ أَخِيهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا حَدَّثَ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ لِغَيْرِهِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

وَطِيبُ الْمَعْدِنِ وَالنَّسَبُ الرَّفِيعُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ عَنْ سَفْسَافِ الْأُمُورِ، وَيَجْعَلُهُ يَهْتَمُّ بِمَعَالِيهَا وَفَضَائِلِهَا. وَالرُّسُلُ وَالدُّعَاةُ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ تَزْكِيَةِ أَنْسَابِهِمْ، وَطُهْرِ أَصْلَابِهِمْ، وَيُعْرَفُونَ عِنْدَ النَّاسِ بِذَلِكَ، فَيَحْمَدُونَهُمْ، وَيَثِقُونَ بِهِمْ.

وَمِمَّا تَبَيَّنَ يَتَّضِحُ لَنَا مِنْ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ دِلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَيَّزَ الْعَرَبَ عَلَىٰ سَائِرِ النَّاسِ، وَفَضَّلَ قُرَيْشًا عَلَىٰ سَائِرِ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَىٰ، وَمُقْتَضَىٰ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَحَبَّةُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَهَرَ فِيهِمْ، وَمَحَبَّةُ الْقَبِيلَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، لَا مِنْ حَيْثُ الْأَفْرَادُ وَالْجِنْسُ، بَلْ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ الْمُجَرَّدَةُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْقُرَشِيَّةَ قَدْ شَرُفَ كُلٌّ مِنْهَا -وَلَا رَيْبَ- بِانْتِسَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا،

وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ مِنْ سُوءٍ بِكُلِّ مَنِ قَدِ انْحَرَفَ مِنَ الْعَرَبِ أَوِ الْقُرَشِيِّينَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَانْحَطَّ عَنْ مُسْتَوَىٰ الْكَرَامَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الِانْحِرَافَ أَوْ الِانْحِطَاطَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُودِيَ بِمَا كَانَ مِنْ نِسْبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَيُلْغِيهَا مِنَ الِاعْتِبَارِ.

نَسَبُهُ ﷺ فِي قَوْمِهِ كَانَ فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، وَكَانَ أَشْرَفَهُمْ أَرُومَةً، كَمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِهِ ﷺ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ رِوَايَةِ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**».

وَمِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: أَتَىٰ أُنَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا لَنَسْمَعُ مِنْ قَوْمِكَ حَتَّىٰ يَقُولَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ: إِنَّمَا مَثَلُ مُحَمَّدٍ مَثَلُ نَخْلَةٍ نَبَتَتْ فِي كِبَا -أَيْ: فِي كُنَاسَةٍ-.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ أَنَا؟**».

قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**».

قَالَ: فَمَا سَمِعْنَاهُ قَطُّ يَنْتَمِي قَبْلَهَا.

«أَلَا إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ خَلْقَهُ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ، ثُمَّ فَرَّقَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتًا، وَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا».

اللَّفْظُ لِأَحْمَدَ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا التِّرْمِذِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي وَفْدٍ، وَلَا يَرَوْنَ إِلَّا أَنِّي أَفْضَلُهُمْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْتُمْ مِنَّا؟ فَقَالَ: **«نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ لَا نَقْفُوا أُمَّنَا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا»**. فَكَانَ الْأَشْعَثُ يَقُولُ: لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ نَفَىٰ قُرَيْشًا مِنَ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ إِلَّا جَلَدْتُهُ الْحَدَّ.

وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ سَأَلَهُ هِرَقْلُ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. وَقَوْلُ هِرَقْلَ: «وَسَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي قَوْمِهَا»، وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ.

وَعَنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَتْنِي رَبِيبَةُ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: **«قُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مِنْ مُضَرَ؟ قَالَتْ: فَمِمَّنْ كَانَ إِلَّا مِنْ مُضَرَ؟! مِنْ بَنِي النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ»**.

وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

نَسَبُهُ ﷺ هُوَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، فَلِنَسَبِهِ مِنَ الشَّرَفِ أَعْلَىٰ ذِرْوَةٍ، وَأَعْدَاؤُهُ كَانُوا يَشْهَدُونَ لَهُ بِذَلِكَ، وَبِهَذَا شَهِدَ بِهِ عَدُوُّهُ إِذْ ذَاكَ أَبُو سُفْيَانَ رضي الله عنه بَيْنَ يَدَيْ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي فَتْرَةِ الْمُوَادَعَةِ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ، وَلَكِنَّهُ شَهِدَ بِهَذَا الْحَقِّ بَيْنَ يَدَيْ هِرَقْلَ.

أَشْرَفُ الْقَوْمِ قَوْمُهُ، وَأَشْرَفُ الْقَبَائِلِ قَبِيلَتُهُ، وَأَشْرَفُ الْأَفْخَاذِ فَخِذُهُ ﷺ، فَهُوَ مُحَمَّدٌ، وَتَسْمِيَتُهُ مُحَمَّدًا وَقَعَتْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ حَمِدَ رَبَّهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ النَّاسُ، وَكَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ يَحْمَدُ رَبَّهُ، فَيُشَفِّعُهُ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ، وَقَدْ خُصَّ بِسُورَةِ الْحَمْدِ، وَبِلِوَاءِ الْحَمْدِ، وَبِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَشُرِعَ لَهُ الْحَمْدُ بَعْدَ الْأَكْلِ، وَبَعْدَ الشُّرْبِ، وَبَعْدَ الدُّعَاءِ، وَبَعْدَ الْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ، وَسُمِّيَتْ أُمَّتُهُ (الْحَمَّادُونَ)، فَجُمِعَتْ لَهُ مَعَانِي الْحَمْدِ، وَأَنْوَاعُهُ ﷺ.

*** فَهُوَ: مُحَمَّدُ ﷺ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.**

وَهَذَا الْقَدْرُ -كَمَا مَرَّ- مِنْ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مِنْ نَسَبِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا النَّسَبُ الَّذِي سُقْنَاهُ إِلَىٰ عَدْنَانَ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا نِزَاعَ، وَهُوَ ثَابِتٌ بِالتَّوَاتُرِ وَالْإِجْمَاعِ».

اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ خَيرِ الْقُرُونِ، وَأَزْكَىٰ الْقَبَائِلِ، وَأَفْضَلِ الْبُطُونِ، فَكَانَ ﷺ أَوْسَطَ قَوْمِهِ نَسَبًا، وَأَعْظَمَهُمْ شَرَفًا.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا شَرَفُ نَسَبِهِ، وَكَرَمُ بَلَدِهِ وَمَنْشَئِهِ، فَمِمَّا لَا يَحْتَاجُ مِنْ إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، وَلَا بَيَانِ مُشْكِلٍ، وَلَا خَفِيٍّ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ نُخْبَةُ بَنِي هَاشِمٍ، وَسُلَالَةُ قُرَيْشٍ وَصَمِيمُهَا، وَأَشْرَفُ الْعَرَبِ، وَأَعَزُّهُمْ نَفَرًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَمِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَكْرَمِ بِلَادِ اللهِ عَلَىٰ اللهِ، وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ**».

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُهُمْ بَيْتًا، وَخَيْرُهُمْ نَفْسًا**».

◉ ◉ ◉



مِنَ الْحِكَمِ فِي ظُهُورِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُسْرَةٍ رَفِيعَةِ الشَّأْنِ عَرِيقَةِ النَّسَبِ:

نَسَبُهُ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ وَمِنْ جِهَةِ أُمِّهِ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَنَسَبُهُ فِي أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْأَصَالَةِ وَالشَّرَفِ، وَقَدْ خَصَّهُ اللهُ بِذَلِكَ وَاصْطَفَاهُ، فَهُوَ صَفْوَةٌ مِنْ صَفْوَةٍ، وَخِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ، وَفِي ظُهُورِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُسْرَةٍ رَفِيعَةِ الشَّأْنِ عَرِيقَةِ النَّسَبِ حِكَمٌ عَظِيمَةٌ:

مِنْهَا: أَنَّ فِي ذَلِكَ عَامِلًا مِنْ عَوَامِلِ نَجَاحِ الدَّعْوَةِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا؛ حَيْثُ كَانَ لِلْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ وَزْنُهَا عِنْدَ الْعَرَبِ، بِدَلِيلِ أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِمَّنْ لَا عَصَبِيَّةَ لَهُ لَقِيَ مِنَ الْعَذَابِ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهِ. وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَجَدَ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ لَهُ أَشَدَّ الْأَذَىٰ كَأَبِي لَهَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَزِيدًا مِنَ الْعِنَايَةِ وَالْحِمَايَةِ مِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ مَا مَكَّنَهُ مِنْ تَخَطِّي عَقَبَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي سَبِيلِ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ فِي شَرَفِ هَذَا النَّسَبِ النَّبَوِيِّ رَدًّا عَلَىٰ مَنْ يُفَكِّرُ فِي اتِّهَامِ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ أَوْ فِي بَعْضِ تَعَالِيمِ شَرِيعَتِهِ بِأَنَّهَا جَاءَتْ كَرَدِّ فِعْلٍ لِوَاقِعٍ اجْتِمَاعِيٍّ كَانَ يَعِيشُهُ، كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ الْمَادِّيَّةِ كَمَارْكِس وَغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَتْ دَعَوَاتُهُمْ رُدُودَ فِعْلٍ لِمَا عَانَوْهُ فِي وَاقِعِ حَيَاتِهِمْ.

فَلَوْ كَانَ ﷺ -وَحَاشَاهُ- غَيْرَ ذِي نَسَبٍ لَفَسَّرَ أَعْدَاؤُهُ دَعْوَتَهُ عَلَىٰ أَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ لِتَعْوِيضِ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فِي وَاقِعِهِ، وَعَلَىٰ أَنَّ مَا يَدْعُو لَهُ مِنْ مُسَاوَاةٍ إِنَّمَا هُوَ سَعْيٌ مِنْهُ لِرَدِّ اعْتِبَارِهِ، وَمَنْ هُمْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ.

لَمْ يَزَلِ الرَّسُولُ ﷺ يَنْتَقِلُ مِنْ أَصْلَابِ الْآبَاءِ الطَّاهِرِينَ إِلَىٰ أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ الطَّاهِرَاتِ، لَمْ يَمَسَّ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ شَيْءٌ مِنْ سِفَاحٍ، وَلَا مِنْ أَدْرَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، بَلْ هُوَ ﷺ مِنْ سُلَالَةٍ كُلُّهُمْ سَادَةٌ أَشْرَافٌ أَطْهَارٌ.

رَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ بِالشَّوَاهِدِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ**». وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَيْضًا السُّيُوطِيُّ فِي «الْخَصَائِصِ الْكُبْرَىٰ»، وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»، وَقَالَ: هَذَا مُرْسَلٌ جَيِّدٌ، وَلَهُ شَوَاهِدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَائِشَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَرْتَقِي بِهَا إِلَىٰ الْحَسَنِ، وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ صَحِيحَ الْجَامِعِ لِلْأَلْبَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَلَّا يَبْعَثَ نَبِيًّا إِلَّا فِي وَسَطٍ مِنْ قَوْمِهِ شَرَفًا وَنَسَبًا، فَقَدْ كَانَ فِي الذِّرْوَةِ مِنْ هَذِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَا مِنْ آبَائِهِ إِلَّا كَانَ غَنِيًّا بِالْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ، وَمَا مِنْ أُمٍّ مِنْ أُمَّهَاتِهِ إِلَّا وَهِيَ أَفْضَلُ نِسَاءِ قَوْمِهَا نَسَبًا وَمَوْضِعًا، وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ، وَالْكَمَالَاتُ الْبَشَرِيَّةُ تَنْحَدِرُ مِنَ الْأُصُولِ إِلَىٰ

الْفُرُوعِ حَتَّىٰ تَجَمَّعَتْ كُلُّهَا فِي سُلَالَةِ وَلَدِ آدَمَ وَمُصَاصَةِ بَنِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ يُقَالُ: فُلَانٌ مُصَاصُ قَوْمِهِ! أَيْ: أَخْلَصُهُمْ نَسَبًا.

*** نَسَبُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا ذَكَرَ صَاحِبُ «الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ» يَنْقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ:**

- **جُزْءٌ اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السِّيَرِ وَالْأَنْسَابِ كَافَّةً:** وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ ﷺ وَيَنْتَهِي إِلَىٰ عَدْنَانَ.

- **وَجُزْءٌ آخَرُ كَثُرَ فِيهِ الِاخْتِلَافُ حَتَّىٰ جَاوَزَ حَدَّ الْجَمْعِ وَالِائْتِلَافِ:** وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يَبْدَأُ بَعْدَ عَدْنَانَ، وَيَنْتَهِي إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدْ تَوَقَّفَ فِيهِ قَوْمٌ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ سَرْدُهُ، بَيْنَمَا جَوَّزَ الْآخَرُونَ سَرْدَهُ وَسَاقُوهُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ الْمُجَوِّزُونَ فِي عَدَدِ الْآبَاءِ وَأَسْمَائِهِمْ، فَاشْتَدَّ خِلَافُهُمْ، وَكَثُرَتْ أَقْوَالُهُمْ حَتَّىٰ جَاوَزَتْ ثَلَاثِينَ قَوْلًا إِلَّا أَنَّ جَمِيعَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ صَرِيحِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- **أَمَّا الْجُزْءُ الثَّالِثُ،** فَهُوَ يَبْدَأُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَنْتَهِي إِلَىٰ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجُلُّ الِاعْتِمَادِ فِيهِ عَلَىٰ نَقْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعِنْدَهُمْ فِيهِ مِنْ بَعْضِ تَفَاصِيلِ الْأَعْمَارِ وَغَيْرِهَا مَا لَا نَشُكُّ فِي بُطْلَانِهِ، بَيْنَمَا نَتَوَقَّفُ فِي الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِيمَا يَلِي الْأَجْزَاءُ الثَّلَاثَةُ مِنْ نَسَبِهِ الزَّكِيِّ ﷺ بِالتَّرْتِيبِ:

*** الْجُزْءُ الْأَوَّلُ:** مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ اسْمُهُ: شَيْبَةُ) بْنِ هَاشِمٍ (وَاسْمُ هَاشِمٍ: عَمْرُو) بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ (وَاسْمُهُ:

الْمُغِيرَةُ) بْنِ قُصَيّ (وَاسْمُهُ: زَيْدٌ) بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ (وَهُوَ الْمُلَقَّبُ بِقُرَيْشٍ، وَإِلَيْهِ تَنْتَسِبُ الْقَبِيلَةُ) بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ (وَاسْمُهُ: قَيْسٌ) بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ (وَاسْمُهُ: عَامِرٌ) بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

* **الْجُزْءُ الثَّانِي**: مَا فَوْقَ عَدْنَانَ، وَكَذَلِكَ الْجُزْءُ الثَّالِثُ أَسْمَاءٌ أَعْجَمِيَّةٌ مَمْنُوعَةٌ مِنَ الصَّرْفِ، وَقَدْ ذَكَرُوهَا قَالَ:

الْجُزْءُ الثَّانِي مَا فَوْقَ عَدْنَانَ، وَعَدْنَانُ هُوَ ابْنُ أُدٍّ، وَيُقَالُ: أُدَدِ بْنِ الْهَمَيْسَعِ بْنِ سَلَامَانَ بْنِ عَوَصَ بْنِ بُوزَ بْنِ قَمْوَالَ بْنِ أُبَيِّ بْنِ عَوَّامِ بْنِ نَاشِدِ بْنِ حَذَا بْنِ بَلْدَاسَ بْنِ يَلْدَاخَ بْنِ طَابِخِ بْنِ جَاحِمِ بْنِ تَاحِشِ بْنِ مَاخِي بْنِ عَيْضِ بْنِ عَبْقَرِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ الدَّعَا بْنِ حَمْدَانَ بْنِ سَمْبَرَ بْنِ يَثْرِبَ بْنِ يَحْزَنَ بْنِ يَلْحَنَ بْنِ أَرْعُوَى بْنِ عَيْضَ بْنِ دَيْشَانَ بْنِ عَيْصَرَ بْنِ أَفْنَادَ بْنِ أَيْهَامَ بْنِ مَقْصَرَ بْنِ نَاحِثَ بْنِ رَازِحَ بْنِ شَمَّا بْنِ مَزَّا بْنِ عَوَصَ بْنِ عَرَامِ بْنِ قِيدَارِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قَالَ:

* **الْجُزْءُ الثَّالِثُ**: مَا فَوْقَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ ابْنُ تَارِحَ، وَاسْمُهُ: آزَرُ بْنِ نَاحُورَ بْنِ سَارُوعَ -أَوْ سَارُوقَ- بْنِ رَاعُو بْنِ فَالِخَ بْنِ عَيْبَرَ بْنِ شَالِخَ بْنِ أَرْفَخْشَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بْنِ لَامِكَ بْنِ مَدُّوا شَدَخَ بْنِ أَخْنُوخَ، وَيُقَالُ: هُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بْنُ يَرْدَ بْنِ مَهْلَائِيلَ بْنِ قَيْنَنَا بْنِ يَانِشَ، وَقِيلَ: أَنُوشَ. بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ -كَمَا مَرَّ- هُوَ: **الْجُزْءُ الْأَوَّلُ**، وَهُوَ نَسَبُهُ ﷺ إِلَىٰ عَدْنَانَ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

● ● ●

الْأُسْرَةُ النَّبَوِيَّةُ

أَمَّا الْأُسْرَةُ النَّبَوِيَّةُ: فَتُعْرَفُ أُسْرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْأُسْرَةِ الْهَاشِمِيَّةِ نِسْبَةً إِلَىٰ جَدِّهِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَأَمَّا هَاشِمٌ: فَهُوَ الَّذِي تَوَلَّىٰ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حِينَ تَصَالَحَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنُو عَبْدِ الدَّارِ عَلَىٰ اقْتِسَامِ الْمَنَاصِبِ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

وَكَانَ هَاشِمٌ مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَطْعَمَ الثَّرِيدَ لِلْحُجَّاجِ بِمَكَّةَ، وَكَانَ اسْمُهُ عَمْرًا، وَمَا سُمِّيَ هَاشِمًا إِلَّا لِهَشْمِهِ الْخُبْزَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةَ الصَّيْفِ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... قَوْمٍ بِمَكَّةَ مُسْنِتِينَ عِجَافِ

سُنَّتْ إِلَيْهِ الرِّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا ... سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ الْأَصْيَافِ

مِنْ حَدِيثِ هَاشِمٍ: أَنَّهُ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ سَلْمَىٰ بِنْتَ عَمْرٍو أَحَدِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَقَامَ عِنْدَهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ، وَهِيَ عِنْدَ أَهْلِهَا قَدْ حَمَلَتْ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَمَاتَ هَاشِمٌ بِغَزَّةَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، وَوَلَدَتِ امْرَأَتُهُ سَلْمَىٰ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ،

وَسَمَّتْهُ شَيْبَةَ؛ لِشَيْبَةٍ كَانَتْ فِي رَأْسِهِ، وَجَعَلَتْ تُرَبِّيهِ فِي بَيْتِ أَبِيهَا فِي يَثْرِبَ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أُسْرَتِهِ بِمَكَّةَ.

وَكَانَ لِهَاشِمٍ أَرْبَعَةُ بَنِينَ، وَهُمْ: أَسَدٌ، وَأَبُو صَيْفِيٍّ، وَنَضْلَةُ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ، **وَخَمْسُ بَنَاتٍ، وَهُنَّ**: الشِّفَاءُ، وَخَالِدَةُ، ضَعِيفَةُ، وَرُقَيَّةُ، وَحَيَّةُ.

وَأَمَّا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: فَقَدْ مَرَّ أَنَّ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ بَعْدَ هَاشِمٍ صَارَتْ إِلَىٰ أَخِيهِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ الْمُطَّلِبُ شَرِيفًا مُطَاعًا ذَا فَضْلٍ فِي قَوْمِهِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّيهِ الْفَيَّاضَ؛ لِسَخَائِهِ.

لَمَّا صَارَ شَيْبَةُ -وَهُوَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ- وَصِيفًا أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِي سِنِينَ، سَمِعَ بِهِ الْمُطَّلِبُ فِي مَكَّةَ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ -وَلَمْ يَكُنْ هَذَا بِاسْمِهِ، وَإِنَّمَا عُرِفَ بِهِ بَعْدُ- شَيْبَةُ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ مَعَ أُمِّهِ عِنْدَ أَخْوَالِهِ فَسَمِعَ بِهِ الْمُطَّلِبُ بْنُ هَاشِمٍ، فَرَحَلَ فِي طَلَبِهِ، فَلَمَّا رَآهُ فَاضَتْ عَيْنَاهُ وَضَمَّهُ، وَأَرْدَفَهُ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ، فَامْتَنَعَ حَتَّىٰ تَأْذَنَ لَهُ أُمُّهُ، فَسَأَلَهَا الْمُطَّلِبُ أَنْ تُرْسِلَهُ مَعَهُ، فَامْتَنَعَتْ!

فَقَالَ: إِنَّمَا يَمْضِي إِلَىٰ مُلْكِ أَبِيهِ، وَإِلَىٰ حَرَمِ اللهِ. فَأَذِنَتْ لَهُ.

فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ مُرْدِفَهُ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، فَقَالَ النَّاسُ عِنْدَمَا رَأَوْهُ وَرَاءَ الْمُطَّلِبِ: مَنْ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟! وَلَهُ -كَمَا مَرَّ- سَبْعُ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِي سِنِينَ.

فَقَالُوا: هَذَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ.

فَصَارَتْ لَهُ اسْمًا، قَالَ: وَيْحَكُمْ! إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ!

فَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّىٰ تَرَعْرَعَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُطَّلِبَ هَلَكَ فِي رَدْمَانَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ، فَوَلِيَ بَعْدَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يُقِيمُونَ لِقَوْمِهِمْ، وَشَرُفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ، وَأَحَبَّهُ قَوْمُهُ، وَعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ.

وَلَمَّا مَاتَ الْمُطَّلِبُ، وَثَبَ نَوْفَلٌ عَلَىٰ أَرْكَاحِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَغَصَبَهُ إِيَّاهَا - أَيْ: عَلَىٰ مُمْتَلَكَاتِهِ مِنْ بَيْتٍ وَأَثَاثٍ وَخِلَافِهِ- فَسَأَلَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ النُّصْرَةَ عَلَىٰ عَمِّهِ، فَقَالُوا: لَا نَدْخُلُ بَيْنَكَ، وَبَيْنَ عَمِّكَ.

فَكَتَبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ أَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ بِيَثْرِبَ أَبْيَاتًا يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَسَارَ خَالُهُ أَبُو سَعْدِ بْنُ عَدِيٍّ فِي ثَمَانِينَ رَاكِبًا حَتَّىٰ نَزَلَ بِالْأَبْطَحِ مِنْ مَكَّةَ، فَتَلَقَّاهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: أَلْمَنْزِلَ يَا خَالُ؟! فَقَالَ: لَا وَاللهِ حَتَّىٰ أَلْقَىٰ نَوْفَلًا!!

ثُمَّ أَقْبَلَ فَوَقَفَ عَلَىٰ نَوْفَلٍ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْحِجْرِ مَعَ مَشَايِخِ قُرَيْشٍ، فَسَلَّ أَبُو سَعْدٍ سَيْفَهُ، وَقَالَ: وَرَبِّ الْبَيْتِ، إِنْ لَمْ تَرُدَّ عَلَىٰ ابْنِ أُخْتِي أَرْكَاحَهُ لَأُمَكِّنَنَّ مِنْكَ هَذَا السَّيْفَ.

فَقَالَ: رَدَدْتُهَا عَلَيْهِ، فَأَشْهَدَ عَلَيْهِ مَشَايِخَ قُرَيْشٍ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَىٰ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ ثَلَاثًا ثُمَّ اعْتَمَرَ وَرَجَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا جَرَىٰ ذَلِكَ حَالَفَ نَوْفَلٌ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ عَلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ، وَلَمَّا رَأَتْ خُزَاعَةُ نَصْرَ بَنِي النَّجَّارِ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالُوا: نَحْنُ وَلَدْنَاهُ كَمَا

وَلَدْتُمُوهُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِنَصْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّ عَبْدِ مَنَافٍ مِنْهُمْ، فَدَخَلُوا دَارَ النَّدْوَةِ، وَحَالَفُوا بَنِي هَاشِمٍ عَلَىٰ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَنَوْفَلٍ، وَهَذَا الْحِلْفُ هُوَ الَّذِي صَارَ سَبَبًا لِفَتْحِ مَكَّةَ.

وَلَدَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اثْنَي عَشَرَ رَجُلًا: نَابِتًا، وَقَيْدَرَ، وَأَذْهُلَ، وَمَيْشَن، وَمِسْمَعًا، وَمَاشَا، وَذَمًّا، وَأَذْرَ، وَطِيمَا، وَيَطُورَ، وَنَبش، وَقَيْدُمَا، فَوَلَدَ نَابِتُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ يَشْجُبَ بْنَ نَابِتَ، فَوَلَدَ يَشْجُبُ يَعْرُبَ، فَوَلَدَ يَعْرُبُ تَيْرَحَ، فَوَلَدَ تِيرَحُ نَاحُورَ، فَوَلَدَ نَاحُورُ مُقَوِّمَ أَوْمُقَوَّمَ، فَوَلَدَ مُقَوِّمُ أُدَدَ، فَوَلَدَ أُدَدُ عَدْنَانَ، فَمِنْ عَدْنَانَ تَفَرَّقَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ.

فَوَلَدَ عَدْنَانُ رَجُلَيْنِ: مَعَدَّ بْنَ عَدْنَانَ، وَعَكَّ بْنَ عَدْنَانَ، فَصَارَتْ عَكٌّ فِي دَارِ الْيَمَنِ، وَذَلِكَ أَنَّ عَكًّا تَزَوَّجَ فِي الْأَشْعَرِيِّينَ، فَأَقَامَ فِيهِمْ فَصَارَتِ الدَّارُ وَاللُّغَةُ وَاحِدَةً.

وَالْأَشْعَرِيُّونَ: بَنُو أَشْعَرَ بْنِ نَبتِ بْنِ أُدَدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ هَمَيْسَعَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَرِيبِ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ.

وَوَلَدَ مَعَدُّ بْنِ عَدْنَانَ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: نِزَارٌ، وَقُضَاعَةُ، وَقَمَصُ، وَإِيَادٌ.

فَأَمَّا قُضَاعَةُ، فَتَيَامَنَتْ إِلَىٰ حِمْيَرَ بْنِ سَبَأٍ.

وَأَمَّا قَمَصُ بْنُ مَعَدٍّ: فَهَلَكَتْ بَقِيَّتُهُمْ فِيمَا يَزْعُمُ نُسَّابُ مَعَدٍّ، وَكَانَ مِنْهُمُ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ مَلِكُ الْحِيرَةِ.

وَأَمَّا ذِكْرُ وَلَدِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ: فَقَدْ وَلَدَ نِزَارُ بْنُ مَعَدٍّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: مُضَرُ، وَرَبِيعَةُ، وَأَنْمَارٌ.

فَوَلَدَ مُضَرُ رَجُلَيْنِ هُمَا: إِلْيَاسُ، وَعَيْلَانُ، فَوَلَدَ إِلْيَاسُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ هُمْ: مُدْرِكَةُ، وَطَابِخَةُ، وَقَمْعَةُ، فَوَلَدَ مُدْرِكَةُ رَجُلَيْنِ هُمَا: خُزَيْمَةُ، وَهُذَيْلٌ، فَوَلَدَ خُزَيْمَةُ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ هُمْ: كِنَانَةُ، وَأَسَدٌ، وَأَسَدَةُ، وَالْهُونُ، فَوَلَدَ كِنَانَةُ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: النَّضْرُ، وَمَالِكٌ، وَعَبْدُ مَنَاةَ، وَمِلْكَانُ، فَوَلَدَ النَّضْرُ رَجُلَيْنِ: مَالِكٌ، وَيَخْلُدُ، فَوَلَدَ مَالِكُ بْنُ النَّضْرِ: فِهْرَ بْنَ مَالِكٍ، فَوَلَدَ فِهْرٌ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: غَالِبٌ، وَمُحَارِبٌ، وَالْحَارِثُ وَأَسَدٌ، فَوَلَدَ غَالِبٌ رَجُلَيْنِ: لُؤَيٌّ، وَتَيْمٌ، فَوَلَدَ لُؤَيٌّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: كَعْبٌ، وَعَامِرٌ، وَسَامَةُ، وَعَوْفٌ، فَوَلَدَ كَعْبٌ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: مُرَّةُ، وَعَدِيٌّ، وَخُصَيْصٌ، فَوَلَدَ مُرَّةُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: كِلَابٌ، وَتَيْمٌ، وَيَقَظَةُ. فَوَلَدَ كِلَابٌ رَجُلَيْنِ: قُصَيٌّ، وَزُهْرَةُ، فَوَلَدَ قُصَيٌّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: عَبْدُ مَنَافٍ، وَعَبْدُ الدَّارِ، وَعَبْدُ الْعُزَّىٰ، وَعَبْدُ قُصَيٍّ، فَوَلَدَ عَبْدُ مَنَافٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: هَاشِمٌ، وَعَبْدُ شَمْسٍ، وَالْمُطَّلِبُ، وَنَوْفَلٌ.

وَأَمَّا أَوْلَادُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَوَلَدَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ عَشَرَةَ نَفَرٍ، وَسِتَّ نِسْوَةٍ: الْعَبَّاسُ وَحَمْزَةُ، وَعَبْدُ اللهِ، وَأَبُو طَالِبٍ- وَاسْمُهُ عَبْدُ مَنَافٍ- وَالزُّبَيْرُ، وَالْحَارِثُ، وَحَجْلٌ، وَالْمُقَوِّمُ، وَضِرَارٌ، وَأَبُو لَهَبٍ -وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّىٰ- وَصَفِيَّةُ، وَأُمُّ حَكِيمٍ الْبَيْضَاءُ، وَعَاتِكَةُ، وَأُمَيْمَةُ، وَأَرْوَىٰ، وَبَرَّةُ.

فَوَلَدَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ.

وَأُمُّهُ: آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ، وَأُمُّهَا بَرَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ.

فَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَشْرَفُ وَلَدِ آدَمَ حَسَبًا، وَأَفْضَلُهُمْ نَسَبًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ، وَمِنْ قِبَلِ أُمِّهِ ﷺ، وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ، وَمَجَّدَ وَعَظَّمَ.

هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ كَانَ رَجُلًا مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، تَوَلَّىٰ هَاشِمٌ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ.

وَالسِّقَايَةُ هِيَ: جَمْعُ الْمَاءِ مِنْ آبَارِ مَكَّةَ الْمُخْتَلِفَةِ، وَوَضْعُ الْمَاءِ قُرْبَ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ تُحَلَّىٰ الْمِيَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّمْرِ أَوِ الزَّبِيبِ، فَيَشْرَبُ الْحَجِيجُ مِنْهَا.

وَالرِّفَادَةُ: طَعَامٌ يُوضَعُ لِلْحُجَّاجِ عَلَىٰ سَبِيلِ الضِّيَافَةِ.

فَكَانَ هَاشِمٌ -وَاسْمُهُ عَمْرٌو- رَجُلًا مُوسِرًا، ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، تَوَلَّىٰ هَاشِمٌ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حِينَ تَقَاسَمَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنُو عَبْدِ الدَّارِ الْمَنَاصِبَ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

سُمِّيَ هَاشِمًا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ بِمَكَّةَ وَأَطْعَمَهُ.

الثَّرِيدُ (بِفَتْحِ الثَّاءِ، وَكَسْرِ الرَّاءِ): خَلْطُ الْخُبْزِ بِمَرَقِ اللَّحْمِ، وَهَشَمَ الْخُبْزَ؛ أَيْ: كَسَرَهُ.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَكَانَ يُطْعِمُ الْحُجَّاجَ أَوَّلَ مَا يُطْعِمُ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ بِيَوْمٍ بِمَكَّةَ، وَبِمِنًىٰ، وَالْمُزْدَلِفَةِ، وَبِعَرَفَةَ، وَكَانَ يَثْرُدُ لَهُمُ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ، وَالْخُبْزَ وَالسَّمْنَ، وَالسَّوِيقَ وَالتَّمْرَ.

وَالسَّوِيقُ: قَمْحٌ أَوْ شَعِيرٌ يُقْلَىٰ ثُمَّ يُطْحَنُ، فَيُتَزَوَّدُ بِهِ مَلْتُوتًا بِمَاءٍ أَوْ سَمْنٍ أَوْ عَسَلٍ.

وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْمَاءَ، فَيُسْقَوْنَ بِمِنًىٰ إِلَىٰ أَنْ يَصْدُرُوا مِنْهَا، فَتَنْقَطِعَ الضِّيَافَةُ.

مِنْ حَدِيثِ هَاشِمٍ -كَمَا مَرَّ- أَنَّهُ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا، وَتَزَوَّجَ سَلْمَىٰ بِنْتَ عَمْرٍو أَحَدِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، فَحَمَلَتْ مِنْهُ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ.

عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: أَوْصَىٰ هَاشِمٌ عِنْدَ وَفَاتِهِ إِلَىٰ أَخِيهِ الْمُطَّلِبِ فَصَارَتِ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ الْمُطَّلِبُ ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ وَفَضْلٍ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّيهِ: الْفَيَّاضَ؛ لِسَخَائِهِ وَفَضْلِهِ.

لَمَّا صَارَ شَيْبَةُ -وَهُوَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ- وَصِيفًا -وَهُوَ الْغُلَامُ دُونَ الْمُرَاهِقِ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ- سَمِعَ بِهِ الْمُطَّلِبُ فَرَحَلَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ عَادَ بِهِ، لَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مُقِيمًا بِمَكَّةَ حَتَّىٰ تَرَعْرَعَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُطَّلِبَ بْنَ عَبْدِ مَنَافٍ خَرَجَ تَاجِرًا، فَهَلَكَ فِي مَنْطِقَةِ (رَدْمَانَ) مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ، فَوَلِيَ بَعْدَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ السِّقَايَةَ

وَالرِّفَادَةَ فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ، وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يُقِيمُونَ لِقَوْمِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ سَائِرِ أُمُورِهِمْ.

كَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ جَسِيمًا أَبْيَضَ وَسِيمًا طِوَالًا فَصِيحًا، مَا رَآهُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَحَبَّهُ، وَشَرُفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ، وَأَحَبَّهُ قَوْمُهُ، وَعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ حَتَّىٰ عُرِفَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ بِشَيْبَةَ الْحَمْدِ؛ لِكَثْرَةِ حَمْدِ النَّاسِ إِيَّاهُ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْفَيَّاض. لِجُودِهِ، وَيُقَالُ لَهُ: مُطْعِمُ طَيْرِ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ مِنْ مَائِدَتِهِ لِلطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْجِبَالِ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ شُهْرَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِالْكَرَمِ:

مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «مُشْكِلِ الْآثَارِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حُصَيْنٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ كَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ خَيْرًا لِقَوْمِهِ مِنْكَ؛ كَانَ يُطْعِمُهُمُ الْكَبِدَ، وَالسَّنَامَ». الْحَدِيثَ.

هَذَا، وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَظِيمًا عِنْدَ قُرَيْشٍ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا كَانَ عَظِيمًا كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَىٰ الْيَمَنِ مُهَنِّئًا بِالْمُلْكِ عِنْدَمَا تَوَلَّىٰ مَعْدِي كَرِبَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ عَرْشَ الْيَمَنِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ كَانَ ذَا مَكَانَةٍ عِنْدَ مُلُوكِ الْعَرَبِ، كَمَا يَدُلُّ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ عَلَىٰ مَكَانَتِهِ عِنْدَ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ رَئِيسًا لِوَفْدِهَا فِي هَذِهِ الْمُهِمَّاتِ الْعَظِيمَةِ.

⦿ ⦿ ⦿



مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ:

النَّبِيُّ ﷺ هُوَ: أَبُو الْقَاسِمِ، مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمَاحِي الَّذِي يُمْحَىٰ بِهِ الْكُفْرُ، وَالْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ»، وَابْنُ حِبَّانَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَعْطَانِي خِصَالًا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا قَبْلِي: سُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ، وَأَنَا الْعَاقِبُ**» قَالَ الزُّهْرِيُّ: الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ.

«**وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، وَالْمُقَفِّي، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**» قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

«**وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ**».

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا أَحْمَدُ، وَمُحَمَّدٌ، الْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ**».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْحَاشِرُ، وَالْمُقَفِّي، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَالْمَلْحَمَةِ**».

سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ **عَبْدِ اللهِ**، وَهُوَ أَخُو: الْحَارِثِ، وَالزُّبَيْرِ، وَحَمْزَةَ، وَالْعَبَّاسِ (وَيُكَنَّىٰ الْعَبَّاسُ بِأَبِي الْفَضْلِ)، وَأَبِي طَالِبٍ (وَاسْمُهُ عَبْدُ مَنَافٍ)، وَأَبِي لَهَبٍ (وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّىٰ، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ الْمُقَوِّمُ، وَقِيلَ: هُمَا اثْنَانِ)، وَحَجْلٍ (وَاسْمُهُ الْمُغِيرَةُ، وَالْغَيْدَاقُ؛ وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ جُودِهِ، وَأَصْلُ اسْمِهِ: نَوْفَلٌ). وَقِيلَ: حَجْلٍ، وَضِرَارٍ، وَصَفِيَّةَ، وَعَاتِكَةَ، وَأَرْوَىٰ، وَأُمَيْمَةَ، وَبَرَّةَ، وَأُمِّ حَكِيمٍ (وَهِيَ الْبَيْضَاءُ).

هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أَوْلَادُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (وَاسْمُهُ شَيْبَةُ الْحَمْدِ -عَلَىٰ الصَّحِيحِ-) بْنِ هَاشِمٍ (وَاسْمُهُ عَمْرٌو، وَهُوَ أَخُو الْمُطَّلِبِ، وَإِلَيْهِمَا نَسَبُ ذَوِي الْقُرْبَىٰ)، وَعَبْدِ شَمْسٍ، وَنَوْفَلَ، أَرْبَعَتُهُمْ أَبْنَاءُ عَبْدِ مَنَافٍ أَخِي عَبْدِ الْعُزَّىٰ، وَعَبْدِ الدَّارِ وَعَبْدٍ، أَبْنَاءِ قُصَيٍّ (وَاسْمُهُ زَيْدٌ، وَهُوَ أَخُو زُهْرَةَ) ابْنَيْ كِلَابٍ أَخِي تَيْمٍ، وَيَقَظَةَ أَبِي مَخْزُومٍ، ثَلَاثَتُهُمْ أَبْنَاءُ مُرَّةَ أَخِي عَدِيٍّ، وَهُصَيْصٍ، وَهُمْ أَبْنَاءُ كَعْبٍ أَخِي عَامِرٍ، وَسَلَمَةَ، وَخُزَيْمَةَ، وَسَعْدٍ، وَالْحَارِثِ، وَعَوْفٍ، سَبْعَتُهُمْ أَبْنَاءُ لُؤَيٍّ أَخِي تَيْمٍ الْأَدْرَمِ ابْنَيْ غَالِبٍ أَخِي الْحَارِثِ، وَمُحَارِبِ بَنِي فِهْرٍ أَخِي الْحَارِثِ ابْنَيْ مَالِكٍ

أَخِي الصَّلْتِ، وَمَخْلَدٍ ابْنَي النَّضْرِ أَخِي مَالِكٍ، وَمَلْكَانَ، وَعَبْدِ مَنَاةَ، وَغَيْرِهِمْ بَنِي كِنَانَةَ أَخِي أَسَدٍ، وَأَسَدَةَ، وَالْهُونِ، بَنِي خُزَيْمَةَ أَخِي هُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ (وَاسْمُهُ عَمْرٌو)، وَهُوَ أَخُو طَابِخَةَ (وَاسْمُهُ عَامِرٌ)، وَقَمْعَةَ، وَثَلَاثَتُهُمْ أَبْنَاءُ إِلْيَاسَ أَخِي النَّاسِ، وَهُوَ غَيْلَانُ وَالِدُ قَيْسٍ، وَكِلَاهُمَا وَلَدُ مُضَرَ أَخِي رَبِيعَةَ، وَهُمَا الصَّرِيحَانِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَخِي أَنْمَارَ، وَإِيَادٍ، وَقَدْ تَيَامَنَا -أَيْ: سَافَرَا إِلَىٰ الْيَمَنِ-، أَرْبَعَتُهُمْ أَوْلَادُ نِزَارٍ أَخِي قُضَاعَةَ (فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ النَّسَبِ)، كِلَاهُمَا أَبْنَاءُ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، فَجَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ مَا ذُكِرَ مِنْ أَبْنَاءِ عَدْنَانَ.

وَسِيَاقَةُ النَّسَبِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ تُعْرَفُ بِالتَّشْجِيرِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ، فَأَحْيَانًا يَرْسُمُونَ شَجَرَةً يَجْعَلُونَ أَصْلًا وَفُرُوعًا، وَيَتَفَرَّعُ مِنْهَا مَا يَتَفَرَّعُ، وَيَجْعَلُونَ الْأَمْرَ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَذْكُورِ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي ضَبْطِ نَسَبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

بَيَّنَ ذَلِكَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ النَّمِرِيُّ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ: «الْإِنْبَاهِ بِمَعْرِفَةِ قَبَائِلِ الرُّوَاةِ» بَيَّنَ ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا.

قُرَيْشٌ -عَلَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ النَّسَبِ- هُمُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ:

قُصَيٌّ لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَىٰ مُجَمِّعًا ... بِهِ جَمَعَ اللهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

وَقِيلَ: بَلْ جِمَاعُ قُرَيْشٍ، وَأَصْلُهَا: النَّضْرُ بْنُ كِنَانَةَ، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَقِّقِينَ، وَاسْتُدِلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ

عَنِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَفْدِ كِنْدَةَ فَقُلْتُ: أَلَسْتُمْ مِنَّا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، لَا نَقْفُوا أُمَّنَا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا**» وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ، وَفِيهِ فَكَانَ الْأَشْعَثُ يَقُولُ: لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ نَفَىٰ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ إِلَّا جَلَدْتُهُ الْحَدَّ.

قَالَ الْمِزِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ»: وَقَالَ مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيُّ: كُلُّ مَنْ لَمْ يُنْسَبْ إِلَىٰ فِهْرٍ فَلَيْسَ بِقُرَشِيٍّ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ كَيْسَانَ: فِهْرٌ هُوَ أَبُو قُرَيْشٍ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ فِهْرٍ فَلَيْسَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ: وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقَاوِيلِ فِي النِّسْبَةِ لَا فِي الْمَعْنَىٰ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ الْيَوْمَ قُرَشِيٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ النَّسَبِ يُنْسَبُ إِلَىٰ أَبٍ فَوْقَ فِهْرٍ دُونَ لِقَاءِ فِهْرٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ مُصْعَبٌ، وَابْنُ كَيْسَانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ، وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذَا الشَّأْنِ، وَأَوْثَقُ مَنْ يُنْسَبُ عِلْمُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، قَالُوا: إِنَّ فِهْرَ بْنَ مَالِكٍ جِمَاعُ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بِأَسْرِهَا.

قِيلَ: إِنَّ جِمَاعَ قُرَيْشٍ: إِلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ بْنِ نِزَارٍ، وَقِيلَ: بَلْ جِمَاعُهُمْ: أَبُوهُ مُضَرُ، وَهُمَا قَوْلَانِ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، حَكَاهُمَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الرَّافِعِيُّ فِي «شَرْحِهِ»، حَكَاهُمَا وَجْهَيْنِ، وَهُمَا غَرِيبَانِ جِدًّا.

فَأَمَّا قَبَائِلُ الْيَمَنِ كَحِمْيَرَ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَسَبَأٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، أُولَئِكَ مِنْ قَحْطَانَ لَيْسُوا مِنْ عَدْنَانَ، وَقَدْ مَرَّ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ.

وَقُضَاعَةُ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

قِيلَ: إِنَّهَا مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ. وَقِيلَ: قَحْطَانِيَّةٌ. وَقِيلَ: بَطْنٌ ثَالِثٌ لَا مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَا مِنْ هَؤُلَاءِ. وَهُوَ غَرِيبٌ، حَكَاهُ أَبُو عُمَرَ وَغَيْرُهُ.

هَذَا النَّسَبُ إِلَىٰ عَدْنَانَ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا نِزَاعَ، وَهُوَ ثَابِتٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنْ لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ النَّسَبِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَهُوَ الذَّبِيحُ عَلَىٰ الصَّحِيحِ فِي قَوْلِ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ.

كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ الِانْتِسَابَ إِلَىٰ مَا بَعْدَ عَدْنَانَ، فَجَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مُجْتَمِعُونَ مَعَهُ ﷺ فِي عَدْنَانَ؛ لِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ قَرَابَةٌ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَهُمْ صَفْوَةُ اللهِ مِنْهُمْ خَيْرُهُمْ قَبِيلَةً، وَأَشْرَفُهُمْ أَرُومَةً، كَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ثَبَتَتْ عَنْهُ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ حَتَّىٰ مَا كَانَ مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ، بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْبِيَاؤُهُمْ وَغَيْرُهُمْ يَجْتَمِعُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الَّذِي جَعَلَ اللهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ، وَالْكِتَابَ، وَالْمُلْكَ.

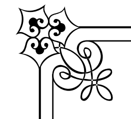
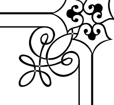
وَهَكَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَهُوَ فِي التَّوْرَاةِ كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ جَمَعَ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِنَبِيِّنَا ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لَهُمْ: «سَأُقِيمُ لَكُمْ مِنْ أَوْلَادِ أَخِيكُمْ نَبِيًّا، كُلُّكُمْ يَسْمَعُ لَهُ، وَأَجْعَلُهُ عَظِيمًا جِدًّا»، وَهَذَا فِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ فِي الْأَصْحَاحِ الثَّامِنَ عَشَرَ.

وَلَمْ يُولَدْ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ أَعْظَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَلْ لَمْ يُولَدْ مِنْ بَنِي آدَمَ أَحَدٌ -وَلَا يُولَدُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ- أَعْظَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ لِوَائِي**» وَهُوَ صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ، أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَىٰ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ حِبَّانَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ، لَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَأَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» وَأَبُو يَعْلَىٰ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ، وَشَاهِدٌ ثَانٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ، وَشَاهِدٌ ثَالِثٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، فَبِالْجُمْلَةِ: الْحَدِيثُ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ.

وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَأَقُومُ مَقَامًا يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّىٰ إِبْرَاهِيمُ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَهُوَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَىٰ الَّتِي يَشْفَعُ فِي الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ؛ لِيُرِيحَهُمُ اللهُ بِالْفَصْلِ بَيْنَهُمْ مِنْ مَقَامِ الْحَشْرِ كَمَا جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنْهُ.

وَأُمُّهُ ﷺ: آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ.



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْعَاشِرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

هُنَا وَقْفَةٌ يَجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَقِفَهَا: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

وَإِنِ ادَّعَيْتَ! فَكُلُّ دَعْوَىٰ لَا قِيَامَ لَهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ فَمَا الدَّلِيلُ؟

الدَّلِيلُ كَمَا قَالَ السَّالِفُونَ: إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وَهَذَا مَا تَشْهَدُ بِهِ أَحْوَالُ الْعَلَائِقِ بَيْنَ الْبَشَرِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ أَحَدًا أَطَاعَهُ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ الطَّاعَةَ فِي الْمَحَبَّةِ وَبِسَبَبِهَا حَتَّىٰ فِيمَا يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُ الْمُحِبِّ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيِّنَةٍ وَلَا إِقَامَةِ دَلِيلٍ؛ فَالسُّؤَالُ: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

وَهَذا لَيْسَ بِجُودٍ مِنْكَ إِنْ فَعَلْتَهُ؛ هَذَا وَاجِبٌ فَرْضٌ حَتْمٌ عَلَيْكَ.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه وَيَدُهُ فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «**لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. قَالَ: وَلَا هَذِهِ يَا عُمَرُ! قَالَ: الْآنَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: الْآنَ يَا عُمَرُ؛ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

فَذَكَرَ الْأُصُولَ مُشِيرًا إِلَيْهَا بِالْوَالِدِ، وَذَكَرَ الْفُرُوعَ إِشَارَةً إِلَيْهَا بِالْوَلَدِ، وَذَكَرَ الْحَوَاشِيَ فِي قَوْلِهِ: «**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

فَهَذَا لَيْسَ بِجُودٍ مِنْكَ إِنْ فَعَلْتَهُ، بَلْ هَذَا مَفْرُوضٌ وَوَاجِبٌ عَلَيْكَ: أَنْ تُحِبَّ رَسُولَ اللهِ، بَلْ إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ الرِّدَّةِ: أَنْ يَكْرَهَ الْمَرْءُ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ فَكَرَاهَةُ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِدَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٩]؛ فَلَمَّا كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ صَارُوا بِذَلِكَ مُرْتَدِّينَ.

فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُحِبَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَكَمَا هُوَ -فِيمَا أَوْجَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ- فِي رِسَالَةِ الْإِمَامِ الْمُجَدِّدِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يُحِبُّوا مَا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ، أَنْ يُحِبُّوهُ، لَا أَنْ يَكُونُوا نَحْوَهُ مُتَعَادِلِينَ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحِبُّوهُ، فَإِذَا كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ صَارُوا بِتِلْكَ الْكَرَاهَةِ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مُرْتَدِّينَ.

فَكَيْفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟!

وَلَا يَثْبُتُ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِ، فَإِنَّمَا أَوْحَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْوَحْيَ إِلَيْهِ، وَهُوَ بَلَّغَهُ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَالسُّؤَالُ مَا زَالَ قَائِمًا بِصِدْقٍ وَتَجَرُّدٍ: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

تَأَمَّلْ فِي مَحَبَّةِ النَّاسِ لِمَنْ يُحِبُّونَهُمْ مِنَ الرُّمُوزِ: فِي الْأَدَبِ! فِي الْغِنَاءِ! فِي التَّمْثِيلِ! فِي الرِّيَاضَةِ! فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَجَالَاتِ، يَصِفُ هَذَا الْحُبَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحِبِّينَ لِتِلْكَ الرُّمُوزِ أَيْضًا بِأَنَّهُ هَوَسٌ، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَ الْفَتَيَاتِ -وَرُبَّمَا الْفِتْيَانِ- لَمَّا مَاتَ مُطْرِبٌ مَشْهُورٌ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي قُمْنَ وَقَامُوا بِالِانْتِحَارِ لَا حَيَاةَ بَعْدَهُ!!

النَّبِيُّ ﷺ هَلْ تَعْرِفُ عَنْهُ مَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ؟

أَنَا لَا أَشُكُّ فِي أَنَّ الضِّيقَ وَالضَّجَرَ يَدْخُلُ عَلَىٰ نُفُوسٍ كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِنَا بَارَكَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ عِنْدَمَا يَسْمَعُونَ التَّفْصِيلَ فِي نَسَبِ الرَّسُولِ، وَيَقُولُونَ: مَتَىٰ يَفْرُغُ مِنْ هَذَا الْمَبْحَثِ؟ وَهَلْ لَوْ كَانَ تَجَاوَزَهُ أَمَا كَانَ يَكُونُ خَيْرًا؟!.

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ مُغَالِيًا -وَاللهُ أَعْلَمُ! هَذَا فِي نَفْسِهِ، لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، وَلَمْ يَنْقُلْ إِلَيَّ- قَدْ يَقُولُ قَائِلُهُمْ: أَلَيْسَ هَذَا مِنْ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ؟! مَعَ أَنَّ الَّذِي يُحِبُّ يَحْرِصُ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ فِيمَنْ يُحِبُّ؛ هَذَا مِمَّا قَضَتْ بِهِ قَوَانِينُ الْمَحَبَّةِ عِنْدَ الْبَشَرِ.

وَتَأَمَّلْ فِي أَحْوَالِ مَحَبَّةِ الْجَمَاهِيرِ لِلرُّمُوزِ يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَهُمْ، وَنَسَبَهُمْ، وَيَعْرِفُونَ زَوْجَاتِهِمْ بِالْأَسْمَاءِ، وَيَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَسِيرَةَ حَيَاتِهِمْ، وَيَعْرِفُونَ كُلَّ مَا أَنْجَزُوهُ. لَا أَتَكَلَّمُ الْآنَ فِي شَرْعِيَّةِ ذَلِكَ، وَعَدَمِ شَرْعِيَّتِهِ، هَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَلَكِنْ أَنَا أَتَكَلَّمُ عَنْ مَعْنًىٰ آخَرَ يَسْتَقِيمُ مَعَ السُّؤَالِ: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

وَتَأَمَّلْ فِي قَوَانِينِ الْمَحَبَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهِيَ قَاضِيَةٌ عَلَىٰ الْمَرْءِ إِذَا كَانَ مُحِبًّا فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ وَمَحَابِّهِ، لَا تَفْرِيقَ فِيهَا إِذَا كُنْتَ مُحِبًّا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَاضِعًا لِهَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَشَرِيَّةِ فِي الْحُبِّ، جَعَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَانُونًا يَعْلَقُ بِالنَّفْسِ، وَيَلْصَقُ بِهَا، بَلْ يُمَازِجُهَا، فَالْآنَ مَنْ أَحَبَّ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، هَذَا مِنْ قَوَانِينِ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْبَشَرِ فِيمَا يُحِبُّونَ، وَفِيمَنْ يُحِبُّونَ، فَإِذَا أَحَبَّ أَحَدًا فَإِنَّهُ يَأْتِي بِمُنَاسَبَةٍ وَمِنْ غَيْرِ مُنَاسَبَةٍ بِذِكْرِهِ، وَيُدْخِلُ ذِكْرَهُ فِي كُلِّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، هَذَا مَعْلُومٌ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَهُ يَقِينًا وَتُشَاهِدُونَهُ.

فَأَنْتَ إِذَا سَأَلْتَ نَفْسَكَ: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

فَيُقَالُ لَكَ -قَبْلَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ لَهُ عَلَيْكَ حُقُوقًا وَوَاجِبَاتٍ- بَلْ نَقُولُ لَكَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرْفَعَ نَسَبَهُ فَوْقَ جَدِّهِ الْأَوَّلِ؟ فَإِنْ رَفَعَ جَدًّا أَوْ جَدَّيْنِ لَا بَأْسَ جَيِّدٌ.

وَيُقَالُ لَكَ: هَلْ تَعْرِفُ أَسْمَاءَ زَوْجَاتِهِ اللَّاتِي مَاتَ عَنْهُنَّ، وَاللَّاتِي مِتْنَ عَنْهُ، وَاللَّاتِي طَلَّقَهُنَّ؟ هَلْ تَعْرِفُ أَسْمَاءَهُنَّ؟!

أَنْتَ تَعْرِفُ أَسْمَاءَ زَوْجَاتِ الرُّمُوزِ، لَا أَنْتَ، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أَسْمَاءَ زَوْجَاتِ الرُّمُوزِ، وَيَقُولُ: تَزَوَّجَ فُلَانَةَ، وَطَلَّقَهَا! وَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا فُلَانَةَ، وَطَلَّقَهَا! وَفُلَانَةُ تَزَوَّجَتْ سَبْعَ مَرَّاتٍ! خَمْسَ مَرَّاتٍ! ثَلَاثَ مَرَّاتٍ! وَيَحْكِي لَكَ أَسْمَاءَ الْأَزْوَاجِ، وَمُنَاسَبَاتِ الطَّلَاقِ!

لَا شَأْنَ لَنَا بِهَذَا الْآنَ، وَلَكِنْ أَنَا أَقُولُ لَكَ: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَا الشَّأْنِ؟! وَهُوَ نَبِيُّكَ، وَلَا نَجَاةَ لَكَ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ.

هَلْ تَعْرِفُ أَسْمَاءَ أَوْلَادِهِ، أَعْمَامِهِ؛ فَمِنْهُمْ آزَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَارَبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ...؟!

هَلْ تَعْرِفُ أَسْمَاءَ عَمَّاتِهِ؟!

لِأَنَّكَ إِنْ لَمْ تَعْرِفْ فَلَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ كَانَ ابْنَ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ!

هَلْ تَعْرِفُ مُرْضِعَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟!

إِنْ لَمْ تَعْرِفْ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَخَاهُ مِنَ الرَّضَاعِ: الْحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَنَّ أَخَاهُ مِنَ الرَّضَاعِ أَبُو سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ، وَكَذَلِكَ الزُّبَيْرُ، وَهُوَ أَيْضًا هُوَ ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

إِنْ لَمْ تَعْرِفْ فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ مَدْخَلًا لِمَعْرِفَةِ حُبِّ رَسُولِ اللهِ لِلْحِبِّ ابْنِ الْحِبِّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُفَضِّلًا ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَرْجِعَ مَعَ أَبِيهِ وَعَمِّهِ إِلَىٰ قَبِيلَتِهِ وَمَضَارِبِهِ، حَتَّىٰ قَالَ لَهُ عَمُّهُ مُتَعَجِّبًا: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ! أَتُفَضِّلُ الرِّقَّ عِنْدَ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ الْحُرِّيَّةِ مَعَ أَبِيكَ، وَعَمِّكَ، وَقَبِيلَتِكَ؟! فَاخْتَارَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ**»؛ وَكَانَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ ظَهَرَتْ بَعْدُ مِنْ أَجْلِ إِبْطَالِ عَادَةِ التَّبَنِّي، فَكَانَ أُسَامَةُ حِبَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: أُمُّهُ أُمُّ أَيْمَنَ حَاضِنَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُجْلِسُ الْحَسَنَ عَلَىٰ فَخِذٍ، وَأُسَامَةَ عَلَىٰ فَخِذٍ، وَيُسَوِّي بَيْنَهُمَا فِي هَذَا، وَهُوَ الْحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ-.

إِنْ لَمْ تَعْرِفْ هَذَا، فَمَاذَا تَعْرِفُ؟!

مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ نَبِيِّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟!

وَكُلُّ الْمَسَالِكِ إِلَىٰ الْمَعْرِفَةِ مُتَاحَةٌ، لَا عُذْرَ لَكَ الْآنَ، قَدِيمًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَا نَمْلِكُ كُتُبًا! لَا نَجِدُ وَسِيلَةً إِلَىٰ سَمَاعٍ، الْكُتُبُ الَّتِي ذَكَرْتَ -كَمَا مَرَّ بِالْأَمْسِ

فِي الْمَصَادِرِ الْفَرْعِيَّةِ- فِيهَا أَسَاطِيرُ، فَنَخْشَىٰ إِنْ وَقَعْنَا فِي تِلْكَ الْكُتُبِ أَنْ نَخْرُجَ بِأُمُورٍ لَا أَصْلَ لَهَا، بَلْ هِيَ مَحْضُ الْكَذِبِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُقَالُ أَيْضًا: قُطِعَ الْعُذْرُ فِي هَذَا، فَأَكْثَرُ الْكُتُبِ -بَلْ جُلُّهَا، إِنْ لَمْ نَقُلْ كُلُّ الْكُتُبِ- مُحَقَّقَةٌ، وَأَحَادِيثُهَا مَذْكُورٌ رُتْبَتُهَا إِمَّا اجْتِهَادًا وَإِمَّا نَقْلًا عَنْ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّأْنِ، فَمَا الْعُذْرُ إِذَنْ؟!

لَوْ كُنْتَ مُحِبًّا، لَأَقْبَلْتَ مِنْ غَيْرِ تَوْجِيهٍ!

أَنْتَ تُحِبُّهُ؟ تَعْرِفُ مَعْنَىٰ الْحُبِّ؟!

هَذَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ جَفَاءِ الطَّبْعِ أَوِ عَلَىٰ الْجَهْلِ؛ فَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ عَرَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَحَبَّهُ لَا مَحَالَةَ، حَتَّىٰ مِنْ أَعْدَائِهِ لَوْ عَرَفُوهُ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً أَحَبُّوهُ؛ لِذَلِكَ عِنْدَمَا اعْتَدَىٰ الْمُعْتَدُونَ عَلَىٰ جَنَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْإِسَاءَةِ -كَمَا وَقَعَ مِنْ سَنَوَاتٍ- قُلْتُ: لَوْ عَرَفُوهُ لَأَحَبُّوهُ، عَرِّفُوا النَّاسَ بِرَسُولِ اللهِ، لَكِنْ كَيْفَ تُعَرِّفُونَ النَّاسَ بِرَسُولِ اللهِ، وَأَنْتُمْ بِهِ جَاهِلُونَ؟!

كَيْفَ؟!

وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْمُحِبِّينَ بِعَاطِفَةٍ مَشْبُوبَةٍ، وَهَوًىٰ مُتَأَجِّجٍ يُحِبُّونَ الْحُبَّ الْمُطْلَقَ، فَتَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحِبُّ رَسُولَ اللهِ مَحَبَّةً صَادِقَةً -عَلَىٰ حَسَبِ الْإِطْلَاقِ- يَصِفُ النَّبِيَّ ﷺ بِأُمُورٍ تُخْرِجُهُ عَنْ مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَىٰ مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ.

فَالْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَقُولُونَهَا!

ثُمَّ عِنْدَ الْعَوَامِّ لَا يَزِيدُونَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ أَحْمَرَ الْخَدَّيْنِ! كَحِيلَ الْعَيْنَيْنِ! وَيَتَغَزَّلُونَ فِي صِفَاتِهِ الظَّاهِرَةِ!!

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَجْمَلُ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنٌ، هَذَا شَأْنٌ آخَرُ لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُسَنَّ لَنَا أَنْ نَتَشَبَّهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي خِلْقَتِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَإِنَّمَا كَانَ بَيْنَ بَيْنَ بِحَيْثُ لَا تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ إِذَا كَانَ طَوِيلًا بَائِنًا، وَكَذَلِكَ مَا كَانَ قَصِيرًا مُتَرَدِّدًا، وَإِنَّمَا كَانَ بَيْنَ بَيْنَ، وَمَعَ ذَلِكَ إِنْ كَانَ فِي مَسِيرٍ يَكُونَ أَطْوَلَهُمْ ﷺ.

أَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَشَبَّهَ بِهِ أَوْ تَتَأَسَّىٰ بِهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَمَا السَّبِيلُ إِلَىٰ ذَلِكَ إِذَا كُنْتَ قَصِيرًا أَوْ كُنْتَ طَوِيلًا بَائِنًا؟!

وَلَنْ يُحَاسِبَكَ اللهُ عَلَىٰ أَنَّكَ خُلِقْتَ طَوِيلًا وَلَا قَصِيرًا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ، كَذَلِكَ لَوْنُ الْبَشَرَةِ، لَوْنُ الْعَيْنَيْنِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْخِلْقَةِ، وَهِيَ أَكْمَلُ خِلْقَةٍ ﷺ، فَالْعَوَامُّ الْمَسَاكِينُ يُحِبُّونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ الْحُبَّ الْمُطْلَقَ الَّذِي يُهَوِّمُ، وَلَا يَكُونُ مُنْضَبِطًا بِقَاعِدَةٍ، وَلَا رَاجِعًا إِلَىٰ أَصْلٍ، وَيَصِفُونَهُ كَمَا هُوَ فِي الْمَوَالِدِ، وَفِي الْحَضَرَاتِ، وَغَيْرِهَا بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

النَّبِيُّ ﷺ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا فَوْقَ هَذَا الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهِ، الَّذِي هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِخِلْقَتِهِ؛ نُبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ، وَنَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَىٰ جَمَالِ ظَاهِرِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ مَنْ يُحِبُّونَ لِأُمُورٍ: إِمَّا لِجَمَالِ صُورَتِهِ، وَمَلَاحَةِ خِلْقَتِهِ، وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَتُحَبُّ الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ.

فَمِمَّا يُحَبُّ بِهِ الْإِنْسَانُ هَذَا الْأَمْرُ: جَمَالُ الْخِلْقَةِ، وَحَلَاوَةُ الطَّلْعَةِ، وَمَلَاحَةُ الْهَيْئَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ يُحَبُّ لِهَذَا، وَهَذِهِ مِحْنَةُ عُشَّاقِ الصُّوَرِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الصُّوَرَ، وَيُفْتَنُونَ بِذَلِكَ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَيُحَبُّ الْإِنْسَانُ أَيْضًا لِكَمَالِ خِلَالِهِ الْبَاطِنَةِ، فَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْخِلَالِ الْبَاطِنَةِ مِنَ الْكَرَمِ، وَالشَّهَامَةِ، وَالْمُرُوءَةِ، وَالْعِلْمِ، وَمَا أَشْبَهَ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الشَّرِيفَةِ، وَالشِّيَاتِ الْمُنِيفَةِ، يَكُونُ فِيهِ مَا يُحَبُّ لَهُ، وَبِهَذَا يَتَجَاوَزُ الْإِنْسَانُ حُدُودَ الظَّاهِرِ، فَحَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ مَنْ يَحْمِلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ غَيْرَ مَلِيحِ الطَّلْعَةِ، رَدِيءَ الْخِلْقَةِ؛ فَإِنَّهُ يُحَبُّ أَيْضًا لِمَا لَهُ مِنْ جَمَالِ الْبَاطِنِ، وَعَظِيمِ الْخِلَالِ.

كَانَ عَطَاءُ بْنُ رَبَاحٍ عَلَىٰ هَيْئَةٍ عَجِيبَةٍ كَمَا نَقَلَ الَّذِينَ وَصَفُوهُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- قَالُوا: كَانَ أَسْوَدَ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ، مُفَلْفَلَ شَعْرِ الرَّأْسِ، وَكَانَ أَشَلَّ أَعْرَجَ، فَكَانَتْ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ قَدْ أَصَابَهَا الْفَالِجُ، وَأَمَّا الْأُخْرَىٰ فَكَانَتْ عَرْجَاءَ؛ يَعْنِي: لَيْسَتْ سَلِيمَةً عَلَىٰ النَّحْوِ الْمُسْتَقِيمِ. فَكَانَ أَشَلَّ أَعْرَجَ، وَكَانَ أَعْوَرَ، قَالُوا: وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا نَظَرْتَ فِي وَجْهِهِ رَأَيْتَ كَأَنَّمَا الشَّمْسُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

لَمَّا جَاءَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَابْنَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ عَرَضَتْ فِي الْمَنَاسِكِ، وَقَدْ سَأَلَ: مَنِ الْمُفْتِي بِمَكَّةَ؟!

قَالُوا: عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ!

فَقَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ.

قَالُوا: هُوَ لَا يَذْهَبُ إِلَىٰ أَحَدٍ.

فَذَهَبَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَوَقَفَ وَابْنَاهُ، فَسَأَلَهُ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ اقْعُدْ، وَلَا هُوَ بِالْمُسْتَطِيعِ أَنْ يَقُومَ لَهُ، فَسَأَلَ هُوَ وَابْنَاهُ مِنْ قِيَامٍ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ وَلَدَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَيَّ عَلَيْكُمَا بِطَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنِّي لَا أَنْسَىٰ ذُلَّ وُقُوفِنَا بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الْعَبْدِ!

فَكَلِمَتُهُ نَافِذَةٌ مَعَ مَا وُصِفَ بِهِ مِنْ خِلْقَتِهِ الظَّاهِرَةِ، وَذَلِكَ لِعِلْمِهِ، وَلِتَقْوَاهُ وَلِحِلْمِهِ، وَلِزُهْدِهِ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

فَالْمَرْءُ يُحَبُّ إِمَّا لِجَمَالِ طَلْعَتِهِ وَحُسْنِ صُورَتِهِ، وَإِمَّا لِجَمَالِ بَاطِنِهِ وَجَمَالِ خِلَالِهِ وَشِيَاتِهِ مِنَ الْمُرُوءَةِ، وَالسَّمَاحَةِ، وَالْعِلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِمَّا لِلْخَيْرِ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ عَلَىٰ يَدَيْهِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْخِلْقَةِ حُسْنًا وَقُبْحًا، فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْكَ خَيْرٌ عَنْ سَبِيلِهِ، فَإِنَّ هَذَا يَكُونُ مَدْعَاةً لِمَحَبَّتِهِ؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِكَافِرٍ عَلَيَّ يَدًا؛ فَأُحِبَّهُ»؛ لِأَنَّ قَانُونَ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ يَقْضِي بِعَكْسِ ذَلِكَ؛ فَكَيْفَ تُحِبُّهُ؟!

فَهَذِهِ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي لِأَجْلِهَا يُحِبُّ النَّاسُ النَّاسَ:

إِمَّا لِجَمَالِ الصُّورَةِ، وَإِمَّا لِجَمَالِ الْأَخْلَاقِ وَالْخِصَالِ، وَإِمَّا لِلْخَيْرِ الَّذِي يَصِلُ لِلْمُحِبِّ مِنْ طَرِيقِ الْمُحَبِّ.

كُلُّ هَذِهِ اجْتَمَعَتْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَهَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَجْمَلَ مِنْهُ؟!

لَا أَعْلَمُ!!

هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَوْفَىٰ وَأَرْبَىٰ لِلْخِلَالِ الْبَاطِنَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ مِنْ رَسُولِ اللهِ؟!

لَا أَعْلَمُ!!

هَلْ تُمَارِي فِي الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْ طَرِيقِهِ، وَعَلَىٰ يَدَيْهِ؟!

لَا أُمَارِي.

فَلِمَاذَا لَا تُحِبُّهُ؟!

إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْأَبْعَدُ مُعَانِدًا جَاحِدًا، فَلَا هُوَ مُعْتَرِفٌ بِفَضْلٍ، وَلَا هُوَ مُقِرٌّ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ مُرُوءَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا، وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

وَسَيَأْتِي مَعَنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ -كَمَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ- فِي إِسْلَامِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَالطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَفِي إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانُوا يُنَفِّرُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْمَأْمُونِ ﷺ. فَإِنَّ مِمَّا صَنَعَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهَا جَعَلَتِ الرَّصَدَةَ قَبْلَ مَوْسِمِ الْحَجِّ لَمَّا فَشَا أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَارْتَفَعَ ذِكْرُ النَّبِيِّ الْهُمَامِ ﷺ، فَكَانَ مِنْ خُطَّتِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا النَّاسَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ، يَتَلَقَّوْنَ مَنْ يَأْتِي حَاجًّا إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، أَوْ قَاصِدًا الْبَيْتَ الْحَرَامَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَذِّرُوهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: بِهِ جِنَّةٌ كَمَا قَالُوا هَذَا الْكَلَامَ لِضِمَامٍ، وَكَانَ هُوَ يَرْقِي مِنَ الْجِنَّةِ وَالْجُنُونِ، فَوَقَعَ هَذَا الْأَمْرُ مِنْهُ مَوْقِعًا جَعَلَهُ

يَذْهَبُ مُتَأَمِّلًا فِيمَا سَمِعَ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ أَسْلَمَ ضِمَامٌ.

فَإِذَنْ؛ يَكُونُ الْمَرْءُ جَاهِلًا بِنَبِيِّهِ! هَلْ يَجْمُلُ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِنَبِيِّهِ؟!

لَوْ كَانَ جَاهِلًا بِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَقُولَ الْمَرْءُ: إِنَّهُ لَا شَأْنَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ وَلَا بِمُحَمَّدٍ، هُوَ لَا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يُصَدِّقُهُ!

نَاقِضٌ مِنَ النَّوَاقِضِ الْعَشَرَةِ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ: أَنَّهُ يَذْهَبُ مُعْرِضًا يَقُولُ: لَا شَأْنَ لِي بِهِ!! كَانَ نَبِيًّا أَمْ لَمْ يَكُنْ! يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَوْ لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ! لَا شَأْنَ لِي بِهِ، فَيَذْهَبُ مُعْرِضًا! هَذَا مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، وَارْجِعْ إِلَىٰ تَفْصِيلِهِ فِي الشُّرُوحِ.

فَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ قَدْ سَوَّىٰ، أَمَّا أَنْ يُمْعِنَ فَلَا يُسَوِّي وَهُوَ مُنْتَسِبٌ، فَهَذَا مَعِيبٌ، بَلْ مَعِيبٌ جِدًّا، بَلْ مَعِيبٌ جِدًّا جِدًّا، بَلْ مَعِيبٌ، وَمَا شِئْتَ.

هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الطَّاقَةَ قَدْ أُفْرِغَتْ، إِذَنْ هِيَ مَوْجُودَةٌ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ عَنْ غَيْرِهِ كَثِيرًا مِنَ التَّفَاصِيلِ مِنْ أَدَقِّ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ، وَتَحْفَظُ عَنْ غَيْرِهِ وَقَائِعَ، وَقَائِعُهُ ﷺ وَأَحْوَالُهُ أَيْسَرُ فِي الْمَعْرِفَةِ مِنْهُ؛ لِأَنَّكَ تَذْكُرُ أَسْمَاءً أَعْجَمِيَّةً، وَوَقَائِعَ فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ، وَتَذْكُرُ أُمُورًا تُوَثِّقُهَا حِينًا بِالنَّقْلِ الثَّابِتِ عِنْدَكَ عَنِ الْعُدُولِ الضَّابِطِينَ، أَوْ أَنْ تُوَثِّقَهَا عَنْ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ الْمُبَاشِرَةِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ تَتَبُّعِ الْأَحْوَالِ، أُمُورٌ تُنْفَقُ فِيهَا الْأَعْمَارُ، وَتُنْفَقُ فِيهَا الْأَمْوَالُ، وَتَضِيعُ فِيهَا الْأَوْقَاتُ، هَذَا شَأْنٌ!

وَلَكِنْ مَا شَأْنُكَ أَنْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؟!

مَعِيبٌ جِدًّا أَلَّا تَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لَوْ عَرَفْتَهُ لَأَحْبَبْتَهُ، ثُمَّ هُوَ الْمِقْيَاسُ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ بِأَنْ نَتَّخِذَهُ أُسْوَةً، وَحُقَّ لَهُ؛ ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ إِذَنْ: هُوَ أُسْوَتُنَا وَقُدْوَتُنَا، وَمَثَلُنَا الْأَعْلَىٰ، وَالْمِعْيَارُ الَّذِي نُعَايِرُ عَلَيْهِ، هُوَ الْمِعْيَارُ، لَوِ اتَّخَذَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِعْيَارًا، وَجَعَلُوا سِيرَتَهُ يُعَايَرُ عَلَيْهَا -لَا مِنَ التَّعْيِيرِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمُعَايَرَةُ؛ يعني: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَجْعَلَهُ قِيَاسًا يُقَاسُ عَلَيْهِ، مُسْتَوًىٰ تَرْجِعُ إِلَيْهِ-، لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَأَفْلَحْنَا وَأَنْجَحْنَا.

وَأَذْكُرُ أَنَّهُ فِي مُنَاقَشَةٍ مَعَ الدُّكْتُورِ مُحَمَّد شَعْلان رَحِمَهُ اللهُ وَكَانَ أُسْتَاذًا لِلطِّبِّ النَّفْسِيِّ بِجَامِعَةِ الْأَزْهَرِ، وَكَانَ عَمِيدًا لِلْكُلِّيَّةِ فِي فَتْرَةٍ مِنَ الْفَتَرَاتِ فِي مُنَاقَشَةٍ مَعَهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْجُنُونِ، ثُمَّ تَطَرَّقَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْكَلَامِ عَنِ السَّوَاءِ النَّفْسِيِّ، وَهَذَا مِنْ أَخْطَرِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي يَتِمُّ عَلَىٰ أَسَاسِهَا التَّشْخِيصُ لِلْمَرْضَىٰ النَّفْسِيِّينَ؛ يَعْنِي: مَتَىٰ يُقَالُ: هَذَا سَوِيٌّ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَهَذَا غَيْرُ سَوِيٍّ، فَيَكُونُ مُضْطَرِبًا نَفْسِيًّا أَوْ مَرِيضًا؟

فَهَذِهِ نُقْطَةُ بَدْءٍ، هَذَا مَا يُعَايَرُ عَلَيْهِ، مَعْرِفَةَ السَّوَاءِ النَّفْسِيِّ، فَذَكَرَ أُمُورًا، وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مَنْقُولَةٌ عَنِ الْغَرْبِ؛ يَعْنِي: يَكُونُ سَوِيًّا نَفْسِيًّا: إِذَا لَمْ يُخَالِفِ الْعُرْفَ الْغَالِبَ فِي مُجْتَمَعِهِ. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ الْعُرْفُ الْغَالِبُ لَا يُحَرِّمُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يُجَرِّمُهَا، وَلَا يُشِيرُ إِلَيْهَا، إِذَنْ هُوَ فِي أَخْذِهِ بِالْفَوَاحِشِ يَكُونُ سَوِيًّا نَفْسِيًّا؛ فَمَنْ

صَدَفَ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَاجْتَنَبَ أَعْرَافَ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ الْبَاطِلَةِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ غَيْرَ سَوِيٍّ عَلَىٰ حَسَبِ التَّعْرِيفِ!

ذَكَرَ أُمُورًا؛ فَقَالَ: يَعْنِي مَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ؟

قُلْتُ: عِنْدَنَا الْمُسْتَوَىٰ -وَهَذَا فِي طِبِّ الْأَزْهَرِ- فَقُلْتُ: عِنْدَنَا الْمُسْتَوَىٰ الَّذِي نَقِيسُ عَلَيْهِ السَّوَاءَ النَّفْسِيَّ، هُوَ: مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَالَّذِي يَلْتَزِمُ مَا قَالَهُ -دَعْكَ مِنَ التَّشَدُّدِ، وَالتَّعَنُّتِ، وَمَا يَأْتِي بِهِ بَعْضُ النَّاسِ مِمَّنْ يُنَفِّرُونَ عَنِ النَّبِيِّ، وَعَنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ، لَا أَقْصِدُ هَذَا، هَذَا أَمْرٌ آخَرُ-، وَلَكِنْ عِنْدَنَا الْمِقْيَاسُ، عِنْدَنَا الْمِعْيَارُ الَّذِي نَقِيسُ وَنُعَايِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَمَا دَعَا إِلَيْهِ، فَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ، وَيَلْتَزِمُ بِهِ بِالطَّرِيقَةِ النَّبَوِيَّةِ، لَا بِأَهْوَاءِ النَّاسِ، وَلَا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ، وَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ أَثْبَتَهُ، وَقَاتَلَ دُونَهُ، وَمَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ هَوَّنَ مِنْهُ، وَنَفَّرَ عَنْهُ، وَهُوَ يَلْزَمُهُ.

فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مُنْحَرِفُونَ عَقَدِيًّا، وَعَمَلِيًّا، وَمُنْحَرِفُونَ نَفْسِيًّا أَيْضًا، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ لَا يَتَمَتَّعُونَ بِالسَّوَاءِ النَّفْسِيِّ، لَا يَتَمَتَّعُ بِالسَّوَاءِ النَّفْسِيِّ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ، بَلْ هُمُ النُّدْرَةُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْيَوْمَ، وَمَنْ دَرَسَ عَرَفَ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ بِنَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ بَيْنَ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِالسَّوَاءِ النَّفْسِيِّ، وَهُوَ هَادِئٌ مُطْمَئِنٌّ مُتَعَامِلٌ مَعَ وَاقِعِهِ، وَمَعَ النُّصُوصِ الَّتِي تَحْكُمُهُ وَتَحْكُمُ وَاقِعَهُ بِالطَّرِيقَةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَمَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ.

الْمُهِمُّ: قُلْتُ: عِنْدَنَا الْمِعْيَارُ، هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

إِذَنْ؛ السَّوَاءُ النَّفْسِيُّ إِنَّمَا يُعَايَرُ عَلَىٰ مَا قَدْ خَطَّهُ، وَوَضَعَهُ، وَقَرَّرَهُ وَأَثْبَتَهُ عَلَىٰ حَسَبِ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، مَا قَرَّرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَهُوَ مِعْيَارُ السَّوَاءِ النَّفْسِيِّ، هَذَا غَيْرُ مَقْبُولٍ لَا فِي الْخَارِجِ، وَهُمْ كَافِرُونَ بِالرَّسُولِ، وَمُحَارِبُونَ لَهُ، بَلْ يَتَّهِمُونَهُ بِالْعَظَائِمِ ﷺ. وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَىٰ لِأَنَّ الذِّهْنِيَّةَ الْأُورُبِّيَّةَ مِنْ عَشَرَاتِ الْعُقُودِ مِمَّنْ يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَمِئَتَيْ عَامٍ لَا يَعْرِفُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مَا يُنَفِّرُ عَنْهُ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- اتَّخَذْتُمُوهُ إِلَهًا، وَأَنَّكُمْ جَعَلْتُمْ لَهُ صَنَمًا أَوْ تِمْثَالًا، وَأَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُ، فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدِيُّونَ يَعْبُدُونَ مُحَمَّدًا، وَاقْرَأْ كِتَابَ (زيغريد هونيكه) -وَهِيَ مُسْتَشْرِقَةٌ أَلْمَانِيَّةٌ مُنْصِفَةٌ- اقْرَأْ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ «اللهُ لَيْسَ كذلك»، وَهِيَ تَعِيبُ عَلَىٰ قَوْمِهَا أَنَّهُمْ شَوَّهُوا صُورَةَ الْإِلَهِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُسْلِمُونَ، لَيْسَتْ بِمُسْلِمَةٍ، وَلَكِنَّهَا كَتَبَتْ ذَلِكَ بِمَحْضِ الْإِنْصَافِ.

فَاقْرَءُوا هَذَا الْكِتَابَ -وَهُوَ «اللهُ لَيْسَ كَذَلِكَ»- تَعِيبُ عَلَىٰ قَوْمِهَا، وَكَذَلِكَ كِتَابُ «شَمْسُ الْعَرَبِ تُشْرِقُ عَلَىٰ الْغَرْبِ»، فَلَمْ يَقْبَلْ قَوْمُهَا هَذِهِ التَّسْمِيَةَ، فَاقْرَءُوا مَا كَتَبَتْ فِي هَذَا، وَسَتَجِدُونَ أَنَّ الصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ عَنِ اللهِ ﷻ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ عَوَامِّ الْغَرْبِيِّينَ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ فِي غَايَةِ الْقَتَامَةِ.

فَإِذَنْ؛ إِذَا قُلْنَا لَهُمْ: إِنَّمَا نَقِيسُ السَّوَاءَ النَّفْسِيَّ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَعَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ فِي التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ لِمَا جَاءَ بِهِ، لَمْ يَقْبَلُوا مِنَّا ذَلِكَ؛ فَمَا الشَّأْنُ

بِمَنْ هُمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا، وَمَنْ هُمْ مِنْ مُتَّبِعِي مُحَمَّدٍ، بَلْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ يُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيَحُجُّ، وَيَزُورُ مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ؟!

مِنْهُمْ كَثِيرُونَ مِنَ الْبَاذِلِينَ فِي الْمَعْرُوفِ، الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْخَيْرَ، وَ يَعْشَقُونَ الْبِرَّ، وَلَكِنْ مَا كَانَ مِنَ الِاسْتِلَابِ الثَّقَافِيِّ، وَمَا وَقَعَ مِنَ التَّفْرِيغِ الثَّقَافِيِّ لِأَجْيَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَدَّىٰ إِلَىٰ هَذَا الْمُسْتَوَىٰ الَّذِي وَصَلْنَا إِلَيْهِ.

فَأَنْتَ -إِذَنْ- عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ نَفْسَكَ: هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!

الْمُحِبُّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ..

يَعْنِي -مَثَلًا-: أَنْتَ تُحِبُّ أَبَاكَ، إِذَا جَاءَكَ جَاءٍ، وَأَتَىٰ إِلَيْكَ آتٍ، فَقَالَ: جِئْتُ مِنْ عِنْدِ أَبِيكَ، وَهُوَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَفْعَلَ الْآنَ كَذَا.

عَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّتِكَ لِأَبِيكَ وَاحْتِرَامِكَ لَهُ سَيَكُونُ امْتِثَالُكَ لِأَمْرِهِ، الَّذِي نَقَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْأَمْرَ عَدْلٌ عِنْدَكَ صَادِقٌ لَا يُكَذَّبُ، وَقَدْ نَقَلَ إِلَيْكَ أَمْرًا عَنْ أَبِيكَ، فَسَتَقُومُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَفْعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ أَبُوكَ.

لَوْ أَنَّ لَكَ شَيْخًا تَتَوَسَّمُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَتُحِبُّهُ فَقَالَ لَكَ أَمْرًا فَوْقَ الَّذِي أَمَرَكَ بِهِ أَبُوكَ، يَعْنِي: رُبَّمَا أَبُوكَ يَأْمُرُكَ بِأَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا، وَتَصَارِيفِ الْمَصَالِحِ: افْعَلْ كَذَا، وَلَا تَفْعَلْ كَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا الْمَصْلَحَةُ لِلْأُسْرَةِ بِعَامَّةٍ، فَهَذَا أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ، عَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّتِكَ لِأَبِيكَ سَيَكُونُ امْتِثَالُكَ وَسُرْعَةُ امْتِثَالِكَ لِأَمْرِهِ

إِذَا كُنْتَ لَهُ مُحِبًّا وَمُحْتَرِمًا، فَسَتَقُومُ مُبَاشَرَةً عِنْدَمَا يَأْتِي إِلَيْكَ الْأَمْرُ، وَتَسْعَىٰ فِي إِنْفَاذِ مَا أَمَرَكَ بِهِ.

النَّبِيُّ ﷺ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَالْوَاسِطَةُ فِي الْبَلَاغِ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ أُمَّتِهِ هُمُ الْعُلَمَاءُ، لَوْ أَنَّ لَكَ شَيْخًا تُحِبُّهُ، تَثِقُ فِيهِ، تَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَيُرْشِدُكَ إِلَىٰ الصِّدْقِ، وَيَأْتِي لَكَ الْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ بِالدَّلِيلِ، فَأَمْرُهُ إِذَا أَتَاكَ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالدِّينِ، فَإِذَا جَاءَكَ مِنْ إِخْوَانِكَ الثِّقَاتِ مَنْ يَقُولُ لَكَ: إِنَّ شَيْخَكَ يَأْمُرُكَ بِكَذَا، عَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّتِكَ لِهَذَا الشَّيْخِ يَكُونُ امْتِثَالُكَ لِأَمْرِهِ، مَعَ أَنَّهُ عُرْضَةٌ لِلْخَطَأِ، بَلِ الْبَشَرُ عُرْضَةٌ لِلضَّلَالِ، بَلْ يُخْشَىٰ عَلَىٰ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَمُوتَ كَافِرًا، -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ-، يُخْشَىٰ عَلَىٰ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُفْتَنَ عِنْدَ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَمُوتَ كَافِرًا!

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرُ فِي هَذَا؟!

أَنْتَ تَمْضِي عَلَىٰ سَنَنٍ لَاحِبٍ بِحَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ حَاضِرَةٍ، الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً، وَقَدْ يَأْتِيكَ الْمَوْتُ عَلَىٰ غَيْرِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؛ فَالْإِنْسَانُ يَمْرَضُ، وَالْمَرَضُ مُقْلِقٌ مُزْعِجٌ، مُضْجِرٌ، وَقَدْ يُصَاحِبُهُ أَلَمٌ يَفُوقُ الِاحْتِمَالَ، حَتَّىٰ رُبَّمَا أَصَابَ الْمَرْءَ الذُّهُولُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ! وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ -رُبَّمَا- لَا يُثَبَّتُ عِنْدَ الْمَمَاتِ، وَتَذْكُرُونَ مَا وَرَدَ مِنَ الْقِصَصِ فِي هَذَا الْأَمْرِ عَنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ، بَلْ مَا نُسِبَ إِلَىٰ الصَّحَابَةِ ﷺ: لَوْ نُودِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ النَّاسِ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا وَاحِدًا، قَالَ: «لَظَنَنْتُ أَنَّنِي ذَلِكَ الْوَاحِدُ!».

«لَا آمَنُ مَكْرَ اللهِ، وَإِحْدَىٰ قَدَمَيَّ فِي الْجَنَّةِ»... إِلَىٰ آخِرِ مَا وَرَدَ مِنْ هَذَا -وَابْحَثْ عَنْ صِحَّتِهِ، وَعَدَمِ صِحَّتِهِ- وَلَكِنْ فِي الْمَدْلُولِ الْعَامِّ.

«يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَعْرَةً فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ»، يَقُولُ هَذَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَدُخِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، وَقَدْ أَخْرَجَ لِسَانَهُ، وَأَمْسَكَ بِهِ كَالْمُبَكِّتِ لِهُ، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ!!

الصِّدِّيقُ!

مَا الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ الصِّدِيقُ؟!

كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الصِّدِّيقُ مُحْصًىٰ عَلَيْهِ، مَا الَّذِي فِيمَا تَكَلَّمَ بِهِ، وَأُحْصِيَ عَلَيْهِ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَاخَذَ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ أَيِّ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ؛ فَيُقَالُ: أَخْطَأَ فِي هَذَا، تَجَاوَزَ فِي هَذَا، سَبَّ هَذَا، شَتَمَ هَذَا، حَاشَاهُ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُ: هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟!

الْإِمَامُ أَحْمَدُ -وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ عَنْهُ- عِنْدَمَا قَالَ لَهُ وَلَدُهُ: يَا أَبَتَاهُ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَيَقُولُ: لَا، لَا، لَا. وَدَخَلَ فِي الْغَمْرَةِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ! كُنْتُ أَقُولُ لَكَ: قُلْ: لَاإِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: لَا؟! فَقَالَ: لَمْ أَكُنْ أَرُدُّ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا عَرَضَ لِي إِبْلِيسُ عَاضًّا عَلَىٰ إِبْهَامِهِ؛ نَدَمًا يَقُولُ: فُتَّنِي يَا أَحْمَدُ! فَأَقُولُ: لَا، يَعْنِي: حَتَّىٰ تَخْرُجَ الرُّوحُ.

فَفِي هَذِهِ الْمَسَافَةِ الزَّمَنِيَّةِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مُحْتَضَرًا فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، وَأَنْ تَخْرُجَ رُوحُهُ مَا زَالَ فِي التَّكْلِيفِ، قَبْلَ أَنْ يُحَشْرِجَ، قَبْلَ أَنْ يُغَرْغِرَ، قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الرُّوحُ الْحُلْقُومَ، إِذَا بَلَغَتْ لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لَزِمَتْهُ!

مَنِ الَّذِي يَضْمَنُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا؟!

لِمَاذَا لا تَخَافُ؟!

لِمَاذَا لا تَعْرِفُ اللهَ إِلَّا مَعْرِفَةً عَرْجَاءَ؟! لِمَاذَا؟!

أَنْتَ تَعْرِفُ اللهَ بِصِفَاتِ الْجَمَالِ: اللهُ هُوَ الرَّحِيمُ، الْغَفُورُ، الْعَفُوُّ، الْكَرِيمُ! نَعَمْ، وَلَكِنْ أَيْنَ صِفَاتُ الْجَلَالِ؟!

بَعْضُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ الْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ يَعْرِفُونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَحْدَهَا بِأَنَّهُ الْعَزِيزُ، الْمُتَكَبِّرُ، الَّذِي يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَيَخَافُونَهُ مَخَافَةً زَائِدَةً، لَا رَجَاءَ مَعَهَا، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا فِي الْيَأْسِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي الْجُمْلَةِ لَا يَعْرِفُونَ اللهَ إِلَّا بِصِفَاتِ الْجَمَالِ، لَكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا بُدَّ أَنْ يُعْرَفَ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ، وَصِفَاتِ الْجَمَالِ؛ فَتُحِبُّهُ، وَتَخْشَاهُ، لَا بُدَّ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، إِيَّاكَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ تَعَالَىٰ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ تَعَالَىٰ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ تَعَالَىٰ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ؛ كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْعُبُودِيَّةِ»، وَغَيْرِهَا.

إِذَنْ؛ يُحَبُّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيُخْشَىٰ، وَيُرْجَىٰ؛ بِالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَلِلْعُلَمَاءِ تَفْصِيلٌ فِي هَذَا: يَعْنِي: فِي حَالِ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ: تُغَلَّبُ جَانِبَ الْخَوْفِ عَلَىٰ جَانِبِ الرَّجَاءِ. وَفِي الْمَرَضِ وَعِنْدَ سِيَاقِ الْمَوْتِ: تُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ عَلَىٰ جَانِبِ الْخَوْفِ. لِلْعُلَمَاءِ فِيهَا أَقْوَالٌ، لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ سَبَقَهُ، وَمِمَّنْ أَتَىٰ بَعْدَهُ، فَلِمَاذَا لَا تَعْرِفُ رَبَّكَ إِلَّا بِصِفَاتِ الْجَمَالِ وَحْدَهَا، وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِالصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ الْحُسْنَىٰ كُلِّهَا؟!

لِمَاذَا لَا تَعْرِفُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالصِّفَاتِ كُلِّهَا؟

هَذَا الْخَطَأُ يُؤَدِّي إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الِانْحِلَالِ، يَعْنِي: عِنْدَمَا تَكْتُبُ كَلَامًا -تَكْتُبُهُ بِقَلَمٍ، أَوْ تَكْتُبُهُ بِأَنَامِلِكَ عَلَىٰ لَوْحَةِ مَفَاتِيحِكَ- عِنْدَمَا تَكْتُبُ هَذَا الْكَلَامَ أَنْتَ بِسَمْعِ اللهِ، وَبَصَرِهِ؛ هُوَ يُبْصِرُكَ، هُوَ يَسْمَعُكَ، وَالْحَفَظَةُ يُحْصُونَ عَلَيْكَ كُلَّ مَا خَطَطْتَ، وَسَتُسْأَلُ.

لِمَاذَا لَا تَخَافُ مِنْ هَذَا؟!

يَعْنِي: عِنْدَمَا تَسُبُّ مُسْلِمًا، تَقَعُ فِي عِرْضِهِ، أَوْ تَتَّهِمُهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَتَبْهَتُهُ، أَوْ تَذْكُرُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ، وَهِيَ الْغِيبَةُ، أَوْ أَنْ تَنْشُرَ كَلَامًا لَا أَصْلَ لَهُ بِكِذْبَةٍ تَبْلُغُ الْآفَاقَ، وَعِقَابُهَا فِي الْبَرْزَخِ هُوَ مَا ذَكَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ -فِي حَدِيثِ الْمَرَائِي عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ»-: **الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ مُسْتَلْقِيًا لِقَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، يُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَمُوقَهُ -أَيْ:**

عَيْنَهُ- إِلَىٰ قفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ الشِّقِّ الثَّانِي فَيَفْعَلُ بِهِ مَا فَعَلَ بِالْأَوَّلِ، فَيَصِحُّ الْأَوَّلُ فَيَرْجِعُ إِلَىٰ الْأَوَّلِ؛ لِيُشَرْشِرَهُ، فَيَصِحُّ الثَّانِي، فَيَعُودُ إِلَىٰ الثَّانِي؛ لِيُشَرْشِرَهُ، فَيَصِحُّ الْأَوَّلُ...، هَذَا عَذَابُهُ فِي قَبْرِهِ، فِي الْبَرْزَخِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْآتِيَيْنِ عَنْ هَذَا الْمَرْأَىٰ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَأَمَرَاهُ بِأَنْ يَصْعَدَ، ثُمَّ فَسَّرَا لَهُ مَا رَآهُ مِنَ الرُّؤَىٰ كَمَا فِي آخِرِ الْحَدِيثِ، قَالَا: «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي مَرَرْتَ بِهِ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ ظَهْرِهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَمُوقُهُ إِلَىٰ قَفَاهُ...**» إِلَىٰ آخِرِ وَصْفِ هَذَا الْمَرْءِ قَالَا: «**فَهَذَا الرَّجُلُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَكْذِبُ الْكَذِبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ**».

الْوَسَائِلُ الْحَدِيثَةُ وَفَّرَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي الْقَدِيمِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فِي الْمَجَامِعِ، وَعَلَىٰ رُءُوسِ النَّاسِ، أَمَّا إِذَا كَانَ فِي بَيْتِهِ فَإِنَّهُ يُخْبِرُ نَفْسَهُ، فَيَقُولُ: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ»، وَفَّرَتْ عَلَيْهِ الْوَسَائِلُ الْحَدِيثَةُ مِنْ وَسَائِلِ الْإِفْسَادِ فِي مَصْنَعِ الْأَكَاذِيبِ، وَهُوَ مَوَاقِعُ التَّوَاصُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ، هِيَ مَصْنَعُ الْأَكَاذِيبِ؛ كَالْفِيسِ، وَالتّوِيتَرِ، وَهَذَا الَّذِي تَعْرِفُونَ هَذَا مَصْنَعُ الْأَكَاذِيبِ، وَمَبَاءَةُ الشَّائِعَاتِ، وَأَصْلُ الِافْتِرَاءِ وَالْبُهْتَانِ وَالْبَهْتِ لِعِبَادِ اللهِ، وَشَغْلِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

فَهَذَا كَانَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، سَيَخْرُجُ -أَيْضًا- مِنْ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَىٰ؛ فَمَا أَنْ يَكْتُبَ كَلِمَتَهُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا -كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الشَّأْنِ- حَتَّىٰ تَنْتَشِرَ فِي الْآفَاقِ،

فِي طِبَاقِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَهِيَ كَذِبٌ أَبْلَقُ، وَبُهْتَانٌ مَحْضٌ، وَبَهْتٌ أَصْلَعُ، لَا قُرُونَ لَهُ، ثُمَّ تَصِيرُ حَقِيقَةً، فَيتكَلَّمُ بِهَا مَنْ يَتكَلَّمُ، وَيُثْبِتُهَا كِتَابَةً مَنْ يُثْبِتُ، ثُمَّ يَقُولُ عِنْدَمَا يُطَالَبُ بِأَصْلِ النَّقْلِ؛ فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ فِي مَوْقِعِ فُلَانٍ، وَهَذَا ذَكَرَهُ فُلَانٌ! وَفُلَانٌ هَذَا لَا يَسْوَىٰ بَعْرَةً! وَلَا يُسَاوِي وَزْنَهُ تُرَابًا! وَهُوَ مُتَخَصِّصٌ فِي الْكَذِبِ وَالْبَهْتِ وَالْبُهْتَانِ، وَفِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ مَا شِئْتَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِعَدَالَتِهِ، سَاقِطٌ بِمَرَّةٍ! كَذَّابٌ أَشِرٌ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَقُولُ: الْعُهْدَةُ عَلَىٰ مَنْ كَتَبَ، الْعُهْدَةُ عَلَىٰ مَنْ كَتَبَ، الْعُهْدَةُ عَلَىٰ مَنْ قَالَ، هَذَا عِنْدَكَ!

أَنْتَ الْآنَ عِنْدَمَا تَقُولُ: حَدَّثَنِي بِهِ الثِّقَةُ. نَقُولُ لَكَ: مَنِ الثِّقَةُ؟ مَنِ الثِّقَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ؟! أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْعُلَمَاءِ! تَقُولُ: حَدَّثَنِي الثِّقَةُ، هَذَا لَيْسَ بِكَلَامِ الْمُعَاصِرِينَ، هَذَا كَلَامُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ عُلَمَائِنَا، «حَدَّثَنِي الثِّقَةُ»، فَيُقَالُ: الثِّقَةُ، وَصْفٌ تَحْتَهُ أُمُورٌ تَعْرِفُهَا، فَيَقُولُ: الْعَدَالَةُ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ أَنْ يَكُونَ ضَابِطًا؛ ضَابِطًا لِمَا يَحْمِلُهُ، وَأَنْ يَكُونَ ذَا مُرُوءَةٍ. الْعَدَالَةُ كَمَا عَرَّفَهَا الْعُلَمَاءُ.

فَيُقَالُ: أَمَّا الْمُرُوءَةُ فَفِيهَا بَيْتَانِ لِأَهْلِ الشِّعْرِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ:

مَرَرْتُ عَلَىٰ الْمُرُوءَةِ وَهْيَ تَبْكِي ... فَقُلْتُ: عَلَامَ تَنْتَحِبُ الْفَتَاةُ؟

فَقَالَتْ: كَيْفَ لَا أَبْكِي وَأَهْلِي ... جَمِيعًا دُونَ كُلِّ الْخَلْقِ مَاتُوا؟!

يَعْنِي هَذَا الْبَيْتُ: فَالْمُرُوءَةُ تَبْكِي عَلَىٰ أَنَّ أَهْلَهَا قَدْ مَاتُوا دُونَ خَلْقِ اللهِ، يَعْنِي: أَنَّهَا انْقَرَضَتْ، هَذَا لَا يُقْبَلُ؛ فَالْمُرُوءَةُ مَوْجُودَةٌ، وَالضَّبْطُ أَيْضًا مَوْجُودٌ.

وَلَكِنِ الْآنَ فِي الضَّبْطِ: فَالضَّبْطُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ضَبطَ صَدْرٍ، فَتَجِدُ الرَّجُلَ ذَا ذَاكِرَةٍ صَمَّاءَ، فَإِذَا مَا تَكَلَّمْتَ أَمَامَهُ بِكَلَامٍ أُثْبِتَ وَنَقَشَ عَلَىٰ صَفْحَةِ قَلْبِهِ، لَا يَخْرِمُ مِنْهُ حَرْفًا، يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ هَذَا الْآنَ قَدْ فَنِيَ وَانْقَرَضَ.

إِذَنْ؛ الضَّبْطُ الثَّانِي، وَهُوَ ضَبْطُ الْكِتَابِ: فَيَضْبِطُ ضَبطَ صَدْرٍ، أَوْ ضَبطَ كِتَابٍ، وَضَبْطُ الْكِتَابِ يُمْكِنُ أَنْ يُلْحَقَ بِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّسْجِيلِ، فَيُسَجِّلُ لَهُ.

وَلَكِنَّ الْآفَةَ أَنَّ هَذَا التَّسْجِيلَ قَدْ يَكُونُ فِي مَجْلِسِ مُذَاكَرَةٍ، وَالْمُحَدِّثُونَ كَانُوا يَنْهُونَ طُلَّابَهُمْ، تَلَامِيذَهُمْ عَنْ أَنْ يَنْقِلُوا عَنْهُمْ شَيْئًا دَارَ فِي مَجْلِسِ الْمُذَاكَرَةِ حَتَّىٰ مِنَ الْأَحَادِيثِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا -أَحْيَانًا- يُسْقِطُونَ الْأَسَانِيدَ، يَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانٌ، وَيَمْضِي فِيهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَسْمَعُ مِنْهُ فِي مَجْلِسِ الْمُذَاكَرَةِ فِي مَرْتَبَتِهِ أَئِمَّةٌ يَعْرِضُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيُذَاكِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمِنْهُ تَفْهَمُ قَوْلَ أَبِي زُرْعَةَ لِعَبْدِ اللهِ ابْنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: كَانَ أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ، قَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ؟! يَعْنِي: أَنْ تَجْلِسْ مَعَ أَبِي مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيْكَ مِلْيُونًا مِنَ الْأَحَادِيثِ؛ فَهَذَا شَيْءٌ يَسْتَغْرِقُ عُمُرًا، ثُمَّ هَذِهِ دَعْوَىٰ؛ لِأَنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي فِي الْمُسْنَدِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، وَفِي الزُّهْدِ، وَفِي كُلِّ آثَارِهِ بَعِيدَةٌ جِدًّا فِي الْعَدِّ عَنْ هَذَا الْقَدْرِ!!

هُوَ يَقْصِدُ مَا كَانَ مِنَ الْمُقَطَّعَاتِ، وَمِنَ الْمَرَاسِيلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُثْبِتْهُ، بَلْ مَا كَانَ يَحْفَظُهُ مِنَ الْمَوْضُوعِ، وَمِنَ الضَّعِيفِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُزَيِّفَهُ، وَأَلَّا يُلَبِّسَ بِهِ أَحَدٌ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُطْلَبُ فِي مَظَانِّهِ.

قَالَ: كَانَ أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ. قَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ. قَالَ: ذَاكَرْتُهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ.

فَالتَّسْجِيلُ فِيهِ آفَاتٌ، وَهُنَاكَ آفَاتٌ عَظِيمَةٌ تَعْرِضُ لَهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ: الْبَتْرُ، يَعْنِي: يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ الْمُتَكَلِّمُ الَّذِي سُجِّلَ لَهُ نَاطِقًا بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَيَقُولُ هَذَا كَلَامُهُ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ سِيَاقِهِ، ثُمَّ بَتَرَهُ، فَصَارَ يَدُلُّ عَلَىٰ عَكْسِ مَا أَرَادَهُ، هَذَا مَعْرُوفٌ.

شَيْءٌ آخَرُ: أَنَّ الْوَسَائِلَ الْحَدِيثَةَ قَدْ أَدَّتْ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ صَوْتٌ يُطَابِقُ صَوْتَ الْمُتَكَلِّمِ، فَيَأْتِي بِهِ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ فُلَانٌ.

أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ جِدًّا دَخَلَتْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَيُقَالُ لِمَنْ يَقُولُ: حَدَّثَنِي الثِّقَةُ، حَدَّثَنِي الْعَدْلُ، فَيُقَالُ لَهُ: الْعَدْلُ الضَّابِطُ، وَهُوَ الثِّقَةُ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا ذَا دِينٍ وَمُرُوءَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ ضَابِطًا، نَحْنُ نَتَكَلَّمُ فِي الضَّبْطِ، دَعْنَا مِنَ الْمُرُوءَةِ الْآنَ.

الضَّبْطُ.. أَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُجْرِيَ تَجْرِبَةً، كَلِّمْ أَخَاكَ كَلَامًا فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَبَعْدَ أَنْ تَفْرُغَ مِنْ كَلَامِكَ قُلْ لَهُ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُعِيدَ عَلَيَّ مَا قُلْتُ؟!

يَقُولُ: نَعَمْ، أُعِيدُ عَلَيْكَ مَا قُلْتَ.

رُبَّمَا ذَكَرَ لَكَ كَلَامًا هُوَ عَكْسُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ! يَقُولُ: بَلْ قُلْتَهُ، وَرُبَّمَا نَشَبَتْ بَعْضُ الْمَعَارِكِ بَيْنَ أَخَوَيْنِ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُ قَالَ، وَالْآخَرُ يَقُولُ: لَمْ تَقُلْ، وَهَذَا يُكَذِّبُهُ، وَهَذَا يُكَذِّبُ أَخَاهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَىٰ الرِّوَايَةِ بِالْمَعْنَىٰ، أَلَيْسَتْ لَهَا شُرُوطٌ؟

بَلَىٰ، يَرْوِي بِالْمَعْنَىٰ هكَذَا، يُقَوِّلُكَ مَا لَمْ تَقُلْ، إِذَا رَوَيْتَ عَنْهُ بِالْمَعْنَىٰ، قَوَّلْتَهُ -لَا مَحَالَةَ- مَا لَمْ يَقُلْ؛ لِأَنَّ لِلرِّوَايَةِ بِالْمَعْنَىٰ شُرُوطًا.

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا اسْتَدْرَكَتْهُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا- عَلَىٰ بَعْضِ الْأَصْحَابِ، وَمِنْهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ لَمَّا أَنْكَرَتْ عَلَيْهِ الْحَدِيثَ الثَّابِتَ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**يَقْطَعُ الصَّلَاةَ: الْمَرْأَةُ الْحَائِضُ، وَالْحِمَارُ، وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ**»، فَلَمَّا نُقِلَ ذَلِكَ إِلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَوَّيْتُمُونَا بِالْحَمِيرِ وَالْكِلَابِ؟!

قِيلَ لَهَا: لَقَدْ نَقَلَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ! قَالَتْ: إِنَّهُ دَخَلَ الْمَجْلِسَ مُتَأَخِّرًا فَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يَقْطَعُ الصَّلَاةَ...**» وَذَكَرَ الْمَذْكُورَاتِ، وَكَانَ قَدْ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: «كَذَبَتْ يَهُودُ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ... وَذَكَرَ».

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِيمَا اسْتَدْرَكَتْهُ عَلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَمْ تَقُلْ: إِنَّهُ كَذَبَ، حَاشَاهَا، وَحَاشَاهُ، وَلَكِنْ قَالَتْ: دَخَلَ الْمَجْلِسَ فِي مُنْتَصَفِهِ.

فَقَدْ يَذْهَلُ أَخُوكَ، وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ، وَطَالِبُ الْعِلْمِ يَذْهَلُ، أَتَكَلَّمُ وَيَأْخُذُ كَلِمَةً يَقُولُ: أَرَادَ بِهَا فُلَانًا، وَيَسْرَحُ! ثُمَّ يَعُودُ إِلَيَّ بَعْدَ دَقَائِقَ قَدْ تَطُولُ، فَيَجِدُنِي فِي كَلَامٍ آخَرَ، هُوَ يَنْسَىٰ الْفَجْوَةَ، وَيَقُومُ بِضَمِّ هَذَا إِلَىٰ هَذَا، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيَقُولُ: لَقَدْ قَالَ لَنَا: كَذَا وَكَذَا!

لَمْ أَقُلْهُ؛ أَنْتَ تَوَهَّمْتَهُ! يَقُولُ: بَلْ قَالَهُ، أَنْتَ نَزَّلْتَ الْكَلَامَ عَلَىٰ فُلَانٍ وَعَلَىٰ فُلَانٍ، أَنْتَ الَّذِي نَزَّلْتَهُ، أَنْتَ الَّذِي فَهِمْتَ ذَلِكَ وَاعْتَقَدْتَهُ، ثُمَّ رَجَعْتَ إِلَيَّ بَعْدَ حِينٍ قَدْ يَطُولُ رُبَّمَا فِي آخِرِ الْمَجْلِسِ.

وَآخَرُ يَجْلِسُ لَا يَذْهَبُ هَذَا الْمَذْهَبَ، وَلَكِنْ رُبَّمَا ذَهَبَ مَذْهَبًا آخَرَ يُفَكِّرُ فِي أَوْلَادِهِ، فِي بَيْتِهِ، فِي مَسْؤُلِيَّاتٍ نِيطَتْ بِعُنُقِهِ، يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ آخَرَ يَقُولُ: أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي إِتْمَامِ هَذَا الْمَجْلِسِ وَحَتَّىٰ نَقُومَ، وَيَضْرَعُ إِلَىٰ اللهِ سَائِرَ الْمَجْلِسِ فِي أَنْ يُنْهِيَ الْمُتَكَلِّمُ الْمَجْلِسَ!!

أَحْوَالٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ، الْمُهِمُّ أَنَّهُ يَرْوِي بِالْمَعْنَىٰ، قَالَ فُلَانٌ! قَالَ فُلَانٌ! حَدَّثَنِي الثِّقَةُ، أَنَّهُ قَالَ فُلَانٌ! أَيُّ ثِقَةٍ؟!

نَحْنُ نَقْبَلُ قَوْلَ الثِّقَةِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَكُونُ ثِقَةً! وَيَكُونُ عَدْلًا ضَابِطًا، فَأَمَّا الْعَدَالَةُ، فَمَعْرُوفٌ شَأْنُهَا، وَأَمَّا الضَّبْطُ فَمَعْلُومٌ أَمْرُهُ أَيْضًا، فَهَذَا لَا يُمَارِي فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ لِعِظَمِ مَقَامِ (حَدَّثَنِي الثِّقَةُ) هُوَ ثِقَةٌ عِنْدَكَ، وَقَدْ يُحْصِي عَلَيْهِ غَيْرُكَ مَا يَجْعَلُهُ أَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ، وَأَضَلَّ الْمُضِلِّينَ، رُبَّمَا! أَنْتَ لَا تَعْلَمُهُ.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ بِرَجُلٍ لِكَيْ يُعَدِّلَهُ، جَاءَ لِيَشْهَدَ عِنْدَهُ قَالَ: لَا أَعْرِفُكَ، اذْهَبْ فَأْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ.

هَذَا فِي حُكْمٍ، رُبَّمَا كَانَ فِي عِدَّةِ دَرَاهِمَ، لَا فِي أَمْرٍ شَرْعِيٍّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ حِلٌّ وَحُرْمَةٌ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ؛ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عِنْدَ عُمَرَ قَالَ: لَا أَعْرِفُكَ، فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعَدِّلَكَ، وَأَقْبَلَ شَهَادَتَكَ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي

بِمَنْ يَعْرِفُكَ، فَتَأْتِي بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ عِنْدَ عُمَرَ يَشْهَدَانِ لِهَذَا الْمَجْهُولِ عِنْدَهُ أَنَّهُ عَدْلٌ، عَدْلُ شَهَادَةٍ؛ لِأَنَّ فَارِقًا بَيْنَ عَدَالَةِ الشَّهَادَةِ، وَعَدَالَةِ الرِّوَايَةِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْمَجَالِ يَنْبَغِي أَنْ يَدْرُسَهُ لَا أَنْ يَتَكَلَّمَ هَكَذَا جُزَافًا، وَلَا أَنْ يُرَدِّدَ كَلَامًا لَا يَدْرِي مَأْتَاهُ، وَلَا أَصْلَهُ.

عَدَالَةُ الشَّهَادَةِ: ائْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ، فَجَاءَ بِرَجُلَيْنِ، وَهُمَا مَعْرُوفَانِ عِنْدَ عُمَرَ، وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَثَبَّتَ مِنْ مَعْرِفَتِهِمَا بِهَذَا الْمَجْهُولِ عِنْدَهُ؛ لِأَنَّهُ سَيَصِيرُ مَعْرُوفًا بِشَهَادَتِهِمَا، فَقَالَ: هَذَا تَعْرِفُهُ؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ صَاحَبْتَهُ فِي السَّفَرِ؟ وَفِي السَّفَرِ تَتَبَيَّنُ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ، قَالَ: لَا. يَعْنِي: أَنْتَ فِي حَالِ الْحَلِّ، وَالدَّعَةِ، وَالِاطْمِئْنَانِ، لَكَ أَخْلَاقٌ حَسَنَةٌ، فَإِذَا سَافَرْتَ، وَالسَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ!

مِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَىٰ شَرْبَةِ مَاءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَافِحُ وَيُجَاهِدُ مِنْ أَجْلِ رَغِيفِ عَيْشٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْلِسُ فِي مَوْضِعٍ يَسَعُ لِثَلَاثَةٍ رُبَّمَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُفْسِحَ لَكَ بِأَمْرِ اللهِ أَنْ يُفْسِحَ فِي الْمَجْلِسِ بِأَمْرِ اللهِ، وَفِي بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، رُبَّمَا قَاتَلَكَ، فَفِي السَّفَرِ تَتَبَيَّنُ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ.

قَالَ: هَلْ تَعْرِفُهُ؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ سَافَرْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هَلْ عَامَلْتَهُ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ؟ وَفِي التَّعَامُلِ بِالدِّرْهَمِ، وَالدِّينَارِ يَتَبَيَّنُ وَرَعُ الرَّجُلِ.. قَالَ: لَا! قَالَ: فَهَلْ أَنْكَحْتَهُ أَوْ نَكَحْتَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: لَا! أَيْ: هَلْ زَوَّجْتَهُ أَوْ تَزَوَّجْتَ مِنْ إِحْدَىٰ حَرِيمِهِ؛ مِنْ أُخْتِهِ أَوْ مِنَ ابْنَتِهِ؟ قَالَ: لَا! قَالَ: فَلَعَلَّكَ رَأَيْتَهُ

فِي الْمَسْجِدِ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَيَخْفِضُهُ قَالَ: بَلَىٰ! قَالَ: فَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ! وَأَنْتَ يَا هَذَا، فَذْهَبْ فَأْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ.

فَإِذَا حَكَمْتَ بِأَنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَخْفِضُهُ، تَجِدُهُ وَرِعًا جِدًّا، وَيُكَلِّمُكَ بِكَلَامٍ مَعْسُولٍ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

فَإِذَنْ؛ لَا يُمَارِي أَحَدٌ فِي قَبُولِ قَوْلِ الثِّقَةِ، عَلَىٰ الْعَيْنِ وَالرَّأْسِ، وَلَكِنْ مَنْ هُوَ الثِّقَةُ عَلَىٰ قَوَاعِدِ الْمُحَدِّثِينَ؟!

عَلَىٰ قَوَاعِدِهِمْ، كَمَا نَقْبَلُ الثِّقَةَ إِذَا كَانَ ثِقَةً عَلَىٰ قَوَاعِدِ الْمُحَدِّثِينَ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: حَدَّثَنِي هَيَّانُ ابْنُ بَيَّانٍ، أَوْ كَسْتُورُ ابْنُ دَمُّورٍ، ثُمَّ تَسُوق كَلَامًا رُبَّمَا أَحْدَثَ فِتَنًا عَظِيمَةً فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَأَنَّىٰ يُقْبَلُ ذَلِكَ؟! وَمَنْ قَبِلَهُ كَانَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ، وَظَالِمًا لِمَنْ نَقَلَ عَنْهُ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ لِنُحِبَّهُ؛ لِأَنَّنَا إِنْ لَمْ نَعْرِفْهُ، لَمْ نُحِبَّهُ؛ النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، وَمَحَبَّتُنَا لِنَبِيِّنَا ﷺ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُقَيَّدَةً بِالشَّرْعِ لَا غُلُوَّ فِيهَا وَلَا جَفَاءَ؛ «**لَاتُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**». فَنُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهَا، فَهُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَأَكْرِمْ بِهَا وَأَعْظِمْ مِنْ مَنْزِلَةٍ! فَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ!

فَنُحِبُّهُ فَوْقَ حُبِّنَا لِآبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا، وَأَعْمَامِنَا، وَأَخْوَالِنَا، وَعَشِيرَتِنَا، وَأَهْلِينَا، وَنُحِبُّهُ فَوْقَ مَحَبَّتِنَا لِأَبْنَائِنَا، وَحَفَدَتِنَا، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لِنِسَائِنَا،

وَأَصْدِقَائِنَا، وَمَشَايِخِنَا، وَمَنْ شِئْتَ مِنَ الْحَوَاشِي؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَىٰ وَجِيزِ اللَّفْظِ فِيهِ: «**حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»: الْأُصُولِ، وَالْفُرُوعِ، وَالْحَوَاشِي.

هَلْ تُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّكَ لِوَلَدِكَ، مِنْ حُبِّكَ لِأَبِيكَ وَأُمِّكَ، مِنْ حُبِّكَ لِصَاحِبَتِكَ، وَزَوْجِكَ لِصَدِيقِكَ، وَصَاحِبِكَ لِقُدْوَتِكَ وَشَيْخِكَ؟!

«**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

«**وَمِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**»؛ دَلِيلُ ذَلِكَ أَنْ تُقَدِّمَ أَمْرَهُ عَلَىٰ هَوَاكَ، يَأْتِيكَ الْأَمْرُ مِنْهُ، وَهَوَاكَ فِي ضِدِّهِ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ هَوَاكَ تَبَعًا فِيمَا جَاءَ بِهِ، لَا أَذْكُرُ الْحَدِيثَ الْآنَ؛ فَفِيهِ كَلَامٌ، وَلَكِنْ أَنْ يَكُونَ هَوَاكَ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ، فَهَذَا مَعْنًىٰ صَحِيحٌ، بِمَعْنَىٰ أَنَّكَ تَصْدُرُ عَنْ أَمْرِهِ، وَتَرْجِعُ إِلَىٰ خَبَرِهِ، وَلَا تَعْبُدُ اللهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، وَهَذَا مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): أَنْ تُصَدِّقَهُ فِيمَا أَمَرَ بِدُونِ الْمُمَاحَكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالْمُغَالَطَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ، وَالْأُمُورِ الْخَيَالِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ تَأْتِي أُمُورٌ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ قَدْ يَقِفُ فِيهَا الْعَقْلُ إِذَا أَخْضَعَهَا لِقَوَانِينِ الْمَادَّةِ، فَيَقُولُ: كَيْفَ؟

وَسَيَأْتِي بَعْضُ ذَلِكَ، كَمَا فِي حَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَفِي أَمْرِ الْوَحْيِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَرُبَّمَا يَقِفُ الْعَقْلُ، الشَّرْعُ يَأْتِي بِمَا تَحَارُ فِيهِ الْعُقُولُ لَا بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ، وَحِكْمَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَعْلَمُهَا وَلَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ، وَأُمُورُ الْبَلَاغِ وَالْخَبَرِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا فِيهَا هُوَ: سَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا، وَفِي

الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِذَلِكَ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ رُبَّمَا أَتَتْ أُمُورٌ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُصَدِّقَ فِيهَا الرَّسُولَ، إِذَا مَا صَحَّتِ النِّسْبَةُ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ الْإِيمَانُ الصِّدِّيقِيُّ.

كَمَا سَيَأْتِي فِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- عِنْدَمَا تَلَقَّىٰ الْمُشْرِكُونَ أَبَا بَكْرٍ بِظَاهِرِ مَكَّةَ، وَكَانَ خَارِجَهَا، فَقَالَ لَهُ قَائِلُهُمْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ صَاحِبُكَ؟! قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ ثُمَّ عَادَ، وَلَمَّا يَبْرُدْ فِرَاشُهُ بَعْدُ!!

قَالَ: أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ.

هَذِهِ مِسَاحَةُ عَمَلِ الْعَقْلِ!

فَتَوْثِيقُ النَّصِّ مِسَاحَةُ عَمَلِ الْعَقْلِ؛ هَلْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَمْ لَمْ يَثْبُتْ؟! فَإِذَا ثَبَتَ لَا كَلَامَ، لَا بُدَّ مِنَ التَّصْدِيقِ إِذَا كَانَ خَبَرًا، وَلَا بُدَّ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ إِذَا كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، هَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَامَلَ بِهِ النُّصُوصُ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَأَعْمَلَ أَبُو بَكْرٍ الْعَقْلَ فِي هَذَا، فَقَالَ: أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ. أُرِيدُ أَنْ أَسْتَوْثِقَ؛ هَذَا كَلَامٌ تَقُولُونَهُ، هَلْ هُمْ عُدُولٌ؟! هَؤُلَاءِ كُفَّارٌ، وَهُمْ مُحَارِبُونَ، فَأَوَّلُ مَا يَتَطَرَّقُ إِلَىٰ الذِّهْنِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ، فَلِذَلِكَ قَالَ: أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ.

قَالُوا: لَا، بَلْ قَالَ!

فَلَمَّا قَالُوا هَذَا، عَلِمَ أَنَّهُ قَالَ

فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ.

هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الصِّدِّيقِيُّ؛ فَأَنْ تُصَدِّقَ النَّبِيَّ فِيمَا أَخْبَرَ، وَأَنْ تُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَأَنْ تَكُفَّ وَتَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ تَعْبُدَ اللهَ بِمَا شَرَعَ، وَأَلَّا تَعْبُدَ اللهَ بِالْبِدَعِ، هَذَا مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، لَا بُدَّ لِأَنْ تَكُونَ مُسْلِمًا أَنْ تَأْتِيَ بِهَا (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ) هَذَا مُقْتَضَاهَا، فَهَلْ حَقَّقْتَهُ؟!

وَالْحُبُّ شَيْءٌ فَوْقَ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ -كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْمَحَبَّةِ.

وَأُوصِي نَفْسِي، وَإِخْوَانِي بِإِدْمَانِ قِرَاءَةِ آثَارِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ لِهَذَا الرَّجُلِ فَتْحًا، وَجَعَلَهُ فَتْحًا، بِقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ الصَّارِمَةِ، وَقَدْ تَلَقَّىٰ ذَلِكَ وَأَسَّسَهُ وَأَخَذَهُ عَنْ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-، وَرَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قَلَمًا سَيَّالًا، وَعَاطِفَةً جَيَّاشَةً، وَكُلُّ ذَلِكَ مُنْضَبِطٌ، وَمَا وَقَعَ مِنَ الْهَنَاتِ، وَمَا جَرَىٰ مِنَ السَّقَطَاتِ فَنُبِّهَ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ، وَلَيْسَ مِنْ مَعْصُومٍ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ كَأَنَّمَا يَغْمِسُ قَلَمَهُ فِي حَبَّةِ قَلْبِهِ بِحُبِّ قَلْبِهِ ثُمَّ يَخُطُّ، يُحِبُّ اللهَ تَعَالَىٰ، وَيُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا.

فَأُوصِي نَفْسِي وَإِخْوَانِي بِأَنْ يَحْبِسَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ نَفْسَهُ عَامًا فِي سِجْنِ آثَارِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ وَيَعْكُفَ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَحْبِسِ الَّذِي هُوَ فَسِيحٌ لَا ضِيقَ فِيهِ، وَرَغَدٌ لَا عُدْمَ مَعَهُ، وَمَحَبَّةٌ لَا بُغْضَ فِيهَا، فَإِذَا مَا خَرَجَ؛ سَيَخْرُجُ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- خَلْقًا جَدِيدًا، وَفَاهِمًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُشْكِلُ عَلَيْهِ، يُقَرِّرُ فِي «الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ» وَكَذَلِكَ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» يُقَرِّرُ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْمَحَبَّةِ، ثُمَّ فَصَّلَ فِي ذَلِكَ.

فَمَحَبَّتُنَا لِنَبِيِّنَا ﷺ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ فِيهَا وَأَنْ نُحَرِّرَهَا، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا تَمَامَ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَامَ اتِّبَاعِهِ فِي سُنَّتِهِ، وَتَمَامَ الْفَهْمِ لِسِيرَتِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-.

●●●

وِرَاثَةُ الصِّفَاتِ وَالْفَضَائِلِ

إِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ لَا يَبْعَثَ نَبِيًّا إِلَّا فِي وَسَطٍ مِنْ قَوْمِهِ شَرَفًا وَنَسَبًا وَمَحْفِدًا؛ فَقَدْ كَانَ فِي الذِّرْوَةِ مِنْ هَذِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَمَا مِنْ آبَائِهِ إِلَّا كَانَ مَلِيًّا بِالْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ! وَمَا مِنْ أُمٍّ مِنْ أُمَّهَاتِهِ إِلَّا وَهِيَ أَفْضَلُ نِسَاءِ قَوْمِهَا نَسَبًا وَمَوْضِعًا! وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَالْكَمَالَاتُ الْبَشَرِيَّةُ تَنْحَدِرُ مِنَ الْأُصُولِ إِلَىٰ الْفُرُوعِ حَتَّىٰ تَجَمَّعَتْ كُلُّهَا فِي سُلَالَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَمُصَاصَةِ بَنِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَمِينِ ﷺ.

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ النَّسَبَ الْكَرِيمَ إِذَا زَانَهُ الْحَسَبُ الْعَرِيقُ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْكَمَالِ، وَوِرَاثَةِ الصِّفَاتِ الْخِلْقِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالْخَصَائِصِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ مَعْلُومٌ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الْوِرَاثَةِ قَوْلُهُ ﷺ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ يَشْتَكِي إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ ابْنَهُ أَسْوَدُ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَبَوَيْهِ أَسْوَدَ، فَقَالَ لَهُ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قَالَ: «حُمْرٌ»، قَالَ: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**» -هُوَ الَّذِي يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَىٰ الْغُبْرَةِ وَالسَّوَادِ- قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «**فَأَنَّىٰ ذَلِكَ؟**». قَالَ: «لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ»، قَالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَقَدْ شَرَحَ الْعُلَمَاءُ الْمُحْدَثُونَ قَوَانِينَ الْوِرَاثَةِ وَبَيَّنُوهَا غَايَةَ الْبَيَانِ، وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ هُنَاكَ وِرَاثَةً نَوْعِيَّةً عَامَّةً، وَهِيَ وِرَاثَةُ الصِّفَاتِ الْجِسْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الثَّابِتَةِ الْخَاصَّةِ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَكُلُّ طِفْلٍ يُولَدُ مُزَوَّدًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْوِرَاثَةِ النَّوْعِيَّةِ.

وَوِرَاثَةٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي تَنْقُلُ إِلَىٰ الْفَرْعِ صِفَاتٍ مِنْ أُصُولِهِ الْخَاصَّةِ الْقَرِيبَةِ أَوِ الْبَعِيدَةِ وَهِيَ لِذَلِكَ تَنْتَظِمُ طَائِفَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: الْوِرَاثَةُ الْخَاصَّةُ الْمُبَاشِرَةُ، وَتَظْهَرُ فِيمَا يَرِثُهُ الطِّفْلُ عَنْ أَصْلَيْهِ الْمُبَاشِرَيْنِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْوِرَاثَةُ الْخَاصَّةُ غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ، وَتَظْهَرُ فِيمَا يُشْبِهُ فِيهِ الطِّفْلُ أَحَدَ أَجْدَادِهِ؛ «**لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**»، أَوْ إِحْدَىٰ جَدَّاتِهِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ أَوِ الْأُمِّ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَىٰ أَوْ مِنَ الدَّرَجَاتِ الَّتِي تَلِيهَا مِنْ صِفَاتٍ لَمْ تَظْهَرْ فِي أَحَدِ أَبَوَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ مَا يُسَمُّونَهُ: الْوِرَاثَةَ الْفَرْعِيَّةَ، أَوِ الْوِرَاثَةَ بِالْوَاسِطَةِ، أَوِ الْوِرَاثَةَ الْمُشْتَرَكَةَ، وَهِيَ الَّتِي تَظْهَرُ فِيمَا يُشْبِهُ فِيهِ الطِّفْلُ أَحَدَ أَعْمَامِهِ أَوْ أَخْوَالِهِ، أَوْ إِحْدَىٰ عَمَّاتِهِ أَوْ خَالَاتِهِ مِنْ صِفَاتٍ لَمْ تَكُنْ ظَاهِرَةً فِي أَحَدِ أَبَوَيْهِ الْمُبَاشِرَيْنِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الطِّفْلَ إِذَا أَشْبَهَ عَمَّهُ -مَثَلًا- فِي صِفَةٍ مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ أَنَّهُ هُوَ وَعَمُّهُ أَخَذَا هَذِهِ الصِّفَةَ عَنْ جَدِّهِ الْقَرِيبِ أَوِ الْبَعِيدِ، أَوْ مِنْ جَدَّتِهِ الْقَرِيبَةِ أَوِ الْبَعِيدَةِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ.

وَالْوِرَاثَةُ الْخَاصَّةُ غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ تَرْجِعُ فِي التَّحْلِيلِ الْأَخِيرِ إِلَىٰ الْوِرَاثَةِ الْخَاصَّةِ الْمُبَاشِرَةِ.

ثُمَّ إِنْ كَانَتِ الْوِرَاثَةُ فِي الصِّفَاتِ لِأَحَدِ الْأَبَوَيْنِ سُمِّيَتْ وِرَاثَةً بِالتَّحَيُّزِ، وَإِنْ كَانَتْ لِأَحَدِهِمَا فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ وَلِلْآخَرِ فِي بَعْضِهَا سُمِّيَتْ وِرَاثَةً بِالِاقْتِرَانِ؛ بِاعْتِبَارِ نَوْعِ الصِّفَاتِ.

●●●

أَقْسَامُ الْوِرَاثَةِ بِاعْتِبَارِ نَوْعِ الصِّفَاتِ الْمَوْرُوثَةِ عَنِ الْأُصُولِ الْخَاصَّةِ أَوْ عَنِ الْقَبِيلَةِ

وَتَنْقَسِمُ الْوِرَاثَةُ بِاعْتِبَارِ نَوْعِ الصِّفَاتِ الْمَوْرُوثَةِ عَنِ الْأُصُولِ الْخَاصَّةِ أَوْ عَنِ الْقَبِيلَةِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

وِرَاثَةٌ جِسْمِيَّةٌ: كَوِرَاثَةِ الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَسِمَاتِ الْوَجْهِ وَغَيْرِهَا.

وَوِرَاثَةٌ عَقْلِيَّةٌ: كَوِرَاثَةِ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْإِدْرَاكِ، أَوِ الْوِجْدَانِ أَوِ النُّزُوعِ.

وَوِرَاثَةٌ خُلُقِيَّةٌ: كَوِرَاثَةِ الصِّفَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ؛ كَالْحِلْمِ وَالْوَرَعِ وَالتَّقْوَىٰ.

وَقَدْ أَفَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوِرَاثَتَيْنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ بِنَوْعَيْهَا؛ فَكَانَ فِيهِ خَيْرُ مَا فِي صِفَاتِ الْبَشَرِ وَالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَخَيْرُ مَا كَانَ فِي آبَائِهِ وَأُمَّهَاتِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالصِّفَاتِ، وَقَدِ انْضَمَّ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَعَهَّدَهُ مِنَ الصِّغَرِ بِالتَّرْبِيَةِ الْمُثْلَىٰ وَالتَّأْدِيبِ الْبَالِغِ؛ فَلَا تَعْجَبْ إِذَا كَانَ ﷺ الْمَثَلَ الْكَامِلَ فِي جِسْمِهِ وَفِي عَقْلِهِ، وَفِي دِينِهِ وَفِي خُلُقِهِ وَفِي نَسَبِهِ وَحَسَبِهِ، وَ«**النَّاسُ مَعَادِنُ؛ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**» كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

*** الْآبَاءُ:**

فَهَا أَنْتَ قَدْ رَأَيْتَ أَنَّ آبَاءَهُ كُلَّهُمْ سَادَةٌ، وَرِثُوا الْمَجْدَ وَالشَّرَفَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُغْبَصُ فِي خُلُقٍ أَوْ يُغْمَزُ فِي نَسَبٍ أَوْ شَرَفٍ، فَكَانَ مِنْهُمُ الْوَسِيمُ الْقَسِيمُ، وَمِنْهُمُ الْبَطَلُ الصِّنْدِيدُ، وَمِنْهُمُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، وَمِنْهُمُ الْحَكِيمُ الَّذِي تَتَفَجَّرُ الْحِكْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَتَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِهِ، وَمِنْهُمُ التَّاجِرُ الَّذِي يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَمِنْهُمُ الْبَرُّ الرَّحِيمُ الْوَصُولُ لِلرَّحِمِ، وَمِنْهُمُ الْمُتَدَيِّنُ وَالْمُتَحَنِّثُ وَالْمُتَحَنِّفُ.

وَبِحَسْبِ الْبَيْتِ الْهَاشِمِيِّ شَرَفًا وَكَرَمًا أَنَّهُمْ كَانُوا سَادَةَ الْعَرَبِ جَمِيعًا لَا يُنَازِعُهُمْ فِي السِّيَادَةِ مُنَازِعٌ، وَأَنَّهُ انْتَهَتْ إِلَيْهِمُ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الْغِنَىٰ وَالثَّرَاءِ، إِنَّهَا -وَايْمُ الْحَقِّ- لَمَآثِرُ وَفَضَائِلُ لَا نَجِدُهَا فِي أَعْرَقِ الدُّوَلِ حَضَارَةً، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا أَغْنَىٰ أُمَمِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ!

*** الْأُمَّهَاتُ:**

أَمَّا الْأُمُّ الْمُبَاشِرَةُ: فَهِيَ السَّيِّدَةُ الْكَرِيمَةُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ؛ فَهِيَ تَجْتَمِعُ مَعَ عَبْدِ اللهِ وَالِدِ النَّبِيِّ فِي جَدِّهِمَا الْأَعْلَىٰ كِلَابٍ.

وَقَدْ كَانَ زُهْرَةُ الْوَلَدَ الْبِكْرَ لِكِلَابِ بْنِ مُرَّةَ، وَالشَّقِيقَ الْأَكْبَرَ لِقُصَيٍّ الَّذِي جَمَعَ قُرَيْشًا بَعْدَ تَشَتُّتٍ، وَصَاحِبِ الْمَآثِرِ وَالْمَفَاخِرِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا.

وَقَدْ عُرِفَ بَنُو زُهْرَةَ بِالْوُدِّ الْخَالِصِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ، وَالِانْحِيَازِ إِلَىٰ جَانِبِهِمْ فِي السِّلْمِ وَالْحَرْبِ وَالْأَحْلَافِ وَالْعُهُودِ.

وَأَمَّا جَدُّهَا عَبْدُ مَنَافٍ: فَكَانَ يُقْرَنُ فِي الشَّرَفِ بِابْنِ عَمِّهِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ؛ فَيُقَالُ: الْمَنَافَانِ؛ تَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا.

وَأَمَّا أَبُوهَا وَهْبٌ: فَكَانَ سَيِّدَ بَنِي زُهْرَةَ.

وَجَدَّتُهَا لِأَبِيهَا: عَاتِكَةُ بِنْتُ الْأَوْقَصِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ هِلَالٍ السُّلَمِيَّةُ، إِحْدَىٰ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي اعْتَزَّ بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ مِنْ سُلَيْمٍ**».

وَلَمْ يَكُنْ نَسَبُ آمِنَةَ مِنْ جِهَةِ أُمِّهَا دُونَ ذَلِكَ عَرَاقَةً وَأَصَالَةً؛ فَهِيَ ابْنَةُ بَرَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ.

وَجَدَّتُهَا لِأُمِّهَا: أُمُّ حَبِيبٍ بِنْتُ أَسَدٍ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، وَهِيَ سُلَالَةٌ عَرِيقَةٌ أَصِيلَةٌ، أَنْبَتَتْ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ؛ لِتَطَّلِعَ بِعِبْئِهَا الْجَلِيلِ فِي أُمُومَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ، وَلِتُنْظَمَ بِهَذِهِ الْأُمُومَةِ فِي سِلْكِ الْأُمَّهَاتِ الْمُنْجِبَاتِ لِلرِّجَالِ الَّذِينَ صَنَعُوا أُمَمًا، وَغَيَّرُوا وَجْهَ التَّارِيخِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ.

فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْهُ، وَهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَىٰ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهِ ﷺ؟!

* أُمَّهَاتُ آبَائِهِ ﷺ:

وَأَمَّا أُمَّهَاتُ آبَائِهِ: فَأُمُّ أَبِيهِ: فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ الْمَخْزُومِيَّةُ، وَبَنُو مَخْزُومٍ فِي الذُّؤَابَةِ مِنْ قُرَيْشٍ نَسَبًا وَشَرَفًا وَمَحْفِدًا.

وَأَمَّا أُمُّ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: فَهِيَ سَلْمَىٰ بِنْتُ عَمْرٍو النَّجَّارِيَّةُ، وَكَانَتْ سَلْمَىٰ لِشَرَفِهَا فِي قَوْمِهَا وَاعْتِزَازِهَا بِنَفْسِهَا لَا تَنْكِحُ الرِّجَالَ حَتَّىٰ يَشْتَرِطُوا لَهَا أَنَّ أَمْرَهَا بِيَدِهَا، إِذَا كَرِهَتْ رَجُلًا فَارَقَتْهُ، وَإِنْ رَضِيَتْهُ عَاشَرَتْهُ، وَلَمَّا خَطَبَهَا هَاشِمٌ مِنْ أَبِيهَا وَزَوَّجَهَا مِنْهُ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ مُقَامَهَا عِنْدَهُ، وَقِيلَ بَلِ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَلَّا تَلِدَ إِلَّا عِنْدَهُ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنَ الشَّامِ بَنَىٰ بِهَا وَأَخَذَهَا مَعَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَلَمَّا خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ لَهُ إِلَىٰ الشَّامِ أَخَذَهَا مَعَهُ وَهِيَ حُبْلَىٰ، فَتَرَكَهَا فِي الْمَدِينَةِ وَدَخَلَ الشَّامَ فَمَاتَ بِغَزَّةَ، فَلَمَّا وَضَعَتْ سَلْمَىٰ وَلَدَهَا شَيْبَةَ وَهُوَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بَقِيَ عِنْدَ أَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ بِالْمَدِينَةِ سَبْعَ سِنِينَ، حَتَّىٰ جَاءَ عَمُّهُ الْمُطَّلِبُ فَأَخَذَهُ عَلَىٰ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

وَأَمَّا أُمُّ جَدِّهِ هَاشِمٍ: فَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ مُرَّةَ بْنِ هِلَالٍ السُّلَمِيَّةُ مِنْ بَنِي سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ إِحْدَىٰ قَبَائِلِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ، إِحْدَىٰ الْعَوَاتِكِ اللَّاتِي اعْتَزَّ بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ مِنْ سُلَيْمٍ**».

وَأَمَّا أُمُّ جَدِّهِ عَبْدِ مَنَافٍ: فَهِيَ حُبَّىٰ بِنْتُ حُلَيْلٍ الْخُزَاعِيَّةُ مِنْ بَنِي خُزَاعَةَ بْنِ عَمْرٍو، إِحْدَىٰ قَبَائِلِ قَمْعَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ الْبَيْتَ، وَإِمَارَةَ مَكَّةَ قَبْلَ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ انْتَزَعَهَا مِنْهُمْ قُصَيُّ بْنُ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ مُجَمِّعُ قُرَيْشٍ وَصَاحِبُ مَفَاخِرِهَا، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ أُمُّ عَبْدِ مَنَافٍ: عَاتِكَةُ بِنْتُ هِلَالِ بْنِ فَالِجِ بْنِ ذَكْوَانَ، وَأُمُّ قُصَيٍّ: فَاطِمَةُ بِنْتُ سَعْدٍ وَهِيَ يَمَانِيَةٌ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَأُمُّ كِلَابٍ: هِنْدُ بِنْتُ سُرَيْرٍ مِنْ بَنِي فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ، وَأُمُّ مُرَّةَ: وَحْشِيَّةُ بِنْتُ شَيْبَانَ مِنْ بَنِي فِهْرٍ أَيْضًا، وَأُمُّ كَعْبٍ:

مَاوِيَةُ بِنْتُ كَعْبٍ مِنْ قُضَاعَةَ، وَأُمُّ لُؤَيٍّ: سَلْمَىٰ بِنْتُ عَمْرٍو الْخُزَاعِيَّةُ، وَأُمُّ غَالِبٍ: لَيْلَىٰ بِنْتُ سَعْدٍ مِنْ هُذَيْلٍ، وَأُمُّ فِهْرٍ جَنْدَلَةُ بِنْتُ الْحَرْثِ مِنْ جُرْهُمٍ، وَأُمُّ مَالِكٍ: عَاتِكَةُ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ الضَّرْبِ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ، وَأُمُّ النَّضْرِ: بَرَّةُ بِنْتُ مُرَادِ بْنِ أُدٍّ، وَأُمُّ كِنَانَةَ: عَوَانَةُ بِنْتُ سَعْدٍ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ، وَأُمُّ خُزَيْمَةَ: سَلْمَىٰ بِنْتُ أَسْلَمَ مِنْ قُضَاعَةَ، وَأُمُّ مُدْرِكَةَ: خِنْدِفُ الْمَضْرُوبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الشَّرَفِ وَالْمَنَعَةِ، وَأُمُّ إِلْيَاسَ: الرَّبَابُ بِنْتُ جِنْدَةَ بْنِ مَعَدٍّ، وَأُمُّ مُضَرَ: سَوْدَةُ بِنْتُ عَكَّ، وَأُمُّ نِزَارٍ: مُعَانَةُ بِنْتُ جَوْشَمٍ مِنْ جُرْهُمٍ.

وَمِنْ ثَمَّ نَرَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ﷺ يَنْتَقِلُ مِنَ الْأَصْلَابِ الْأَصِيلَةِ إِلَىٰ الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّىٰ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيْهِ الْكَرِيمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

فَهَذَا نَسَبُهُ، أَشْرَفُ نَسَبٍ قَطُّ!



الْبِشَارَاتُ بِمَبْعَثِهِ ﷺ

وَقَدْ بُشِّرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: بَشَّرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ السَّابِقُونَ، بَلْ وَبَشَّرَ بِهِ الْجَانُّ، بَلْ وَالْكُهَّانُ، بَشَّرَ النَّبِيُّونَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِمُحَمَّدٍ ﷺ أَقْوَامَهُمْ، وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِيمَا دَعَا بِهِ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَقَالَ عِيسَىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**» وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، وَابْنُ الْجَعْدِ، وَأَحْمَدُ، وَالرُّويَانِيُّ كَمَا فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» لِلْعَلَّامَةِ الْأَلْبَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّهُ أَرَادَ بَدْءَ أَمْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَاشْتِهَارَ ذِكْرِهِ وَانْتِشَارَهُ، فَذَكَرَ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»: فَذَكَرَ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ الْعَرَبُ، ثُمَّ بُشْرَىٰ عِيسَىٰ الَّذِي هُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ مَنْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَشَّرُوا بِهِ أَيْضًا.

أَمَّا فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ فَأَمْرُهُ مَذْكُورٌ مَشْهُورٌ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَمَا فِي حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ** -أَيْ: مُلْقًىٰ عَلَىٰ الْأَرْضِ فِي مَرْحَلَةِ الطِّينِ-، **وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَىٰ قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»، وَكَذَلِكَ تَرَىٰ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ-.

وَهَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ»، وَالْبَزَّارُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» مِنْ حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ وَارْجِعْ إِلَىٰ «صَحِيحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» لِلشَّيْخِ الْأَلْبَانِيِّ.

لِذَلِكَ وَرَدَتْ صِفَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ فَأَحْبَارُ الْيَهُودِ وَرُهْبَانُ النَّصَارَىٰ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «**لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ! فَقَالَ: أَجَلْ! وَاللهِ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ- قَالَ: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَىٰ مَجْلِسِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ -مَنْ فِيهِ- سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ -يُرِيدُ الْحَبْرَ- فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ

الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ! تُرَىٰ هَذَا كَائِنًا أَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَىٰ دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ وَنَارٌ، وَيُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، وَلَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا يَحْمُونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا!

قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ! وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟

قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ.

قَالُوا: وَمَتَىٰ تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ.

قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ، مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ وَهُوَ حَيٌّ -يُرِيدُ الْحَبْرَ- بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ! أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟! قَالَ: بَلَىٰ، وَلَيْسَ بِهِ» يَعْنِي: لَيْسَ هُوَ مَنْ عَيَّنْتُهُ أَوْ ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، ﷺ. وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا دَعَانَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مَعَ رَحْمَةِ اللهِ وَهُدَاهُ لَنَا: لَمَا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ كُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بِنَا شُرُورٌ، فَإِذَا نِلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ قَالُوا لَنَا: إِنَّهُ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ، الْآنَ نَقْتُلُكُمْ

مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، فَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ -كَانَ الْيَهُودُ يُخَوِّفُونَ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ بِالرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ يُبْعَثُ، فَيَتْبَعُهُ يَهُودُ، وَيَقْتُلُونَ بِهِ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ- قَالَ: فَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَجَبْنَاهُ حِينَ دَعَانَا إِلَىٰ اللهِ، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَنَا بِهِ، فَبَادَرْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرُوا بِهِ -كَمَا فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ عِنْدَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَعْلَمُونَ وَاللهِ، إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَنَا بِهِ يَهُودُ فَلَا يَسْبِقُونَنَا إِلَيْهِ، فَكَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَسْبِقُونَ إِلَيْهِ، وَيُخَوِّفُونَ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ بِذَلِكَ، فَدَلُّوهُمْ عَلَيْهِ فَسَبَقُوهُمْ إِلَيْهِ وَكَفَرُوا هُمْ؛ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْخِذْلَانِ!- فَبَادَرْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرُوا بِهِ، فَفِينَا وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]»، ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وَأَمَّا الْكُهَّانُ مِنَ الْعَرَبِ: فَأَتَتْهُمْ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْجِنِّ مِمَّا تَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ؛ إِذْ كَانَتْ وَهِيَ لَا تُحْجَبُ عَنْ ذَلِكَ بِالْقَذْفِ بِالنُّجُومِ، وَكَانَ الْكَاهِنُ وَالْكَاهِنَةُ لَا يَزَالُ يَقَعُ مِنْهُمَا بَعْضُ أُمُورِهِ، وَلَا يُلْقِي الْعَرَبُ لِذَلِكَ فِيهِ بَالًا حَتَّىٰ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَوَقَعَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا يَذْكُرُونَ فَعَرَفُوهَا.

فَلَمَّا تَقَارَبَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَضَرَ زَمَانُ بَعْثِهِ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَقَاعِدِ الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ فِيهَا، فَرُمُوا بِالنُّجُومِ، فَعَرَفَتِ الشَّيَاطِينُ أَنَّ ذَلِكَ لِأَمْرٍ حَدَثَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﷻ، فَأَخْبَرَتْ

أَوْلِيَاءَهَا مِنَ الْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَىٰ دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ.

فَقَالَ: مَا رَأَيْتُكَ الْيَوْمَ، اسْتَقْبَلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ.

قَالَ: فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي!

قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ مِنْ جِنِّيَّتِكَ؟!

قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ مِنْهَا الْفَزَعَ فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا؟!

قَالَ: صَدَقَ، فَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ! يَقُولُ: يَا جَلِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحٌ، رَجُلٌ فَصِيحٌ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَوَثَبَ الْقَوْمُ، قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا! ثُمَّ نَادَىٰ: يَا جَلِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحٌ، رَجُلٌ فَصِيحٌ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقُمْتُ فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ: هَذَا نَبِيٌّ» الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

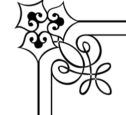
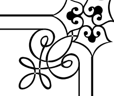
وَلِذَلِكَ لَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ مَبْعَثِهِ ﷺ عَلِمَ الْجِنُّ بِذَلِكَ مِنَ اسْتِرَاقِهَا السَّمْعَ، وَأَخْبَرَتْ أَوْلِيَاءَهَا مِنَ الْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ.

فَهَذِهِ بَعْضُ الْبِشَارَاتِ الَّتِي بُشِّرَ بِهَا قَبْلَ مَبْعَثِهِ ﷺ، وَرَاءَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْبِشَارَاتِ حَتَّىٰ لَقَدْ صُنِّفَ فِي تِلْكَ الْبِشَارَاتِ بَعْضُ الْمُصَنَّفَاتِ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَمِنْ أَقْوَالِ الْمُتَحَنِّثِينَ وَالْبَاحِثِينَ عَنِ الْحَقِّ وَالْمُنْتَظِرِينَ لِبَعْثَةِ رَسُولِ اللهِ؛ بَلْ وَمِنَ الْجَانِّ، بَلْ مِنَ الشَّيَاطِينِ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرُوا الْكُهَّانَ بِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ لِأَمْرٍ قَدْ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الْجِنُّ فَقَدْ بَشَّرَتْ بِهِ، وَالْكُهَّانُ أَيْضًا أَخْبَرُوا عَنْهُ؛ فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ وَشَرَّفَ وَعَظَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ كَمَالَ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَامَ مُتَابَعَتِهِ ﷺ وَأَنْ يُحْيِينَا عَلَىٰ مِلَّتِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِ وَتَحْتَ رَايَتِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهَدْيِهِ، وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

***

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

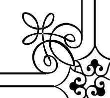
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْحَادِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

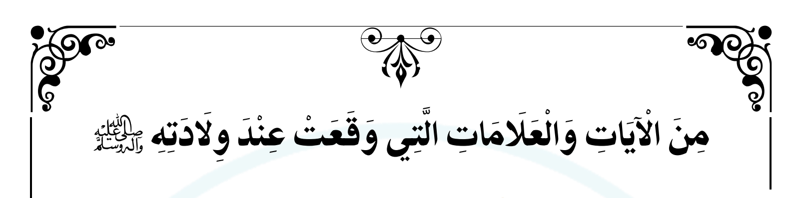
سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مِنَ الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ عِنْدَ وِلَادَتِهِ ﷺ

فَقَدْ وَقَعَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي لَيْلَةِ مَوْلِدِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ يَهُودِيٌّ قَدْ سَكَنَ مَكَّةَ يَتَّجِرُ بِهَا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ فِي مَجْلِسِ قُرَيْشٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَلْ وُلِدَ فِيكُمُ اللَّيْلَةَ مَوْلُودٌ؟ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا نَعْلَمُهُ.

قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! أَمَا إِذْ أَخْطَأْتُمْ فَلَا بَأْسَ! انْظُرُوا وَاحْفَظُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ: وُلِدَ لَكُمْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَخِيرَةِ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلَامَةٌ فِيهَا شَعَرَاتٌ مُتَوَاتِرَاتٌ كَأَنَّهُنَّ عُرْفُ فَرَسٍ، لَا يَرْضَعُ لَيْلَتَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ أَدْخَلَ أُصْبُعَهُ فِي فَمِهِ، فَمَنَعَهُ الرَّضَاعَ.

فَتَصَدَّعَ الْقَوْمُ مِنْ مَجْلِسِهِمْ، وَهُمْ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ، فَلَمَّا صَارُوا إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ أَخْبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ أَهْلَهُ فَقَالُوا: لَقَدْ وُلِدَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ غُلَامٌ سَمَّوْهُ مُحَمَّدًا. فَالْتَقَىٰ الْقَوْمُ فَقَالُوا: هَلْ سَمِعْتُمْ حَدِيثَ هَذَا الْيَهُودِيِّ؟ بَلَغَكُمْ مَوْلِدُ هَذَا الْغُلَامِ؟ فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ جَاءُوا الْيَهُودِيَّ، فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ.

قَالَ: فَاذْهَبُوا مَعِي حَتَّىٰ أَنْظُرَ إِلَيْهِ! فَخَرَجُوا بِهِ حَتَّىٰ أَدْخَلُوهُ عَلَىٰ آمِنَةَ

فَقَالُوا: أَخْرِجِي إِلَيْنَا ابْنَكِ!

فَأَخْرَجَتْهُ، وَكَشَفُوا لَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَأَىٰ تِلْكَ الشَّامَةَ، فَوَقَعَ الْيَهُودِيُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ مَالَكَ؟ قَالَ: ذَهَبَتْ -وَاللهِ- النُّبُوَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَفَرِحْتُمْ بِهَا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا -وَاللهِ- لَيَسْطُوَنَّ بِكُمْ سَطْوَةً يَخْرُجُ خَبَرُهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَكَانَ فِي النَّفَرِ، فِي الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ الْيَهُودِيُّ مَا قَالَ هِشَامٌ وَالْوَلِيدُ ابْنَا الْمُغِيرَةِ، وَمُسَافِرُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ شَابٌّ فَوْقَ الْمُحْتَلِمِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وَحَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ»، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَعَنْ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**وَاللهِ، إِنِّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ -وَيَفَعَةٌ: أَيْ: قَدْ شَبَّ وَلَمْ يَبْلُغْ- ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ، أَعْقِلُ كُلَّ مَا سَمِعْتُ، إِذْ سَمِعْتُ يَهُودِيًّا بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ عَلَىٰ أُطُمَةٍ بِيَثْرِبَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، حَتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ، مَا لَكَ؟ قَالَ: طَلَعَ اللَّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدَ الَّذِي وُلِدَ بِهِ**» أَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ! قَالَ: «**نَعَمْ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ،

وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ...» وَالْحَدِيثُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ مَرَّ.

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ عَنِ ارْتِجَاسِ إِيوَانِ كِسْرَىٰ، وَسُقُوطِ الشُّرُفَاتِ، وَخُمُودِ نَارِ الْمَجُوسِ، وَرُؤْيَا الْمُوبَذَانِ[1]، وَأَنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدِّلَالَاتِ، فَلَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ.

***

(١) **الموبذان**: بضم الميم وفتح الباء، وقيل: بفتح الميم أيضا، وكسر الباء: فقيه الفرس، وحاكم المجوس، كقاضي القضاة للمسلمين. ينظر: الزبيدي: تاج العروس (٩/ ٤٩٣).

الْأَقْوَالُ فِي تَارِيخِ وِلَادَتِهِ ﷺ

وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَاسْتُنْبِئَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَرَجَ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَتُوُفِّيَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَرَفَعَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ فَقَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ- عَلَيَّ فِيهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي الثَّامِنِ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ -أَيْ: وُلِدَ ﷺ- وَذَلِكَ فِي عَامِ الْفِيلِ.

الْأَقْوَالُ فِي تَارِيخِ يَوْمِ وِلَادَتِهِ ﷺ كُلُّهَا مُعَلَّقَةٌ مِنْ دُونِ أَسَانِيدَ، فَلَا تَسْتَحِقُّ النَّظَرَ فِيهَا، إِلَّا قَوْلَ مَنْ قَالَ:إِنَّهُ الثَّامِنُ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنِ التَّابِعِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

لِذَلِكَ صَحَّحَ هَذَا الْقَوْلَ أَصْحَابُ التَّارِيخِ، وَاعْتَمَدُوهُ كَابْنِ فَارِسٍ فِي «أَوْجَزِ السِّيَرِ»، وَالْمُحِبِّ الطَّبَرِيِّ فِي «خُلَاصَةِ سِيرَةِ سَيِّدِ الْبَشَرِ»، وَحَكَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الِاسْتِيعَابِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَىٰ الْخُوَارَزْمِيِّ، وَنَقَلَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ» عَنِ الْخُوَارَزْمِيِّ أَنَّهُ قَطَعَ بِهِ، وَرَجَّحَهُ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ فِي

كِتَابِهِ «التَّنْوِيرِ فِي مَوْلِدِ الْبَشِيرِ»، وَاخْتَارَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَالْخِلَافُ قَائِمٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَمْ يُجْزَمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الْقَطْعِ بِشَيْءٍ.

عَنْ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ، فَنَحْنُ لِدَانِ، وُلِدْنَا مَوْلِدًا وَاحِدًا**».

وَلِدَانِ: أَيْ: وُلِدَا مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**وُلِدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ**» أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَقَدْ حَكَاهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِيُّ الْحِزَامِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ، وَخَلِيفَةُ بْنُ خَيَّاطٍ وَغَيْرُهُمَا حَكَوْهُ إِجْمَاعًا: أَنَّهُ وُلِدَ فِي عَامِ الْفِيلِ، وَمَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ، وَبِهِ جَزَمَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: «**فَلَمَّا وَلَدَتْ آمِنَةُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا تُوُفِّيَ أَبُوهُ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ».

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ قَالَ: «**تُوُفِّيَ أَبُو النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأُمُّهُ حُبْلَىٰ بِهِ**».

مَرَّ تَرْجِيحُ مَنْ رَجَّحَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَمِنْهُمْ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ: الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ أَنَّ الْمِيلَادَ كَانَ فِي الثَّامِنِ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ.

جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ -وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَهُمْ- عَلَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ فِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، الثَّانِي عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، مِنْ عَامِ الْفِيلِ.

فَوُلِدَ سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ مُحَمَّدٌ فِي شِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ؟- أَيْ: عَنْ صِيَامِهِ-، فَقَالَ: «**فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ**».

وَتَقَدَّمَ -أَيْضًا- قَوْلُ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ وُلِدَ، وَوُلِدَ الرَّسُولُ ﷺ عَامَ الْفِيلِ.

فَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ عَامَ الْفِيلِ.

وَأَمَّا تَحْدِيدُ الْيَوْمِ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ: فَالْمَشْهُورُ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ كَانَ فِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، الثَّانِي عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، مِنْ عَامِ الْفِيلِ، وَرَجَّحَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ اسْتِنَادًا لِمَا صَحَّ وَثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا وُلِدَ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ الْفِيلِ.

مَوْلِدُهُ ﷺ:

ظَهَرَتْ بَعْضُ الْعَلَامَاتِ عِنْدَ وِلَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ ذَلِكَ:

ظُهُورُ نُورٍ مِنْ أُمِّهِ ﷺ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ

الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ** -أَيْ: مُلْقًى عَلَىٰ الْأَرْضِ فِي طِينَتِهِ- **وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ أَخِي عِيسَىٰ**».

دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ: كَمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَأَمَّا بِشَارَةُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

«**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ أَخِي عِيسَىٰ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**».

وَرَوَىٰ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» -بِسَنَدٍ صَحِيحٍ- عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ! فَقَالَ ﷺ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ بُصْرَىٰ**».

وَبُصْرَىٰ: مِنْ أَرْضِ الشَّامِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ ﷺ إِشَارَةٌ إِلَىٰ

اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَثُبُوتِهِ بِبِلَادِ الشَّامِ؛ وَلِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَبِهَا يَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام إِذَا نَزَلَ بِدِمَشْقَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْبَيْضَاءِ مِنْهَا؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ قَوْلُهُ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ**»، وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: قَالَ مُعَاذٌ: «**وَهُمْ بِالشَّامِ**».

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: «هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ»، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ!!».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ»: «وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مُفَرَّقَةٌ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، فَمِنْهُمْ شُجْعَانٌ مُقَاتِلُونَ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاءُ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ، وَمِنْهُمْ زُهَّادٌ، وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ أَنْوَاعٍ أُخْرَىٰ مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ، بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ» يُرِيدُ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ.

وَالَّذِي انْتَهَىٰ إِلَيْهِ النَّوَوِيُّ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ.

مِنَ الْعَلَامَاتِ أَيْضًا الَّتِي ظَهَرَتْ عِنْدَ مِيلَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

ظُهُورُ النَّجْمِ: فَقَدْ رَوَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ -بِسَنَدٍ حَسَنٍ- عَنْ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: «**وَاللهِ، إِنِّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ ابْنُ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ أَعْقِلُ كُلَّ مَا سَمِعْتُ، إِذْ سَمِعْتُ يَهُودِيًّا يَصْرُخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ عَلَىٰ أُطُمٍ**

بِيَثْرِبَ -وَالْأُطُمُ: بِضَمِّ الْهَمْزَةِ: بِنَاءٌ مُرْتَفِعٌ كَالْحِصْنِ- يَصْرُخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ عَلَىٰ أُطُمٍ بِيَثْرِبَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، حَتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قَالُوا: وَيْلَكَ! مَا لَكَ! قَالَ: طَلَعَ اللَّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدَ الَّذِي وُلِدَ بِهِ».

وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّهُ ﷺ وَقَعَ رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَدْ رَوَىٰ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» -بِسَنَدٍ مُنْقَطِعٍ- عَنْ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «ثُمَّ وَضَعْتُهُ، فَمَا وَقَعَ كَمَا يَقَعُ الصِّبْيَانُ، وَقَعَ وَاضِعًا يَدَهُ بِالْأَرْضِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ». هَذَا -كَمَا مَرَّ- إِسْنَادُهُ مُنْقَطِعٌ.

وَهُنَاكَ عَلَامَاتٌ مَشْهُورَةٌ لَكِنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ، فَهَذِهِ الْعَلَامَاتُ الْمَذْكُورَةُ لَمْ تَثْبُتْ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ، وَلَكِنَّهَا مَشْهُورَةٌ، فَمِنْهَا:

أَنَّهُ وُلِدَ ﷺ فَارْتَجَّ إِيوَانُ كِسْرَىٰ، وَسَقَطَتْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً مِنْ إِيوَانِ كِسْرَىٰ، وَخَمَدَتِ النَّارُ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا الْمَجُوسُ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ، وَانْهَدَمَتِ الْمَعَابِدُ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَهَا، أَيْ: حَوْلَ الْبُحَيْرَةِ، أَخْرَجَ ذَلِكَ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ»، وَقَالَ: «وَهَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ غَرِيبٌ»، وَكَذَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ».

⁂

الْقَوْلُ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ ﷺ

وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتِيمًا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ الْفِيلِ عَلَىٰ الْمَشْهُورِ.

وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ يَتِيمًا: فَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ، قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَاخْتُلِفَ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ: هَلْ تُوُفِّيَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ، أَوْ تُوُفِّيَ بَعْدَ وِلَادَتِهِ؟ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ: أَصَحُّهُمَا: أَنَّهُ تُوُفِّيَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ -بَعْدَمَا ذَكَرَ أَقْوَالًا كَثِيرَةً فِي تَارِيخِ وَفَاةِ عَبْدِ اللهِ-: «وَالْأَوَّلُ أَثْبَتُ أَنَّهُ تُوُفِّيَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ».

قِيلَ - هَكَذَا عَلَىٰ التَّمْرِيضِ-: تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ وَهُوَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

يَوْمَ الِاثْنَيْنِ: كَمَا رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ فَقَالَ: «**ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ- عَلَيَّ فِيهِ**».

قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا تَارِيخُ يَوْمِ الْوِلَادَةِ: فَقَدْ ذُكِرَ فِيهِ وَفِي شَهْرِهِ أَقْوَالٌ ذَكَرَهَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْأَصْلِ» -يَعْنِي فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ- فَكَلَامُ الْأَلْبَانِيِّ هَذَا

فِي صَحِيحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، قَالَ: «ذَكَرَهَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْأَصْلِ، وَكُلُّهَا مُعَلَّقَةٌ بِدُونِ أَسَانِيدَ، يُمْكِنُ النَّظَرُ فِيهَا، وَوَزْنُهَا بِمِيزَانِ عِلْمِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ، إِلَّا قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي الثَّامِنِ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ رَوَاهُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ جَلِيلٌ؛ وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ صَحَّحَ هَذَا الْقَوْلَ أَصْحَابُ التَّارِيخِ وَاعْتَمَدُوهُ، وَقَطَعَ بِهِ الْحَافِظُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَىٰ الْخُوَارَزْمِيُّ، وَرَجَّحَهُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ، وَالْجُمْهُورُ -هَذَا كَلَامُ الْعَلَّامَةِ الْأَلْبَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ- وَالْجُمْهُورُ: عَلَىٰ أَنَّهُ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْهُ -أَيْ: مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ الْفِيلِ-.

***



حَادِثَةُ الْفِيلِ

رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ سَعْدٍ، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي عَامِ الْفِيلِ**».

سُمِّيَ بِعَامِ الْفِيلِ؛ لِوُقُوعِ حَادِثَةِ الْفِيلِ الْمَشْهُورَةِ فِيهِ، وَالَّتِي قَادَ فِيهَا أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ الْحَبَشِيُّ، نَائِبُ النَّجَاشِيِّ عَلَىٰ الْيَمَنِ، قَادَ فِيهَا بِفِيلِهِ الْعَظِيمِ جَيْشَهُ الْعَرَمْرَمَ؛ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!! فَمَا قُوَّةُ أَبْرَهَةَ بِفِيلِهِ الْعَظِيمِ، وَجَيْشِهِ الْعَرَمْرَمِ الْكَبِيرِ بِجِوَارِ قُوَّةِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ!

فَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَاهُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ؛ فَهُمْ لَا يُعْجِزُونَهُ.

فَمَا أَنْ وَصَلَ أَبْرَهَةُ إِلَىٰ وَادِي مُحَسِّرٍ بَيْنَ مُزْدَلِفَةَ وَمِنًىٰ حَتَّىٰ بَرَكَ الْفِيلُ وَعَجَزَ عَنِ الْحَرَكَةِ إِلَّا لِوِجْهَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ وِجْهَةِ الْكَعْبَةِ، وَهُنَاكَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْبَيْتِ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ:

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قَالَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حِينَ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ:

أَيْــنَ الْمَفَــرُّ وَالْإِلَــهُ الطَّالِــبُ ... وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ الْقِصَّةِ بِسِيَاقِهَا، وَكَيْفَ كَانَ مَوْقِفُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْهَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، رَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّ نُورًا خَرَجَ مِنْهَا، أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَىٰ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ**» الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ، هِيَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ..﴾ الْآيَةَ [البقرة: ١٢٩].

وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

«**رَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّ نُورًا خَرَجَ مِنْهَا أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَىٰ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ**» هَذَا لَفْظُ الْحَاكِمِ، وَابْنُ إِسْحَاقَ.

أَمَّا لَفْظُ ابْنِ سَعْدٍ فَفِيهِ: «**رَأَتْ أُمِّي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**».

وَلِذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي وَقْتِ خُرُوجِ هَذَا النُّورِ: أَكَانَ عِنْدَ الْحَمْلِ؟ أَمْ عِنْدَ الْوِلَادَةِ؟

وَفَسَّرَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا النُّورَ بِأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا يَجِيءُ بِهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي اهْتَدَىٰ بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَزَالَ بِهِ ظُلْمَةُ الشِّرْكِ مِنْهَا.

هُوَ لَا يُؤَوِّلُ، وَإِنَّمَا يَقُولُ إِنَّ هَذَا النُّورَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا يَجِيءُ بِهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي اهْتَدَىٰ بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ وَزَالَ بِهِ ظُلْمَةُ الشِّرْكِ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَنُبُوَّتِهِ بِبِلَادِ الشَّامِ؛ وَلِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَنْزِلُ بِهَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ إِذَا نَزَلَ بِدِمَشْقَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْبَيْضَاءِ مِنْهَا...». «وَفِيهَا -كَمَا قَالَ مُعَاذٌ بِعَقِبِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- تَكُونُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ».

مِمَّا وَقَعَ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ أَيْضًا: مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ حَسَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَا كَانَ مِنْ إِعْلَانِ الْيَهُودِيِّ بِطُلُوعِ نَجْمِ أَحْمَدَ ﷺ الَّذِي وُلِدَ بِهِ.

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذِكْرُ ارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ وَسُقُوطِ الشُّرُفَاتِ، وَخُمُودِ النِّيرَانِ- يَعْنِي نِيرَانَ الْمَجُوسِ- وَرُؤْيَا الْمُوبَذَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدِّلَالَاتِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

وُلِدَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ بِشِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ بِمَكَّةَ، فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ الثَّامِنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، لِأَوَّلِ عَامٍ مِنْ حَادِثَةِ الْفِيلِ، كَمَا ذَهَبَ لِذَلِكَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ، أَوْ فِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً خَلَتْ مِنْ مُلْكِ كِسْرَىٰ (أَنُو شِرْوَانَ)، وَيُوَافِقُ ذَلِكَ عِشْرِينَ أَوِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أَبْرِيلَ، سَنَةَ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ، حَسْبَمَا حَقَّقَ ذَلِكَ مَحْمُود بَاشَا الْفَلَكِيُّ، وَالْعَلَّامَةُ الْمَنْصُورفُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يَعْنِي فِي الْمُوَافَقَةِ لِلتَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ، فِي الْعِشْرِينَ أَوِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أَبْرِيلَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

رُوِيَتْ إِرْهَاصَاتٌ بِالْبَعْثَةِ، وَقَعَتْ عِنْدَ الْمِيلَادِ، لَيْسَ لِذَلِكَ إِسْنَادٌ ثَابِتٌ، وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ تَارِيخُ تِلْكَ الْأُمَمِ مَعَ قُوَّةِ دَوَاعِي التَّسْجِيلِ؛ يَعْنِي لَيْسَ فِي تَارِيخِ الْفُرْسِ الَّذِي قِيلَ مِنْ سُقُوطِ الشُّرُفَاتِ، وَارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ، وَلَوْ وَقَعَ لَدُوِّنَ؛ فَالدَّوَاعِي لِتَسْجِيلِ ذَلِكَ قَوِيَّةٌ، فَلَيْسَ لِذَلِكَ إِسْنَادٌ ثَابِتٌ، وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ تَارِيخُ تِلْكَ الْأُمَمِ مَعَ قُوَّةِ دَوَاعِي التَّسْجِيلِ!

لَمَّا وَلَدَتْ أُمُّهُ أَرْسَلَتْ إِلَىٰ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ تُبَشِّرُهُ بِحَفِيدِهِ، فَجَاءَ مُسْتَبْشِرًا، وَدَخَلَ بِهِ الْكَعْبَةَ، وَدَعَا اللهَ وَشَكَرَ لَهُ، وَاخْتَارَ لَهُ اسْمَ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا الِاسْمُ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي الْعَرَبِ، وَخَتَنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، كَمَا كَانَ الْعَرَبُ يَفْعَلُونَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا! وَسَيَأْتِي بَحْثٌ إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ فِي ذَلِكَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَعْنِي أَنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا: «لَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ».

أَوَّلُ مَنْ أَرْضَعَتْهُ مِنَ الْمَرَاضِعِ بَعْدَ أُمِّهِ ﷺ بِأُسْبُوعٍ أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ: ثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ بِلَبَنِ ابْنٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مَسْرُوحٌ، وَكَانَتْ قَدْ أَرْضَعَتْ قَبْلَهُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَرْضَعَتْ بَعْدَهُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيَّ؛ فَهُمْ إِخْوَةٌ مِنَ الرَّضَاعِ -النَّبِيُّ ﷺ، وَحَمْزَةُ، وَأَبُو سَلَمَةَ- أَرْضَعَتْهُمْ جَمِيعًا ثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ بِلَبَنِ ابْنٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مَسْرُوحٌ.





أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ

لِلنَّبِيِّ ﷺ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ: مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ، وَهَذَانِ الاِسْمَانِ وَرَدَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ، وَالْمَاحِي الَّذِي يُمْحَىٰ بِهِ الْكُفْرُ، وَالْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ؛ أَيْ: أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ أَثَرِهِ وَزَمَانِ نُبُوَّتِهِ، أَوْ إِشَارَةٌ إِلَىٰ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْعُظْمَىٰ أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ، وَلَا يُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ يَشْفَعَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقْبَلَ اللهُ شَفَاعَتَهُ دُونَ سَائِرِ الْخَلْقِ.

وَالْعَاقِبُ الَّذِي جَاءَ عَقِبَ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَ هُوَ الْآخِرُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَاتَمِ، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ: الْمَاحِي وَالْحَاشِرُ وَالْعَاقِبُ، جَاءَتْ فِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَثَبَتَ اسْمُ الْحَاشِرِ -أَيْضًا- عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي «شَمَائِلِ النُّبُوَّةِ» وَغَيْرِهِ.

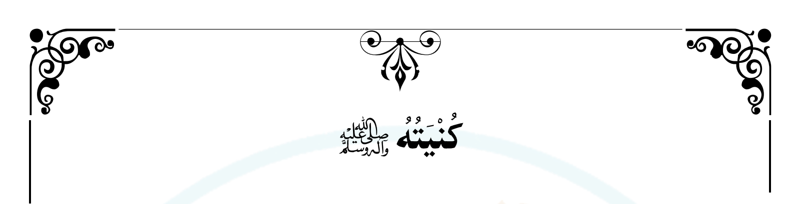
وَالْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَلَا يَبْعُدُ عَنْ مَعْنَىٰ الْعَاقِبِ: الْمُقَفِّي؛ فَهُوَ الَّذِي قَفَّىٰ بِهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الرُّسُلَ فَهُوَ آخِرُهُمْ وَخَاتَمُهُمْ.

وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، وَالْمُقَفِّي، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ؛ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ: الَّذِي فَتَحَ اللهُ بِهِ بَابَ التَّوْبَةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ: الَّذِي بُعِثَ بِجِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ، وَهَذَا الِاسْمُ ثَابِتٌ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الشَّمَائِلِ»، وَالْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ»، وَالْبَزَّارُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِهِ.

●●●



كُنْيَتُه ﷺ

وَكُنْيَتُهُ ﷺ: أَبُو الْقَاسِمِ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَهُ قَاسِمًا بَيْنَ النَّاسِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَهَذِهِ الْكُنْيَةُ مِنْ خَصَائِصِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ، هَذَا قَوْلٌ؛ لِذَلِكَ نَهَىٰ عَنِ التَّكَنِّي بِهَا، عَلَىٰ حِينِ أَبَاحَ التَّسَمِّيَ بِاسْمِهِ ﷺ.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**نَادَىٰ رَجُلٌ رَجُلًا بِالْبَقِيعِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَمْ أَعْنِكَ، إِنَّمَا دَعَوْتُ فُلَانًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي، وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**»، وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ يَقَعُ عَلَىٰ الْجَمْعِ بَيْنَ أَنْ يَتَسَمَّىٰ بِاسْمِهِ، وَيَتَكَنَّىٰ بِكُنْيَتِهِ، فَقَالُوا: هَذَا لَا يَجُوزُ، وَبَيْنَ أَنْ يُفْرَدَ الْكُنْيَةُ وَحْدَهَا، فَهَذَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

أَبُو الْقَاسِمِ: كُنْيَتُهُ؛ «**لَا أُعْطِيكُمْ، وَلَا أَمْنَعُكُمْ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**».

فَهُوَ أَبُو الْقَاسِمِ: «**أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ**»، وَالْقَاسِمُ أَكْبَرُ أَبْنَائِهِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «مَاتَ الْقَاسِمُ طِفْلًا، وَقِيلَ: عَاشَ إِلَىٰ أَنْ رَكِبَ الدَّابَّةَ، وَسَارَ عَلَىٰ النَّجِيبَةِ».

●●●

مَعَانِي أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ

النَّبِيُّ ﷺ لَهُ أَسْمَاءٌ، مَرَّ ذِكْرُ بَعْضِهَا: أَحْمَدُ، وَمُحَمَّدٌ، وَالْمَاحِي، وَالْحَاشِرُ، وَالْعَاقِبُ، وَالْمُقَفِّي، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَالْمُتَوَكِّلُ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **«أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾** [الأحزاب: ٤٥]**، قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»** وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي الصَّحِيحِ: «سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ -الْمَاحِي، وَالْحَاشِرُ، وَالْعَاقِبُ، وَالْمُقَفِّي، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَالْمُتَوَكِّلُ- قَالَ: «كُلُّهَا نُعُوتٌ، لَيْسَتْ أَعْلَامًا مَحْضَةً لِمُجَرَّدِ التَّعْرِيفِ، بَلْ أَسْمَاءٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتٍ قَائِمَةٍ بِهِ، تُوجِبُ لَهُ الْمَدْحَ وَالْكَمَالَ».

هَذَا، وَقَدْ ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ حَتَّىٰ أَوْصَلَهَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ أَلْفِ اسْمٍ،

وَهَذِهِ يُعْرَضُ عَنْهَا؛ لِضَعْفِ أَدِلَّتِهَا وَعَدمِ ثُبُوتِهَا، وَنُسَمِّيهِ ﷺ بِمَا سَمَّاهُ اللهُ بِهِ.

وَأَمَّا الصِّفَاتُ؛ فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ﷺ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ**» الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِ تَعْقِيبٌ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنْ أَسْمَائِهِ: «**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ**»، أَشْهَرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ: مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ وَرَدَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْخَمْسَةَ مِمَّا خُصَّ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، أَمَّا غَيْرُهَا فَقَدْ يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَمِمَّا وَقَعَ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي الْقُرْآنِ بِالِاتِّفَاقِ -وَهَذَا يُرْجَعُ فِيهِ إِلَىٰ كَلَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا «نُعُوتٌ لَيْسَتْ أَعْلَامًا مَحْضَةً لِمُجَرَّدِ التَّعْرِيفِ؛ بَلْ أَسْمَاءٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتٍ قَائِمَةٍ بِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَدْحَ وَالْكَمَالَ»-:

الشَّاهِدُ، وَالْمُبَشِّرُ، وَالنَّذِيرُ، وَالْمُبِينُ، وَالدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ، وَالسِّرَاجُ الْمُنِيرُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وَفِيهِ أَيْضًا: الْمُذَكِّرُ، وَالرَّحْمَةُ، وَالنِّعْمَةُ، وَالْهَادِي، وَالشَّهِيدُ، وَالْأَمِينُ وَالْمُزَّمِّلُ، وَالْمُدَّثِّرُ، وَالرَّءُوفُ، وَالرَّحِيمُ.

وَمِمَّا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ**».

وَمِنْ أَسْمَائِهِ: الْمُخْتَارُ، وَالْمُصْطَفَىٰ، وَالشَّفِيعُ الْمُشَفَّعُ، وَالصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَكَانَ بَعْضُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا حَدَّثَ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثَنِي الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ» إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ صِفَاتٍ جَلِيلَةٍ وَخُصُوصِيَّاتٍ مُنِيفَةٍ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ فِي تَصْنِيفٍ لَهُ فِي الْأَسْمَاءِ النَّبَوِيَّةِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا عَدَدُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ..» ثُمَّ قَالَ: «وَلَوْ بَحَثَ عَنْهَا بَاحِثٌ لَبَلَغَتْ ثَلَاثَمِئَةِ اسْمٍ»، وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الْمَذْكُورِ أَمَاكِنَهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَخْبَارِ، وَضَبَطَ أَلْفَاظَهَا وَشَرَحَ مَعَانِيَهَا، وَاسْتَطْرَدَ كَمَا هِيَ عَادَتُهُ إِلَىٰ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، وَالْحَقُّ- كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ- أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرُوهَا هِيَ أَوْصَافٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ سَبَقَهُ لِذَلِكَ؛ وَرُبَّمَا أَخَذَهُ عَنْهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ.

وَلَمْ يَرِدِ الْكَثِيرُ مِنْهَا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّسْمِيَةِ، وَذَلِكَ مِثْلُ عَدِّهِمُ اللَّبِنَةَ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِاللَّبِنَةِ؛ «**وَأَنَا اللَّبِنَةُ**»، يَعْنِي الَّتِي كُمِّلَ بِهَا الْبِنَاءُ، فَعَدُّوا هَذَا مِنْ أَسْمَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: مِنْ أَسْمَائِهِ: اللَّبِنَةُ، وَعَدِّهِمُ: الْهَادِيَ، وَالْمُذَكِّرَ، وَكَذَا الْمُخْتَارَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ!

أَمَّا مُحَمَّدٌ: فَاسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ التَّحْمِيدِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ يُقَالُ: حَمَّدَهُ إِذَا نَسَبَهُ إِلَىٰ

كَثْرَةِ الْمَحَامِدِ، وَكَثْرَةِ الْفَضَائِلِ، أَوْ هُوَ الَّذِي حُمِدَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ، كَالْمُمَدَّحِ قَالَ الْأَعْشَىٰ:

إِلَيْكَ -أَبَيْتَ اللَّعْنَ- كَانَ وَجِيفُهَا ... إِلَىٰ الْمَاجِدِ الْقِرْنِ الْجَوَادِ الْمُحَمَّدِ

وَرَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ اجْتَمَعَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ؛ فَقَدْ تَكَامَلَتْ فِيهِ الْخِصَالُ الْمَحْمُودَةُ، وَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ الْعَظِيمَةُ، وَلَا تَنْفَكُّ أُلُوفُ الْأُلُوفِ، بَلْ مِئَاتُ الْأُلُوفِ الْأُلُوفِ، بَلِ الْمَلَايِينُ تَلْهَجُ بِحَمْدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ لَدُنْ مَبْعَثِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً؛ فَإِنَّهُمْ يَلْهَجُونَ بِحَمْدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ لَدُنْ مَبْعَثِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَفِي الْمَحْشَرِ حِينَمَا يَشْفَعُ لِلنَّاسِ، وَيُرِيحُهُمْ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ يَحْمَدُهُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَقَدْ نَوَّهَ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَالْخَصِيصَةِ الظَّاهِرَةِ فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فَمَنِ الَّذِي يُحْصِي الَّذِينَ سَيَحْمَدُونَهُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ؟!

وَهَذَا الِاسْمُ الْكَرِيمُ أَشْهَرُ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ، وَأَذْكَرُهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الِاسْمُ مَشْهُورًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَسَمَّىٰ بِهِ بَعْضُ الْعَرَبِ قُرْبَ مِيلَادِهِ؛ لَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ آخِرَ الزَّمَانِ يُسَمَّىٰ: مُحَمَّدًا؛ فَسَمَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَذَا الِاسْمِ؛ رَجَاءَ ذَلِكَ، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: «وَهُمْ

سِتَّةٌ لَا سَابِعَ لَهُمْ، هُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ أُحَيْحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ الْأَوْسِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ بَرَاءٍ الْبَكْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمْرَانَ الْجُعْفِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ خُزَاعِيٍّ السُّلَمِيُّ».

قَالَ: «لَا سَابِعَ لَهُمْ».

يُقَالُ: أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ مُحَمَّدًا: مُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ، وَالْيَمَنُ تَقُولُ: بَلْ مُحَمَّدُ بْنُ الْيَحْمَدِ مِنَ الْأَزْدِ.

وَقَدْ تَعَقَّبَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْقَاضِيَ عِيَاضًا فِي عَدِّهِ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَقَالَ: «إِنَّهُ غَلَطٌ؛ فَإِنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ مِيلَادِ النَّبِيِّ ﷺ بِمُدَّةٍ».

فَهَذَا كَلَامُ الْقَاضِي عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «هُمْ سِتَّةٌ سُمُّوا بِمُحَمَّدٍ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ لَا سَابِعَ لَهُمْ».

قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي «الرَّوْضِ الْأُنُفِ»: «لَا يُعْرَفُ مَنْ تَسَمَّىٰ قَبْلَ النَّبِيِّ بِهَذَا الِاسْمِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، هُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أُحَيْحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمْرَانَ بْنِ رَبِيعَةَ».

وَالَّذِي حَقَّقَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّهُ تَسَمَّىٰ بِهَذَا الِاسْمِ خَمْسَةَ عَشَرَ شَخْصًا، فَلَمَّا وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَلْهَمَ اللهُ جَدَّهُ بِهَذَا الِاسْمِ؛ تَحْقِيقًا لِمَا سُبِقَ بِهِ عِلْمُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَمَّا أَحْمَدُ: فَهُوَ (أَفْعَلُ) تَفْضِيلٍ؛ أَيْ: أَكْثَرُ النَّاسِ حَمْدًا، فَهُوَ عَلَمٌ مَنْقُولٌ

مِنْ صِفَةٍ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ فِي الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ بِمَحَامِدَ لَمْ يُفْتَحْ بِهَا عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلَهُ، وَالْأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حَمَّادُونَ، وَهُوَ أَحْمَدُهُمْ، أَيْ: أَكْثَرُهُمْ حَمْدًا، أَوْ أَعْظَمُهُمْ فِي صِفَةِ الْحَمْدِ.

هُوَ صَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ ﷺ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الِاتِّصَافِ بِالْمَحَامِدِ وَالْفَضَائِلِ، وَالْغَايَةَ فِي حَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَشُكْرِهِ عَلَىٰ نَعْمَائِهِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الِاسْمُ فِي الْقُرْآنِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي تَبْشِيرِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُبَشِّرِينَ وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ أَحْمَدُ، وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ، وَكَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَمَا أَلْهَمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْحَدِيثَ؛ إِذْ هُوَ يَقْتَلِعُ الشُّبْهَةَ مِنْ أَسَاسِهَا؛ فَهُوَ مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ.

وَأَمَّا الْمَاحِي: فَقَدْ وَرَدَ تَفْسِيرُهُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ الَّذِي مَحَا اللهُ بِهِ الشِّرْكَ، وَالْعَقَائِدَ الْوَثَنِيَّةَ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَأَمَّا غَيْرُ مَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ ذَلِكَ فَيَقُولُ: هَذَا الْحَدِيثُ يُتْرَكُ عَلَىٰ عُمُومِهِ، يَعْنِي عَلَىٰ أَنَّهُ يَمْحُو الشِّرْكَ مِنْ عُمُومِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا مَحَا اللهُ بِهِ الشِّرْكَ وَالْعَقَائِدَ الْوَثَنِيَّةَ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَهَذَا تَقْيِيدٌ، إِطْلَاقُهُ أَنَّ الْكُفْرَ عِنْدَ مَبْعَثِهِ يَكَادُ يَكُونُ عَامًّا فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُونَ كَالْحَنِيفِيِّينَ، وَأَهْلِ الْأَدْيَانِ الَّذِينَ لَمْ

يُحَرِّفُوا وَلَمْ يُبَدِّلُوا، وَيَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّ اللهَ مَحَا بِهِ مُعْظَمَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، وَأَصْبَحَ مُعْظَمُ النَّاسِ مُؤْمِنِينَ مُوَحِّدِينَ؛ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يُفَارِقِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ صَارَتِ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا مُؤْمِنَةً مُوَحِّدَةً، وَحَمَلَ أَصْحَابُهُ الرِّسَالَةَ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمْ يَمْضِ قَرْنٌ مِنَ الزَّمَانِ -أَوْ أَقَلُّ- حَتَّىٰ صَارَ مُعْظَمُ الدُّنْيَا الْمَعْرُوفَةِ آنَئِذٍ مِنَ الْمُحِيطِ إِلَىٰ الْمُحِيطِ يُذْكَرُ عَلَىٰ مَآذِنِهَا تَوْحِيدُ اللهِ فِي الْيَوْمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ.

وَالْحَاشِرُ: فُسِّرَ -أَيْضًا- فِي الْحَدِيثِ، وَمَعْنَىٰ «**عَلَىٰ قَدَمِي**»: أَيْ: عَلَىٰ أَثَرِي، وَهُوَ يُوَافِقُ قَوْلَهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: «**وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ عَقِبِي**» -أَوْ: **عَلَىٰ عَقِبَيَّ**؛ أَيْ: أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ**».

وَأَمَّا الْعَاقِبُ: فَقَدْ وَرَدَ تَفْسِيرُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: «**وَأَنَا الْعَاقِبُ**»: مَا بَعْدَهُ نَبِيٌّ؛ فَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.

لَا شَكَّ أَنَّ اصْطِفَاءَ اللهِ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَأَنَّ مَوْلِدَهُ كَانَ خَيْرًا لِلْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، وَبِهِ اسْتَبْشَرَ الْكَوْنُ كَمَا قَالَ شَوْقِي:

وُلِدَ الْهُدَىٰ؛ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ... وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

●●●



حُكْمُ الاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِهِ ﷺ

وَلَكِنْ هَلْ نَجعَلُ لِوَقْتِ هَذَا الْمَوْلِدِ مَزِيَّةً عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْقَاتِ؛ فَنَحْتَفِلُ بِهِ كُلَّ عَامٍ، وَنَجْعَلُ مِنْهُ مُنَاسَبَةً دِينِيَّةً لَهَا طُقُوسُهَا وَاحْتِفَالَاتُهَا؟

هَذَا مَا يَنْهَىٰ عَنْهُ عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ الْمُحَقِّقُونَ لِأُمُورٍ مِنْهَا:

* أَنَّ هَذَا يَدْخُلُ فِي أُمُورِ الْعِبَادَةِ، وَالْعِبَادَةُ تَوْقِيفِيَّةٌ؛ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ نَصٍّ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إِجْمَاعٍ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ، بَلْ تُعَارِضُهُ النُّصُوصُ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا فِي «صَحِيحِهِ».

* وَأَيْضًا: لِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَشَبُّهًا بِأَهْلِ الْكِتَابِ الثَّانِي فِي الِاحْتِفَالِ بِعِيدِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ نَهَىٰ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ**».

وَفِي الْمَوْلِدِ يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ الْمُحْتَفِلِينَ إِطْرَاءٌ، وَمَدْحٌ لِلرَّسُولِ ﷺ بِمَا لَا يَلِيقُ إِلَّا بِاللهِ، كَمَا فِي قَصِيدَةِ (الْبُوصِيرِيِّ) الَّتِي تُرَدَّدُ -غَالِبًا- فِي الْمَوْلِدِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

يَا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُدُوثِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

فَـإِنَّ مِـنْ جُـودِكَ الـدُّنْيَا وَضَـرَّتَهَا وَمِـنْ عُلُومِـكَ عِلْـمُ اللَّـوْحِ وَالْقَلَـمِ

فَجَعَلَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، عِلْمَ الْغَيْبِ، جَعَلَهُ مِنْ عُلُومِهِ!!

فَـ(مِنْ): هَاهُنَا لِلتَّبْعِيضِ، «وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ»!!

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْبَغْدَادِيُّ فِي دِيوَانِهِ:

ذَهَابًـا ذَهَابًـا يَـا عُصَـاةً لِأَحْمَـدِ وَلُـوذُوا بِـهِ مِمَّـا جَـرَىٰ وَتَعَـوَّذُوا

ذُنُـوبُكُمُ تُمْحَـىٰ وَتُعْطَـوْنَ جَنَّـةً بِهَـا دُرَرٌ حَصْـبَاؤُهَا وَزُمُـرُّدُ

فَيَكُونُ فِي الْإِطْرَاءِ وَالْمَدْحِ مَا يُخَالَفُ بِهِ أَصْلُ الِاعْتِقَادِ وَأَصْلُ الشَّرِيعَةِ.

* وَأَيْضًا: فَأَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حُبًّا لَهُ، وَأَشَدُّ النَّاسِ اتِّبَاعًا لِسُنَّتِهِ ﷺ؛ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُقِيمُوا الِاحْتِفَالَ!

* كَذَلِكَ لَمْ يَفْعَلْهُ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ بَلْ أُحْدِثَ هَذَا فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَهُ حُكَّامُ الدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ الَّتِي يُدَّعَىٰ أَنَّهَا الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مِصْرَ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ، وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ ضَلَالِ مَذْهَبِ حُكَّامِ الدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ؛ أَيِ: الْفَاطِمِيَّةِ.

* أَيْضًا: أَنَّ تَعْظِيمَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَحَبَّتَهُ يَكْمُنُ فِي اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ النَّبِيِّ عَلَيْنَا أَنْ نَقْصُرَ حَقَّهُ وَتَعْظِيمَهُ وَتَذَكُّرَهُ عَلَىٰ يَوْمٍ وَاحِدٍ فِي السَّنَةِ.

وَإِذَا كَانَ اخْتِيَارُ تَارِيخ مَوْلِدِ الرَّسُولِ ﷺ لِلِاحْتِفَالِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ حَادِثٍ فِي حَيَاتِهِ، فَهَذَا لَيْسَ مُسَلَّمًا بِهِ؛ فَنُزُولُ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ﷺ، وَبَعْثَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ مَوْلِدِهِ؛ فَمَوْلِدُهُ أَدْخَلَهُ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَبْعَثُهُ أَدْخَلَهُ فِي عَالَمِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَمَقَامُهُمَا أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ.

كَمَا أَنَّ حَدَثَ الْهِجْرَةِ: بِهِ أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ، وَأَقَامَ دَوْلَتَهُ، وَقَدِ اخْتَارَهُ الصَّحَابَةُ دُونَ مَوْلِدِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِيَكُونَ حَدَثًا يُؤَرِّخُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ؛ فَاخْتِيَارُ الْمَوْلِدِ جَاءَ مُتَابِعًا لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي اخْتِيَارِهِمْ مَوْلِدَ عِيسَىٰ عليه السلام.

يَسْتَدِلُّ مَنْ يَحْتَفِلُ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ بِالْحَدِيثِ الَّذِي سُئِلَ فِيهِ ﷺ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، فَقَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ أُنْزِلَ، عَلَيَّ فِيهِ**».

وَفِي الْحَقِيقَةِ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ؛ لِأُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَصَّ عَلَىٰ فَضِيلَةِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، وَلَيْسَ تَارِيخَ يَوْمِ الْوِلَادَةِ أَوِ الْمَبْعَثِ، فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا عَلَىٰ الْمَوْلِدِ يَلْزَمُهُ الِاحْتِفَالُ بِكُلِّ يَوْمِ اثْنَيْنِ!

ثَانِيًا: أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ شَرُفَ بِالْوِلَادَةِ وَالْبَعْثَةِ؛ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَحْتَفِلُوا بِالْمَبْعَثِ كَمَا يَحْتَفِلُونَ بِالْمِيلَادِ!

ثَالِثًا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَرَ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ الِاثْنَيْنِ الَّذِي وُلِدَ، وَبُعِثَ فِيهِ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِالِاحْتِفَالِ بِهِ؛ فَخَيْرٌ لِمَنْ يَنْتَظِرُ الْعَامَ كُلَّهُ؛ لِيَحْتَفِلَ بِمَوْلِدِ الرَّسُولِ ﷺ

فِي يَوْمٍ أَنْ يَصُومَ كُلَّ اثْنَيْنِ.

فَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ، وَهَذَا أَصْدَقُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ.

مِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمُحْتَفِلِينَ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ لَيْسُوا سَوَاءً، فَمَنْ يَكُونُ فِي احْتِفَالِهِمْ شِرْكِيَّاتٌ بِالْغُلُوِّ فِي الرَّسُولِ ﷺ، وَادِّعَاءِ حُضُورِهِ مَجَالِسَهُمْ أَشَدُّ إِثْمًا مِمَّنْ يَكُونُ فِي احْتِفَالِهِمُ الْمَزَامِيرُ وَالرَّقْصُ!

وَلَا يُسَاوَىٰ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْ يَقْصُرُ احْتِفَالَهُ عَلَىٰ سَرْدِ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ!

فَهَذَا -أَيْضًا- وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَالَّذِي يَقَعُ فِيهِ الشِّرْكُ، وَمَا أَشْبَهَ!

فَيُقَدَّرُ لِلْمُخْلِصِينَ مِنْهُمْ حُبُّهُمْ، وَتَعْظِيمُهُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُمْ أَخْطَئُوا فِي وَسِيلَةِ التَّعْبِيرِ عَنْ ذَلِكَ الْحُبِّ بِمُخَالَفَتِهِمُ الصَّحَابَةَ، وَسَلَفَ الْأُمَّةِ بِتَخْصِيصِ هَذَا الْيَوْمِ مِنَ السَّنَةِ بِأَعْمَالٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ كَمُشَابَهَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَالسَّيْرِ عَلَىٰ نَهْجِ الْفِرَقِ الْمُنْحَرِفَةِ.

إِذَنْ: لَيْسُوا سَوَاءً، وَهَذَا نَافِعٌ فِي الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَجْعَلُ الْأَمْرَ وَاحِدًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ!!

بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَجْتَمِعُونَ يَقْرَءُونَ السِّيرَةَ، لَوْ نُبِّهُوا لَتَنَبَّهُوا، وَلَوْ أُرْشِدُوا

مِنَ الْمُسْتَرْشِدِ لَأَخَذُوا سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَتَجَنَّبُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ!

وَلَا يُقْصَدُ هُنَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ كُلِّهِ التَّقْلِيلُ مِنْ عَظَمَةِ حَدَثِ مَوْلِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا مِنْ فَرْحَةِ الْمُسْلِمِ بِالْأَحْدَاثِ الْعِظَامِ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَيَّامِ انْتِصَارِهِمْ، بَلْ إِنَّ الْهَدَفَ مِنْ دِرَاسَةِ التَّارِيخِ: الْوُقُوفُ عِنْدَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْعَظِيمَةِ، وَأَخْذُ الْعِبْرَةِ مِنْهَا، وَحَفْزُ الْهِمَمِ بِتَذَكُّرِهَا وَالْإِفَادَةِ مِنْهَا.

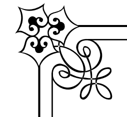
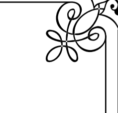
وَهَذَا لَا يَكُونُ عِنْدَمَا نَحْصُرُ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ مُحَدَّدٍ بِيَوْمِ الْحَادِثَةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَصُوغَ عَلَيْهِ أَهْدَافَنَا، وَنَصْبغَ بِهِ حَيَاتَنَا؛ فَمَحَبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ وَتَذَكُّرُهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ لَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْعَامِ فَقَطْ.

وَتَقْدِيمُ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ هَوَىٰ النَّفْسِ، وَالسَّيْرُ عَلَىٰ سُنَّتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا أَصْدَقُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَحَبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الْحِرْصِ عَلَىٰ حُضُورِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تُحْيَىٰ بِالْأَنَاشِيدِ، وَالضَّرْبِ بِالدُّفُوفِ، وَالْمَزَامِيرِ!!!

وَقَدْ يَكُونُ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ إِحْيَائِهَا مُخَالِفًا لِلسُّنَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ!!

فَالْأَصْلُ: فِي الِاقْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ.



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْقَوْلُ فِي خِتَانِ النَّبِيِّ ﷺ

وَأَمَّا خِتَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: الْخِتَانُ: بِكَسْرِ الْخَاءِ وَفَتْحِ التَّاءِ، مَصْدَرُ خَتَنَ أَيْ: قَطَعَ، وَالْخَتْنُ: بِفَتْحِ الْخَاءِ، قَطْعُ بَعْضٍ مَخْصُوصٍ مِنْ عُضْوٍ مَخْصُوصٍ.

خِتَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّحِيحُ فِيهِ: أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ جَدَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَتَنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ.

أَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الِاسْتِيعَابِ»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ خَتَنَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَجَعَلَ لَهُ مَأْدُبَةً».

وَمَالَ كَمَالُ الدِّينِ بْنُ الْعَدِيمِ، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ إِلَىٰ هَذَا؛ مِنْ أَنَّهُ خُتِنَ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَىٰ يَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةَ الْعَرَبِ.

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا، فَكُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، مِنْهَا:

* مَا رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» -بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ- عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَىٰ رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي».

ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ كَمَا فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ»، وَكَذَلِكَ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ».

وَأَيْضًا ضَعَّفَهُ قَبْلَهُ أَقْوَامٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَهَذَا حَدِيثٌ ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ.

وَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ فِي «طَبَقَاتِهِ» -بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ- عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا».

مَا مَعْنَىٰ مَسْرُورًا؟

أَيْ: مَقْطُوعَ الْحَبْلِ السُّرِّيِّ، لَيْسَ مِنَ السُّرُورِ، وَإِنَّمَا وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا؛ أَيْ: مَقْطُوعَ الْحَبْلِ السُّرِّيِّ، قَالَ: «فَأَعْجَبَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ، وَقَالَ: لَيَكُونَنَّ لِابْنِي هَذَا شَأْنٌ». ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيْسَ إِسْنَادُ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ هَذَا بِالْقَائِمِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ: «وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي صِحَّتِهِ نَظَرٌ، وَقَدِ ادَّعَىٰ بَعْضُهُمْ صِحَّتَهُ؛ لِمَا وَرَدَ لَهُ مِنَ الطُّرُقِ، حَتَّىٰ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُتَوَاتِرٌ، وَفِي هَذَا كُلِّهِ نَظَرٌ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُقَالُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا، وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْمَوْضُوعَاتِ»، وَلَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُولَدُ مَخْتُونًا».

بَلْ إِنَّ مِمَّنْ وُلِدَ مَخْتُونًا: ابْنُ صَيَّادٍ؛ فَقَدْ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مَسْرُورًا مَخْتُونًا»، يَعْنِي ابْنَ صَيَّادٍ.

وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «الْمُصَنَّفِ» -بِسَنَدٍ صَحِيحٍ- عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «وُلِدَ ابْنُ صَيَّادٍ أَعْوَرَ مُخْتَتَنًا».

وَهَذَا لَهُ تَفْسِيرٌ طِبِّيٌّ؛ فَإِنَّ رُجُوعَ الْحَشَفَةِ عَنْ رَأْسِ الْعُضْوِ هَذَا هُوَ الْخِتَانُ، إِمَّا بِالْقَطْعِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ بِنَوْعِ قِصَرٍ فِي تِلْكَ الْحَشَفَةِ حَتَّىٰ لَا تُغَطِّيَ رَأْسَ الذَّكَرِ، فَيَقُولُونَ: وُلِدَ مَخْتُونًا، وَلَيْسَ بِمَخْتُونٍ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الْخِتَانَ هُوَ الْقَطْعُ؛ وَهَذَا لَمْ يُقْطَعْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا وُلِدَ كَذَلِكَ عَلَىٰ أَصْلِ الْخِلْقَةِ، فَهَذِهِ الْحَشَفَةُ مُتَأَخِّرَةٌ، فَيَبْدُو رَأْسُ الْعُضْوِ ظَاهِرًا، وَهَذَا مَا إِذَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ: هُوَ مَخْتُونٌ، وَلَكِنَّهُ وُلِدَ كَذَلِكَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ بَلْ إِنَّ ابْنَ صَيَّادٍ قَدْ وُلِدَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا؛ كَمَا صَحَّ النَّقْلُ بِذَلِكَ.

وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَاضِلَيْنِ صَنَّفَ أَحَدُهُمَا مُصَنَّفًا فِي أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ مَخْتُونًا، وَأَجْلَبَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا خِطَامَ لَهَا وَلَا زِمَامَ، وَهُوَ كَمَالُ الدِّينِ بْنُ طَلْحَةَ، فَنَقَضَهُ عَلَيْهِ كَمَالُ الدِّينِ بْنُ الْعَدِيمِ، وَبَيَّنَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خُتِنَ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ.

وَكَانَ عُمُومُ هَذِهِ السُّنَّةِ لِلْعَرَبِ قَاطِبَةً مُغْنِيًا عَنْ نَقْلٍ مُعَيَّنٍ فِيهَا، يَعْنِي

هَذَا لَمْ يُنْقَلْ، لَمْ يَنْقُلُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خُتِنَ فِي يَوْمِ سَابِعِهِ، وَاسْتَفَاضَ النَّقْلُ فِي ذَلِكَ لِمَاذَا؟

لِأَنَّ هَذَا جَاءَ عَلَىٰ أَصْلِ الْعَادَةِ، وَالسُّنَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُتَّبَعَةً عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنِ اخْتَتَنَ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ فِيمَنْ كَانَ عَلَىٰ الْحَنِيفِيَّةِ، فَنَقَلَ ذَلِكَ إِسْمَاعِيلُ، ثُمَّ كَانَ فِي الْعَرَبِ.

فَأَقُولُ: كَانَ عُمُومُ هَذِهِ السُّنَّةِ لِلْعَرَبِ قَاطِبَةً مُغْنِيًا عَنْ نَقْلٍ مُعَيَّنٍ فِيهَا.

أَمَّا مَا قَالَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»: «وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا»، فَقَدْ تَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ فِي تَلْخِيصِهِ بِقَوْلِهِ: «لَا أَعْلَمُ صِحَّةَ ذَلِكَ! فَكَيْفَ يَكُونُ مُتَوَاتِرًا؟!».

◉ ◉ ◉



مَا جَاءَ فِي تَسْمِيَتِهِ ﷺ

فَرَحُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِوِلَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةُ أَرْسَلَتْ إِلَىٰ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تُخْبِرُهُ بِوِلَادَةِ حَفِيدِهِ؛ فَفَرِحَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِحَفِيدِهِ ﷺ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ.

قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَمْدَحُ الرَّسُولَ ﷺ -الْعَبَّاسُ عَمُّهُ- قَالَ يَمْدَحُهُ:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ ... الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأُفُقُ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي ... النُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ

النَّبِيُّ ﷺ سَمَّاهُ جَدُّهُ مُحَمَّدًا، لَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ يَأْلَفُونَ هَذَا الِاسْمَ؛ فَاسْتَغْرَبَهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَسَأَلُوا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، فَقَالُوا: لِمَ رَغِبْتَ بِهِ عَنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ؟!

فَأَجَابَهُمْ: «أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي السَّمَاءِ، وَخَلْقُهُ فِي الْأَرْضِ» ذَكَرَ ذَلِكَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ».

وَقِيلَ سَبَبُ تَسْمِيَتِهِ مُحَمَّدًا: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ كَانَ مُسَافِرًا إِلَىٰ الشَّامِ مَعَ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لِلتِّجَارَةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي الشَّامِ الْتَقَوْا بِرَاهِبٍ فَسَأَلَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ

أَنْتُمْ؟». قَالُوا: «نَحْنُ مِنْ مَكَّةَ». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ بِلَادَكَ سَيَخْرُجُ مِنْهَا نَبِيٌّ». فَسَأَلُوهُ: «مَا اسْمُ النَّبِيِّ؟». قَالَ: «اسْمُهُ: مُحَمَّدٌ». وَلَمْ يَكُنِ اسْمُ مُحَمَّدٍ مَعْرُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ عَزَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِنْ رُزِقَ بِمَوْلُودٍ أَنْ يُسَمِّيَهُ مُحَمَّدًا، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَبِرَ، فَلَمَّا رُزِقَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ وَلَدًا سَمَّاهُ: مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَهُمْ: سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا، وَأُحَيْحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا، وَحُمْرَانُ بْنُ رَبِيعَةَ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا.

هَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ سَمَّىٰ مُحَمَّدًا فِي الْعَرَبِ، كَمَا قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ.

تَعَقَّبَهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» بِقَوْلِهِ: «هَذَا حَصْرٌ مَرْدُودٌ، وَقَدْ جَمَعْتُ أَسْمَاءَ مَنْ تَسَمَّىٰ بِذَلِكَ فِي جُزْءٍ مُفْرَدٍ، فَبَلَغُوا نَحْوَ الْعِشْرِينَ، لَكِنْ مَعَ تَكَرُّرٍ فِي بَعْضِهِمْ وَوَهْمٍ فِي بَعْضٍ؛ فَيَتَخَلَّصُ مِنْهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ نَفْسًا».

قَالَ حَسَّانُ رضي الله عنه:

أَغَـرُّ عَلَيْـهِ لِلنُّبُـوَّةِ خَـاتَمٌ ... مِـنَ اللهِ مَشْـهُودٌ يَلُـوحُ وَيَشْـهَدُ

وَضَـمَّ الْإِلَـهُ اسْـمَ النَّبِـيِّ إِلَىٰ اسْـمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ

وَشَـقَّ لَـهُ مِـنَ اسْـمِهِ؛ لِيُجِلَّـهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهَذَا مُحَمَّدُ

نَبِـيٌّ أَتَانَـا بَعْـدَ يَـأْسٍ وَفَتْـرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ وَالْأَوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ

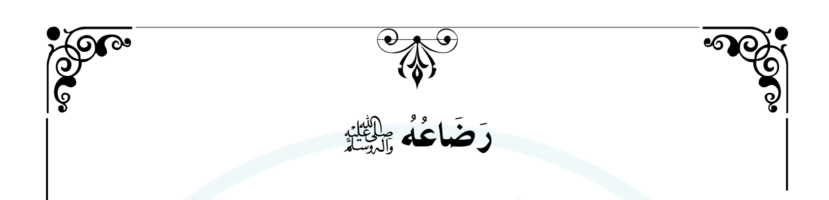
فَأَمْسَىٰ سِـرَاجًا مُسْـتَنِيرًا وَهَادِيًـا ... يَلُـوحُ كَمَـا لَاحَ الصَّـقِيلُ الْمُهَنَّـدُ

وَأَنْـــذَرَنَا نَـــارًا وَبَشَّـــرَ جَنَّـــةً وَعَلَّمَنَـــا الْإِسْـــلَامَ؛ فَـــاللهَ نَحْمَـــدُ
وَأَنْـتَ إِلَـهُ الْخَلْـقِ رَبِّـي وَخَـالِقِي بِـذَلِكَ مَا عُمِّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْـهَدُ
تَعَالَيْـتَ رَبَّ النَّـاسِ عَـنْ قَـوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَىٰ وَأَمْجَدُ
لَـكَ الْخَلْـقُ وَالنَّعْمَـاءُ وَالْأَمْـرُ كُلُّـهُ فَإِيَّـاكَ نَسْـتَهْدِي وَإِيَّـاكَ نَعْبُـدُ

رضي الله عنه..

هَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ، وَأَسْمَائِهِ الْمُنِيفَةِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِي تَسْمِيَتِهِ وَفِي خِتَانِهِ.

● ● ●



رَضَاعُهُ ﷺ

أَمَّا رَضَاعُهُ: فَكَانَتْ أُولَىٰ مَنْ أَرْضَعَتْهُ ﷺ أُمُّهُ، أَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي قَوْلٍ، وَقِيلَ سَبْعًا وَقِيلَ تِسْعًا.

ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ جَارِيَةُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ، بِلَبَنِ ابْنِهَا مَسْرُوحٍ بِضْعَةَ أَيَّامٍ قَبْلَ قُدُومِ حَلِيمَةَ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ أَرْضَعَتْ عَمَّهُ، وَابْنَ عَمَّتِهِ أَبَا سَلَمَةَ الْمَخْزُومِيَّ؛ فَكَانُوا إِخْوَةً مِنَ الرَّضَاعِ؛ أَرْضَعَتْهُمْ ثُوَيْبَةُ جَارِيَةُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ، وَلَمَّا قِيلَ لِلنَّبِيِّ عَقِبَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ: «أَلَا تَتَزَوَّجُ ابْنَةَ حَمْزَةَ فَاطِمَةَ؟». قَالَ: «**إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعِ**». وَلَمَّا قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ» قَالَ: «**بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ؟**». قَالَتْ: «نَعَمْ». قَالَ: «**إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي؛ إِنَّهَا لَابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ، فَلَا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ، وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

كَانَ مِنْ عَادَةِ أَشْرَافِ الْعَرَبِ أَنْ يَتَلَمَّسُوا الْمَرَاضِعَ لِأَوْلَادِهِمْ فِي الْبَوَادِي؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْجَبَ لِلْوَلَدِ وَأَصَحَّ لِلْبَدَنِ وَأَصْفَىٰ لِلذِّهْنِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الْوَخَمِ وَالْكَسَلِ وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَبَّىٰ فِي الْمُدُنِ يَكُونُ كَلِيلَ الذِّهْنِ، فَاتِرَ الْعَزِيمَةِ

ضَعِيفَ الْبِنْيَةِ، وَكَانَ هَذَا شَائِعًا عِنْدَ سُكَّانِ الْأَرْيَافِ إِلَىٰ عَهْدٍ قَرِيبٍ قَبْلَ أَنْ يَتَمَدَّنُوا وَيُقَلِّدُوا أَهْلَ الْحَضَارَةِ مِنْ سُكَّانِ الْمُدُنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا كَانَ فِيهِمْ طَرَاوَةٌ وَلَا مُيُوعَةٌ وَلَا خُنُوثَةٌ بَلْ كَانُوا أَشِدَّاءَ أَقْوِيَاءَ! لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُزَاوِلُونَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ، وَكَانَ آبَاؤُهُمْ يُلْقُونَ بِهِمْ فِي أَتُّونِ الْعَمَلِ الشَّاقِّ؛ فَخَرَجُوا بِذَلِكَ أَصْحَابَ جَلَدٍ وَعَزْمٍ، وَلَوْ أَنَّكَ رَجَعْتَ إِلَىٰ سِيَرِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِمَّنْ بَرَعَ فِي الطِّبِّ، وَفِي الْفَلَكِ، وَفِي الذَّرَّةِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ لَرَجَعْتَ بِأُصُولِهِمْ إِلَى الْقُرَىٰ؛ نَشَأُوا فِيهَا وَدَرَجُوا عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَتَرَبَّوْا عَلَىٰ أَخْلَاقِ أَهْلِهَا، فَكَانُوا أَصْحَابَ عَزِيمَةٍ، وَلَا يُقَلِّلُ هَذَا مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْمُدُنِ، فَفِيهِمْ مِنَ الْفَضْلِ مَا فِيهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ بَدَا جَفَا**».

وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا..

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: «**مَنْ بَدَا جَفَا**»: يَعْنِي مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ كَانَ فِيهِ جَفَاءٌ فِي الطَّبْعِ، وَقَسْوَةٌ فِي الْمَنْطِقِ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَامَلُ عَلَىٰ حَسَبِ مَا يُعَامَلُ بِهِ، وَدَرَجَ عَلَيْهِ وَنَشَأَ عَلَىٰ تَحْصِيلِهِ؛ فَالْمُؤَاخَذَةُ عَلَىٰ تَرْكِهِ.

فَكَانُوا يَقُولُونَ -يَعْنِي الْعَرَبَ، حَتَّىٰ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ، فَمَكَّةُ كَانَتْ حَاضِرَةً لَمْ تَكُنْ بَادِيَةً، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ-: إِنَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَ الْمَرَاضِعَ لِأَوْلَادِهِمْ فِي الْبَوَادِي؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْجَبَ لِلْوَلَدِ، وَأَصَحَّ لِلْبَدَنِ، وَأَصْفَىٰ لِلذِّهْنِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الْوَخَمِ وَالْكَسَلِ.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَبَّىٰ فِي الْمُدُنِ يَكُونُ كَلِيلَ الذِّهْنِ، فَاتِرَ الْعَزِيمَةِ ضَعِيفَ الْبِنْيَةِ، هَذَا إِلَىٰ مَا فِي نَشْأَتِهِمْ بَيْنَ الْأَعْرَابِ مِنَ اسْتِقَامَةِ اللِّسَانِ بِالْفَصِيحِ مِنَ الْكَلَامِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ اللَّحْنِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْهُجْنَةِ.

وَلَمَّا قَالَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْ هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ يَا رَسُولَ اللهِ!». قَالَ: «**وَمَا يَمْنَعُنِي؛ وَأَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَأُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ**».

فَمِنْ ثَمَّ كَانُوا يُرْسِلُونَ أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ الْبَادِيَةِ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا الثَّامِنَةَ أَوِ الْعَاشِرَةَ، وَمِنَ الْقَبَائِلِ مَنْ كَانَ لَهَا فِي الْمَرَاضِعِ شُهْرَةٌ، وَفِي الْفَصَاحَةِ مَكَانٌ، وَمِنْهَا قَبِيلَةُ بَنِي سَعْدٍ الَّتِي مِنْهَا حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ، مُرْضِعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ مَكَثَ عِنْدَهَا سَنَتَيْنِ، ثُمَّ عَادَتْ بِهِ؛ كَيْ تَرَاهُ أُمُّهُ، فَمَا إِنْ رَأَتْهُ، وَمَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنْهُ حَتَّىٰ احْتَضَنَتْهُ وَقَبَّلَتْهُ، وَسَرَّهَا مَا رَأَتْهُ عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَةِ الصِّحَّةِ وَالنَّضَارَةِ، وَالنُّمُوِّ وَتَوَسَّلَتْ حَلِيمَةُ إِلَىٰ أُمِّهِ أَنْ تُرْجِعَهُ مَعَهَا حَتَّىٰ يَكْبَرَ؛ فَإِنَّهَا تَخْشَىٰ عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ، وَمَا زَالَتْ بِهَا حَتَّىٰ قَبِلَتْ ثُمَّ عَادَتْ بَعْدَ سَنَتَيْنِ، وَهِيَ بَادِيَةُ الْقَلَقِ.

رُجُوعُهَا بَعْدَ سَنَتَيْنِ: جَزَمَ بِهِ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي نَظْمِ السِّيرَةِ، وَابْنُ حَجَرٍ فِي سِيرَتِهِ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ مُفِيدَةٌ اجْتَهَدَ أَنْ يَلْتَزِمَ فِيهَا الْأَصَحَّ، قَالَا: «إِنَّ شَقَّ الصَّدْرِ كَانَ فِي الرَّابِعَةِ»، وَكَفَىٰ بِهِمَا إِمَامَيْنِ حَافِظَيْنِ!

لَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَائِلِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنْ

رُجُوعِ حَلِيمَةَ بِهِ.

عَادَتْ بِهِ بَعْدَ سَنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ بَادِيَةَ الْقَلَقِ، شَدِيدَةَ التَّخَوُّفِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَحَسَّتْ ذَلِكَ مِنْهَا أُمُّهُ آمِنَةُ؛ فَسَأَلَتْهَا عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَتْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَخْبَرَتْهَا بِقِصَّةِ الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ جَاءَا إِلَيْهِ، وَهُوَ فِي غَنَمٍ لَهُمْ مَعَ أَخِيهِ السَّعْدِيِّ، فَشَقَّا صَدْرَهُ، وَاسْتَخْرَجَا قَلْبَهُ، ثُمَّ أَعَادَاهُ؛ فَطَمْأَنَتْهَا أُمُّهُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ؛ وَأَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ، وَقَالَتْ لَهَا: «دَعِيهِ عَنْكِ، وَانْطَلِقِي رَاشِدَةً».

فَهَذَا مُجْمَلُ مَا كَانَ مِنْ رَضَاعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ أَرْضَعَتْهُ: أُمُّهُ آمِنَةُ، قِيلَ: أَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَقِيلَ: سَبْعًا، وَقِيلَ: تِسْعًا.

ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ بِلَبَنِ ابْنٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مَسْرُوحٌ قَبْلَ أَنْ تَقْدَمَ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ، وَكَانَتْ قَدْ أَرْضَعَتْ قَبْلَهُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَبَعْدَهُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيَّ؛ فَكَانُوا إِخْوَةً مِنَ الرَّضَاعِ.

النَّبِيُّ ﷺ اسْتُرْضِعَ فِي بَنِي سَعْدٍ، الْتُمِسَ لَهُ الرُّضَعَاءُ، فَالْتَمَسَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَرَاضِعَ عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْثِرُونَ إِذَا وُلِدَ لَهُمْ وَلَدٌ أَنْ يَلْتَمِسُوا لَهُ مُرْضِعَةً مِنَ الْبَادِيَةِ.

وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ سَبَبِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فِي الْتِمَاسِ الْمَرَاضِعِ لِأَوْلَادِهِمْ، وَذَكَرَ بَعْضَ ذَلِكَ السُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ؛ لِيَنْشَأَ الطِّفْلُ فِي الْأَعْرَابِ، فَيَكُونَ أَفْصَحَ

لِلِسَانِهِ، وَلِيَكُونَ أَجْلَدَ لِجِسْمِهِ، وَأَجْدَرَ أَلَّا يُفَارِقَ الْهَيْئَةَ الْمَعِدِّيَّةَ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اخْشَوْشِنُوا، وَاخْشَوْشِبُوا، وَاخْلَوْلِقُوا، وَتَمَعْدَدُوا كَأَنَّكُمْ مَعَدٌّ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ» أَخْرَجَهُ الطَّحَاوِيُّ فِي الْمُشْكِلِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

اخْشَوْشِنُوا: مِنَ الْخُشُونَةِ.

وَاخْشَوْشِبُوا: اخْشَوْشَبَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ صُلْبًا خَشِنًا فِي دِينِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَطْعَمِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

وَاخْلَوْلِقُوا، وَتَمَعْدَدُوا: تَمَعْدَدَ الْغُلَامُ إِذَا شَبَّ وَغَلُظَ.

كَأَنَّكُمْ مَعَدٌّ: وَهِيَ قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ، كَانَ أَهْلُهَا أَهْلَ غِلَظٍ وَتَقَشُّفٍ.

وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ.

أَخْرَجَهُ الطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مُشْكِلِ الْآثَارِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَنْجَبَ لِلْوَلَدِ وَأَصْفَىٰ لِلذِّهْنِ.

تَنْشِئَةُ الْأَوْلَادِ فِي الْبَادِيَةِ؛ لِيَمْرَحُوا فِي كَنَفِ الطَّبِيعَةِ؛ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، فَكَانَ مِنَ الْحُجَجِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ لِأَبِيهِمْ لِيَأْخُذُوا يُوسُفَ مَعَهُمْ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

حَقُّهُ، وَلِيَسْتَمْتِعُوا بِالْجَوِّ الطَّلْقِ، وَالشُّعَاعِ الْمُرْسَلِ، وَهَذَا أَدْنَىٰ إِلَىٰ تَزْكِيَةِ الْفِطْرَةِ، وَإِنْمَاءِ الْأَعْضَاءِ وَالْمَشَاعِرِ، وَإِطْلَاقِ كُنُوزِ الْعَوَاطِفِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّرْبِيَةِ يَوَدُّ لَوْ كَانَتِ الطَّبِيعَةُ الْمَعْهَدَ الْأَوَّلَ لِلطِّفْلِ حَتَّىٰ تَتَّسِقَ مَدَارِكُهُ مَعَ حَقَائِقِ الْكَوْنِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ.

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً ... حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهِمِ

حَلَّيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ ... فِي كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِي حُسْنِ مُنْتَظِمِ

بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ ... تُحْيِي الْقُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الْهِمَمِ

رَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» بِسَنَدٍ تَالِفٍ عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا أَعْرَبُكُمْ، أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ وَلِسَانِي لِسَانُ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ**».

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ»: «مَوْضُوعٌ، وَهَذَا سَنَدٌ تَالِفٌ».

●●●

اسْتِرْضَاعُهُ ﷺ فِي بَنِي سَعْدٍ

أَقْبَلَتِ الْمَرَاضِعُ مِنَ الْبَادِيَةِ يَلْتَمِسْنَ تَرْبِيَةَ أَوْلَادِ الْأَشْرَافِ، فَاسْتَرْضَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِحَفِيدِهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ قَبِيلَةِ سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَهِيَ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيِّ، زَوْجُهَا الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ، الْمُكَنَّىٰ بِـ(أَبِي كَبْشَةَ) مِنَ الْقَبِيلَةِ نَفْسِهَا.

تَذْكُرُ حَلِيمَةُ قِصَّةَ رَضَاعِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ: خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ، تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ بِمَكَّةَ، قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ، أَيْ: ذَاتِ قَحْطٍ وَجَدْبٍ، وَالشَّهْبَاءُ: هِيَ الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي لَا خُضْرَةَ فِيهَا؛ لِقِلَّةِ الْمَطَرِ.

قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ، لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ عَلَىٰ أَتَانٍ لِي- وَالْأَتَانُ الْحِمَارَةُ الْأُنْثَىٰ خَاصَّةً-، فَخَرَجْتُ عَلَىٰ أَتَانٍ لِي قَمْرَاءَ- أَيْ: شَدِيدَةِ الْبَيَاضِ- مَعَنَا شَارِفٌ- وَالشَّارِفُ النَّاقَةُ الْمُسِنَّةُ- مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا، وَاللهِ مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةٍ- أَيْ: مَا يَقْطُرُ مِنْهَا لَبَنٌ-، وَمَا نَامَ لَيْلُنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا مِنْ بُكَائِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَمَا فِي ثَدْيَيَّ مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَذِّيهِ، وَلَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ، وَالْفَرَجَ فَخَرَجْتُ عَلَىٰ أَتَانِي تِلْكَ، فَلَقَدْ أَدَمْتُ بِالرَّكْبِ، حَتَّىٰ شَقَّ

ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّىٰ قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ: أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ؟! وَمَا عَسَىٰ أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ؟ فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتِ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي -أَيْ: لِزَوْجِهَا-: وَاللهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي، وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاللهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَىٰ ذَلِكَ الْيَتِيمِ، فَلَآخُذَنَّهُ، قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَىٰ أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ.

قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ، رَجَعْتُ بِهِ إِلَىٰ رَحْلِي، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّىٰ رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّىٰ رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَامَ زَوْجِي إِلَىٰ شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا هِيَ حَافِلٌ -أَيْ كَثِيرَةُ اللَّبَنِ-، فَحَلَبَ مِنْهَا وَشَرِبَ، وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ.

قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي: تَعَلَّمِي -وَاللهِ- يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ.

قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي، فَوَاللهِ لَقَطَعْتُ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّ صَوَاحِبِي لَيَقُلْنَ لِي: يَا بْنَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ

عَلَيْهَا؟ ارْفُقِي بِنَا، وَاقْتَصِرِي، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟! فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَىٰ، وَاللهِ. إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْنًا.

قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ، وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ!- أَيْ: لَا نَبَاتَ فِيهَا- مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لَبَنًا، فَنَحْلِبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلِبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ. حَتَّىٰ كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ! اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لَبَنًا.

أَخْرَجَ قِصَّةَ اسْتِرْضَاعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ: ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» بِإِسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ، وَابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» وَجَوَّدَ إِسْنَادَهُ الذَّهَبِيُّ فِي «سِيرَتِهِ»، وَضَعَّفَ الْأَلْبَانِيُّ هَذَا الْخَبَرَ فِي كِتَابِهِ: «دِفَاعٌ عَنِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَالسِّيرَةِ».

وَهُنَاكَ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ، وَثَابِتَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ اسْتِرْضَاعِ الرَّسُولِ ﷺ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ، مِنْهَا:

* مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» فِي قِصَّةِ شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ وَهُوَ غُلَامٌ، وَهِيَ تَتَّفِقُ مَعَ رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي «مُسْنَدِهِ» وَالْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَابْنِ إِسْحَاقَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ فِي شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ وَهُوَ مُسْتَرْضَعٌ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ.

* وَمِنَ الشَّوَاهِدِ أَيْضًا: مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»، وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» بِسَنَدٍ جَيِّدٍ قَوِيٍّ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ! فَقَالَ: «**نَعَمْ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ** عليه السلام**، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ**».

* وَمِنَ الشَّوَاهِدِ: مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ فِي قِصَّةِ قُدُومِ وَفْدِ هَوَازِنَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ بِالْجِعِرَّانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَلَفْظُهُ: «فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا فِي الْحَضَائِرِ -أَيْ: فِي الْأَسْرِ- عَمَّاتُكَ وَخَالَاتُكَ وَحَوَاضِنُكَ اللَّاتِي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ».

هَذِهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ كَانَتْ مِنْ بَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ، وَزَوْجِهَا الْحَارِثِ.

لَمْ يَزَلِ الرَّسُولُ ﷺ عِنْدَ حَلِيمَةَ حَتَّىٰ مَضَتْ سَنَتَاهُ ﷺ وَفَطَمَتْهُ.

وَكَانَ ﷺ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّىٰ كَانَ غُلَامًا كَأَنَّهُ ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ يَزَلِ اللهُ تَعَالَىٰ يُرِينَا الْبَرَكَةَ، وَنَتَعَرَّفُهَا حَتَّىٰ بَلَغَ ﷺ سَنَتَيْهِ، فَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ. أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَإِسْنَادُهُ مُنْقَطِعٌ، وَالْقِصَّةُ -كَمَا مَرَّ- لَهَا شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ ثَابِتَةٌ صَحِيحَةٌ كَمَا مَرَّ.

قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَكَانَ ﷺ يَشِبُّ فِي يَوْمِهِ شَبَابَ الصَّبِيِّ فِي الشَّهْرِ، وَيَشِبُّ فِي الشَّهْرِ شَبَابَ الصَّبِيِّ فِي سَنَةٍ».

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَىٰ أُمِّهِ زَائِرِينَ لَهَا، وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَىٰ مُكْثِهِ فِينَا؛ لِمَا كُنَّا نَرَىٰ مِنْ بَرَكَتِهِ؛ فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ، وَقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتِ بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّىٰ يَغْلُظَ؛ فَإِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ!

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّىٰ رَدَّتْهُ مَعَنَا. ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ هِشَامٍ فِي «سِيرَتِهِ»، وَالذَّهَبِيُّ فِي «السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ»، وَجَوَّدَ الذَّهَبِيُّ إِسْنَادَهُ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا -أَيْ: بِآمِنَةَ، أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ- حَتَّىٰ رَدَّتْهُ مَعَنَا.

وَهَكَذَا عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ.

◉ ◉ ◉

حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

وَقَعَتْ حَادِثَةٌ عَظِيمَةٌ آنَذَاكَ، هِيَ: حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كَانَتْ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ لَنَا** -وَالْبَهْمُ: بِفَتْحِ الْبَاءِ، جَمْعُ بَهْمَةٍ، وَهُوَ وَلَدُ الضَّأْنِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَىٰ- **فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ لَنَا، وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا، فَقُلْتُ: يَا أَخِي، اذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمِّنَا** -يُرِيدُ حَلِيمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، **فَانْطَلَقَ أَخِي، وَمَكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَقْبَلَ طَيْرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِي، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي إِلَىٰ الْقَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءِ ثَلْجٍ فَغَسَلَا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ فَغَسَلَا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ فَذَرَّاهَا** -أَيْ: نَثَرَاهَا- **فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: حُصْهُ، فَحَاصَهُ** -أَيْ: خَاطَهُ-، **وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ انْطَلَقَا وَتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ** -أَيْ: فَزِعْتُ- **فَرَقًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَىٰ أُمِّي، فَأَخْبَرْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُهُ، فَأَشْفَقَتْ عَلَيَّ**

أَنْ يَكُونَ أُلْبِسَ بِي -أَيْ: خُولِطْتُ فِي عَقْلِي-، قَالَتْ: أُعِيذُكَ بِاللهِ، فَرَحَلَتْ بَعِيرًا لَهَا، وَحَمَلَتْنِي عَلَى الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي حَتَّى بَلَغْنَا إِلَى أُمِّي، فَقَالَتْ: أَوَأَدَّيْتُ أَمَانَتِي، وَذِمَّتِي؟ وَحَدَّثْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَلَمْ يَرُعْهَا ذَلِكَ، وَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ، أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».

الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَالذَّهَبِيُّ فِي «سِيرَتِهِ» وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ»، وَقَالَ: «وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ».

وَرَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ -يَعْنِي: ظِئْرَهُ، وَالظِّئْرُ: الْمُرْضِعُ الَّتِي تُرْضِعُ غَيْرَ وَلَدِهَا- وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ، يَعْنِي ظِئْرَهُ، فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ -أَيْ: وَهُوَ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ- قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ». الْحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: «وَالْحِكْمَةُ مِنْ شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ وَهُوَ صَغِيرٌ: نَزْعُ الْعَلَقَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي مِنْ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْ كُلِّ بَشَرٍ، ثُمَّ إِخْرَاجُهَا بَعْدَ خَلْقِهَا كَرَامَةٌ

رَبَّانِيَّةٌ، فَهُوَ أَدَلُّ عَلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الرِّفْعَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَبِنَزْعِهَا مِنْهُ نَشَأَ ﷺ عَلَىٰ أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ».

كَمْ كَانَ عُمُرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا وَقَعَ هَذَا الْحَادِثُ، يَعْنِي: شَقَّ صَدْرِهِ ﷺ؟

ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ عُمُرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا شُقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفُ- أَنَّ عُمُرَهُ سَنَتَانِ عِنْدَ ذَلِكَ، لَفْظُهُ: قَالَتْ حَلِيمَةُ: «فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّىٰ كَانَ غُلَامًا جَفْرًا».

عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» أَنَّ عُمُرَهُ ﷺ عِنْدَمَا شُقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفُ: أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ، وَلَفْظُهُ: قَالَتْ حَلِيمَةُ: «وَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعَ سِنِينَ كَانَ يَقْدُمُ مَعَ أَخِيهِ وَأُخْتِهِ فِي الْبَهْمِ».

قَالَ الزُّرْقَانِيُّ فِي «شَرْحِ الْمَوَاهِبِ»: «وَالرَّاجِحُ أَنَّ شَقَّ صَدْرِهِ ﷺ كَانَ فِي الرَّابِعَةِ، كَمَا جَزَمَ بِهِ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي «نَظْمِ السِّيرَةِ»، وَتِلْمِيذُهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «سِيرَتِهِ»»، وَهِيَ صَغِيرَةٌ مُفِيدَةٌ.

أَقَامَ فِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ عِنْدَهَا ... أَرْبَعَةَ سِنِينَ تَجْنِي سَعْدَهَا
وَحِينَ شَقَّ صَدْرَهُ جِبْرِيلُ ... خَافَتْ عَلَيْهِ حَدَثًا يَئُولُ

هَذَا مَا جَزَمَ بِهِ الْعِرَاقِيُّ هَذَا الْأَمْرَ.

تَكَرَّرَ شَقُّ صَدْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ هَذَا عَلَىٰ حَسَبِ مَا هُوَ فِي الْمَرْوِيَّاتِ، ثُمَّ نَنْظُرُ بَعْدَ سَرْدِهَا فِيمَا ثَبَتَ مِنْهَا -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا-.

قَالُوا: الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ، وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ ﷺ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ -بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ- عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **كَانَ جَرِيئًا عَلَىٰ أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَسْأَلُهُ عَنْهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا أَوَّلُ مَا رَأَيْتَ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ؟**

فَاسْتَوَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ! إِنِّي لَفِي صَحْرَاءَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ، وَإِذَا بِكَلَامٍ فَوْقَ رَأْسِي، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا لِخَلْقٍ قَطُّ، وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقٍ قَطُّ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ قَطُّ، -الْأَرْوَاحُ: هُنَا الرَّائِحَةُ- **فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ، حَتَّىٰ أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضُدِي** -وَالْعَضُدُ: مَا بَيْنَ الْكَتِفِ وَالْمِرْفَقِ-، **لَا أَجِدُ لِأَخْذِهِمَا مَسًّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْجِعْهُ. فَأَضْجَعَانِي. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: افْلِقْ صَدْرَهُ** -أَيْ: شُقَّهُ-، **فَهَوَىٰ أَحَدُهُمَا إِلَىٰ صَدْرِي، فَفَلَقَهَا فِيمَا أَرَىٰ بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجِ الْغِلَّ وَالْحَسَدَ، فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ، فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجَهُ يُشْبِهُ الْفِضَّةَ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِي الْيُمْنَىٰ، فَقَالَ: اغْدُ وَاسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو بِهِ رِقَّةً عَلَىٰ الصَّغِيرِ وَرَحْمَةً لِلْكَبِيرِ»** أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ

فِي «الْمُسْنَدِ» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ.

قَالُوا: الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَبْعَثِ.

رَوَىٰ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» -بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**هَبَطَ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَسَلَخَنِي لِحَلَاوَةِ الْقَفَا**- أَيْ: أَضْجَعَنِي عَلَىٰ وَسَطِ الْقَفَا، لَمْ يَمِلْ بِي إِلَىٰ الْجَانِبَيْنِ- **وَشَقَّ عَنْ بَطْنِي فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهِ، ثُمَّ كَفَأَنِي كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ، ثُمَّ خَتَمَ فِي ظَهْرِي حَتَّىٰ وَجَدْتُ مَسَّ الْخَاتَمِ، ثُمَّ قَالَ لِي:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، **وَلَمْ أَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ!**» أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ.

الْمَرَّةَ الرَّابِعَةَ: عِنْدَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعُرِجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ...**» وَذَكَرَ حَدِيثَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْعُرُوجِ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ السَّمَاءِ؛ لِيَتَأَهَّبَ لِلْمُنَاجَاةِ».

فَيَتَرَجَّحُ بَعْدَ دِرَاسَةِ أَسَانِيدِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الَّذِي صَحَّ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ -أَيْ: حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ- أَنَّهَا وَقَعَتْ لَهُ مَرَّتَيْنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

الْأُولَىٰ: وَهُوَ صَغِيرٌ عِنْدَ ظِئْرِهِ، فِي بَنِي سَعْدٍ، كَمَا فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالثَّانِيَةُ: فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، كَمَا فِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَمَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «وَجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصَّدْرِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْقَلْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مِمَّا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ، دُونَ التَّعَرُّضِ لِصَرْفِهِ عَنْ حَقِيقَتِهِ؛ لِصَلَاحِيَةِ الْقُدْرَةِ، فَلَا يَسْتَحِيلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ».

وَهَذَا تَعْلِيقٌ مَتِينٌ يَصْدُقُ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَادِثَةِ -يَعْنِي شَقَّ الصَّدْرِ- وَعَلَىٰ غَيْرِهَا مِمَّا أَكْرَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، وَهَلْ كَانَتْ حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ بِأَعْجَبَ مِنَ الْإِسْرَاءِ بِهِ، وَالْعُرُوجِ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ رُجُوعِهِ بَعْدُ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْعَظِيمَةِ وَفِرَاشُهُ لَمَّا يَبْرُدْ بَعْدُ؟!

هَلْ كَانَ شَقُّ الصَّدْرِ بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا؟!

لَقَدْ تَكَرَّرَ شَقُّ الصَّدْرِ غَيْرَ مَرَّةٍ، حَصَلَتْ مَرَّةً ثَانِيَةً عِنْدَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ ثَابِتَةٌ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي رِوَايَةِ الشَّيْخَيْنِ: الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِهِمَا.

الْمَرَّةُ الْأُولَىٰ: فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ؛ لِنَزْعِ الْعَلَقَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي هِيَ حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْ كُلِّ بَشَرٍ، فَخُلِقَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ تَكْمِلَةً لِلْخَلْقِ الْإِنْسَانِيِّ، ثُمَّ إِخْرَاجُهَا بَعْدَ خَلْقِهَا كَرَامَةٌ رَبَّانِيَّةٌ، فَهُوَ أَدَلُّ عَلَىٰ مَزِيدِ الرِّفْعَةِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ خَلْقِهِ بِدُونِهَا.

وَبِنَزْعِهَا مِنْهُ نَشَأَعَلَىٰ أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالِاتِّصَافِ بِصِفَاتِ الرُّجُولِيَّةِ مِنَ الصِّغَرِ، فَلَا لَهْوَ وَلَا عَبَثَ، وَإِنَّمَا هُوَ الْكَمَالُ وَالْجِدُّ.

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَكَانَتِ اسْتِعْدَادًا لِمَا يُلْقَىٰ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفُيُوضَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمَا سَيُرِيهِ رَبُّهُ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ وَلِإِدْرَاكِ مَرَامِي الْمُثُلِ الرَّائِعَةِ الَّتِي ضُرِبَتْ لَهُ فِي مَسْرَاهُ وَفِي مِعْرَاجِهِ، وَكُلُّهَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ شَرْحِ الصَّدْرِ وَثَبَاتِ الْقَلْبِ.

الْمُنْكِرُونَ لِشَقِّ الصَّدْرِ، وَالْمُشَكِّكُونَ فِيهِ كَثِيرُونَ، فَبَعْضُهُمْ مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا يَتَكَلَّمُونَ بِلِسَانِنَا وَيُصَلُّونَ إِلَىٰ قِبْلَتِنَا، وَلَا يَتَّبِعُونَ الْمَنْهَجَ الْعِلْمِيَّ الصَّحِيحَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا!

إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصِّحَةَ، أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلَ: فَهَذَا مُلَخَّصُ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ عِنْدَ عُلَمَائِنَا مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ.

إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصِّحَّةَ، أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلَ: يَعْنِي إِذَا كُنْتَ تَأْتِي بِالْأَخْبَارِ فَنُلْزِمُكَ بِصِحَّةِ الْمَنْقُولِ، وَإِنْ أَتَيتَ بِدَعْوَىٰ مُجَرَّدَةٍ، فَنُلْزِمُكَ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ.

فَإِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصِّحَّةَ، أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلَ.

وَقَدْ مَرَّ أَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ النَّقْلُ فَلَا كَلَامَ، وَالْعُلَمَاءُ -مَعَ ذَلِكَ- يَنْقُدُونَ الْمَتْنَ كَمَا يَنْقُدُونَ الْإِسْنَادَ، لَيْسَ كَمَا يُفْتَرَىٰ عَلَىٰ الْمُحَدِّثِينَ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُوَجِّهُوا الْعِنَايَةَ النَّقْدِيَّةَ إِلَّا إِلَىٰ الْإِسْنَادِ، وَتَرَكُوا الْمَتْنَ بِمَا فِيهِ!!

لَا؛ بَلْ إِنَّ الْعِلَّةَ تَعْرِضُ لِلْمَتْنِ كَمَا تَعْرِضُ لِلْإِسْنَادِ، وَالِاضْطِرَابُ يَعْرِضُ لِلْمَتْنِ كَمَا يَعْرِضُ لِلْإِسْنَادِ، وَالْإِدْرَاجُ يَدْخُلُ فِي الْمَتْنِ كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِسْنَادِ، وَالشُّذُوذُ يَكُونُ فِي الْمَتْنِ كَمَا يَكُونُ فِي الْإِسْنَادِ.. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي أَجْرَوْهَا عَلَىٰ الْمَتْنِ وَالْإِسْنَادِ مَعًا.

وَلَكِنْ لِأَنَّ الْإِسْنَادَ هُوَ أَوَّلُ مَا يُقَابِلُكَ عِنْدَ النَّظَرِ فِي الْحَدِيثِ، فَالنَّظَرُ فِيهِ أَوَّلًا.

أَكَانُوا يَتْرُكُونَ الْإِسْنَادَ، وَيَنْظُرُونَ فِي الْمَتْنِ؟!

رُبَّمَا كَانَ الْمَتْنُ صَحِيحًا، وَكَانَ الْحَدِيثُ كَذِبًا مَحْضًا، كَمَا هُوَ فِي أَنْوَاعِ الْوَضْعِ، فَرُبَّمَا أَتَوْا بِقَاعِدَةٍ صَحِيحَةٍ أَوْ بِحِكْمَةٍ مُعْتَبَرَةٍ، ثُمَّ جَعَلُوا لَهَا إِسْنَادًا نَظِيفًا؛ فَيَكُونُ الْمَتْنُ صَحِيحًا وَيَكُونُ الْحَدِيثُ مَوْضُوعًا.

أَفَيَتْرُكُونَ الْإِسْنَادَ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ الْوَضْعِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَيَأْخُذُونَ بِنَقْدِ الْمَتْنِ؟

بَدَأُوا بِنَقْدِ الْإِسْنَادِ أَوَّلًا؛ هُوَ أَوَّلُ مَا يُقَابِلُهُمْ، فَإِذَا مَا ثَبَتَ الْإِسْنَادُ، ثَنَّوْا بِالنَّظَرِ فِي الْمَتْنِ، فَرُبَّمَا رَدُّوا الْحَدِيثَ، وَلَهُ إِسْنَادٌ نَظِيفٌ.

الشُّذُوذُ مَا هُوَ؟

مُخَالَفَةُ الثِّقَةِ لِمَنْ هُوَ أَوْثَقُ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنَّ الْحَافِظَ ابْنَ حَجَرٍ لَيَأْتِي بِكَلَامٍ كَأَنَّهُ تَعَجُّبٌ يَقُولُ: «الْحَدِيثُ الشَّاذُّ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الشُّرُوطُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَفَّرَ فِي

الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ»؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ هُوَ: مَا رَوَاهُ الْعَدْلُ الضَّابِطُ عَنْ مِثْلِهِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ مِنْ غَيْرِ شُذُوذٍ وَلَا عِلَّةٍ.

فَأَدْخَلُوا نَفْيَ الشُّذُوذِ، شَرْطَانِ سَلْبِيَّانِ، وَثَلَاثَةُ شُرُوطٍ إِيجَابِيَّةٍ.

فَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: مَا رَوَاهُ الْعَدْلُ، الضَّابِطُ، عَنْ مِثْلِهِ -هُوَ اتِّصَالُ الْإِسْنَادِ- مِنْ غَيْرِ شُذُوذٍ، وَلَا عِلَّةٍ.

الشُّذُوذُ مَا هُوَ؟

قَالُوا: مُخَالَفَةُ الثِّقَةِ.

وَالثِّقَةُ: عَدْلٌ ضَابِطٌ، وَالْإِسْنَادُ مُتَّصِلٌ، وَلَكِنْ خَالَفَ فِيهِ الثِّقَةُ مَنْ هُوَ أَوْثَقُ مِنْهُ.

فَالشُّذُوذُ يَلْحَقُ الْمَتْنَ كَمَا يَلْحَقُ الْإِسْنَادَ، فَرُبَّمَا كَانَ الْحَدِيثُ ظَاهِرَ الصِّحَّةِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ظَاهِرَ الصِّحَّةِ إِسْنَادًا وَمَتْنًا؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ مَا هِيَ؟

وَالتَّوَسُّعُ فِي إِطْلَاقِهَا عَلَىٰ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عَلَىٰ حَسَبِ الِاصْطِلَاحِ شَائِعٌ فَاشٍ فِي أَقْوَالِ عُلَمَائِنَا.

وَأَمَّا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي أَصْلِ الِاصْطِلَاحِ فَهِيَ: سَبَبٌ غَامِضٌ خَفِيٌّ يَطْعَنُ أَوْ يَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الْحَدِيثِ مَعَ أَنَّ ظَاهِرَهُ صِحَّتُهُ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَهُ الْخُلُوصُ مِنْ هَذَا الضَّعْفِ وَالْخُلُوصُ إِلَىٰ الصِّحَّةِ.

فَإِذَنْ يَكُونُ الْحَدِيثُ صَحِيحًا، وَالْعِلَّةُ تَكُونُ خَفِيَّةً، وَتَقْدَحُ فِي صِحَّتِهِ، وَيُرَدُّ بِسَبَبِ عِلَّتِهِ، وَالصِّحَّةُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْهِ إِسْنَادًا وَمَتْنًا، وَلَكِنْ فِيهِ عِلَّةٌ خَفِيَّةٌ.

فَهَذَا الْوَصْفُ بِالْخَفَاءِ رُبَّمَا خُولِفَ فِي إِطْلَاقِ أَنَّ الْحَدِيثَ أُعِلَّ لِكَذَا، وَتَكُونُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي أُعِلَّ بِهَا تَكُونُ ظَاهِرَةً غَيْرَ خَفِيَّةٍ، فَلَا يَكُونُ مُتَّسِقًا مَعَ الِاصْطِلَاحِ، وَلَكِنْ فِي الْأَصْلِ قَدْ يَكُونُ الْحَدِيثُ ظَاهِرَ الصِّحَّةِ سَنَدًا وَمَتْنًا، وَهُوَ مَرْدُودٌ؛ لِوُجُودِ عِلَّةٍ خَفِيَّةٍ فِيهِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ الْجَهَابِذَةُ مِنَ النَّقَدَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-.

إِذَنْ: فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَنَا الْحَدِيثُ فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِهِ، وَأَنْ نُسَلِّمَ هَذَا الْأَمْرَ لِأَهْلِهِ فِي مَسْأَلَةِ التَّصْحِيحِ وَالتَّضْعِيفِ.

اعْتَرَضَ كَثِيرٌ عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ تُحَارِبُونَ التَّقْلِيدَ، وَتَتَوَرَّطُونَ فِي التَّقْلِيدِ!

فَقَالُوا: كَيْفَ؟

قَالُوا: تَقُولُونَ صَحَّحَهُ فُلَانٌ، ضَعَّفَهُ فُلَانٌ.. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَأَنْتُمْ فِي هَذَا مُقَلِّدُونَ!

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا، إِنَّمَا هَذَا مِنْ بَابِ قَبُولِ قَوْلِ الثِّقَةِ»، وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ طُلَّابَ الْعِلْمِ، بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُونُوا جَمِيعًا مِنَ الْمُحَدِّثِينَ.

وَالْمُحَدِّثُونَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ دَرَجَاتٌ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَطَّلِعُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّصْحِيحِ

وَالتَّضْعِيفِ، فَهَذَا كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِفْنَاءِ عَشَرَاتِ السِّنِينَ فِي الْبَحْثِ فِي هَذَا الْعِلْمِ الشَّرِيفِ؛ حَتَّىٰ يَسْتَوِيَ لِلْبَاحِثِ قَدَمَاهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

أَمَّا أَنْ يَأْتِيَ طَالِبُ عِلْمٍ بِكِتَابٍ فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، وَيَأْتِيَ أَيْضًا بِكِتَابٍ فِي عِلْمِ الْمُصْطَلَحِ، وَيَقْرَأَبَعْضَ الْقَوَاعِدِ، وَيَنْظُرَ فِي الرِّجَالِ إِذَا مَا وَجَدَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ فِي إِسْنَادٍ، ثُمَّ يَقُولُ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَيَكُونُ ضَعِيفًا أَوْ مَوْضُوعًا، هُوَ لَا يَدْرِي كَمَا هِيَ فَاشِيَةٌ هَذِهِ السَّقْطَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ، وَيَتَعَجَّلُ؛ يُصَحِّحُ وَيُضَعِّفُ، مَالَكَ وَلِهَذَا الشَّأْنِ؟!

إِنَّ إِثْبَاتَ مَا لَمْ يَثْبُتْ كَنَفْيِ مَا ثَبَتَ، فَكُلُّهُ تَشْرِيعٌ، وَكُلُّهُ إِدْخَالٌ فِي الدِّينِ، أَوْ نَفْيٌ مِنْهُ مَا لَمْ يَدْخُلْهُ أَوْ مَا أُدْخِلَهُ!

فَالْحُكْمُ عَلَىٰ الْأَحَادِيثِ يَكُونُ قَوْلًا عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِذَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ مَلِيءٍ فِي هَذَا الْعِلْمِ، فَالَّذِينَ يَتَهَجَّمُونَ عَلَىٰ التَّصْحِيحِ وَالتَّضْعِيفِ شَاهَتْ وُجُوهُهُمْ!

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَتَعَجَّلُ يُصَحِّحُ وَيُضَعِّفُ، وَيُلْقِي مِنَ الْمَطَابِعِ بِأَطْنَانٍ مِنَ الْكُتُبِ يَأْخُذُهَا مَنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ، وَيَأْخُذُ بِحُكْمِهِ، صَحَّحَهُ فُلَانٌ وَضَعَّفَهُ فُلَانٌ، ثُمَّ يَسْتَدْرِكُ هُوَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَعْدَ سَنَوَاتٍ يُنْزِلُ كِتَابًا آخَرَ إِلَىٰ الْأَسْوَاقِ فِيهِ مَا تَرَاجَعَ عَنْهُ، كُنَّا فِي غِنًىٰ عَنْ هَذَا كُلِّهِ، وَأَنْتَ كُنْتَ فِي غِنًىٰ عَنِ الْإِفْكِ مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَتَهَجَّمُ؟!

الْزَمْ حَدَّكَ، مَنْ تَكُونُ؟! وَمَا تَكُونُ؟!

لَوْ جُمِعَ عِلْمُنَا كُلُّهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْآنَ، وَعَصَرْنَا حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنَّا مَا تَعَلَّمْنَاهُ مَا بَلَغَ عِلْمَ أَحْمَدَ!

كَانَ حَافِظًا؛ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ وَيُمَيِّزُ، كَانَ نَاقِدًا يُصَحِّحُ وَيُضَعِّفُ بِعِلْمٍ، وَكَانَ إِمَامًا فِي الْعَقِيدَةِ، فِي الْحَدِيثِ، فِي الْفِقْهِ، فِي اللُّغَةِ، فِي الْأَدَبِ، إِلَىٰ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ شَيْخُهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ: «أَحْمَدُ إِمَامٌ فِي سِتَّةِ عُلُومٍ»، وَذَكَرَ مِنْهَا: اللُّغَةَ.

وَالشَّافِعِيُّ نَفْسُهُ قَضَىٰ مَا قَضَىٰ مِنَ السَّنَوَاتِ فِي بَادِيَةِ بَنِي هُذَيْلٍ؛ لِيَحْمِلَ شِعْرَ الْهُذَلِيِّينَ، وَهُوَ مِنْ أَفْصَحِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ.

قَالَ رَاوِيَةُ الْعَرَبِ الْأَصْمَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَحَّحْتُ شِعْرَ الْهُذَلِيِّينَ عَلَىٰ فَتًىٰ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ، وَكَانَ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِ شَيْخِهِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، فَيَأْتِي سُفْيَانُ بِالْحَدِيثِ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِسْنَادًا وَمَتْنًا، ثُمَّ يَقُولُ: مَا عِنْدَكَ فِيهِ يَا شَافِعِيُّ؟». أَيْ: فِي الْمَعْنَىٰ مَعْنَىٰ الْمَتْنِ، فَيَقُولُ مَا أَفَاضَ اللهُ عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِهِ فِي حَلْقَتِهِ يَتَلَقَّىٰ مِنْهُ الْحَدِيثَ، وَكَانَ فَصِيحًا؛ لِأَنَّهُ قَرَأَ عَلَىٰ مَالِكٍ فَأَعْجَبَهُ، فَأَعْجَبَتْهُ قِرَاءَتُهُ مِنْ أَفْصَحِ الْعَرَبِ.

الشَّافِعِيُّ: قَالَ عَنْهُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَد مُحَمَّد شَاكِر فِي تَعْلِيقِهِ فِي حَاشِيَةٍ مِنَ الْحَوَاشِي عَلَىٰ «الرِّسَالَةِ» عِنْدَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَاتَفِقُ» فَكَتَبَ الْعَلَّامَةُ

أَحْمَد شَاكِر- وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ- قَالَ: «الشَّافِعِيُّ مِمَّنْ تُؤْخَذُ عَنْهُمُ اللُّغَةُ فَهَذِهِ تُؤْخَذُ عَنْهُ»

فَتَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَقِيسُ نَفْسَهُ بِأَحَدٍ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ!!!

مَا هَذَا؟!

وَهَذَا لَا يَجْعَلُ لِلْعِلْمِ مَرْدُودًا، الْعِلْمُ يُورِثُ الْخُشُوعَ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا يُورِثُكَ خُشُوعًا فَهُوَ عَلَيْكَ؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، لِأَنَّ الْعِلْمَ فِيهِ مَزْلَقٌ خَطِيرٌ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كَانَ عَلَيْكَ!

إِيَّاكَ! الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كَانَ عَلَيْكَ!

بِمَعْنَىٰ أَنَّكَ تُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ وَلَمْ يُورِثْكَ خَشْيَةً وَخُضُوعًا فَكُلَّمَا تَعَلَّمْتَ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ جَهْلِكَ، وَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ شَيْئًا!

وَالْعِلْمُ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَطَامَنَ، وَأَنْ نَتَّقِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ نَضْبِطَ الْمَسِيرَةَ الْعِلْمِيَّةَ، وَأَنْ نَكُفَّ أَلْسِنَتَنَا عَنِ اللَّغْوِ وَالْبَاطِلِ وَالْكَلَامِ بِلَا عِلْمٍ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِلَا عِلْمٍ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ أَكْبَرُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ وَهُوَ يُفَسِّرُ آيَةَ الْأَعْرَافِ: ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٩]، قَالَ: «هَذَا أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ طُرًّا».

فَإِذَا سُئِلْتَ مَا حُكْمُ شُرْبِ كَذَا؟ مَا حُكْمُ أَكْلِ كَذَا؟ فَأَنْتَ تَقُولُ: حَرَامٌ!

يَا رَجُلُ الَّذِي يُحَرِّمُ وَيُحَلِّلُ هُوَ اللهُ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذَا؟!

وَكَذَلِكَ فِي النَّوَازِلِ تَقَعُ النَّازِلَةُ يَتَصَدَّىٰ لَهَا فَسْلٌ، لَا يَدْرِي قَبِيلًا مِنْ دَبِيرٍ، وَالنَّوَازِلُ لَا يَتَصَدَّىٰ لَهَا إِلَّا الْمُتَمَكِّنُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ الْحُكْمَ مِنَ الْكِتَابِ، وَمِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ الْمُهَابُ ﷺ.

فَأُمُورٌ كَثِيرَةٌ تَحْتَاجُ إِلَىٰ إِعَادَةِ الضَّبْطِ، يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَبْحَثَ عَنِ الْخُشُوعِ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْأُمَّةِ فِي مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ، «يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ فَلَا تَرَىٰ فِيهِ خَاشِعًا»، هُوَ مَمْلُوءٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُصَلُّونَ أَوْ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، وَلَيْسَ فِيهِمْ خَاشِعٌ!

أَلَيْسَ هَذَا بِمُنْطَبِقٍ عَلَيْنَا؟!

خُشُوعًا، يَظْهَرُ فِي اللَّفْظِ، يَظْهَرُ فِي اللَّفْتَةِ، فِي الْحَرَكَةِ، فِي السَّكْنَةِ، فِي كُلِّ شَيْءٍ خَاشِعٌ، كَالْأَرْضِ الْخَاشِعَةِ الْمُتَطَامِنَةِ الَّتِي إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ رَبَتْ وَاهْتَزَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَلَكِنْ فِي حَالِ الْخُشُوعِ تَطَامُنٌ وَخُضُوعٌ مَذَلَّةٌ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، مَعْرِفَةٌ بِحَقِيقَةِ الْعَبْدِ، أَنْتَ عَبْدٌ فَمَا هَذَا شَأْنُ الْعَبْدِ مَعَ سَيِّدِهِ! حَتَّىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَحْدَهُ فَالتَّشْرِيعُ حَقُّهُ.

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

هَذَا الْكَلَامُ عَمَّنْ؟

عَنْ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٍ، وَحَاشَاهُ فَإِنَّهُ سُئِلَ سُؤَالًا لَوْ سُئِلَهُ عَامِّيٌّ الْيَوْمَ مِنَ الْأُمَّةِ لَأَسْرَعَ فِي الْجَوَابِ فِيهِ كَالسِّكِّينِ فِي قِطْعَةِ الزُّبْدِ، فَمَا بَالُكَ بِطَالِبِ الْعِلْمِ

أَيَجْمُلُ بِهِ أَنْ يَصْمُتَ وَقَدْ سُئِلَ؟

آفَةٌ! يَعْنِي: أَنْتَ لَا تَدْرِي قَدْرَ لَا أَدْرِي! قَدْرُهَا عَظِيمٌ؛ فَإِنَّكَ إِنْ عَرفْتَ قَدْرَهَا عَلَّمُوكَ؛ يَعْنِي إِذَا قُلْتَ لَا أَدْرِي عَلَّمُوكَ حَتَّىٰ تَدْرِيَ، وَإِذَا قُلْتَ أَدْرِي سَأَلُوكَ حَتَّىٰ لَا تَدْرِي!

فَآفَةٌ كَبِيرَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ أَنَّهُ إِذَا سُئِلَ يَعِزُّ عَلَيْهِ جِدًّا، وَيَعْتَبِرُهَا مَنْقَصَةً أَلَّا يَكُونَ عَالِمًا بِجَوَابِ السُّؤَالِ!

مَا شَاءَ اللهُ! عَلِيمٌ أَنْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ؟! أَحَطْتَ بِالدِّينِ عِلْمًا؟! كَمَا تَقُولُ أَحْيَانًا الْحَدِيثُ بِالتَّوْثِيقِ تَقْرَؤُهُ حَتَّىٰ لَا يَأْتِيَ فَسْلٌ مِنَ الْفُسُولِ وَعِلْجٌ مِنَ الْعُلُوجِ فَيَقُولَ: هَذَا هُوَ، نَقْرَأُ، وَمَاذَا فِي ذَلِكَ؟ كَانَ أَحْمَدُ مَعَ حِفْظِهِ لِمِلْيُونِ حَدِيثٍ لَا يُحَدِّثُ إِلَّا مِنْ كِتَابٍ!

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ رَحِمَهُ اللهُ -الَّذِي قَالَ فِيهِ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا احْتَقَرْتُ نَفْسِي فِي مَجْلِسِ أَحَدٍ مَا احْتَقَرْتُهَا فِي مَجْلِسِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ»، رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ- الْبُخَارِيُّ وَعَلِيٌّ يَقُولُ: «أَمَرَنِي سَيِّدِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَلَّا أُحَدِّثَ إِلَّا مِنْ كِتَابٍ» مَاذَا فِي ذَلِكَ؟

فَإِذَنْ تَقُولُ الْحَدِيثَ، فَيَعْتَرِضُكَ مُعْتَرِضٌ يَقُولُ: هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ أَسْمَعُهُ! فَاعْتِرَاضُهُ: بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ قَبْلُ!!

مَا شَاءَ اللهُ!

يَعْنِي أَنْتَ سَمِعْتَ كُلَّ الْأَحَادِيثِ، فَإِذَا سَمِعْتَ هَذَا وَأَنْكَرْتَهُ لَمْ يَصِرْ حَدِيثًا؟!

لَقَدِ اعْتَرَضُوا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ: كُلُّ حَدِيثٍ لَا يَعْلَمُهُ ابْنُ تَيْمِيَةَ فَلَيْسَ بِحَدِيثٍ، قَالُوا: كَيْفَ هَذَا لَا يُحِيطُ بِالسُّنَّةِ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ هُوَ مَنْ هُوَ قِيمَةً وَقَامَةً رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُقْبَلْ هَذَا فِيهِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ.

فَمِنْ آفَاتِ الطُّلَّابِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَجْرُؤُ، وَلَا تَقْوَىٰ نَفْسُهُ وَلَا تَنْبَعِثُ عَزِيمَتُهُ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِي، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَا أَدْرِي، وَمَعَ أَنَّ أَمِينَ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ قَالَ: لَا أَدْرِي، وَمَعَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُطَهَّرِينَ قَالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] عِنْدَمَا سَأَلَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْأَسْمَاءِ: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وَجَاءَ -كَمَا فِي رِوَايَةِ الْحَاكِمِ فِي الْمُسْتَدْرَكِ- عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا شَرُّ الْبُلْدَانِ؟ قَالَ: «**لَا أَدْرِي، حَتَّىٰ أَسْأَلَ جِبْرِيلَ**». فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ! مَا شَرُّ الْبُلْدَانِ؟**». قَالَ: «**لَا أَدْرِي، حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَبِّي**». ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**سَأَلْتَنِي عَنْ شَرِّ الْبُلْدَانِ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَبِّي، وَقَدْ سَأَلْتُ رَبِّي، فَقَالَ: شَرُّ الْبُلْدَانِ أَسْوَاقُهَا**».

مَا شَرُّ الْمَوَاضِعِ فِي الْبُلْدَانِ؟ السُّؤَالُ لَيْسَ عَنْ شَرِّ الْبُلْدَانِ مِنْ حَيْثُ هِيَ الْبُلْدَانُ، وَإِنَّمَا عَنْ شَرِّ الْمَوَاضِعِ فِي الْبُلْدَانِ؛ فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: «**أَسْوَاقُهَا**»،

قَالَ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ وَمُقَدَّمُ الْمَلَائِكَةِ: «**لَا أَدْرِي**»، وَقَالَ الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ ﷺ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ: «**لَا أَدْرِي**».

وَالْيَوْمَ سَلْ مَنْ شِئْتَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، مَا شَرُّ الْبُلْدَانِ؟

فَرُبَّمَا يَقُولُ لَكَ: سُبْكُ الْأَحَدِ!

سَلْ تَكْفِيرِيًّا، سَلْ حَدَّادِيًّا، سَلْ مُنْحَرِفًا ظَالِمًا، مَاذَا سَيَقُولُ لَكَ؟

فَإِذَا كَانَ مِنْ خَارِجِ مِصْرَ قَالَ: مِصْرُ، وَالْمِصْرِيُّ يَقُولُ: بَلَدُ كَذَا، وَهَكَذَا هُوَ لَا يَدْرِي حَقِيقَةَ السُّؤَالِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَعْرِفَ الْإِجَابَةَ الصَّحِيحَةَ، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ!

فَإِذَا جَاءَ النَّصُّ فَكِلْهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ سَنَدًا لِلثُّبُوتِ وَنَفْيًا، وَمَتْنًا لِلْمَعْنَىٰ وَفَهْمِهِ.

يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَتَطَامَنَ، أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَامَلَ مَعَ النُّصُوصِ، وَلَسْتَ مُؤَهَّلًا؛ فَالشَّافِعِيُّ يَقُولُ: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ وَتَرَكْتُ بِهَا أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَهُوَ إِمَامٌ فِي سِتَّةِ عُلُومٍ» مَعْنَىٰ مَا قَالَ وَذَكَرَ مِنْهَا: اللُّغَةَ.

فَتَجِدُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَفِي كِتَابٍ، وَإِذَا قَرَأَفَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ إِنَّمَا تُفْهَمُ لِتُقْرَأَ، لَا تُقْرَأُ لِتُفْهَمَ؛ سَائِرُ لُغَاتِ الْبَشَرِ تُقْرَأُ لِتُفْهَمَ، وَأَمَّا لُغَتُنَا فَتُفْهَمُ لِتُقْرَأَ؛ يَعْنِي إِذَا قَرَأْتَ قَوْلَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَلَمْ يَكُنِ الْقَوْلُ الْإِلَهِيُّ الْكَرِيمُ مَضْبُوطًا بِالشَّكْلِ فَأَنْتَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ الْفَهْمِ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَافِظًا، وَإِلَّا وَقَعْتَ فِي أَنَّ الْقَاعِدَةَ السَّائِدَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ الْفَاعِلُ عَلَىٰ الْمَفْعُولِ، وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ عَلَىٰ الْفَاعِلِ فَهُوَ

أَضْرُبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْبَلَاغَةِ بَحَثَهَا عُلَمَاؤُنَا كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فَالْخَشْيَةُ وَاقِعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ لَا مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَمَّا عَلَىٰ الْقَاعِدَةِ الشَّائِعَةِ: فَسَيُضْبَطُ لَفْظَ الْجَلَالَةِ بِالضَّمِّ عَلَىٰ الْفَاعِلِيَّةِ وَيُجْعَلُ الْعُلَمَاءُ بِالنَّصْبِ عَلَىٰ الْمَفْعُولِيَّةِ؛ فَكَأَنَّ الْخَشْيَةَ وَقَعَتْ مِنَ اللهِ حَاشَا وَكَلَّا مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهَذِهِ إِحَالَةٌ لِلنَّصِّ.

فَيَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ أَوَّلًا؛ لِتُقْرَأَ قِرَاءَةً صَحِيحَةً: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] الْمَفْعُولُ هَاهُنَا مُقَدَّمٌ أَيْضًا؛ فَالِابْتِلَاءُ وَاقِعٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَوَاقِعٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] الْفَاعِلُ: اللهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي يُنْصَبُ عَلَىٰ الْفَاعِلِيَّةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَضْبُوطًا، فَإِنَّكَ حِينَئِذٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ فَاهِمًا قَرَأْتَهُ قِرَاءَةً خَاطِئَةً فِيهَا إِحَالَةٌ لِلْمَعْنَىٰ أَيْضًا.

فَلُغَتُنَا الشَّرِيفَةُ تُفْهَمُ، نَحْنُ أَهْلُ الْفَهْمِ لُغَةً وَدِيَانَةً، نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ أَهْلُ الْفَهْمِ يَرْمُونَنَا بِأَنَّنَا لَا نَفْهَمُ، لَا، الْمُسْلِمُونَ أَهْلُ الْفَهْمِ دِيَانَةً وَلُغَةً وَسُلُوكًا وَفَهْمًا لِلْحَيَاةِ فِي تَطَوُّرِهَا وَفِي حَرَكَةِ حَيَاتِهَا، وَلَكِنَّهُ الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُقَابَلُ بِمَا يَدْفَعُهُ مِنْ إِثْبَاتِ الضِّدِّ، أَثْبِتُوا ضِدَّ ذَلِكَ!

أَثْبِتُوا أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَفْهَمُونَ حَقًّا!

لَا، لَا يُثْبِتُونَ؛ عُقُولٌ مُتَصَلِّبَةٌ، وَأَلْفَاظٌ جَاسِيَةٌ قَاسِيَةٌ، وَحَرَكَاتٌ مُتَشَجِّنَةٌ؛ فَأَنَّىٰ يُنْظَرُ إِلَىٰ مِثْلِ هَؤُلَاءِ؟

رِفْقٌ وَرَحْمَةٌ، وَكَمَا سَتَرَىٰ فِي سِيرَةِ وَمَسِيرَةِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ﷺ.

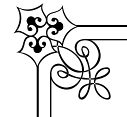
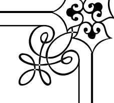
إِذَنْ نَنْظُرُ فِي النَّصِّ إِذَا ثَبَتَ لَا كَلَامَ؛ إِنْ كَانَ خَبَرًا نَقُولُ: سَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا، وَإِذَا كَانَ أَمْرًا نَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا!

هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي يُطْلَبُ مِنَ الْمُسْلِمِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَنْ يُفَهِّمَنَا حَقِيقَةَ دِينِنَا، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفَهْمَ لِحَقِيقَةِ الدِّينِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ النَّافِعَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

* * *



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الرَّدُّ عَلى مُنْكِرِي حَادِثَة شَقِّ الصَّدْرِ

فَقَدْ مَرَّ مَعَنَا -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- ذِكْرُ حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ الثَّابِتَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ وَقَعَ مَرَّتَيْنِ:

مَرَّةً وَهُوَ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ.

وَمَرَّةً أُخْرَىٰ عِنْدَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ.

وَأَنْكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الزَّائِغِينَ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ، وَشَكَّكُوا فِيهَا؛ فَـ(السِّير مُوير) أَنْكَرَ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ عَلَىٰ مَعْنَاهَا الظَّاهِرِ، وَرَأَىٰ أَنَّ مَا حَدَثَ إِنَّمَا هُوَ نَوْبَةٌ عَصَبِيَّةٌ.

وَأَمَّا (دُرْمِنْغِم) فَجَعَلَهَا أُسْطُورَةً، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ أَنَّهَا أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ يُشِيرُ إِلَىٰ مَغْزًىٰ فَلْسَفِيٍّ، فَقَالَ: إِنَّهَا نَشَأَتْ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وَأَنَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ أَمْرٌ بَاطِنِيٌّ قَامَ عَلَىٰ تَطْهِيرِ ذَلِكَ الْقَلْبِ؛ لِيَتَلَقَّىٰ رِسَالَةَ اللهِ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، وَيُبَلِّغُهَا بِإِخْلَاصٍ تَامٍّ، وَقَالَ: «إِنَّ أُسْطُورَةَ شَقِّ الصَّدْرِ ذَاتُ مَغْزًىٰ فَلْسَفِيٍّ لِمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ تِلْكَ الدَّرَنَةُ السَّوْدَاءُ مِنَ الْخَطِيئَةِ الْأُولَىٰ الَّتِي لَمْ يُعْفَ عَنْهَا غَيْرُ مَرْيَمَ وَعِيسَىٰ، وَلِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَىٰ الْوَرَعِ الصُّوفِيِّ...» ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: «حَيَاةِ مُحَمَّدٍ».

وَتَأَثَّرَ بِهَذَا الرَّأْيِ الَّذِي قَالَ بِهِ هَؤُلَاءِ بَعْضُ الْكَاتِبِينَ فِي السِّيرَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ: مُحَمَّد حُسَيْن هِيكَل، قَالَ: «لَا يَطْمَئِنُّ الْمُسْتَشْرِقُونَ، وَلَا يَطْمَئِنُّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَذَلِكَ إِلَىٰ قِصَّةِ الْمَلَكَيْنِ هَذِهِ؛ وَيَرَوْنَهَا ضَعِيفَةَ السَّنَدِ...» إِلَىٰ آخِرِ مَا قَالَ.

وَطَعَنَ فِي الْقِصَّةِ بِأَنَّهَا ضَعِيفَةُ السَّنَدِ، وَأَنَّهَا مُرْسَلَةٌ، وَأَنَّ الْقِصَّةَ رَوَاهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ فِي سِنِّ السَّنَتَيْنِ، وَكَانَ النَّبِيُّ فِي مِثْلِ هَذِهِ السِّنِّ -أَيْضًا- وَهِيَ سِنٌّ لَا يَحْصُلُ فِيهَا التَّمْيِيزُ حَتَّىٰ يَكُونَ تَحَمُّلُ الرَّاوِي لِلْقِصَّةِ صَحِيحًا! كَمَا ذَكَرَ مَزَاعِمَ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «حَيَاةِ مُحَمَّدٍ».

وَلِلرَّدِّ عَلَىٰ مَا أَثَارَهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَغَيْرُهُمْ حَوْلَ حَادِثِ شَقِّ الصَّدْرِ، قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا أَنَّ الْمُسْتَشْرِقَ السِّيرَ مُويرَ لَمْ يَرْضَ أَنْ يُشِيرَ إِلَىٰ قِصَّةِ الْمَلَكَيْنِ؛ فَثُبُوتُ الْقِصَّةِ أَوْ نَفْيُهَا لَا يَتْبَعُ رِضَاهُ وَلَا عَدَمَ رِضَاهُ، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي هَذَا: ثُبُوتُ الرِّوَايَةِ أَوْ عَدَمُ ثُبُوتِهَا، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ اسْتَرَاحَ الدُّكْتُورُ هِيكَل إِلَىٰ زَعْمِ مُويرَ وَتَجْوِيزِهِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ فِي طُفُولَتِهِ أَصَابَتْهُ نَوْبَةٌ عَصَبِيَّةٌ، وَقَدْ تَنَبَّهَتْ لَهَا حَلِيمَةُ وَزَوْجُهَا، وَأَنَّ هَذِهِ النَّوْبَةَ لَمْ تُؤَثِّرْ فِي النَّبِيِّ؛ لِحُسْنِ تَكْوِينِهِ.

وَهُوَ دَسٌّ خَبِيثٌ وَطَعْنٌ مَرْدُودٌ، وَلَيْسَ فِي الْقِصَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَلِمَاذَا رَجَّحَ ظَنَّ حَلِيمَةَ وَزَوْجِهَا، وَتَخَوُّفَهُمَا أَنْ يَكُونَ أَصَابَ النَّبِيَّ شَيْءٌ، وَلَمْ يُرَجِّح قَطْعَ

أُمِّهِ السَّيِّدَةِ آمِنَةَ فِي أَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، وَالْأُمُّ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالِابْنِ وَآخِرُ مَنْ يَقْتَنِعُ بِزَوَالِ أَثَرِ الْمَرَضِ عَنِ الِابْنِ؟!!

وَمُويرُ لِأَجْلِ أَنْ يُنْكِرَ الشَّقَّ وَقَعَ فِيمَا هُوَ أَشَدُّ نُكْرًا! وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ أَصَابَتْهُ نَوْبَةٌ عَصَبِيَّةٌ حَتَّىٰ خُيِّلَ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ بِحَاصِلٍ حَاصِلًا، وَهِيَ شِنْشِنَةٌ نَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ.

أَمَّا أَنَّ درمنغم يَرَىٰ أَنَّ الْقِصَّةَ لَا تَسْتَنِدُ إِلَىٰ شَيْءٍ غَيْرِ مَا يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ، وَأَنَّ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ عَمَلٌ رُوحِيٌّ بَحْتٌ.

فَنَحْنُ لَمْ نَقُلْ: إِنَّ الْآيَةَ هِيَ الدَّلِيلُ، وَإِنْ كَانَ الْبَعْضُ يَقُولُ إِنَّهَا تُشِيرُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الدَّلِيلَ هُوَ مَا ثَبَتَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا.

أَمَّا أَنَّ مَا يَدْعُو الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ إِنْكَارِ هَذَا الْحَادِثِ أَنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ كُلُّهَا إِنْسَانِيَّةً سَامِيَةً، فَنَحْنُ نَرَىٰ أَلَّا تَنَافِيَ قَطُّ بَيْنَ سُمُوِّ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَثُبُوتِ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْحِسِّيَّةِ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَهَلْ عِيسَىٰ لَمَّا وُلِدَ بِغَيْرِ أَبٍ، وَأَجْرَىٰ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ لَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُ إِنْسَانِيَّةً؟!

وَهَلْ مُوسَىٰ عليه السلام لَمَّا أُعْطِيَ الْآيَاتِ التِّسْعَ لَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُ إِنْسَانِيَّةً؟!!

الْحَقُّ أَنَّهَا لُوثَةٌ حَمَلَ لِوَاءَهَا الْمُسْتَشْرِقُونَ، وَسَرَتْ عَدْوَاهَا إِلَىٰ بَعْضِ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ الْمُعَاصِرِينَ!!

ثُمَّ إِنَّ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ لَيْسَتْ مُخَالِفَةً لِلْعَقْلِ، لَقَدْ ظَلَمَ الدُّكْتُورُ هِيكَل الْعَقْلَ حِينَ قَالَ ذَلِكَ، وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ، وَمُخَالَفَةِ الْعَقْلِ، وَلَوْ جَازَ هَذَا التَّشْكِيكُ فِي الْقِصَّةِ فِي الْعُصُورِ الْأُولَىٰ، فَلَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْعِلْمُ وَالطِّبُّ، وَأَصْبَحَتْ تُجْرَىٰ فِيهِ الْجِرَاحَاتُ الْخَطِيرَةُ فِي الْقَلْبِ، وَفِي الْكُلَىٰ وَفِي الرِّئَتَيْنِ». يَقُولُ: «بَلْ أَنَا أَكْتُبُ هَذَا وَتَجْرِي مُحَاوَلَاتٌ عِدَّةٌ لِزَرْعِ بَعْضِ أَجْزَاءِ إِنْسَانٍ فِي جِسْمِ إِنْسَانٍ آخَرَ»: وَكَانَ هَذَا مُنْذُ فَتْرَةٍ وَقَعَ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي كَتَبَهُ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيرٌ مِنَ التَّطَوُّرِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ مِمَّا لَوْ قِيلَ لَهُ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَعُدَّ خَيَالًا مِنْ ضُرُوبِ الْخَيَالِ.

يَقُولُ: «فَإِذَا جَازَ أَنْ يَقَعَ هَذَا مِنَ الْبَشَرِ؛ أَ فَنَسْتَبْعِدُ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِأَمْرِهِ أَنْ يَشُقُّوا صَدْرَ النَّبِيِّ، ثُمَّ يَلْتَئِمَ بِلَا آلَةٍ وَلَا أَلَمٍ وَلَا سَيَلَانِ دَمٍ؟!

ثُمَّ مَا لِلْمُعْجِزَاتِ، وَلِسُنَنِ الْكَوْنِ الْعَادِيَّةِ؟! هَلْ نَتَعَلَّلُ فِي إِنْكَارِهَا بِأَنَّنَا لَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا؟!

وَمَا الْمُعْجِزَاتُ إِلَّا أُمُورٌ خَارِقَةٌ لِلْمَأْلُوفِ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْكَوْنِ.

أَمَّا قَوْلُ الْبَعْضِ: «إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ ضَعِيفَةُ السَّنَدِ»: فَنَقْدٌ مُجْمَلٌ، وَكُنَّا نُحِبُّ مِنَ النَّاقِدِ أَوِ الْمُنْكِرِ، وَقَدْ عَرَضَ إِنْكَارَ أَمْرٍ يُقِرُّهُ جَمْهَرَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَفِيهِمْ أَئِمَّةٌ كِبَارٌ لَهُمْ بَصَرٌ بِالنَّقْدِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ لِلرُّوَاةِ، ثُمَّ نُحِبُّ أَنْ يَنْقُدَ سَنَدَ الْقِصَّةِ نَقْدًا تَفْصِيلِيًّا، أَمَا وَقَدْ أَتَىٰ بِهِ نَقْدًا مُجْمَلًا فَهُوَ مُعَارِضٌ بِتَوْثِيقِ أَئِمَّةٍ كِبَارٍ لِسَنَدِ هَذِهِ

الْقِصَّةِ، وَقَدْ سَمِعْتَ آنِفًا أَنَّ الْقِصَّةَ رَوَاهَا الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَإِنْ كَانَتْ مُجْمَلَةً، وَأَنَّ بَعْضَ أَسَانِيدِ الْقِصَّةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةً فَهِيَ حَسَنَةٌ وَجَيِّدَةٌ، وَتَصْلُحُ لِلِاحْتِجَاجِ بِهَا؛ بَلْ قِصَّةُ الشَّقِّ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مَرْوِيَّةٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ، بَلْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ: إِنَّهَا مُتَوَاتِرَةٌ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -بَعْدَ أَنْ عَرَضَ لِذِكْرِ لِلرِّوَايَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ شَقِّ الصَّدْرِ وَتَكَرُّرِهِ-: «وَجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصَّدْرِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْقَلْبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مِمَّا يَجِبُ التَّسْلِيمُ عَلَيْهِ دُونَ التَّعَرُّضِ لِصَرْفِهِ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِصَلَاحِيَةِ الْقُدْرَةِ؛ فَلَا يَسْتَحِيلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «الْمُفْهِمِ»: لَا يُلْتَفَتُ لِإِنْكَارِ الشَّقِّ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ؛ لِأَنَّ رُوَاتَهُ ثِقَاتٌ مَشَاهِيرُ، وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ بِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ يَلْزَمُهُ التَّصْدِيقُ بِهِ فِي الصِّغَرِ؛ مَا دَامَ الْأَمْرَانِ ثَابِتَيْنِ بِالرِّوَايَاتِ الَّتِي يُحْتَجُّ بِهَا.

أَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ رَوَاهَا مُرْسَلَةً عَنْ رَجُلٍ لَمْ يُسَمَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَلَا يَنْهَضُ دَلِيلًا لِلطَّعْنِ؛ إِذِ الْمَعْرُوفُ فِي قَوَاعِدِ أُصُولِ الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّحَابَةَ عُدُولٌ فَلَا تَضُرُّ جَهَالَةُ الصَّحَابِيِّ.

أَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْقِصَّةَ رَوَاهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ فِي سِنٍّ لَيْسَتْ بِسِنِّ تَمْيِيزٍ؛ فَهَذَا بَنَوْهُ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الصَّحِيحَ الَّذِي رَجَّحَهُ أَئِمَّةُ النَّقْدِ وَالرِّوَايَةِ

أَنَّ الشَّقَّ كَانَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ، أَوْ أَوَائِلِ الْخَامِسَةِ مِنْ عُمُرِهِ ﷺ، وَهِيَ سِنُّ تَمْيِيزٍ، لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ النَّبِيِّ وَأَخِيهِ السَّعْدِيِّ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَنَا أَذْكُرُ أَحْدَاثًا وَقَعَتْ لِي وَأَنَا فِي الرَّابِعَةِ أَوْ دُونَهَا، وَلَا أَنْسَاهَا أَبَدًا، وَكَأَنَّهَا مَاثِلَةٌ أَمَامِي الْآنَ، وَهِيَ دُونَ قِصَّةِ الشَّقِّ، وَالْكَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ يَذْكُرُونَ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَالْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَىٰ عَدَمِ تَحْدِيدِ سِنِّ التَّحَمُّلِ بِخَمْسِ سِنِينَ؛ بَلْ قَالُوا: الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ التَّمْيِيزُ، وَقَدْ يَكُونُ ابْنَ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَهُوَ مُمَيِّزٌ أَكْثَرَ مِنِ ابْنِ خَمْسٍ أَوْ سِتٍّ، وَقَدْ يَكُونُ ابْنَ خَمْسٍ -مَثَلًا- وَتَمْيِيزُهُ دُونَ تَمْيِيزِ ابْنِ أَرْبَعٍ.

فَمِمَّا ذُكِرَ يَتَبَيَّنُ الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ نَقَدَ مَتْنَ الْقِصَّةِ بِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ أَقَامَ فِي بَنِي سَعْدٍ إِلَىٰ خَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَأَنَّ النَّقْدَ أَصْبَحَ غَيْرَ مَقْبُولٍ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ الرَّأْيُ الصَّحِيحُ الرَّاجِحُ.

● ● ●

خَاتَمُ النُّبُوَّةِ

وَأَمَّا خَاتَمُ النُّبُوَّةِ: فَقَدْ وَرَدَتْ رِوَايَاتٌ عِدَّةٌ تُفِيدُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي جَسَدِهِ قِطْعَةُ لَحْمٍ نَاتِئَةٌ، عَلَيْهَا شَعْرٌ عِنْدَ كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ كَزِرِّ الْحَجَلَةِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَ«صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، أَوْ كَبَيْضَةِ الْحَمَامَةِ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَهِيَ مَا كَانَ يُعْرَفُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ.

وَالرِّوَايَاتُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الْخَاتَمَ كَانَ مِنْ عَلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قِصَّةُ بَحِيرَىٰ الرَّاهِبِ، فَقَدْ تَحَايَلَ حَتَّىٰ رَآهُ، ثُمَّ قَالَ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ مَا قَالَ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا الْخَاتَمَ تَكَوَّنَ بَعْدَ الْوِلَادَةِ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ الْأَصَحِّ كَانَ بَعْدَ قِصَّةِ شَقِّ الصَّدْرِ، وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ وُلِدَ بِهِ، أَوْ خُتِمَ بِهِ عَقِبَ الْوِلَادَةِ فَضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِسَنَدِهِمَا عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ! فَمَسَحَ رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ- وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُتَوَضَّأُ بِهِ- وَقُمْتُ خَلْفَ أَظْهُرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ

الْحَجَلَةِ».

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: «رَأَيْتُ خَاتَمًا فِي ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّهُ بَيْضَةُ حَمَامٍ».

وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ سَلْمَانَ، وَسَتَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا-.

خَاتَمُ النُّبُوَّةِ: عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ؛ كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قِصَّةُ بَحِيرَىٰ الرَّاهِبِ، وَقِصَّةُ إِسْلَامِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالسِّرُّ فِي وَضْعِ الْخَاتَمِ عِنْدَ كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ ﷺ أَنَّ الْقَلْبَ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ؛ وَلِأَنَّهُ ﷺ مَعْصُومٌ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، وَذَلِكَ الْمَوْضِعُ قَالُوا يَدْخُلُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ.

فَيَجْتَهِدُ الْعُلَمَاءُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرَجَ فِي اجْتِهَادِهِمْ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ مِثْلَ هَذَا فَلْيَرُدَّهُ؛ الْمُهِمُّ أَنْ يُثْبِتَ مَا وَرَدَ ثَابِتًا فِي النُّصُوصِ، وَأَمَّا لِمَاذَا كَانَ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ؟

فَالْعُلَمَاءُ يَجْتَهِدُونَ، جَزَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ خَيْرًا.

رَوَىٰ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الشَّمَائِلِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ الْعَوَقِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ -يَعْنِي: خَاتَمَ النُّبُوَّةِ- فَقَالَ: «كَانَ فِي ظَهْرِهِ بَضْعَةٌ نَاشِزَةٌ»: وَالْبَضْعَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ، وَنَاشِزَةٌ: أَيْ: مُرْتَفِعَةٌ عَنِ الْجِسْمِ، قَالَ: «كَانَ فِي ظَهْرِهِ بَضْعَةٌ نَاشِزَةٌ».

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ: «فَنَظَرْتُ إِلَىٰ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ الْحَجَلَةِ».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ خَاتَمًا فِي ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّهُ بَيْضَةُ حَمَامٍ».

وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا -أَوْ قَالَ: ثَرِيدًا- قَالَ: ثُمَّ دُرْتُ خَلْفَهُ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عِنْدَ نَاضِدِ كَتِفِهِ الْيُسْرَىٰ -وَالنَّاضِدُ: أَعْلَىٰ الْكَتِفِ- جُمْعًا عَلَيْهِ خِيلَانٌ كَأَمْثَالِ الثَّآلِيلِ» الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَالْخِيلَانُ: جَمْعُ خَالٍ، وَهُوَ الشَّامَةُ فِي الْجَسَدِ.

وَثَآلِيلُ: جَمْعُ ثُؤْلُولٍ، وَهُوَ هَذِهِ الْحَبَّةُ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْجِلْدِ كَالْحِمَّصَةِ فَمَا دُونَهَا.

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْتَرِبْ مِنِّي!** فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ: **أَدْخِلْ يَدَكَ فَامْسَحْ ظَهْرِي!** قَالَ: فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي قَمِيصِهِ، فَمَسَحْتُ ظَهْرَهُ، فَوَقَعَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ إِصْبَعِي، قَالَ: فَسُئِلَ عَنْ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ: شَعَرَاتٌ بَيْنَ كَتِفَيْهِ».

وَفِي رِوَايَةِ الْحَاكِمِ فِي الْمُسْتَدْرَكِ: قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «شَعْرٌ مُجْتَمِعٌ عِنْدَ كَتِفَيْهِ».

هُنَاكَ رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ فِي هَذَا أَيْضًا، مِنْهَا: مَا رَوَىٰ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ فِي ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ الْبُنْدُقَةِ مِنْ لَحْمٍ، عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». هَذَا لَا يَثْبُتُ؛ هَذَا سَنَدُهُ ضَعِيفٌ.

قَالَ الْحَافِظُ: «وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهَا -يُرِيدُ الْخَاتَمَ- كَانَتْ كَأَثَرِ مِحْجَمٍ -وَالْمِحْجَمُ: بِكَسْرِ الْمِيمِ، الْآلَةُ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا دَمُ الْحِجَامَةِ عِنْدَ الْمَصِّ- كَأَثَرِ مِحْجَمٍ أَوْ كَالشَّامَةِ السَّوْدَاءِ أَوِ الْخَضْرَاءِ، أَوْ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، أَوْ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: سِرْ فَأَنْتَ مَنْصُورٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَغْتَرَّ بِمَا وَقَعَ مِنْهَا فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ؛ فَإِنَّهُ غَفَلَ حَيْثُ صَحَّحَ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ». انْتَهَىٰ كَلَامُ الْحَافِظِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ».

⦿⦿⦿

النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفَالَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ جَدِّهِ، ثُمَّ عَمِّهِ

بَعْدَ حَادِثِ شَقِّ الصَّدْرِ الشَّرِيفِ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَشِيَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّتْهُ إِلَىٰ أُمِّهِ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ ﷺ خَمسَ سَنَوَاتٍ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: قَالَ لِي أَبُوهُ- تَعْنِي: زَوْجَهَا الْحَارِثَ، وَهُوَ أَبُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ-: يَا حَلِيمَةُ! لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أُصِيبَ! فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ، قَالَتْ: فَاحْتَمَلْنَاهُ، فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَىٰ أُمِّهِ، فَقَالَتْ آمِنَةُ لِحَلِيمَةَ: مَا أَقْدَمَكِ بِهِ، وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ مُكْثِهِ عِنْدَكِ؟!

فَقَالَتْ حَلِيمَةُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ اللهُ بِابْنِي، وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ، وَتَخَوَّفْتُ الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ، فَأَدَّيْتُهُ إِلَيْكِ كَمَا تُحِبِّينَ!

قَالَتْ: مَا هَذَا بِشَأْنِكِ، فَاصْدُقِينِي خَبَرَكِ!

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ تَدَعْنِي حَتَّىٰ أَخْبَرْتُهَا.

فَقَالَتْ آمِنَةُ: أَ فَتَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟!

قَالَتْ حَلِيمَةُ: قُلْتُ: نَعَمْ.

فَقَالَتْ آمِنَةُ: كَلَّا، وَاللهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِنَّ لِبُنَيَّ لَشَأْنًا، دَعِيهِ عَنْكِ.

قِصَّةُ اسْتِرْضَاعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ عِنْدَ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ ذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَابْنِ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ سَنَدَهَا مُنْقَطِعٌ، وَلَكِنْ لِلْقِصَّةِ شَوَاهِدُ صَحِيحَةٌ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهَا تَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ الْقِصَّةِ.

قَالَتْ: إِنَّ لِبُنَيَّ لَشَأْنًا، دَعِيهِ عَنْكِ!

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ سِتَّ سِنِينَ تُوُفِّيَتْ وَالِدَتُهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ بِالْأَبْوَاءِ، -الْأَبْوَاءُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِتَبَوُّءِ السُّيُولِ بِهَا، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْفَرْعِ مِنَ الْمَدِينَةِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُحْفَةِ مِمَّا يَلِي الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ مِيلًا-.

وَقِيلَ: الْأَبْوَاءُ: جَبَلٌ عَلَىٰ يَمِينِ آرَةَ، وَيَمِينِ الطَّرِيقِ لِلْمُصْعِدِ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَهُنَاكَ بَلَدٌ يُنْسَبُ إِلَىٰ هَذَا الْجَبَلِ.

تُوُفِّيَتْ وَالِدَتُهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ بِالْأَبْوَاءِ، وَقَدْ بَلَغَ ﷺ سِتَّ سِنِينَ، وَهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ بَعْدَ زِيَارَةٍ قَامَتْ بِهَا مَعَهُ ﷺ إِلَىٰ أَخْوَالِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِالْمَدِينَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ ﷺ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَا خِلَافَ أَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بِالْأَبْوَاءِ، مُنْصَرَفَهَا مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ زِيَارَةِ أَخْوَالِهِ، وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ سِنِينَ».

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قبرَ أُمِّهِ؛ رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَىٰ، وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ! ثُمَّ قَالَ: **«اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»**.

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَهُ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ رَاكِبٍ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ -أَيْ: تَجْرِي دُمُوعُهُمَا- فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَفَدَّاهُ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ؟! قَالَ ﷺ: **إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ؛ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ**».

هَا هُوَ ذَا النَّبِيُّ ﷺ، وَقَدْ عَادَتْ بِهِ حَلِيمَةُ بَعْدَ حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ فِي مُبْتَدَأِ سَنَتِهِ الْخَامِسَةِ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ، وَقَدْ شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ، وَقَوِيَ جِسْمُهُ وَغَلُظَ عُودُهُ، وَبَلَغَ مِنَ النَّضْرَةِ وَمَيْعَةِ الصِّبَا مَا لَمْ يَبْلُغْهُ صَبِيٌّ فِي مِثْلِ عُمْرِهِ.

وَقَدْ عَاشَ فِي كَنَفِ الْأُمِّ الْحَنُونِ، وَأَضْحَىٰ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهَا؛ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَشْغَلُهَا أَوْ يُلْهِيهَا عَنْهُ، وَدَرَجَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ الشَّيْخِ الَّذِي كَانَ يَحْنُو عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ حُنُوِّهِ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ، وَقَدْ وَجَدَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِي النَّبِيِّ ﷺ عِوَضًا عَنْ أَحَبِّ أَبْنَائِهِ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَالِدُهُ عَبْدُ اللهِ.

فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ السَّادِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ ارْتَأَتْ أُمُّهُ أَنْ تَذْهَبَ بِهِ إِلَىٰ أَخْوَالِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِيَثْرِبَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ؛ لِيَرَىٰ مَكَانَهُ، وَلِيَعْلَمَ مَكَانَةَ هَؤُلَاءِ الْأَخْوَالِ الْكِرَامِ؛ وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْخُؤُولَةِ اعْتِبَارُهَا لَمَّا هَاجَرَ فِيمَا بَعْدُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

فَذَهَبَتْ بِهِ لِذَلِكَ، وَلِيَقْضِيَا حَقَّ الْحَبِيبِ الْمُغَيَّبِ فِي رَمْسِهِ، فِي تُرَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنْ تَكُونَ الْأُمُّ حَدَّثَتِ ابْنَهَا بِقِصَّةِ أَبِيهِ وَمُفَارَقَتِهِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي شَرْخِ شَبَابِهِ، وَأَنَّ الِابْنَ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ الْبَلَدِ الَّذِي ضَمَّ رُفَاتَ الْأَبِ.

خَرَجَتِ الْأُمُّ وَالِابْنُ، وَمَعَهُمَا أُمُّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ الْحَبَشِيَّةُ جَارِيَةُ أَبِيهِ، وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُقَامُ فِي دَارِ النَّابِغَةِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَمَكَثُوا عِنْدَهُمْ شَهْرًا، وَزَارُوا الْحَبِيبَ الثَّاوِيَ فِي قَبْرِهِ، وَحَرَّكَتِ الزِّيَارَةُ نَوَاجِعَ الشَّوْقِ وَالْأَحْزَانِ فِي نَفْسِ الْأُمِّ وَالِابْنِ، وَانْطَبَعَ مَعْنَىٰ الْيُتْمِ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَاهِيًا عَنْهُ.

وَبَعْدَ أَنْ قَضَوْا حَاجَاتِ النَّفْسِ عَادَ الرَّكْبُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَفِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ مَرِضَتِ الْأُمُّ، وَحُمَّ الْقَضَاءُ، وَدُفِنَتْ بِقَرْيَةِ الْأَبْوَاءِ، وَجَلَسَ الِابْنُ يَذْرِفُ الدَّمْعَ سَخِينًا عَلَىٰ فِرَاقِ أُمِّهِ الَّتِي كَانَ يَجِدُ فِي كَنَفِهَا الْحُبَّ وَالْحَنَانَ، وَالسُّلُوَّ وَالْعَزَاءَ عَنْ فَقْدِ الْأَبِ.

وَهَكَذَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَلَمَّا يُجَاوِزِ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ أَنْ يَذُوقَ

مَرَارَةَ فَقْدِ الْأَبَوَيْنِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّمَا مَرَّ بِقَبْرِ أُمِّهِ زَارَهُ، وَيَبْكِي وَيُبْكِي مَنْ حَوْلَهُ.

فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَىٰ، وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ! ثُمَّ قَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ؛ تُذَكِّرْكُمُ الْمَوْتَ**».

وَرَوَىٰ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِوَدَّانَ -وَوَدَّانُ مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنَ الْأَبْوَاءِ- قَالَ: «**مَكَانَكُمْ حَتَّىٰ آتِيَكُمْ**»، فَانْطَلَقَ، ثُمَّ جَاءَنَا وَهُو ثَقِيلٌ، فَقَالَ: «**إِنِّي أَتَيْتُ قَبْرَ أُمِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ** -يَعْنِي: **لَهَا**- **فَمَنَعَنِيهَا، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**».

وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: «انْتَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ رَسْمِ قَبْرٍ فَجَلَسَ، وَجَلَسَ النَّاسُ حَوْلَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُ رَأْسَهُ كَالْمُخَاطِبِ، ثُمَّ بَكَي، فَاسْتَقْبَلَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هَذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ الِاسْتِغْفَارَ لَهَا فَأَبَىٰ عَلَيَّ، وَأَدْرَكَتْنِي رِقَّتُهَا فَبَكَيْتُ**»، قَالَ: فَمَا رُئِيتُ سَاعَةً أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ!

الْحَدِيثُ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَعِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ، كَمَا قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ».

بَعْدَ مَوْتِ أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ كَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَرَقَّ عَلَيْهِ رِقَّةً لَمْ يَرِقَّهَا عَلَىٰ وَلَدِهِ، وَكَانَ يُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَيُدْنِيهِ إِلَيْهِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ إِذَا خَلَا، وَإِذَا نَامَ، وَلَا يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا يَقُولُ: عَلَيَّ بِابْنِي! فَيُؤْتَىٰ بِهِ إِلَيْهِ، وَبِذَلِكَ عَوَّضَهُ اللهُ بِحَنَانِ جَدِّهِ عَنْ حَنَانِ الْأَبَوَيْنِ.

وَكَانَتْ حَاضِنَتُهُ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهِ: أُمَّ أَيْمَنَ، وَهِيَ بَرَكَةُ الْحَبَشِيَّةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ بْنِ حِصْنٍ، كَانَتْ لِأَبِيهِ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ، أَسْلَمَتْ قَدِيمًا، وَهَاجَرَتِ الْهِجْرَتَيْنِ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّهَا مَاتَتْ بَعْدَهُ ﷺ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ بِسَنَةٍ، وَقِيلَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ، وَقِيلَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنهم جَمِيعًا.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا كَبِرَ يَعْرِفُ لِبَرَكَةَ ذَلِكَ وَيَقُولُ: «**هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي**»، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَثِيرًا مَا يَقُولُ لَهَا: «يَا بَرَكَةُ، لَا تَغْفُلِي عَنِ ابْنِي؛ فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَعَ غِلْمَانٍ قَرِيبًا مِنَ السِّدْرَةِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنِي هَذَا نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ!».

كَانَ الْجَدُّ يُسَرُّ لِمَا يَرَىٰ مِنْ مَخَايِلِ الشَّرَفِ وَالْعِزَّةِ عَلَىٰ حَفِيدِهِ مُحَمَّدٍ؛ فَقَدْ كَانَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِرَاشٌ يُوضَعُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ بَنُوهُ يَجْلِسُونَ حَوْلَ فِرَاشِهِ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْهِ لَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِيهِ؛ إِجْلَالًا لَهُ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي وَهُوَ غُلَامٌ يَافِعٌ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ -أَيْ: عَلَىٰ هَذَا الْفِرَاشِ- فَيَأْخُذُهُ أَعْمَامُهُ؛ لِيُؤَخِّرُوهُ عَنْهُ، فَيَقُولُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ -وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ نَفْسَهُ-: «دَعُوا ابْنِي، فَوَاللهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا!»، ثُمَّ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، وَيَمْسَحُ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، وَيَضُمُّهُ إِلَيْهِ،

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ بَعْضُ كَلَامٍ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْدُثُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ.

لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ الْوَفَاةُ أَوْصَىٰ ابْنَهُ أَبَا طَالِبٍ -وَكَانَ أَخَا شَقِيقًا لِعَبْدِ اللهِ وَالِدِ النَّبِيِّ ﷺ- أَوْصَىٰ أَبَا طَالِبٍ بِكَفَالَةِ النَّبِيِّ وَحِيَاطَتِهِ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَدُفِنَ بِالْحَجُونِ، وَكَانَتْ سِنُّ النَّبِيِّ ﷺ ثَمَانِ سِنِينَ.

كَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو طَالِبٍ بِأَكْبَرِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا بِأَكْثَرِهِمْ مَالًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَشْرَفَ قُرَيْشٍ، وَأَعْظَمَهَا مَكَانَةً، وَأَكْرَمَهَا نَفْسًا!

وَقَدْ أَحَبَّ أَبُو طَالِبٍ ابْنَ أَخِيهِ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا لَا يُحِبُّهُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ؛ فَكَانَ لَا يَنَامُ إِلَّا إِلَىٰ جَنْبِهِ، وَيَخْرُجُ فَيَخْرُجُ مَعَهُ، وَصَبَّ بِهِ صَبَابَةً لَمْ يَصَبَّ مِثْلَهَا بِشَيْءٍ قَطُّ -أَيْ: أَحَبَّهُ حُبًّا عَظِيمًا- وَكَانَ يَخُصُّهُ بِالطَّعَامِ، وَكَانَ إِذَا أَكَلَ عِيَالُ أَبِي طَالِبٍ جَمِيعًا أَوْ فُرَادَىٰ لَمْ يَشْبَعُوا، وَإِذَا أَكَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَبِعُوا، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَبُو طَالِبٍ أَنْ يُؤْكِلَهُمْ قَالَ: «كَمَا أَنْتُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَلَدِي!»، فَيَأْتِي النَّبِيُّ ﷺ فَيَأْكُلُ مَعَهُمْ، فَكَانُوا يُفَضِّلُونَ -أَيْ: يُبْقُونَ- مِنْ طَعَامِهِمْ بَعْدَ شِبَعِهِمْ، فَيَعْجَبُ أَبُو طَالِبٍ وَيَقُولُ: «إِنَّكَ لَمُبَارَكٌ!».

وَكَانَ الصِّبْيَانُ يُصْبِحُونَ رُمْصًا شُعْثًا، رُمْصًا: جَمْعُ أَرْمَصَ، وَالرَّمَصُ قَذَرٌ يَكُونُ فِي مُوقِ الْعَيْنِ، وَشُعْثًا: جَمْعُ أَشْعَثَ، أَيْ: ثَائِرَ الرَّأْسِ فَائِرَ شَعْرِهَا، وَيُصْبِحُ مُحَمَّدٌ دَهِينًا كَحِيلًا.

وَقَدْ زَادَهُ حُبًّا فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَتَحَلَّىٰ بِهِ النَّبِيُّ فِي صِبَاهُ مِنْ طِيبِ الشَّمَائِلِ، وَكَرَمِ الْآدَابِ فِي هَيْئَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجُلُوسِ وَالْكَلَامِ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ فِي هَذِهِ السِّنِّ بَيْنَ الصِّبْيَانِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَطَرَهُ مِنْ صِغَرِهِ عَلَىٰ خَيْرِ الْخِلَالِ وَالْآدَابِ.

ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهِ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ، كَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَطْوَلَ النَّاسِ قَامَةً وَأَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا مَا رَآهُ قَطُّ شَيْءٌ إِلَّا أَحَبَّهُ! وَكَانَ لَهُ مَفْرَشٌ فِي الْحِجْرِ لَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَكَانَ النَّدِيُّ مِنْ قُرَيْشٍ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ فَمَنْ دُونَهُ يَجْلِسُونَ حَوْلَهُ -أَيْ: حَوْلَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ- دُونَ الْمَفْرَشِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ غُلَامٌ يَدْرُجُ؛ لِيَجْلِسَ عَلَىٰ الْمَفْرَشِ فَجَذَبُوهُ، فَبَكَىٰ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ -وَذَلِكَ بَعْدَمَا حُجِبَ بَصَرُهُ-: «مَا لِابْنِي يَبْكِي؟!». قَالُوا لَهُ: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ الْمَفْرَشِ فَمَنَعُوهُ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: «دَعُوا ابْنِي؛ فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِشَرَفٍ، أَرْجُو أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الشَّرَفِ مَا لَمْ يَبْلُغْ عَرَبِيٌّ قَطُّ!». وَهَذَا صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ الْأَزْرَقِيُّ فِي «تَارِيخِ مَكَّةَ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ذَاتَ يَوْمٍ بَعَثَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ بِابْنِ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ، وَلَمْ يَبْعَثْهُ فِي حَاجَةٍ إِلَّا أَنْجَحَ فِيهَا! فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ، وَيَقُولُ:

يَا رَبِّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّدَا يَا رَبِّ رُدَّهُ وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالإِبِلُ فَاعْتَنَقَهُ، وَقَالَ: «يَا بُنَيَّ، لَقَدْ جَزِعْتُ عَلَيْكَ جَزَعًا لَمْ أَجْزَعْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ قَطُّ! وَاللهِ، لَا أَبْعَثُكَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا! وَلَا تُفَارِقُنِي بَعْدَ هَذَا أَبَدًا!». أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ.

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ تُوُفِّيَ جَدُّهُ.

أَوْصَىٰ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ -كَمَا مَرَّ- وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِ الْمَوْتِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَقِيقَ عَبْدِ اللهِ، فَكَفَلَهُ؛ لِأَنَّ أُمَّهُمَا هِيَ: فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ الْمَخْزُومِيَّةُ، فَكَانَ أَبُو طَالِبٍ أَخًا لِعَبْدِ اللهِ لِأَبَوَيْهِ؛ حَاطَهُ أَتَمَّ حِيَاطَةٍ، وَنَصَرَهُ حِينَ بَعَثَهُ اللهُ أَعَزَّ نَصْرٍ مَعَ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَمِرًّا عَلَىٰ شِرْكِهِ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ، فَخَفَّفَ اللهُ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِهِ!

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟! قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.



رَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ الْغَنَمَ

كَانَ ﷺ يَرْعَىٰ الْغَنَمَ، وَيَجْنِي الْكَبَاثَ -وَهُوَ النَّضِيدُ مِنْ ثَمَرِ الْأَرَاكِ، وَشَجَرَةُ الْأَرَاكِ دَائِمَةُ الْخُضْرَةِ يُسْتَخْرَجُ السِّوَاكُ مِنْ جُذُورِهَا-؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَفَلَهُ عَمُّهُ كَانَ كَثِيرَ الْعِيَالِ قَلِيلَ الْمَالِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ سَلَكَ طَرِيقَ الْكَدْحِ وَالْكِفَاحِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَكَانَ يَرْعَىٰ الْغَنَمَ عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَيُشَارِكُ ﷺ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَجْتَنِي الْكَبَاثَ، فَقَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ**». قَالَ: فَقُلْنَا: وَكُنْتَ تَرْعَىٰ الْغَنَمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ رَعَاهَا؟!**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

اشْتَغَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صِبَاهُ بِرَعْيِ الْغَنَمِ، رَعَاهَا لِأَهْلِهِ، وَرَعَاهَا لِبَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَضَرَبَ مَثَلًا عَالِيًا فِي صِغَرِهِ فِي اكْتِسَابِ الرِّزْقِ بِالْكَدِّ وَالتَّعَبِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي كِبَرِهِ، وَهُوَ مُغْتَبِطٌ مَسْرُورٌ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «افْتَخَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ**» وَقَالَ: «**بُعِثَ مُوسَىٰ وَهُوَ يَرْعَىٰ غَنَمًا لِأَهْلِهِ، وَبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا**

أَرْعَىٰ غنَمًا لِأَهْلِي بِجِيَادٍ» وَهُوَ مَكَانٌ أَسْفَلَ مَكَّةَ. وَقَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ رَعَىٰ الْغَنَمَ**». فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ».

وَالْقَرَارِيطُ: جَمْعُ قِيرَاطٍ، هُوَ جُزْءٌ مِنَ الدِّينَارِ أَوِ الدِّرْهَمِ، يَعْنِي كَانَ يَرْعَاهَا بِأَجْرٍ ﷺ.

● ● ●

الْحِكْمَةُ فِي رَعْيِ الْأَنْبِيَاءِ الْغَنَمَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ

وَالْحِكْمَةُ فِي رَعْيِ الْأَنْبِيَاءِ الْغَنَمَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ بِالتَّمَرُّنِ وَالتَّعَوُّدِ عَلَىٰ رِعَايَتِهَا الْقُدْرَةُ عَلَىٰ رِعَايَةِ أُمَمِهِمْ، وَعَلَىٰ الْقِيَامِ بِشُئُونِهِمْ؛ إِذْ فِي رَعْيِ الْغَنَمِ مَا يُحَصِّلُ لَهُمُ الْحِلْمَ وَالشَّفَقَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَيُعَوِّدُهُمْ مِنَ الصِّغَرِ الصَّبْرَ وَطُولَ الْبَالِ، وَالْأَنَاةَ وَالتَّرَيُّثَ، وَزَجْرَ الْبَاغِي، وَجَبْرَ كَسْرِ الضَّعِيفِ، وَيُرَبِّي فِيهِمْ مَلَكَةَ الْحِرْصِ عَلَىٰ الْمَصْلَحَةِ، وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ، وَحُسْنَ التَّعَاهُدِ وَالرِّفْقَ بِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَالسَّهَرَ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِمْ.

وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ السَّابِقِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ مَا يُشِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَعَانِي، أَنَّ رَعْيَ الْغَنَمِ كَانَ يُتِيحُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ ذَلِكَ: الْهُدُوءَ الَّذِي تَتَطَلَّبُهُ نَفْسُهُ الْكَرِيمَةُ، وَيُبِيحُ لَهُ الْمُتْعَةَ بِجَمَالِ الصَّحْرَاءِ، وَيُتِيحُ لَهُ التَّطَلُّعَ إِلَىٰ مَظَاهِرِ جَلَالِ اللهِ فِي عَظَمَةِ الْخَلْقِ، وَيُتِيحُ لَهُ مُنَاجَاةَ الْوُجُودِ فِي هَدْأَةِ اللَّيْلِ وَظِلَالِ الْقَمَرِ وَنَسَمَاتِ الْأَسْحَارِ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ فِي عَظَمَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، يُتِيحُ لَهُ لَوْنًا مِنَ التَّرْبِيَةِ النَّفْسِيَّةِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِنَايَةِ بِالضَّعِيفِ حَتَّىٰ يَقْوَىٰ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَتَاحَ لَهُ ذَلِكَ -أَيْضًا- ارْتِيَادَ مَشَارِعِ الْخِصْبِ وَالرِّيِّ، وَتَجَنُّبَ

الْهَلَكَةِ وَمَوَاطِنِ الْخَوْفِ مِنْ كُلِّ مَا لَا تُتِيحُهُ حَيَاةٌ أُخْرَى بَعِيدَةٌ عَنْ جَوِّ الصَّحْرَاءِ وَهُدُوئِهَا وَسِيَاسَةِ هَذَا الْحَيَوَانِ الْأَلِيفِ الضَّعِيفِ.

⊙⊙⊙

حِفْظُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَوْضَارِ الْجَاهِلِيَّةِ

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ صَانَ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ شِرْكِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ فَالْبِيئَةُ قَدْ مَرَّ وَصْفُ طَرَفٍ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي أَحْوَالِهَا الدِّينِيَّةِ وَأَحْوَالِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَأَحْوَالِهَا الْخُلُقِيَّةِ، وَفِي هَذَا الْوَسَطِ نَشَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَتَرَقَّىٰ فِي مَرَاحِلِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الصِّغَرِ صَبِيًّا، فَتِيًّا، شَابًّا، كَهْلًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي تِلْكَ الْبِيئَةِ، فَتَوَلَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِحِفْظِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ ﷺ؛ فَصَانَهُ اللهُ عَنْ شِرْكِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي جَارٌ لِخَدِيجَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: **«أَيْ خَدِيجَةُ! وَاللهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ الْعُزَّىٰ أَبَدًا»**. وَكَانَ لَا يَأْكُلُ مِمَّا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ، وَوَافَقَهُ فِي ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ.

وَقَدْ حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي شَبَابِهِ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّبَابِ، وَدَوَاعِيهِ الْبَذِيئَةِ الَّتِي تَنْزِعُ إِلَيْهَا الشَّبُوبِيَّةُ بِطَبْعِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُلَائِمُ وَقَارَ الْهُدَاةِ، وَلَا جَلَالَ الْمُرْشِدِينَ.

فَشَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَكْلَأُهُ وَيَحْفَظُهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِينَ؛ لِمَا يُرِيدُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهُمُّونَ بِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، كِلْتَيْهِمَا يَعْصِمُنِي اللهُ مِنْهُمَا، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ فِي أَغْنَامٍ لِأَهْلِهِ يَرْعَاهَا: أَبْصِرْ إِلَيَّ غَنَمِي حَتَّىٰ أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ أَدْنَىٰ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ غِنَاءً وَضَرْبَ دُفُوفٍ وَمَزَامِيرَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّىٰ غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟! فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَ، فَخَرَجْتُ فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لِي، فَلَهَوْتُ بِمَا سَمِعْتُ حَتَّىٰ غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟! قُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا!** -قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ-: **فَوَاللهِ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّىٰ أَكْرَمَنِي اللهُ بِنُبُوَّتِهِ**». أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَىٰ رَقَبَتِكَ؛ يَقِكَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَفَعَلَ، فَخَرَّ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ قَالَ: «**إِزَارِي، إِزَارِي**» فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ صَنَمٌ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ وَنَائِلَةُ، يَتَمَسَّحُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا، فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ مَسَحْتُ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَمَسَّهُ**». قَالَ زَيْدٌ: فَطُفْنَا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُ؛ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَكُونُ، فَمَسَحْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تُنْهَ؟**». قَالَ زَيْدٌ: «فَوَالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا قَطُّ حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ!». أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

كَانَ ﷺ لَا يَقِفُ بِمُزْدَلِفَةَ لَيْلَةَ عَرَفَةَ، بَلْ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ حَتَّىٰ يَدْفَعَ تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ إِنَّمَا تَدْفَعُ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْحُمْسُ: هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ، وَهِيَ بِدْعَةٌ ابْتَدَعَتْهَا قُرَيْشٌ عَامَ الْفِيلِ؛ حَيْثُ رَأَوْا أَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ عَنْ بَقِيَّةِ النَّاسِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْحَرَمِ إِلَىٰ الْحِلِّ، فَتَرَكُوا الْوُقُوفَ بِعَرَفَةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا، وَلِسَائِرِ الْعَرَبِ أَنْ يَقِفُوا عَلَيْهَا وَيُفِيضُوا مِنْهَا، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ حَتَّىٰ يَدْفَعَ مِنْ عَرَفَاتٍ إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ قُرَيْشٌ، إِنَّمَا تَدْفَعُ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْحُمْسُ، فَلَا نَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ، وَقَدْ تَرَكَهَا الْموقِفُ عَلَىٰ عَرَفَةَ،

قَالَ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ عَلَىٰ جَمَلٍ لَهُ، ثُمَّ يُصْبِحُ مَعَ قَوْمِهِ بِالْمُزْدَلِفَةِ، فَيَقِفُ مَعَهُمْ، وَيَدْفَعُ إِذَا دَفَعُوا» أَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

كَانَ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّةِ لَا يَأْكُلُ مِمَّا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ، وَلَا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ.

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ -وَهِيَ وَادٍ قِبَلَ مَكَّةَ أَوْ هِيَ جَبَلٌ بِطَرِيقِ جَدَّةَ-، فَلَقِيَهُ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ -أَيْ: قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ- فَقَدَّمَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُفْرَةً، فِيهَا لَحْمٌ، فَأَبَىٰ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، وَقَالَ: «**إِنِّي لَا آكُلُ مِمَّا يَذْبَحُونَ -أَوْ تَذْبَحُونَ عَلَىٰ أَنْصَابِكُمْ! وَلَا آكُلُ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ!**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

●●●

صُحْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِلَىٰ الشَّامِ، وَلَقِيَ رَاهِبًا يُقَالُ لَهُ: بَحِيرَىٰ، وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا الَّذِي سَيُقَالُ!

بَحِيرَىٰ: رَاهِبٌ نَسْطُورِيٌّ عَلَىٰ مَذْهَبِ أَرْيُوسَ، وَأَرْيُوسُ قَسٌّ نَصْرَانِيٌّ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْمِيلَادِيِّ، ثَبَتَ عَلَىٰ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، وَرَفَضَ وَأَتْبَاعُهُ عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ، وَعَدُّوهُ شِرْكًا وَتَحْرِيفًا لِدِينِ الْمَسِيحِ الصَّحِيحِ، فَكَانُوا يُنْكِرُونَ أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ، أَوْ أَنَّهُ ابْنُ اللهِ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، اضْطَهَدَهُمُ الرُّومَانُ، وَنَكَّلُوا بِهِمْ، وَشَنُّوا عَلَيْهِمْ حَرْبًا أَبَادُوهُمْ مِنْ خِلَالِهَا، وَأَخْفَوْا هَذِهِ الْحِقْبَةَ مِنَ التَّارِيخِ.

فَخَرَجَ بِهِ ﷺ عَمُّهُ إِلَىٰ الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ، وَهُوَ ابْنُ اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ لُطْفِهِ تَعَالَىٰ بِهِ.

وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْ تَمَامِ لُطْفِ أَبِي طَالِبٍ بِهِ؛ لِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ بِهِ إِذَا تَرَكَهُ بِمَكَّةَ، فَرَأَىٰ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ إِلَىٰ الشَّامِ رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ فِيهِ ﷺ مَا زَادَ عَمَّهُ فِي الْوَثَاقِ بِهِ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ.

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَىٰ الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ

النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا -أَيْ: دَنَوْا وَاقْتَرَبُوا - فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَىٰ الرَّاهِبِ، -وَقَعَ فِي سِيرَةِ الزُّهْرِيِّ كَمَا قَالَ السُّهَيْلِيُّ أَنَّ بَحِيرَىٰ كَانَ حَبْرًا مِنْ أَحْبَارِ يَهُودِ تَيْمَاءَ، وَتَعَقَّبَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ وَقَالَ: الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ سِيَاقِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ كَانَ رَاهِبًا نَصْرَانِيًّا - فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَىٰ الرَّاهِبِ -يَعْنِي: بَحِيرَىٰ، بِفَتْحِ الْبَاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ، قَالَ الْحَافِظُ فِي الْإِصَابَةِ: وَجَزَمَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ فِي مِيزَانِ الِاعْتِدَالِ فِي تَرْجَمَةِ سَعِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بِأَنَّ بَحِيرَىٰ لَمْ يُدْرِكِ الْبَعْثَةَ، وَأَقَرَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْحَافِظُ فِي لِسَانِ الْمِيزَانِ -فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَىٰ الرَّاهِبِ -يَعْنِي: بَحِيرَىٰ- هَبَطُوا - أَيْ: نَزَلُوا-، فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ قَالَ: وَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ خَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّىٰ جَاءَ، فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟! قَالَ: إِنَّكُمْ قَدْ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ -وَهِيَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ- فَلَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا، لَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ -وَالْغُضْرُوفُ أَيْ: غُضْرُوفُ الْكَتِفِ هُوَ رَأْسُ لَوْحِهِ- يَقُولُ: مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ، وَكَانَ هُوَ -أَيِ: الرَّسُولُ ﷺ- فِي رَعْيَةِ الْإِبِلِ، قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ -أَيْ: إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ- فَأَقْبَلَ ﷺ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَىٰ فَيْءِ -أَيْ: إِلَىٰ ظِلِّ الشَّجَرَةِ -فَلَمَّا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَالَ فَيْءُ

الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَحِيرَىٰ: انْظُرُوا إِلَىٰ فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ! قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَلَّا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ الرُّومِ؛ فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ عَلَيْهِ بِأُنَاسٍ، وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ، فَبُعِثْنَا إِلَىٰ طَرِيقِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟! قَالُوا: إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ إِلَىٰ طَرِيقِكَ هَذَا! قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ عِنْدَهُ، قَالَ: فَقَالَ الرَّاهِبُ بَحِيرَىٰ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟! قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ، حَتَّىٰ رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ -أَيْ: مَعَ النَّبِيِّ ﷺ- أَبَا بَكْرٍ وَبِلَالًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ.

هَذِهِ الرِّوَايَةُ أَخْرَجَهَا التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَالْحَافِظُ فِي الْإِصَابَةِ، وَالْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَقَالَ: رِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ. وَصَحَّحَهُ كَذَلِكَ الْحَاكِمُ، وَالْأَلْبَانِيُّ، وَشُعَيْبٌ، رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْإِصَابَةِ»: «الْحَدِيثُ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَلَيْسَ فِيهِ مُنْكَرٌ سِوَىٰ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَهِيَ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَتُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّهَا مُدْرَجَةٌ فِيهِ، مُقْتَطَعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ، وَهُمَا قَدْ وَقَعَا، وَهُمَا مِنْ أَحَدِ رُوَاتِهِ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَعَ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنَ الْغَلَطِ الْوَاضِحِ؛ فَإِنَّ بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ ذَاكَ -لَعَلَّهُ- لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، وَإِنْ كَانَ فَلَمْ يَكُنْ مَعَ عَمِّهِ وَلَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ».

وَأَنْكَرَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ: «وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ جِدًّا، وَأَيْنَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ؟ كَانَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ؛ فَإِنَّهُ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ، وَأَيْنَ كَانَ بِلَالٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؟ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَشْتَرِهِ إِلَّا بَعْدَ الْمَبْعَثِ، وَلَمْ يَكُنْ وُلِدَ بَعْدُ، وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَمِيلَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ؟! لِأَنَّ ظِلَّ الْغَمَامَةِ يُعْدِمُ فَيْءَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَزَلَ تَحْتَهَا، وَلَمْ نَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَّرَ أَبَا طَالِبٍ قَطُّ بِقَوْلِ الرَّاهِبِ، وَلَا تَذَاكَرَتْهُ قُرَيْشٌ، وَلَا حَكَتْهُ أُولَئِكَ الْأَشْيَاخُ مَعَ تَوَفُّرِ هِمَمِهِمْ وَدَوَاعِيهِمْ عَلَىٰ حِكَايَةِ مِثْلِ ذَلِكَ، فَلَوْ وَقَعَ لَاشْتُهِرَ بَيْنَهُمْ أَيَّمَا اشْتِهَارٍ، وَلَبَقِيَ عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِسُّ النُّبُوَّةِ، وَلَمَا أَنْكَرَ مَجِيءَ الْوَحْيِ أَوَّلًا بِغَارِ حِرَاءٍ، وَأَتَىٰ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَائِفًا عَلَىٰ عَقْلِهِ.

وَأَيْضًا فَلَوْ أَثَّرَ هَذَا الْخَوْفُ فِي أَبِي طَالِبٍ وَرَدَّهُ، كَيْفَ كَانَتْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ السَّفَرِ إِلَىٰ الشَّامِ -أَيْ: بَعْدَ ذَلِكَ- تَاجِرًا لِخَدِيجَةَ؟ قَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ أَلْفَاظٌ مُنْكَرَةٌ تُشْبِهُ أَلْفَاظَ الطُّرُقِيَّةِ، مَعَ أَنَّ ابْنَ عَائِذٍ قَدْ رَوَىٰ مَعْنَاهُ فِي مَغَازِيهِ دُونَ قَوْلِهِ: وَبَعَثَ مَعَهُ أَبَا بَكْرٍ وَبِلَالًا» هَذَا كَلَامُ الْإِمَامِ الذَّهَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لَهُ.

وَقَعَ عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِ سِيَاقِ التِّرْمِذِيِّ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلَكِنَّ رِوَايَةَ ابْنِ إِسْحَاقَ بِدُونِ سَنَدٍ، فَيُسْتَأْنَسُ بِرِوَايَتِهِ؛ لِإِمَامَتِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ، يَعْنِي فِي الْمَغَازِي.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِيهِ -أَيْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ- مِنَ الْغَرَائِبِ أَنَّهُ مِنْ مُرْسَلَاتِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ إِنَّمَا قَدِمَ فِي سَنَةِ خَيْبَرَ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَعَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ مُرْسَلٌ، إِنَّ الْغَمَامَةَ لَمْ تُذْكَرْ فِي حَدِيثٍ أَصَحَّ مِنْ هَذَا!»، ثُمَّ اعْتَرَضَ عَلَىٰ ذِكْرِ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ بِمَا اعْتَرَضَ عَلَيْهِ الذَّهَبِيُّ.

وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ: «إِنَّ فِي مَتْنِهِ نَكَارَةً».

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «تَلْخِيصِهِ عَلَىٰ الْمُسْتَدْرَكِ»: «وَأَظُنُّهُ مَوْضُوعًا، فَبَعْضُهُ بَاطِلٌ!».

وَأَنْكَرَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْوَكِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَعْلِيقِهِ عَلَىٰ الرَّوْضِ الْأُنُفِ»، ذِكْرَ أَبِي بَكْرٍ، وَبِلَالٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

الَّذِينَ قَبِلُوا هَذَا الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَرُدُّوهُ: التِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ، وَابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ، وَالْجَزَرِيُّ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَالْعَسْقَلَانِيُّ، وَالسُّيُوطِيُّ، وَابْنُ حَجَرٍ، وَالْأَلْبَانِيُّ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ.

وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَقْوَالِ النُّقَّادِ، فَمَا دَامَتِ الْمُشْكِلَةُ خَطَأَ وُرُودِ ذِكْرِ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ فِي الْقِصَّةِ، فَتُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّهَا مُدْرَجَةٌ فِيهِ مُقْتَطَعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ وَهْمًا

مِنْ أَحَدِ رُوَاتِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ!

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ الْقِصَّةَ بِنَحْوِ سِيَاقِ التِّرْمِذِيِّ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ، وَلَكِنَّهَا بِدُونِ إِسْنَادٍ، فَيُسْتَأْنَسُ بِرِوَايَتِهِ لِإِمَامَتِهِ فِي الْمَغَازِي، وَيَكَادُ يَكُونُ لِكُلِّ رِوَايَتِهِ غَيْرِ الْمُسْنَدَةِ أَصْلٌ.

أَمَّا إِعْلَالُ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْقِصَّةِ بِأَنَّهَا مِنْ رِوَايَةِ الْأَشْعَرِيِّ الَّذِي قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ، فَمَعَ مُحَاوَلَةِ ابْنِ كَثِيرٍ لِلْإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ، فَهُنَاكَ رِوَايَةٌ أُخْرَىٰ رَوَاهَا رُزَيْنٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِيهِ وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ عَنْهَا: «وَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ كَبِيرُ اخْتِلَافٍ، وَلَعَلَّ بِهَا يَزُولُ الْإِرْسَالُ الْمَذْكُورُ، ثُمَّ إِنَّ مُرْسَلَ الصَّحَابِيِّ يُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِعْلَالُ الْحَدِيثِ بِأَنَّ فِيهِ ذِكْرَ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ، وَكَانَ عُمْرُ أَبِي بَكْرٍ إِذْ ذَاكَ تِسْعَ سِنِينَ أَوْ عَشْرًا، إِنَّمَا هِيَ دَعْوَىٰ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ عُمْرَهُ ﷺ يَوْمَئِذٍ ثِنْتَا عَشْرَةَ سَنَةً، وَهَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَهُ مُقَيَّدًا بِهَذَا الْوَاقِدِيُّ كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَالْوَاقِدِيُّ مَتْرُوكٌ مُتَّهَمٌ، فَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ الْقِصَّةُ وَقَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ، فَلَا يَجُوزُ إِعْلَالُهَا بِمِثْلِ قَوْلِ الْوَاقِدِيِّ الْمُنْكَرِ!».

وَذَكَرَ ابْنُ عَسَاكِرَ أَنَّ بَحِيرَىٰ كَانَ يَسْكُنُ قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا: الْكَفْرُ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ بُصْرَىٰ سِتَّةُ أَمْيَالٍ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: دَيْرُ بَحِيرَىٰ، قَالَ: وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا: مَنْفَعَةُ بِالْبَلْقَاءِ.

وَقَدْ صَحَّحَ الْحَدِيثَ الْأَلْبَانِيُّ، وَذَكَرَ سَبْعَةً مِنَ الْحُفَّاظِ سَبَقُوهُ إِلَىٰ تَصْحِيحِهِ.

انْتَهَزَ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَالْمُغْرِضُونَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، وَهِيَ لِقَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَبْرٍ مِنْ أَحْبَارِ النَّصَارَىٰ، شَخْصِيَّتُهُ وَمَكَانَتُهُ فِي الْعَالَمِ مَجْهُولَتَانِ، فَصَنَعُوا مِنَ الْحَبَّةِ قُبَّةً، وَأَسَّسُوا عَلَيْهَا بِنَاءً شَامِخًا مِنْ تَلَقِّي رَسُولِ اللهِ ﷺ لِتَعَالِيمِ التَّوْحِيدِ النَّقِيَّةِ مِنْ حَبْرٍ نَصْرَانِيٍّ!

وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ كَارْدِيفُوكْس الْفَرَنْسِيَّ أَلَّفَ كِتَابًا مُسْتَقِلًّا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ أَسْمَاهُ: «مُؤَلِّفَ الْقُرْآنِ»، حَاوَلَ أَنْ يُثْبِتَ فِيهِ أَنَّ بَحِيرَىٰ لَقَّنَ مُحَمَّدًا ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي ذَلِكَ اللِّقَاءِ الْقَصِيرِ!

وَهَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ رُزِقَ مِنْ سَلَامَةِ الْعَقْلِ وَالْإِنْصَافِ ذَرَّةً، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنَّ غُلَامًا تَلَقَّىٰ مِنْ شَيْخٍ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَيْهِ إِلَّا مَا يَسْتَغْرِقُهُ وَقْتُ الْجُلُوسِ عَلَىٰ الْمَائِدَةِ؟!

كَيْفَ يُعْقَلُ أَنَّهُ تَلَقَّىٰ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيرِ الْمَسَائِلَ الدَّقِيقَةَ وَالتَّفَاصِيلَ الْعَمِيقَةَ فِي نَقْدِ عَقِيدَةِ الشِّرْكِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ الْمَمْسُوخَةِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ النَّصْرَانِيِّ الَّتِي لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا كِبَارُ النُّقَّادِ وَالْمُصْلِحِينَ فِي الْمَذْهَبِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيِّ وَكِبَارُ الْمُصْلِحِينَ فِي الْعَالَمِ النَّصْرَانِيِّ، وَالتَّمْيِيزَ الدَّقِيقَ بَيْنَ عَقَائِدِ الْفِرَقِ النَّصْرَانِيَّةِ وَأَقْوَالِهَا؟!

وَحَوَادِثُ الْقُرْآنِ لَمْ تَحْدُثْ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ مِنْ سَنَةٍ -يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ اللِّقَاءِ- حِينَ أَصْبَحَتْ عِظَامُ بَحِيرَىٰ نَخِرَةً كَانْدِحَارِ الرُّومِ أَمَامَ الْفُرْسِ فِي الْأَعْوَامِ الْأُولَىٰ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ إِلَىٰ آخِرِ نُقْطَةٍ مِنْ تَرَاجُعِ الْجُيُوشِ وَتَقَلُّصِ الْحُكُومَاتِ حَتَّىٰ كَادَتِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْبِيزَنْطِيَّةُ تَلْفِظُ نَفَسَهَا الْأَخِيرَ وَتُصْبِحُ مُسْتَعْمَرَةً سَاسَانِيَّةً حَقِيرَةً، وَانْقَطَعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي نُهُوضِ الدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ وَعَوْدَتِهَا إِلَىٰ الْأَوْجِهِ الْأُوَلِ.

ثُمَّ مَا كَانَ مِنَ انْتِصَارِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ الرَّائِعِ النَّافِي لِكُلِّ تَقْدِيرٍ وَتَخْمِينٍ عَلَىٰ الْفُرْسِ الظَّافِرِينَ الْمُنْتَصِرِينَ حَتَّىٰ أَوْغَلَتِ الْجُيُوشُ الرُّومِيَّةُ بِقِيَادَةِ هِرَقْلَ فِي إِيرَانَ، وَغَرَسَتْ أَعْلَامَ الْفَتْحِ فِي قَلْبِ الْبِلَادِ، وَأَثْخَنَتِ الشَّعْبَ الْإِيرَانِيَّ قَتْلًا وَجِرَاحًا، وَأَهَانَتِ الْمَعَابِدَ وَالْمُقَدَّسَاتِ الدِّينِيَّةَ، وَعَادَتْ مِنْ أَسْوَارِ الْعَاصِمَةِ ظَافِرَةً مَرْفُوعَةَ الرَّأْسِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي ظَرْفِ تِسْعِ سِنِينَ وَهُوَ مَا أَعْلَنَ الْقُرْآنُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ - ٧].

كَيْفَ لَقَّنَ بَحِيرَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَذَا وَأَعْلَمَهُ بِهِ، وَقَدْ أَصْبَحَ عِظَامًا نَخِرَةً؟! وَلَمْ يَحْدُثْ هَذَا إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهِيَ نُبُوءَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا

الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخفَىٰ، الَّذِي يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَغْرَبَ خَيَالًا وَأَبْعَدَ مَنَالًا مِنْ هَذِهِ النُّبُوءَةِ الَّتِي أَعْلَنَهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ فَرَحِ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكِينَ الْوَثَنِيِّينَ بِانْتِصَارِ الْمَجُوسِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ النَّصَارَىٰ وَشَمَاتَتِهِمْ بِهَزِيمَةِ الرُّومِ الْمُنْكَرَةِ! فَقَالَ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ﴾ [الروم: ٣ - ٤]. وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ، وَاسْتَبْعَدَتْهُ قُرَيْشٌ كُلَّ الِاسْتِبْعَادِ حَتَّىٰ قَامَرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ اسْتِبْعَادًا لَهُ.

قَالَ الْإِنْجِلِيزِيُّ الشَّهِيرُ جِبُّونُ: «إِنَّ مُحَمَّدًا تَنَبَّأَ حِينَ بَلَغَتْ فُتُوحُ الْإِيرَانِيِّينَ أَوْجَهَا وَقِمَّتَهَا، أَنَّ الرَّايَاتِ الرُّومِيَّةَ سَتَرْتَفِعُ بِالْفَتْحِ وَالِانْتِصَارِ فِي بِضْعِ سِنِينَ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْعَدَ عَنِ الْقِيَاسِ مِنْ هَذِهِ النُّبُوءَةِ الَّتِي أَعْلَنَهَا مُحَمَّدٌ؛ لِأَنَّ السِّنِينَ الِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ الْأُولَىٰ مِنْ حُكْمِ هِرَقْلَ كَانَتْ تُعْلِنُ بِتَمَزُّقِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومِيَّةِ وَنِهَايَتِهَا الْقَرِيبَةِ، وَلَكِنْ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ النُّبُوءَةُ بِشَكْلٍ غَرِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ فِي الْعَامِ الثَّانِي مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عِنْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ». كَمَا قَالَ.

قَالَ جِبُّونُ بِأُسْلُوبِهِ الْمَعْرُوفِ: «كَمَا أَنَّ ضَبَابَ الصُّبْحِ وَالْأَصِيلِ يَنْقَشِعُ وَيَتَبَدَّدُ بِنُورِ الشَّمْسِ الْبَازِغَةِ الْوَهَّاجِ، كَذَلِكَ تَحَوَّلَ الْأَمِيرُ الرَّقِيقُ الْمُتْرَفُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ إِلَّا الشَّبَابَ وَالْهَوَىٰ، وَالَّذِي كَانَ عَلَىٰ قَدَمِ أَرْكَادْيُوسَ فِي عَصْرِهِ،

وَأَرْكَادْيُوسُ مَلِكٌ رُومِيٌّ خَلِيعٌ مُسْتَهْتِرٌ، أَصْبَحَ مَثَلًا فِي تَارِيخِ أُورُوبَّا لِلتَّمَتُّعِ الْمُسْرِفِ وَالتَّرَفِ الْفَاحِشِ، فَكَانَ هِرَقْلُ عِنْدَمَا تَوَلَّىٰ الْحُكْمَ عَلَىٰ قَدَمِ أَرْكَادْيُوسَ فِي عَصْرِهِ، كَيْفَ تَحَوَّلَ مِنْ هَذَا النُّمُوذَجِ فَارِسًا مُنْتَصِرًا يَقُودُ الْجُيُوشَ، وَيَفْتَحُ الْبِلَادَ كَسِيزَرَ، وَهُوَ إِمْبِرَاطُورٌ رُومِيٌّ اشْتُهِرَ بِفُتُوحِهِ الْعَظِيمَةِ وَامْتِدَادِ مُلْكِهِ، لَقَدْ أَنْقَذَتْ كَرَامَةُ هِرَقْلَ وَرُومَا بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ رَائِعَةٍ، وَعَادَ إِلَيْهِمَا اعْتِبَارُهُمَا وَقِيمَتُهُمَا، هَذَا إِلَىٰ نُبُوءَاتٍ أُخْرَىٰ وَإِعْلَانَاتٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْقِيَاسِ وَالْقَرَائِنِ كَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ الْمُهِينُ فِي نَظَرِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَدُخُولُ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا، وَظُهُورُهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ بَعْدَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ، وَقِيَامُ دَوْلَتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ، وَبَقَاءُ الْقُرْآنِ مَحْفُوظًا مَتْلُوًّا مُبِينًا، مُفَسَّرًا وَمُبَيَّنًا مُؤَوَّلًا يَتْلُوهُ وَيَحْفَظُهُ أَكْبَرُ عَدَدٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوءَاتِ الْغَرِيبَةِ، وَالْإِعْلَانَاتِ الْمُتَحَدِّيَةِ لِلْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ وَالْأَخْبَارِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي ذَخَرَ بِهَا الْقُرْآنُ».

لَا يَصْنَعُ مِنَ الْحَبَّةِ قُبَّةً إِلَّا مَنْ أَعْمَاهُ التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ، وَالِاسْتِرْسَالُ فِي الْخَيَالِ، وَالْإِمْعَانُ فِي الِافْتِرَاضِ وَالتَّخْمِينِ وَالْإِتْيَانِ بِالْبَعِيدِ الْمُضْحِكِ لِلْعُقَلَاءِ؛ لَا يَصْنَعُ مِنَ الْحَبَّةِ قُبَّةً إِلَّا مَنْ أَعْمَاهُ التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ، وَالتَّطَرُّفُ وَإِبْعَادُ النَّجْعَةِ فِي الْعَدَاءِ؛ فَانْتَهَزُوا هَذِهِ الْفُرْصَةَ، وَأَخَذُوا تِلْكَ الرِّوَايَةَ وَصَنَعُوا مِنَ الْحَبَّةِ قُبَّةً.

●●●

حَرْبُ الْفِجَارِ وَسَبَبُهَا

لَمَّا بَلَغَ ﷺ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ كَانَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَهَوَازِنَ وَقَعَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ بَيْنَ كِنَانَةَ وَمَعَهُمْ قُرَيْشٌ، وَبَيْنَ هَوَازِنَ؛ لَمْ يَأْتِ خَبَرٌ مُسْنَدٌ صَحِيحٌ بِاشْتِرَاكِ النَّبِيِّ ﷺ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ بِدُونِ إِسْنَادٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**كُنْتُ أَنْبِلُ عَلَىٰ أَعْمَامِي**»؛ أَيْ: يُنَاوِلُهُمُ النَّبْلَ، وَهُوَ خَبَرٌ لَا يَصِحُّ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ.

وَاخْتُلِفَ فِي عُمُرِ النَّبِيِّ ﷺ وَقْتَ نُشُوبِ تِلْكَ الْحَرْبِ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «كَانَ عُمُرُهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً»، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «كَانَ ابْنَ عِشْرِينَ سَنَةً، وَقِيلَ: عَشْرِ سِنِينَ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا ذَكَرَ بِأَنَّ بَيْنَ الْفِجَارِ وَبَيْنَ بُنْيَانِ الْكَعْبَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَبَيْنَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ وَالْمَبْعَثِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ كَذَلِكَ فَيَكُونُ عُمُرُهُ ﷺ حِينَهَا عَشْرَ سِنِينَ».

* **وَأَمَّا سَبَبُ حَرْبِ الْفِجَارِ**: فَقَدْ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: كَانَ الَّذِي هَاجَهَا أَنَّ عُرْوَةَ الرَّحَّالَ بْنَ عُتْبَةَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ، أَجَارَ لَطِيمَةً -أَيْ: جِمَالًا تَحْمِلُ تِجَارَةً- لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ، فَقَالَ لَهُ الْبَرَّاضُ بْنُ قَيْسٍ -أَحَدُ بَنِي ضَمْرَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ-:

أَتُجِيرُهَا عَلَىٰ كِنَانَةَ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَعَلَىٰ الْخَلْقِ كُلِّهِ.

فَخَرَجَ فِيهَا عُرْوَةُ الرَّحَّالُ، وَخَرَجَ الْبَرَّاضُ يَطْلُبُ غَفْلَتَهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِتَيَمُّنِ ذِي طِلَالٍ -وَهُو مَوْضِعٌ بِبِلَادِ بَنِي مُرَّةَ- بِالْعَالِيَةِ، غَفَلَ عُرْوَةُ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْبَرَّاضُ فَقَتَلَهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ: الْفِجَارَ.

فَكَانَ قَتْلُ الْبَرَّاضِ لِعُرْوَةَ إِيذَانًا بِاشْتِعَالِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ؛ حَيْثُ أَتَىٰ آتٍ قُرَيْشًا فَقَالَ: إِنَّ الْبَرَّاضَ قَدْ قَتَلَ عُرْوَةَ وَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ بِعُكَاظَ. فَارْتَحَلُوا وَهَوَازِنُ لَا تَشْعُرُ بِهِمْ، ثُمَّ بَلَغَهُمُ الْخَبَرُ فَأَتْبَعُوهُمْ فَأَدْرَكُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْحَرَمَ، فَاقْتَتَلُوا حَتَّىٰ جَاءَ اللَّيْلُ وَدَخَلُوا الْحَرَمَ، فَأَمْسَكَتْ عَنْهُمْ هَوَازِنُ، ثُمَّ الْتَقَوْا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ أَيَّامًا، وَالْقَوْمُ مُتَسَانِدُونَ -أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ أَمِيرٌ وَاحِدٌ يَجْمَعُهُمْ-، عَلَىٰ كُلِّ قَبِيلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ رَئِيسٌ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: كَانَ قَائِدُ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ حَرْبَ بْنَ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَعَلَىٰ كُلِّ قَبِيلٍ مِنْ قَيْسٍ رَئِيسٌ مِنْهُمْ.

كَانَ الظَّفَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ لِقَيْسٍ عَلَىٰ كِنَانَةَ؛ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ كَانَ الظَّفَرُ لِكِنَانَةَ عَلَىٰ قَيْسٍ.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: «وَكَانَ آخِرَ الْفِجَارِ أَنَّ هَوَازِنَ وَكِنَانَةَ تَوَعَّدُوا لِلْعَامِ الْقَابِلِ بِعُكَاظَ، فَجَاءُوا لِلْوَعْدِ، وَكَانَ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ رَئِيسَ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ، وَكَانَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ يَتِيمًا فِي حِجْرِهِ، فَضَنَّ بِهِ حَرْبٌ وَأَشْفَقَ مِنْ خُرُوجِهِ مَعَهُ، فَخَرَجَ عُتْبَةُ بِغَيْرِ

إِذْنِهِ فَلَمْ يَشْعُرُوا إِلَّا وَهُوَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ يُنَادِي: يَا مَعْشَرَ مُضَرَ، عَلَامَ تَتَقَاتَلُونَ؟

فَقَالَتْ لَهُ هَوَازِنُ: مَا تَدْعُو إِلَيْهِ؟

قَالَ: الصُّلْحُ عَلَىٰ أَنْ نَدْفَعَ إِلَيْكُمْ دِيَةَ قَتْلَاكُمْ وَنَعْفُوَ عَنْ دِمَائِنَا.

قَالُوا: وَكَيْفَ؟

قَالَ: نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَهْنًا مِنَّا.

قَالُوا: وَمَنْ لَنَا بِهَذَا؟

قَالَ: أَنَا.

قَالُوا: وَمَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ.

فَرَضِيَتْ كِنَانَةُ وَرَضُوا، وَدَفَعُوا إِلَىٰ هَوَازِنَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فِيهِمْ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، فَلَمَّا رَأَتْ بَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ الرَّهْنَ فِي أَيْدِيهِمْ عَفَوا عَنِ الدِّمَاءِ وَأَطْلَقُوهُمْ، وَانْقَضَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ؛ وَكَانَ يُقَالُ: لَمْ يَسُدْ مِنْ قُرَيْشٍ مُمْلِقٌ إِلَّا عُتْبَةُ وَأَبُو طَالِبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُمَا سَادَا قُرَيْشًا مَعَ الْفَقْرِ».

فَوَقَعَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ فِي الْحَرَمِ، فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ لِذَا سُمِّيَتْ بِحَرْبِ الْفِجَارِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَارَكَ فِيهَا.

⊙ ⊙ ⊙

حِلفُ الفُضُولِ

تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَىٰ حِلْفٍ؛ فَاجْتَمَعُوا لِذَلِكَ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ؛ لِشَرَفِهِ وَسِنِّهِ، وَكَانَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَبَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ، وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ، وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ -تَعَاهَدُوا وَتَعَاقَدُوا عَلَىٰ أَلَّا يَجِدُوا مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلَّا كَانُوا مَعَهُ، وَكَانُوا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَهُ حَتَّىٰ يَرُدُّوا عَلَيْهِ مَظْلِمَتَهُ؛ فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ: حِلْفَ الْفُضُولِ.

وَكَانَ أَكْرَمَ حِلْفٍ سُمِعَ بِهِ، وَأَشْرَفَهُ فِي الْعَرَبِ! وَقَدْ حَضَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا الْحِلْفَ وَمَدَحَهُ؛ فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي، وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي أَنْكُثُهُ!**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْحَاكِمُ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي السُّنَنِ وَهُوَ صَحِيحٌ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنهما.

قَامَ بِعَقْدِ حِلْفِ الْفُضُولِ الْعَشَائِرُ نَفْسُهَا الَّتِي عَقَدَتْ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ**».

وَلَا يَصِحُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَكَ فِي الْحِلْفَيْنِ جَمِيعًا؛ وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَرَّحَ فِي بَعْضِ النُّصُوصِ بِأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ لِلْمُشْرِكِينَ سِوَىٰ حِلْفٍ وَاحِدٍ؛ وَقَالَ: «**مَا شَهِدْتُ حِلْفًا لِقُرَيْشٍ إِلَّا حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ**».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ أَنَّهُ أَرَادَ حِلْفَ الْفُضُولِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُدْرِكْ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا لَا شَكَّ فِيهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا تَحَالَفُوا بَعْدَ مَوْتِ قُصَيٍّ، وَتَنَازَعُوا فِي الَّذِي كَانَ جَعَلَهُ قُصَيٌّ لِابْنِهِ عَبْدِ الدَّارِ فِي السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ، وَاللِّوَاءِ وَالنَّدْوَةِ وَالْحِجَابَةِ، وَنَازَعَهُمْ فِيهِ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ، وَقَامَتْ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَحَالَفُوا عَلَىٰ النُّصْرَةِ لِحِزْبِهِمْ، فَأَحْضَرَ أَصْحَابُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ جَفْنَةً فِيهَا طِيبٌ، فَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهَا وَتَحَالَفُوا، فَلَمَّا قَامُوا مَسَحُوا أَيْدِيَهُمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ؛ فَسُمُّوا الْمُطَيَّبِينَ، وَكَانَ هَذَا قَدِيمًا.

وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْحِلْفِ حِلْفُ الْفُضُولِ، وَكَانَ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ».

ثُمَّ إِنَّ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ الْقَدِيمَ لَا يَحْمِلُ مِنْ مَعَانِي الِانْتِصَارِ لِلْعَدَالَةِ مِثْلَمَا يَحْمِلُهُ حِلْفُ الْفُضُولِ الَّذِي شَارَكَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ.

إِذَنْ لَمْ يَشْهَدْ سِوَىٰ حِلْفِ الْفُضُولِ، وَقَوْلُهُ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ؛ فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ حِلْفَ الْفُضُولِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَكَانَ سَبَبُ هَذَا الْحِلْفِ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ زُبَيْدٍ قَدِمَ مَكَّةَ

بِبِضَاعَةٍ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ فَحَبَسَ عَنْهُ حَقَّهُ، فَاسْتَعْدَىٰ عَلَيْهِ الزُّبَيْدِيُّ الْأَحْلَافَ: عَبْدَ الدَّارِ، وَمَخْزُومًا، وَجُمَحَ، وَسَهْمًا، وَعَدِيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُوا عَلَىٰ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَزَبَرُوهُ - أَيِ: انْتَهَرُوهُ -.

فَلَمَّا رَأَىٰ الزُّبَيْدِيُّ الشَّرَّ أَوْفَىٰ عَلَىٰ أَبِي قُبَيْسٍ - وَهُوَ جَبَلٌ بِمَكَّةَ- عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ

إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... وَلَا حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغَدِرِ

فَقَامَ فِي ذَلِكَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَالَ: مَا لِهَذَا مَتْرَكٌ!

فَاجْتَمَعَتْ هَاشِمٌ، وَزُهْرَةُ، وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ، فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، وَتَحَالَفُوا فِي ذِي الْقِعْدَةِ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ، فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا لَيَكُونُنَّ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ عَلَىٰ الظَّالِمِ حَتَّىٰ يُؤَدَّىٰ إِلَيْهِ حَقُّهُ مَا بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً، وَمَا رَسَىٰ ثَبِيرٌ وَحِرَاءٌ مَكَانَهُمَا، وَعَلَىٰ التَّأَسِّي فِي الْمَعَاشِ.

ثُمَّ مَشَوْا إِلَىٰ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُّبَيْدِيِّ فَرَدُّوهَا إِلَيْهِ.

وَكَانَ هَذَا الْحِلْفُ فِي ذِي الْقِعْدَةِ بَعْدَ حَرْبِ الْفِجَارِ بِشَهْرٍ، وَقِيلَ: بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي ذَلِكَ:

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفًا عَلَيْهِمْ ... وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ

نُسَمِّيهِ: الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا ... يَعِزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لِذِي الْجِوَارِ

وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَّا ... أُبَاةُ الضَّيْمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ

وَقَالَ أَيْضًا:

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... أَلَّا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا ... فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمُ

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ بِحِلْفِ الْفُضُولِ: «فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ، وَقَالُوا: لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلٍ مِنَ الْأَمْرِ».

وَقِيلَ سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، اسْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: الْفَضْلُ، وَهُمْ: الْفَضْلُ بْنُ فَضَالَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْحَارِثِ.

وَقِيلَ هُمْ: الْفُضَيْلُ بْنُ شِرَاعَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ قُضَاعَةَ.

فَسُمِّيَ لِذَلِكَ بِذَلِكَ، أَيْ: بِحِلْفِ الْفُضُولِ، شَهِدَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

⊙⊙⊙

خُرُوجُ النَّبِيِّ ﷺ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ فِي مَالِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها، وَزَوَاجُه مِنْهَا:

فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ الْمُبَارَكِ ﷺ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ تَاجِرًا إِلَىٰ الشَّامِ فِي مَالِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ: أَيْ: تُضَارِبُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَالِ، وَالْمُضَارَبَةُ أَنْ تُعْطِيَ مَالًا لِغَيْرِكَ يَتَّجِرُ فِيهِ، فَيَكُونُ لَهُ سَهْمٌ مَعْلُومٌ مِنَ الرِّبْحِ، وَالْمُضَارَبَةُ: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ، وَالسَّيْرِ فِيهَا لِلتِّجَارَةِ.

فَكَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا، وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ، فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا بَلَغَهَا مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ، وَعِظَمِ أَمَانَتِهِ، وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ بَعَثَتْ إِلَيْهِ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا، وَتُعْطِيَهُ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ، فَقَبِلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا.

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا رَجُلٌ لَا مَالَ لِي، وَقَدِ اشْتَدَّ الزَّمَانُ عَلَيْنَا، وَهَذِهِ عِيرُ قَوْمِكَ، وَقَدْ حَضَرَ خُرُوجُهَا إِلَىٰ الشَّامِ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ تَبْعَثُ رِجَالًا مِنْ قَوْمِكَ فِي عِيرَاتِهَا -جَمْعُ عِيرٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ بِأَحْمَالِهَا-

فَلَوْ جِئْتَهَا، فَعَرَضْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهَا لَأَسْرَعَتْ إِلَيْكَ؛ لِمَا يَبْلُغُهَا عَنْكَ مِنْ طَهَارَتِكَ، وَفَضْلِكَ عَلَىٰ غَيْرِكَ».

فَبَلَغَ خَدِيجَةَ الْخَبَرُ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَقَالَتْ لَهُ: «أَنَا أُعْطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِي رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ».

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: «هَذَا رِزْقٌ، قَدْ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ!».

ثُمَّ خَرَجَ ثَانِيًا ﷺ فِي تِجَارَةٍ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ؛ يَعْنِي بَعْدَمَا خَرَجَ أَوَّلًا مَعَ عَمِّهِ إِلَىٰ الشَّامِ، خَرَجَ ثَانِيًا إِلَىٰ الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَعَ غُلَامِهَا (مَيْسَرَةَ) عَلَىٰ سَبِيلِ الْقِرَاضِ -وَالْقِرَاضُ: الْمُضَارَبَةُ-، فَرَأَىٰ مَيْسَرَةُ مَا بَهَرَهُ مِنْ شَأْنِهِ، فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ سَيِّدَتَهُ خَدِيجَةَ بِمَا رَأَىٰ، فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا لِمَا رَجَتْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لَهَا، وَفَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ بَشَرٍ.

فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَهِيَ أُولَىٰ زَوْجَاتِهِ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، وَكَانَ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا وَيُظْهِرُ حُبَّهَا، وَيَتَأَثَّرُ لِذِكْرَاهَا، وَيَنْبَسِطُ لِمَنْ يَذْكُرُهَا عِنْدَهُ، وَيُذَكِّرُهُ بِهَا.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا غِرْتُ عَلَىٰ امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي؛ لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتِ: «اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ -أُخْتُ خَدِيجَةَ- عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَالَةَ**». قَالَ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدُّبُرِ، وَقَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَشَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**أَتَىٰ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، **فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ -أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ-، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ وَفَاءً لِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فَقَدْ نَصَرَتْهُ بِمَالِهَا وَرَأْيِهَا وَكَانَ لَهُ مِنْهَا الْوَلَدُ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا غِرْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا! وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةَ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالْإِبْهَامُ هَاهُنَا مُوجَزٌ جِدًّا، وَمُعَبِّرٌ جِدًّا: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ**»، وَقُلْ أَنْتَ مَا

شِئْتَ، «**وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»؛ وَلِذَلِكَ فَهِيَ خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**خَيْرُ نِسَائِهَا: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

رَزَقَهُ اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ، فَوَلَدَتْ لَهُ مِنَ الذُّكُورِ: الْقَاسِمَ وَبِهِ كَانَ يُكَنَّىٰ ﷺ، وَعَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالطَّاهِرِ وَالطَّيِّبِ، وَمِنَ الإِنَاثِ: زَيْنَبَ، وَرُقَيَّةَ، وَأُمَّ كُلْثُومٍ، وَفَاطِمَةَ.

تَزَوَّجَ النَّبِيُّ خَدِيجَةَ ﷺ ورَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَكَانَ ﷺ آنَذَاكَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَخَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهَا.

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّهَا كَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ وَالْعِشْرِينَ، وَكَلَامُهُ بِدُونِ إِسْنَادٍ، وَتُشِيرُ رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ، بَلْ مُعْظَمُهَا وَاهٍ إِلَىٰ تَفَاصِيلَ تَتَعَلَّقُ بِزَوَاجِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهِيَ تُحَدِّدُ بِدَايَةَ التَّعَارُفِ بَيْنَهُمَا عَنْ طَرِيقِ عَمَلِ الرَّسُولِ ﷺ فِي تِجَارَةِ خَدِيجَةَ الَّتِي كَانَتْ ثَرِيَّةً تُضَارِبُ بِأَمْوَالِهَا، وَقَدْ ذَهَبَ بِتِجَارَتِهَا مَرَّتَيْنِ، فَرَبِحَ بِتِجَارَتِهَا، وَحَكَىٰ لَهَا غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ الَّذِي صَحِبَهُ عَنْ أَخْلَاقِهِ وَطِبَاعِهِ.

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً حَازِمَةً جَلْدَةً شَرِيفَةً مَعَ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَوْسَطُ قُرَيْشٍ نَسَبًا، وَأَعْظَمُهُمْ شَرَفًا وَأَكْثَرُهُمْ مَالًا، وَكُلُّ

قَوْمِهَا كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ نِكَاحِهَا لَوْ قَدرَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ قَدْ طَلَبُوهَا وبَذَلُوا لَهَا الْأَمْوَالَ وَأَكْرَمَهَا اللهُ ﷻ بِنَبِيِّهِ ﷺ!

هُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَهُوَ: مَنْ تَوَلَّىٰ مِنْ أَوْلِيَائِهَا نِكَاحَهَا؟ وَمَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي ذَكَرَتْ مَا ذَكَرَتْ بِشَأْنِ أَبِيهَا؟

الَّذِي وَلِيَ تَزْوِيجَهَا هُوَ عَمُّهَا، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ السِّيَرِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، كَمَا قَالَ السُّهَيْلِيُّ؛ فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ.

مَرَجَ فِي مُجْتَمَعِ الْعَرَبِ عَدَدٌ مِنَ النِّسَاءِ اشْتُهِرَ بَعْضُهُنَّ بِالْحِكْمَةِ وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَبَعْضُهُنَّ اشْتُهِرَ بِالْمُتَاجَرَةِ وَوَفْرَةِ الْمَالِ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِمَّنْ جَمَعْنَ بَيْنَ ذَلِكَ -أَيْ: بَيْنَ الْحِكْمَةِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَالْمُتَاجَرَةِ وَوَفْرَةِ الْمَالِ-.

فَهِيَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ؛ فَتَجْتَمِعُ فِي نَسَبِهَا مَعَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي جَدِّهِ: قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ.

وَكَانَتْ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ؛ لِلْمُتَاجَرَةِ بِمَالِهَا فِي أَسْوَاقِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِأَخْلَاقِ مُحَمَّدٍ، وَكَرِيمِ صِفَاتِهِ عَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ؛ لِيُتَاجِرَ بِمَالٍ لَهَا إِلَىٰ الشَّامِ، وَتُعْطِيَهُ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ الرِّجَالِ، فَقَبِلَ وَخَرَجَ مُتَاجِرًا لَهَا يُرَافِقُهُ غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ.

وَعَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَدْ نَجَحَ فِي مُهِمَّتِهِ خَيْرَ نَجَاحٍ، وَحَقَّقَ لِخَدِيجَةَ رِبْحًا وَفِيرًا.

ذَكَرَ مَيْسَرَةُ لِسَيِّدَتِهِ خَدِيجَةَ مَزِيدًا مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ الَّتِي اكْتَشَفَهَا خِلَالَ رِحْلَتِهِ فِي النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ لَهَا أَمَانَتَهُ وَصِدْقَهُ فِي الْمُعَامَلَةِ، فَزَادَهَا ذَلِكَ إِعْجَابًا بِهِ، وَرَغْبَةً فِي الْقُرْبِ مِنْهُ، فَدَعَاهَا ذَلِكَ إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حُبًّا مِنْهَا لِمُجَرَّدِ الزَّوَاجِ؛ فَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافِهِمْ يَطْمَعُونَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا تَرْفُضُ الزَّوَاجَ مِنْ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَقَدْ طَمِعَتْ فِي أَخْلَاقِهِ، وَجَمِيلِ صِفَاتِهِ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ فَوَافَقَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَلَمْ تَكُنْ مُوَافَقَتُهُ عَلَىٰ الزَّوَاجِ مِنْهَا، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْهُ، طَمَعًا فِي مَالِهَا؛ بَلْ طَمَعًا فِي أَخْلَاقِهَا، وَرَجَاحَةِ عَقْلِهَا مِمَّا يُوَفِّرُ لَهُ مَعَهَا حَيَاةً أَفْضَلَ، وَيَتَوَقَّعُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، فَفَهْمَ لِوَاقِعِهِ الْمُتَمَيِّزِ عَنْ وَاقِعِ قَوْمِهِ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَبْلَهُ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللهِ لَهُ؛ لِتَكُونَ بِمَا تَمْلِكُهُ مِنْ صِفَاتٍ مُتَمَيِّزَةٍ سَنَدَهُ الَّذِي يَشُدُّ مِنْ أَزْرِهِ، وَيُخَفِّفُ مِنْ أَعْبَاءِ مَهَامِّ الدَّعْوَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ الْمُرْتَقَبِ.

كَانَ عُمُرُهُ حِينَ تَزَوَّجَهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ عُمْرُهَا عَلَىٰ الْمَشْهُورِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَبَقِيَتْ زَوْجَتَهُ الْوَحِيدَةَ حَتَّىٰ تُوُفِّيَتْ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ أَرْبَعَ بَنَاتٍ، وَابْنَيْنِ اثْنَيْنِ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: الثَّابِتُ عِنْدَنَا الْمَحْفُوظُ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ أَبَاهَا مَاتَ قَبْلَ حَرْبِ الْفِجَارِ، وَأَنَّ عَمَّهَا عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ هُوَ الَّذِي زَوَّجَهَا، بِمَزِيدِ حِفْظِ الثَّبْتِ

وَهُوَ الزُّهْرِيُّ، خُصُوصًا وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ صَحَابِيٍّ مِنَ السَّابِقِينَ.

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ، وَهُوَ مِنْ ثِقَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ، أَنَّ عَمَّهَا عَمْرًا هُوَ الَّذِي أَنْكَحَهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ خُوَيْلِدًا مَاتَ قَبْلَ الْفِجَارِ.

وَيَرَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ أَبَاهَا هُوَ الَّذِي زَوَّجَهَا، وَهُوَ رَأْيٌ ضَعِيفٌ.

فَيُذْكَرُ هُنَا بُطْلَانُ بَعْضِ الْمَرْوِيَّاتِ، مِنْ ثَمَّ يَتَبَيَّنُ لَنَا تَهَافُتُ مَا رُوِيَ أَنَّ أَبَاهَا امْتَنَعَ مِنْ تَزْوِيجِهَا، وَأَنَّهُمْ سَقَوْهُ الْخَمْرَ حَتَّىٰ ثَمِلَ فَرَضِيَ، وَأَنَّهُمْ أَلْبَسُوهُ الْمُزَعْفَرَ، فَلَمَّا صَحَا مِنْ سُكْرِهِ أَخْبَرُوهُ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ، فَمَا زَالَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ رَضِيَ، وَهِيَ رِوَايَةٌ بَاطِلَةٌ مَدْسُوسَةٌ؛ لِمُخَالَفَتِهَا لِلنَّقْلِ الصَّحِيحِ عَلَىٰ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

ثُمَّ هِيَ مُخَالِفَةٌ لِلْوَاقِعِ وَلِلظُّرُوفِ وَالْبِيئَةِ؛ فَبَنُو هَاشِمٍ فِي الذِّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ نَسَبًا وَشَرَفًا، وَقَدْ صَدَعَ بِهَا أَبُو طَالِبٍ فِي مَجْمَعٍ حَافِلٍ بِالسَّادَاتِ، فَمَا نَازَعَهُ فِيهَا مُنَازِعٌ.

ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَبَابِهِ الْغَضِّ، وَرُجُولَتِهِ النَّادِرَةِ، وَخُلُقِهِ الْكَامِلِ مِمَّنْ تَتَطَاوَلُ إِلَىٰ مُصَاهَرَتِهِ أَعْنَاقُ الْأَشْرَافِ.

وَهَذَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي عَدَاوَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَبَنِي هَاشِمٍ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَّ حَبِيبَةَ ابْنَتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدُ قَالَ: «هَذَا الْفَحْلُ لَا يُقْرَعُ أَنْفُهُ» مَعَ عَدَاوَتِهِ لَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْقِمَّةِ الْعَالِيَةِ ﷺ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ رَجُلًا مِثْلَ درمنغمَ لَمْ يَذْكُرْ فِي كِتَابِهِ غَيْرَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ الْمُتَهَافِتَةِ، وَقَدَّمَ لِذَلِكَ بِكَلَامٍ يُشْعِرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنْزِلَةٍ دُونَ مَنْزِلَةِ خَدِيجَةَ، وَأَنَّ عَشِيرَتَهُ دُونَ بَنِي مَخْزُومٍ، وَعَمِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَجِيرًا لِخَدِيجَةَ، فَلَا يَلِيقُ أَنْ يَكُونَ زَوْجًا... إِلَىٰ آخِرِ مَا تَخَيَّلَ مِنْ تَخَيُّلَاتٍ، وَافْتَرَضَ مِنْ تُرَّهَاتٍ مَعَ أَنَّهُ أَنْحَىٰ بِاللَّائِمَةِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ عَلَىٰ الْمُتَعَصِّبِينَ وَالْمُغَالِينَ فِي نَقْدِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّىٰ كَانَتْ كُتُبُهُمْ عَامِلَ هَدْمٍ عَلَىٰ الْخُصُوصِ، وَأَنَّهُ سَلَكَ مَسْلَكًا وَسَطًا بَيْنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمُغَالَاةِ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْمُغَالِينَ فِي النَّقْدِ.

وَأَنَّهُ -كَمَا ذَكَرَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ- سَيُعَوِّلُ فِي كِتَابِهِ عَلَىٰ الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةِ وَالنَّقْدِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ وَقَعَ فِيمَا أَخَذَ عَلَىٰ غَيْرِهِ!!

وَهَلْ مِنَ التَّعْوِيلِ عَلَىٰ الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةِ ذِكْرُ الضَّعِيفِ الْمُتَهَافِتِ، وَتَرْكُ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ؟

وَهَلْ مِنَ النَّقْدِ الْحَدِيثِ تَجَاهُلُ الْبِيئَةِ وَالظُّرُوفِ وَالْأَعْرَافِ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً، وَتَجَاهُلُ الْوَاقِعِ الْمَلْمُوسِ؟

هَلْ هَذَا مِنَ النَّقْدِ الْحَدِيثِ؟

الْحَقُّ أَنَّ الْمُسْتَشْرِقِينَ مَهْمَا ادَّعَوُا الْإِنْصَافَ فَكِتَابَاتُهُمْ تَنْقُضُ مَا يَدَّعُونَ!

إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ رَغْبَتَهُ فِي الزَّوَاجِ مِنْ خَدِيجَةَ لِأَعْمَامِهِ؛ فَأَقَرُّوا لَهُ ذَلِكَ، وَرَضُوهَا زَوْجَةً لَهُ ﷺ، فَخَرَجَ مَعَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَعَمُّهُ حَمْزَةُ حَتَّىٰ

دَخلُوا عَلَىٰ عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ -كَمَا مَرَّ- مِنْ أَنَّ وَلِيَّ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي زَوَاجِهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ عَمُّهَا عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي «الرَّوْضِ»: وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ أَبَاهَا خُوَيْلِدًا كَانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ حَرْبِ الْفِجَارِ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»: الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ أَنَّ عَمَّهَا عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ هُوَ الَّذِي زَوَّجَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَذْكُرَ الْمُتَهَافِتَ مِنْ أَنَّ أَبَاهَا لَمْ يَرْضَ بِهِ زَوْجًا، وَأَنَّهَا تَحَايَلَتْ، فَأَسْقَتْهُ الْخَمْرَ، وَأَلْبَسَتْهُ الْمُزَعْفَرَ، وَاحْتَالَتْ حَتَّىٰ يَقْبَلَ!

لَا يَجُوزُ أَنْ يُلْجَأَ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذَا الْمُتَهَافِتِ الْوَاهِي، وَأَنْ يُتْرَكَ مَا ثَبَتَ وَمَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ! وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ -أَيْضًا- النَّقْدُ الْحَدِيثُ -كَمَا مَرَّ- فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الْمُسْتَشْرِقِينَ.

دَخلُوا عَلَىٰ عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ عَمِّ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَخَطَبُوا إِلَيْهِ ابْنَةَ أَخِيهِ، وَحَضَرَ الْعَقْدَ رُؤَسَاءُ مُضَرَ، فَقَامَ أَبُو طَالِبٍ فَخَطَبَ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٰ جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرْعِ إِسْمَاعِيلَ، وَضِئْضِئِ مَعَدٍّ، وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ، وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ، وَجَعَلَ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوجًا، وَحَرَمًا آمِنًا، وَجَعَلَنَا الْحُكَّامَ عَلَىٰ النَّاسِ؛ ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، لَا يُوزَنُ بِرَجُلٍ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفًا وَنُبْلًا وَفَضْلًا وَعَقْلًا، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قَلَّ؛ فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وَأَمْرٌ حَائِلٌ، وَمُحَمَّدٌ مِمَّنْ قَدْ

عَرَفْتُمْ قَرَابَتَهُ؛ وَقَدْ إِلَيْكُمْ خَطَبَ رَاغِبًا كَرِيمَتَكُمْ خَدِيجَةَ، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَا حَكَمَ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، آجِلُهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ذَهَبًا وَنَشًّا، وَهُوَ -وَاللهِ- بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، وَخَطْبٌ جَلِيلٌ جَسِيمٌ».

فَكَانَ جَوَابُ وَلِيِّ خَدِيجَةَ: «هَذَا الْبُضْعُ لَا يُقْرَعُ أَنْفُهُ».

وَبَنَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَأَوْلَمَ عَلَيْهَا، وَنَحَرَ جَزُورًا أَوْ جَزُورَيْنِ، وَأَطْعَمَ النَّاسَ، فَكَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَنَعِمَتْ خَدِيجَةُ بِالزَّوَاجِ الَّذِي لَمْ تَعْرِفْ لَهُ الدُّنْيَا مَثِيلًا فِي تَارِيخِ الْأَزْوَاجِ!

وَنَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الزَّوَاجَ الْمَيْمُونَ الْمُبَارَكَ، فَقَدْ كَانَتْ خَدِيجَةُ حَازِمَةً عَاقِلَةً، طَاهِرَةً عَرُوبًا لِزَوْجِهَا، وَوَاسَتِ النَّبِيَّ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، وَرَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، فَوَلَدَتْ لَهُ الْقَاسِمَ وَبِهِ كَانَ يُكَنَّىٰ، وَعَبْدَ اللهِ، وَقِيلَ: بَلْ وَلَدَتْ لَهُ ثَلَاثَةً بِزِيَادَةِ الطَّيِّبِ، وَقِيلَ أَرْبَعَةً بِزِيَادَةِ الطَّاهِرِ، وَوَلَدَتْ لَهُ زَيْنَبَ، وَرُقَيَّةَ، وَأُمَّ كُلْثُومٍ، وَفَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

أَمَّا الذُّكُورُ فَقَدْ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ صِغَارًا، وَأَمَّا الْإِنَاثُ فَقَدْ عِشْنَ حَتَّىٰ تَزَوَّجْنَ، وَكُلُّهُنَّ مُتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مَاعَدَا فَاطِمَةَ؛ فَقَدْ تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

وَمِنْ ثَمَّ فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَاقَ مَرَارَةَ فَقْدِ الْأَبْنَاءِ، كَمَا ذَاقَ مِنْ قَبْلُ مَرَارَةَ فَقْدِ

الْأَبَوَيْنِ.

وَقَدْ شَاءَ اللهُ -وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ- أَلَّا يَعِيشَ لَهُ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الذُّكُورِ؛ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِافْتِتَانِ بَعْضِ النَّاسِ بِهِمْ، وَادِّعَائِهِمْ لَهُمُ النُّبُوَّةَ، فَأَعْطَاهُ الذُّكُورَ؛ تَكْمِيلًا لِفِطْرَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَقَضَاءً لِحَاجَاتِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَلِئَلَّا يُتَنَقَّصَ النَّبِيُّ فِي كَمَالِ رُجُولَتِهِ، وَلَا يَنْتَقِصَهُ فِي ذَلِكَ شَانِئٌ، أَوْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ مُتَقَوِّلٌ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فِي الصِّغَرِ!

وَأَيْضًا لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ عَزَاءٌ وَسَلْوَىٰ لِلَّذِينَ لَا يُرْزَقُونَ الْبَنِينَ، أَوْ يُرْزَقُونَهُمْ ثُمَّ يَمُوتُونَ، كَمَا أَنَّهُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الِابْتِلَاءِ؛ وَأَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، فَالْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، وَقَدْ كَانَ مِمَّا نَبَزَهُ بِهِ سُفَهَاءُ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا عَنْهُ: إِنَّهُ أَبْتَرُ، لَا عَقِبَ لَهُ!

كَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُدْعَىٰ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: الطَّاهِرَةَ؛ لِشِدَّةِ عَفَافِهَا، وَصِيَانَتِهَا، وَشَرَفِهَا وَكَمَالِهَا.

وَقَدْ تَزَوَّجَهَا، وَهِيَ بِكْرٌ: أَبُو هَالَةَ بْنُ زُرَارَةَ التَّمِيمِيُّ، فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْدًا، وَقَدْ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَهُوَ رَاوِي حَدِيثِ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

شَهِدَ هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ بَدْرًا، وَقِيلَ: وَأُحُدًا، وَرَوَىٰ عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَقَالَ: «حَدَّثَنِي خَالِي..»؛ لِأَنَّهُ أَخُو فَاطِمَةَ لِأُمِّهَا، وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَصِيحًا بَلِيغًا وَصَّافًا، وَكَانَ يَقُولُ: «أَنَا أَكْرَمُ النَّاسِ أَبًا وَأُمًّا وَأَخًا وَأُخْتًا، أَبِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،

وَأُمِّي خَدِيجَةُ، وَأَخِي الْقَاسِمُ، وَأُخْتِي فَاطِمَةُ»، قُتِلَ مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ الْجَمَلِ.

وَوَلَدَتْ لَهُ: هَالَةَ، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: لَهُ صُحْبَةٌ؛ وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «قَدِمَ ابْنٌ لِخَدِيجَةَ، يُقَالُ لَهُ هَالَةُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِلٌ، فَسَمِعَهُ فَقَالَ: «**هَالَةُ! هَالَةُ! هَالَةُ!**».

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ هَالَةَ بْنِ أَبِي هَالَةَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ رَاقِدٌ، فَاسْتَيْقَظَ فَضَمَّ هَالَةَ إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَقَالَ: «**هَالَةُ! هَالَةُ! هَالَةُ!**».

ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي هَالَةَ، تَزَوَّجَهَا عَتِيقُ بْنُ عَابِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ الْمَخْزُومِيُّ، بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ، وَالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ كَمَا فِي الْإِكْمَالِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الصَّوَابُ.

وَوَاقِعٌ فِي جَامِعِ ابْنِ الْأَثِيرِ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ، وَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ.

عَتِيقُ بْنُ عَابِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ الْمَخْزُومِيُّ، فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْدًا، وَهِيَ أُنْثَىٰ، أَسْلَمَتْ وَصَحِبَتِ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ تَرْوِ شَيْئًا؛ قَالَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ، وَهِيَ أُمُّ مُحَمَّدِ بْنِ صَفِيٍّ الْمَخْزُومِيِّ، وَيُقَالُ لِوَلَدِ مُحَمَّدٍ هَذَا: بَنُو الطَّاهِرَةِ؛ لِمَكَانِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، هَذَا الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

قَالَ آخَرُونَ: تَزَوَّجَهَا أَوَّلًا: عَتِيقُ بْنُ عَابِدٍ، ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَيْهَا أَبُو هَالَةَ، ثُمَّ أَبُو وَهْبِ بْنُ عَمْرٍو الْمَخْزُومِيُّ.

فَهَذِهِ خَدِيجَةُ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا ذَكَرْنَا خَدِيجَةَ بَعْدَ النَّبِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَعْرِفِ الْهَوَىٰ طَرِيقًا إِلَىٰ قَلْبِهِ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَمْ يُؤَثِّرْ عَلَيْهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ هَوًىٰ، كَيْفَ وَهُوَ الْمَعْصُومُ ﷺ؟!

وَقَدْ حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قَبْلَ النُّبُوَّةِ كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ قَالَ: «**مَا هَمَمْتُ بِسُوءٍ قَطُّ إِلَّا مَرَّتَيْنِ**»، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ضَرَبَ عَلَيْهِ النَّوْمَ فَنَامَ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ عَلَىٰ عَادَةِ الْفِتْيَانِ: مَا فَعَلْتَ؟ يَعْنِي: يُرِيدُ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ مُغَامَرَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا يَعْرِفُ هُوَ، فَقَالَ: «**لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا نِمْتُ حَتَّىٰ ضَرَبَتْنِي الشَّمْسُ، فَأَيْقَظَتْنِي، فَرَجَعْتُ إِلَيْكَ**». وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ أَيْضًا؛ فَحَفِظَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

بَشَرٌ يُتَأَسَّىٰ بِهِ، وَيُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَهُوَ نَبِيٌّ مَعْصُومٌ ﷺ، وَمَحَلُّ الْبَشَرِيَّةِ فِيهِ لِلِاتِّسَاءِ بِهِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَشَرًا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ مَا صَحَّ أَنْ يُقْتَدَىٰ بِهِ! وَإِنَّمَا هُوَ بَشَرٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُ وَأَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ بَشَرٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَمَحَلُّ الْبَشَرِيَّةِ مِنْهُ أَنْ نَقْتَدِيَ بِهِ ﷺ؛ إِذْ هُوَ الْقُدْوَةُ وَالْأُسْوَةُ الصَّالِحَةُ لِلِاقْتِدَاءِ وَالِاتِّسَاءِ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تَحْكُمُنَا بِقَوَانِينِهَا فِي الْغَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ وَالنَّزَغَاتِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهِ ﷺ؛ إِذْ كَيْفَ يَكُونُ قُدْوَةً لَكَ وَأَنْتَ -أَوِ الْأَبْعَدُ- جَاهِلٌ بِهِ؟!

كَيْفَ؟!

تَقْتَدِي بِأَيِّ شَيْءٍ حِينَئِذٍ؟

وَأَنْتَ إِذَا مَا نَظَرْتَ فِي أَشَدِّ الْمَوَاطِنِ اسْتِفْزَازًا، وَفِي أَعْقَدِهَا وَأَصْعَبِهَا حَمْلًا عَلَىٰ الْغَضَبِ، بَلْ عَلَىٰ شِدَّةِ الْغَضَبِ تَجِدُهُ رَاسِخًا فِي الْحِلْمِ كَمِثْلِ رُسُوخِ الْجِبَالِ! وَلَا أَقُولُ كَرُسُوخِ الْجِبَالِ، بَلْ كَمِثْلِهِ الْجِبَالُ فِي رُسُوخِهِ فِي حِلْمِهِ! ﷺ.

لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَمْ يَنْتَقِمْ مَرَّةً وَاحِدَةً لِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ كَانَ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ اللهِ لَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ، فَغَضَبُهُ لِلَّهِ، وَانْتِقَامُهُ لِلَّهِ، وَأَمَّا حَظُّ نَفْسِهِ فَلَا وُجُودَ لَهُ! فَهَذَا أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ يُسْتَفَزُّ بِأَقَلِّ الْقَلِيلِ بِالْهَمْسَةِ، بِالنَّظْرَةِ بِاللَّفْتَةِ، بِالْإِشَارَةِ يَصْيرُ كَالْجَمَلِ الْهَائِجِ!

مَا هَذَا؟

فَأَيْنَ الِاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟!

كُنْ كَالصَّحَابَةِ فِي اقْتِدَائِهِمْ، فَأَبُو ذَرٍّ كَانَ لَهُ غُلَامٌ كَسَرَ ذِرَاعَ شَاةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا؟ يَعْنِي هَذَا أَمْرٌ لَا رَحْمَةَ فِيهِ! مَاذَا صَنَعَتْ لَكَ؟ لِمَاذَا تُعَذِّبُهَا هَذَا الْعَذَابَ؟ فَكَسَرَ ذِرَاعَهَا؛ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ أَبُو ذَرٍّ فَسَأَلَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَغِيظَكَ!

قَالَ: لَأَغِيظَنَّ مَنْ حَمَلَكَ عَلَىٰ إِغَاظَتِي، -يُرِيدُ الشَّيْطَانَ- اذْهَبْ؛ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ!

هَذِهِ نَظْرَةٌ ثَاقِبَةٌ، مُمَحِّصَةٌ، فِيهَا مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ.

النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي إِلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ، فِيهِ غِلْظَةٌ، وَحَاشِيَةُ الْبُرْدِ فِيهَا مَا فِيهَا، فَأَتَى إِلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ فَيَقْبِضُ عَلَىٰ الْبُرْدِ بُرْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَثَّرَ حَاشِيَةُ الْبُرْدِ فِي رَقَبَتِهِ، وَرَاوِي الْحَدِيثِ يَقُولُ: رَأَيْتُ أَثَرَ ذَلِكَ فِي رَقَبَةِ رَسُولِ اللهِ، يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ! أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تُعْطِينِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مَالِ أَبِيكَ!

يَعْنِي لِمَاذَا يَكُونُ الْأُسْلُوبُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؟!

اطْلُبْ وَسَتَأْخُذُ!

لَكِنْ: أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ! يَعْنِي لَا فَضْلَ لَكَ! إِنَّمَا أَنْتَ وَاسِطَةٌ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تُعْطِينِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ! فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَرْضَاهُ! وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا.

لَا يَزِيدُهُ سَفَهُ السَّفِيهِ، وَجَهْلُ الْجَاهِلِ إِلَّا حِلْمًا، تَأَمَّلْ فِي هَذِهِ طَوِيلًا وَاجْعَلْهَا مَنْقُوشَةً عَلَىٰ صَفْحَةِ قَلْبِكَ، وَاجْعَلْهَا بِإِزَاءِ نَاظِرَيْكَ، وَتَأَمَّلْ فِيهَا طَوِيلًا فَهَذَا أَمْرٌ كَبِيرٌ: **لَا يَزِيدُهُ جَهْلُ الْجَاهِلِ**.

الْجَهْلُ هُنَا: ضِدُّ الْحِلْمِ وَلَيْسَ بِضِدِّ الْعِلْمِ.

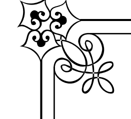
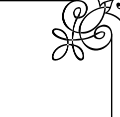
لَا يَزِيدُهُ جَهْلُ الْجَاهِلِ إِلَّا حِلْمًا، فَكُلَّمَا زَادَ السَّفِيهُ فِي سَفَاهَتِهِ زَادَ النَّبِيُّ

ﷺ فِي حِلْمِهِ!

مَا هَذَا؟!

إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ!!

◉ ◉ ◉

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَجْدِيدُ قُرَيْش بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ

فَالْكَعْبَةُ هِيَ أَوَّلُ بَيْتٍ بُنِيَ لِعِبَادَةِ اللهِ ﷻ فِي الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**».

وَقَدْ تَعَرَّضَتِ الْكَعْبَةُ لِلْعَوَادِي الَّتِي زَعْزَعَتْ بُنْيَانَهَا، وَصَدَّعَتْ جُدْرَانَهَا.

وَقَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ جَرَفَ مَكَّةَ سَيْلٌ عَرِمٌ انْحَدَرَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَأَوْشَكَتِ الْكَعْبَةُ مِنْهُ عَلَىٰ الِانْهِيَارِ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنْ قَبْلُ حَرِيقٌ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُجَمِّرُهَا.

وَكَانَتِ الْكَعْبَةُ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ، وَالرَّضْمُ: أَنْ تُنَضَّدَ الْحِجَارَةُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ بِغَيْرِ مِلَاطٍ، فَكَانَتِ الْكَعْبَةُ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ؛ فَاضْطُرَّتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ تَجْدِيدِ بِنَائِهَا؛ حِرْصًا عَلَىٰ مَكَانَتِهَا، وَحِفَاظًا عَلَىٰ حُرْمَتِهَا.

وَاتَّفَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ أَلَّا يُدْخِلُوا فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ مِنْ كَسْبِهِمْ إِلَّا طَيِّبًا، فَلَا يُدْخِلُوا فِيهَا مَهْرَ بَغِيٍّ، وَلَا بَيْعَ رِبًا وَلَا مَظْلِمَةَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ

الْعَرَبَ كَانَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَتَحَرَّوْنَ الْمَكَاسِبَ الْحَلَالَ، وَأَنَّ الرِّبَا كَانَ طَارِئًا عَلَيْهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.

فَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ هَدْمَهَا تَهَيَّبُوا وَخَافُوا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُمْ أَذًى؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ شَاهَدَ مَا الَّذِي حَدَثَ لِأَبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، فَقَالَ لَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ: «أَتُرِيدُونَ بِهَدْمِهَا الْإِصْلَاحَ أَمِ الْإِسَاءَةَ؟».

قَالُوا: «بَلِ الْإِصْلَاحَ».

فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ الْمُصْلِحِينَ».

وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَشَرَعَ يَهْدِمُ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: «قُومُوا سَاعِدُونِي»، فَقَالُوا: «لَا، نَنْتَظِرُ إِلَى الْغَدِ؛ فَإِنْ أُصِيبَ الْوَلِيدُ لَنْ نَهْدِمَ مِنْهَا شَيْئًا، وَرَدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ صُنْعَنَا فَهَدَمْنَا».

فَأَصْبَحَ الْوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَهَدَمُوا مَعَهُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نُرِيدُ إِلَّا خَيْرًا».

حَتَّى إِذَا انْتَهَى الْهَدْمُ بِهِمْ إِلَى الْأَسَاسِ -أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام- أَفْضَوْا إِلَى حِجَارَةٍ خُضْرٍ كَأَسْنِمَةِ الْإِبِلِ آخِذٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، -وَالْأَسْنِمَةُ: جَمْعُ سَنَامٍ وَهُوَ أَعْلَى الظَّهْرِ، هُوَ أَرَادَ أَنَّ الْحِجَارَةَ دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ كَمَا تَدْخُلُ عِظَامُ السَّنَامِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَشَبَّهَهَا بِهَا-، فَأَفْضَوْا إِلَى حِجَارَةٍ خُضْرٍ كَأَسْنِمَةِ الْإِبِلِ آخِذٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا، وَأَدْخَلَ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ -وَالْعَتَلَةُ: كَمَا فِي النِّهَايَةِ: حَدِيدَةٌ كَبِيرَةٌ يُقْلَعُ بِهَا الشَّجَرُ وَالْحَجَرُ- فَأَدْخَلَ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا؛ لِيَقْلَعَ بِهَا أَحَدَهُمَا، فَلَمَّا تَحَرَّكَ الْحَجَرُ، تَنَقَّضَتْ مَكَّةُ بِأَسْرِهَا -أَيِ: اهْتَزَّتْ-، فَانْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ الْأَسَاسِ.

وَقَدِ اشْتَرَكَ سَادَةُ مَكَّةَ وَرِجَالَاتُهَا فِي أَعْمَالِ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ، وَقَسَّمُوا الْكَعْبَةَ وَجَعَلُوا لِكُلِّ قَبِيلَةٍ جُزْءًا مِنْهَا، فَكَانَ شِقُّ الْبَابِ -أَيْ: نَاحِيَتُهُ وَجَانِبُهُ- لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَزُهْرَةَ، وَكَانَ مِمَّا بَيْنَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ لِبَنِي مَخْزُومٍ وَقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ ضُمُّوا إِلَيْهِمْ، وَكَانَ ظَهْرُ الْكَعْبَةِ لِبَنِي جُمَحَ وَسَهْمٍ، ابْنَيْ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ شِقُّ الْحَجَرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ، وَلِبَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الْحَطِيمُ.

وَالْحَطِيمُ عَلَىٰ خِلَافٍ فِيهِ، لَكِنَّ أَشْهَرَهَا أَنَّهُ حِجْرُ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام، وَسُمِّيَ الْحَطِيمُ؛ لِازْدِحَامِ النَّاسِ فِيهِ حَتَّىٰ يَحْطِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقِيلَ: لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَطْرَحُ فِيهِ ثِيَابَهَا الَّتِي تَطُوفُ فِيهَا وَتَتْرُكُهَا حَتَّىٰ تَتَحَطَّمَ، وَتَفْسُدَ بِطُولِ الزَّمَانِ.

شَارَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَعَ أَعْمَامِهِ فِي الْبِنَاءِ، وَنَقَلَ الْحِجَارَةَ وَكَانَ عُمْرُهُ إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي عُمْرِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله وسلم حِينَ بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ، وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «مُصَنَّفِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ -عَمُّهُ-: «يَا ابْنَ أَخِي! لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ؛ فَجُعِلَ عَلَىٰ مَنْكِبَيْكَ دُونَ الْحِجَارَةِ». قَالَ: فَحَلَّهُ، فَجَعَلَهُ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا ﷺ.

وَفِي لَفْظٍ: لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَىٰ رَقَبَتِكَ». فَخَرَّ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ -طَمَحَ: أَيِ: امْتَدَّ وَعَلَا- وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَرِنِي إِزَارِي، فَشَدَّهُ عَلَيْهِ**».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ مَصُونًا عَمَّا يُسْتَقْبَحُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَهَا.

وَفِيهِ: النَّهْيُ عَنِ التَّعَرِّي بِحَضْرَةِ النَّاسِ.

وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

فَلَمَّا بَلَغَتِ الْقَبَائِلُ فِي الْبُنْيَانِ مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَهُوَ أَفْضَلُ وَأَطْهَرُ الْأَحْجَارِ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ.

⊙⊙⊙

فَضْلُ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَتَقْبِيلِهِ

وَقَدْ وَرَدَ فِي تَفْضِيلِ تَقْبِيلِهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

مَا رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِهَذَا الْحَجَرِ لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَقٍّ**».

وَرَوَىٰ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَسْحُ الْحَجَرِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ يَحُطُّ الْخَطَايَا حَطًّا**»، وَفِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْمَسْحَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْحَجَرِ.

لَمَّا بَلَغَتِ الْقَبَائِلُ فِي الْبُنْيَانِ مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ تَنَازَعُوا فِيمَنْ يَضَعُهُ، فَكُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَحظَىٰ بِهَذَا الشَّرَفِ، حَتَّىٰ كَادَتِ الْحَرْبُ أَنْ تَشْتَعِلَ بَيْنَهُمْ فِي أَرْضِ الْحَرَمِ، فَهُنَا قَامَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ وَقَرَّبُوا جَفْنَةً مَمْلُوءَةً بِالدَّمِ، وَتَعَاقَدَتْ هِيَ وَبَنُو عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ عَلَىٰ الْمَوْتِ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ فَسُمُّوا: لَعَقَةَ الدَّمِ!

فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا، حَتَّىٰ أَلْهَمَ اللهُ تَعَالَىٰ أَحَدَ عُقَلَائِهِمْ، وَهُوَ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ، وَالِدُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،

وَكَانَ عَامَئِذٍ أَسَنَّ رَجُلٍ فِي قُرَيْشٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ»، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الْيَوْمَ بِبَابِ السَّلَامِ، فَرَضُوا وَقَبِلُوا هَذَا الرَّأْيَ جَمِيعًا، فَأَشْخَصُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَاشْرَأَبَّتْ -أَيِ: ارْتَفَعَتِ الْأَعْنَاقُ إِلَىٰ: مَنْ يَا تُرَىٰ يَكُونُ هَذَا الدَّاخِلُ؟- فَإِذَا بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَهُ لِيُخَلِّصَ قُرَيْشًا مِنْ هَذَا الشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا مُحَمَّدٌ! ﷺ.

فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَلَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَعْطَاهُمُ الْحَلَّ الْعَظِيمَ، فَقَالَ ﷺ: «**هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا**» فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا**»، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ.

تَفَاصِيلُ تَحْكِيمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ذَكَرَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِهِ «مُشْكِلَ الْآثَارِ»، وَالطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الْمُصَنَّفِ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَهَكَذَا دَرَأَ -أَيْ: دَفَعَ- رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَرْبَ عَنْ قُرَيْشٍ بِحِكْمَةٍ لَيْسَت فَوْقَهَا حِكْمَةٌ!

وَكَانَتْ مُقَدِّمَةُ دَرْئِهِ لِلْحَرْبِ وَالشُّرُورِ عَنِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ

بِحِكْمَتِهِ وَتَعَالِيمِهِ وَرِفْقِهِ، وَتَلَطُّفِهِ فِي الْأُمُورِ، وَبِإِصْلَاحِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَكُونُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، كَمَا كَانَ رَحْمَةً لِلْمُتَخَاصِمِينَ وَالْمُتَحَارِبِينَ فِي قَوْمٍ بُسَطَاءَ أُمِّيِّينَ.

وَمَعَ جُهْدِ قُرَيْشٍ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ الطَّيِّبَةُ عَنْ إِتْمَامِ الْبَيْتِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاضْطُرُّوا إِلَىٰ أَنْ يَقْتَطِعُوا مِنْهُ قِطْعَةً مِنْ جِهَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ، وَبَنَوْا عَلَىٰ هَذَا الْجُزْءِ الَّذِي احْتَجَزُوهُ جِدَارًا قَصِيرًا؛ لِلْإِعْلَامِ أَنَّهُ مِنَ الْبَيْتِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالْحِجْرِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْحِجْرُ مِنَ الْبَيْتِ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَصِحُّ الطَّوَافُ إِلَّا مِنْ وَرَائِهِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حُجِرَ -أَيِ: اقْتُطِعَ- مِنَ الْكَعْبَةِ، فَهُوَ مِنْهَا.

وَكَانَ ارْتِفَاعُ الْكَعْبَةِ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ عَلَىٰ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ لَهَا بَابَانِ: بَابٌ شَرْقِيٌّ، وَبَابٌ غَرْبِيٌّ؛ لِيَدْخُلَ النَّاسُ مِنْ بَابٍ، وَيَخْرُجُوا مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ.

فَلَمَّا بَنَتْهَا قُرَيْشٌ زَادُوا فِي ارْتِفَاعِهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ أُخْرَىٰ، وَاقْتَصَرُوا عَلَىٰ بَابٍ وَاحِدٍ، وَرَفَعُوا بَابَهَا عَنِ الْأَرْضِ، فَصَارَ لَا يُصْعَدُ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَىٰ سُلَّمٍ؛ لِيُدْخِلُوا مَنْ يَشَاءُونَ، وَلِيَمْنَعُوا مَنْ يَشَاءُونَ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: «**يَا عَائِشَةُ! لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ** -أَوْ قَالَ: **بِشِرْكٍ**-؛ **لَأَمَرْتُ**

بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ».

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْجَدْرِ أَ مِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ - وَالْجَدْرُ: بِفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ الدَّالِ هُوَ الْحِجْرُ، لِمَا فِيهِ مِنْ أُصُولِ حَائِطِ الْبَيْتِ، وَهُوَ اسْمُ الْحَائِطِ الْمُسْتَدِيرِ إِلَىٰ جَانِبِ الْكَعْبَةِ الْغَرْبِيِّ - قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْجَدْرِ أَ مِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قُلْتُ: فَلِمَ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: «**إِنَّ قَوْمَكِ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ**». قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: «**فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ؛ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ**» الْحَدِيثَ، كَمَا مَرَّ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَأَنْقَذَ النَّبِيُّ ﷺ قُرَيْشًا مِنْ حَرْبٍ طَاحِنَةٍ قَدْ ظَهَرَتْ بَوَادِرُهَا، وَوُجِدَ مَنْ يُسَمَّىٰ بِـ(**لَعَقَةِ الدَّمِ**)، وَكُلُّهُمْ يَبْتَغِي الْوُصُولَ إِلَىٰ ذَلِكَ الشَّرَفِ بِجَعْلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي مَوْضِعِهِ دُونَ سَائِرِ قَبَائِلِهِمْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِحِكْمَتِهِ فَجَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ كَمَا مَرَّ وَانْتَهَىٰ مَا كَانَ مِنَ الشَّرِّ، وَارْتَفَعَ وَحَلَّ السَّلَامُ وَالْوِئَامُ، وَرَضِيَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا.

أَحْدَاثٌ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ

كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَمَا أَرَادَهُ اللهُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ثَرَاءٍ مِنَ الْمَالِ، وَإِنْ كَانَ ذَا ثَرَاءٍ مِنَ الشَّرَفِ وَالْمَكَانَةِ فِي قُرَيْشٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ -وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ وَأَغْنَىٰ بَنِي هَاشِمٍ-: «**يَا عَمِّ! إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَىٰ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ؛ فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ، فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ وَعَنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ وَاحِدًا، وَتَأْخُذُ أَنْتَ وَاحِدًا**».

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: «نَعَمْ».

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ فَقَالَا لَهُ: «إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ، حَتَّىٰ يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ». فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: «إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا!». فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ بَعَثَهُ اللهُ، فَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ؛ بَلْ قِيلَ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّىٰ أَسْلَمَ، وَاسْتَغْنَىٰ عَنْهُ!

وَلَقَدْ كَانَتْ لِنَشْأَةِ الْفَتَىٰ عَلِيٍّ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَتَعَهُّدِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِالتَّرْبِيَةِ

وَالرِّعَايَةِ كَانَ لِذَلِكَ أَكْبَرُ الْأَثَرِ فِيمَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ عَلِيٌّ مِنْ صَفَاءِ الرُّوحِ، وَقُوَّةِ الْجَنَانِ، وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ، وَبَلَاغَةِ الْبَيَانِ، وَغَزَارَةِ الْعِلْمِ، وَالشَّجَاعَةِ وَالْبُطُولَةِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْآدَابِ.

عَاشَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْفَتْرَةَ مِنْ حَيَاتِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَهُوَ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَرَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ؛ وَذَلِكَ بِفَضْلِ السَّيِّدَةِ الْوَدُودِ الْوَلُودِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَرَزَقَهُ اللهُ مِنْهَا الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، لَوْلَا مَا شَابَ هَذِهِ الْفَتْرَةَ مِنْ حَيَاتِهِمَا مِنْ أَحْدَاثٍ كَانَ لِبَعْضِهَا وَقْعٌ أَلِيمٌ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَزَوْجِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فَقَدْ مَاتَ وَلَدَاهُ: الْقَاسِمُ وَعَبْدُ اللهِ، وَهُمَا لَا يَزَالَانِ فِي الْمَهْدِ، وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ فَقْدَهُمَا تَرَكَ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَزَوْجِهِ أَسًىٰ وَحُزْنًا.

كَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ زَوَاجِ الْبَنَاتِ، فَقَدْ تَزَوَّجَتْ كُبْرَاهُنَّ زَيْنَبُ بِابْنِ خَالَتِهَا أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَكِبَارِ تُجَّارِهَا، هَذَا إِلَىٰ مَا كَانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ كَرِيمِ الْخِلَالِ مِمَّا حَبَّبَهُ إِلَىٰ خَالَتِهِ خَدِيجَةَ، فَأَشَارَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِتَزْوِيجِ زَيْنَبَ مِنْهُ.

وَأَمَّا رُقَيَّةُ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ: فَقَدْ تَزَوَّجَتَا مِنِ ابْنَيْ عَمِّهِمَا عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ ابْنَيْ أَبِي لَهَبٍ، وَلَمْ يَكُونَا بِالزَّوْجَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، فَقَدْ أَمَرَهُمَا أَبُوهُمَا أَبُو لَهَبٍ بَعْدَ أَنْ نُبِّئَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَسْرِيحِهِمَا؛ فَيُشْغَلُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَشَاكِلِ أُسْرَتِهِ عَنِ التَّفَرُّغِ لِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ، فَفَارَقَاهُمَا.

عَلَىٰ حِينِ أَنَّ أَبَا الْعَاصِ لَمَّا كَلَّمَتْهُ قُرَيْشٌ فِي تَطْلِيقِ زَيْنَبَ وَتَزْوِيجِهِ أَيَّ فَتَاةٍ يُرِيدُ مِنْ بَنَاتِ قُرَيْشٍ أَبَىٰ، وَقَالَ: «**وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ!**».

ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِ رُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ أَنْ تَزَوَّجَهُمَا ذُو النُّورَيْنِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَىٰ، وَلَمْ يُعْرَفْ أَنَّ أَحَدًا أَرْخَىٰ سِتْرَهُ عَلَىٰ بِنْتَيْ نَبِيٍّ غَيْرَ عُثْمَانَ، فَمِنْ ثَمَّ لُقِّبَ بِـ(ذِي النُّورَيْنِ).

وَأَمَّا فَاطِمَةُ: فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا فَتَاةً صَغِيرَةً، فَبَقِيَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا، وَشَاهَدَتْ مَا نَالَهُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَذَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَعْدَ النُّبُوَّةِ حَتَّىٰ بَلَغَتِ الْمَحِيضَ، وَصَارَتْ أَهْلًا لِلزَّوَاجِ، فَتَزَوَّجَ بِهَا فَتَى الْفِتْيَانِ عَلِيٌّ بَعْدَ بَدْرٍ، وَرَزَقَهَا اللهُ مِنْهُ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَمِنْ نَسْلِهَا كَانَتِ الْعِتْرَةُ الطَّيِّبَةُ مِنْ آلِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَمَّا تَبَنِّي زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: فَزَيْدٌ هُوَ ابْنُ حَارِثَةَ بْنِ شُرَحْبِيلَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ الْكَلْبِيُّ، وَكَانَ زَيْدٌ فِي سَفَرٍ مَعَ أُمِّهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، فَأَغَارَ عَلَيْهِمَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَأَسَرُوا زَيْدًا، وَبَاعُوهُ فَاشْتَرَاهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، فَأَهْدَاهُ إِلَىٰ عَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بَعْدَ زَوَاجِهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِقَلِيلٍ، وَكَانَ عُمْرُ زَيْدٍ إِذْ ذَاكَ نَحْوَ عِشْرِينَ سَنَةً فَاسْتَوْهَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ زَوْجِهِ خَدِيجَةَ فَوَهَبَتْهُ لَهُ، فَرَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ.

فَلَمَّا عَلِمَ أَبُوهُ بِهِ حَضَرَ وَبَعْضُ أَهْلِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ وَعَرَضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا يُرِيدُ مِنَ الْفِدَاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟**» قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ:

«**خَيِّرُوهُ، فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ دُونَ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَدَعُوهُ!**».

فَخَيَّرُوهُ فَاخْتَارَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَذَبَهُ عَمُّهُ وَقَالَ لَهُ: «يَا زَيْدُ! اخْتَرْتَ الْعُبُودِيَّةَ عَلَىٰ أَبِيكَ وَعَمِّكَ؟!». فَقَالَ: «إِيْ وَاللهِ، الْعُبُودِيَّةُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ عِنْدَكُمْ!».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي، يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ**»، وَطَافَ عَلَىٰ حِلَقِ قُرَيْشٍ يُشْهِدُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَرَضِيَ أَهْلُهُ وَانْصَرَفُوا، وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَصْبَحَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَتَّىٰ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ التَّبَنِّيَ، وَأَمَرَ أَنْ يُنْسَبُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ، فَصَارَ يُسَمَّىٰ: زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ.

وَلِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ هَاهُنَا لَفْتَةٌ جَمِيلَةٌ يَقُولُ: إِنَّ زَيْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَ يُدْعَىٰ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ سُلِبَ هَذَا مِنْهُ فَصَارَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، لَكِنَّهُ عُوِّضَ؛ فَزَيْدٌ هُوَ الصَّحَابِيُّ الْوَحِيدُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي ذُكِرَ اسْمُهُ صَرِيحًا فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، لَمْ يُذْكَرْ فِي كِتَابِ اللهِ بِالِاسْمِ سِوَىٰ زَيْدٍ رضي الله عنه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فَأَنْتَ عِنْدَمَا تَأْتِي بِاسْمِهِ فِي خِلَالِ الْآيَةِ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ حَسَنَةً؛ لِأَنَّ الْحَرْفَ بِعَشْرِ حَسَنَاتٍ، وَزَيْدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَرَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ، فَعَوَّضَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُ عَمَّا أُخِذَ مِنْهُ.

كَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّرَفِ! مِنْ أَعْظَمِ مَا

يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ!

زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَنَهَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَبْطَلَ التَّبَنِّي، فَعَادَ الْأَمْرُ إِلَىٰ نِصَابِهِ فَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَة، لَكِنَّهُ عُوِّضَ؛ فَهُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ صَرَاحَةً، لَمْ يُذْكَرْ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ وَلَا عُثْمَانُ وَلَا عَلِيٌّ وَلَا مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم بِالِاسْمِ الصَّرِيحِ كَمَا ذُكِرَ زَيْدٌ رضي الله عنه.

وَزَوَّجَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حَاضِنَتِهِ أُمِّ أَيْمَنَ، وَكَانَتْ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنًّا، فَأَنْجَبَتْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ الْحِبَّ ابْنَ الْحِبِّ؛ لِشِدَّةِ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمَا.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَوِّي بَيْنَ أُسَامَةَ وَبَيْنَ الْحَسَنِ ابْنِ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ، فَيُجْلِسُ الْحَسَنَ عَلَىٰ فَخِذِهِ وَأُسَامَةَ عَلَىٰ فَخِذِهِ الْآخَرِ، وَقَدِ اسْتُشْهِدَ زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَة كَمَا سَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللهُ-.

وَتَأَمَّلْ فِي اخْتِيَارِ زَيْدٍ رضي الله عنه، أُسِرَ بِغَيْرِ حَقٍّ، بِيعَ بِغَيْرِ حَقٍّ، صَارَ عَبْدًا بِغَيْرِ حَقٍّ، وَهُوَ حُرٌّ وَابْنُ أَحْرَارٍ، وَلَكِنْ لَمَّا عَدَا الْأَعْرَابُ عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ، وَاسْتَلَبُوهُ بَاعُوهُ حَتَّىٰ كَانَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ أَبِيهِ!

مَا الَّذِي رَآهُ مِنْهُ؟!

رَأَىٰ مِنْهُ أَمْرًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يُعَاشِرُ وَيَحْيَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛

فَالْعُبُودِيَّةُ عِنْدَهُ خَيْرٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الْأَبِ وَالْأُمِّ، فَهَذَا اخْتِيَارُ زَيْدٍ، وَهُوَ يَدُلُّكَ صَرَاحَةً وَبِوُضُوحٍ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَخْلَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَوَّضَ اللهُ زَيْدًا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَطُوفُ عَلَىٰ حِلَقِ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ: «**اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ**»، فَصَارَ يُدْعَىٰ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

* * *

تَمْهِيدُ اللهِ تَعَالَى لِبَعْثَةِ نَبِيِّهِ ﷺ بِإِرْهَاصَاتٍ وَعَلَامَاتٍ مُنْذُ وِلَادَتِهِ

لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الثَّامِنَةَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيفِ تَرَادَفَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ نُبُوَّتِهِ، وَتَحَدَّثَ بِهَا الرُّهْبَانُ وَالْكُهَّانُ؛ فَقَدْ مَهَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ لِبَعْثَةِ نَبِيِّهِ ﷺ بِإِرْهَاصَاتٍ وَعَلَامَاتٍ مُنْذُ وِلَادَتِهِ، مِنْهَا مَا هُوَ حِسِّيٌّ، بِأَحْدَاثٍ تَحْدُثُ لَهُ كَالَّذِي رَأَتْهُ أُمُّهُ حِينَ وِلَادَتِهِ، وَمَا حَدَثَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ رَضَاعِهِ عِنْدَ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ، وَقِصَّةِ بَحِيرَىٰ الرَّاهِبِ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعْنَوِيٌّ، ظَهَرَ فِي أَخْلَاقِهِ ﷺ كَتَرْكِهِ الْكَذِبَ، وَتَرْكِهِ شُرْبَ الْخَمْرِ خِلَافًا لِعَادَةِ الرِّجَالِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَعَدَمِ سُجُودِهِ لِصَنَمٍ؛ حَتَّىٰ أَقْسَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا مَسَّ صَنَمًا قَطُّ حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالْوَحْيِ، وَعَدَمِ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا... وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الرُّجُولَةِ وَالشَّهَامَةِ، حَتَّىٰ قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: «**إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ**» كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ.

وَحَتَّىٰ يُشَاهِدَ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ كُلُّ مَنْ حَوْلَهُ وَيَرَوْهَا رَأْيَ الْعَيْنِ، وَيَتَنَاقَلُوهَا

بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا مَا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَكُونَنَّ فِي عَجَبٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَكَانَ مَنْ أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، فَمَا أَنْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا سَارَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ وَغَيْرُ الْمُقَرَّبِينَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالدُّخُولِ فِي دَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَوْ مَنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ إِسْلَامَهُ إِلَىٰ حِينٍ آخَرَ؛ وَلِذَلِكَ حَتَّىٰ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﷺ كَانُوا عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ وَأَنَّهُ لَا يَكْذِبُ، وَلِذَلِكَ لَمَّا عَلِمُوا ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِهِ شَهِدُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِنْكَارَهُ؛ وَذَلِكَ لِمَا عَلِمُوهُ عَلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقٍ كَرِيمَةٍ.

وَمِمَّا حَدَثَ لَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ وَمِنْ تَحْدِيثِ الْكُهَّانِ وَالرُّهْبَانِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِهِ ﷺ، وَلَكِنْ مِمَّا مَنَعَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَجْحَدُوا تِلْكَ الْعَلَامَاتِ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ التَّاسِعَةَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيفِ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ شَهْرَ رَمَضَانَ يَتَحَنَّفُ فِيهِ.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -قَالَ الزُّهْرِيُّ أَحَدُ رُوَاةِ الْحَدِيثِ: وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا».

وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ: «أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَقَبْلَ مَبْعَثِهِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ كَانَ وَحْيُهُ مَنَامًا، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ».

جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الَّذِي مَرَّ أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ يُحَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِتَرْتِيبِ الْأَخْبَارِ، فَيَقُولُ: تَحْبِيبُ الْخَلْوَةِ سَابِقٌ عَلَىٰ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

● ● ●



مُقَدِّمَاتٌ بَيْنَ يَدِي الْوَحْيِ:

الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ

فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ بَدَأَتْ تَلُوحُ آثَارُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهِ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-، فَمِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَالْآثَارِ:

* الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ: فَأَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ.

قَالَ الْحَافِظُ: بُدِئَ بِالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ؛ لِيَكُونَ تَمْهِيدًا وَتَوْطِئَةً لِلْيَقَظَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ فِي «الصَّحِيحِ»: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ»، قَالَ الْحَافِظُ: وَهُمَا بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أُمُورِ الْآخِرَةِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أُمُورِ الدُّنْيَا فَصَالِحَةٌ فِي الْأَصْلِ أَخَصُّ، فَرُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهَا صَادِقَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ صَالِحَةً وَهِيَ الْأَكْثَرُ، غَيْرَ صَالِحَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلدُّنْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الرُّؤْيَا يَوْمَ أُحُدٍ.

فَأَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا فِي نَوْمِهِ إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَالْمُرَادُ بِفَلَقِ الصُّبْحِ: ضِيَاؤُهُ، وَخُصَّ بِالتَّشْبِيهِ؛ لِظُهُورِهِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، حَتَّىٰ مَضَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بُدِئَ بِالْوَحْيِ ﷺ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ

رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ».

فَهَذَا مِنْ مُقَدِّمَاتِ نُزُولِ الْوَحْيِ، وَمِنَ الْعَلَامَاتِ وَالْآثَارِ فِي ذَلِكَ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ.

●●●

حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ لِلْخَلْوَةِ

ثَانِيًا: حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ لِلْخَلْوَةِ.

وَلَمَّا تَقَارَبَتْ سِنُّ النَّبِيِّ ﷺ الْأَرْبَعِينَ حَبَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَهْجُرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ؛ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءٍ.

وَحِرَاءٌ: بِكَسْرِ الْحَاءِ، غَارٌ صَغِيرٌ فِي جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، يُعْرَفُ بِـ(جَبَلِ النُّورِ)، قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ -فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»-: «الْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِهِ ﷺ بِالتَّخَلِّي فِي غَارِ حِرَاءٍ، أَنَّ الْمُقِيمَ فِيهِ -أَيْ: فِي ذَلِكَ الْغَارِ- كَانَ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ الْكَعْبَةِ، فَيَجْتَمِعُ لِمَنْ يَخْلُو فِيهِ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ: الْخَلْوَةُ، وَالتَّعَبُّدُ وَالنَّظَرُ إِلَىٰ الْبَيْتِ».

فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَهْجُرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ؛ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّثُ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

قَالَ الْحَافِظُ: وَهَذَا يَلْفِتُ إِلَىٰ مَسْأَلَةٍ أُصُولِيَّةٍ، وَهِيَ: أَنَّهُ ﷺ هَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُوحَي إِلَيْهِ مُتَعَبِّدًا بِشَرِيعَةِ نَبِيٍّ قَبْلَهُ؟

قَالَ الْجُمْهُورُ: لَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ تَابِعًا لَاسْتُبْعِدَ أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعًا، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَنُقِلَ مَنْ كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: نَعَمْ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ عَلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالثَّانِي: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالثَّالِثُ: إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣].

وَالرَّابِعُ: مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْخَامِسُ: عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالسَّادِسُ: بِكُلِّ شَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْ شَرْعِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَحُجَّتُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وَالسَّابِعُ: الْوَقْفُ.

وَلَا تَخْفَىٰ قُوَّةُ الثَّالِثِ، لَاسِيَّمَا مَعَ مَا نُقِلَ مِنْ مُلَازَمَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْحَجِّ وَالطَّوَافِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَتَزَوَّدُ لِخَلْوَتِهِ لِبَعْضِ لَيَالِي الشَّهْرِ، فَإِذَا نَفِدَ ذَلِكَ الزَّادُ رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَزَوَّدُ قَدْرَ ذَلِكَ؛ فَيُقِيمُ فِي حِرَاءٍ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَيَقْضِي وَقْتَهُ فِي

التَّفْكِيرِ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَوْنِ وَفِيمَا وَرَاءَهَا مِنْ قُدْرَةٍ مُبْدِعَةٍ حَتَّىٰ وَصَلَ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ انْعَكَسَتْ فِيهَا أَشِعَّةُ الْغُيُوبِ عَلَىٰ صَفْحَةِ قَلْبِهِ الْمَجْلُوَّةِ؛ فَأَصْبَحَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ».

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَضَىٰ جِوَارَهُ مِنْ شَهْرِهِ، وَالْجِوَارُ: الِاعْتِكَافُ -قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ: «وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجِوَارِ وَالِاعْتِكَافِ: أَنَّ الِاعْتِكَافَ لَا يَكُونُ إِلَّا دَاخِلَ الْمَسْجِدِ، وَأَمَّا الْجِوَارُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ خَارِجَ الْمَسْجِدِ»- وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَضَىٰ جِوَارَهُ مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ إِذَا انْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ الْكَعْبَةَ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعًا أَوْ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِهِ.

وَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ إِلَىٰ أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي إِحْدَىٰ خَلَوَاتِهِ تِلْكَ، وَقَدْ أَخْرَجَ ذَلِكَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا».



تَسْلِيمُ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ

* مِنْ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ -أَيْضًا- بَيْنَ يَدَيِ الْوَحْيِ: تَسْلِيمُ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**».

وَرَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ -بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ**».

وَرَوَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ بِكَرَامَتِهِ، وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّىٰ تَحَسَّرَ -حَسَرَ: أَيِ انْكَشَفَ- حَتَّىٰ تَحَسَّرَ عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِيَ إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، -وَالشِّعْبُ: مَا انْفَرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ- وَيُفْضِيَ إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرُّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

وَهَذَا التَّسْلِيمُ الْأَظْهَرُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْطَقَ الْحَجَرَ

إِنْطَاقًا كَمَا خَلَقَ الْحَنِينَ فِي الْجِذْعِ، فَهَذَا عَلَىٰ ظَاهِرِهِ لَا يُؤَوَّلُ، لَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ قَوْلًا حَقِيقِيًّا: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَخَلْفَهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ يَرَىٰ وَيَسْمَعُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ حَتَّىٰ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ وَهُوَ بِحِرَاءٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

●●●

سَمَاعُ النَّبِيِّ ﷺ الصَّوْتَ، وَرُؤْيَتُه الضَّوْءَ

* مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ -أَيْضًا- بَيْنَ يَدَيِ الْوَحْيِ: سَمَاعُ النَّبِيِّ ﷺ الصَّوْتَ، وَرُؤْيَتُهُ الضَّوْءَ.

رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَيَرَىٰ الضَّوْءَ سَبْعَ سِنِينَ وَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَثَمَانِ سِنِينَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ».

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ»: أَيْ: صَوْتَ الْهَاتِفِ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَرَىٰ الضَّوْءَ: أَيْ: نُورَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّىٰ رَأَىٰ الْمَلَكَ بِعَيْنِهِ، وَشَافَهَهُ بِوَحْيِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ.

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «**إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءًا، وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ بِي جُنُنٌ**».

جُنُنٌ هَكَذَا -كَمَا قَالَ السِّنْدِيُّ فِي «شَرْحِ الْمُسْنَدِ»- هَكَذَا فِي النُّسَخِ، وَالظَّاهِرُ: جُنُونٌ؛ فَإِنَّ الْجُنُنَ عَلَىٰ هَذَا إِنَّمَا تَئُولُ إِلَىٰ ذَلِكَ.

فَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ!»، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنْ يَكُ صَادِقًا؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ».

وَالنَّامُوسُ: صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ، أَرَادَ بِهِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَصَّهُ بِالْوَحْيِ وَالْغَيْبِ اللَّذَيْنِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا غَيْرُهُ.

فَقَالَ وَرَقَةُ: «إِنْ يَكُ صَادِقًا فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّرُهُ».

وَالتَّعْزِيرُ: هَاهُنَا الْإِعَانَةُ وَالتَّوْقِيرُ، وَالنَّصْرُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

«فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ، فَسَأُعَزِّرُهُ، وَأَنْصُرُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ».

فَلَمَّا كَانَ قُبَيْلَ بَعْثَتِهِ ﷺ تَرَادَفَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ نُبُوَّتِهِ، وَتَكَاثَرَتْ وَحَدَّثَ بِهَا الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ وَالْكُهَّانُ؛ فَأَمَّا الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ: فَبِمَا عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَأَمَّا الْكُهَّانُ: فَبِمَا تَأْتِيهِمْ بِهِ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ.



قِصَّةُ إِسْلَامِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

يَجْعَلُ الْعُلَمَاءُ هَاهُنَا إِسْلَامَ سَلْمَانَ عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، وَمَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ عِلْمٍ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَيَجْعَلُونَ إِسْلَامَ سَلْمَانَ هَاهُنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَعْضُهُمْ يُؤَخِّرُهُ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ إِسْلَامُهُ حَقِيقَةً فِي مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَأَنَا أَسْمَعُ مِنْ فِيهِ -أَيْ: مِنْ فَمِهِ-، قَالَ: «كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا: جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ -وَالدِّهْقَانُ: شَيْخُ الْقَرْيَةِ، الْعَارِفُ بِالْفِلَاحَةِ وَمَا يُصْلِحُ الْأَرْضَ، وَيُلْجَأُ إِلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ- قَالَ: وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللهِ إِلَيْهِ، لَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّىٰ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَاجْتَهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّىٰ كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ -أَيْ: خَادِمَهَا الَّذِي يَخْدُمُهَا وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَخْبُوَ؛ لِتَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهَا- قَالَ: حَتَّىٰ كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً.

قَالَ: وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ!

إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ إِلَيْهَا فَاطْلُعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، ثُمَّ قَالَ لِي: وَلَا تَحْتَبِسْ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ إِنِ احْتَبَسْتَ عَنِّي كُنْتَ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ضَيْعَتِي وَشَغَلْتَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي!

قَالَ: فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَىٰ، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ؛ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ؛ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلَاتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا بَرِحْتُهُمْ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي فَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: بِالشَّامِ.

قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ أَبِي، وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، فَلَمَّا جِئْتُهُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! أَيْنَ كُنْتَ؟! أَوَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ، مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللهِ مَا زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا وَاللهِ، إِنَّهُ لَخَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلِي قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

قَالَ: وَبَعَثْتُ إِلَىٰ النَّصَارَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ.

قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوائِجَهُمْ، وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّىٰ قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا، قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا؟ قَالُوا: الْأَسْقُفُ فِي الْكَنِيسَةِ.

قَالَ: فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ وَأَخْدُمَكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ وَأُصَلِّيَ مَعَكَ، قَالَ: ادْخُلْ فَدَخَلْتُ مَعَهُ.

قَالَ: وَكَانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّىٰ جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ -أَيْ: فِضَّةٍ-، قَالَ: فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَىٰ لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا.

قَالَ: فَقَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟

قَالَ: قُلْتُ لَهُمْ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ كَنْزِهِ، قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ.

قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا.

قَالَ: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا!

قَالَ: فَصَلَبُوهُ، وَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، وَجَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَجَعَلُوهُ مَكَانَهُ.

قَالَ: يَقُولُ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّي أَرَىٰ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَأَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَدْأَبَ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَبْلَهُ.

قَالَ: فَقُمْتُ مَعَهُ زَمَانًا طَوِيلًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَبْلَك وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَىٰ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي، وَبِمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ أَحَدًا عَلَىٰ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا، وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا رَجُلًا بِالْمُوصِلِ، هُوَ فُلَانٌ، وَهُوَ عَلَىٰ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ.

قَالَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمُوصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَىٰ أَمْرِهِ، فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَىٰ أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ.

فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا أَوْصَىٰ بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللهِ مَا تَرَىٰ، فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي، وَبِمَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: يَا بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلًا بِنَصِيبِينَ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبُهُ، قَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ.

فَلَمَّا حَضَرَ، قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَىٰ بِي إِلَىٰ فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَىٰ بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ.

قَالَ: فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي، وَبِمَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: يَا بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ؛ فَإِنَّهُ عَلَىٰ مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ، فَإِنَّهُ عَلَىٰ أَمْرِنَا.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَ خَيْرِ رَجُلٍ عَلَىٰ هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ: وَاكْتَسَبْتُ حَتَّىٰ كَانَتْ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ.

قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلَمَّا حُضِرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَىٰ بِي فُلَانٌ إِلَىٰ فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَىٰ بِي فُلَانٌ إِلَىٰ فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَىٰ بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي، وَبِمَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ الْيَوْمَ أَحَدٌ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ بِهِ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجَرُهُ إِلَىٰ أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَىٰ: يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ.

قَالَ: ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ، وَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارٌ، فَقُلْتُ لَهُمُ: احْمِلُونِي إِلَىٰ أَرْضِ الْعَرَبِ، وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ!

قَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُمُوهَا وَحَمَلُونِي مَعَهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا بِي وَادِيَ الْقُرَىٰ ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ فِي نَفْسِي، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي.

فَأَقَمْتُ بِهَا وَبُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عِذْقٍ لِسَيِّدِي -الْعِذْقُ وَالْعَذْقُ أَيْضًا؛ بِالْفَتْحِ النَّخْلَةُ، وَبِالْكَسْرِ الْكُبَاسَةُ- فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتِي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللهِ إِنَّهُمُ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَىٰ رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ -قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَيْلَةُ

بِنْتُ كَاهِلِ بْنِ عُذْرَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ لَيْثِ بْنِ سَوْدِ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ الْحَافِ بْنِ قُضَاعَةَ هِيَ أُمُّ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ- قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللهِ إِنَّهُمُ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَىٰ رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ!

قَالَ سَلْمَانُ ﵁: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا -يَعْنِي تِلْكَ الْمَقَالَةَ- أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ -قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: هِيَ الرِّعْدَةُ مِنَ الْبَرْدِ وَالِانْتِفَاضِ، فَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ عَرَقٌ فَهِيَ الرُّحَضَاءُ، وَكِلَاهُمَا مَمْدُودٌ-.

يَقُولُ سَلْمَانُ: حَتَّىٰ ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَىٰ سَيِّدِي، فَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ: فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا أَقْبِلْ عَلَىٰ عَمَلِكَ!

قَالَ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَهُ عَمَّا قَالَ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ بِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ قَدْ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالَ: فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**كُلُوا**»، وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ.

قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ -أَنَّهُ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ- فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ، قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُهُ بِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ

الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا.

قَالَ: فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ ثِنْتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ -مَقْبَرَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهِيَ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ- وَقَدْ تَبِعَ جِنَازَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - هُوَ كُلْثُومُ بْنُ الْهِدْمِ، وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَنْ تُوُفِّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، لَمْ يَلْبَثْ يَسِيرًا حَتَّىٰ مَاتَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ وَقَدْ تَبِعَ جِنَازَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَلَيَّ شَمْلَتَانِ لِي -وَالشَّمْلَةُ: الْكِسَاءُ الْغَلِيظُ يَشْتَمِلُ بِهِ الإِنْسَانُ، أَيْ: يَلْتَحِفُ بِهِ- وَعَلَيَّ شَمْلَتَانِ لِي، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَىٰ ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَىٰ الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي؟ فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَدْبَرْتُهُ، عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، فَأَلْقَىٰ رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَأَكْبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَوَّلْ**»، فَتَحَوَّلْتُ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّىٰ فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْرٌ، وَأُحُدٌ.

قَالَ سَلْمَانُ: ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ**»، فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَىٰ ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ -أَيْ: بِالْحَفْرِ وَالْغَرْسِ-، وَأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**أَعِينُوا أَخَاكُمْ**»، فَأَعَانُونِي

بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً - وَهِيَ فِرَاقُ النَّخْلِ الصِّغَارِ-، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ وَدِيَّةً، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ وَدِيَّةً، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يُعِينُ الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ** -أَيِ: احْفِرْ- **لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدِي**»، قَالَ: فَفَقَّرْتُ، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغْتُ جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ إِلَيْهِ الْوَدِيَّ، وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، حَتَّىٰ فَرَغْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ، مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ.

قَالَ: فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ، وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَعَادِنِ، فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟**». قَالَ: فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ: «**خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ**». قَالَ: قُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّا عَلَيَّ؟ قَالَ: «**خُذْهَا؛ فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ**». قَالَ: فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ وَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ مِنْهَا، وَعُتِقَ سَلْمَانُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ حُرًّا، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَهَذَا نُمُوذَجٌ لِلْبَاحِثِ عَنِ الْحَقِّ لَا يَكَلُّ وَلَا يَمَلُّ، وَيَتَعَرَّضُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ

لِلشَّدَائِدِ الْعِظَامِ، وَالْبَلَايَا الْجِسَامِ حَتَّىٰ يَصِيرَ عَبْدًا، وَلَا يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ تَتَبُّعِ مَنْ خَرَجَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَلْقَاهُ وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِلُقْيَاهُ، فَآمَنَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يُرَاعِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ: «رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَجِئْتُكَ بِهَذَا هَدِيَّةً» عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ لَهُ شَأْنًا، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ؛ لِذَلِكَ لَمَّا كَانَ مُسْتَدْبِرًا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَرَاهُ مَا كَانَ يَرْغَبُ أَنْ يَرَاهُ فَحَسَرَ الرِّدَاءَ عَنْ ظَهْرِهِ حَتَّىٰ رَأَىٰ سَلْمَانُ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ، فَلَمَّا رَآهُ أَكَبَّ عَلَيْهِ بُكَاءً وَتَقْبِيلًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَوَّلْ**»، فَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَصَّ عَلَيْهِ شَأْنَهُ. هَذَا نَمُوذَجٌ فَذٌّ لِلْبَاحِثِ عَنِ الْحَقِّ مُتَجَرِّدًا.

وَأَمَّا الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الْحَقِّ بِزَعْمِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُشْبِعَ هَوَاهُ، فَهَذَا لَهُ شَأْنٌ آخَرُ، لَا يُثَبَّتُ وَلَا يُعَانُ؛ فَنَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالثَّبَاتِ عَلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي هَدَانَا إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَقْبِضَنَا عَلَيْهِ، وَيَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ مَنْ جَاءَ بِهِ ﷺ.

◉◉◉

إِرْهَاصَاتٌ قَبْلَ الْبَعْثَةِ:

حَجْبُ الشَّيَاطِينِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ عِنْدَ قُرْبِ مَبْعَثِهِ ﷺ

وَقَعَتْ إِرْهَاصَاتٌ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَالْإِرْهَاصَاتُ هِيَ الْمُقَدِّمَاتُ، مِنْ ذَلِكَ:

* حَجْبُ الشَّيَاطِينِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ عِنْدَ قُرْبِ مَبْعَثِهِ ﷺ: تَسْتَرِقُ السَّمْعَ مِنَ السَّرِقَةِ، أَيْ أَنَّهَا تَسْتَمِعُ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ مُتَخَفِّيَةً كَمَا يَفْعَلُ السَّارِقُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا تَقَارَبَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَضَرَ مَبْعَثُهُ، حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَقَاعِدِ الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ فِيهَا، فَرُمُوا بِالنُّجُومِ، فَعَرَفَتِ الْجِنُّ أَنَّ ذَلِكَ لِأَمْرٍ حَدَثَ مِنْ أَمْرِ اللهِ فِي الْعِبَادِ، يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ، وَهُوَ يَقُصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ الْجِنِّ إِذْ حُجِبُوا عَنِ السَّمْعِ، فَعَرَفُوا مَا عَرَفُوا، وَمَا أَنْكَرُوا مِنْ ذَلِكَ حِينَ رَأَوْا مَا رَأَوْا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ١- ٦]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا

مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ٩ - ١٠].

وَمِنْ تَحَرُّزِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ هَكَذَا بِالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الشَّرِّ، فَلَمْ يُسْنِدُوهُ إِلَىٰ اللهِ كَمَا أَسْنَدُوا إِلَيْهِ الرَّشَدَ: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْجِنُّ الْقُرْآنَ عَرَفَتْ أَنَّهَا إِنَّمَا مُنِعَتْ مِنَ السَّمْعِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يُشْكِلَ الْوَحْيُ وَيُشْكِلَ بِشَيْءٍ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَيَلْتَبِسَ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مَا جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ لِوُقُوعِ الْحُجَّةِ وَقَطْعِ الشُّبْهَةِ، فَآمَنُوا وَصَدَّقُوا، ثُمَّ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

مَتَىٰ حَدَثَ هَذَا الرَّصَدُ؟

اخْتُلِفَ فِي هَذَا الرَّصَدِ: هَلْ كَانَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ أَمْ بَعْدَهَا؟ وَهَلْ كَانَ مُسْتَمِرًّا أَمْ عَلَىٰ فَتَرَاتٍ؟

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ

السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، فَقَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟

فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدًا إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، وَقَالُوا: هَذَا -وَاللهِ- الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، قَالَ: فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ الْآيَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، وَكَذَا مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»: هَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ فِي أَوَّلِ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلِمَتْ بِحَالِهِ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَرَهُمْ كَمَا حَكَىٰ.

ثُمَّ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَذَهَبَ مَعَهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ كَمَا حَكَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَرَأَىٰ آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ.

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: فَيُجْمَعُ بَيْنَ مَا نَفَاهُ، وَمَا أَثْبَتَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ بِتَعَدُّدِ وُفُودِ الْجِنِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَّا مَا وَقَعَ بِمَكَّةَ فَكَانَ لِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَالرُّجُوعِ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ، وَأَما فِي الْمَدِينَةِ فَلِسُؤَالٍ عَنِ

الْأَحْكَامِ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي الْحَدِيثَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْقُدُومُ الثَّانِي كَانَ أَيْضًا بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَلَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بِالْمَدِينَةِ، وَيُحْتَمَلُ تَعَدُّدُ الْقُدُومِ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ وَبِالْمَدِينَةِ أَيْضًا.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: ذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذَا الرَّمْيِ بِالنُّجُومِ: أَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنَّهُ إِذْ جَاءَ الْإِسْلَامُ غُلِّظَ وَشُدِّدَ» يُرِيدُ مَا ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ الْجِنُّ يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ، فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَىٰ بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلَّا رُمِيَ بِشِهَابٍ يَحْرِقُ مَا أَصَابَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَىٰ إِبْلِيسَ فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ، فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ».

فَمَا ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ فِيمَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ هُوَ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: وَهَذَا جَمْعٌ حَسَنٌ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ -عِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ هَذَا الرَّمْيِ بِالنُّجُومِ: أَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ-: «نَعَمْ، لَكِنَّهُ إِذْ جَاءَ الْإِسْلَامُ غُلِّظَ وَشُدِّدَ».

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، وَلَمْ يَقُلْ: حُرِسَتْ، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا؛ وَذَلِكَ لِيَنْحَسِمَ أَمْرُ الشَّيَاطِينِ، وَلِيَنْحَسِمَ تَخْلِيطُهُمْ، وَلِتَكُونَ الْآيَةُ أَبْيَنَ، وَالْحُجَّةُ أَقْطَعَ!

وَإِنْ وُجِدَ الْيَوْمَ كَاهِنٌ فَلَا يُدْفَعُ ذَلِكَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ طَرْدِ الشَّيَاطِينِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ التَّغْلِيظَ وَالتَّشْدِيدَ كَانَ زَمَنَ النُّبُوَّةِ ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهُ، أَعْنِي مِنَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بَقَايَا يَسِيرَةٌ؛ بِدَلِيلِ وُجُودِهِمْ عَلَىٰ النُّدُورِ فِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ وَفِي بَعْضِ الْبِلَادِ». انْتَهَىٰ كَلَامُ السُّهَيْلِيِّ فِي الرَّوْضِ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، فَمَعْنَاهُ: الشُّهُبُ كَانَتْ تُرْمَىٰ فَتُصِيبُ تَارَةً، وَلَا تُصِيبُ تَارَةً أُخْرَىٰ، وَبَعْدَ الْبَعْثَةِ أَصَابَتْهُمْ إِصَابَةً مُسْتَمِرَّةً؛ فَوَصَفُوهَا لِذَلِكَ بِالرَّصَدِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَرْصُدُ الشَّيْءَ لَا يُخْطِئُهُ، فَيَكُونُ الْمُتَجَدِّدُ دَوَامَ الْإِصَابَةِ لَا أَصْلَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُ السُّهَيْلِيِّ: لَوْلَا أَنَّ الشِّهَابَ قَدْ يُخْطِئُ الشَّيْطَانَ فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَجَوَابُهُ: يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ التَّعَرُّضُ مَعَ تَحَقُّقِ الْإِصَابَةِ لِرَجَاءِ اخْتِطَافِ الْكَلِمَةِ وَإِلْقَائِهَا قَبْلَ إِصَابَةِ الشِّهَابِ، ثُمَّ لَا يُبَالِي الْمُخْتَطَفُ بِالْإِصَابَةِ لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ، يَعْنِي هُوَ يَعْلَمُ مُتَحَقِّقًا أَنَّهُ سَيُرْمَىٰ، وَأَنَّهُ سَيُصَابُ لَكِنْ يُرِيدُ اخْتِطَافَ الْكَلِمَةِ مَعَ تَحَقُّقِ الْإِصَابَةِ؛ رَجَاءَ أَنْ يُلْقِيَهَا إِلَىٰ

مَنْ دُونَهُ، وَإِنْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْإِصَابَةُ لَا يُبَالِي بِهَا؛ لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ».
هَذَا كَلَامُ الْحَافِظِ فِي «الْفَتْحِ».

هَلِ انْقَطَعَ هَذَا الرَّمْيُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ لَا؟

إِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الرَّمْيُ غُلِّظَ وَشُدِّدَ بِسَبَبِ نُزُولِ الْوَحْيِ، فَهَلِ انْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ الْوَحْيِ أَيْ: بِمَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ لَا؟

فَالْجَوَابُ: يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ الْمُتَقَدِّمِ فَفِيهِ قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِنَّهَا لَا يُرْمَىٰ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا (تَبَارَكَ اسْمُهُ) إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ**، قَالَ: **فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ**» الْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ سَبَبَ التَّغْلِيظِ وَالْحِفْظِ لَمْ يَنْقَطِعْ لِمَا يَتَجَدَّدُ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُلْقَىٰ بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ مَعَ شِدَّةِ التَّغْلِيظِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ بَعْدَ الْبَعْثِ لَمْ يَنْقَطِعْ طَمَعُهُمْ فِي اسْتِرَاقِ السَّمْعِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهُ؟!

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِغَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا طَلَّقَ نِسَاءَهُ: «إِنِّي لَأَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ،

وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

فَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اسْتِرَاقَهُمُ السَّمْعَ اسْتَمَرَّ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانُوا يَقْصِدُونَ اسْتِمَاعَ الشَّيْءِ مِمَّا يَحْدُثُ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا إِنِ اخْتَطَفَ أَحَدُهُمْ بِخِفَّةِ حَرَكَتِهِ خَطْفَةً فَيَتْبَعُهُ الشِّهَابُ، فَإِنْ أَصَابَهُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا لِأَصْحَابِهِ فَأَتَتْ وَإِلَّا سَمِعُوهُ، وَتَدَاوَلُوهَا، وَهَذَا يَرُدُّ عَلَىٰ قَوْلِ الْإِمَامِ السُّهَيْلِيِّ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهُ.

وَهُنَا وَهْمٌ لِابْنِ إِسْحَاقَ، وَلِابْنِ سَعْدٍ؛ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ سَعْدٍ أَنَّ إِسْلَامَ الْجِنِّ وَالْتِقَاءَهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كَانَ بَعْدَ رُجُوعِهِ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ!

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ قِصَّةَ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ الطَّائِفِ وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِبَائِهِمْ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطُولِهَا، وَأَوْرَدَ ذَلِكَ الدُّعَاءَ الْحَسَنَ: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي...**» إِلَىٰ آخِرِهِ. وَقَدْ ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ كَمَا سَيَأْتِي.

قَالَ: فَلَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُمْ بَاتَ بِنَخْلَةَ، فَقَرَأَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فَاسْتَمَعَهُ الْجِنُّ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ، وَهَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: «إِنَّ الْجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» فَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ فِي ابْتِدَاءِ الْإِيحَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ سِيَاقِ الْحَدِيثِ هُوَ حَدِيثُ ابْنِ

عبَّاسٍ رضي الله عنه مَا الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ أَمْرِ الْتِبَاسِ الْأَمْرِ عَلَىٰ الْجِنِّ، وَبِسَبَبِ إِرْسَالِ الشُّهُبِ عَلَيْهِمْ، الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ سِيَاقِ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ الْمُبَالَغَةُ بِرَمْيِ الشُّهُبِ لِحِرَاسَةِ السَّمَاءِ مِنَ اسْتِرَاقِ الْجِنِّ السَّمْعَ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ النَّبَوِيِّ وَإِنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَكَشَفُوا ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ وَقَفُوا عَلَىٰ السَّبَبِ، ثُمَّ لَمَّا انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ قَدِمُوا فَسَمِعُوا فَأَسْلَمُوا، ثُمَّ تَعَدَّدَ مَجِيئُهُمْ حَتَّىٰ فِي الْمَدِينَةِ.

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي «الْفَتْحِ»: وَالَّذِي تَضَافَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ فِي أَوَّلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فَتَكُونُ قِصَّةُ الْجِنِّ مُتَقَدِّمَةً مِنْ أَوَّلِ الْمَبْعَثِ، وَهَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِمَّنْ وَقَفْتُ عَلَىٰ كَلَامِهِمْ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ. انْتَهَىٰ كَلَامُ الْحَافِظِ فِي «الْفَتْحِ».

وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»، وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ: «**مَا فِي إِدَاوَتِكَ؟!**» -وَالْإِدَاوَةُ: بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ، يُتَّخَذُ لِلْمَاءِ- قَالَ: «**مَا فِي إِدَاوَتِكَ أَوْ رَكْوَتِكَ؟!**» -وَالرَّكْوَةُ: بِفَتْحِ الرَّاءِ، إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ- قُلْتُ: «نَبِيذٌ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ؛ فَتَوَضَّأْ مِنْهُ**». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَأَوْرَدَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي جَامِعِ الْأُصُولِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ لَيْلَةَ لِقَائِهِ بِالْجِنِّ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: هَذَا الْحَدِيثُ أَطْبَقَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ عَلَىٰ تَضْعِيفِهِ.

وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ لَيْلَةَ الْجِنِّ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلَفْظُهُ: قَالَ عَلْقَمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هَلْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟!». فَقَالَ: «مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، وَلَكِنَّا قَدْ فَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقُلْنَا: اغْتِيلَ، اسْتُطِيرَ، مَا فَعَلَ!» -اسْتُطِيرَ: أَيْ طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ-، قَالَ: «فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا كَانَ وَجْهُ الصُّبْحِ أَوْ قَالَ فِي السَّحَرِ إِذَا نَحْنُ بِهِ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ- فَذَكَرُوا الَّذِي كَانُوا فِيهِ-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ**». قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانِي آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

ثَبَتَ تَعَدُّدُ وُفُودِ الْجِنِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا أَوَّلًا كَانَ سَبَبُ مَجِيئِهِمْ مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ إِرْسَالِ الشُّهُبِ، وَسَبَبُ مَجِيءِ الَّذِينَ فِي قِصَّةِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ جَاءُوا لِقَصْدِ الْإِسْلَامِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَالسُّؤَالِ عَنْ أَحْكَامِ الدِّينِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»، وَهُوَ مِنْ أَقْوَىٰ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ تَعَدُّدِ الْقِصَّةِ؛ فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّمَا أَسْلَمَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وَالْقِصَّةُ الْأُولَىٰ كَانَتْ عَقِبَ الْمَبْعَثِ.

الْجَاهِلِيَّةُ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

أُمَّةٌ تَنْحَنِي جِباهُ الْقَوْمِ لِأَحْجارِهَا، وَتَطْغَىٰ الْعَصَبِيَّةُ عَلَىٰ عُقُولِ رِجالِهَا، وَيَئِدُ الطِّفْلَةَ وَالِدُهَا، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ ضَعِيفَهَا.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ؛ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِئَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ».

وَعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الْآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ، فَحَلَبْنَاهَا عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، وَمُحَاوَرَةِ جَعْفَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ وَقَوْلِهِ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ،

وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ كَمَا قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ؛ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا -أَيْ: مِنْ حَيْضِهَا-: أَرْسِلِي إِلَىٰ فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ -وَهُوَ طَلَبُ الْجِمَاعِ حَتَّىٰ تَحْمَلَ مِنْهُ-، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ؛ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ -وَهُمُ الْجَمَاعَةُ دُونَ الْعَشَرَةِ- يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ؛ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ؛ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ! تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيُلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

النِّكَاحُ الرَّابِعُ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، لَا تَمَنَّعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ، وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جَمَعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَهُ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ؛ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

فَهَذَا بَعْضُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْحَالُ، أَوْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْحَالُ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

● ● ●



حَياةُ النَّبِيِّ ﷺ قَبلَ الْبَعْثَةِ

وَظَلَّتْ حَيَاةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْبَعْثَةِ حَيَاةً فَاضِلَةً شَرِيفَةً لَمْ تُعْرَفْ لَهُ فِيهَا هَفْوَةٌ، وَلَمْ تُحْصَ عَلَيْهِ فِيهَا زَلَّةٌ.

لَقَدْ شَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحُوطُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ بِمَا يُرِيدُهُ لَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ؛ حَتَّىٰ صَارَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الْفُحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ حَتَّىٰ صَارَ مَعْرُوفًا بِالْأَمِينِ ﷺ!

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٦]؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ، ثُمَّ كَانَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوَقِّرُهُ وَيَكُفُّ عَنْهُ أَذَىٰ قَوْمِهِ بَعْدَ أَنِ ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ وَحُسْنِ

تَدْبِيرِهِ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ؛ فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَّالُهُمْ، فَاخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِلَىٰ بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، كَمَا أَجْرَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ سُنَّتَهُ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ، وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ وَكَلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ.

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَشَأَ سَلِيمَ الْعَقِيدَةِ، صَادِقَ الْإِيمَانِ، عَمِيقَ التَّفَكُّرِ غَيْرَ خَاضِعٍ لِتُرَّهَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَمَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ سَجَدَ لِصَنَمٍ قَطُّ أَوْ تَمَسَّحَ بِهِ أَوْ ذَهَبَ إِلَىٰ عَرَّافٍ أَوْ كَاهِنٍ؛ بَلْ بُغِّضَ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَالتَّمَسُّحُ بِهَا ﷺ.

وَلَمَّا لَقِيَ بَحِيرَىٰ الرَّاهِبَ، قَالَ لَهُ بَحِيرَىٰ: «أَسْأَلُكَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ!». وَكَانَ بَحِيرَىٰ سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِمَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسْأَلْنِي بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ شَيْئًا؛ فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضِي لَهُمَا!**». الْحَدِيثُ تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ مِنْ حَدِيثِ بَحِيرَىٰ الرَّاهِبِ، وَأَنَّهُ صَحِيحٌ.

وَرَوَىٰ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ» -بِسَنَدٍ قَوِيٍّ- عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ صَنَمَانِ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُمَا: إِسَافٌ وَنَائِلَةُ، يَتَمَسَّحُ بِهِمَا الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا -يَعْنِي حَوْلَ الْكَعْبَةِ- فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ مَسَحْتُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَمَسَّهُ!**». قَالَ زَيْدٌ: «فَطُفْنَا فَقُلْتُ فِي

نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَكُونُ! فَمَسَحْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَمَسَّهُ! أَلَمْ تُنْهَ!**». قَالَ زَيْدٌ: «فَوَالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا قَطُّ حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ».

وَقَدْ بُغِّضَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلُ الشِّعْرِ، فَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ شِعْرًا، أَوْ أَنْشَأَ قَصِيدَةً أَوْ حَاوَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَلَمْ يَكُنِ الشُّعَرَاءُ بِذَوِي الْأَخْلَاقِ وَالسِّيرَةِ الْمَرْضِيَّةِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ نَزَّهَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الشِّعْرِ، وَالرِّسَالَةُ تَقْتَضِي انْطِلَاقًا فِي الْأُسْلُوبِ وَالتَّعْبِيرِ، وَالشِّعْرُ تَقْيِيدٌ وَتَقَيُّدٌ وَالْتِزَامٌ، وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ وَإِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

وَمَعَ هَذَا، فَقَدْ كَانَ ﷺ يَتَذَوَّقُ مَا فِي الشِّعْرِ مِنْ جَمَالٍ وَحِكْمَةٍ وَرَوْعَةٍ وَيَسْتَنْشِدُهُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا، فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ ﷺ: «**هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**هِيهِ**»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: «**هِيهِ**»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: «**هِيهِ**» حَتَّىٰ أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ».

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ»: وَمَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَحْسَنَ شِعْرَ أُمَيَّةَ، وَاسْتَزَادَ مِنْ إِنْشَادِهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْبَعْثِ، فَفِيهِ جَوَازُ إِنْشَادِ الشِّعْرِ الَّذِي لَا فُحْشَ فِيهِ وَجَوَازُ سَمَاعِهِ سَوَاءٌ شِعْرُ الْجَاهِلِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ،

وَأَنَّ الْمَذْمُومَ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي لَا فُحْشَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ الْإِكْثَارُ مِنْهُ، وَكَوْنُهُ غَالِبًا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ، فَأَمَّا يَسِيرُهُ فَلَا بَأْسَ بِإِنْشَادِهِ وَسَمَاعِهِ وَحِفْظِهِ.

فَكَانَ ﷺ يَتَذَوَّقُ مَا فِي الشِّعْرِ مِنْ جَمَالٍ وَحِكْمَةٍ وَرَوْعَةٍ، وَيَسْتَنْشِدُهُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا، وَلَا عَجَبَ، فَهُوَ الْقَائِلُ ﷺ كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**»، وَهُوَ الْقَائِلُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اهْجُ الْمُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَيَنْبَغِي أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا اقْتَضَاهُ مِنْ عَدَمِ قَوْلِ الشِّعْرِ، وَبَيْنَ قَوْلِ الشِّعْرِ عُمُومًا؛ فَالشِّعْرُ دِيوَانُ الْعَرَبِ، وَلَا تَدَعُ الْعَرَبُ الشِّعْرَ حَتَّىٰ تَدَعَ الْإِبِلُ الْحَنِينَ؛ فَإِنَّ الْإِبِلَ تَحِنُّ أَبَدًا، وَالْعَرَبُ لَنْ تَدَعَ الشِّعْرَ أَبَدًا؛ فَالشِّعْرُ دِيوَانُ الْعَرَبِ؛ وَلِذَلِكَ مِنَ الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي تُحَاكُ لِلْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَا يُقَالُ لَهُ: الشِّعْرُ الْجَدِيدُ، وَالشِّعْرُ الْحَدِيثُ، وَشِعْرُ التَّفْعِيلَةِ، وَشِعْرُ النَّثْرِ وَالْحَدَاثَةِ، وَمَا وَرَاءَ الْحَدَاثَةِ، وَالْبِنْيَوِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ التَّقَالِيعِ الَّتِي يُرِيدُونَ بِهَا تَغْلِيبَ الْجُمْلَةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ عَلَىٰ الْجُمْلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، كَمَا رَصَدَ ذَلِكَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ».

وَمَنْ لَهُ اطِّلَاعٌ عَلَىٰ هَذَا الشِّعْرِ وَلَهُ نَظَرٌ فِيمَا يُقَالُ لَهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ يَعْلَمُ تَقَارُبَ مَا بَيْنَ الْأُسْلُوبَيْنِ، فَهُمْ يُرِيدُونَ قَطْعَ الصِّلَةِ بَيْنَ شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ، وَلُغَتِنَا عَامَّةً وَبَيْنَ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ.

لِمَاذَا؟

لِأَنَّكَ مَهْمَا قَرَأْتَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَوْ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّكَ تَجِدُ الِاسْتِشْهَادَ بِالشِّعْرِ قَائِمًا، فَإِذَا قُطِعَتِ الصِّلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ شِعْرِ مَنْ تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَذَلِكَ إِذَا قُطِعَتِ الصِّلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ لُغَتِنَا فَقَدْ قُطِعَتِ الصِّلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كِتَابِ رَبِّنَا، وَقُطِعَتِ الصِّلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كَلَامِ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ سَلَّمَ؛ وَبِالتَّالِي تُقْطَعُ الصِّلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تُرَاثِنَا، فَنَغْدُو أُمَّةً بِلَا مَاضٍ!!

أُمَّةً بِلَا تُرَاثٍ!!!

أُمَّةً بِلَا جُذُورٍ!!!

فَيَسْهُلُ اقْتِلَاعُهَا، وَيَسْهُلُ أَيْضًا التَّأْثِيرُ عَلَيْهَا.

وَهَذَا التَّفْرِيغُ الثَّقَافِيُّ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ مَحَلَّهُ، وَقَدْ كَانَ، فَمُلِئَ كَمَا بَيَّنَ الْعَلَّامَةُ مَحْمُود شَاكِر رَحِمَهُ اللهُ فِي «**رِسَالَةٍ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ ثَقَافَتِنَا**»، فَبَيَّنَ هَذَا الِاسْتِلَابَ، وَكَيْفَ فُرِّغَ الْجِيلُ تَفْرِيغًا ثَقَافِيًّا، ثُمَّ حُشِيَ عَقْلُهُ، وَمُلِئَ ضَمِيرُهُ بِمَا لَا يَمُتُّ إِلَىٰ تُرَاثِهِ وَلَا إِلَىٰ دِينِهِ وَلَا إِلَىٰ قَدِيمِهِ بِصِلَةٍ، فَصَارَ فِيهِ هَذَا الْجِيلُ الَّذِي تَجِدُهُ يَتْبَعُ كُلَّ نَاعِقٍ، لَا يَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلٍ وَلَا يُحَافِظُ عَلَيْهِ، وَبِالتَّالِي امَّحَىٰ مِنْهُ -أَوْ كَادَ- الِانْتِمَاءُ؛ فَهُمْ لَا يَنْتَمُونَ إِلَىٰ أَرْضٍ، وَلَا يَنْتَمُونَ إِلَىٰ عِرْضٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَحْرِصُونَ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ.

فَيَنْبَغِي أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ مَا كَانَ فِي مَقَامِ النُّبُوَّةِ مِنْ بُغْضٍ لِقَوْلِ الشِّعْرِ وَتَنَزُّهٍ عَنْهُ

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] وَبَيْنَ مَنْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَحَتَّىٰ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ فِيهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذَوَّاقَةً لِلشِّعْرِ، وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُوَفَّقًا فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ عُدَّ أَوَّلَ نَاقِدٍ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ!

لَمَّا سَأَلَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ، أَوْ سَأَلَ بَعْضُ أَبْنَاءِ الْمَمْدُوحِينَ عَمَّا كَانَ مِنْ مَدِيحِ زُهَيْرٍ لَهُمْ، فَهُمْ قَدْ أَعْطَوْا زُهَيْرًا مَا أَعْطَوْهُ مِنَ الْعَطَايَا، فَقَالَ: «إِنَّ مَا أَعْطَيْتُمُوهُ زُهَيْرًا قَدْ فَنِيَ، وَمَا أَعْطَاكُمُوهُ زُهَيْرٌ فَهُوَ الْبَاقِي لَكُمْ» فِي مَعْنَىٰ مَا قَالَ.

وَكَذَلِكَ لَمَّا تَكَلَّمَ عَنْ شِعْرِ زُهَيْرٍ وَأَنَّهُ لَا يُعَاظِلُ فِي كَلَامِهِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وُصِفَ بِهِ كَلَامُهُ به عَدَّهُ النُّقَّادُ الْمُحْدَثُونَ أَوَّلَ نَقْدٍ صَحِيحٍ لِلشِّعْرِ.

فَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ مُشَارَكَةٌ فِي هَذَا؛ بَلْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَأْتِي بِذَلِكَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ: «**اهْجُ الْمُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**».

وَاتَّخَذَ حَسَّانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْبَرًا كَانَ يُنْشِدُ شِعْرَهُ عَلَيْهِ مَنْ حَضَرَ وَمَنِ اسْتَمَعَ، فَمَرَّ بِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ شَزَرًا فَقَالَ: «إِلَيْكَ عَنِّي يَا عُمَرُ! فَوَاللهِ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُنْشِدُ فِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، فَلَا يُثَرِّبُ عَلَيَّ» فَقَالَ: «صَدَقْتَ»، وَانْصَرَفَ عَنْهُ.

فَنُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا وَلَا نُقَلِّلُ مِنْ قِيمَةِ شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ الْأَصِيلِ، بَلْ إِنَّنَا نُدَافِعُ عَنْهُ

يَعْنِي عَمَّا كَانَ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَشْعَارِ الشُّعَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمَنْ لَحِقَهُمْ وَسَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِمْ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الْحَدَاثِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ عَبَثٍ وَمُجُونٍ، وَهُمْ لَا يُفْهَمُ مَا يَقُولُونَ، فَتَجِدُ كَلَامَهُمْ لَا يَفْهَمُونَهُ هُمْ، وَيَقُولُونَ إِنَّ الْإِبْدَاعَ فِي الشِّعْرِ إِنَّمَا هُوَ كَذَلِكَ.

لَمْ يَشْرَبْ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْرًا، وَلَا قَرُبَ مِنْ فَاحِشَةٍ.

لَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ، وَلَا اقْتَرَفَ فَاحِشَةً قَطُّ، وَلَا انْغَمَسَ فِيمَا كَانَ يَنْغَمِسُ فِيهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ حِينَئِذٍ مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالْمَيْسِرِ وَمُصَاحَبَةِ الْأَشْرَارِ، وَمُعَاشَرَةِ الْقِيَانِ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ فُتُوَّةٍ وَشَبَابٍ وَشَرَفٍ وَنَسَبٍ وَعِزَّةِ قَبِيلَةٍ، وَكَمَالٍ وَجَمَالٍ وَغَيْرِهَا مِنْ وَسَائِلِ الْإِغْرَاءِ؛ فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا حَدِيثُ عَلِيٍّ رضي الله عنه الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ وَكَيْفَ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرُوفًا بِالْأَمَانَةِ، وَكَانَ ﷺ مَحَلَّ ثِقَةِ النَّاسِ وَأَمَانَاتِهِمْ، لَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ وَدِيعَةٍ مِنَ الْوَدَائِعِ إِلَّا أَدَّاهَا لَهُ، وَلَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ سِرٍّ أَوْ كَلَامٍ إِلَّا وَجَدَهُ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ كَانَ مَعْرُوفًا فِي قُرَيْشٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِـ(الْأَمِينِ)، مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُسْتَوْدَعَ الْأَمَانَاتِ مِمَّنْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَلَا يُصَدِّقُونَهُ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ عِنْدَهُمْ نَفِيسٌ مِنْ شَيْءٍ جَعَلُوهُ أَمَانَةً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ،

وَظَلَّتِ الْأَمَانَاتُ عِنْدَهُ إِلَىٰ أَنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ؛ فَأَبْقَىٰ عَلِيًّا حَتَّىٰ يَرُدَّ تِلْكَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ يُحَارِبُونَهُ، وَيُعَادُونَهُ وَيُحَادُّونَهُ، فَإِذَا مَا كَانَتِ الْأَمَانَةُ لَمْ تُوجَدْ إِلَّا عِنْدَهُ ﷺ.

وَكَانَ الصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِهِ ﷺ الْبَارِزَةِ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ الْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا وَأَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ صَارَ يُنَادِي بُطُونَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**؟!». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ! مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا قَالَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكَانَ لَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: «لَا»، فَقَالَ هِرَقْلُ: «فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَىٰ رَبِّ النَّاسِ».

بِسِوَىٰ الْأَمَانَةِ فِي الصِّبَا وَالصِّدْقِ لَمْ ... يَعْرِفْهُ أَهْلُ الصِّدْقِ وَالْأُمَنَاءُ

يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَىٰ الْعُلَا ... مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ

لَوْ لَمْ تُقِمْ دِينًا لَقَامَتْ وَحْدَهَا ... دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ

زَانَتْكَ فِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلٌ ... يُغْرَىٰ بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُبَرَاءُ

فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصُولًا لِلرَّحِمِ، عَطُوفًا عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ وَذَوِي الْحَاجَةِ، يَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيَمْسَحُ بِيَدَيْهِ بُؤْسَ الْبَائِسِينَ، وَيُفَرِّجُ كَرْبَ الْمَكْرُوبِينَ وَصَفَتْهُ بِهَذَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي بَدْءِ الْوَحْيِ، فَقَالَتْ: «كَلَّا وَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَشَهَادَتُهَا مَحَلُّ تَقْدِيرٍ وَمَحَلُّ ثِقَةٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِزَوْجِهَا وَطَبَائِعِهِ وَأَخْلَاقِهِ، فَمَهْمَا تَجَمَّلَ خَارِجَ الْبَيْتِ فَلَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا عَلَىٰ سَجِيَّتِهِ، فَإِذَا شَهِدَتِ الزَّوْجَةُ لِزَوْجِهَا هَذِهِ الشَّهَادَةَ فَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ خُلُقِهِ ﷺ.

مِنْ هَذَا تَرَىٰ أَنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَانَتْ أَمْثَلَ حَيَاةٍ وَأَكْرَمَهَا وَأَحْفَلَهَا بِمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ وَعَظَمَةِ النَّفْسِ.

ثُمَّ نَبَّأَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَبَعَثَهُ فَنَمَتْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَتَرَعْرَعَتْ، وَمَا زَالَتْ تَسْمُو فُرُوعُهَا وَتَرْسَخُ أُصُولُهَا، وَتَتَّسِعُ أَفْيَاؤُهَا، حَتَّىٰ أَضْحَتْ فَرِيدَةً فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْفَاضِلَةَ الْمُثْلَىٰ لَمِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، فَمَا سَمِعْنَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا أَنَّ حَيَاةً كُلَّهَا فَضْلٌ وَكَمَالٌ وَهُدًىٰ وَنُورٌ

وَحَقٌّ وَخَيْرٌ كَحَيَاةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَلَمْ يُعْهَدْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ أَنَّ إِنْسَانًا يَسْمُو عَلَىٰ كُلِّ مُجْتَمَعِهِ وَهُوَ يَعِيشُ فِيهِ، وَيَنْشَأُ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ نَقَائِصِهِ وَمَثَالِبِهِ وَهُوَ نَابِعٌ مِنْهُ، وَلَا أَنَّ نُورًا يَنْبَعِثُ مِنْ وَسَطِ الظُّلُمَاتِ وَلَا طَهَارَةً تَنْبُعُ مِنْ وَسَطِ أَدْنَاسٍ وَأَرْجَاسٍ وَلَا أَنَّ عِلْمًا يَكُونُ مِنْ بَيْنِ جَهَالَاتٍ وَخُرَافَاتٍ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ وَكَانَ أَمْرًا جَرَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ الْمَعْهُودِ وَالْمَأْلُوفِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»: فَشَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاللهُ تَعَالَىٰ يَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ بِمَا يُرِيدُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ حَتَّىٰ بَلَغَ أَنْ كَانَ رَجُلًا وَأَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الْفُحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ، تَنَزُّهًا وَتَكَرُّمًا، حَتَّىٰ مَا اسْمُهُ فِي قَوْمِهِ إِلَّا الْأَمِينُ، لِمَا جَمَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الصَّالِحَةِ.

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: وَكَانَ ﷺ مَجْبُولًا عَلَيْهَا -أَيْ عَلَىٰ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ- فِي أَصْلِ خِلْقَتِهِ، وَأَوَّلِ فِطْرَتِهِ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ بِاكْتِسَابٍ وَلَا رِيَاضَةٍ إِلَّا بِجُودٍ إِلَهِيٍّ وَخُصُوصِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ.

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مَعْصُومًا قَبْلَ الْوَحْيِ وَبَعْدَهُ، وَقَبْلَ التَّشْرِيعِ مِنَ الزِّنَا قَطْعًا وَمِنَ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ، وَالسُّكْرِ

وَالسُّجُودِ لِوَثَنٍ، وَالِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ وَمِنَ الرَّذَائِلِ وَالسَّفَهِ، وَبَذَاءَةِ اللِّسَانِ وَكَشْفِ الْعَوْرَةِ، فَلَمْ يَكُنْ يَطُوفُ عُرْيَانًا وَلَا كَانَ يَقِفُ يَوْمَ عَرَفَةَ مَعَ قَوْمِهِ بِالْمُزْدَلِفَةِ، بَلْ كَانَ يَقِفُ بِعَرَفَةَ وَبِكُلِّ حَالٍ لَوْ بَدَا مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَمَا كَانَ عَلَيْهِ تَبِعَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُعْرَفُ وَلَكِنَّ رُتْبَةَ الْكَمَالِ تَأْبَىٰ وُقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ ﷺ.

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَقَدْ قَرَأْنَا سِيَرَ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالْعَبَاقِرَةِ وَالْمُصْلِحِينَ وَأَصْحَابِ النِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فَمَا وَجَدْنَا حَيَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَخْلُو مِنَ الشُّذُوذِ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالتَّفْكِيرِ الصَّحِيحِ وَالْخُلُقِ الرَّضِيِّ، إِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّفْكِيرِ، وَإِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ السُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ، وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي أَسْمَائِهِمْ وَأَزْكَاهُمْ: كَفَىٰ الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ، حَاشَا الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ فَقَدْ نَشَّأَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ وَعَظِيمِ الْأَخْلَاقِ وَقَدْ بَلَغَ الذِّرْوَةَ فِي الْكَمَالِ خَاتَمُهُمْ وَسَيِّدُ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

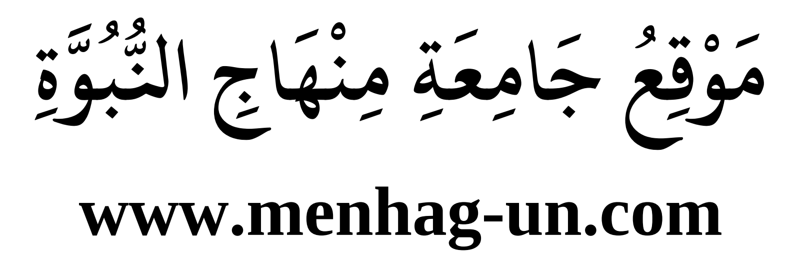
كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ قَلَقًا غَامِضًا لَا يُعْرَفُ مَصْدَرُهُ وَلَا مَصِيرُهُ، وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ لَحْظَةً مَا اللهُ مُكْرِمُهُ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَلَا يَحْلُمُ بِذَلِكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْتَشْرِفُ لِلنُّبُوَّةِ، وَإِنَّمَا كَانَ يُلْهِمُهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْوَةَ لِلْعِبَادَةِ؛ تَطْهِيرًا وَإِعْدَادًا رُوحِيًّا لِتَحَمُّلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَشْرِفُ لِلنُّبُوَّةِ لَمَا فَزِعَ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، وَلَمَا فَزِعَ لَمَّا نَزَلَ إِلَىٰ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَسْتَفْسِرُهَا عَنْ سِرِّ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ الَّتِي رَآهَا فِي غَارِ حِرَاءٍ، وَلَمْ يَتَأَكَّدْ مِنْ أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ.

وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَتَرْبِيَتِهِ أَنْ نَشَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، فَكَانَ أَبْعَدَ عَنْ تُهْمَةِ الْأَعْدَاءِ وَظِنَّةِ الْمُفْتَرِينَ، وَإِلَىٰ ذَلِكَ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وَقَدْ لَقَّبَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْأُمِّيِّ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فَهَذَا مُوجَزُ حَيَاتِهِ ﷺ قَبْلَ بَعْثَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ كَرِيمِ الْخِصَالِ وَعَظِيمِ الْخِلَالِ حَتَّىٰ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]. فَصَلَّىٰ اللهُ وَبَارَكَ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.





يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مُوجزٌ لِحَياةِ النَّبِيِّ ﷺ قَبلَ البَعْثَةِ

فَإِنَّ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ تُقَسَّمُ بِاعْتِبَارِ مَرَاحِلِهَا الدَّعْوِيَّةِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مِنْ مِيلَادِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ الْبَعْثَةِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: مِنْ بَعْثَتِهِ ﷺ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ إِلَىٰ وَفَاتِهِ ﷺ.

وَهَذَا مُوجَزٌ لِحَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَيَبْدَأُ بَعْدَهُ -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا- مَا يَتَعَلَّقُ بِوَقَائِعِ، وَأَحْدَاثِ سِيرَتِهِ ﷺ مِنْ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ هِجْرَتِهِ.

كَانَتْ حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ حَيَاةً فَاضِلَةً شَرِيفَةً، لَمْ تُعْرَفْ لَهُ فِيهَا هَفْوَةٌ، وَلَمْ تُحْصَ عَلَيْهِ فِيهَا زَلَّةٌ، فَقَدْ شَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحُوطُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِمَا يُرِيدُهُ لَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، حَتَّىٰ صَارَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْفُحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ؛ تَنَزُّهًا وَتَكَرُّمًا حَتَّىٰ صَارَ مَعْرُوفًا بِالْأَمِينِ.

لَقَدْ كَانَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ حَنِيفِيُّونَ، وَحَّدُوا اللهَ، وَدَعَوْا إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ،

وَكَانَ هُنَاكَ كُرَمَاءُ، وَكَانَ هُنَاكَ أَوْفِيَاءُ، وَكَانَ هُنَاكَ أُنَاسٌ عُرِفُوا بِالْعِفَّةِ، وَطَهَارَةِ الذَّيْلِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْمَآثِمِ، وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَلَكِنْ مَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ الْبِيئَةِ إِنْسَانًا جَمَعَ اللهُ فِيهِ كُلَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِثْلَمَا جَمَعَ اللهُ ذَلِكَ فِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

لَقَدْ نَشَأَ سَلِيمَ الْعَقِيدَةِ، صَادِقَ الْإِيمَانِ، عَمِيقَ التَّفَكُّرِ، غَيْرَ خَاضِعٍ لِتُرَّهَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ سَجَدَ لِصَنَمٍ قَطُّ، أَوْ تَمَسَّحَ بِهِ، أَوْ ذَهَبَ إِلَىٰ عَرَّافٍ أَوْ كَاهِنٍ؛ بَلْ بُغِّضَتْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَالتَّمَسُّحُ بِهَا.

وَلَمَّا لَقِيَ بَحِيرَا الرَّاهِبَ قَالَ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، وَكَانَ بَحِيرَا سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسْأَلْنِي بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ شَيْئًا؛ فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُمَا**».

وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ -بِسَنَدِهِ- عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ صَنَمٌ مِنَ النُّحَاسِ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ وَنَائِلَةُ، يَتَمَسَّحُ بِهِمَا الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا -أَيْ: طَافُوا حَوْلَ الْكَعْبَةِ-، فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ تَمَسَّحْتُ بِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَمَسَّهُ**»، قَالَ زَيْدٌ: فَطُفْنَا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَكُونُ، فَمَسَحْتُهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تُنْهَ؟!**» قَالَ زَيْدٌ: فَوَالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا قَطُّ حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَشَاهِدَهُمْ، فَسَمِعَ مَلَكَيْنِ خَلْفَهُ وَأَحَدُهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا حَتَّىٰ نَقُومَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: كَيْفَ نَقُومُ خَلْفَهُ، وَإِنَّمَا عَهْدُهُ بِاسْتِلَامِ الْأَصْنَامِ، قَالَ: فَلَمْ يَعُدْ بَعْدَ ذَلِكَ يَشْهَدُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَشَاهِدَهُمْ؛ فَهَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ وَاهٍ سَاقِطٌ عَنْ الِاعْتِبَارِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ: مَا رُوِيَ زُورًا أَنَّهُ تَمَسَّحَ بِالصَّفْرَاءِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مُحَمَّد حُسَيْن هِيكَل فِي كِتَابَةِ «**حَيَاةُ مُحَمَّدٍ**»، -وَالصَّفْرَاءُ: صَنَمٌ-، أَوْ أَهْدَىٰ إِلَىٰ الْعُزَّىٰ شَاةً بَيْضَاءَ؛ كَمَا زَعَمَ دِرْمِنِغْم، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ الْمُخْتَلِقَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ وَضْعِ وَتَزْوِيرِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ مِنَ الْبَلَايَا وَالطَّامَّاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ الْكُتُبِ الَّتِي لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الرِّوَايَةِ، وَجَاءَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَالَّذِينَ تَابَعُوهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ فَنَقَلُوهَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَمْحِيصٍ، وَلَا تَدْقِيقٍ!!

وَكَذَلِكَ بُغِّضَ إِلَيْهِ قَوْلُ الشِّعْرِ؛ فَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ شِعْرًا، أَوْ أَنْشَأَ قَصِيدَةً، أَوْ حَاوَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَلَاءَمُ وَمَقَامَ النُّبُوَّةِ؛ فَالشِّعْرُ شَيْءٌ، وَالنُّبُوَّةُ شَيْءٌ آخَرُ، وَلَمْ يَكُنِ الشُّعَرَاءُ بِذَوِي الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ الْمَرْضِيَّةِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ نَزَّهَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الشِّعْرِ، وَالرِّسَالَةُ تَقْتَضِي انْطِلَاقًا فِي الْأُسْلُوبِ وَالتَّعْبِيرِ، وَالشِّعْرُ تَقَيُّدٌ وَالْتِزَامٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ كَانَ يَتَذَوَّقُ مَا فِي الشِّعْرِ مِنْ جَمَالٍ وَحِكْمَةٍ وَرَوْعَةٍ، وَيَسْتَنْشِدُهُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا، وَلَا عَجَبَ؛ فَهُوَ الْقَائِلُ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ**

مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ، وَلَا اقْتَرَفَ فَاحِشَةً أَبَدًا، وَلَا انْغَمَسَ فِيمَا كَانَ يَنْغَمِسُ فِيهِ الْمُجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ حِينَئِذٍ مِنَ اللَّهْوِ، وَاللَّعِبِ، وَالْمَيْسِرِ، وَمُصَاحَبَةِ الْأَشْرَارِ، وَمُعَاشَرَةِ الْقِيَانِ، وَالْجَرْيِ وَرَاءَ الْغِيدِ الْكَوَاعِبِ، عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ فُتُوَّةٍ وَشَبَابٍ، وَشَرَفِ نَسَبٍ، وَعِزَّةِ قَبِيلَةٍ، وَكَمَالٍ، وَجَمَالٍ، وَغَيْرِهَا مِنْ وَسَائِلِ الْإِغْرَاءِ.

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَذْكُرُ ذَلِكَ وَهُوَ كَبِيرٌ، وَيَعُدُّهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَعِصْمَتِهِ لَهُ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهُمُّونَ بِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، وَكِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ ﷻ فِيهِمَا: قُلْتُ لَيْلَةً لِبَعْضِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَنَحْنُ نَرْعَىٰ غَنَمَ أَهْلِهَا، قُلْتُ لِصَاحِبِي: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّىٰ أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَسْمُرَ فِيهَا كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَدَخَلْتُ حَتَّىٰ جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ مَكَّةَ، فَسَمِعْتُ عَزْفًا بِالْغَرَابِيلِ** -أَيْ: بِالدُّفُوفِ- **وَالْمَزَامِيرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: تَزَوَّجَ فُلَانٌ فُلَانَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، وَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا! ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ. ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَىٰ: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّىٰ أَسْمُرَ فَفَعَلَ، فَدَخَلَ، فَلَمَّا جِئْتُ مَكَّةَ سَمِعْتُ مِثْلَ الَّذِي سَمِعْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَسَأَلْتُ، فَقِيلَ: نَكَحَ فُلَانٌ فُلَانَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي فَقَالَ: مَا**

فَعلْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا شَيْءَ، ثُمَّ أَخبَرْتُهُ الْخَبَرَ، فَوَاللهِ مَا هَمَمْتُ، وَلَا عُدْتُ بَعْدَهُمَا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّىٰ أَكْرَمَنِي اللهُ ﷻ بِنُبُوَّتِهِ».

حَتَّىٰ الْأُمُورُ الَّتِي قَدْ يُتَسَامَحُ فِيهَا فِي عَهْدِ الطُّفُولَةِ فِي أَثْنَاءِ اللَّعِبِ قَدْ صَانَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا؛ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -فِيمَا ذُكِرَ لِي- يُحَدِّثُ عَمَّا كَانَ اللهُ يَحْفَظُهُ بِهِ فِي صِغَرِهِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي غِلْمَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَنْقُلُ الْحِجَارَةَ لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ الْغِلْمَانُ، كُلُّنَا قَدْ تَعَرَّىٰ وَأَخَذَ إِزَارَهُ، وَجَعَلَهُ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ، فَإِنِّي لَأُقْبِلُ مَعَهُمْ وَأُدْبِرُ إِذْ لَكَمَنِي لَاكِمٌ مَا أَرَاهُ لَكْمَةً وَجِيعَةً، ثُمَّ قَالَ: شُدَّ عَلَيْكَ إِزَارَكَ، قَالَ: فَأَخَذْتُهُ وَشَدَدْتُهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَحْمِلُ الْحِجَارَةَ عَلَىٰ رَقَبَتِي، وَإِزَارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي**»، قَالَ: وَقَدْ سَمِعْتَ فِيمَا سَبَقَ مَا حَدَثَ لَهُ أَثْنَاءَ نَقْلِهِ الْحِجَارَةَ مَعَ أَعْمَامِهِ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ.

بَلْ كَانَ مِنْ تَوْفِيقِ اللهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا يَصْنَعُ مَا تَصْنَعُ قُرَيْشٌ مِنْ عَدَمِ وُقُوفِهَا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، وَوُقُوفِهَا بِالْمُزْدَلِفَةِ؛ فَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﵁ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ لَهُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ حَتَّىٰ يَدْفَعَ مَعَهُمْ، تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ ﷻ لَهُ».

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَحَلَّ ثِقَةِ النَّاسِ وَأَمَانَاتِهِمْ، لَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ وَدِيعَةٍ مِنَ الْوَدَائِعِ إِلَّا أَدَّاهَا لَهُ، وَلَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ سِرٍّ أَوْ كَلَامٍ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ حُسْنَ

الظَّنِّ بِهِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ كَانَ مَعْرُوفًا فِي قُرَيْشٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِالْأَمِينِ، وَقَدِ اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الثِّقَةُ إِلَىٰ مَا بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا هَاجَرَ ﷺ أَبْقَىٰ عَلِيًّا؛ كَيْ يَرُدَّ وَدَائِعَ النَّاسِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ لَا يُعَاهِدُهُ أَحَدٌ عَهْدًا إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ حُسْنَ الْوَفَاءِ، وَلَا يَعِدُ وَعْدًا إِلَّا صَدَقَ فِيهِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ عَاهَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَكَانِ كَذَا، فَمَكَثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَذْهَبُ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَالرَّجُلُ لَا يَذْهَبُ؛ فَقَالَ لَهُ: «**لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ**».

وَكَانَ الصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِهِ الْبَارِزَةِ، شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ الْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ؛ صَارَ يُنَادِي بُطُونَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا وَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ.

وَلَمَّا قَابَلَ هِرَقْلُ -مَلِكُ الرُّومِ- أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ -وَكَانَ لَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا- قَالَ لَهُ: هَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذِبًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ هِرَقْلُ: مَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ!!

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ وَصُولًا لِلرَّحِمِ، عَطُوفًا عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ وَذَوِي الْحَاجَةِ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيَمْسَحُ بِيَدَيْهِ بُؤْسَ الْبَائِسِينَ، وَيُفَرِّجُ كَرْبَ الْمَكْرُوبِينَ، وَقَدْ وَصَفَتْهُ بِذَلِكَ السَّيِّدَةُ الْعَاقِلَةُ

الْحَازِمَةُ خَدِيجَةُ -وَهِيَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ- فِي بَدْءِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَتْ: «مَا كَانَ اللهُ لِيُخْزِيَكَ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوائِبِ الْحَقِّ».

وَمِنْ هَذَا نَرَىٰ أَنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَانَتْ أَمْثَلَ حَيَاةٍ وَأَكْرَمَهَا، وَأَحْفَلَهَا بِمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالشَّرَفِ، وَالْكَرَامَةِ، وَعَظَمَةِ النَّفْسِ، ثُمَّ نَبَّأَهُ اللهُ وَبَعَثَهُ، فَنَمَتْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَتَرَعْرَعَتْ، وَمَا زَالَتْ تَسْمُو فُرُوعُهَا، وَتَرْسَخُ أُصُولُهَا، وَتَتَّسِعُ أَفْيَاؤُهَا حَتَّىٰ أَضْحَتْ فَرِيدَةً فِي تَارِيخِ الْحَيَوَاتِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْفَاضِلَةَ الْمُثْلَىٰ لَمِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، فَمَا سَمِعْنَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا -قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا- أَنَّ حَيَاةً كُلُّهَا فَضْلٌ وَكَمَالٌ، وَهُدًىٰ وَنُورٌ، وَحَقٌّ وَخَيْرٌ، كَحَيَاةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَلَمْ يُعْهَدْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ أَنَّ إِنْسَانًا يَسْمُو عَلَىٰ كُلِّ مُجْتَمَعِهِ وَهُوَ يَعِيشُ فِيهِ، وَيَنْشَأُ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ نَقَائِصِهِ وَمَثَالِبِهِ وَهُوَ نَابِعٌ مِنْهُ، وَلَا أَنَّ نُورًا يَنْبَعِثُ مِنْ وَسَطِ الظُّلُمَاتِ، وَلَا طَهَارَةً تَنْبُعُ مِنْ وَسَطِ أَدْنَاسٍ وَأَرْجَاسٍ، وَلَا أَنَّ عِلْمًا يَكُونُ مِنْ بَيْنِ جَهَالَاتٍ وَخُرَافَاتٍ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَأَمْرٍ جَرَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ الْمَعْهُودِ وَالْمَأْلُوفِ فِيمَا حَوْلَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

لَقَدْ قَرَأْنَا سِيَرَ الْحُكَمَاءِ، وَالْفَلَاسِفَةِ، وَالْعَبَاقِرَةِ، وَالْمُصْلِحِينَ، وَأَصْحَابِ النِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، فَمَا وَجَدْنَا حَيَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَخْلُو مِنَ الشُّذُوذِ

عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالتَّفْكِيرِ الصَّحِيحِ، وَالْخُلُقِ الرَّضِيِّ؛ إِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّفْكِيرِ، وَإِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ السُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ، وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي أَسْمَاهُمْ وَأَزْكَاهُمْ: كَفَىٰ الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ!! حَاشَا الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ فَقَدْ نَشَّأَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ، وَعَظِيمِ الْأَخْلَاقِ وَالْخِلَالِ، وَقَدْ بَلَغَ الذِّرْوَةَ فِي الْكَمَالِ خَاتَمُهُمْ، وَسَيِّدُ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، وَالدُّنْيَا وَاقِفَةٌ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ تَخْطُو بِخُطًى سَرِيعَةٍ إِلَىٰ الِانْتِحَارِ، هُنَالِكَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ وَطَلَائِعُ السَّعَادَةِ، وَآنَ أَوَانُ الْبَعْثَةِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ إِذَا اشْتَدَّ الظَّلَامُ، وَطَالَتِ الشِّقْوَةُ.

وَبَلَغَ قَلَقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا كَانَ يَرَاهُ مِنْ جَهْلٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، وَخُرَافَةٍ وَوَثَنِيَّةٍ، وَتَطَلُّعِهِ إِلَىٰ الْإِرْشَادِ وَالْهِدَايَةِ، مِنْ فَاطِرِ الْكَوْنِ وَخَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلَغَ قَلَقُهُ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ذِرْوَتَهُ، كَأَنَّ حَادِيًا يَحْدُوهُ، فَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، وَكَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ وَيُبْعِدُ، حَتَّىٰ تُحْسَرَ عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِي إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِهَا وَأَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! وَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَخَلْفَهُ؛ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرَىٰ عَجَائِبَ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

- عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَرَىٰ نُورًا وَيَسْمَعُ صَوْتًا؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**أَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، سَبْعَ سِنِينَ يَرَىٰ الضَّوْءَ وَالنُّورَ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَثَمَانِيَ سِنِينَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرًا**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْهُ أَيْضًا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ بِي جُنُونٌ**»؛ قَالَتْ: لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ صَادِقًا؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّرُهُ، وَأَنْصُرُهُ، وَأُومِنُ بِهِ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَلَمَّا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَحْمَةَ الْعِبَادِ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا أَوْحَىٰ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَالِانْفِرَادُ عَنْ قَوْمِهِ؛ لِمَا يَرَاهُمْ عَلَيْهِ فِي الضَّلَالِ الْمُبِينِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالسُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ، وَقَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لِلْخَلْوَةِ عِنْدَ مُقَارَبَةِ إِيحَاءِ

اللهِ إِلَيْهِ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ -أَيْ: كَضِيَاءِ الصُّبْحِ، وَهَذَا يُقَالُ فِي الشَّيْءِ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ-، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ -أَيِ: الْخَلْوَةُ-، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ».

وَكَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَكَانَ يَخْلُو غَالِبًا بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَمْكُثُ فِيهِ لَيَالِيَ مُتَوَالِيَاتٍ، وَكَانَ يَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، وَكَانَ يَتَعَبَّدُ، وَيَدْعُو عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الْمُنِيبَةِ إِلَىٰ اللهِ.

⦿ ⦿ ⦿

عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ وقتَ بَعثَتِه

وَكَانَ فِي إِحْدَىٰ الْمَرَّاتِ إِذْ جَاءَهُ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ لِبَعْثَتِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ -قِيلَ: فِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ-، فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ مِيلَادِهِ -الْمُوَافِقِ لِلسَّادِسِ مِنْ أُغُسْطُسَ سَنَةَ عَشْرٍ وَستِّ مِئَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ- فِي يَقظَةٍ وَوَعْيٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ بِحِرَاءٍ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١- ٥]»؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ، وَأَوَّلَ وَحْيٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَلَمَّا تَكَامَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَخَرَجَ إِلَىٰ حِرَاءٍ؛ كَمَا كَانَ يَخْرُجُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعَثَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بُعِثَ رَسُولُ اللهِ

ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ ﷺ بُعِثَ عَلَىٰ رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَمَّا كَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ، أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ، وَأَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِرِسَالَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ».

قَالَ الصَّرْصَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانِ

وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ السَّابعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَذَلِكَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «**فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ**».

لَمَّا أَتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ -عَلَىٰ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ الْمُطْبَقِ عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ-؛ ذَلِكَ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً»، وَلِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، وَلَا بِالْآدَمِ، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبِطِ، بَعَثَهُ اللهُ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

لَمَّا أَتَمَّ الْأَرْبَعِينَ؛ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَالْإِيمَانِ؛ لِيُبَدِّدَ بِهِ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، حَيْثُ اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيًّا لَهُ، وَرَسُولًا إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَنُورًا يَهْدِي بِهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فَكَانَتْ بَعْثَتُهُ ﷺ وَالنُّورُ الَّذِي جَاءَ بِهِ حُجَّةً عَلَىٰ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ».

قَالَ الْحَافِظُ: «أَيْ: فِي أَوَّلِ الْمُبْتَدَآتِ مِنْ إِيجَادِ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا، وَأَمَّا مُطْلَقُ مَا

يَدُلُّ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ فَتَقَدَّمَتْ لَهُ أَشْيَاءُ؛ مِثْلُ تَسْلِيمِ الْحَجَرِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

«فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ -أَيِ: الْأَمْرُ الْحَقُّ وَسُمِّيَ حَقًّا؛ لِأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ- وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**» قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي** -وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»: **فَغَتَّنِي**- **حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّيَ الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي** -أَيْ: أَطْلَقَنِي-، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**»».

أَيْ: مَا أُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثًا، قِيلَ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ أَيْ: لَا تَقْرَأْهُ بِقُوَّتِكَ وَلَا بِمَعْرِفَتِكَ؛ لَكِنْ بِحَوْلِ رَبِّكَ وَإِعَانَتِهِ، فَهُوَ يُعَلِّمُكَ كَمَا خَلَقَكَ، وَكَمَا نَزَعَ عَنْكَ عَلَقَ الدَّمِ، وَغَمْزَ الشَّيْطَانِ فِي الصِّغَرِ، وَعَلَّمَ أُمَّتَكَ حَتَّىٰ صَارَتْ تَكْتُبُ بِالْقَلَمِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أُمِّيَّةً، وَالتَّقْدِيرُ: لَسْتُ بِقَارِئٍ أَلْبَتَّةَ.

«**فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ**».

«وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا الْغَطِّ: لِإِظْهَارِ الشِّدَّةِ وَالْجِدِّ؛ تَنْبِيهًا عَلَىٰ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي سَيُلْقَىٰ إِلَيْهِ، فَلَمَّا ظَهَرَ أَنَّهُ صَبَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ أُلْقِيَ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي تَكْرِيرِ الْإِقْرَاءِ: الْإِشَارَةَ إِلَىٰ انْحِصَارِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْشَأُ الْوَحْيُ بِسَبَبِهِ فِي ثَلَاثٍ: الْقَوْلِ، وَالْعَمَلِ، وَالنِّيَّةِ. وَأَنَّ الْوَحْيَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ هِيَ: التَّوْحِيدُ، وَالْأَحْكَامُ،

وَالْقَصَصُ، وَفِي تَكْرِيرِ الْغَطِّ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ الشَّدَائِدِ الثَّلَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ ﷺ وَهِيَ: الْحَصْرُ فِي الشِّعْبِ، وَخُرُوجُهُ فِي الْهِجْرَةِ، وَمَا وَقَعَ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَفِي الْإِرْسَالَاتِ الثَّلَاثَةِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ حُصُولِ التَّيْسِيرِ لَهُ عَقِبَ الثَّلَاثِ الْمَذْكُورَةِ: فِي الدُّنْيَا، وَالْبَرْزَخِ، وَالْآخِرَةِ»؛ قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ: قُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ».

وَالْحِكْمَةُ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْقَلْبِ إِلَىٰ الْفُؤَادِ: أَنَّ الْفُؤَادَ وِعَاءُ الْقَلْبِ عَلَىٰ مَا قَالَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ، فَإِذَا حَصَلَ لِلْوِعَاءِ الرُّجْفَانُ حَصَلَ لِمَا فِيهِ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِهِ مِنْ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْقَلْبِ.

«فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» -أَيْ: غَطُّونِي بِالثِّيَابِ، وَلُفُّونِي بِهَا-.

قَالَ الْحَافِظُ: «قَالَ ﷺ ذَلِكَ؛ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُ مِنْ هَوْلِ الْأَمْرِ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ بِسُكُونِ الرِّعْدَةِ بِالتَّلْفِيفِ».

«فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ -أَيِ: الْفَزَعُ- فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ...**»».

وَالْخَشْيَةُ الْمَذْكُورَةُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِهَا عَلَىٰ اثْنَيْ عَشَرَ قَوْلًا...

وَأَوْلَىٰ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ، وَأَسْلَمُهَا مِنَ الِارْتِيَابِ هُوَ: الْمَوْتُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ أَوِ الْمَرَضِ.

«**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي**»: فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا -وَمَعْنَاهَا النَّفْيُ وَالْإِبْعَادُ- وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «انْظُرْ كَيْفَ اسْتَدَلَّتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِمَا فِيهِ ﷺ مِنَ الصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَالْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ، عَلَىٰ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يُخْزَىٰ أَبَدًا، فَعَلِمَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِكَمَالِ عَقْلِهَا وَتَمَامِ فِطْرَتِهَا أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَالْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ، وَالشِّيَمَ الشَّرِيفَةَ؛ تُنَاسِبُ أَشْكَالَهَا مِنْ كَرَامَةِ اللهِ، وَتَأْيِيدِهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَلَا تُنَاسِبُ الْخِزْيَ وَالْخِذْلَانَ، وَإِنَّمَا يُنَاسِبُهُ أَضْدَادُهَا، فَمَنْ رَكَّبَهُ اللهُ عَلَىٰ أَحْسَنِ الصِّفَاتِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ كَرَامَتُهُ وَإِتْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ».

«كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ».

وَالْكَلُّ: بِفَتْحِ الْكَافِ، أَصْلُهُ الثِّقْلُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي «سُورَةِ النَّحْلِ»: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل: ٧٦].

وَيَدْخُلُ فِي حَمْلِ الْكَلِّ: الْإِنْفَاقُ عَلَىٰ الضَّعِيفِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْعِيَالِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

«وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ»: **قَالَ النَّوَوِيُّ**: «أَيْ: تُعْطِي النَّاسَ مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ نَفَائِسِ الْفَوَائِدِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، أَوْ تَكْسِبُ الْمَالَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَعْجِزُ

عَنْهُ غَيْرُكَ؛ ثُمَّ تَجُودُ بِهِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ الْمَكَارِمِ».

«وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»: النَّوَائِبُ: جَمْعُ نَائِبَةٍ، وَهِيَ الْحَادِثَةُ، وَإِنَّمَا قَالَتْ: نَوائِبِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ النَّائِبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ فِي الشَّرِّ.

«فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسد بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ -ابْنِ عَمِّ خَدِيجَةَ-، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ».

قَالَ: عَلَىٰ مُوسَىٰ، وَلَمْ يَقُلْ: عَلَىٰ عِيسَىٰ مَعَ كَوْنِهِ نَصْرَانِيًّا؛ لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَىٰ عليه السلام مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ بِخِلَافِ عِيسَىٰ.

وَلِأَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ، بِخِلَافِ عِيسَىٰ.

أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، بِخِلَافِ عِيسَىٰ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ.

«فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا».

الْجَذَعُ: هُوَ الصَّغِيرُ مِنَ الْبَهَائِمِ، كَأَنَّهُ تَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ ظُهُورِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ

الْإِسْلَامِ شَابًّا؛ لِيَكُونَ أَمْكَنَ لِنَصْرِهِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ سِرُّ وَصْفِهِ بِكَوْنِهِ كَانَ كَبِيرًا أَعْمَىٰ.

«لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**»».

اسْتَبْعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُخْرِجُوهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْإِخْرَاجَ، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَقَدَّمَ مِنْ خَدِيجَةَ وَصْفُهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ انْزِعَاجُهُ كَانَ مِنْ جِهَةِ خَشْيَةِ فَوَاتِ مَا أَمَّلَهُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِ بِاللهِ، وَإِنْقَاذِهِمْ مِنْ وَضَرِ الشِّرْكِ، وَأَدْنَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلِيَتِمَّ لَهُ الْمُرَادُ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ انْزَعَجَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

«**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا».

أَيْ: قَوِيًّا، مَأْخُوذًا مِنَ الْأَزْرِ، وَالْأَزْرُ: الْقُوَّةُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِزَارِ، أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَشْهِيرِهِ فِي نُصْرَتِهِ.

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ»: أَيْ: لَمْ يَلْبَثْ، وَأَصْلُ النُّشُوبِ التَّعَلُّقُ؛ أَيْ: لَمْ يَتَعَلَّقْ بِشَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ حَتَّىٰ مَاتَ.

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا مَرَّ- وُجِدَتِ الْبِشَارَةَ بِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَنَطَقَ بِهَا الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ، كَمَا نَطَقَ بِهَا مِنْ قَبْلُ -مَعَ الْوَصَايَةِ بِالْاتِّبَاعِ- الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، حَتَّىٰ الْكُهَّانُ وَالْجَانُّ ذَكَرُوا الْبِشَارَةَ بِالنَّبِيِّ الْعَدْنَانِ ﷺ.

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ، وَأَوَّلُ كَلِمَةٍ هِيَ: اقْرَأْ.

وَنُـودِيَ: اقْـرَأْ، تَعَـالَىٰ اللهُ قَائِلُهَـا ... لَـمْ تَتَّصِـلْ قَبْـلَ مَـنْ قِيلَـتْ لَـهُ بِفَـمِ

هُنَـاكَ أَذَّنَ لِلـرَّحْمَنِ فَـامْتَلَأَتْ ... أَسْـمَاعُ مَكَّـةَ مِـنْ قُدْسِـيَّةِ الـنَّغَمِ

فَلَا تَسَلْ عَنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ حَيْرَتُهَا ... وَكَيْفَ نُفْرَتُهَا فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ

تَسَاءَلُوا عَـنْ عَظِيمٍ قَـدْ أَلَـمَّ بِهِـمْ ... رَمَـىٰ الْمَشَـايِخَ وَالْوِلْـدَانَ بِـاللَّمَمِ

يَـا جَاهِلِينَ عَلَـىٰ الْهَـادِي وَدَعْوَتِـهِ ... هَلْ تَجْهَلُونَ مَكَانَ الصَّادِقِ الْعَلَمِ

وَهَا هُنَا رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ:

وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ نُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**جَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ**».

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مَعَ ضَعْفِهَا مُخَالِفَةٌ لِرِوَايَةِ «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ أَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ فِي الْيَقَظَةِ لَا فِي الْمَنَامِ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْيَقَظَةِ لَا فِي الْمَنَامِ.

●●●

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

كَانَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْفَذِّ الْمَشْهُودِ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ صَدْرِ «سُورَةِ الْعَلَقِ»، «سُورَةِ: اقْرَأْ» هِيَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥]، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ حَسْبَمَا قَالَ ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَكَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣-٥].

وَقَدْ كَانَتْ طَلَائِعُ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ فِيهِ إِشَادَةٌ بِالْقَلَمِ وَخَطَرِهِ، وَبِالْعِلْمِ وَمَنْزِلَتِهِ فِي بِنَاءِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، فَمَا أَصْدَقَهَا مِنْ طَلَائِعَ تَجْعَلُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ!

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَنْكَرَ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ انْحِرَافَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعِبَادَتَهُمْ غَيْرَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِذَلِكَ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَمُبَايَنَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ الْوَاقِعِ فِي قِمَّةِ جَبَلِ النُّورِ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ

مَبَانِي مَكَّةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، لَكِنَّ الْجَالِسَ فِي الْغَارِ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ، فَكَانَ يَمْكُثُ فِي خَلْوَتِهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَإِذَا انْقَضَىٰ زَادُهُ عَادَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، ثُمَّ تَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا.

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَرَادَ اللهُ بِالْبَشَرِيَّةِ خَيْرًا؛ فَأَرْسَلَ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ أَفْضَلَ مَلَائِكَتِهِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَىٰ أَفْضَلِ خَلْقِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ بِأَوَّلِ «سُورَةِ اقْرَأْ»، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وُلِدَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، وَنُبِّئَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ».

وَ«سُورَةُ: اقْرَأْ» أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَبِهَا نُبِّئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ، وَمِمَّا يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي الْحَدِيثِ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، جَوَابًا عَلَىٰ قَوْلِ جِبْرِيلَ: اقْرَأْ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ وَاضِحٌ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ الْقِرَاءَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَعَلُّمُ ذَلِكَ، فَهُوَ أُمِّيٌّ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ لِقَاءُ الْمَلَكِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَدِيدًا عَلَيْهِ؛ رَغْمَ الْمُمَهِّدَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ، وَالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ الْوَاضِحَةِ.

إِنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَجَلِيلٌ أَنْ يَتَلَقَّىٰ الْقَلْبُ الْبَشَرِيُّ كَلَامَ اللهِ الْخَالِقِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ الْعَظِيمِ، رَجَفَ لَهُ فُؤَادُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَارْتَاعَ حَتَّىٰ طَلَبَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يُزَمِّلُوهُ وَيُدَثِّرُوهُ؛ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، وَكَانَتْ طَرِيقَةُ جِبْرِيل مَعَهُ فِي أَوَّلِ لِقَاءٍ فِيهَا شِدَّةٌ وَجَهْدٌ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُ عَظَمَةَ الْأَمْرِ، وَضَخَامَةَ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَالشِّدَّةَ الَّتِي سَيُلَاقِيهَا فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ، فَهِيَ مِنَ الْإِعْدَادِ لَهُ ﷺ، وَالتَّهْيِئَةِ النَّفْسِيَّةِ.

«فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّنْ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: جَمْعَهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا كَانَ قَرَأَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَتَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ؛ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَدْ وَقَفَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ مَوْقِفًا جَلِيلًا؛ فَكَانَتْ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ، وَتُثَبِّتُ فُؤَادَهُ، وَتُثْبِتُ لَهُ بِالدَّلِيلِ بَعْدَ الْآخَرِ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُخْزِيهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ، فَقَالَتْ: «كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»، وَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ ابْنُ عَمٍّ لَهَا؛ فَسَأَلَتْ.

فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمُدَّةُ الْفُتُورِ

هَذَا مَا كَانَ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ، ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْرَةً؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ طُرُقِ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً**»، وَلَمْ يَذْكُرِ النَّبِيُّ ﷺ كَمْ كَانَتْ مُدَّةُ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَاخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافًا شَدِيدًا.

إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَ صَفِيَّ الرَّحْمَنِ قَالَ فِي كِتَابِهِ «الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ»: «وَقَدْ ظَهَرَ لِي شَيْءٌ غَرِيبٌ بَعْدَ إِدَارَةِ النَّظَرِ فِي الرِّوَايَاتِ، وَفِي أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَمْ أَرَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَالرِّوَايَاتِ تُفِيدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُجَاوِرُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا وَاحِدًا، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَأَنَّ سَنَةَ النُّبُوَّةِ كَانَتْ آخِرَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الثَّلَاثِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَتِمُّ جِوَارُهُ بِتَمَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَكَانَ يَنْزِلُ بَعْدَهُ مِنْ حِرَاءٍ صَبَاحًا -أَيْ: لِأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ- وَيَعُودُ إِلَىٰ الْبَيْتِ، وَقَدْ وَرَدَ التَّنْصِيصُ فِي رِوَايَةِ «الصَّحِيحَيْنِ» عَلَىٰ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ ﷺ بَعْدَ الْفَتْرَةِ؛ إِنَّمَا نَزَلَ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ بَيْتِهِ بَعْدَ إِتْمَامِ جِوَارِهِ بِتَمَامِ الشَّهْرِ.

أَقُولُ: فَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ إِنَّمَا نَزَلَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ، بَعْدَ نِهَايَةِ شَهْرِ رَمَضَانَ الَّذِي تَشَرَّفَ فِيهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَأَنَّهُ كَانَ آخِرَ مُجَاوَرَةٍ لَهُ بِحِرَاءٍ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ أَوَّلَ نُزُولٍ كَانَ فِي لَيْلَةِ الإِثْنَيْنِ الْحَادِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ فَتْرَةَ الْوَحْيِ كَانَتْ لِعَشْرَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ بَعْدَهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ لِأَوَّلِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَىٰ مِنَ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ مُحَاوَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ التَّرَدِّيَ مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ؛ فَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ حَجَرٍ إِلَىٰ أَنَّهُ بَلَاغٌ مُرْسَلٌ مِنْ مَرَاسِيلِ الزُّهْرِيِّ، وَمَرَاسِيلُ الزُّهْرِيِّ ضَعِيفَةٌ».

وَرَدَّ الْأَلْبَانِيُّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ بِعِلَّتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: تَفَرُّدُ مَعْمَرٍ بِهَا دُونَ يُونُسَ وَعَقِيلٍ؛ فَهِيَ شَاذَّةٌ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ مُعْضَلَةٌ، وَلَمْ تَأْتِ مِنْ طَرِيقٍ مَوْصُولَةٍ يُحْتَجُّ بِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهَا زِيَادَةٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالنَّبِيِّ الْمَعْصُومِ أَنْ يُحَاوِلَ قَتْلَ نَفْسِهِ مَهْمَا كَانَ الدَّافِعُ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

ثُمَّ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَوْدَةِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَقَالَ: «**فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا** -أَيْ: ذُعِرْتُ

وَخِفْتُ-، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، **إِلَىٰ:** ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ٥]، **ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ لَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَفَتَرَ عَنْهُ الْوَحْيُ؛ فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ، ثُمَّ تَبَدَّىٰ لَهُ الْمَلَكُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، وَثَبَّتَهُ وَبَشَّرَهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ-: «**بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِذَا الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ** -أَيْ: **فَزِعْتُ وَخِفْتُ وَذُعِرْتُ**- **مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، دَثِّرُونِي؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١-٤]» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَيَكُونُ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ ابْتِدَاءً: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ وَعَوْدَةِ جِبْرِيلَ لِلنُّزُولِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، فَكَانَتِ الْحَالُ الْأُولَىٰ حَالَ نُبُوَّةٍ وَإِيحَاءٍ، وَالثَّانِيَةُ حَالَ إِرْسَالٍ وَبَلَاغٍ، ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَتَابَعَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٢].

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ

لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: مَا أَرَىٰ شَيْطَانَكَ إِلا تَرَكَكَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣]».

وَقَامَ حِينَئِذٍ رَسُولُ اللهِ فِي الرِّسَالَةِ أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْعَزْمِ وَالْإِقْدَامِ؛ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ، وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ، الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ، الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ عِبَادُ اللهِ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ وَعِصْيَانِهِ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَوَّلِ مَرَّةٍ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا مُدَّةً يَسِيرَةً؛ فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حُبِسَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ؛ فَجَعَلَ يَخْلُو فِي حِرَاءٍ».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «كَانَ ذَلِكَ -يَعْنِي: فُتُورَ الْوَحْيِ- يُذْهِبُ مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ، وَلِيَحْصُلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَىٰ الْعَوْدِ».

وَهُنَا رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ وَقَعَتْ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنِ الزُّهْرِيِّ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ: «حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -فِيمَا بَلَغَنَا- حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ -أَيْ: أَشْرَفَ وَطَلَعَ- بِذِرْوَةِ جَبَلٍ؛ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ -وَالْجَأْشُ: الْقَلْبُ، يُقَالُ: فُلَانٌ رَابِطُ الْجَأْشِ؛ أَيْ: ثَابِتُ الْقَلْبِ، لَا

يَرْتَاعُ وَلَا يَنْزَعِجُ لِلْعَظَائِمِ وَالشَّدَائِدِ-، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ»؛ هَذَا مَا ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ مُرْسَلًا.

قَالَ الْحَافِظُ: «هَذِهِ الْقِصَّةُ وَهِيَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ، وَلَيْسَ مَوْصُولًا».

يَقُولُ: «حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -فِيمَا بَلَغَنَا-»؛ فَهِيَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ، وَلَيْسَتْ بِمَوْصُولَةٍ؛ لِذَلِكَ لَمْ يَرْوِ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ فِي كِتَابِ: بَدْءِ الْوَحْيِ، وَإِنَّمَا رَوَاهَا فِي كِتَابِ: التَّعْبِيرِ؛ لِيُبَيِّنَ ضَعْفَهَا.

يَعْنِي: كَانَ الْأَوْلَىٰ أَنْ تُذْكَرَ لِلْمُنَاسَبَةِ فِي كِتَابِ: بَدْءِ الْوَحْيِ مِنْ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، لَكِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَذْكُرْهَا ثَمَّةَ، وَإِنَّمَا رَوَاهَا فِي كِتَابِ: التَّعْبِيرِ -تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا-؛ لِيُبَيِّنَ ضَعْفَهَا.

أَمَّا مُدَّةُ فُتُورِ الْوَحْيِ:

فَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا، وَهَذَا الَّذِي يَتَرَجَّحُ بَلْ يَتَعَيَّنُ، وَأَمَّا مَا اشْتُهِرَ مِنْ أَنَّهَا دَامَتْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا، أَوْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ؛ فَلَا يَصِحُّ بِحَالٍ بَعْدَ إِدَارَةِ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ الرِّوَايَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِي أُرَجِّحُهُ وَأَمِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا، وَأَنَّ أَقْصَاهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا.

أَمَّا أَنْ يَقْضِيَ النَّبِيُّ ثَلَاثَ سِنِينَ أَوْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفَ سَنَةٍ مِنْ عُمْرِ الدَّعْوَةِ

الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ وَدَعْوَةٍ؛ فَهَذَا مَا لَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَقْلٌ صَحِيحٌ».

لَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرِفَةَ الْيَقِينِ أَنَّهُ أَضْحَىٰ نَبِيًّا لِلَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ الْوَحْيُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَصَارَ تَشَوُّقُهُ وَارْتِقَابُهُ لِمَجِيءِ الْوَحْيِ سَبَبًا فِي ثَبَاتِهِ، وَاحْتِمَالِهِ عِنْدَمَا يَعُودُ؛ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَثْنَاءِ فَتْرَةِ الْوَحْيِ يَذْهَبُ إِلَىٰ غَارِ حِرَاءٍ فَيَخْلُو فِيهِ، وَبَيْنَا هُوَ نَازِلٌ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا سَادًّا مَا بَيْنَ الْأُفُقِ، فَرُعِبَ مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي**»، فَزَمَّلُوهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١-٥]؛ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» ذَلِكَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ فِي «الصَّحِيحِ»، قَالَ: «**فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا**».

كَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الصَّبِّ بَعْدَ التَّدَثُّرِ هِيَ: طَلَبُ حُصُولِ السُّكُونِ؛ لِمَا وَقَعَ فِي الْبَاطِنِ مِنَ الِانْزِعَاجِ، أَوْ أَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ الرِّعْدَةَ تَعْقُبُهَا الْحُمَّىٰ، وَقَدْ عُرِفَ مِنَ الطِّبِّ النَّبَوِيِّ مُعَالَجَةُ الْحُمَّىٰ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ.

قَالَ: «**فَدَثَّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَتْ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ

﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾».

كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ آيَاتٍ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ الْمُتَتَابِعَةُ الْقَاطِعَةُ إِيذَانًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدِ انْتَهَىٰ بِمَنَامِهِ وَهُدُوئِهِ وَسَلَامِهِ، وَأَنَّهُ أَمَامَ عَمَلٍ جَدِيدٍ يَسْتَدْعِي الْيَقَظَةَ، وَالتَّشْمِيرَ، وَالْإِنْذَارَ، وَالْإِعْذَارَ، فَلْيَحْمِلِ الرِّسَالَةَ، وَيُنْذِرِ النَّاسَ، وَلْيَأْنَسْ بِالْوَحْيِ، وَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ عَنَائِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ رِسَالَتِهِ وَمَدَدُ دَعْوَتِهِ.

ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْدَ «سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ» مُبَاشَرَةً «سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ»، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].

كَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ فُرِضَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رضي الله عنهم، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا كَامِلًا حَتَّىٰ وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ...﴾ إِلَىٰ آخر الآية [المزمل: ٢٠]؛ فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرْضِيَّتِهِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ سَعِيدِ بنِ هِشَامٍ قَالَ: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رسُول اللهِ ﷺ. قالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرأُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قالَتْ: فإِنَّ اللهَ عز وجل افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا -أَيْ: عامًا كامِلًا-، وَأَمْسَكَ اللهُ

خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حتَّىٰ أنْزَلَ اللهُ في آخِرِ هذِهِ السُّورَةِ، التَّخْفِيفَ؛ فَصارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا هَذَا: «ظَاهِرُهُ أَنَّهُ صارَ تَطوُّعًا فِي حَقِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْأُمَّةِ؛ فَأَمَّا الْأُمَّةُ: فَهُوَ تَطوُّعٌ فِي حَقِّهِمْ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ: فَاخْتَلَفُوا فِي نَسْخِهِ فِي حَقِّهِ، وَالْأَصَحُّ عِنْدَنَا نَسْخُهُ». كَلَامُ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضُّحَىٰ، يُقْسِمُ لَهُ رَبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا وَدَّعَهُ، وَمَا قَلَاهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ١-٥]»؛ هَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ».

وَلَكِنْ رِوَايَةُ الشَّيْخَيْنِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» أَصَحُّ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ جُنْدُبِ بنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ: «اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ».

قِيلَ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ الْعَوْرَاءُ بِنْتُ حَرْبٍ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَامْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَانَتْ تُعَيِّرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْفَقْرِ، ثُمَّ كَانَتْ مَعَ كَثْرَةِ مَالِهَا تَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا؛ لِشِدَّةِ بُخْلِهَا، وَكَانَتْ تَطْرَحُ الشَّوْكَ بِاللَّيْلِ عَلَىٰ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ بَشَّرَهَا اللهُ

تَعَالَىٰ بِالنَّارِ؛ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي «سُورَةِ الْمَسَدِ»: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]؛ أَيْ: فِي عُنُقِهَا حَبْلٌ مِنْ نَارٍ.

«فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣]».

عَلَىٰ هَذَا تَكُونُ «سُورَةُ الضُّحَىٰ» نَزَلَتْ فِي فَتْرَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتِي كَانَتْ بَعْدَ ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ؛ فَإِنَّ تِلْكَ دَامَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ فِي فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَأَمَّا هَذِهِ فَلَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ -كَمَا فِي الْحَدِيثِ-، فَاخْتَلَطَتَا، وَاشْتَبَهَتَا عَلَىٰ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ.

فَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ نُزُولِ «سُورَةِ الضُّحَىٰ».

وَرَوَىٰ الطَّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قُلْتُ: أَيْ رَبِّ! قَدْ كَانَتْ قَبْلِي الأَنْبِيَاءُ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ، ثُمَّ ذَكَرَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ، وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، يَذْكُرُ مَا أُعْطُوا.**

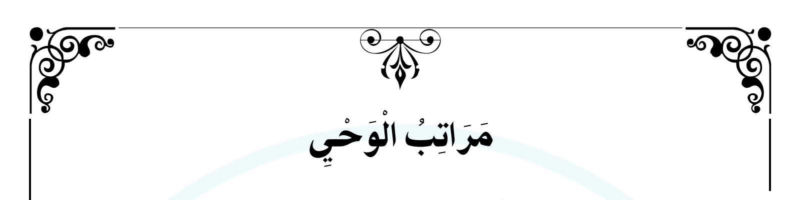
قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فأَغْنَيْتُ؟ -العَائِلُ: الفَقِيرُ- قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ».

● ● ●



مَرَاتِبُ الْوَحْيِ

لِلْوَحْيِ مَرَاتِبُ شَتَّىٰ بَعْضُهَا أَيْسَرُ مِنْ بَعْضٍ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ؛ كَمَا مَرَّ.

ثَانِيهَا -يَعْنِي الْمَرْتَبَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ-: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَىٰ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَهُوَ صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطِبُهُ حَتَّىٰ يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: «**يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ؛ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

رَابِعُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ

عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّىٰ إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ -أَيْ: يَسِيلُ- عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّىٰ إِنَّ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَهُ ﷺ الْوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَرُضُّهَا -أَيْ: تَدُقُّهَا-.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ رضي الله عنه، سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فيُفْصَمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ عنْهُ مَا قَالَ، وأَحْيَانًا يتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يَقُولُ**».

وعَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «ولَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عنها -أَيْضًا- أَنَّهَا قَالَتْ: «فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ - البُرَحَاءُ: شِدَّةُ الكَرْبِ مِنْ ثِقَلِ الوَحْيِ- عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ -الجُمانُ: اللُّؤْلُؤُ، فَشُبِّهَتْ قَطَرَاتُ عَرَقِهِ ﷺ بِالجُمَانِ لمُشَابَهَتِهَا فِي الصِّفَاتِ وَالحُسْنِ- مِنَ العرَقِ، في اليَوْمِ الشَّاتِي مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ».

خَامِسُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ يَرَىٰ الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَهُ، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مَرَّتَيْنِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فِي

«سُورَةِ النَّجْمِ».

سَادِسُهَا: مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ؛ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

سَابِعُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، كَمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ ثَابِتَةٌ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، هُوَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ.

وَقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ مَرْتَبَةً ثَامِنَةً، وَهِيَ: تَكْلِيمُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وَهَذَا عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْوَحْيُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ** ﴾ [الشورى: ٥١]، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ:

الْوَحْيُ الْأَوَّلُ: مَا أَرَاهُمْ فِي الْمَنَامِ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، وَقَرَأَ: ﴿**إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ**﴾؛ كَمَا كَلَّمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حَتَّىٰ قَالَ: ﴿**أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**﴾؛ فَهُوَ إِرْسَالُ الرُّوحِ الْأَمِينِ؛ كَمَا قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وَقَدْ كَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ جَمِيعُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، فَقَالَ اللهُ ﷻ فِي رُؤْيَاهُ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨].

كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَخَافُ مِنْ نِسْيَانِ الوَحْيِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ -الْمُعَالَجَةُ: هِيَ الْمُحَاوَلَةُ لِلشَّيْءِ بِمَشَقَّةٍ- مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ؛ فأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ».

مُنْذُ أَنْ تَلَقَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١- ٧]، قَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْأَخْذَ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ.

⦿⦿⦿

الْفَتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ وَالْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ، وَمَرَاحِلُ كُلٍّ مِنْهُمَا

وَقَدْ مَرَّتِ الدَّعْوَةُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مُنْذُ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ وَفَاتِهِ بِفَتْرَتَيْنِ، تَمْتَازُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ تَمَامَ الِامْتِيَازِ، وَهُمَا:

١- الْفَتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ، اشْتَمَلَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً عَلَىٰ التَّقْرِيبِ.

٢- وَالْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ، اسْتَمَرَّتْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ.

وَتَشْتَمِلُ كُلٌّ مِنَ الْفَتْرَتَيْنِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، لِكُلٍّ مِنْهَا خَصَائِصُ تَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا بَعْدَ النَّظَرِ فِي الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ خِلَالَ الدَّوْرَيْنِ.

فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ إِلَىٰ مَرْحَلَتَيْنِ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ، وَاسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ.

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا، وَبِاللِّسَانِ فَقَطْ، دُونَ قِتَالٍ، مِنْ بِدَايَةِ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْبَعْثَةِ، حَتَّىٰ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

أَمَّا الْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ: فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

- **الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ:** مَرْحَلَةٌ أُثِيرَتْ فِيهَا الْقَلَاقِلُ وَالْفِتَنُ، وَأُقِيمَتْ فِيهَا

الْعَرَاقِيلُ مِنَ الدَّاخِلِ، وَزَحَفَ فِيهَا الْأَعْدَاءُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ؛ لِاسْتِئْصَالِ خَضْرَائِهَا مِنَ الْخَارِجِ، وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ إِلَىٰ عَامِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ.

- **الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاحِلِ الْفَتْرَةِ الْمَدَنِيَّةِ:** مَرْحَلَةُ الْهُدْنَةِ مَعَ الزَّعَامَةِ الْوَثَنِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّتْ حَتَّىٰ فَتْحِ مَكَّةَ، فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ دَعْوَةِ الْمُلُوكِ، وَالْأُمَرَاءِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

- **الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاحِلِ الْفَتْرَةِ الْمَدَنِيَّةِ:** مَرْحَلَةُ دُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَهِيَ مَرْحَلَةُ تَوَافُدِ الْقَبَائِلِ وَالْأَقْوَامِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ إِلَىٰ انْتِهَاءِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ.

مَا يَتَعَلَّقُ بِفَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَمَا ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ فِي بَلَاغِهِ؛ كَانَ مَجَالًا رَحْبًا لِطَعْنِ الطَّاعِنِينَ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ تَبِعُوهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَمْحِيصٍ وَلَا تَدْقِيقٍ، وَهُمْ يَنْتَمُونَ إِلَيْنَا، وَمِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا، وَيُصَلُّونَ إِلَىٰ قِبْلَتِنَا!! وَلَكِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا الْهُدَىٰ وَالْحَقَّ كَمَا قَرَّرَهُ وَوَضَّحَهُ السَّابِقُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-؛ فَهُمْ يَتَقَمَّمُونَ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَشْرِقُونَ.

فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً؛ حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -قَالَ الزُّهْرِيُّ:- فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ؛ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ

جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ؛ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ».

هَذِهِ الرِّوَايَةُ لَيْسَتْ عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَلَاغَاتِ، وَهِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُنْقَطِعِ، وَالْمُنْقَطِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّعِيفِ، وَالْبُخَارِيُّ لَا يُخْرِجُ إِلَّا الْأَحَادِيثَ الْمُسْنَدَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِرِوَايَاتِ الْعُدُولِ الضَّابِطِينَ، وَلَعَلَّ الْبُخَارِيَّ ذَكَرَهَا؛ لِيُنَبِّهَنَا إِلَىٰ مُخَالَفَتِهَا لِمَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنْ حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ، الَّذِي لَمْ تُذْكَرْ فِيهِ هَذِهِ الزِّيَادَةُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَهَا فِي كِتَابِ: «التَّعْبِيرِ» لَا فِي كِتَابِ: «بَدْءِ الْوَحْيِ».

وَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ كَانَتْ صَحِيحَةً لَأَوَّلْنَاهَا تَأْوِيلًا مَقْبُولًا، أَمَّا وَهِيَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَلَا نُكَلِّفُ أَنْفُسَنَا عَنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ مَخْرَجٍ لَهَا.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ مَا اسْتَفَاضَ مِنْ سِيرَتِهِ ﷺ يَرُدُّ ذَلِكَ، فَقَدْ حَدَثَتْ لَهُ حَالَاتٌ فِي أَثْنَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ أَشَدُّ وَأَقْسَىٰ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَمَا فَكَّرَ فِي الِانْتِحَارِ بِأَنْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْ شَاهِقِ جَبَلٍ، أَوْ يَبْخَعَ نَفْسَهُ، وَسَتَرَىٰ فِيمَا يَأْتِي أَنَّهُ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ عَمُّهُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ قُرَيْشٍ، وَيُبْقِيَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ، وَكَانَ عَمُّهُ نَاصِرَهُ الْوَحِيدَ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ تَنَازُلًا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكَرَ أَنَّهُ ﷺ حَصَلَتْ لَهُ حَالَةُ أَسًىٰ وَحُزْنٍ عَمِيقَيْنِ عَلَىٰ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَدَمَ رِضًا مِنَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ لَأْوَاءِ الْحَيَاةِ وَشَدَائِدِهَا، مَا دَامَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِيهِ

رِضَا اللهِ، وَهُوَ الْقَائِلُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْكَرْبِ وَالضِّيقِ وَالشِّدَّةِ -لَمَّا نَالَهُ مَا نَالَهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ-، قَالَ مُخَاطِبًا رَبَّهُ: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي!!**». وَالْحَدِيثُ ضَعَّفَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ.

كَانَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ ظَنَّ حُدُوثِ غَضَبِ اللهِ وَسَخَطِهِ تُجَوِّزُ لِلْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَنْ يُهْلِكُوا أَنْفُسَهُمْ وَيُذْهِبُوهَا تَرْضِيَةً لِلَّهِ، وَخَوْفًا مِنْهُ، لَكِنْ لَا نَرَىٰ هَذَا؛ لِأَنَّ حَالَةَ الرِّوَايَةِ كَمَا سَمِعْتَ، وَلِأَنَّهَا تُخَالِفُ الْمَعْرُوفَ الْمَشْهُورَ مِنْ سِيرَتِهِ.

وَالتَّعْلِيلُ الصَّحِيحُ لِكَثْرَةِ غِشْيَانِهِ ﷺ فِي مُدَّةِ الْفَتْرَةِ رُؤُوسَ الْجِبَالِ وَشَوَاهِقَهَا:

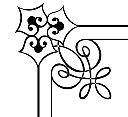
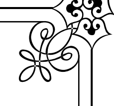
أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ لَهُ خَيْرٌ أَوْ نِعْمَةٌ فِي مَكَانٍ مَا، فَإِنَّهُ يُحِبُّ هَذَا الْمَكَانَ، وَيَتَلَمَّسُ فِيهِ مَا افْتَقَدَهُ، فَلَمَّا انْقَطَعَ الْوَحْيُ صَارَ ﷺ يُكْثِرُ مِنَ ارْتِيَادِ قِمَمِ الْجِبَالِ لَا سِيَّمَا حِرَاءٌ؛ رَجَاءَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَجِدْ جِبْرِيلَ فِي حِرَاءٍ، فَلْيَجِدْهُ فِي غَيْرِهِ، فَرَآهُ رَاوِي هَذِهِ الزِّيَادَةِ، وَهُوَ يَرْتَادُ الْجِبَالَ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ هَذَا، وَقَدْ أَخْطَأَ الرَّاوِي الْمَجْهُولُ فِي ظَنِّهِ قَطْعًا.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ضَعْفِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ وَتَهَافُتِهَا مِنْ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ كُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا»، وَأَنَّهُ كَرَّرَ ذَلِكَ مِرَارًا، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً تَكْفِي فِي تَثْبِيتِ النَّبِيِّ وَصَرْفِهِ

عَمَّا حَدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ -كَمَا زَعَمُوا-.

وَقَعَ كَلَامٌ كَثِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْوَحْيِ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَصَوَّرُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ وَحْيٌ أَصْلًا، فَالْعَجَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَتَوَقَّفُ فِي ذَلِكَ، وَيُحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ يُرْجِعَهُ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْفَلَاسِفَةِ!!

●●●

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْوَحْيُ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ

الْوَحْيُ فِي اللُّغَةِ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْإِعْلَامِ الْخَفِيِّ السَّرِيعِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِإِشَارَةٍ، أَوْ كِتَابَةٍ، أَوْ رِسَالَةٍ، أَوْ إِلْهَامٍ غَرِيزِيٍّ، أَوْ غَيْرِ غَرِيزِيٍّ، وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ لَا يَخْتَصُّ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلَا بِكَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

أَمَّا بِالْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ: فَالْوَحْيُ إِعْلَامُ اللهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يُبَلِّغَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ شَرْعٍ، أَوْ كِتَابٍ، بِوَاسِطَةٍ، أَوْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ؛ لِخُصُوصِ مَصْدَرِهِ وَمَوْرِدِهِ.

وَقَدْ يُعَرَّفُ الْوَحْيُ بِأَنَّهُ: عِرْفَانٌ يَجِدُهُ الشَّخْصُ مِنْ نَفْسِهِ مَعَ الْيَقِينِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ يُعَرَّفُ الْوَحْيُ بِأَنَّهُ: مَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ، وَعَرَّفَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَالشَّرَائِعِ.

فَهَذَا تَعْرِيفُ الْوَحْيِ لُغَةً وَشَرْعًا، وَأَمَّا إِمْكَانُهُ:

فَمَبْنَىٰ الْوَحْيِ وَمَدَارُهُ عَلَىٰ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: وُجُودُ مُوحٍ وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَوُجُودُ الْمَلَكِ الَّذِي يُبَلِّغُ الْوَحْيَ

وَيَنْقُلُهُ مِنَ اللهِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَالْمَلَكُ: جِسْمٌ نُورَانِيٌّ لَا يُرَىٰ، لَكِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ التَّشَكُّلِ بِالْأَشْكَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتَّنَقُّلِ بِالسُّرْعَةِ الْفَائِقَةِ، وَقَدْ يَرَاهُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ.

الثَّانِي: وُجُودُ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ صَافِيَةٍ عِنْدَهَا اسْتِعْدَادٌ خَاصٌّ لِتَلَقِّي الْوَحْيِ مِنَ اللهِ مُبَاشَرَةً، أَوْ مِنَ الْمَلَكِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَاللهُ ﷻ قَامَ عَلَىٰ وُجُوبِ وُجُودِهِ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ، وَالْآفَاقِيَّةُ، وَالْأَنْفُسِيَّةُ، وَالتَّنْزِيلِيَّةُ.

وَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ: فَقَدْ أَخبَرَ بِوُجُودِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَتَوَاتَرَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ كُلُّهَا بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ فِي وُجُودِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَجْمَعَ عَلَىٰ وُجُودِهِمْ أَهْلُ الْأَدْيَانِ جَمِيعًا.

وَالْفَلَاسِفَةُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا -إِلَّا الشِّرْذِمَةُ الْمَادِّيَّةُ- يُقِرُّونَ بِوُجُودِ عَالَمٍ غَيْرِ مَحْسُوسٍ وَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ جِسْمًا مَادِّيًّا فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا هُوَ جِسْمٌ وَرُوحٌ.

وَإِذَا ثَبَتَ وُجُودُ عَالَمٍ وَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ لَمْ يَبْقَ مَجَالٌ إِذَنْ -وَقَدْ أَخبَرَ بِوُجُودِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، وَالْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ- لِإِنْكَارِ وُجُودِ الْمَلَائِكَةِ.

إِذَنْ مَبْنَىٰ الْوَحْيِ وَمَدَارُهُ عَلَىٰ أَمْرَيْنِ: وُجُودُ مُوحٍ وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَوُجُودُ الْمَلَكِ الَّذِي يُبَلِّغُ الْوَحْيَ، وَيَنْقُلُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

اللهُ ﷻ قَامَ عَلَىٰ وُجُوبِ وُجُودِهِ الدَّلَائِلُ، الْمَلَائِكَةُ أَخْبَرَ بِوُجُودِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَتَوَاتَرَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ كُلُّهَا.

الثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ: وُجُودُ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ صَافِيَةٍ عِنْدَهَا اسْتِعْدَادٌ خَاصٌّ لِتَلَقِّي الْوَحْيِ مِنَ اللهِ مُبَاشَرَةً، أَوْ مِنَ الْمَلَكِ؛ هَذَا أَمْرٌ مُمْكِنٌ، مَا الِاسْتِحَالَةُ فِيهِ؟!

الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ لَهُمْ مِنْ سُمُوِّ فِطْرَتِهِمْ، وَصَفَاءِ أَرْوَاحِهِمْ وَإِعْدَادِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ إِعْدَادًا خَاصًّا - جُسْمَانِيًّا، وَرُوحِيًّا- مَا يُؤَهِّلُهُمْ لِتَلَقِّي الْوَحْيِ مِنَ اللهِ، أَوِ الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِذَلِكَ، وَالْفَهْمِ مِنْهُ، وَلَيْسَ لَنَا فِي هَذَا أَنْ نَقِيسَ الْغَائِبَ عَلَىٰ الشَّاهِدِ، أَوْ عَالَمَ الرُّوحِ عَلَىٰ عَالَمِ الْحِسِّ وَالْمَادَّةِ، وَإِلَّا ضَلَلْنَا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ فَقَدْ ثَبَتَ وَلَا مَحَالَةَ إِمْكَانُ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الطَّاعِنِينَ فِي الرِّسَالَاتِ كُلِّهَا، وَخَاصَّةً فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ يَسْتَشْكِلُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ وَحْيٌ أَصْلًا، فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُمُ اتِّبَاعُ بَاطِلِهِمْ؛ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَكُنْ وَحْيًا يُوحَىٰ، وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ مَصْدَرُهُ مِنْهُ؛ لِذَلِكَ تَرَىٰ جَمِيعَ الْمُبْطِلِينَ لَا يُنْكِرُونَ مَصْدَرَ الْقُرْآنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ.

يَعْنِي: لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكِرَ مُنْكِرٌ -إِلَّا إِذَا تَخَلَّىٰ عَنْ عَقْلِهِ، وَمُسَلَّمَاتِ الْعِلْمِ جَمِيعِهَا- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ.

فَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ تَكَلَّمَ بِهِ مُحَمَّدٌ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَمْ

يَكُنْ هُنَالِكَ وَحْيٌ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، ثُمَّ يَخْتَلِفُونَ فِي الْمَصْدَرِ الَّذِي تَكَلَّمَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقُرْآنِ.

إِذَنْ فَمَا يَأْتُونَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مُحَاوَلَةٌ لِكَوْنِ هَذَا الْقُرْآنِ بَشَرِيًّا لَا إِلَهِيًّا، وَأَنَّ مَصْدَرَهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي لَا يَعْتَرِفُونَ لَهُ بِرِسَالَةٍ وَلَا نُبُوَّةٍ.

هَذَا يُتَوَقَّعُ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، أَمَّا إِذَا قَعَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَوَقَفُوا فِي مَسْأَلَةِ الْوَحْيِ فَهَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ!!

إِذَا ثَبَتَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ لَا مَحَالَةَ إِمْكَانُ الْوَحْيِ، وَأَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ فِيهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ الِاسْتِحَالَةَ فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ، وَأَنْ يُقِيمَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ، ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْمُخْتَرَعَاتِ الْحَدِيثَةِ؛ كَاللَّاسِلْكِيِّ، وَالْمِذْيَاعِ، وَالتِّلْفَازِ، وَمَا جَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ، تُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُبَلِّغَ الْكَلَامَ أَوِ الصُّورَةَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَبْعَدُ مِنْ مَصْدَرِهِ بِأُلُوفِ الْأَمْيَالِ، فَإِذَا تَوَصَّلَ الْإِنْسَانُ -عَلَىٰ عَجْزِهِ وَبَشَرِيَّتِهِ- إِلَىٰ هَذِهِ الْوَسَائِلِ، أَفَنَسْتَبْعِدُ عَلَىٰ خَالِقِ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ، الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ أَنْ يُبَلِّغَ رُسُلَهُ مَا يُرِيدُ بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِغَيْرِهَا، وَأَنْ يُهَيِّئَ لِلْمُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يَجْعَلُهُ مُسْتَعِدًّا لِتَلَقِّي الْوَحْيِ؟!

هَذَا اسْتِدْلَالٌ بِمَا يَفْهَمُهُ الْمُخَالِفُونَ، بَلْ يُجْمِعُ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ، وَأَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ -مَعَ عَجْزِهِ وَبَشَرِيَّتِهِ- مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا نَقْلُ الصَّوْتِ وَالصُّورَةِ إِلَىٰ أَبْعَدِ الْأَمَاكِنِ، وَفِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ مَا إِبْطَاءٍ، أَ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ

وَاقِعًا مِنَ الْبَشَرِ مَعَ عَجْزِهِمْ أَ فَيُسْتَبْعَدُ عَلَىٰ خَالِقِ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ؟!

إِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْوَحْيَ مُمْكِنٌ، وَأَنَّ كُلَّ مُمْكِنٍ أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ، فَهُوَ وَاقِعٌ كَانَتِ النَّتِيجَةُ: أَنَّ الْوَحْيَ ثَابِتٌ، وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

◉◉◉

أَقْسَامُ الْوَحْيِ الشَّرْعِيِّ

هُنَاكَ أَقْسَامٌ لِلْوَحْيِ الشَّرْعِيِّ، لَا بَأْسَ أَنْ نَنْظُرَ فِيهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ عَلَىٰ لَوْنٍ آخَرَ مِنْ أَلْوَانِ الْعَرْضِ.

لِلْوَحْيِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ أَهَمُّهَا:

الْأَوَّلُ: تَكْلِيمُ اللهِ نَبِيَّهُ بِمَا يُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

إِمَّا فِي الْيَقَظَةِ، كَمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَمَا حَدَثَ لِنَبِيِّنَا ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَإِمَّا فِي الْمَنَامِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَتَانِي رَبِّي، فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟**». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ»، وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذٍ.

الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ مُوسَىٰ، وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سَمِعَا كَلَامَ اللهِ الْأَزَلِيَّ الْقَدِيمَ، الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَيْسَ الْمَسْمُوعُ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ؛ كَمَا يَزْعُمُ الْأَشَاعِرَةُ، وَلَيْسَ الْمَسْمُوعُ الْكَلَامَ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ فِي الشَّجَرَةِ؛ كَمَا زَعَمَ الْمُعْتَزِلَةُ.

فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ: تَكْلِيمُ اللهِ نَبِيَّهُ بِمَا يُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ؛ إِمَّا فِي الْيَقَظَةِ، وَإِمَّا فِي الْمَنَامِ.

الثَّانِي: إِعْلَامُ اللهِ أَنْبِيَاءَهُ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ.

وَهَذَا هُوَ مَا يُعْرَفُ «بِالْوَحْيِ الْجَلِيِّ»، وَلِذَلِكَ حَالَاتٌ:

- **الْحَالَةُ الْأُولَىٰ**: أَنْ يَبْدُوَ جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا، وَهِيَ حَالَةٌ نَادِرَةٌ، وَلَمْ يَرَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً وَهُوَ نَازِلٌ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ مِنْ غَارِ حِرَاءٍ، وَمَرَّةً وَهُوَ فِي السَّمَاءِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ.

- **الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ**: أَنْ يَأْتِيَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَكَانَ يَأْتِي -غَالِبًا- فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ -هُوَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ رضي الله عنه-، يَرَاهُ الْحَاضِرُونَ، وَيَسْمَعُونَ قَوْلَهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ حَقِيقَتَهُ، أَوْ يَأْتِي فِي صُورَةِ رَجُلٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ؛ وَذَلِكَ كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالْإِحْسَانِ؛ وَقَدْ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا.

- **الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ**: أَنْ يَأْتِيَ فِي صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يُرَىٰ، وَلَكِنْ يَصْحَبُ مَجِيئَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ الْجَرَسِ، أَوْ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَتَحَوَّلُ النَّبِيُّ مِنْ حَالَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ الْخَالِصَةِ إِلَىٰ حَالَةٍ يَحْصُلُ فِيهَا اسْتِعْدَادٌ لِلتَّلَقِّي عَنِ الْمَلَكِ، وَهِيَ أَشَدُّ الْحَالَاتِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَأْخُذُهُ حَالَةٌ كَحَالَةِ الرُّحَضَاءِ، فَيَرْبُدُ وَجْهُهُ، وَيَغُطُّ غَطِيطَ النَّائِمِ، وَيَتَصَبَّبُ عَرَقُهُ، وَيَثْقُلُ جِسْمُهُ، حَتَّىٰ

إِنَّهُ إِنْ كَانَ رَاكِبًا نَاقَةً بَرَكَتْ مِنَ الثِّقَلِ، وَإِنْ جَاءَتْ فَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ إِنْسَانٍ تَكَادُ تَرُضُّهَا -أَيْ: تَدُقُّهَا-.

مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ:

الثَّالِثُ: الْقَذْفُ فِي الْقَلْبِ: بِأَنْ يُلْقِيَ اللهُ أَوْ جِبْرِيلُ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُرِيدُ مِنَ الْوَحْيِ مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّ مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ مِثْلَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**».

مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ:

الرَّابِعُ: الْإِلْهَامُ: وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يُلْقِيهِ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَلْبِ نَبِيِّهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِهِ عِنْدَ الِاجْتِهَادِ فِي الْأَحْكَامِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الشورى: ٥١].

إِذِ الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ فِي الْآيَةِ: الْإِلْهَامُ أَوِ الْمَنَامُ؛ لِمُقَابَلَتِهِ لِلْقِسْمَيْنِ الْآخَرَيْنِ: وَهُمَا التَّكْلِيمُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ بِوَاسِطَةِ رَسُولٍ وَهُوَ جِبْرِيلُ.

وَبِالتَّأَمُّلِ فِي الْآيَةِ نَرَىٰ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ إِلْهَامِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِلْهَامِ غَيْرِهِمْ: أَنَّ الْأَوَّلَ يَكُونُ مَصْحُوبًا بِالْعِلْمِ

أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَا كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ.

مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ:

الْخَامِسُ: الرُّؤْيَا فِي الْمَنَامِ: وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ؛ ذَلِكَ كَرُؤْيَا الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَذْبَحُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَرُؤْيَا نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ، مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ، وَمُقَصِّرِينَ لَا يَخَافُونَ، وَفِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ السَّابِقِ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ».



بُطْلَانُ فِكْرَةِ الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ

الْوَحْيُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ يَصْحَبُهُ عِلْمٌ يَقِينِيٌّ ضَرُورِيٌّ مِنَ الْمُوحَىٰ إِلَيْهِ؛ بِأَنَّ مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لَيْسَ مِنْ خَطَرَاتِ النَّفْسِ، وَلَا نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُقَدِّمَاتٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ إِدْرَاكِ الْأُمُورِ الْوِجْدَانِيَّةِ؛ كَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَنَحْوِهِمَا.

حَاوَلَ الْمَادِّيُّونَ -الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ قُوَىٰ رُوحِيَّةٍ غَيْبِيَّةٍ وَرَاءَ الْمَادَّةِ- وَمَنْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِمْ مِمَّنْ يَحْمِلُونَ الْحِقْدَ وَالضِّغْنَ لِلْإِسْلَامِ وَالنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُشَكِّكُوا فِي الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ، فَنَفَوْا أَنْ يَكُونَ وَحْيًا مِنْ خَارِجِ نَفْسِ النَّبِيِّ، وَقَالُوا: إِنَّهُ وَحْيٌ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَلَكٌ أَلْقَىٰ شَيْئًا مِنَ اللهِ؛ فَإِنَّ عَالَمَ الْغَيْبِ الَّذِي تَقُولُونَ: إِنَّهُ وَرَاءَ عَالَمِ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا وُجُودُهُ -كَذَا يَقُولُونَ!!-، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا مَا يَنْفِيهِ وَيُلْحِقُهُ بِالْمُحَالِ، وَنَحْنُ نُفَسِّرُ الظَّوَاهِرَ غَيْرَ الْمُعْتَادَةِ بِمَا عَرَفْنَا، وَثَبَتَ عِنْدَنَا دُونَ مَا لَمْ يَثْبُتْ، فَهَذَا الْوَحْيُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ إِنَّمَا هُوَ إِلْهَامٌ كَانَ يَفِيضُ مِنْ نَفْسِ النَّبِيِّ الْمُوحَىٰ إِلَيْهِ لَا مِنَ الْخَارِجِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَنَازِعَ نَفْسِهِ الْعَالِيَةَ، وَسَرِيرَتَهُ الطَّاهِرَةَ، وَقُوَّةَ إِيمَانِهِ بِاللهِ وَبِوُجُوبِ

عِبَادَتِهِ، وَتَرْكِ مَا سِوَاهَا مِنْ عِبَادَةٍ وَثَنِيَّةٍ، وَتَقَالِيدَ وِرَاثِيَّةٍ يَكُونُ لَهَا فِي جُمْلَتِهَا مِنَ التَّأْثِيرِ مَا يَتَجَلَّىٰ فِي ذِهْنِهِ، وَيُحْدِثُ فِي عَقْلِهِ الْبَاطِنِ الرُّؤَىٰ وَالْأَحْوَالَ الرُّوحِيَّةَ، فَيَتَصَوَّرُ مَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَهُ إِرْشَادًا إِلَهِيًّا نَازِلًا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَدْ يَسْمَعُهُ يَقُولُ ذَلِكَ، وَإِنَّما يَرَىٰ وَيَسْمَعُ مَا يَعْتَقِدُهُ فِي الْيَقَظَةِ، كَمَا يَرَىٰ وَيَسْمَعُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْوَحْيِ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ.

فَكُلُّ مَا يُخْبِرُ بِهِ النَّبِيُّ -يَقُولُونَ:- مِنْ كَلَامٍ أُلْقِيَ فِي رُوعِهِ، أَوْ عَنْ مَلَكٍ أَلْقَاهُ عَلَىٰ سَمْعِهِ؛ فَهُوَ خَبَرٌ صَادِقٌ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّ تَفْسِيرَهُ عِنْدَنَا مَا ذَكَرْنَا: مِنْ أَنَّ مَا تَخَيَّلَهُ إِنَّمَا هُوَ نَابِعٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَمِنْ عَقْلِهِ الْبَاطِنِ!!

وَلِأَجْلِ أَنْ يُؤَيِّدُوا فِكْرَتَهُمُ الْبَاطِلَةَ هَذِهِ ذَكَرُوا مُقَدِّمَاتٍ زَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتْ أَسَاسَ هَذَا الْعِلْمِ النَّفْسِيِّ الْبَاطِنِ الَّذِي فَاضَ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ إِنَّهُ وَحْيٌ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ اسْتَفَادَ مِنْ رِحْلَاتِهِ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْأَعْرَابَ وَسَمِعَ مِنْهُمْ، وَلَقِيَ أَحْبَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَأَخَذَهُ عَنْهُمْ، وَأَنَّهُ اسْتَفَادَ -أَيْضًا- مَعْلُومَاتِهِ عَنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ بِسَبَبِ انْتِشَارِ هَاتَيْنِ الدِّيَانَتَيْنِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَمَا سَمِعَهُ مِنْ مُتَنَصِّرَةِ الْعَرَبِ: كَقُسٍّ، وَأُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، وَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ.

وَأَنَّهُ اسْتَفَادَ -أَيْضًا- مِنْ رِحْلَتَيِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَمِنَ الْخَلْوَةِ بِغَارِ حِرَاءٍ، وَانْقِطَاعِهِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ، وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفْكِيرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّىٰ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي سَيَبْعَثُهُ اللهُ لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ، بَلْ وَسَمِعَ الْكَثِيرَ مِنَ

الْقَصَصِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ لَا سِيَّمَا مَكَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا جَالِيَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ النَّصَارَىٰ.

وَلَقَدْ حَاوَلَ «دِرْمِنغَمُ» أَنْ يُثْبِتَ تَعَرُّفَ النَّبِيِّ بِكَثِيرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ بِمَكَّةَ؛ حَتَّىٰ لَيُخَيَّلُ لِقَارِئِ مَا كَتَبَ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَعِيشُ فِي بِيئَةٍ نَصْرَانِيَّةٍ.

ذَكَرُوا ذَلِكَ وَهُوَ شَائِعٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْمُثَقَّفِينَ خَاصَّةً، بَلْ وَغَيْرِهِمْ أَيْضًا!!

وَالْمُسْلِمُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يُفَنِّدُ أَمْثَالَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ؛ لِأَنَّهَا تَجِدُ مَجَالًا رَحْبًا عِنْدَ أَقْوَامٍ قَدْ فُرِّغُوا ثَقَافِيًّا، وَصَارُوا بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

كَيْفَ تُفَنَّدُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ -وَهِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْوَحْيِ النَّفْسِيِّ-؟

وَسَتَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الَّذِينَ كَتَبُوا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْهَا مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا مَنْ يَتَّبِعُ مِثْلَ هَذَا الْهُرَاءِ، بَلْ وَيَأْتِي بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ أُولَئِكَ، وَيَجْعَلُهُ تَفْسِيرًا لِهَذَا الْوَحْيِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ!!

هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي اسْتَنَدُوا إِلَيْهَا هِيَ مِنْ خَيَالِهِمْ، وَقَدْ مَرَّ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الِادِّعَاءَاتِ، وَأَنَّهُمْ تَقَوَّلُوا عَلَىٰ التَّارِيخِ، وَعَلَىٰ الْوَاقِعِ حِينَمَا زَعَمُوا هَذِهِ الْمَزَاعِمَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْخُذْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا أَخَذَ عَنْ مُتَنَصِّرَةِ الْعَرَبِ شَيْئًا، وَإِلَّا لَوَاجَهُوهُ بِالْحَقِيقَةِ حِينَمَا جَادَلَهُمْ وَفَنَّدَ مَذَاهِبَهُمْ،

وَأَبْطَلَ عقَائِدَهُمْ!

ثُمَّ إِنَّ النَّصْرَانِيَّةَ -كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ الْأَحْرَارُ مِنَ النَّصَارَىٰ- كَانَتْ فَاسِدَةً، مُحَرَّفَةً مُبَدَّلَةً، فَغَيْرُ مَعْقُولٍ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ، وَتَوْحِيدٍ خَالِصٍ لِلَّهِ!

وَالَّذِينَ كَانُوا فِي مَكَّةَ مِنَ النَّصَارَىٰ كَانُوا خَدَمًا أَوْ صُنَّاعًا، لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ حَتَّىٰ يَأْخُذَ النَّبِيُّ عَنْهُمْ، وَلَمَّا ادَّعَىٰ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ، وَزَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَلَّمَ مِنْ جَبْرٍ الرُّومِيِّ النَّصْرَانِيِّ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وَإِذَا ثَبَتَ بُطْلَانُ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي ذَكَرُوهَا ثَبَتَ بُطْلَانُ مَا أَدَّتْ إِلَيْهِ مِنْ نَتِيجَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ فِكْرَةَ الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ -كَمَا صَوَّرُوهُ- مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ وُجُودِ مَعْلُومَاتٍ وَأَفْكَارٍ مُدَّخَرَةٍ فِي الْعَقْلِ الْبَاطِنِ، وَأَنَّهَا تَظْهَرُ فِي صُورَةِ رُؤًى، ثُمَّ تَقْوَىٰ فَيُخَيَّلُ إِلَىٰ صَاحِبِهَا أَنَّهَا حَقَائِقُ خَارِجِيَّةٌ، فَهَلْ كَانَ الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ -بِعَقَائِدِهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَالْحُدُودِ وَالْجِنَائِيَّاتِ، وَالِاقْتِصَادِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ- مَرْكُوزًا مُدَّخَرًا فِي نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ؟!

هَذَا مَا تُنْكِرُهُ الْعُقُولُ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعَقَائِدِ يُعْتَبَرُ مُنَاقِضًا لِكُلِّ مَا كَانَ سَائِدًا فِي الْعَالَمِ -حِينَئِذٍ- مِنَ الْعَقَائِدِ؛ كَالْوَثَنِيَّةِ، وَالْمَجُوسِيَّةِ، وَالثَّنَوِيَّةِ،

وَالتَّأْلِيهِ، وَالتَّثْلِيثِ وَالصَّلْبِ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَذَلِكَ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَشْرِيعَاتٍ لَمْ تَأْتِ بِهَا شَرِيعَةٌ أُخْرَىٰ، وَاشْتَمَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ أَسْرَارٍ فِي الْكَوْنِ وَالْأَنْفُسِ مَا كَانَتْ تَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِ بَشَرٍ أَبَدًا، وَلَمْ يَظْهَرْ تَأْوِيلُهَا إِلَّا بَعْدَ تَقَدُّمِ الْعُلُومِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، فَكَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْأَسْرَارُ وَالْعُلُومُ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِ النَّبِيِّ الْمَعْصُومِ ﷺ؟!

وَأَيْضًا: فَإِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ فَتْرَةً بَعْدَ نُزُولِ صَدْرِ «سُورَةِ اقْرَأْ»، فَكَيْفَ سَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَهُوَ هُوَ صَاحِبُ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ الْمَمْلُوءِ بِالْمَعَارِفِ، وَالْوِجْدَانِ الْمُلْتَهِبِ، وَالنَّفْسِ الْمُتَوَثِّبَةِ لِلْإِصْلَاحِ؟!!

ثُمَّ إِنَّ الْعَقْلَ الْبَاطِنَ -عَلَىٰ مَا يَقُولُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ- إِنَّمَا يَفِيضُ بِمَا فِيهِ فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْعَقْلِ الظَّاهِرِ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَظْهَرُ مَا فِيهِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الرُّؤَىٰ وَالْأَحْلَامِ، وَالْأَمْرَاضِ كَالْحُمَّىٰ -مَثَلًا-، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي الْيَقَظَةِ، وَفِي اكْتِمَالٍ مِنْ عَقْلِهِ وَبَدَنِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الرُّؤَىٰ وَالنَّوْمِ.

وَهَكَذَا تَرَىٰ أَنَّ مَا اسْتَنَدُوا إِلَيْهِ مِنْ فِكْرَةِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ لَا تُسَاعِدُهُمْ، بَلْ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ.

●●●

بُطْلَانُ زَعْمِ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ الْمُنَصِّرِينَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صُرِعَ

وَقَدْ أَسِفَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ الْمُنَصِّرِينَ، فَزَعَمُوا أَنَّ الْحَالَةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَرِي النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ تَلَقِّي الْوَحْيِ مِنْ جِبْرِيلَ، وَهُوَ عَلَىٰ حَالَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ، -هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ يَغِيبُ فِيهَا النَّبِيُّ عَنِ النَّاسِ، وَعَمَّا حَوْلَهُ، وَيُسْمَعُ لَهُ غَطِيطٌ، وَيَتَصَبَّبُ عَرَقُهُ، وَيَثْقُلُ جِسْمُهُ- هِيَ حَالَةُ صَرَعٍ تَتَمَخَّضُ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ أَنَّهُ وَحْيٌ.

وَإِلَيْكَ رَدَّ هَذِهِ الْفِرْيَةِ؛ لِتَرَىٰ أَنَّهُمْ طَعَنُوا فِي غَيْرِ مَطْعَنٍ:

١- إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بِشَهَادَةِ الْأَعْدَاءِ قَبْلَ الْأَوْلِيَاءِ كَانَ أَصَحَّ النَّاسِ بَدَنًا، وَأَقْوَاهُمْ جِسْمًا، وَأَوْصَافُهُ الَّتِي تَنَاقَلَهَا الرُّوَاةُ الثِّقَاتُ تَدُلُّ عَلَىٰ الْبُطُولَةِ الْجُسْمَانِيَّةِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ قُوَّتِهِ أَنَّهُ صَارَعَ رُكَانَةَ بْنَ عَبْدِ يَزِيدَ فَصَرَعَهُ، وَكَانَ رُكَانَةُ هَذَا مُصَارِعًا مَاهِرًا، مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِجَانِبِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ الْإِسْلَامَ قَالَ: صَارِعْنِي؛ فَإِنْ أَنْتَ غَلَبْتَنِي آمَنْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَتَصَارَعَا فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ: إِنَّهُ أَسْلَمَ عَقِبَ ذَلِكَ.

الْمُصَابُ بِالصَّرَعِ لَا يَكُونُ عَلَىٰ هَذِهِ الْقُوَّةِ، وَقَدْ شَهِدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ

غَرِيبٌ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ لَكِنَّهُ مُنْصِفٌ، قَالَ الْكَاتِبُ الْأَجْنَبِيُّ «بُودْلِي» فِي كِتَابِهِ «الرَّسُولُ، حَيَاةُ مُحَمَّدٍ» مُفَنِّدًا هَذَا الزَّعْمَ: «لَا يُصَابُ بِالصَّرَعِ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ الصِّحَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهَا مُحَمَّدٌ، حَتَّىٰ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِأُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ تَنْتَابُهُ حَالَاتُ الصَّرَعِ كَانَ يُعْتَبَرُ مَجْنُونًا، وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يُوصَفُ بِالْعَقْلِ وَرَجَاحَتِهِ فَهُوَ مُحَمَّدٌ»!!

٢- إِنَّ مَرِيضَ الصَّرَعِ يُصَابُ بِآلَامٍ حَادَّةٍ فِي أَعْضَاءِ جِسْمِهِ كَافَّةً، يُحِسُّ بِهَا إِذَا مَا انْتَهَتْ نَوْبَةُ الصَّرَعِ، وَيَظَلُّ حَزِينًا كَاسِفَ الْبَالِ بِسَبَبِهَا، وَكَثِيرًا مَا يُحَاوِلُ مَرْضَىٰ الصَّرَعِ الِانْتِحَارَ مِنْ قَسْوَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ آلَامٍ فِي النَّوْبَاتِ، فَلَوْ كَانَ مَا يَعْتَرِي النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الْوَحْيِ صَرَعًا؛ لَأَسِفَ لِذَلِكَ وَحَزِنَ لِوُقُوعِهِ، وَلَسَعِدَ بِانْقِطَاعِ هَذِهِ الْحَالَةِ عَنْهُ، لَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ.

لَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُدَّةً؛ فَحَزِنَ لِذَلِكَ حُزْنًا شَدِيدًا، حَتَّىٰ سَرَّىٰ عَنْهُ رَبُّهُ بِوَصْلِ مَا انْفَصَمَ مِنَ الْوَحْيِ.

٣- إِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَكُنْ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ -الَّتِي قَالُوا عَنْهَا إِنَّهَا صَرَعٌ- إِلَّا أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا كَانَ يَأْتِيهِ وَهُوَ فِي حَالَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ؛ فَلَا غَيْبُوبَةَ، وَلَا عَرَقَ، وَلَا غَطِيطَ، وَذَلِكَ حِينَمَا كَانَ يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ؛ وَذَلِكَ كَمَا حَدَثَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ.

وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ: الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛

أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**».

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ حِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ؛ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا».

٤- وَالثَّابِتُ عِلْمِيًّا أَنَّ الْمَصْرُوعَ في أَثْنَاءِ الصَّرَعِ يَتَعَطَّلُ تَفْكِيرُهُ، وَإِدْرَاكُهُ تَعَطُّلًا تَامًّا، فَلَا يَدْرِي الْمَرِيضُ فِي نَوْبَتِهِ شَيْئًا عَمَّا يَدُورُ حَوْلَهُ، وَلَا مَا يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ، كَمَا أَنَّهُ يَغِيبُ عَنْ صَوَابِهِ، وَتَعْتَرِيهِ تَشَنُّجَاتٌ تَتَوَقَّفُ فِيهَا حَرَكَةُ الشُّعُورِ، وَيُصْبِحُ الْمَرِيضُ بِلَا إِحْسَاسٍ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بَعْدَ الْوَحْيِ يَتْلُو عَلَىٰ النَّاسِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَتَشْرِيعَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، وَعِظَاتٍ بَلِيغَاتٍ، وَأَخْلَاقًا عَالِيَةً، وَكَلَامًا بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَتَحَدَّىٰ بِهِ النَّاسَ أَنْ يَأْتُوا بِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ، فَعَجَزُوا وَمَا اسْتَطَاعُوا، فَهَلْ يُعْقَلُ مِنَ الْمَصْرُوعِ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا؟!!

اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يَجُوزُ إِلَّا فِي عُقُولِ الْمَجَانِينِ، إِنْ كَانَتْ لَهُمْ عُقُولٌ!!

٥- لَمَّا تَقَدَّمَتْ وَسَائِلُ الطِّبِّ، وَاسْتُخْدِمَتِ الْأَجْهِزَةُ وَالْكَهْرُبَاءُ فِي التَّشْخِيصِ وَالْعِلَاجِ، إِذَا بِالطِّبِّ يُقَدِّمُ دَلِيلًا لَا يُنْقَضُ، وَيُقِيمُ حُجَّةً لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ مُنَاقَشَةٍ عَلَىٰ كَذِبِ فِرْيَةِ الصَّرَعِ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ مَا كَانَ يَعْتَرِي رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنَّمَا هُوَ

وَحْيٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا آخَرَ.

لَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ نَوْبَاتِ الصَّرَعِ نَاتِجَةٌ عَنْ تَغَيُّرَاتٍ فِسْيُولُوجِيَّةٍ عُضْوِيَّةٍ فِي الْمُخِّ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنَّهُ أَمْكَنَ تَسْجِيلُ تَغَيُّرَاتٍ كَهْرُبَائِيَّةٍ فِي الْمُخِّ فِي أَثْنَاءِ النَّوْبَاتِ الصَّرَعِيَّةِ مَهْمَا كَانَ مَظْهَرُهَا الْخَارِجِيُّ، وَعَلَىٰ أَيِّ صُورَةٍ كَانَتْ هَذِهِ النَّوْبَاتُ، وَمَهْمَا ضَعُفَتْ حِدَّةُ هَذِهِ النَّوْبَاتِ.

وَلَقَدْ أَثْبَتَ الطِّبُّ الْحَدِيثُ أَخِيرًا -بَعْدَ الِاسْتِعَانَةِ بِالْأَجْهِزَةِ وَالرَّسْمِ الْكَهْرُبَائِيِّ- أَنَّ هُنَاكَ مَظَاهِرَ عَدِيدَةً وَمُخْتَلِفَةً لِلنَّوْبَاتِ الصَّرَعِيَّةِ، وَذَلِكَ تَبَعًا لِمَرَاكِزِ الْمُخِّ الَّتِي تَبْدَأُ فِيهَا التَّغَيُّرَاتُ الْكَهْرُبَائِيَّةُ، وَطَرِيقَةِ وَسُرْعَةِ انْتِشَارِهَا.

وَأَهَمُّ أَنْوَاعِ الصَّرَعِ مَا يُسَمَّىٰ بِالنَّوْبَاتِ الصَّرَعِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ النَّوْعَ الَّذِي افْتَرَاهُ الْخُصُومُ عَلَىٰ الرَّسُولِ أَنَّهُ مُصَابٌ بِهِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ تَمُرُّ بِذِهْنِ الْمَرِيضِ ذِكْرَيَاتٌ، أَوْ أَحْلَامٌ مَرْئِيَّةٌ، أَوْ سَمْعِيَّةٌ، أَوْ الِاثْنَانِ مَعًا، وَتُسَمَّىٰ بِالْهَلَاوِسِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ الطِّبُّ -أَيْضًا- أَنَّ الذِّكْرَيَاتِ الَّتِي تَمُرُّ بِالْمَرِيضِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَاشَ فِيهَا الْمَرِيضُ نَفْسُهُ حَتْمًا؛ إِذْ إِنَّ النَّوْبَةَ الصَّرَعِيَّةَ مَا هِيَ إِلَّا تَنْبِيهٌ لِصُورَةٍ أَوْ صَوْتٍ مَرَّ بِالْإِنْسَانِ، ثُمَّ احْتَفَظَ بِهِ فِي ثَنَايَا الْمُخِّ، وَقَدْ أَمْكَنَ طِبِّيًّا إِجْرَاءُ عَمَلِيَّةِ التَّنْبِيهِ هَذِهِ بِوَسَاطَةِ تَيَّارٍ كَهْرُبَائِيٍّ صِنَاعِيٍّ سُلِّطَ عَلَىٰ جُزْءٍ خَاصٍّ فِي الْمُخِّ، فَشَعَرَ الْمَرِيضُ بِالْهَلَاوِسِ نَفْسِهَا الَّتِي تَنْتَابُهُ فِي أَثْنَاءِ نَوْبَةِ الصَّرَعِ، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَتْ نَوْبَةُ

الصَّرَعِ تكَرَّرَتِ الذِّكْرَيَاتُ وَالْهَلَاوِسُ نَفْسُهَا.

فَهَذَا مَرِيضٌ يَسْمَعُ أُغْنِيَّةً، أَوْ قِطْعَةً مِنْ شِعْرٍ، أَوْ حَدِيثًا مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ فِي نَوْبَةِ صَرَعِهِ، وَيَتكَرَّرُ سَمَاعُهُ لَهَا فِي كُلِّ نَوْبَةٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَا سَمِعَهُ مِنَ النَّوْبَةِ قَدْ سَمِعَهُ يَوْمًا مَا فِي طُفُولَتِهِ، أَوْ شَبَابِهِ، أَوْ قَبلَ مَرَضِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ النَّوْبَةُ تُثِيرُ مَنْظَرًا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ عَلَيْهِ.

بِتَطْبِيقِ مَا قَرَّرَهُ الطِّبُّ الْحَدِيثُ فِي حَقَائِقِ الصَّرَعِ عَلَىٰ مَا كَانَ يَعْتَرِي النَّبِيَّ ﷺ؛ نَجِدُهُ يُرَدِّدُ آيَاتٍ لَا يُمْكِنُ إِطْلَاقًا أَنْ يَكُونَ قَدْ سَمِعَهَا مِنْ قَبْلُ فِي حَيَاتِهِ، فَهِيَ آيَاتٌ وَارِدَةٌ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ تَعَالَىٰ قَبْلَ أَنْ يَعْمُرَ الْبَشَرُ الْأَرْضَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٥].

وَآيَاتٌ أُخْرَىٰ فِيهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وَكَذَلِكَ الْآيَاتُ الَّتِي تَحْكِي عُصُورَ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَالْمُحَاوَلَاتُ، وَالْمُحَاوَرَاتُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ أَقْوَامٍ عَاشُوا قَبْلَ الرَّسُولِ ﷺ بِآلَافِ السِّنِينَ؛

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤-٢٥].

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْكِي قَصَصَ الْأَوَّلِينَ، أَوْ تَصِفُ أَحْوَالَ الْقِيَامَةِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

مَرِيضُ الصَّرَعِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ بِكُلِّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَوْ يَهْذِي بِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَرَّ بِهِ؛ سَمِعَهُ، رَآهُ، أَخْبَرَ بِهِ، عَانَاهُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، هَذِهِ أُمُورٌ إِنَّمَا وَقَعَتْ مُنْذُ آلَافٍ مُغْرِقَةٍ فِي الْقِدَمِ مِنَ السِّنِينَ، وَأُمُورٌ سَتَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَرَ بِهَا الرَّسُولُ فَمِنْ أَيْنَ؟!!

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْكِي قَصَصَ الْأَوَّلِينَ، أَوْ تَصِفُ أَحْوَالَ الْقِيَامَةِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَالْأَحْوَالُ لَمْ تَمُرَّ بِالرَّسُولِ قَطْعًا؛ فَهِيَ لَمْ تُخْتَزَنْ بِالتَّالِي فِي الْمُخِّ؛ لِتُثِيرَهَا نَوْبَاتٌ صَرَعِيَّةٌ فَيَتَذَكَّرَهَا، وَبِذَلِكَ يُقَرِّرُ الطِّبُّ الْحَدِيثُ فِي أَحْدَثِ اكْتِشَافَاتِهِ بِالنِّسْبَةِ لِلصَّرَعِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَدْنَىٰ شُبْهَةٍ فِي إِصَابَتِهِ بِالصَّرَعِ إِطْلَاقًا، وَأَنَّ مَا كَانَ إِنَّمَا هِيَ حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ وَجَسَدِيَّةٌ

لِتَلَقِّي الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، هَذَا الْوَحْيُ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ فِيهِ عَمَّا مَضَىٰ، وَعَمَّا يُسْتَقْبَلُ.

٦- ثُمَّ مَا رَأْيُ هَؤُلَاءِ الطَّاعِنِينَ -وَفِيهِمْ مَنْ يَنْتَمِي إِلَىٰ بَعْضِ الْأَدْيَانِ- فِي أَنَّهُمْ لَا يَنَالُونَ مِنْ نَبِيِّ اللهِ مُحَمَّدٍ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يَنَالُونَ مِنْ جَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ كُتُبٌ أَوْ صُحُفٌ أُوحِيَ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ!! فَهَلْ تَطِيبُ نُفُوسُهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا بُيُوتَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُخْرِبُوا بُيُوتَ غَيْرِهِمْ؟!

وَمَا رَأْيُهُمْ فِيمَا جَاءَ فِي كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ مِنْ إِيحَاءَاتٍ وَنُبُوءَاتٍ؟!

وَهَلْ يَقُولُونَ فِي وَحْيِ نَبِيِّ اللهِ مُوسَىٰ وَنَبِيِّ اللهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَا يَقُولُونَ فِي وَحْيِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ؟

اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا الطَّعْنَ لَا يَفُوهُ بِهِ إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ مَادِّيٌّ مُخَرِّفٌ، وَإِمَّا رَجُلٌ مُخَرِّبٌ مُدَمِّرٌ يُرِيدُ هَدْمَ الْأَدْيَانِ!!

إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ فِي بَابِ الْوَحْيِ، وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥١-٥٣].

- لَوْ كَانَ الْوَحْيُ أَمْرًا ذَاتِيًّا لَمَا جَاءَتْ آيَاتٌ فِي الْقُرْآنِ تَعْتِبُ عَلَيْهِ أَوْ تَلُومُهُ لِبَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ.

- لَوْ كَانَ الْوَحْيُ أَمْرًا ذَاتِيًّا لَمَا خَاطَبَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

- فَلَوْ كَانَ الْوَحْيُ أَمْرًا ذَاتِيًّا لَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْكُتُ عَنْ إِجَابَاتِ السَّائِلِينَ لِفَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ قَدْ تَطُولُ وَقَدْ تَقْصُرُ، وَلَمَا عَانَىٰ مِنْ نَتَائِجِ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ؛ كَحَادِثِ الْإِفْكِ الَّذِي اسْتَمَرَّتْ مِحْنَتُهُ لِشَهْرٍ أَوْ يَزِيدُ.

- وَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ أُمِّيًّا ﷺ، لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ، وَفِي ذَلِكَ إِبْعَادٌ لِشُبْهَةِ الشَّكِّ فِي مَصْدَرِ الْقُرْآنِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ يَقظَةً؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، وَاسْتَغْرَقَ نُزُولُ الْوَحْيِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً؛ مِنْهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا بِمَكَّةَ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَمِنْهَا عَشْرُ سِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ.

وَظَاهِرَةُ الْوَحْيِ مُعْجِزَةٌ خَارِقَةٌ لِلسُّنَنِ الطَّبِيعِيَّةِ؛ حَيْثُ تَلَقَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ كَلَامَ اللهِ -الْقُرْآنَ- بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ جِبْرِيلَ عليه السلام؛ وَبِالتَّالِي فَلَا صِلَةَ لِظَاهِرَةِ الْوَحْيِ بِالْإِلْهَامِ، أَوِ التَّأَمُّلِ الْبَاطِنِيِّ، أَوْ الِاسْتِشْعَارِ الدَّاخِلِيِّ؛ بَلْ إِنَّ الْوَحْيَ يَتِمُّ مِنْ خَارِجِ الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْمُتَلَقِّيَةِ لَهُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَيُّ أَثَرٍ فِي الصِّيَاغَةِ وَالْمَعْنَىٰ، بَلْ تَنْحَصِرُ مُهِمَّتُهُ بِحِفْظِ الْمُوحَىٰ إِلَيْهِ وَتَبْلِيغِهِ.

وَأَمَّا بَيَانُهُ وَتَفْسِيرُهُ فَيَتِمُّ بِأُسْلُوبِ النَّبِيِّ كَمَا يَظْهَرُ فِي أَحَادِيثِهِ الْمَحْفُوظَةِ؛ وَهُوَ أُسْلُوبٌ مُغَايِرٌ تَمَامًا لِأُسْلُوبِ الْقُرْآنِ.

إِنَّ مُحَاوَلَةَ الْبَعْضِ تَعْلِيلَ اخْتِلَافِ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ عَنْ أُسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنْ طَرِيقِ عِلْمِ النَّفْسِ التَّحْلِيلِيِّ؛ بِدَعْوَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ صَدَرَ عَنْ مَنْطِقَةِ اللَّاشُعُورِ فِي حَالَةِ ضَعْفِ الْوَعْيِ الْخَارِجِيِّ وَنَشَاطِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ صَدَرَ عَنِ الْعَقْلِ الظَّاهِرِ، هَذِهِ الْمُحَاوَلَةُ تَبْدُو مُتَهَافِتَةً إِذَا تَأَمَّلْنَا فِيمَا صَدَرَ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْبُلَغَاءِ مِنْ آثَارٍ أَدَبِيَّةٍ، تَتَّضِحُ فِيهَا الْوَحْدَةُ الْأُسْلُوبِيَّةُ؛ رَغْمَ مُرُورِهِمْ بِتَجَارِبَ تَأَمُّلِيَّةٍ وَاسْتِبْطَانِيَّةٍ، وَصَارَ مَبْدَأُ الْأُسْلُوبِ أَسَاسًا لِتَحْدِيدِ السَّرِقَاتِ الْأَدَبِيَّةِ إِلَىٰ جَانِبِ سَرِقَةِ الْمَعَانِي، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْهُرُوبَ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِالْوَحْيِ هُوَ

الدَّافِعُ إِلَىٰ التَّفْسِيرَاتِ الْعَدِيدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ لِظَاهِرَةِ الْوَحْيِ، وَالَّتِي قَدَّمَهَا الْمُسْتَشْرِقُونَ وَأَتْبَاعُهُمْ خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ وَالْعِشْرِينَ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ الْوَحْيِ ظَلَّتْ تُوَاجِهُ الْمُسْتَشْرِقِينَ، فَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ إِعْطَاءِ تَفْسِيرٍ لَهَا؛ بَلْ يَقَعُونَ فِي الْحَيْرَةِ وَالتَّنَاقُضِ، وَيَلْجَأُونَ إِلَىٰ الِاتِّهَامَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ قَالَهَا الْعَرَبُ الْجَاهِلِيُّونَ فِي مَكَّةَ عِنْدَ نُزُولِ الْإِسْلَامِ مِمَّا رَدَّهُ الْقُرْآنُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ يَحْكِي تِلْكَ الِاتِّهَامَاتِ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وَفِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ يَقُولُ الْمُسْتَشْرِقُونَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ تَعَلَّمَ مِنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، وَمَرَّةً يَقُولُونَ مِنْ بَحِيرَا الرَّاهِبِ، وَأَحْيَانًا يُرَدِّدُونَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ مِنْ يَهُودِ مَكَّةَ!!

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا يَهُودٌ، وَإِنَّ لِقَاءَهُ بِبَحِيرَا لَا يَعْدُو السَّاعَةَ أَوِ السَّاعَتَيْنِ، وَهُوَ غُلَامٌ فِي الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَأَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَمْ يُتَرْجَمَا إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا بَعْدَ قُرُونٍ مِنْ عُمُرِ الرِّسَالَةِ، وَلَوْ كَانَا قَدْ تُرْجِمَا فَإِنَّ أُمِّيَّتَهُ تَحُولُ دُونَ إِفَادَتِهِ مِنْهُمَا.

نَعَمْ، يُوجَدُ ثَمَّةَ تَشَابُهٌ بَيْنَ الْقَصَصِ الدِّينِيِّ فِي الْقُرْآنِ وَمَا وَرَدَ فِي التَّوْرَاةِ، وَشَرَحَهُ التَّلْمُودُ، وَالْإِنْجِيلُ، وَهُوَ تَشَابُهٌ مَرْجِعُهُ وَحْدَةُ الْمَصْدَرِ الْإِلَهِيِّ.

كَمَا أَنَّ ثَمَّةَ اخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا فِي التَّصَوُّرِ النِّهَائِيِّ لِلْأَنْبِيَاءِ وَتَنْزِيهِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَخَصَائِصِهِمْ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ اخْتِلَافٌ

يَرْجِعُ إِلَىٰ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ تِلْكَ الْكُتُبُ مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ يَجْعَلُهَا لَا تُمَثِّلُ بِصِدْقٍ كَلَامَ اللهِ.

يَعْنِي: مَا وَرَدَ بِشَأْنِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ -الَّتِي يَدَّعُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَخَذَ مِنْهَا أَوْ نَقَلَ- يُنَزِّهُ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ الْأَنْبِيَاءَ عَنْهُ وَعَنْ أَدْنَىٰ مِنْهُ.

يَعْنِي: عِنْدَمَا تُقَرِّرُ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ أَنَّ لُوطًا قَدْ أَسْقَاهُ بَنَاتُهُ الْخَمْرَ حَتَّىٰ ثَمِلَ ثُمَّ وَقَعَ عَلَيْهِنَّ!!

فَهَذَا شَيْءٌ لَا يَكُونُ مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَتَاهُ اللهُ الْعِصْمَةَ، وَلَا يُتَصَوَّرُ مِثْلُ هَذَا!!

وَمَا قِيلَ وَذُكِرَ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ: مِنْ أَنَّ اللهَ صَارَعَ دَاوُدَ فَصَرَعَهُ، أَوْ صَارَعَ أَخَاهُ فَكَسَرَ رِجْلَهُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

هَذِهِ التَّصَوُّرُ النِّهَائِيُّ فِيهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ الضِّدِّ تَمَامًا مِمَّا هُوَ وَارِدٌ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ الْمُدَّعَىٰ أَنَّهُ نُقِلَ مِنْهَا أَوْ عَنْهَا.

فَهُنَاكَ تَصَوُّرٌ وَاخْتِلَافٌ جَوْهَرِيٌّ لِلْأَنْبِيَاءِ مَعَ تَنْزِيهِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَخَصَائِصِهِمْ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ اخْتِلَافٌ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ تِلْكَ الْكُتُبُ مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ يَجْعَلُهَا لَا تُمَثِّلُ بِصِدْقٍ كَلَامَ اللهِ، وَلَكِنَّ الْأَهْوَاءَ دَفَعَتْ بَعْضَ الدَّارِسِينَ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ اقْتَبَسَ

تِلْكَ الْقَصَصَ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ مُغْفِلِينَ عَمْدًا حَقِيقَةَ الِاخْتِلَافِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ.

لَقَدْ بَيَّنَ كَاتِبَانِ نَصْرَانِيَّانِ هُمَا: «سَالُ»، وَ«تَايْلُورُ» أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَجِدْ نُمُوذَجًا أَخْلَاقِيًّا وَدِينِيًّا لِيَنْقُلَهُ أَوْ يَحْتَذِيَهُ فِي الْإِسْلَامِ، بِسَبَبِ انْحِرَافِ أَتْبَاعِ الدِّيَانَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَانْحِطَاطِ تَصَوُّرَاتِهِمْ، بَلْ وَتَحْرِيفِ أُصُولِهِمُ الدِّينِيَّةِ.

يَقُولُ سَالُ: «إِذَا قَرَأْنَا التَّأْرِيخَ الْكَنَسِيَّ بِعِنَايَةٍ، فَسَنَرَىٰ أَنَّ الْعَالَمَ النَّصْرَانِيَّ قَدْ تَعَرَّضَ مُنْذُ الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِمَسْخِ صُورَتِهِ؛ بِسَبَبِ أَطْمَاعِ رِجَالِ الدِّينِ، وَالِانْشِقَاقِ بَيْنَهُمْ، وَالْخِلَافَاتِ عَلَىٰ أَتْفَهِ الْمَسَائِلِ، وَالْمُشَاجَرَاتِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي؛ وَالَّتِي كَانَ الِانْقِسَامُ يَتَزَايَدُ بِشَأْنِهَا، وَكَانَ النَّصَارَىٰ فِي تَحَفُّزِهِمْ لِإِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِمْ، وَاسْتِخْدَامِ كُلِّ أَنْوَاعِ الْخُبْثِ وَالْحِقْدِ وَالْقَسْوَةِ قَدِ انْتَهَوْا تَقْرِيبًا إِلَىٰ طَرْدِ النَّصْرَانِيَّةِ ذَاتِهَا مِنَ الْوُجُودِ، بِسَبَبِ جِدَالِهِمُ الْمُسْتَمِرِّ حَوْلَ طَرِيقَةِ فَهْمِهَا، وَفِي هَذِهِ الْعُصُورِ الْمُظْلِمَةِ بِالذَّاتِ ظَهَرَتْ، بَلْ وَثَبَتَتْ أَغْلَبُ أَنْوَاعِ الْخُرَافَاتِ وَالْفَسَادِ».

أَمَّا تَايْلُورُ فَيَقُولُ: «إِنَّ مَا قَابَلَهُ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لَمْ يَكُنْ إِلَّا خُرَافَاتٍ مُنَفِّرَةً، وَوَثَنِيَّةً مُنْحَطَّةً وَمُخْجِلَةً، وَمَذَاهِبَ كَنَسِيَّةً مَغْرُورَةً، وَطُقُوسًا دِينِيَّةً مُنْحَلَّةً وَصِبْيَانِيَّةً».

ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ فَنَّدَ كَثِيرًا مِنَ الْعَقَائِدِ، وَالتَّقَالِيدِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ؛ فَكَيْفَ يَنْقُضُ النُّمُوذَجَ الَّذِي احْتَذَاهُ - عَلَىٰ حَدِّ مَزَاعِمِهِمْ -؟!

هَذَا بَعْضُ مَا ذُكِرَ بِشَأْنِ الْفِرَىٰ الَّتِي افْتُرِيَتْ عَلَىٰ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَعَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنْ تَأَمَّلْتَ فِي ذَلِكَ وَعَلِمْتَهُ فَهَذَا خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ، وَإِنْ صَدَفَتْ نَفْسُكَ عَنْهُ فَلَا تَثْرِيبَ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّ الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ عَلَيْهِ أُمُورٌ وَاجِبَةٌ لَيْسَتْ بِالَّتِي تَجِبُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَالْمُسْلِمُ الْعَادِيُّ لَا يُكَلَّفُ بِالْبَحْثِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ الْوَحْيَ الْمَعْصُومَ عَنْ طَرِيقِ أَمِينِ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ الْعَقَدِيَّةِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

وَلَكِنْ مَنْ كَانَ مِثْلَكُمْ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ فَوْقَ ذَلِكَ؛ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَرُدُّ الزَّعْمَ الْمُبْطِلَ الَّذِي يُدَّعَىٰ عَلَىٰ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، وَعَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِالطَّرِيقَةِ عَيْنِهَا الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُونَ فِي كَلَامِهِمْ إِلَىٰ قَوَاعِدِ الْعِلْمِ، وَإِلَىٰ مَنَافِذِ النَّظَرِ، وَإِلَىٰ مَا قَدَّرَهُ الْعَقْلُ السَّوِيُّ؛ وَهُمْ أَبْعَدُ الْخَلْقِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، فَضْلًا عَنْ الِالْتِزَامِ بِهِ.

وَالْإِسْلَامُ مُسْتَهْدَفٌ مُنْذُ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ «اقْرَأْ»، فَمُنْذُ بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَالْمَزَاعِمُ تَكْثُرُ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، هِيَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، إِنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، كَاهِنٌ، مَجْنُونٌ،...، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَعْلَمُونَ.

●●●

مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ

بَدَأَتِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِمَكَّةَ سِرِّيَّةً، حَدَّدَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَالْوَاقِدِيُّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَحَدَّدَهَا الْبُلَاذِرِيُّ بِأَرْبَعِ سِنِينَ.

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْمَكِّيُّ -شَأْنَ سَائِرِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ- يَعْتَمِدُ فِي تَنْظِيمِهِ عَلَىٰ الْقَبِيلَةِ، فَهِيَ الْوِحْدَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ، وَيَعْتَمِدُ فِي تَلَاحُمِهِ عَلَىٰ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ؛ فَهِيَ الَّتِي تَشُدُّ أَبْنَاءَهَا إِلَىٰ بَعْضِهِمْ، وَلَمَّا كَانَتْ مَكَّةُ تَخْضَعُ لِقَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ قُرَيْشٌ بِفُرُوعِهَا الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ، فَقَدْ بَدَتْ هَذِهِ الْفُرُوعُ وَالْعَشَائِرُ وِحْدَاتٍ ذَاتَ كِيَانٍ خَاصٍّ، لَكِنَّهَا مُتَحَالِفَةٌ دَاخِلَ الْكِيَانِ الْعَامِّ لِقُرَيْشٍ، وَكَانَ الْمُتَوَقَّعُ أَنْ يَنْتَشِرَ الْإِسْلَامُ فِي الْعَشِيرَةِ الَّتِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا الرَّسُولُ، ثُمَّ فِي قُرَيْشٍ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا أَخِيرًا، وَلَكِنْ يُلَاحَظُ أَنَّ انْتِشَارَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَرْتَبِطْ بِالْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ، وَلَا الْعَشَائِرِيَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ نَصِيبُهُ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي هَاشِمٍ أَعْظَمَ مِنْ بَقِيَّةِ عَشَائِرِ قُرَيْشٍ، وَإِنْ كَانَ بَنُو هَاشِمٍ يَتَعَاطَفُونَ مَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُمْ، لَكِنَّ هَذَا التَّعَاطُفَ لَمْ يَجُرَّهُمْ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، بَلْ مَاتَ كَبِيرُهُمْ وَأَقْوَىٰ مُنَاصِرِيهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ -وَهُوَ أَبُو طَالِبٍ- دُونَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ.

لَقَدِ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ فِي سَائِرِ فُرُوعِ قُرَيْشٍ بِصُورَةٍ

مُتَوَازِنَةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِإِحْدَىٰ عَشَائِرِهَا ثِقَلٌ كَبِيرٌ فِي الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ مُخَالِفَةٌ لِطَبِيعَةِ الْحَيَاةِ الْقَبَلِيَّةِ آنَذَاكَ، وَهِيَ إِذَا أَفْقَدَتِ الْإِسْلَامَ الِاسْتِفَادَةَ الْكَامِلَةَ مِنَ التَّكْوِينِ الْقَبَلِيِّ وَالْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ لِحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ وَنَشْرِهَا، فَإِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ تُؤَلِّبْ عَلَيْهِ الْعَشَائِرَ الْأُخْرَىٰ بِحُجَّةِ أَنَّ الدَّعْوَةَ تُحَقِّقُ مَصَالِحَ الْعَشِيرَةِ الَّتِي انْتَمَتْ إِلَيْهَا، وَتُعْلِي مِنْ قَدْرِهَا عَلَىٰ حِسَابِ الْعَشَائِرِ الْأُخْرَىٰ.

يعْنِي: لَوْ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ أَطْبَقُوا عَلَىٰ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَأَثَارَ ذَلِكَ حَفَائِظَ سَائِرِ الْعَشَائِرِ؛ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الِاتِّبَاعَ لِلدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي لَا تَمُتُّ إِلَىٰ الْإِيمَانِ وَلَا إِلَىٰ الْيَقِينِ؛ إِنَّمَا هِيَ مَسْأَلَةٌ تَرْجِعُ إِلَىٰ الْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا، وَحِينَئِذٍ تَتَأَجَّجُ نِيرَانُ التَّعَصُّبِ عِنْدَ سَائِرِ الْعَشَائِرِ.

كَذَلِكَ لَوْ أَنَّ قُرَيْشًا أَطْبَقَتْ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَأَثَارَ ذَلِكَ حَفَائِظَ سَائِرِ الْقَبَائِلِ خَارِجَ قُرَيْشٍ، وَلَكَانَتِ الْحَرْبُ حَرْبًا عَصَبِيَّةً وَلَيْسَتْ بِحَرْبٍ دِينِيَّةٍ عَقَدِيَّةٍ، وَلَكِنْ كَمَا سَيَظْهَرُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- فِي بَحْثِ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ فِي حِكْمَةِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يُنَاصِرُ النَّبِيَّ ﷺ وَلَيْسَ عَلَىٰ دِينِهِ، حَتَّىٰ مَاتَ كَافِرًا، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَدْعَىٰ لِاحْتِرَامِ قُرَيْشٍ لَهُ، وَالْوُقُوفِ بِالْإِيذَاءِ عِنْدَ حَدٍّ لَا يَصِلُ أَكْثَرُ مِنْهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؛ بِسَبَبِ كُفْرِ أَبِي طَالِبٍ، وَحَتَّىٰ لَا يُقَالَ بَعْدُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ إِنَّمَا انْتَشَرَ عَنْ طَرِيقِ الْعَصَبِيَّةِ لَهُ.

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ إِنَّهُمْ عَصَبِيَّةً كَانُوا ضِدَّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَيْسُوا مَعَهُ.

لَعَلَّ هَذَا الِانْفِتَاحَ الْمُتَوَازِنَ عَلَىٰ الْجَمِيعِ أَعَانَ فِي انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَشَائِرِ الْقُرَشِيَّةِ الْعَدِيدَةِ دُونَ تَحَفُّظَاتٍ مُتَّصِلَةٍ بِالْعَصَبِيَّةِ، فَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مِنْ «تَيْمٍ»، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ مِنْ «بَنِي أُمَيَّةَ»، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ مِنْ «بَنِي أَسَدٍ»، وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مِنْ «بَنِي عَبْدِ الدَّارِ»، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ «بَنِي هَاشِمٍ»، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ «بَنِي عَدِيٍّ»، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مِنْ «بَنِي زُهْرَةَ»، وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ مِنْ «بَنِي جُمَحَ»، بَلْ إِنَّ عَدَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ لَمْ يَكُونُوا مِنْ قُرَيْشٍ؛ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ «هُذَيْلٍ»، وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ مِنْ «مَازِنٍ»، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسٍ مِنَ «الْأَشْعَرِيِّينَ»، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ مِنْ «عَنْسٍ مِنْ مَذْحِجٍ»، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ «كَلْبٍ»، وَالطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ «دَوْسٍ»، وَأَبُو ذَرٍّ مِنْ «غِفَارٍ»، وَعَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ مِنْ «سُلَيْمٍ»، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ «عَنْزِ بْنِ وَائِلٍ»، وَصُهَيْبٌ النَّمِرِيُّ مِنْ «بَنِي النَّمِرِ بْنِ قَاسِطٍ».

لَقَدْ كَانَ وَاضِحًا مُنْذُ الْوَهْلَةِ الْأُولَىٰ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ خَاصًّا بِمَكَّةَ وَلَا بِقُرَيْشٍ.

نُعِيدُ التَّذْكِيرَ -بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ- بِأَدْوَارِ الدَّعْوَةِ، وَمَرَاحِلِهَا:

يُقَسَّمُ عَهْدُ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ﷺ عَلَىٰ دَوْرَيْنِ، يَمْتَازُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ تَمَامَ الِامْتِيَازِ، وَهُمَا:

١- **الدَّوْرُ الْمَكِّيُّ**: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تَقْرِيبًا.

٢- **الدَّوْرُ الْمَدَنِيُّ**: عَشْرُ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ.

ثُمَّ يَشْتَمِلُ كُلٌّ مِنَ الدَّوْرَيْنِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، لِكُلٍّ مِنْهَا خَصَائِصُ تَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا بَعْدَ النَّظَرِ الدَّقِيقِ فِي الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ خِلَالَ الدَّوْرَيْنِ.

فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الدَّوْرِ الْمَكِّيِّ إِلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

١- **الْأُولَىٰ**: مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ: ثَلَاثُ سِنِينَ.

٢- مَرْحَلَةُ إِعْلَانِ الدَّعْوَةِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ: مِنْ بِدَايَةِ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَىٰ أَوَاخِرِ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ.

٣- مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ خَارِجَ مَكَّةَ، وَفُشُوِّهَا فِيهِمْ: مِنْ أَوَاخِرِ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَىٰ هِجْرَتِهِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

أَمَّا مَرَاحِلُ الدَّوْرِ الْمَدَنِيِّ فَسَيَجِيءُ تَفْصِيلُهَا فِي مَوْضِعِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا-.

◉◉◉

مَرَاتِبُ الدَّعْوَةِ وَمَرَاحِلُهَا

ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلدَّعْوَةِ خَمْسَ مَرَاتِبَ: «الْأُولَىٰ: النُّبُوَّةُ، الثَّانِيَةُ: إِنْذَارُ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ، الثَّالِثَةُ: إِنْذَارُ قَوْمِهِ، الرَّابِعَةُ: إِنْذَارُ قَوْمٍ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ؛ وَهُمُ الْعَرَبُ قَاطِبَةً، وَالْخَامِسَةُ: إِنْذَارُ جَمِيعِ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَىٰ آخِرِ الدَّهْرِ».

وَمَرَاحِلُ الدَّعْوَةِ خِلَالَ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: الدَّعْوَةُ سِرًّا؛ وَاسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ سِنِينَ.

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا، وَالْكَفُّ عَنِ الْقِتَالِ؛ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ.

الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا مَعَ قِتَالِ الْمُبْتَدِئِينَ بِالْقِتَالِ؛ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَىٰ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.

الْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا مَعَ قِتَالِ كُلِّ مَنْ يَقِفُ فِي سَبِيلِ سَيْرِ الدَّعْوَةِ.

وَرُبَّمَا يَتَبَادَرُ سُؤَالٌ إِلَىٰ الذِّهْنِ وَهُوَ:

هَلْ يَجِبُ عَلَىٰ دُعَاةِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَاصَّةً فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ التَّقَيُّدُ بِهَذِهِ الْمَرَاحِلِ بِمَدَاهَا الزَّمَنِيِّ كَمَا وَقَعَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ؟

الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ هُوَ:

أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمُ التَّقَيُّدُ بِهَذِهِ الْمَرَاحِلِ، وَلَا بِالْمَدَىٰ الزَّمَنِيِّ الَّذِي مَرَّتْ بِهِ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَدَىٰ الزَّمَنِيَّ لِتِلْكَ الْمَرَاحِلِ تَقْدِيرٌ رَبَّانِيٌّ وَلَيْسَ جُهْدًا بَشَرِيًّا فَقَطْ.

فَالتَّقَيُّدُ بِهَذِهِ الْمَرَاحِلِ لَا يَتَمَشَّىٰ مَعَ مُرُونَةِ الْإِسْلَامِ فِي مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ وَمُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ، وَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ الَّتِي تُمَثِّلُ حَرَكَةَ الْإِسْلَامِ تَفْتَحُ أَمَامَ الدُّعَاةِ نَمَاذِجَ لِلْخِيَارَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الْمَنْهَجُ الْإِسْلَامِيُّ بِحَرَكَتِهِ الْفَذَّةِ الْفَرِيدَةِ، وَمَا السِّرِّيَّةُ أَوْ طَلَبُ النُّصْرَةِ أَوِ الْهِجْرَةُ إِلَّا وَسَائِلُ اتَّخَذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَشْرِ دَعْوَتِهِ ضِمْنَ ظُرُوفٍ وَمُوَاصَفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ.

لَقَدِ اسْتَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ لِلْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي صَدَرَتْ لَهُ بِالتَّبْلِيغِ، وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ وَاضِحَةً فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ آيَاتِ سُورَةِ الْعَلَقِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧].

لَقَدْ لَخَّصَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ مَضْمُونَ الدَّعْوَةِ الَّتِي أُنِيطَتْ بِعُنُقِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأُنِيطَ بِهِ تَبْلِيغُهَا إِلَىٰ النَّاسِ، وَلَا تَكَادُ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ تَخْرُجُ عَنْ إِطَارِهَا الْعَامِّ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ زَمَانَ التَّدَثُّرِ وَالْخُلُودِ إِلَىٰ

الرَّاحَةِ فِي الْمَضْجَعِ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ قَدْ وَلَّىٰ، وَجَاءَ زَمَانُ الْمُجَاهَدَةِ بِكُلِّ أَبْعَادِهَا الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَكْلِيفِهِ بِأَمْرِ دَعْوَةِ كُلِّ النَّاسِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنْ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ خَالِقِ الْوُجُودِ؛ وَلِذَا عَلَيْهِ أَنْ يُعْلِمَ النَّاسَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ لِيَتَوَاضَعَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِلَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ؛ وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَىٰ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَبْدَأَ بِتَطْهِيرِ نَفْسِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ حَتَّىٰ يَكُونَ الْمَثَلَ الْأَعْلَىٰ لِمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الطَّهَارَةِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ يَقْتَضِي عَدَمَ تَعْظِيمِ أَوْ تَقْدِيسِ أَيِّ شَيْءٍ لِيَتَبَارَكَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مَا خُصَّ بِهِ مِنْ مَنْعِ إِعْطَاءِ الشَّيْءِ ابْتِغَاءَ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْهُ؛ هُوَ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَجْمَلِ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفِ الْآدَابِ؛ لِيَكُونَ مَثَلًا أَعْلَىٰ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ يَدْعُوهَا إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَلِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ خَتْمِهَا بِحَقِيقَةٍ هَامَّةٍ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الْأَهْدَافِ الْمَرْجُوَّةِ مِنْ هَذِهِ الْأَوَامِرِ، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ تَحَمُّلَ أَمَانَةِ الدَّعْوَةِ فِي عَنَاصِرِهَا

الْمَذْكُورَةِ؛ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ كُلِّ أَصْنَافِ أَذَىٰ الْمُعَارِضِينَ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ الْأَتْبَاعِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الِابْتِلَاءِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

نَهَضَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ فِرَاشِهِ وَأَخَذَ يَدْعُو إِلَىٰ مَا أُمِرَ بِهِ سِرًّا لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَلَفْظُهُ: «وَكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِهِ، إِلَىٰ أَنْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ، قَالَ: فِيمَا بَلَغَنِي مِنْ مَبْعَثِهِ».

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ السِّرِّيَّةَ فِي الدَّعْوَةِ مَا جَاءَ فِي خَبَرِ إِسْلَامِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه؛ حَيْثُ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ مَا بُعِثَ وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَهُوَ حِينَئِذٍ مُسْتَخْفٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

بَدَأَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَنَبْذِ كُلِّ مَظَاهِرِ الشِّرْكِ، وَكَانَ تَحَرُّكُهُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ وَسْطَ الَّذِينَ تَرْبِطُهُمْ بِهِ صِلَاتٌ؛ كَزَوْجَتِهِ، وَأَبْنَائِهِ، وَمَوْلَاهُ، وَرَبِيبِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ، وَكُلِّ مَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَىٰ أَنَّهُ يَكْتُمُ السِّرَّ.

عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مَعْرِفَةَ الْيَقِينِ أَنَّهُ أَصْبَحَ نَبِيًّا لِلَّهِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ، وَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤].

كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ إِيذَانًا لِلرَّسُولِ ﷺ؛ بِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدِ انْتَهَىٰ بِمَنَامِهِ وَهُدُوئِهِ، وَأَنَّهُ أَمَامَهُ عَمَلٌ عَظِيمٌ، يَسْتَدْعِي الْيَقَظَةَ وَالتَّشْمِيرَ، وَالْإِنْذَارَ

وَالْإِعْذَارَ، فَلْيَحْمِلِ الرِّسَالَةَ، وَلْيُوَجِّهِ النَّاسَ، وَلْيَأْنَسْ بِالْوَحْيِ، وَلْيَقْوَ عَلَىٰ عَنَائِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ رِسَالَتِهِ وَمَدَدُ دَعْوَتِهِ.

وَتُعَدُّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَوَّلَ أَمْرٍ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، وَالْقِيَامِ بِالتَّبِعَةِ، وَقَدْ أَشَارَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَىٰ أُمُورٍ هِيَ خُلَاصَةُ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَالْحَقَائِقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ كُلُّهُ؛ وَهِيَ: الْوَحْدَانِيَّةُ، وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَطْهِيرُ النُّفُوسِ، وَدَفْعُ الْفَسَادِ عَنِ الْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ، وَجَلْبُ النَّفْعِ.

كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ تَهْيِيجًا لِعَزِيمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِيَنْهَضَ بِعِبْءِ مَا كُلِّفَهُ مِنَ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَيَمْضِيَ قُدُمًا بِدَعْوَتِهِ، لَا يُبَالِي الْعَقَبَاتِ وَالْحَوَاجِزَ، كَانَ هَذَا النِّدَاءُ الْمُتَلَطِّفُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إِيذَانًا بِشَحْذِ الْعَزَائِمِ، وَتَوْدِيعًا لِأَوْقَاتِ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، وَجَاءَ عَقِبَ هَذَا النِّدَاءِ الْأَمْرُ الْجَازِمُ بِالنُّهُوضِ؛ ﴿قُمْ﴾ فِي عَزِيمَةٍ نَاهِضَةٍ وَقُوَّةٍ حَازِمَةٍ، تَتَحَرَّكُ فِي اتِّجَاهِ تَحْقِيقِ وَاجِبِ التَّبْلِيغِ.

وَفِي مَجِيءِ الْأَمْرِ بِالْإِنْذَارِ مُنْفَرِدًا عَنِ التَّبْشِيرِ فِي أَوَّلِ خِطَابٍ وُجِّهَ إِلَىٰ النَّبِيِّ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ ﷺ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ؛ إِيذَانًا بِأَنَّ رِسَالَتَهُ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْكِفَاحِ الصَّبُورِ، وَالْجِهَادِ الْمَرِيرِ، ثُمَّ زَادَتِ الْآيَاتُ فِي تَقْوِيَةِ عَزِيمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَدِّ أَزْرِهِ، وَحَضِّهِ عَلَىٰ الْمُضِيِّ قُدُمًا إِلَىٰ غَايَةِ مَا أُمِرَ بِهِ، غَيْرَ عَابِئٍ بِمَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ مِنْ عَقَبَاتٍ مَهْمَا يَكُنْ شَأْنُهَا؛ فَقِيلَ لَهُ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أَيْ: لَا تُعَظِّمْ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْخَلْقِ، وَلَا يَتَعَاظَمُكَ مِنْهُمْ شَيْءٌ، فَلَا تَتَهَيَّبْ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِهِمْ، وَلَا تَخْشَ أَحَدًا

مِنْهُمْ، وَلَا تُعظِّمْ إِلَّا رَبَّكَ الَّذِي تَعَهَّدَكَ وَأَنْتَ فِي أَصْلَابِ الْآبَاءِ وَأَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ، فَرَبَّاكَ عَلَىٰ مَوائِدِ فَضْلِهِ، وَرَعَاكَ بِإِحْسَانِهِ وَجُودِهِ، حَتَّىٰ أَخْرَجَكَ لِلنَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، بَعْدَ أَنْ أَعَدَّكَ خَلْقًا وَخُلُقًا؛ لِتَحْمِلَ أَمَانَةَ أَعْظَمِ رِسَالَاتِهِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: فَكُلُّ تَعْظِيمٍ وَتَكْبِيرٍ وَإِجْلَالٍ حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ ﷺ: فَأَنْتَ عَلَىٰ طُهْرِكَ وَتَطَهُّرِكَ بِفِطْرَتِكَ؛ فِي كَمَالِ إِنْسَانِيَّتِكَ بِمَا جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَبِمَا حَبَاكَ بِهِ مِنْ نُبُوَّتِهِ؛ لِيُعِدَّكَ بِهَا لِيَوْمِكَ هَذَا، أَحْوَجُ إِلَىٰ أَنْ تَزْدَادَ فِي تَطَهُّرِكَ النَّفْسِيِّ، فَتَزْدَادَ مِنَ الْمَكَارِمِ فِي حَيَاتِكَ مَعَ النَّاسِ وَالْأَشْيَاءِ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ رَسُولُ اللهِ إِلَىٰ الْعَالَمِينَ، وَكَمَالُ الرِّسَالَةِ فِي كَمَالِ الْخُلُقِ الِاجْتِمَاعِيِّ، صَبْرًا، وَحِلْمًا، وَعَفْوًا، وَإِحْسَانًا وَدُؤُوبًا عَلَىٰ الْجِدِّ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ دَعْوَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا يَثْنِيكَ إِيذَاءٌ، وَلَا يُقْعِدُكَ عَنِ الْمُضِيِّ إِلَىٰ غَايَتِكَ فَادِحُ الْبَلَاءِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ ﷺ: لِيَكُنْ قَصْدُكَ وَنِيَّتُكَ فِي تَرْكِكَ مَا تَرَكْتَ، فِطْرَةً وَطَبْعًا هَجْرَهُ تَكْلِيفًا وَتَعَبُّدًا؛ لِتَكُونَ قُدْوَةَ أُمَّتِكَ، وَعُنْوَانَ تَطَهُّرِهَا بِهِدَايَةِ رِسَالَتِكَ.

بَعْدَ نُزُولِ آيَاتِ الْمُدَّثِّرِ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ الْإِسْلَامِ سِرًّا، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَكَّةَ

كَانَتْ مَرْكَزَ دِينِ الْعَرَبِ، وَكَانَ بِهَا سَدَنَةُ الْكَعْبَةِ، وَالْعِنَايَةُ بِشَأْنِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ الْمُقَدَّسَةِ عِنْدَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَالْوُصُولُ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنَ الْإِصْلَاحِ فِيهَا يَزْدَادُ عُسْرًا وَشِدَّةً عَمَّا لَوْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهَا، فَالْأَمْرُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ عَزِيمَةٍ لَا تُزَلْزِلُهَا الْمَصَائِبُ وَالْكَوَارِثُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تِلْقَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ فِي بَدْءِ أَمْرِهَا سِرِّيَّةً؛ لِئَلَّا يُفَاجَأَ أَهْلُ مَكَّةَ بِمَا يُهَيِّجُهُمْ.

وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَعْرِضَ الرَّسُولُ ﷺ الْإِسْلَامَ أَوَّلًا عَلَىٰ أَلْصَقِ النَّاسِ بِهِ وَآلِ بَيْتِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَدَعَا إِلَيْهِ كُلَّ مَنْ تَوَسَّمَ فِيهِ خَيْرًا مِمَّنْ يَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَهُ، يَعْرِفُهُمْ بِحُبِّ اللهِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَيَعْرِفُونَهُ بِتَحَرِّي الصِّدْقِ وَالصَّلَاحِ، فَأَجَابَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ- الَّذِينَ لَمْ تُخَالِجْهُمْ رِيبَةٌ قَطُّ فِي عَظَمَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَلَالِ نَفْسِهِ وَصِدْقِ خَبَرِهِ- جَمْعٌ عُرِفُوا فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ: زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَمَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ شُرَحْبِيلَ الْكَلْبِيُّ، وَابْنُ عَمِّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -وَكَانَ صَبِيًّا يَعِيشُ فِي كَفَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ-، وَصَدِيقُهُ الْحَمِيمُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، أَسْلَمَ هَؤُلَاءِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدَّعْوَةِ.

اسْتَمَرَّتِ الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، وَظَهَرَتْ أَهَمُّ مَلَامِحِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ، وَظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا فِي الْآتِي:

- تَمَيَّزَتْ فِيهَا جُهُودُ الرَّسُولِ ﷺ وَتَحَرُّكَاتُهُ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ بِالْخَفَاءِ فِي ذَلِكَ وَالسِّرِّيَّةِ فِيهِ، وَقَدِ اتَّضَحَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ حِرْصِهِ عَلَىٰ أَدَاءِ



عِبَادَتِهِ وَالْتِقَائِهِ بِأَصْحَابِهِ فِي الْخَفَاءِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ الصَّلَاةَ خَرَجَ خَارِجَ مَكَّةَ فِي بَعْضِ الشِّعَابِ؛ لِأَدَائِهَا مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ حِينَئِذٍ فِي وَقْتَيْنِ: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.

وَيُؤَكِّدُ تِلْكَ السِّرِّيَّةَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مَا قَالَهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي خَبَرِ إِسْلَامِهِ حِينَ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ مَا بُعِثَ وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَهُوَ حِينَئِذٍ مُسْتَخْفٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- تَمَيَّزَتْ -أَيْضًا- تِلْكَ الْمَرْحَلَةُ بِالتَّرْكِيزِ عَلَىٰ غَرْسِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَجْرِيدِهِمْ مِنَ التَّعَلُّقِ بِكُلِّ مَاسِوَىٰ اللهِ.

- وَتَمَيَّزَتْ بِعَدَمِ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ أَوِ الدُّخُولِ مَعَهُمْ فِي جِدَالٍ مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ.

- وَتَمَيَّزَتْ بِالِاقْتِصَارِ عَلَىٰ دَعْوَةِ مَنْ يَثِقُ فِيهِمُ الرَّسُولُ ﷺ وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

◉ ◉ ◉

الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ

الْمُسْلِمُونَ الْأَوَائِلُ، الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ، السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ:

اقْتَصَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ حَوْلِهِ، مِمَّنْ تَرْبِطُهُ بِهِمْ عَلَاقَةٌ حَسَنَةٌ، وَمَنْ يَتَوَسَّمُ فِيهِمْ الِاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ؛ لِمَا يَعْرِفُهُ عَنْهُمْ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَصِدْقِ الْقَوْلِ، فَهُمْ إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ فَعَلَىٰ الْأَقَلِّ لَنْ يُفْشُوا لَهُ سِرًّا.

وَدَخَلَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ فِي الْإِسْلَامِ أَقْرَبُ النَّاسِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الَّذِينَ عَاشَرُوهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَخَبَرُوهُ وَوَثِقُوا بِهِ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَجَابَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ: زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ، وَمِنَ الرِّجَالِ: صَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ، وَمِنَ الصِّبْيَانِ: ابْنُ عَمِّهِ وَرَبِيبُهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -عَلَىٰ صِغَرِ سِنِّهِ-، وَمِنَ الْمَوَالِي: مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ بِمُبَادَرَتِهِمْ نَالُوا شَرَفَ السَّبْقِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَتَشَرَّفُوا بِهَذِهِ الْمَكْرُمَةِ مِنَ اللهِ إِلَّا لِمَا لَهُمْ مِنْ صِدْقِ السَّرِيرَةِ وَالْبَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ.

فَخَدِيجَةُ: لَا يَخْفَىٰ مَا كَانَ لَهَا مِنْ بَذْلٍ كَرِيمٍ مِنْ مَالِهَا؛ مُوَاسَاةً لِرَسُولِ اللهِ

ﷺ، وَتَضْحِيَةٍ عَظِيمَةٍ بِوُقُوفِهَا إِلَىٰ جَانِبِهِ، وَتَثْبِيتِهِ، وَتَسْلِيَتِهِ فِي كُلِّ أَزَمَاتِهِ.

أَمَّا أَبُو بَكْرٍ: فَاشْتُهِرَ بِمُلَاصَقَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَتَأَثَّرَ بِأَخْلَاقِهِ حَتَّىٰ صَارَ يَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ مِنَ التَّقَرُّبِ لِلْأَصْنَامِ وَالتَّوَسُّلِ لَهَا، وَصَارَ بَيْنَهُمَا أُلْفَةٌ لَا تُدَانِيهَا أُلْفَةٌ؛ مِمَّا جَعَلَ أَبَا بَكْرٍ يَثِقُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيُصَدِّقُهُ، وَيُؤْثِرُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيَجْعَلُ مَالَهُ هِبَةً لَهُ يَتَصَرَّفُ بِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ فَوَرَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَفعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**»، فَبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ: وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْعُوهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَيُبَادِرُ دُونَ نَظَرٍ أَوْ تَرَدُّدٍ.

أَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَقَدْ هَيَّأَ اللهُ لَهُ الْأَسْبَابَ لِيَكُونَ مِنْ أَلْصَقِ الْفِتْيَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، حِينَ كَانَ وَالِدُهُ أَبُو طَالِبٍ كَثِيرَ الْعِيَالِ، قَلِيلَ الْمَالِ، فَطَلَبَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ عَلِيًّا؛ لِيَكُونَ عِنْدَهُ، وَيُنْفِقَ عَلَيْهِ؛ لِيُخَفِّفَ بِذَلِكَ مِنْ مُعَانَاةِ عَمِّهِ؛ لِذَا عَاشَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حِجْرِ الرَّسُولِ ﷺ مُنْذُ نُعُومَةِ الْأَظْفَارِ، وَتَأَثَّرَ بِهِ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ، وَأَحَبَّهُ، وَدَخَلَ فِيمَا جَاءَ بِهِ.

أَمَّا مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَقَدْ كَانَ لِحُبِّهِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَفْضِيلِهِ لِقُرْبِهِ، وَالْعَيْشِ مَعَهُ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ مَا أَهَّلَهُ لِنَيْلِ شَرَفِ السَّبْقِ؛ لِيَكُونَ أَوَّلَ مَوْلًىٰ يَدْخُلُ دِينَ اللهِ.

كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُبَادِرُونَ لِلْإِسْلَامِ أَوَّلَ مَنْ أَسَرَّ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِدَعْوَتِهِ،

وَأَوَّلَ مَنْ تَذَوَّقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَعَىٰ هَؤُلَاءِ بِدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ لِلدُّخُولِ فِي الدِّينِ الْجَدِيدِ، فَدَخَلَ عَلَىٰ يَدِ أَبِي بَكْرٍ عَدَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّىٰ تَكَاثَرَ عَدَدُ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ؛ فَبَلَغَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً، وَكُلُّ ذَلِكَ خُفْيَةً، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُ بِإِسْلَامِ بَعْضِهِمُ الْآخَرِ.

◉ ◉ ◉

مِنْ فَوَائِدِ مَا وَقَعَ فِي مَرْحَلَةِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ

وَمِنْ فَوَائِدِ مَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ السِّرِّيَّةِ:

- أَنَّ الْمُحْسِنَ يَلْقَىٰ جَزَاءَ إِحْسَانِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَأَكْرَمَ اللهُ أُولَئِكَ السَّابِقِينَ بِالرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مُبَادَرَتِهِمْ، فَخَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَوَّلُ مَنْ يُبَشَّرُ مِنَ اللهِ بِالْجَنَّةِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ، وَلا وَصَبَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَيَرْفَعُ اللهُ ذِكْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَهُوَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ، وَأَوَّلُ خَلِيفَةٍ لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ.

وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ يَرْفَعُ اللهُ ذِكْرَهُ بِالزَّوَاجِ مِنْ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَكُونُ لَهُ مِنْهَا سِبْطَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَسَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْفَعُهُ اللهُ بِحُبِّ نَبِيِّهِ ﷺ لَهُ؛ فَهُوَ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

مِنَ الْفَوَائِدِ أَيْضًا:

- مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْخَيْرِ، وَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ فَلَا يَقْصُرْ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَلْ عَلَيْهِ

أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُحِبَّ لِغَيْرِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَبِمِثْلِ هَذَا الْخُلُقِ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ؛ بَلْ وَيَنْتَشِرُ الْخَيْرُ وَيَنْحَسِرُ الشَّرُّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

كَانَ أَوَّلَ مَنْ بَادَرَ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ مِنَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنَ الْغِلْمَانِ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنَ النِّسَاءِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَمِنَ الْمَوَالِي: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْكَلْبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ عَفِيفٍ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ امْرَأً تَاجِرًا، فَقَدِمْتُ الْحَجَّ، فَأَتَيْتُ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِأَبْتَاعَ مِنْهُ بَعْضَ التِّجَارَةِ، وَكَانَ امْرَأً تَاجِرًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَعِنْدَهُ بِمِنًىٰ إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خِبَاءٍ قَرِيبٍ مِنْهُ، فَنَظَرَ إِلَىٰ الشَّمْسِ، فَلَمَّا رَآهَا مَالَتْ بَعْدَ الزَّوَالِ بِاتِّجَاهِ الْغُرُوبِ قَامَ يُصَلِّي، ثُمَّ خَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْخِبَاءِ الَّذِي خَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنْهُ، فَقَامَتْ خَلْفَهُ تُصَلِّي، ثُمَّ خَرَجَ غُلَامٌ حِينَ نَاهَزَ الْحُلُمَ -أَيْ قَارَبَ الْبُلُوغَ- مِنْ ذَلِكَ الْخِبَاءِ، فَقَامَ مَعَهُ يُصَلِّي، قَالَ: فَقُلْتُ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَبَّاسُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدُ ابْنُ أَخِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الْفَتَىٰ؟ قَالَ: هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا هَذَا الَّذِي يَصْنَعُ؟ قَالَ: يُصَلِّي، هُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ إِلَّا امْرَأَتُهُ وَابْنُ عَمِّهِ هَذَا الْفَتَىٰ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ سَتُفْتَحُ عَلَيْهِ كُنُوزُ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ، قَالَ: فَكَانَ عَفِيفٌ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ، يَقُولُ: وَأَسْلَمَ بَعْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، لَوْ كَانَ اللهُ رَزَقَنِي الْإِسْلَامَ يَوْمَئِذٍ، فَأَكُونُ ثَانِيًا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ

حَسَنٌ بِشَوَاهِدِهِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ مَا حَصَلَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنَ الْخُصُومَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَأَخْرَجَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ، وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ».

وَمِنْ أَوَائِلِ مَنْ آمَنَ بِرَسُولِ اللهِ وَصَدَّقَ بِهِ: وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَسُبُّوا وَرَقَةَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ**» أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ، وَالْحَاكِمُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

كَذَلِكَ مِنَ الْأَوَائِلِ: عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ، فَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ مَعَكَ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**ارْجِعْ إِلَىٰ قَوْمِكَ حَتَّىٰ يُمَكِّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ**»، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَرُبُعُ الْإِسْلَامِ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

كَذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا يَافِعًا -أَيْ: شَارَفَ عَلَىٰ الِاحْتِلَامِ- أَرْعَىٰ غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ بِمَكَّةَ، فَأَتَىٰ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ -أَوْ قَالَا- لِي: «**عِنْدَكَ يَا غُلَامُ لَبَنٌ**

تَسْقِنَا!»، قُلْتُ: إِنِّي مُؤْتَمَنٌ، وَلَسْتُ بِسَاقِيكُمَا، فَقَالَا: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ بَعْدُ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَمَسَحَ الضَّرْعَ وَدَعَا، فَحَفَلَ الضَّرْعُ، وَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ، فَحَلَبَ فِيهَا، ثُمَّ شَرِبَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ سَقَيَانِي، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: «**اقْلُصْ**» فَقَلُصَ -أَيِ: انْقَبَضَ فَانْقَبَضَ-، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الطَّيِّبِ -يَعْنِي: الْقُرْآنَ-، فَقَالَ: «**إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ**»، فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ، وَالطَّيَالِسِيُّ، وَأَبُو يَعْلَىٰ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

هَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلِإِسْلَامِ كُلٍّ مِنْهُمْ تَفْصِيلٌ يَأْتِي بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا، وَأَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهَدْيِهِ وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

● ● ●